

د / محمد سيد محمد

الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

الناشر

دار الفكر العربي

الإدارة : ٩٤ شارع عباس العقاد

مدينة نصر - القاهرة ت ٢٦١٩٠٤٩

حقوق الطبع محفوظة

الغلاف تصميم :

الفنان شريف رضا

مركز فجر لخدمات الطباعة

٢٤٠٤٢٠١ : فاكس ٢٤٠٤٢٠١ : ٢٤٠٤٢٠١

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴾

« الأنعام : ١٠٤ »

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة

الفصل الأول : ما الغزو الثقافي

الفصل الثاني : وسائل الغزو الثقافي وأساليبه

الفصل الثالث : المنشور الغربي وغزو العرب

الفصل الرابع : المواجهة : استراتيجيتها ووسائلها

خاتمة

مقدمة

قطعت رحلة شاقة وعسيرة لكي أصل إليك . نعم أنت أيها القارئ كنت على وجه التحديد مقصدي في هذه الرحلة الشاقة ، فحشدت نفسي ، وأتيت لك بموضوع لا يتصل بثقافتك فحسب أو بالمعرفة وحسب ، وإنما يتصل بوجودك . أن تكون أو لا تكون - على حد التعبير « الشكسبيري » المشهور - ألا وهو الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر .

ولا بد من الاعتراف بأن قضية الغزو الثقافي من القضايا المتشعبة . لا يستطيع بحث واحد أن يلم بكافة أبعادها في عالمنا العربي المعاصر . ولعل ذلك في حد ذاته مبرر لتحديد الظاهرة ، وإجلال أكبر قدر من أبعادها . وطرحها في دائرة الضوء . ووضعها على مائدة المناقشة ، وأن نظرق سبل مواجهتها . ومن البداية تبرز أمامنا عدة نقاط جوهرية تمثل أطارا عاما للدراسة .

*** أولاها :** أن أهمية موضوع الغزو الثقافي لا تعود إلى خطورته فحسب ، وإنما تعود أيضاً إلى أهمية الاتصال والتفاعل الثقافي وضرورته لنا . كيف يمكننا أن نفرز ببسر وحكمة وبصيرة الغزو الثقافي من الاتصال والتفاعل الثقافي ؟ وكيف نفرق بينهما ؟ إن السبيل السليم لتحقيق ذلك هو المحاولات المستمرة لتعميق المفاهيم وتأصيلها وتحليلها . وهذا ما تحاول هذه الدراسة أن تؤديه بصورة مباشرة وما تحاول دراسات سابقة لى أن تؤديه بصورة عامة وغير مباشرة .

هذا الهدف العام الذي تسعى هذه الدراسة إلى تحقيقه تتعلق به أهداف فرعية فرضتها الظروف المحيطة بالثقافة العربية المعاصرة . فلقد كان موضوع الغزو الثقافي موضع اهتمام الكتاب والمفكرين العرب والمسلمين منذ بدأ التدخل الأجنبي في المنطقة العربية . ولكن المعالجة كانت في أغلبها حماسية وخطابية . لذلك فإننا أمام ضرورة المعالجة الجديدة للموضوع . ومن الأهداف الفرعية التي فرضتها على البحث الظروف المعاصرة للثقافة العربية هي تتبع أساليب الغزو الثقافي بعد الاستقلال الشكلي لمعظم البلدان العربية . أما الظروف العالمية فقد أمدتنا بشورة باهرة في الاتصال جعلت للقضية أبعاداً شديدة التشابك . لذلك أصبح من الضروري ألا تشغلنا الشبكات المتشابكة ، وأن نحدد بشئ من الدقة الأبعاد الضرورية لقضيتنا دون أن نتوه في الشبكات وتشابكاتها . فلقد أصبح الإعلام المعاصر متغيراً جديداً في قضية الغزو الثقافي بسبب تقدم « تكنولوجيا البث » ، ونقل الرسائل الإعلامية ، وبسبب تزييف هذا الجانب من القضية وجدنا من يطلق على الإيجار والقسر في الحقل الإعلامي تعبير حرية التدفق الإعلامي .

وقد أثار عدد من الباحثين والمفكرين العرب قضية الغزو الثقافي من منطلق وجوده أو عدم وجوده . ويتلخص الجدل الذي دار بينهم في سؤال جوهري : هل الغزو الثقافي قضية

واقعية لها من الآثار ما يمكن أن نلمسه ونراه ونتحقق منه ، أم أن الغزو الثقافي مجرد وهم؟. وبين الرأي الذي يكاد ينكر وجود ظاهرة الغزو الثقافي والرأي الذي يهول من مخاطرها ويسرف في هواجس التأثير بها ، ويُضيق سبيل الاتصال والتفاعل الحضارى ، يكاد الباحث أن يضع يده على جوهر المشكلة بالنسبة لمجتمعاتنا العربية المعاصرة . ومن ثم فإن التساؤل الرئيسى فى هذا البحث هو كيف يميز القارئ العربى الغزو الثقافى وكيف يتجنبه ، وكيف يتعرف على الاتصال الحضارى وكيف يتفاعل معه ؟ ومن هذا التساؤل الرئيسى يطرح البحث عشرات التساؤلات التى تجيب عنها فصول البحث إجابات تحليلية .

*** ثانياً** أن مفهوم المجتمع فى هذا الصدد يعنى المفهوم الثقافى والعام . وعلماء الاجتماع^(١) يقولون لنا : إن الاجتماع الإنسانى ليس حشداً من الأفراد كيفما اتفق ، ولكنه اجتماع منظم له نظمه وأوضاعه وله أغراضه العامة . ومن الضروري أن تتدخل الإرادة الجمعية والعقل الجمعى لتنظيم المجتمع أياً كان نطاقه وطبيعته وفقاً للاتجاهات العامة وما يرتضيه شعور الجماعة وما تراه محققاً لأهدافها . ولأن كلمة مجتمع Society تعبر عن الإطار العام الذى يحدد العلاقات التى تنشأ بين الأفراد الذين يعيشون داخل نطاقه ، ولأن هذه العلاقات ينبغي أن تكون مستقرة ومنظمة وقائمة بصفة مباشرة وهذا لا يتوفر دائماً ، ولأن المجتمع الحديث يتميز بتعقيد جماهيره وهياكله وروابطه ، من أجل ذلك كله نجد معظم علماء الاجتماع يفضلون إستعمال مصطلحات أكثر دقة داخل الإطار العام للمجتمع . فهم يحددون مصطلح المجتمع المحلى Community للأفراد الذين يعيشون فى منطقة أو بيئة محدودة النطاق والمعال ، ويحددون مصطلح الجماعات Groups لعدد من الأفراد يمتاز بطابع خاص ، ويرتبط أعضاؤها بروابط معينة ، ويسعون إلى هدف مشترك ، ويكونون فى صلة دائمة ، مثل فريق الكشافة وفريق كرة القدم وغير ذلك . ويحددون مصطلح الجمهورية أو الزمرة ومجموعها الزمر Crowds مثل مشاهدى مواكب العرس ومواكب الاستعراضات العامة ، والمشترون فى المظاهرات العامة وما شابه ذلك . ويحددون مصطلح الجمهور The Public بأنه الحشد غير المنظم إرادياً وهو يتألف من أفراد تجمع بينهم أفكار ورغبات مشتركة ورأى عام موحد ، وليس بينهم اتصال مباشر لأنهم من الكثرة العددية بحيث يتعذر على كل منهم أن يقيم علاقات شخصية بينه وبين الآخرين . ويحددون مصطلح الدهماء The Mob أو الغوغاء بأنه حشود غير منظمة تسودها الجلبة والضوضاء ، وتؤثر فيها الانفعالات والعواطف والأفكار غير المنطقية ، وتخضع للأهواء والرغبات الفردية أكثر من خضوعها لفكر واحد ومشاعر موحدة ومواقف جماعية. ويحددون مصطلح المنظمات والهيئات الاجتماعية Associations بأنه عبارة عن طائفة من الأفراد يجتمعون فيما بينهم ويتنظمون بمقتضى دستور وقواعد

(١) فاروق محمد العادلى - المدخل إلى علم الاجتماع - دار الكتاب الجامعى - ١٩٨٩ م ، ص ٧ ، ٢٠ .

موضوعية ومحددة لتحقيق أهداف مرسومة وتنفيذ وظائف خاصة مثل الأحزاب والنقابات والجمعيات العلمية وغير ذلك . ويحددون مصطلح النظم الاجتماعية Social Institutions بأنها الأوضاع التي يصطلح عليها المجتمع لتنظيم العلاقات بين الأفراد في مختلف شئونهم ، وهي طرق التفكير والعمل السابقة في نشأتها وقيامها على وجود الأفراد مثل نظم الزواج والبيع والقضاء والمعايير والقيم الأخلاقية .

هذا التحديد الذي يضعه أماننا علماء الاجتماع داخل الدائرة العامة أو الإطار العام لمفهوم المجتمع تزيد من وضوحه . فنراه أشبه بالكرة الشفافة نعرف ما بداخلها ونستطيع أن ندرك التفاعلات التي يمكن أن تحدث بين العناصر الداخلية . ولقد عبر أحد علماء الاجتماع وهو « ألثوسر Althusser » عن هذا المعنى بقوله أن المجتمع موجود على هيئة عناصر كثيرة متشابكة مع بعضها وتتم بينها ممارسات مختلفة مثل الاقتصاد والسياسة و « الأيدلوجية » ، وتشكل هذه العناصر مجتمعة ما يوصف بالممارسة الاجتماعية .

والقاموس الذي وضعه نخبة من علماء الاجتماع العرب^(١) يؤيد هذا المعنى فسقى تعريف كلمة مجتمع Society نجد الاستخدامات الشائعة المثلة فيما يلي :

- أ - مجموع العلاقات الاجتماعية بين الناس .
- ب - تجمع للكائنات الإنسانية بين الجنسين ، ومن كل المستويات العمرية يرتبطون معا داخل جماعة إجتماعية لها كيان ذاتي ونظمها وثقافتها المتميزة .
- ج - النظم والثقافة التي تتحقق عند جماعة من الناس .

ويشير هذا المرجع إلى أن المجتمع جماعة الناس الذين لهم ثقافة مشتركة ومتميزة تحتل جزءاً إقليمياً محدداً ، وتتمتع بشعور الوحدة ، وتنظر إلى ذاتها ككيان متميز .

أما مفهوم المعاصرة في وصف وتحديد المجتمع العربي المعاصر فإن أوضح تجلية له في هذا البحث هي أن « خير تحديد لمفهوم المعاصرة هو البدء بالحاضر وتتبع أصوله أو مشكلاته إلى بداياتها .^(٢) » والعصر ليس شيئاً محدداً يشار إليه بقولنا هذا هو ، وإنما هو خضم من الأحداث والكائنات تتشابه حيناً وتتفكك حيناً آخر ، وهي ما تنفك في حركة دائمة تحذف منها وتضيف إليها . فإذا تحدثنا عن العصر من الوجهة الثقافية والنسبة إلى الثقافة العربية

(١) المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية ، تأليف نخبة من أساتذة قسم الاجتماع - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - ص ٤٥١ .

(٢) د . شكوى عياد - مؤتمر الأصالة والتجديد في الثقافة العربية المعاصرة الذي عقد في القاهرة من ٤ - ١١ أكتوبر ١٩٧١ - المنظمة العربية للثقافة والعلوم .

الحديث على وجه التحديد ، هو تلك الأفكار والأحداث التي تمس حياتنا وتثير اهتمامنا بغير تكلف وبغير تعسف^(١) .

وعندما ننظر في هذا الكتاب مفهوم المجتمع العربي المعاصر فإننا نستضيء في مفهومنا للمعاصرة بالشرح الذي بسطه علماء المسلمين لتفسير قول الله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . ذلك الشرح لكلمة « العصر » بأنها تعني الدهر وبأنها تعني الوقت وبأنها تعني صلاة العصر . هذا الاتساع للشرح في تفسير كلمة العصر في القرآن الكريم يعيننا على تصور معنى المعاصرة في قضية الغزو الثقافي بصفة خاصة ، وعلى تصور معنى المعاصرة في المجتمع بصفة عامة . لأن معنى المعاصرة في قضية الغزو الثقافي يشعل دوائر شديدة القرب ووقتياً متصلة بدوائر أبعد منها في الزمن متصلة بدوائر أكثر بعداً وعمقاً . وهكذا يصبح معنى المعاصرة في هذا الصدد مثل الدوائر التي يحدثها إلقاء حجر في ماء ساكن . وهذا ما يصدق على المجتمع عندما نصفه بالمجتمع المعاصر . وهذا أيضاً ما يجعل حديثنا عن الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر صالحاً للغد .

وتعبير المجتمع العربي المعاصر يتداخل فوق التراب العربي مع تعبير المجتمع الإسلامي المعاصر تداخلاً شديداً . والدكتور عبد العظيم رمضان^(٢) عندما يحلل ظاهرة المقاومة في الوطن العربي للغزوة الاستعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين من الميلاد يقول : « لقد تميزت المجتمعات العربية بأنها لم تكن مجتمعات عربية خالصة ، وإنما كانت مجتمعات إسلامية بالدرجة الأولى ، فقد تواجدت فيها إلى جانب العناصر العربية عناصر أخرى إسلامية من الشراكسة والأتراك والألبان وغيرهم شكلت أرستقراطية فوق كل الطبقات ، ورغم هذه الأرستقراطية لم تكن أرستقراطية قومية إلا أنها كانت أرستقراطية وطنية ، بمعنى أنها كانت تعتبر الوطن العربي وطنها الأول » .

وعلى حد تعبير - سعيد سليمان^(٣) - في ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي (١٩٨٥) لقد آن الأوان لنتطلع إلى حاضرنا هذا من خلال واقعنا المباشر ، ومن خلال الظروف التي نعيش بها في علاقاتنا مع الأمم المعاصرة ، أو ليس الحاضر على تأزمه هو الحقيقة الدائمة ، وهو حياة الأمة في شئونها اليومية وفي علاقاتها مع الدول والشعوب الأخرى ؟ أو

(١) د. زكي نجيب محمود - ثقافتنا في مواجهة العصر - دار الشروق - الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٨٩ - ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) د. عبد العظيم رمضان - الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة - دار المعارف - القاهرة ١٩٨٥ - ص ٣١

(٣) وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي - مسقط - سلطنة عمان - في الفترة من ١ - ٣ شعبان ١٤٠٥ هـ الموافق ٢١ - ٢٣ أبريل ١٩٨٥ م - الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض - المملكة العربية السعودية .

١٤٠٨ هـ الموافق ١٩٨٧ م - صفحة ١٩ .

ليس المحاضر هو الدائرة الممتدة للتراث من ماضيه وفيما سيثول إليه ؟ ويقول : إننى أرى أن
الوعى بالزمن المباشر هو المنطلق الصحيح لتحسس مقومات الهوية الثقافية ووضعها فى
إطارها الموضوعى . »

والدكتور يوسف القرضاوى^(١) يتساءل : ماذا تعنى المعاصرة ؟ ويجب قائلًا : يراد
بالمعاصرة أن يعيش الإنسان فى عصره وزمانه ، فى أفكاره وقيمه وسلوكياته ، فى انتصاراته
وهزائمه ، فى معصية أحداثه ، ومع أهله الأحياء المتحركين ، يفكر كما يفكرون ، ويعمل
كما يعملون . لا يعيش فى عصر مضى بما يحمل من تصورات وعقائد ، ومن قيم ومفاهيم ،
ومن أخلاق وتقاليده ، ومن شعائر وشرائع قد تكون صالحة للعصر وقد لا تكون . جوهر المعاصرة
إذن هو معاشة الأحياء لا الأموات ، والواقع المائل لا الماضى الزائل ، وأول دلائل المعاصرة أو
مقوماتها أن تعرف العصر الذي نعيش فيه معرفة دقيقة وصائبة . »

وليس فى المعاصرة قطيعة للماضى مهما بدا لنا من فارق زمنى بين السابق والآتى .
والدكتورة بنت الشاطئ^(٢) تؤكد الرابطة العضوية بين المعاصرة وجذورها فتقول :

« الفهم الشائع للمعاصرة فى مجالها الزمنى يتجه إلى أن نشغل بحاضرنا ومستقبلنا
دون التفات إلى ماض قريب أو بعيد يحجب عنا حركة سير الزمن ونبض العصر .

وحياة المفكر أو المثقف والأديب بوجدان زمنه وروح عصره ليست موضع جدل أو مناقشة
، ولا ينبغى فى تقديرى أن تكون مشار خصومة أو خلاف ، لكن شخصيتنا المعاصرة مشحونة
بميراث ماضينا لا يمكن عزله عنها أو بتره أو نبذه . وقانون الوراثة يتحكم هنا فى عقليتنا
وتفكيرنا وأمزجتنا ، مثلما يتحكم فى حياة كل كائن حى ، مادياً كان أو معنوياً . ومهما
يوغل الأديب أو المفكر المعاصر فى الماضى البعيد ليستوعب أبعاد الرؤية لما يشغله من قضايا
الفكر ، ولتحقق له الملايسة الوجدانية بالاندماج فى مسرح الأحداث التى يلمح اتصالها
بالحاضر ، بل مهما يغيب عن الزمان والمكان فى تأملاته الفكرية واستغراقه الوجدانى فيما
يطل عليه من العصور الخوالى ، فإنه يظل دائماً على اتصال حتمى وثيق بعصرنا الحاضر .
وليس من الضرورى أن يشعر المفكر أو الأديب بهذا الاتصال أثناء استغراقه فى تأملاته
الفكرية ورؤاه الوجدانية للماضى البعيد ، بل يتحقق هذا الاتصال تلقائياً دون قصد عامد ،

(١) د . يوسف القرضاوى . ندوة الثقافة العربية (الواقع وأفاق المستقبل) ١٢ - ١٥ أبريل ١٩٩٣ . جامعة قطر . كلية
الانسانيات والعلوم الاجتماعية . الدوحة .

(٢) د . بنت الشاطئ . الفكر الإسلامى وتحديات العصر الجديد ، منطق المعاصرة فى عالم متغير . جريدة الأهرام بتاريخ
١٩٩٣/١/٢٨ .

لأنه فى موقفه بين حاضر وماض ، يتجه إليه بتأثير شخصيته ، ولا مفر من أن يقع ظله على ما يقرأ من حديث الزمن الغابر وما يتمثل من رؤاه . وهو فيما يكتب لا يستطيع أن يصم سمعه عن أصداء العصر حوله تلاحقه حيثما اتجه ، وإذا التمس فى عزلته معايشة الأحداث الماضية التى جذبتة فإذنه يمضى إلى تلك العزلة بوجدان يلقى حظه المحتوم من مؤثرات شخصيته وبيئته وعصره » .

كذلك فإن مفهوم المجتمع العربى المعاصر يعنى بالضرورة المجتمع الإسلامى المعاصر . ولضرورة البحث ودقته اخترت المجتمع العربى نموذجاً لسببين :

السبب الأول :دراستى للتاريخ العربى المعاصر ، وقصور تحصيلى فى التاريخ المعاصر للبلدان الإسلامية ، والسبب الثانى : أن الغزو الثقافى الموجه ضد العرب فى صلبه موجه ضد الإسلام .

ولقد نهينا بعض الكتاب العرب ^(١) إلى حقيقة أن الغرب يفهم أفضل من بعضنا - للأسف - الارتباط الوثيق بين العروبة والإسلام ، ويفهم أن أنجع السبل لقتلها معا .. هو فصلها عن بعض ، أو الوقيعه بينهما ليفصلا بأيديهما ما شاء الله له أن يتصل .. ويستشهد الكاتب المصري جلال كشك بشاهدين من أهل الغرب فى اثبات ذلك . الشاهد الأول « مورويرجر » فى كتابه العالم العربى اليوم حيث يقول : « لقد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعنى قوة الإسلام ، ونفس الشئ يمكن أن يتكرر اليوم حيث يعزز الإسلام انتصارات واسعة فى أفريقيا » . والشاهد الثانى « هنريش كاستر » حيث يقول : ربما كان من الخطأ أن نخلط بين الإسلام والقومية العربية ، ولكن لا يقل خطأ عن ذلك أن نحاول التغاضى عن العلاقة الوثيقة بين الاثنين .

*** وثالثها أن الاطار العام لهذه الدراسة ، فرض ضرورة المزاوجة والتركيب بين عدة مناهج منسجمة لتحقيق أهداف البحث : فلقد سألت نفسى فى مطلع كتابة البحث هل هذه الدراسة ، دراسة استكشافية ؟ أم أنها دراسة وصفية ؟ أم أنها دراسة فى العلاقات السببية ؟ . ثم تبين لي أنها تكاد تجمع بين هذه الأنواع من الدراسات فى شكل مثلث يعبر كل ضلع من أضلاعه عن نوع الدراسة . ولقد سألت نفسى فى بداية البحث : أي مناهج البحث أنسب لهذه الدراسة ؟ فوجدت أمامى منهج البحث التاريخي ضروريا لتتبع الظاهرة فى تاريخنا العربى المعاصر . كذلك أحت على أداة تحليل المضمون فى تحليل منشورات الغزو الغربى للعرب . وعندما تصفحت أعداد صحيفة « العروة الوثقى » لاقتفى أثر معالجتها للغزو الثقافى ، ثم أقارنتها بصحيفة المسلم المعاصر ، وجدت نفسى استخدم منهج « المسح » والمنهج المقارن فى**

(١) محمد جلال كشك . مفاهيم إسلامية (الماركسية والغزو الثقافى) القاهرة . ١٩٦٥ - ص ٤٣ .

وقت واحد . وهكذا تبين لى أن المزاوجة والتركييب بين هذه المناهج المنسجمة جعل بحث الظاهرة يقتضى بحثها فى ضوء نظرة الأبعاد المتعددة . بمعنى معالجتها فى ضوء أكبر قدر ممكن من جوانبها التاريخية والعقدية والاقتصادية وغير ذلك ، حتى يمكن رؤيتها فى إطار كافة الظروف الموضوعية المحيطة بها .

بعد هذه النقاط الثلاث الجوهرية التى تحدد لنا إطار الدراسة ، ندخل فى هيكل البحث ، فنبدأ بالمصطلح . من أين جاء هذا المصطلح : « الغزو الثقافى » ؟ . لقد جاء إلى واقعنا العربى المعاصر ثقافيا وإعلاميا ولغويا مع ظاهرة الاستعمار الحديث الذى استولت فيه البلدان الأوربية على معظم الوطن العربى ، من أواخر القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن العشرين . وكانت هذه الظاهرة الاستعمارية * قد بدأت عالميا عقب بداية الكشف الجغرافية (١٤٩٢) حيث بدأت ظاهرة الاستعمار التى تطورت إلى موجات محمولة من الأوربيين للاستيلاء على البلدان الأفريقية والآسيوية بصفة أساسية والأمريكية ثم انضمت اليابان والولايات المتحدة إلى الدول الاستعمارية .

وراء هذه الظاهرة الاستعمارية تكمن أسباب عديدة : منها نهب الثروات والمواد الخام ، ومنها تحقيق مركز مرموق بين الدول القوية ، ومنها إيجاد أسواق لمنتجاتها . ومنها تأمين مصالحها الاستراتيجية والعسكرية . ولقد أدى التفاعل بين هذه الأسباب وغيرها إلى بلورة ذلك النموذج المعقد الذى سعى بالاستعمار . وكان من أشكاله الهيمنة الثقافية ، وكان من وسائله الهيمنة الثقافية .

ومن هنا برز هذا المصطلح : الغزو الثقافى . وعلى أساس هذا السياق الذى يؤكد مولد مصطلح الغزو الثقافى من رحم الاستعمار أو من خلال الظاهرة الاستعمارية نمسك ببداية مبررة علميا لدراسة الظاهرة فى واقعنا العربى المعاصر . ونفرق فى الوقت نفسه بين هذا المصطلح بمعناه الحديث وبين جوهره فى التاريخ وفى الصراع الإنسانى . كما نفرق بين الظاهرة الاستعمارية

* كلمة « امبريالىزم » Imperialism فى دوائر المعارف الغربية تعنى امتداد سلطة دولة أو أمة ونفوذها على أمم أخرى أو أراض أو جماعات من الناس . هذه الكلمة ترجمت فى اللغة العربية حديثا بكلمة استعمار . برغم أن الأصل اللاتينى « امبريوم » Imperium يعنى سلطة عسكرية ، ومن هذا اللفظ يرد لفظ امبراطور Imperator ومعناه قائد عسكرى له سلطة تتجاوز سلطة الحرب ، ويسمح له بممارسة هذه السلطة داخل مدينة روما ، ولم يكن لغير الامبراطور من القادة العسكريين ممارسة السلطة داخل مدينة « روما » . وربما يكون لفظ الاستعمار قريبا فى الترجمة من مدلول « كولونبالية » حيث أن الأصل اللاتينى Colonia يعنى مستوطنة فى منطقة نائية هاجر إليها عدد من المراطيين الرومان مع تبعيتهم للسلطة الرومانية . أما لفظ الاستعمار فله فى اللغة العربية معنى الإعمار أصلا . ولكنه فى لغتنا الثقافية والسياسية والإعلامية المعاصرة يحمل معنى الاحتلال والخراب والهيمنة .

الحديثة وبين جوهر الاستيلاء والاحتلال فى الحضارات القديمة ، بل والاغارة بين الجماعات والقبائل البدائية والقديمة .

وكان إجلاء المصطلح فى الفصل الأول ، بالإجابة عن السؤال الجوهرى : ما الغزو الثقافى ؟ وكانت الإجابة بتتبع الصورة الذهنية لهذا المصطلح فى كتابات العرب المعاصرين ، ثم رسم ملامح الصورة الذهنية للمفهوم نفسه عند الأمريكين ، ثم عند الكتاب الفرنسيين . ومن العلوم الطبيعية اقتبست مثلا ، ومن الأدب صورة ، يجلى لنا مفهوم الغزو الثقافى ، ويفرق بينه وبين الاتصال الثقافى . ويرشدنا للموازن والمقاييس التى بها تفرق بين النقيضين: الغزو الثقافى - والاتصال الثقافى .

وكان الهدف الرئيسى لهذا الفصل هو الإمساك بمصطلح الغزو الثقافى الذى يشبه الزئبق ، ووضع هذا المصطلح بأبعاده وأشكاله المتعددة أمام بصائرنا . كما يوضع الزئبق فى الأنبوبة الزجاجية لدراسة خواصه - لكى ندرس وسائله وأساليبه ، وما يتمخض عن ذلك بتقليب النظر فى جوانبه المختلفة .

وهكذا أسلمنى الفصل الأول إلى وسائل الغزو الثقافى وأساليبه عنوان الفصل الثانى . وفيه حاولت صياغة نموذج لوسائل الغزو الثقافى وأساليبه يقوم على محورين : المحور الرأسى خصصته لأهم الوسائل وهى ثلاث : الإعلام ، ثم التعليم ، ثم المنظمات وتشمل الشركات والنوادي والهيئات وما شابه ذلك . والمحور الأفقى خصصته لأهم الأساليب وهى ثلاثة أيضا الدوائر المتتابعة ، ثم أغماط الحياة ثم رواد التخريب . وبالتفاعل المستمر بين الوسائل والأساليب يحقق الغزو الثقافى أهدافه بطريقة تشبه الريح المركب أو تشبه المتوالية الهندسية .

وجاء الفصل الثالث فصلا توثيقيا ودليلا على الارتباط العضوى بين الغزو الثقافى والغزو العسكرى ، وكان عنوانه دليلاً عليه ، وهو : المنشور الغربى وغزو العرب . فتناولت منشور الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م . درست بايجاز الخلفية التاريخية ، ثم الدراسة الوثائقية ، ثم نص المنشور ، ثم تحليل المضمون فيه . وكذلك فعلت مع منشور احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ م . ومع المنشور البريطانى الذى طبع ولم يوزع على مصر عام ١٩٥٢ م . ومع المنشورات الإسرائيلية على لبنان عام ١٩٨٢ م . وذيلت هذا الفصل بملاحق لخطابات الصليبيين والتتار والبرتغاليين فى غزو العرب .

واختص الفصل الرابع والأخير بالمواجهة : استراتيجيتها ووسائلها . وفيه بدأت الحديث عن أهداف الغزو لأحدد استراتيجية المواجهة وأساليبها . وختمت هذا الفصل بالاتصال الثقافى لأنه ضرورة لنا لكى نعيش عصرنا وكى نعيش غدنا أفضل وأعمق وأكبر تأثيراً .

وكانت الخاتمة سطور التأمل لما أفضى به البحث من خلال فصوله الأربعة . وسطور التلمس للطريق الجديد الذى نخرج به إلى عالمنا نحن المعاصر لا إلى عالم الآخرين .

أما مصادر البحث ومراجعته فأرجو أن يلقى القارئ نظرة عليها فهي تبوح بما فيها من تنوع وثراء وأهمية . وكانت المقالات فى الصحف اليومية مصدراً نديداً للوثائق ودوائر المعارف وكتب المراجع فى بحثى هذا . وذلك لسببين : الأول هو اسهام المفكرين والكتاب فى الصحف إسهاماً لا يقل فى أهميته عن اسهامهم فى التأليف ، والثانى أن طبيعة العصر جعلت من الصحف رافداً غزيراً فى البحوث المعاصرة ، وبخاصة مثل هذا البحث الذى يشترك فيه القارئ مع الكاتب حواراً ومساجلة وانتباهاً .

وبعد .. لقد استغرق هذا البحث منى بضع سنين وكنت أظن فى مطلعته أننى سأنجزه قبل ذلك بسنوات . ولكن البحث دائماً إبحار من المعلوم فى المجهول ، وعندما ترسو سفينة البحث على الخاتمة ، وهى جزيرة الأحلام ، يبدأ الباحث فى الإعداد لحلم جديد عساه يكون خيراً لنا كافة .

والله المستعان وهو ولى التوفيق ،،،

د . محمد سيد محمد

الفصل الأول ما الغزو الثقافي

عندما وصف الشاعر العربي القديم (زهير بن أبي سلمى) الحرب قال :
وما الحربُ إلا ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وما هو عنها بالحديث المُرْجَمُ
متي تبعوها تبعوها ذميمةً وَتَضَرُّ إِذَا ضَرَبْتُمُوهَا فَتَضَرُّمُ
وهكذا أَدْخَلَ الشاعرُ مستعمية داخل إطار دلالة الحرب مباشرة ، ووضعهم أمام الصورة
الذهنية عن الحرب بغير تكلف في كناية أو استعارة .

هل نستطيع سلوك سبيل الشاعر الجاهلي في إيلاج القاريء المعاصر إطار دلالة
الغزو الثقافي مباشرة ، ووضع هذا القاريء أمام الصورة الذهنية عن الغزو الثقافي بغير
إلغاز في كناية أو استعارة ، وبغير تكلف ؟ .

لو أننا سلكتنا سبيل الملاحظة لما يَبْثُة إعلام الحضارة الغربية المعاصرة ، وما تنتجها هذه
الحضارة من إنتاج ثقافي ، لوجدنا أنه تعبير عن قيم وعن سلوك ، وتعبير عن بضاعة تشق
طريقها إلى أسواق العالم في صور أموال (ربا وقروض ومعونات) أو سلع مادية أو خدمات
، وسبيل الملاحظة هذا يقدم لنا النماذج أكثر مما يضع لنا التعريف ، أو هو يربط ما بين
الظواهر والأسباب .

ولو أننا سلكتنا مسلكا تاريخيا لَنُفَرِّزَ خيوط الغزو الثقافي في نسج الصراع البشري
منذ قتل قابيل هابيل إلى آخر نشرة أخبار نُشَاهِدها في التلفزيون أو نستمع إليها في
المذياع أو أخبار نقرؤها في أعمدة الصحف ، لوجدنا أن السبيل التاريخي يلتقي مع سبيل
الملاحظة في ميدان النماذج والأمثلة .

ماذا لو سلكتنا سبيل إقتفاء الأثر للصورة الذهنية ؟ ، وتبعنا مصطلح الغزو الثقافي
لدي المفكرين والكتاب المعاصرين ، وحللنا ونقدنا حصاد أعلامهم ، لنصل إلى دلالة واضحة
لمفهوم الغزو الثقافي ؟ ، ولنصل إلى صورة ذهنية عن هذا المسمى أو المصطلح أو التعريف ؟
أعتقد أنه السبيل الأساسي البارز أمامنا لنصل إلى ما نريد ، فليكن ذلك طريقنا الرئيسي
، وقدنا الطرق الأخرى بمدد يضرب الأمثال أو مدد يفسر العلاقات السببية .
يُعرف الدكتور عبدالله التركي (١) مفهوم الغزو الثقافي من منطلق إسلامي

(١) د . عبدالله عبدالمحسن التركي - تحديد مفهوم الغزو الثقافي - محاضرة ألقيت في ملتقى الفكر
الإسلامي التاسع عشر بالجزائر (شوال ١٤٠٥ بوليه ١٩٨٥) .

فيرى أنه « كل فكرة ، أو معلومة ، أو برنامج ، أو منهج ، يستهدف - صراحة أو ضمنا - تحطيم مقومات الأمة الاسلامية :العقدية والفكرية والثقافية والحضارية أو يتحرى التشكيك فيها ، والخط من قيمتها ، وتفضيل غيرها عليها ، وإحلال سواها محلها ، في الدستور ، أو مناهج التعليم ، أو برامج الإعلام والتثقيف ، أو الأدب والفن ، أو النظرة الكلية للدين والإنسان والحياة » .

والدكتور التركي يرى أن أسباب الغزو الثقافي الواقع علي المجتمعات الإسلامية هي:

- ١ - أن النضال السياسي والعسكري ضد الاستعمار في العالم الإسلامي لم يواكبه جهاد مماثل - من حيث القوة والوضوح والجد والشمول ، ضد آثار الاستعمار وقواعد نفوذه الثقافية .
 - ٢ - إن البدائل الثقافية التي تقررت - كثقافة وطنية - بعد رحيل الإستعمار ، كانت متأثرة بأفكار الغازي وثقافته يضم إلى ذلك « الثقافة الماركسية » وما تفرع عنها من أفكار ومصطلحات تدثرت بأردية وطنية في كثير من الأحيان والبلدان - قدمت نفسها كبديل للثقافة الرأسمالية الكنسية ، فأثربها قوم علي علم ، وتأثر بها آخرون دون أن يعلموا .
 - ٣ - الخلط بين العلوم التجريبية والمسائل الثقافية ، فاستقبلت فلسفات الحياة ومناهج الثقافة ومفاهيم الأدب والفن استقبال العلوم التجريبية: ترحيباً وقتلاً واستيعاباً وحرصاً .
 - ٤ - طبعت معالم النهضة المعاصرة وبخاصة في المدن بطابع دخيل ، وذلك لأن قيما سكانية أجنبية عديدة - متعارضة مع القيم السكانية الإسلامية - قد غزت فن المعمار الإسلامي ، وسبب ذلك أن مصمي العمارة والمدينة في العالم الإسلامي وهم يخططون ويرسمون لم يستصحبوا قيم الإسلام وثقافته .
 - ٥ - زاد الطين بلة التدفق الإعلامي الغربي وإعتماد الإعلام الإسلامي المحلي علي إنتاج الإعلام الغربي في كثير من مواده الإعلامية .
- والدكتور التركي يرى أن الغزاة حرصوا علي غزو العالم الإسلامي ثقافيا بأربع قضايا كلية هي :
- ١ - النظرة الغربية إلي الإنسان .
 - ٢ - النظرة الغربية إلي الدين .

٣ - النظرة الغربية إلى الحياة .

٤ - النظرة الغربية إلى السياسة والإقتصاد .

وهو يؤكد بأن مفهوم النظرة الغربية الذي يعنيه يشمل النظرة الماركسية أيضا .

وعندما وجهت صحيفة الجمهورية القاهرية في عام ١٩٦٨ سؤالا إلى نجيب محفوظ نصه (١) : هل تري أن هناك غزوا ثقافيا يجتاح العالم العربي ؟ .

قال : لا أحب أن أقرن كلمة الغزو بالثقافة ، قد يصح أن يكون سياسيا أو إقتصاديا ، أما الثقافة فهي حق لكل البشرية ، والإنسان هو الذي يحولها إلى غزو ، ولا يستحق كلمة الغزو إلا في حالة واحدة هي حالة تلقيه بسلبية بمعنى التأثير به دون أن تُناقش وتُنقَد وتجعله غداً صالحاً للنمو ، وربما المقصود بالغزو تلك الدعاية الإعلامية الموجهة لأغراض سياسية معينة ، وهي شيء غير الثقافة . لأن الثقافة نشاط إنساني قد يوجد أو ينشأ في بلد لكنه حق الجميع ، وهو بالتفاعل مع العقول في مختلف أماكن الأرض يجب أن يكون معينا علي الإنتاج الثقافي وإثراته .

ولما سألته الصحيفة عن الربط بين الإستقلال الفكري و الإستقلال الإقتصادي ؟ أجاب بقوله : لا شك أن الإستقلال الإقتصادي قد يعمل علي الإستقلال الفكري ، ولكن قد ينتج أو يوجد استقلال فكري مع عدم وجود استقلال اقتصادي ، ونحن نملك هذا الإستقلال الفكري لأننا غير قاصرين ، ونجيد معرفة ما هو في صالحنا وما في غير صالحنا ، والقضية هي أن نربي أجيالنا تربية استقلالية ، بمعنى أن يتأثروا وينتفعوا دون أن يكونوا في حالة سلبية يتلقون بدون نقد وبدون تفكير .

ومن الكتاب (٢) من يعرفه بأنه الأسلوب الجديد «للامبريالية» العالمية الذي تحاول من خلاله ضمان استمرار هيمنتها وسيطرتها علي البلدان النامية ، من خلال ما أطلق عليه بعض المنظرين الأمريكيين (البعد الرابع) ويعنون به إحكام النفوذ من خلال الثقافة بإعتباره بعداً جديداً ، يضاف إلي أبعاد السيطرة السابقة : الاقتصادية ،والسياسية ،والعسكرية ، ومن خلال التغلغل الثقافي ، يتم نشر مفاهيم ثقافية وفكرية معينة ، تخدم وجود الدولة «الامبريالية» ، حيث يتم مسخ الثقافة الوطنية ، وتشويهها ،والاقتناع بأنها ثقافة متخلفة لاتواكب العصر ومتطلباته الحضارية ، فيصبح كل ما هو أجنبي له السيطرة والتفوق ، وهو المثال والنمط الذي يجب أن يقلد في ميادين الحياة كافة ،الأدب والفن والموسيقى

(١) جريدة الجمهورية - بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٨٦ .

(٢) د . أحمد أبو مطر - الشخصية القومية وهجوم الغزو الثقافي - مجلة الناقد - العدد ١٧

بتاريخ نوفمبر ١٩٨٩ .

وتقاليد الحياة اليومية، من المسكن والمأكل والرقص ولغة التخاطب، أو كما عبر عن ذلك الطبيب صالح في روايته (موسم الهجرة إلى الشمال) بقوله: «لقد أسسوا المدارس ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم». وبعد سنوات من هذه الممارسات والتغلغل الثقافي، تصبح ثقافة البلد (ثقافة تابعة) للنمط الأجنبي، وليست (ثقافة وطنية) تعبر عن خصائصها وسماتها القومية، لذا فإن الغزو الثقافي من أحدث الأساليب «الامبريالية» لضمان فرض الهيمنة والتبعية، لأن غزو العقول أخطر من غزو الأرض، لأنه غزو غير منظور وغير مباشر، مما يعني أن مكافحته أصعب وأقسى، ويلاحظ أن الغزو الثقافي أو «غزو العقول» ملازم للقوة السياسية والعسكرية والاقتصادية، مما جعل الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الأقوى في استعمال هذا الأسلوب، وهذا ما يفسر العدد الهائل للوكالات والادارات والأجهزة الأمريكية العاملة في خدمة هذا الميدان، وصولاً إلى هيمنة النمط الأمريكي في السلوك والتفكير على أوسع بقعة في العالم، بما فيها أوروبا ذاتها».

ومن الكتاب (١) من يفرق بين مفهوم الغزو الثقافي، والاحتكاك المطلوب بين الحضارات، فيفرق بين جانبيين: جانب الثقافة الإنسانية الرفيعة التي تحمل بطبيعتها قيماً إيجابية، وجانب آخر ينذر بالخطر وهو البضاعة الرديئة التي تتزين بزى ثقافي وهي من الثقافة الحقيقية براء. والثقافة الإنسانية الرفيعة تحمل بطبيعتها قيماً إيجابية ففي ميادين الأدب والفن والفكر لا يصح أن تثار فكرة مثل الغزو الثقافي، لأن الأمر هنا هو تبادل خلّاق، ولا يتصور قيام ثقافة بإنغلاقها على ذاتها، وطردها لعوامل التأثير، أي التفاعل النشط في جو من إحترام الحرية وتقدير المسؤولية في وقت واحد.

والدكتور أحمد عبدالرحمن إبراهيم (٢) يختار تعبير الإحلال الثقافي لأنه أكثر دقة - في رأيه - عن تعبير الغزو الثقافي، ومن خلال هذا الاختيار يُقنّد الرأي القائل بأن الغزو الثقافي مجرد شبح لا وجود له، ومن خلال هذا التّفنيد يَسوقُ حِشَيَات من التاريخ الحديث على النحو التالي:

● «إن لفظ (غزو) في هذا السياق لا محل له لأنه استعمال أريد له أن يُفهم على نحو مجازي، ولا ينبغي أن يكون للمجاز مكان في تقريرنا للحقائق الموضوعية أو الظواهر

(١) إدوارد خياط - جريدة الجمهورية - بتاريخ ٢٧ - ١ - ١٩٨٦.

(٢) د. أحمد عبدالرحمن - الغزو الثقافي. هل هو شبح أم حقيقة؟ جريدة الأهرام بتاريخ ١٣ / ١٢ /

الثقافية والعبارة الصحيحة التي تصدق على الظاهرة موضع النظر هنا ، هي (الإحلال الثقافي) وأعني به المحاولات الرامية إلى إحلال الثقافة الأوروبية محل الثقافة الأصلية . ويلاحظ المشتغلون بالثقافة وتغيرها وتطورها أن الإحلال يمثل مكوناً باطنياً في الثقافات البشرية فالثقافة - أية ثقافة - تميل بطبيعتها إلى التوسع وإلى تنحية الثقافات المنافسة جانباً ، والإنفراد بالنفوذ الفكري والاجتماعي والفني والأخلاقي .

● والدارسون لتاريخنا المصري الحديث يعلمون أن عملية إحلال الثقافة الأوروبية محل ثقافتنا الأصلية لم تجر ضمن حدود التنافس الحر بين الثقافتين ، وأن تدخلاً مؤثراً واسعاً قد حدث لصالح الثقافة الأجنبية ، على أيدي الفرنسيين الفاتحين في نهاية القرن الثامن عشر ، فلقد أدخل بوناپرت من (اليدع) الكثير ، الأمر الذي كان سبباً في ثورات المصريين عليه ، كما يقرر (كريستوفر هيرولد) وكما قرر (الجبرتي) (ونقولاً الترك) من قبل . ويذكر هؤلاء المؤرخون أن بوناپرت حاول (ربط الشعب المصري بالعادات والنظم الفرنسية) وأن الجنود الفرنسيين أسهتوا استهتاراً خطراً بالأداب العامة وأن النساء خرجن (خروجاً شنيعاً مع الفرنسيات) ، وبقيت مدينة مصر (أى صارت مدينة القاهرة) مثل باريس في شرب الخمر والمسكرات ، والأشياء التي لا ترضي رب السماوات . وأنشأ الفرنسيون بعض الحمامات في المساجد وكان المصريون يتمنون الموت كل ساعة من شدة الحنق والغبط .

● وربما قال القائل إن هذا كله لا يعدو أن يكون مسلماً عادياً من جند فاتح غشوم ، وليس فيه إحلال ثقافي ، ولا زلزلة للقيم الأصلية ، ولا تزويجاً للعادات والأخلاق الفرنسية المناقضة ، ونقول له حسبك فلا يزال هناك الكثير ، المصريون المعاصرون للأحداث أدركوا أنها عملية (فرنسية) لمصر ، والمؤرخون يشهدون بصدق إدراكهم ، ونحن لا يسعنا إلا أن نقرر أنها كانت عملية إحلال ثقافي اصطناعي مخطط وليس مجرد تنافس حر (طبيعي) بين ثقافتين .

● وإذا أردنا الحصول على نسخة مكبرة لهذا الإحلال الاصطناعي ، فأمامنا «كمال أتاتورك» في تركيا ، لقد أعلن أتاتورك حرباً حقيقية على كل مظهر أو أثر أو شخص من شأنه أن يذكر الناس بثقافتهم الأصلية ، نكل بالزعماء والقادة ، وساق أتباعهم إلى أعواد المشانق . وبهذا تمت أوسع عملية إحلال ثقافي اصطناعي في التاريخ شملت العقائد ، والتشريع ، والنظام السياسي ، والأخلاق ، والعادات ، والأبجدية ، والشعائر الدينية ، والأزياء ، وكل المظاهر الثقافية الأخرى .

● ونعود إلى ديارنا لننظر جامعاتنا الحديثة ودورها في عمليات الإحلال الثقافي ، لقد خطط المخططون للجامعة المصرية بحيث تكون طليعة متقدمة للثقافة الأوروبية في مناهجها ، وتنظيمها وأساتذتها وطبقاً لهذه النظم والمناهج وعلى يد هؤلاء الأساتذة تخرجت فيها ألوف

من الذين فتحت عيونهم علي فكر أوربي، قديم أو جديد، حتي سبقت إلي خواطهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه، لأن عيونهم لم تفتح علي غيره لثراه حسب توصيف الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود. ويستطرد أحمد عبدالرحمن قائلا : وأنا أتأمل هذا التوصيف الحاسم الصريح فألقا يصدق علي القسم الذي تخرجت فيه إلي حد بعيد - وهو قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة عين شمس ، فقد قدم لنا القسم الفلسفة الأوربية ابتداء من «طاليس» و«أنكسمندريس» إلي «هيدجر» و«سارتر» ، وغفل عن ابن تيمية وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ودرسنا منطق أرسطو وحرمانا من دراسة نقد ابن تيمية له . وتخرجنا وفيينا من يظن أن جمال الدين الأفغاني هو سفير باكستان في القاهرة ، ومحمد عبده لاعب كرة في نادي الترسانة الرياضي. تخرجنا وكلنا مصاب بالعمورالثقافي ، وبالانفصال الشبكي تجاه الحياة الثقافية في بلادنا ، في القديم والحديث علي السواء .

ومن الكتاب (١) من يُصحح المفهوم - فيما يرى - فيقول بأنه لا يوجد غزو ثقافي لأن المعرفة شيء متوارث لا يختص به شعب دون شعب وإلا توقفت حركة الإستمرار الحضاري ، وأن هناك حوالي عشرين حضارة سبقت الحضارة المعاصرة ، وظهرت في أماكن متعددة من العالم ، وكل حضارة تراث ما سبقها وتضيف إليه ، ويقول : ولكن أحب أن أصبح الكلمة ، الغزو الذي نتعرض له غزو إعلامي لثقافي ، والإعلام جزء من معركة السياسية ، الذي يؤهل لها الانتصار علي الإنسان نفسه ، وقهر قواه المعنوية ، وقد أستعمل هذا زمناً طويلاً ، ولعل أبرزه ما عرفناه بأسم «الطابور الخامس» في الحرب العالمية الثانية .

ومنهم (٢) من يقطع بأننا واقعون تحت استعمار ثقافي ، وأنه عندما بدأت أوربا تستيقظ من الغزو العربي ، وبعد أن علمتهم الحروب الصليبية استخدام الإستعمار الثقافي مع الإستعمار السياسي فأرسلوا بعثات المستشرقين التي ظاهرها الاهتمام الزائد بالعرب ، لكن معظمها كان يعمل علي تغيير الفكر العربي لاستعمار ثقافي ، تمهيداً للاستعمار السياسي ، ويقول : لقد تخلصنا من الاستعمار السياسي ونحاول الآن التخلص من الإستعمار الإقتصادي ، ولكن ما زلنا واقعين تحت الإستعمار الثقافي : فلا توجد تراثية مطلقة ، ولا تغرب مطلق ، قد يتغلب جانب علي الجانب الآخر لكن الاثنين موجودان .

ومن الكتاب من يطرح السؤال المباشر : ماذا أعني بالغزو الثقافي ؟

ويجيب : « إنني أعني بالضبط ذلك التفاعل غير الحر وغير المتكافئ المفروض بقوة نوايا الغزو وذلك بقصد واضح هو التأثير بشكل ما ، مقصود ومخطط ، يمارسه شعب في ظروف

(١) فاروق خورشيد - جريدة الجمهورية بتاريخ ٢٠ / ١ / ١٩٨٦ .

(٢) د. محمود ذهني - جريدة الجمهورية بتاريخ ٢٠ / ١ / ١٩٨٦ .

تملكه لكل وسائل التقدم على شعب آخر في ظروف اقتضاه لمعظم وسائل هذا التقدم ، بقصد الالحاق الحضارى ، وفي المجال الثقافى فإن أخطر حلفاء الغزو الثقافى من الخارج هو التبعية الثقافية من الداخل التى تتضافر فيها عقد النقص أمام الأجنبى مع ظروف التخلف الداخلى ، حتى يصل الأمر إلى حد قد لا تعود معه القوة الخارجية بحاجة إلى أى مجهود إضافى لفرض سيطرتها الثقافية (أو غير الثقافية) ، بل تكتفى فى مرحلة ما بالتبعية الثقافية التى تكون دائرتها قد أحكم إغلاقها تماما ،، (١) .

والدكتور « برهان غليون » (٢) يقول إن مفهوم الغزو الثقافى يستخدم - فى مطلع العقد التاسع من القرن العشرين الميلادى - فى اللغة العربية أكثر من غيره للإشارة إلى حركة انتقال الأفكار والعقائد، والقيم والعادات الغربية بشكل مكثف وغير مسيطر عليه إلى المجتمعات العربية. ثم يمضى الدكتور « برهان » فى تعريف مصطلح التبعية الثقافية فيقول بأنها نمط العلاقة التى تجعل بعض الثقافات تعتمد اعتماداً بنىوياً فى إنتاج القيم والمعانى والأفكار والمعارف التى تحتاج إليها مجتمعاتها على ثقافات أخرى تمارس تجاهها سيطرة ما ، سواء كان ذلك بسبب تفوق هذه الثقافات الموضوعى فى مقدرتها على مثل هذا الإنتاج أو بسبب إنعدام الثقة بالنفس لدى الثقافات الضعيفة ، وقد أطلق المفهوم بشكل أساسى على العلاقة بين الثقافات التقليدية والثقافات الغربية الحديثة ، ولكن التبعية ترتبط أيضاً بالظواهر التى تفرزها علاقات التبعية هذه من إنعدام الإنساق داخل الأنساق الثقافية التابعة ، والميل نحو التحلل والتفكك الثقافى ، فالتبعية بما تمثله من علاقة غير متكافئة وسطوة معنوية للثقافات السائدة ، تُفرغ الثقافة المحلية من قيمتها الذاتية، وتجعل أنظمتها ولوائحها وأفكارها ورموزها جميعاً مفتقرة للصدق فى نظر أصحابها ، ومن هنا فإنها تدفع بالضرورة إلى نشوء ظواهر الإغتراب ، واهتزاز الشخصية، وأزمة الهوية، وليس التأكيد المتزايد على الهوية الثقافية لدى الشعوب النامية فى الربع الأخير من القرن العشرين إلآرد الفعل المباشر على هذه الأزمة ومشاعر القلق والخوف على الذات الثقافية.

والدكتور محمد عمارة فى كتابه « الغزو الفكرى وهم أم حقيقة لا يضح تعريفها مباشراً لهذا المصطلح ، ولكنه يضع تصوراً شاملاً يجلى به وجه الحقيقة فى هذا الموضوع ، ويبدأ بقوله: إذا تصورنا وطننا من الأوطان ، بحدوده الجغرافية السياسية وشهدنا تحرك جيش هذا

(١) سليم سحاب - أثار الغزو الثقافى فى الموسيقى العربية - مجلة البحوث العدد ١٤ بتاريخ ابريل

١٩٨٥ - بغداد - المركز العربى لبحوث المستمعين والمُشاهدين .

(٢) د. برهان غليون - الثقافة العربية بين التبعية والتبادل - جريدة الخليج بتاريخ ٢٠ / ١٢ / ١٩٨٩

الوطن أو مواطنيه داخل هذه الحدود فلن يكون ثمة مجال لحديث عن « غزو » لهذا الوطن لأن الحركة طبيعية ،فى الاطار الطبيعي للحدود الطبيعية. ثم يقول الدكتور عمارة : كذلك ،إذا تصورنا الخريطة السياسية لـ «الدول» التى تقتسم أرض الكوكب الذى عليه نعيش ،ثم نظرنا إلى حركة الهواء وتيارات الرياح ،التي تعبر «حدود» هذه الدول ،وكذلك التيارات المائية التى تأتى إلى «المياه الاقليمية» من المياه الدولية ،فلن يتسنى لقائل أن يصف عبور الهواء والماء لهذه الحدود بأنه غزو يستدعى المنع والانتكار والإستنكار، ثم يتساءل : هل الفكر على هذا الكوكب الذى نعيش فيه بمثابة الهواء والماء لا يعرف ولا يعترف بالحدود ،ومن ثم فإن عبوره - سواء أكان بالهدوء أو بالاحتحام - لحدود الدول والأوطان ،لا يحمل شيئاً من سمات «الغزو» التى تستدعى المقاومة ؟ أم أن هذا الفكر هو بمثابة «الجيش» لا بد وأن يلزم إطار وطنه وحدوده ،فإذا تعدى الحدود كان غزواً يستحق المقاومة والإجلاء ؟ وإلى هذه النقطة يصل الدكتور عمارة إلى سؤال وسط هو : أم أن من هذا الفكر ما هو بمثابة الهواء - الماء ،لا يعرف ولا يعترف بالحدود والسدود والقيود - ومن ثم فإن عموم لوجه الكرة الأرضية بدولها وأوطانها المتعددة لا يعد غزواً. ومنه ما هو بمثابة الجيش لا بد وأن تتخصص حركته وتختص حريته بحدود دولته، دون أن يتعدى هذه الحدود ؟ هذا التصور يراه المؤلف مدخلاً للإجابة عن السؤال : الغزو الفكرى وهم أم حقيقة؟.

ويدافع عن هذا التصور بقوله إن الذين يفكرون ويستنكرون وجود الغزو الفكرى معتبرين الحديث عنه مجرد وهم من الأوهام ،إنما ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتباره وطناً واحداً لحضارة واحدة يسمونها حضارة العصر أو الحضارة العالمية ،ويتصورون الأمم والشعوب والقوميات مجرد درجات ومستويات فى البناء الواحد لهذه الحضارة الواحدة ، ولهذا فإن عبور الفكر - كل الفكر - الحدود - كل الحدود - ليس فيه ،عندهم ،شبهة غزو ولا أثر عدوان . ويستطرد بقوله أما الذين يُفكّرون أن يكون عالم اليوم ليس وطناً حضارياً واحداً لحضارة عالمية واحدة ،فإنهم يدعون إلى ضرورة احترام الحدود الحضارية ،لأن العالم فى تصورهم ،هو أقرب ما يكون إلى منتدى عالمى لحضارات متميزة ،تشارك أهمها فى عضوية هذا المنتدى ،ومن ثم فإن بينها ما هو «مشارك حضارى عام» ،وأيضاً فإن هذه الأمم تتمايز حضارياً ،الأمر الذى ينفى الوحدة الحضارية ،ويستدعى الحفاظ على «الهويات» الحضارية المتميزة ،لالمجرد الحفاظ عليها - رغم أهميتها - إنما لأسباب وطنية ،وقومية وعقدية ،هذه الأسباب تؤدى دوراً فى إنهاض الأمم من كبواتها وتراجعها ،وفى شحنها بالطاقة المحركة للإبداع كذلك فإن الاعتراف بالتعددية الحضارية يكشف روح الهيمنة والعدوان والإستعلاء التى تخفيها الحضارة المتغلبة فى عالمنا المعاصر وهى الحضارة الغربية تحت ستار وحدانيتها وعالميتها ،وفى الوقت نفسه يجنب الأمم المستضعفة مأزق الحضارة الغربية فلاتعم مأساته كل بنى الإنسان .

وبناء على ذلك فإن الذين يعترفون بوجود الغزو الفكرى وينبهون إلى مخاطره يؤكدون على أن عالمنا أقرب ما يكون إلى متندى عالمى لحضارات متميزة وأن الأمم المستضعفة حضارياً لابد لها من النضال الحضارى ضد نزعة التفرد والهيمنة التى تقارسها الحضارة الغربية المتغلبة. ومن ثم فإن هناك حالات فى رأيهم - لتعدى الحدود الحضارية تمثل غزواً فكرياً لاشك فيه .

والدكتور عمارة يرى أن الواقع - مع الفطرة - ينهض شاهداً على صدق هذا الرأى الأخير ، فيقول إن التمايز الحضارى والتعددية الحضارية التى لا تنفى واقع المشترك الإنسانى العام هى المذهب الذى يلتزم به ويؤكده ويبشر به . وهو ينكر تصور العالم وطناً حضارياً واحداً لأنه طريق التبعية الحضارية الذى يحولنا إلى هامش لحضارة الغرب ، والدكتور عمارة يذكر أيضاً تصور العالم بأنه حضارات منعزلة تماماً ، ومكتفية بذاتها كلية ، لأن هذا التصور يتجاهل الواقع المتمثل فى المشترك الحضارى الإنسانى ، وفى الوقت نفسه يقود الأمم التى تفرض العزلة الحضارية على نفسها إلى ما يشبه الانتحار الحضارى إلى جانب عدم إمكانية سلوك مثل هذا الطريق مع ثمرات ثورة الاتصال التى تقتحم مغاليق النواذ والأبواب على الأمم والشعوب

ويخلص الدكتور عمارة إلى الموقف الوسط أو الموقف العدل الذى يرى أن من الفكر ما هو بمثابة الجيش لابد أن تلتزم حركته الحدود ، وإلا كانت هذه الحركة غزواً فكرياً تستوجب الرفض والصد والمقاومة والتحصين ، ومن هذا الفكر ما هو بمثابة الهواء لن يؤذى منعه من عبور الحدود - على افتراض تصور إمكانية هذا المنع - إلا إلى الاختناق .

والدكتور عمارة يضع كل العلوم الطبيعية والتجارب الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات والخبرات ضمن المشترك الإنسانى العام . ويضع العلوم التى تتخذ النفس الإنسانية موضوعها سواء فى الآداب أو الفنون أو العلوم ضمن الفكر المتميز بالخصوصية الحضارية وبأطار حضارى بعينه ، وتتميز مكوناتها وطبائعها ومفاتيح عوالمها بتميز المذاهب والبيئات والفلسفات والمعتقدات . ويصل الدكتور عمارة إلى نتيجة أو حكم أو يضرب مثلاً ، وهو أن العالم أو المثقف المسلم لن يشعر بأى قدر من الثُور أو الغربة أو الاستغراب ، إذا هو نظر فى الحقائق والقوانين التى أبدعتها الحضارة الغربية فى الكيمياء والطبيعة والجبر والحساب والهندسة والطب والطاقة وغير ذلك ، وكذلك عندما يضع حقائق هذه العلوم فى الممارسة والتطبيق - كما أنه مستطيع - دونما حرج أو تعديل - أن يبدأ إبداعاته وإضافاته فى ميادين هذه العلوم من حيث انتهى الإبداع الغربى فى ميادينها ، لأنه أمام فكر هو مشترك إنسانى عام ، لكن هذا العالم والمثقف لن يجد هذه الألفة عندما ينظر فى كثير من المكونات الثقافية التى هى طبيعية فى إطارها الغربى ، فننون الغرب التى تحترم العرى ، بل تقيم تماثيله فى الميادين

والمختنزهات، وفلسفات هذا الغرب التي لا تحرم الحرية الجنسية طالما خلّت من الجبر والإكراه والإغتصاب، ولا تعيب حرية الزندقة والإلحاد، ولا الدعوة إليهما والتبشير بهما والتي تؤسس علومها الإجتماعية والسياسية والإقتصادية على النزعة المادية التي ترى فى الإنسان سيّداً لهذا الكون والمحور الحاكم باطلاق فى هذا الوجود. هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والآداب وما ماثلها لا بد وأن تشير فى نفسى العالم والمثقف المسلم من النفور والغربة والغربة ما لا يجده عندما ينظر فى إبداع الغرب بمبادئ علوم المادة وظواهر الطبيعة، لأنه أمام هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والآداب يجد نفسه بازاء خصوصية حضارية غريبة .

وقد سبق للدكتور محمد عمارة أن كان مباشراً فى وصف الغزو الثقافى وإن لم يستخدم كلمتى الغزو والثقافة حيث ذكر « أنه منذ بدء الهجمة الإستعمارية الحديثة على ديار العروبة والاسلام وضحت نوايا وأهداف هذه الموجة من موجات التحدى، وتميزت عن غيرها من الموجات التى ابتليت بها أمتنا عبر تاريخها الطويل، فهى لا تنبغى فقط : السيطرة على التجارة الدولية، ولا تقنع بالنهب الاقتصادى الإستعمارى ولا تكتفى بتفتيت وطن أمتنا، لتحول دون وحدتها فقوتها فنهوضها ولا تنقف أطماعها عند تحويل شرقنا العربى والاسلامى إلى هامش أمن للغرب، لا تكتفى هذه الهجمة الإستعمارية بكل ذلك، بل إنها تسعى إلى سحق شخصيتنا القومية الخاصة، ومسح هويتنا الحضارية المتميزة، والحيلولة بين أمتنا وبين استعادة استقلالها الحضارى المفقود ورأت فى تحويلنا إلى هامش حضارى للغرب، الضمان لبقائنا هامشاً فى الأمن والإقتصاد (١).

ولمزيد من وضوح الصورة الذهنية عن مفهوم الغزو الثقافى فى البحث لابد من إجماع معنى الإتصال الثقافى، لأن الخيط الفاصل بينهما هو الخيط الذى يحدد هوية كل منهما. ويقدر الإحكام فى تحديد هذا الخيط وتمييزه يكون الصواب فى التعريف وفى التطبيق بين المفهومين المتناقضين : الغزو الثقافى - الإتصال الثقافى .

ويُقصدُ بالإتصال الثقافى أو الإتصال الحضارى - وهما تعبيران يعبران عن حقيقة واحدة - إتصال ثقافة أو حضارة بثقافة أخرى أو بيئة ثقافية أخرى أو بحضارة أخرى أو ببيئة حضارية أخرى بغض النظر عن مستوى الثقافة أو درجة التطور الحضارى فى المُتصل (بكسر الصاد) أو المُتصل به (بفتح الصاد) وكلا التعبيرين فى الحقل الإعلامى يقصد به الدائرة الأوسع فى الإتصال بين البشر التى تبدأ بالاتصال الذاتى وهو اتصال الإنسان بنفسه، ثم الإتصال الشخصى وهو اتصال الإنسان بأصدقائه وأهله وزملائه، ثم الإتصال الجماهيرى مثل الإتصال

(١) د . محمد عمارة - ماذا يعنى الاستقلال الحضارى لأمتنا العربية الإسلامية ؟ دار ثابت - القاهرة - ١٩٨٣ ص ٣ .

بجماهير غفيرة عن طريق التلفزيون والراديو والصحيفة، ثم الإتصال الثقافى أو الحضارى الذى يمثل أوسع دوائر الإتصال .

ويشترك المفهومان المتناقضان : الغزو الثقافى - الاتصال الثقافى فى إستخدام وسائل الإعلام ، ولكن ذلك لا يعوق الفصل بينهما ، بل إن لكل منهما وسائل يختص بها غير الوسائل المشتركة ، والتداخل بين التقيضين يبدو ظاهرياً فحسب ، لأن الفروق الرئيسية بين الغزو الثقافى وبين الإتصال الثقافى شديدة الوضوح . هذه الفروق هى الحيط الذى يبين لنا بياناً جلياً هوية كل منهما .

ويمكننا أن نُجمل هذه الفروق الرئيسية فى ثلاثة فروق هى :

١ - الإكراه و الإخضاع فى الغزو الثقافى ، وفى المقابل التلقائية والإيجابية فى الاتصال الثقافى ، مبدأ الحرية إذن هو المبدأ الأول الذى يفرق بين الغزو الثقافى وبين الإتصال الثقافى ، وكما ينص القرآن الكريم (الإكراه فى الدين) نقول للإكراه فى الثقافة .

٢ - خلق الاستعداد للاتصال عن الجذور الثقافية والحضارية الوطنية بل والتنكر لها واحتقارها فى الغزو الثقافى ، وفى المقابل خلق روح الإنتقاء والمفاضلة فى الاتصال الثقافى . مبدأ عدم التنكر للتراث الحضارى والثقافى والإنتقاء فى الوقت نفسه يمثل (بشقى عدم التنكر من جانب والإنتقاء من جانب آخر) المبدأ الثانى الذى به نفرق بين الغزو الثقافى وبين الإتصال الثقافى .

٣ - صياغة العقول فى الغزو الثقافى ، وفى المقابل الإضافة واستكمال البناء العقلى فى الإتصال الثقافى ، هذا هو المبدأ الثالث الذى نفرق به بين المفهومين المتناقضين مفهوم الإتصال الثقافى - مفهوم الغزو الثقافى .

ولمزيد من وضوح الصورة الذهنية عن مفهوم الغزو الثقافى بعد أن أمسكنا بخيط يفصل بينه وبين نقيضه ينبغى أن نقرب النظر فى المحاولات السابقة لصياغة تعريف محدد ، غير التعريفات التى وردت فى سياق أقوال المفكرين التى عرضناها ، ولأن أسماء الغزو الثقافى متعددة وربما هى أسماء أشكاله المختلفة فإننى أعتبر مصطلح الحرب النفسية هو أكثر الأسماء حظاً فى محاولات التعريف ومرد ذلك - عندى - أن الحرب النفسية جزء من حرب الإنسان للإنسان التى واكبت رحلة البشرية على ظهر الأرض .

ولقد حظى مفهوم الحرب النفسية بسيل من المسميات منها ما يشترك فيه مع مفهوم الغزو الثقافى ، فمن المسميات التى أطلقت على الحرب النفسية : غسيل الأدمغة ، حرب الأعصاب ، الطابور الخامس ، الحرب السياسية ، النضال من أجل الحصول على عقول الرجال

وإراداتهم ، حرب الأفكار ، الحرب الباردة ، حرب الكلمات .

وبرغم أن محتوى الحرب النفسية قديم قدم صراع الإنسان مع الإنسان ، وقدم الحرب البشرية ذاتها إلا أن المصطلح حديث العهد ، فهو ينتمى إلى القرن العشرين الميلادى ، والتعريف العلمى للحرب النفسية لم يستقر حتى الآن وقد قارب القرن العشرون على الانتهاء . بل إن هذا المصطلح بدلالاته ومعناه لم يدخل مجال البحث العلمى والجامعات إلا قليلا ، وإنما ظل مطروحا على خبراء الدعاية وخبراء التعبئة المعنوية فى الجيوش ، ولم يستطع هؤلاء وهؤلاء أن يضعوا تعريفا جامعاً للحرب النفسية ، لأنهم يفكرون فى الوسائل والغايات أكثر مما يفكرون فى جوهر العلم نفسه .

ويمكن القول بأن تعبير غسيل العقول (١) أو غسيل الأدمغة أو غسيل المخ هو فى جوهره تشكيل فرد أو جماعة ، وزعزعة يقينهم بمختلف الوسائل ، حتى تذيب صلابة العقائد الراسخة والأفكار الثابتة فى عقولهم . ثم الوصول بهم إلى مرحلة الحيرة والشكوك ، وبعد ذلك على الفور تبدأ عملية غرس الأفكار الجديدة والمعتقدات التى محل اليقين القديم ، وباستمرار العمل تثبت الأفكار الجديدة والمعتقدات التى تم غرسها . ويتصرف الفرد أو الجماعة وفق هذا الغرس الجديد .

وثمة تعريف لغسيل الأدمغة أو قتل العقل بأنها العملية التى توجد خضوعاً لإراديا ، تجعل الناس تحت سلطان نظام " لا تفكرى " وتجعل الناس فى غمرات رقى آلى لا حيلة لهم فيه (٢) .

وكما كان الخيط واضحا بين الغزو الثقافى والاتصال الثقافى فى النقاط الثلاث التى أوردناها للتفرقة بينهما فإن الخيط نفسه يفرق لنا بوضوح بين غسيل الأدمغة وبين التشقيف العقائدى مثل التوجيه الدينى والتعليمى والاجتماعى . فصل الخطاب بين التربية العقائدية أو التشقيف العقائدى وبين غسيل الدماغ هو حرية الإرادة فى الاختيار والاقتناع ، وهو فى الوقت نفسه عرض الأفكار المقابلة والرد عليها ، وكلا النقطتين يتطلب إعمال العقل ، فإذا تم التلقين عن طريق سلب الإرادة وإخفاء الأفكار المقابلة ، كان غسिला للدماغ ، أما إذا تم بالإرادة الحرة ويعرض الأفكار المقابلة ، والرد عليها فهو تشقيف عقائدى أو تربية عقائدية .

(١) د . محمد سيد - المسؤولية الإعلامية فى الإسلام - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٨٣ ص ١٥٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٥٣ .

وإلى جانب مصطلح الحرب النفسية ظهر مصطلح " غسيل المخ " أو الدماغ ويقول " دينيس ون " (١) Denise Winn فى مقدمة كتابه العقل المُسَخَّر أو المُضَلَّل - The Manipulated Mind لقد ظهر مصطلح " غسيل المخ " مطبوعاً لأول مرة فى مقال نشرته صحيفة " ميامى نيوز " Miami News فى سبتمبر عام ١٩٥٠ ، وكان إدوارد Edward Hunter هو الذى صك هذا المصطلح ترجمة للكلمة الصينية " هس - ناور " التى تعنى " غسيل المخ " وقد أستخدم هذا المصطلح فى مقال " إدوارد " ليقول بأن القادة الصينيين إستخدموا بعد الثورة الصينية أساليب اقناعية لم تعرف من قبل ، لإجبار الصينيين على الإنضمام إلى الحزب الشيوعى ، وتناول " هانتر " هذا المصطلح بعد ذلك فى مقالات عديدة ، ثم شاع هذا المصطلح " غسيل المخ " واتسع مدلوله ، وكما يقول " دينيس ون " : لقد أنطلق مصطلح غسيل المخ ، وقت ممارسته على نطاق واسع على جمهور لديه استعداد لتقبل الأفكار ، ولكن كانت صدمة كبيرة أن يتحول الشبان الأمريكيون الذين تم أسرهم فى كوريا عن الخط الوطنى بنسبة كبيرة ، لقد اختلف عدد الجنود الذين تحولوا إلى الجانب الآخر بعض الشىء طبقاً لقوة ورسالة المصادر المختلفة للمواد التى تعرضوا لها .

وقد وجد بعض الكتاب أمثال جوست ميرلو Joost Meerloo الخبير فى علم النفس والذين كانوا يخشون من أثار التلاعب بعقول الجماهير - أنه من بين ٧١٩٠ أسير أمريكى فى الصين استجاب ٧٠ ٪ منهم للدعاية الشيوعية . وأدلو بتصرّيات أو وقعوا إلتماسات تدعوا إلى إنهااء الحرب ، وذلك على الرغم من أن قليلين منهم ظلوا شيوعيين بعد الحرب ، وبعد عودتهم إلى الوطن .

وفضلاً عن ذلك هناك روايات أخرى تشير إلى أن ثلث أسرى الحرب الأمريكيين يؤيدون القضية الشيوعية ، وكان هذا الرقم كبيراً بما فيه الكفاية كى يدفع الأمريكيين إلى قبول تفسير غسيل المخ ، وأن ينهبهم إلى أن قليلين من أسرى الحرب البريطانيين والأتراك الذين عانوا من المعاملة نفسها استسلموا وكفوا عن المقاومة . إن أسرى الحرب

(1) Denise Winn - The manipulated mind : Brainwashing, Conditioning And indoctrination - the octagon press - London - 1983 P.1-5

الأمريكيين العائدين أصبحوا ظاهرة صالحة للدراسة من جانب العديد من الأطباء النفسيين والإخصائيين الاجتماعيين الحريصين على حل رموز (لغز) ما هو غسيل المخ ؟ وإذا لم يكن هناك غسيل مخ فقد كانوا يرغبون في معرفة ماذا حمل أولادهم على تخفيض ولائهم للرئيس وللبلاد بدرجة كبيرة ؟ .

ولكن " دينيس ون " يكشف لنا في هذا السياق أمراً بالغ الدلالة حيث يقول : " لقد أفترض كثير من المحققين للأحداث فيما بعد أن الفزع من " غسيل المخ " رعبه وشجعت وكالة المخابرات الأمريكية CIA فقد كان هانتر الذي ابتدع المصطلح موظفاً في وكالة المخابرات الأمريكية عندما كتب عن المصطلح ولم يكن صحفياً فحسب ، وإنما كان متخصصاً في الدعاية ، وعمل إخصائياً في الحرب النفسية في " البنتاجون " .

ويمضى " دينيس ون " في مقدمة كتابه فيقول : لقد هباً " هانتر " الأذهان في كتابه الأول لنقل رسالة تفيد بأن الولايات المتحدة تتعرض لهجوم من جانب عدو يستخدم تكتيكات للسيطرة السرية على العقل ، وأنه يمكن فقط من خلال أنشطة سرية ماثلة إزالة هذا التهديد ، ومع ذلك فإن هذا الكتاب لا يبحث في أنشطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية عندما درست احتمالات استخدام التنويم المغناطيسي والبرمجة والمخدرات وغيرها للسيطرة على العقل ، ويبدو من الكتب التي تناولت هذا الموضوع أن جهود وكالة المخابرات الأمريكية انتهت إلى التشوش بدلا من الوصول إلى نتائج واضحة . لقد كان من الأشياء التي لها صلة بالموضوع دراسة أصل كلمة غسيل المخ لأنها حالة هامة للكلمة تم ابتكارها لتعبر عن مفهوم معين ، وهكذا بدلا من أن يصبح المفهوم هو بؤرة الدراسة ، أصبحت الكلمة نفسها هدفا للاهتمام .

لقد أهتم كثير من خبراء الاجتماع والمحققين الجسورين بهذا الموضوع . فركز البعض على إثبات أن العقل لا يمكن غسلها . وأنتهت المسألة بالنسبة لهم . واستنتج البعض الآخر أن غسيل المخ هو " تكتيك " قوى ومتغلغل يسمح بالهيمنة والسيطرة على الفرد أولا ، ثم على العالم . أما جوست ميرلو موبو oost Meerlo فيُطلق عليه " التكييف السياسي " Political Conditioning " ويقول : يجب ألا يخلط بين التكييف السياسي أو التدريب أو الاقتناع أو حتى التلقين . إنه أكثر من ذلك ، إنه ترويض ، إنه السيطرة على كل من الأنماط العصبية البسيطة والمعقدة للإنسان ، إن " الديكتاتور " يريد أولا تحقيق الإستجابة المطلوبة من الخلايا العصبية ، ثم السيطرة على الفرد ، وأخيرا السيطرة على الجماهير .

وهناك وجهة نظر لكل من " شيفلين " وأويتون : أن غسيل المخ كان وما يزال كلمة عاطفية ومفرغة تستخدم فقط لمنعنا من مواجهة التشوش ، أو الحقائق البغيضة .

وكلما برزت قضايا أو موضوعات تتعلق بإغواء الناس أو إجبارهم على الانضمام لجماعات

عقائدية أثرت الأسئلة المعتادة حول غسيل الدماغ أو " غسيل المخ " . وتُطرح الأسئلة من جديد : ما هو بالضبط غسيل المخ ؟ هل من الممكن إجبار أى إنسان على تبني نمط حياة يختلف تماما عن ميوله المفترضة ؟ كيف يختلف غسيل المخ عن التلقين ، أو عن التأثيرات الإغرائية المسيطرة للإعلان ، أو عن النظام التعليمي ؟ أم أن كل هذه الأمور شيء واحد ؟ .

يجيب " دينيس ون " بأن تحليل مصطلح غسيل المخ لم يُقبل باعتباره مصطلحاً فنياً ، وهذا ما جعل تحليل المصطلح أمراً فيه صعوبة . والمصطلح الذى عبر عنه " هانتر " عبارة عن صورة أولية انطباعية (استكتش انطباعي) تظهر أحيانا وتختفى فى أحيان أخرى مع السنين ، وطبقاً للميول والدوافع ، ولكن هذه الصورة لها أجزاء أساسية محددة جداً ، بدونها لا يمكن رؤية الصورة كاملة ، أما بالنسبة للبعض الآخر فإنها لوحة ضبابية ، وكل الحياة الإنسانية مخبأة فيها . ويشرح وجهة نظر " دينيس ون " استشهاده بدراسة موسعة أجراها " روبرت ليفتون " فى " هونج كونج " على عدد من المدنيين الغربيين والصينيين الذين حاول الصينيون تحويلهم إلى الشيوعية بعد الثورة ، ونشر نتائجه فى " اصلاح الفكر وسيكولوجية الشمولية " وقدم لنا نقطة هامة فى مقدمته يقول فيها : وراء هذا الملف الضخم من التشوش فى الدلالة اللفظية وغير اللفظية تكمن صورة لغسيل المخ كأسلوب قوى لا يقاوم ، وطريقة سحرية لا يمكن سبر أغوارها لتحقيق سيطرة كاملة على العقل البشرى ، إنه بالطبع ليس شيئاً من هذه الأشياء ، ولكن استخدام المصطلح على نطاق واسع يمثل منطلقاً للخوف والإستياء يدفع إلى التسليم وتبرير القتل ، والاتهام غير المسئول ، وسلسلة واسعة من التطرف العاطفى ، وقد يستنتج الفرد أن الكلمة بعيدة عن أن تكون ذات فائدة محددة ، وأنه قد يجد من الأفضل نسيان كل شيء عن الموضوع ككل . وأن نفعل هذا معناه إغفال واحدة من المشكلات الكبرى فى عصرنا ، ألا وهى " سيكولوجية " المحاولات الموجهة إلى تغيير البشر وأخلاقياتها . وعلى الرغم من تقلبات معانى غسيل المخ ، فإن العملية التى أعطت إزدهاراً وبروزاً لهذا الإسم هي حقيقة .

تمثل هذه التحليلات وهذا الطرح الذى أورده " دينيس ون " عن " غسيل المخ " الصورة الذهنية للغزو الثقافى فى الأدبيات الأمريكية أو فى الكتابات الأمريكية بصفة عامة .

وفى الجانب الآخر من هذا التصور الأمريكى لغسيل المخ ، لا يري الوعى الأمريكى بصفة عامة ، أو الواجدان الأمريكى عامة ، أن سيل التدفق الثقافى والاعلامى الأمريكى إلى العالم يمثل غزواً ثقافياً .

ويدلنا جميل طراد (١) على جذور الفكرة الأمريكية فى هذا الصدد فيقول : لقد صاغ " جون أدمز " الرئيس الثانى للولايات المتحدة الأمريكية (١٧٩٧ - ١٨٠١) فى وقت مبكر النزعة

(١) جميل طراد - الغزو الثقافى الأمريكى لأوروبا وللعالم الثالث - مجلة الوحدة - العدد ٣ بتاريخ ديسمبر

الأمريكية للتدخل عالميا فى عبارة شبه توراتية (أى عبارة رسالة مقدسة) بقوله «إن قَدَرِ جمهوريتنا ، النقية الفاضلة ، هو أن تحكم الكرة الأرضية وتُدخل إليها كمال الإنسان» ، ومن بعده قال الرئيس "كنيدى " إن الأمريكان هم الحراس على أسوار حرية العالم ، ثم قال الرئيس " كارتر " إن الزعامة العالمية التى آلت إلى الولايات المتحدة يجب أن تؤسس بصلابة على احترام العالم وإعجابه بالمازيا الرفيعة لأمتنا ، الدليل الهادى فى ملكة الأفكار والروح ، وقد عبر (بريجنسكى) المستشار السابق للأمن القومى الأمريكى عن هذه الروح الأمريكية بوصفها لبلاده بأنها المركز الفكرى للعالم ، مركز الفنون والعلوم والاقتصاد ، وهذه النزعة الزعامية الأمريكية ترى فى التطور التكنولوجى " أى التقدم فى " التكنولوجيا " وفى " الألكترونيات " تطورا محايدا برغم نتائجها الثقافية ، فى تجاوز السيادة القومية ، لأية اوطان أو مجتمعات ، وعلى أساس هذا التصور الأمريكى فإن الرسالة الأمريكية باسم حياها " التكنولوجيا " تدعى لنفسها حق تجاوز أو تحطيم جميع العقبات التى قد تقيدها الدولة القومية هذه الدولة المتعلقة بالماضى أمام التطور " التكنولوجى " ، وقد أفصح " جون ايجر " Eger الرئيس الأسبق للمكتب الإتحادى للاتصالات ، والمستشار للرئيسين السابقين " نيكسون " وفورد " إفصاحاً صريحا عن ذلك المعنى بقوله : إن الولايات المتحدة الأمريكية ملزمة حرصا منها على الصالح المشترك للإنسانية ، وعلى نقاوة المجال " الاستراتيجى " الجديد الذى أوجدته الثورة " الإلكترونية " فى مجال الاتصالات الدولية عن طريق الأقمار الصناعية ، ملزمة بتحطيم الحواجز التى تُنقى الإعلام أو تمنعه وملزمة بالغاء رقابة الدول على كل إعلام .

ويذهب " كارل رومان " Rowan ، وأحد السفراء الأمريكيين ثم مدير الوكالة الأمريكية للإعلام Usia إلى القول صراحة : إننا بنشر ثقافة الولايات المتحدة نساعد على تحقيق أهداف السياسة الخارجية للولايات المتحدة ، فليس لنا من مهمة أخرى . ولقد كان " فيليب كومبس " وهو أول من شغل منصب مساعد وزير الخارجية للشئون الثقافية والتربوية أول من صاغ نظرية البعد الرابع فى النشاط الدولى ، فألى جانب الأنماط الثلاثة من النشاط الدولى التقليدى : الدبلوماسى ، والعسكرى والاقتصادى ، تضيف الحكومة الأمريكية بعداً رابعاً هو العلاقات الثقافية .

ويختم جميل طراد هذه الحثيثات الأمريكية بقوله : ليس المطلوب عند الأمريكيين أقل من تكوين وعى عالمى عن طريق إتصال عالمى ، ولكن هذا الوعى العالمى الذى يتنافى مع كل حدود قومية ، ومع كل " أيدولوجية قومية " ، يفترض فيه فى الوقت نفسه أن يتسع على رحب لاستيعاب الرسالة الأمريكية ، فهنا القومية لاتتنافى مع العالمية ، لأن أمريكا هى العالم ، ولأن التربية العالمية هى جزء لايتجزأ من الحلم الأمريكى ، ولأن الثقافة الأمريكية هى طليعة التقدم ، سواء كانت الثقافة الأمريكية خفيفة أو عميقة ، وسواء كانت تعبيراً عن خير ، أو أسوأ ما لدى الأمريكيين

فمن الواضح أنها تشكل قوة هائلة تعيد صياغة الثقافات القديمة ، والحياة اليومية للشعوب الأخرى وتُؤَلِّب مسالكها وفق مثال الولايات المتحدة وسياساتها .

هذا التصور الأمريكي لنفى مقولة الغزو الثقافى بسبب التطور " التكنولوجى " والالكترونى يتبناه بعض العرب مختلطا بشوائب التبشير ومحاولات التوفيق غير العلمية وغير الصحيحة ، مما يجعل الأصل الأمريكى أوضح وأكثر تماسكا .

يناقش " راجى عنایت " (١) كتاب الغزو الفكرى وهم أم حقيقة للدكتور محمد عمارة فيقول: وقبل أن نناقش أفكار د. عمارة التى طرحها فى كتابه هذا لابد من طرح بعض الأساسيات التالية :

- جميع الأديان السماوية ، بما فى ذلك الإسلام ، وجميع العقائد غير السماوية ، ظهرت كلها فى عصر الزراعة ، الذى تواصل لما يقرب من عشرة آلاف سنة .

- كلما نشأ مجتمع زراعى ، قامت الحياة على أسس ومبادئ واحدة ، هى أسس ومبادئ عصر الزراعة ، سواء كان هذا المجتمع فى آسيا أو أفريقيا أو أوروبا أو أمريكا أو أستراليا .

- أسس ومبادئ المجتمع الزراعى كان لها التأثير الأول على حياة البشر وعلى أفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم . كانت الأرض هى أساس الإقتصاد والحياة والثقافة ونمط الأسرة والنشاط السياسى . وفى كل مجتمع زراعى كانت الحياة تنتظم حول القرية ، مع الإلتزام بتنظيم بسيط للعمل ، وتبلورت فئات و طبقات محدودة . وفى كل منها كانت السلطة شاملة يخضع فيها الفرد خضوعا كاملا لمصلحة الجماعة وفى كل منها كان مولد الإنسان يحدد وضعه فى الحياة ، وكان الإقتصاد غير مركزى ، بمعنى أن كل مجتمع كان ينتج معظم احتياجاته .

- رغم كل هذا ، ومع الإلتزام به ، قامت حضارات عديدة على مدى عصر الزراعة ، فى أنحاء مختلفة من العالم . وقد تمايزت هذه الحضارات ، وكانت لها خصوصياتها .

وقد تجاربت هذه الحضارات وقامت واندثرت وتقايرت واندمجت ، لكنها كانت دائما تشترك فى خاصية أساسية ، وهى أنها تابعة من مبادئ المجتمع الزراعى . وكانت الحضارة الإسلامية واحدة من بين هذه الحضارات ، ولم تكن - على حد قول دكتور كمال أبو المجد - تتواءم فى التاريخ

- كانت الثورة الصناعية نقطة تحول فى تاريخ البشر ، بالضبط كما كان قيام المجتمع الزراعى نقطة تحول بعد عمر طويل من الصيد والقتل .

- قام المجتمع الصناعى على أسس جديدة ، مناقضة للأسس التى قام عليها المجتمع الزراعى ، ومن ثم مناقضة للأسس التى قامت عليها الحضارات السابقة ، ومن بينها الحضارة الإسلامية .

(١) راجى عنایت - مستقبلات - الفكر الجيش والفكر الهواء - مجلة المصور - بتاريخ ١٩٩٠/٤/٦ .

وأيضاً ، كما حدث فى عصر الزراعة ، كلما قام مجتمع صناعى جديد ، فى الغرب أم فى الشرق ، فى الشمال أم فى الجنوب ، خضع ذلك المجتمع لأسس ومبادئ الصناعة فى مختلف مجالات النشاط البشرى .

- كان التوسع الإستعماري سمة أساسية ، وحاجة ملحة . بالنسبة للدول الصناعية ، لقد كان غوها يقتضى أن تضع يدها على ما تستطيع من المواد الخام والوقود المتوافر فى الدول الأخرى ، بالإضافة إلى حاجتها إلى الأسواق الأوسع ، والأيدى العاملة الأخص ، من أجل هذا قامت الحروب الإستعمارية للتسابق على تقسيم هذه الخيرات .

- لما كانت النمطية ، أو السعى إلى القولية والتوحيد القياسى ، سمة أولى من سمات المجتمع الصناعى ، فقد حرصت الدول الصناعية على تنميط الحياة فى الدول الزراعية التى استعمرتها ، تسهيلاً لنشاطها ، وفرضت بذلك على دول الحضارات الزراعية السابقة أسس ومبادئ المجتمع الصناعى ، حتى قبل أن تنشأ أى صناعات على أرض هذه الدول . وخلق بذلك كل التناقضات ، التى قادت إلى " القضايا - المشكلة " ، فى حياة أبناء الدول الزراعية.

هكذا يفرض " راجى عنایت " أساسيات من عنده ليس لها سلطان من العلم وليست لها علاقة بالموضوع . ثم يقول بعد هذا ، نعود لننظر فى مسألة " الغزو الفكرى " . ما الذى يجعلنا نحس بها هذه الأيام بهذا القدر من القوة ، مع أننا تناولناها برفض طوال سنوات الغزو الفكرى الحقيقى على إمتداد قرون الصناعة ؟ هل هى صحوة إسلامية خاصة . أم أنها جزء من صحوة عامة لجميع أبناء الحضارات الزراعية ، أصحاب العقائد والأصول العرقية المختلفة ، الذين أكرهوا على الخضوع لنمطية عصر الصناعة .

الشواهد من حولنا تقول أن تسارع المعلومات وتدفق المعارف ، خلق واقعاً فكرياً بشرياً جديداً ، يُخرج البشر من شرنقة النمطية إلى عالم من بدائل التنوع والتعدد والحفاظ على الذات ، ليس إستجابة لكفاح معين ، ولكن لأن صالح المجتمع الجديد الأخذ فى التشكيل يقتضى هذا ، ونحن فى مواجهة هذا الوضع - الذى ليس لنا فيه فضل حتى الآن - نكون أمام أحد خيارين :

● أن ننتهز فرصة خروجنا من شرنقة النمطية ، لكى نسرع بالإرقاء فى أحضان الماضى العزيب ، الذى افتقدناه طويلاً . ونحاول أن نعكس حركة التاريخ ، فنفرض قيم المجتمع الزراعى الذى ينبع منه ذلك الماضى على المجتمع الجديد .

● أن نفهم طبيعة المجتمع الجديد ، وأن نفهم على ضوء ذلك حقائق واقعنا الحالى بأمانة ، ثم نُخضع القيم القديمة التى نعتز بها لأصول التفكير النقدى ، لنرى ما إذا كانت تتناقض مع مسار التاريخ أم تتوافق معه ، ثم نرسم رؤيتنا المستقبلية الخاصة التى تقودنا إلى مجتمع الغد ، والتى

تسجم مع أفضل ما فى وجداننا .

المهم ، أننا سنكون أحرارا فى إختيار أى من الطريقتين . لماذا ؟ لأن المجتمع الجديد بطبيعته ويعكس المجتمع الصناعى ، لا يؤسس مصلحة الدول المتطورة على فرض واقعها وتعميم أفكارها على الدول الأخرى . هل تعرفون معنى هذا ؟ معناه أن العالم سيتركنا لكى نتخلف إذا كان هذا هو إختيارنا ، ولا أعتقد أن تخلفنا فى هذه الحالة سيؤرقه كثيرا . ومعناه أننا نتخلف هذه المرة بمحض إختيارنا ، وليس كما حدث من قبل عندما فرضت علينا الدول الصناعية ذلك التخلف الذى نعيش اليوم آثاره . فى هذا المجال ، لن يفيدنا القول بأننا سنقف موقفا «وسطا» بين التخلف والتقدم ، بدعوى أن حضارتنا العربية الإسلامية تعتمد الوسطية وبهمنى هنا أن أسجل أن معنى التقدم والتخلف الذى أقصده يتخلف تماما عن المعنى القسرى الذى فرضه عصر الصناعة (أو الغرب على حد قول د . عمارة) هذا المنطق ، منطق المتوسط الحسابى للنقيضين . يمكن أن يكون مهريا مريحا عند غياب الفهم الحقيقى للنقيضين والكثير من أمور الحياة لا تتحمل ما نطلق عليه تعبير «الوسط - العدل» وإلا .. فما هو رأى فى الموقف الوسط بين الإيمان والإلحاد ؟ .

إلى هذا الحد يقع الخلط والتخليط فى مقال راجى عنابت عندما يفهم الوسطية فى السلوك بأنها وسطية فى الاعتقاد ، أو على الأقل عندما يوازى بين الاعتدال فى السلوك وبين الإيمان بالله الواحد الأحد .

ومن الغريب أنه يصف منطق د . محمد عمارة بالتناقض فيقول : من هذا المنطق يقع د . عمارة فى كثير من التناقضات ، فهو يقبل مثلا أن تأخذ من الغرب (يقصد من الحضارة الصناعية) شكلها الذى إبتدعته مؤسساتها النيابية والديمقراطية ، باعتبار أن هذا الشكل هو مجرد (وعاء) يمكن أن نضع فيه ما نحب من المضامين والمثل . وهذا القول فيه تجاهل لحقيقة أساسية ، هي أن نظام التمثيل النيابى نبع من إحتياجات المجتمع الصناعى ، الذى يقوم على أسس ومبادئ تختلف عن الأسس والمبادئ التى قامت عليها جميع الحضارات الزراعية . لقد وقفت الدول الزراعية فى ممارستها الديمقراطية عند حد " الشورى " لأن طبيعة المجتمع الزراعى لم تكن تحتاج إلى ما هو أبعد من ذلك ، لهذا لم يشر الإسلام إلى " ما هو أبعد من ذلك . فكيف يتصور د . عمارة إمكانية تطبيق التمثيل النيابى على المجتمع العربى والإسلامى ، فى إطار الثوابت التى يتمسك بها ؟ لقد جاء التمثيل النيابى كشكل للممارسة الديمقراطية نتيجة للظروف الخاصة التى اقتضاها نمو المجتمع الصناعى . وجاء هذا الشكل متوافقا مع عقائد ومبادئ المجتمع الصناعى ، التى تتناقض مع العديد من الثوابت والخصوصيات الحضارية التى أشار إليها ، والتى يتمسك بها . الشيء نفسه ينسحب على المؤسسات التى تبلورت فى عصر الصناعة ، لكى تخدم المجتمع الصناعى ، وفقا

للفلسفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والصناعية . لماذا تصور د. عمارة أنها صالحة لمجتمع إسلامي تتميز علومه السياسية والاجتماعية والفلسفية والاقتصادية ؟

من هذا ، نرى أن الموقف الانتفاعى الذي اختاره د. عمارة يقود إلى مزيد من الخلط والتناقض . ومع أعترافي بأهمية الاحتفاء بخصوصية الحضارات . وأيضاً المجتمعات والأقليات والأفراد ، إلا أن التقسيم الذي أجراه بين " المشترك الإنساني العام " و " الخصوصية الحضارية " يحتاج إلى إعادة نظر .

ثم يختم راجي عنايت مقاله قائلاً : لقد وصلنا إلى زمن تتدفق فيه المعلومات تدفق الرياح وهو زمن يستحيل أكرر استحيل فيه أن يتحكم فى إنسيابها أحد سواء كان دولة أو رأياً عاماً أو عقيدة أو أيولوجية . وخير إستراتيجية فى مواجهة هذا ، هو أن نفتح النوافذ والأبواب . وأن نستثمر هذه المعلومات والمعارف فى مزيد من الفهم لأنفسنا ولما حولنا ، وفى مزيد من التنمية لذواتنا والنضج لوجداننا . . لا أن نغرق فى وهم البحث عن نوع المناريس التى سنتحصن خلفها ، أو السدود التى ستتيح لنا أن نخبز بعض هذه المعلومات ونحجب باقيةا .

وحقيقة الأمر أن المقال يعكس الرأى الذى ينفى مقولة الغزو الثقافى ، ولكنه فى الوقت نفسه يدعونا بإلحاح إلى أن نقذف بأنفسنا فى بحر المعلومات وإلا هلكنا ثقافياً وحضارياً .

والمقال يحمل فى طياته عناصر الحكم عليه بأنه بعيد عن واقع العالم النامى بقدر قربه من التصور الأمريكى للموضوع .

ويشارك الدكتور غالى شكرى الأستاذ راجي عنايت فى نفى مقولة الغزو الثقافى ويشاركه فى الإنبهار بثورة المعلومات . ويقع مثله فى الخلط والتخليط ، ولكن بصورة أخرى ، فهو يساوى بين البعثات وبين الغزو الثقافى ، بل إنه يصور ظهور مصطلح الغزو الثقافى بصورة البشارة التى جاءت مع فجر النهضة العربية الحديثة حيث يقول : فالغزو الثقافى مقولة ارتبطت بفجر النهضة العربية الحديثة . وقد ارتبطت أيضاً بدفاع التيارات السلفية عن نفسها ، أمام أفكار جديدة وقيم جديدة من المستحيل أن تتفصل عن التكنولوجيا القادمة من الغرب . وإذا كانت الحملة الفرنسية قد صدمتنا بالغزاة وأوجعتنا بأسلحتهم ، فقد كنا نحن الذين ذهبنا إلى فرنسا نطلب من المعرفة الجديدة أن " تغزو " رؤوسنا . كان محمد على وسعيد وإسماعيل هم الذين أرسلوا البعثات إلى أوروبا لتتعلم ونثقف ونفهم ماذا جرى ويجرى فى العالم ، ولم تنقطع عن طلب الغزو الثقافى فى أى وقت سواء عن طريق البعثات أو تأسيس الجامعات . ومن المفارقات التى لا يريد البعض أن يدرك مغزاها أن هؤلاء الإستعماريين الملاعين كانوا يرفضون تعليمنا إلا فى حدود تخريج الموظفين . وأنهم كانوا يرحبون كثيراً بالبعثات التى تطلب الحرفة التكنولوجية ، أما العلوم الإنسانية فجامعاتنا الوطنية هى التى بادرت بإرسال أبنائها لإستيعاب مناهجها الحديثة . وكان الأزهر لأمد طويل يرسل البعثات

- إلى الغرب .

ويبدو أن البعض منا يحلو له إسباغ صفة الغزو على كل شيء ما عدا «التكنولوجيا» ، فأهلاً بالطائرات والسيارات والتليفون والتليفزيون والفاكس وآلاف المخترعات طالما أنها بعيدة عن مجال الأفكار والقيم . وحتى هذا الوهم مجرد وهم لأن استخدام الآلة يفرض بصمته المؤثرة على العقل والوجدان تدريجياً ولو بدون وعي . غير أن هذا الإنقسام بين الرغبة في استخدام «التكنولوجيا» بهدف المنفعة الحسية والمادية المباشرة وبين الاعتزال الفكرى فى بروج مشيدة هو الذى يولد الشروخ النفسية العميقة والأزدواجية المستعصية عن الحل .»

ثم يمضى الدكتور غالى شكرى قائلاً : ونحن الآن لا نتكلم فى القرن الماضى أو فى بدايات القرن الحالى أو حتى فى منتصفه وإنما نحن نتكلم فى ظل ثورة جديدة للمعلومات والاتصال والديمقراطية التى تفتح آفاقاً غير مطروقة للمعرفة لا يستحقها إلا الذين يشاركون فيها من خارج " الجيتو " ودون أوهام عنصرية عن الذات أو الآخرين .

وحوار الأنداد لا يبدأ بهذا الإحساس المدمر . إننا مغززون من الآخرين لا محالة ، وإنما يبدأ ويشمر حين نقطع العهد على أنفسنا بأنه ليس فى الوجود من يحتكر الحقيقة كلها أو أنه يحتكرها بمفرده . وأن من أبسط حقوق الإنسان حقه فى المعرفة دون وصاية من أحد (١) .

والدكتور غالى شكرى إذا وجد غزواً ثقافياً لمصر فإنه يراه من الداخل أو من العالمين العربى والإسلامى وهو يفسر ذلك بقوله (٢) : إنها الثقافة المصرية فى الوقت الراهن محاصرة بالإختراق المزدوج من الداخل والخارج على السواء . أما الإختراق من الخارج فلا قبل لنا على مقاومة أسبابه ، ولكننا نستطيع - إذا كانت هناك الإرادة - أن نواجه نتائجه . وأما الإختراق الداخلى فلا يحتاج إلا إلى أن تتحول ثقافة المقاومة الوطنية من كونها ثقافة النخبة لأن تصبح ثقافة الأمة ومن كونها ملفات وأضابير ومتاحف وأرشيفاً لأن تصبح ثقافة حياة . وهو أمر كان ميسوراً فى أزمنة الأمية الساحقة وفى أزمنة الإحتلال السوداء وفى أزمنة الإستبداد الطاغية ، فكيف لا تتيسر فى زماننا الراهن ؟ الجواب هو الإرادة أيضاً إذا توافرت والإختيار الحاسم بين مجتمع مدنى حديث وبين الإنقراض فى مجتمع الغابة الدموية التى لا عمل لوحوشها سوى تمزيق الجبل السرى بيننا وبين الحضارة والعصر والمستقبل . والآن ، ما هو الإختراق الخارجى وكيف نواجه نتائجه طالما أننا لا نملك معالجة أسبابه ؟

إنه أولاً الوجه السلبى لثقافة النفط . فالنفط بحد ذاته ليس لعنه ، فما أكثر الجامعات

(١) د . غالى شكرى - أساطير الجيتو الثقافى - جريدة الأهرام - بتاريخ ٦ / ١١ / ١٩٩١ .

(٢) د . غالى شكرى - إختراق الذاكرة - جريدة الأهرام - بتاريخ ١ / ٧ / ١٩٩٢ .

ومراكز الأبحاث والمنابر التي يستحيل اتهامها على إطلاقها وإنما ثقافة المهاجرين إلى بنابيع " الثروة " قد اختلطت بثقافة اللاجئين إلى " السياسة " ، وكانت العودة " المظفرة " إلى الوطن إختراقا ثقافيا بالمال والسياسة ، بالمدلول الواسع لكلمة الثقافة بدءا من السلوك والزي والأفكار والقيم وليس إنتهاء بشركات توظيف الأموال وإعتزال الفن ، ومحاولة بناء مجتمع مواز للمجتمع تمهيدا لبناء دولة داخل الدولة ، وتكفيرا للخارجين من أهل المجتمع ، وسلطة الدولة ، وتحريضا للجميع على هذا الإختراق الثقافي بالمال والسياسة ، هو في جوهره اختراق للذاكرة بملء الفراغ الذي تصنعه المخدرات والبطالة والإستهلاك المجنون ، بذاكرة أخرى مجلوبة من الخارج ، أقلها خطرا طقوس السحر والتنجيم والخرافات ، وأرفعها شأننا التاريخ الدموي لعصور الإنحطاط وما إشتملت عليه من تفرقة وتمييز بين الأعراق والمذاهب والطوائف والأديان ، مروراً بتقاليد الظلام والتخلف الذي أطفأ شعلة الحضارة الإسلامية ، وكانت تضيء العالم .

والإختراق الخارجي الثاني هو مجموعة الحروب ذات الطابع الديني أو المذهبي من إيران إلى لبنان إلى السودان . وهى الحروب التي اختلط فيها الفكر بالسياسة بالمصالح الإقليمية . والدور الإسرائيلي فى هذه الحروب كلها لا يحتاج إلى بيان . ولم يقتصر الإختراق على التخطيط والتدريب والتنفيذ المسلح لأنصار " تصدير الثورة الإسلامية " من طهران أو " الحدود الآمنة لأرض الميعاد وشعب الله المختار " من تل أبيب ، أو " تطبيق الشريعة " فى السودان ، وإنما كانت حرب إيران والعراق وحرب إسرائيل فى لبنان ، والحرب بين الشمال والجنوب فى السودان ، إختراقا ثقافيا يحو الذاكرة الوطنية تدريجيا ، ويستبدل بها ذاكرة أخرى تحارب معارك الأسلاف منذ عشرات القرون . جدرانها مطلية بدماء الأقدمين كأنهم حاضرون ، ينتقم لهم أحفاد الأحفاد من مواطنيهم فى العقيدة والوطن بعد أن هاجر الوطن الواقعى من الذاكرة وسكن مكانه وطن آخر من صنع المخططين ، للسيطرة على الأوطان جميعا باسم الدين أو المذهب أو العرف .

ويبقى الإختراق الداخلى الذى يلعب على موجتين : أولاهما الإبقاء على ثقافة النخبة بعيداً عن ذاكرة الأمة بأن تخلو برامج التعليم والإعلام الشائعة كالما والهواء من منجزات الثقافة الوطنية . ولا تتحول المؤلفات العظيمة والرسوم والمنحوتات والموسيقى إلى دماء فى شرايين التلميذ فى البيت والمدرسة والطالب فى الجامعة . وفى عروق كل مواطن يشاهد التلفزيون

وسمع الإذاعة وقرأ الصحف. وتظل الذاكرة الوطنية إحتكاراً لفئة شبة منبوذة من المثقفين . والموجة الثانية هي العكس تماماً : توصيل الذاكرة المضادة إلى مجموع الشعب عبر أكثر أجهزة الإعلام جماهيرية ولن يغفر المصريون أنهم ذات أمسيات طويلة شاهدوا أجدادهم علي شاشة التلفزيون باعتبارهم عبيدا لبنى إسرائيل . ويمثل هذه الذاكرة المخترقة يحشو " الشباب مسدسه.

بهذا التصور المصطنع يرى د. غالى شكرى الغزو الثقافى . وهو يتجافى مع أبسط قواعد المنطق ، ويصبح كمن يجمع البرتقال مع العنب فى مسألة الحساب فلا يعبر حاصل الجمع عن حساب وإنما عن أغلاط .

وفى مقابل هذا التطرف فى تفسير الغزو الثقافى تطرفا سلبيا على الواقع المصرى والعربى والإسلامى نجد الموقف المعتدل الإيجابى تطرحه مجلة المسلم المعاصر فى عددها الأول عام ١٩٧٤ ، فيقول عبد الحليم محمد أحمد (١) : الغزو الفكرى (أو التغريب) فرع من الغزو الاستعمارى وهو نوع من التشويه الفكرى يعنى انتقاء المستعمر لنواح فكرية منحطة من حضارته فيقدمها بغية تحقيق هدفه الأساسى ، وهو استمرار التخلف ، واستمرار حالة التبعية أطول فترة ممكنة ، وهو يختار ما يهدم لأميئنى وإن كان لايد من قدر من البناء فهو محدود أيضا بالهدف نفسه ، وهو تمكن المستعمر من تحقيق أكبر كسب من البلاد المستعمرة .

وتلك النواحي الفكرية المنحطة وهذه الأوجه الهزلية من ثقافة المستعمر لا يمكن أن يطلق عليها إسم الحضارة الحديثة . والمستعمر (يفتح الميم) إزاء الغزو قد يقف موقفا سلبيا فيتلقى ما يُلقى إليه ، دون إختيار أو تمحيص . بينما التفاعل الحضارى (أو التحديث) جهد إيجابى شاق فى الدراسة والبحث والتمحيص للحضارة الحديثة، ثم فى الإختيار والإقتباس ، ثم فى الأقلمة والتكيف مع خصائص حضارتنا الأصلية ومع ظروف بلادنا . على أننا نقرر أنه يحدث عادة قبل التفاعل الحضارى ما يمكن أن نسميه التحدى الحضارى . والتحدى كما يقع بين حضارتين مزدهرتين يقع أيضا بين حضارة متفوقة وحضارة متهالكة . ونحن نواجه فعلا تحديا حضاريا صارخا يهزنا من الأعماق ، وأمامنا أحد أمرين : أن نواجه هذا التحدى مواجهة إيجابية بالتفاعل الواعى ، أى بالأخذ والعطاء . وبين المواجهة السلبية بطرفيها المنحرفين الرفض المطلق أو الخضوع المطلق ، وفرق كبير بين إنكار ذلك الغزو الفكرى الإستعمارى وبين الموقف السلبى العام من الحضارة الحديثة والخلط بين الأثنين يعنى إقامة هذا الحاجز الضيق بيننا وبين الفكر الإنسانى . »

(١) عبدالحليم محمد - خواطر حول أزمة العقل المسلم المعاصر - مجلة المسلم المعاصر - العدد الافتتاحى - شوال ١٣٩٤ هـ نوفمبر ١٩٧٤ م.

وفى أوائل العقد التاسع من القرن العشرين الميلادى برزت صورة ذهنية جديدة لمفهوم الغزو الثقافى فى أوروبا الغربية، وفى فرنسا على وجه الخصوص . لقد شهد عام ١٩٨٢ مؤتمرا دوليا حاشدا لمناقشة القضايا الثقافية ، عقد فى المكسيك ، ونظمتها « اليونسكو » . وفى هذا المؤتمر قُجِرَ المندوب الفرنسى مشكلة الغزو الثقافى الأمريكى على النطاق العالمى . ورد عليه المندوب الأمريكى ، ثم اشتعل الحوار حول هذه القضية . وفى عام ١٩٨٢ أيضا صدر فى فرنسا كتاب غزو العقول أو غزو الأرواح La conquête des Esprits لمؤلفه « ايف اود » Eudes Yves . وكان قد صدر كتاب الحرب الثقافية La Guerre Culturelle لمؤلفه هنرى جوبارد Henri Gobard عام ١٩٧٩ . وكتاب فرنسا مُستَعمَرة عام ١٩٨٠ isee La France Colon لمؤلفه جاك تيبو Jacques Thibau . وكتاب « ايف اود » يحمل عنوانا فرعيا له دلالة كبيرة هو : هيكل التصدير الثقافى للحكومة الأمريكية إلى العالم الثالث . ويؤصل المؤلف الفرنسى فى كتابه هذا رؤية الزعماء الأمريكيين الأوائل للدور الأمريكى على المستوى العالمى ، ثم تبنى من خَلَقَهم من الزعماء لهذه الرؤية .

ويقول د . محمود الذوادى (١) إن صاحب الكتاب يعتقد أن المطلع على تاريخ الشعب الأمريكى منذ فترة ما قبل انتصار عام ١٧٨٣م على بريطانيا ، وخلال القرن التاسع عشر ، لا يكاد يجد رجل دولة أو مفكرا أمريكيا لم ير فى نشأة المجتمع الأمريكى الجديد - بعد انفصاله عن المجتمع الأم بريطانيا - بداية جديدة لتاريخ الإنسانية جمعاء ، ويذهب هذا الاعتقاد فى الولادة الجديدة للإنسانية بظهور الأمة الأمريكية إلى حد نكران الروابط البيولوجية والثقافية التى تربط المجتمع الأمريكى المستقل « بالمتحضر » فهذا المجتمع الجديد حسب ما ورد فى ميثاق الاستقلال الأمريكى على لسان « جفر سن » Jeffersen هو الذى سوف ينشئ العصر الذهبى على سطح هذه الأرض ، وهو بالتالى سوف يحقق حلم المجتمع المثالى (الطوبائى الإنسانى) *

أما « جورج واشنطن » فقد رأى هو الآخر فى حصول الولايات المتحدة الأمريكية على استقلالها لمساة خفية . ولقد ذهب بعد « جورج واشنطن » عدد من الفلاسفة والمفكرين المتدينين إلى حد مقارنة تاريخ الشعب المختار بمغامرة الأمة الأمريكية . وفى نظر « جول بارلو » Joel " Barlou ، أن المواطن الحر الأمريكى سواء كان متدينا أو غير متدين ، « لبيبراليا » أو ثوريا ينبغي إعتبار نفسه كمشرع لنصف الجنس البشرى . أما بالنسبة « لجون آدمس » John Adams ، فالجمهورية الأمريكية الطاهرة والفاضلة مكتوب عليها أن تأخذ بقيادة الكوكب الأرضى وإعطاء الإنسان فرصة تحسيم الكمال المثالى .

(١) د. محمود الذوادى - فى كتاب غزو العقول - مجله الفصيل - العدد ٨١ .

* المثالى التلقائى

ومن وجهة نظر ايف أود Yves Eudes ، فإن هذا المثل الأمريكى لقيادة كل الإنسانية لم يفتأ أن غيّر أسس الشرعية من وجهة النظر الأمريكية ، فالديمقراطية أصبحت بذلك هى البديل . ودور الولايات المتحدة الأمريكية هو أن تجعل من العالم مكانا يطمئن الناس فيه أكثر على مصير الديمقراطية والحرية . وقد ظلت راية الديمقراطية مُناداً بها من طرف الرؤساء الأمريكين أمثال « روزفلت » Rousvelt « وكيندى » Kennedy « وكارتر » Carter . ومن هذه الخلفية الأيديولوجية لقادة الشعب الأمريكى استمدت فكرة حق الولايات المتحدة - حسب رأى بعضهم - وواجبها فى التأثير على عقول البشر وأرواحهم . فالشعب الأمريكى بطبيعته لا يمكن أن يكون شعباً عادياً أو أنانياً لا يعيش إلا لنفسه . ومن هنا يأتى مفهوم التثقيف الأمريكى للإنسانية جمعاء كمشروع شرعى لكل من تفهم وتعرف على طبيعة عقائد ورؤى قادة الأمة الأمريكية الجديدة منذ دخولها سجل التاريخ حتى يومنا هذا .

ولا تأتى قيمة هذا الكتاب ومساهمته فى ربط الغزو الثقافى الأمريكى المعاصر بالأيديولوجية الثقافية التى نادى بها زعماء ومفكرو الأمة الاميريكية الأوائل فحسب ، وإنما تتميز مساهمته خاصة فى التحليل المنظم والمفصل للأجهزة الأمريكية الثقافية المختلفة وسبل عملها واستراتيجيتها الأكثر اختفاءً وتستترأ من الأجهزة الأمريكية الإقتصادية والعسكرية المنتشرة فى كثير من مجتمعات العالم الحديث ، والعالم الثالث على الخصوص . فالكتاب بهذا المعنى لا يطرح قضية الغزو الثقافى الأمريكى بطريقة دعائية . وإنما يعرض القضية للقارئ بتحليل يتصف بالمنهجية ذات المعطيات والتفاصيل والظروف السياسية . «

وفى كتاب الحرب الثقافية يطالعنا هنرى جوبارد بنبرة خطابية عالية فيقول : « لقد بدأت الحرب الثقافية بالفعل بدون إعلان ، وبدون نفي ، وبدون دق الطبول ، ولكن بدق الكلمات التى تكذب ، وبدق الصور التى تزيف ، وبدق الإبتسامات التى تخون و (تغدر) . الحرب التقليدية تستهدف القلب لكى تقتل وتهزم ، والحرب الإقتصادية تستهدف المعدة من أجل الإستغلال والإثراء ، والحرب الثقافية تستهدف الرأس لكى تشل بدون أن تقتل ، لكى تهزم من خلال التدهور والتردى ، ولكى تحقق الشراء من خلال تفسخ الشعوب وإنحلال الثقافات . الحرب الثقافية تستخدم كل الحريات وتضلل من أجل التغلغل فى جميع الأنحاء ، ومن أجل أن تدمر من الداخل كل القيم وكل التشكيلات وكل الثروات الروحية للشعوب التى تستقبل ألسنة حال موحدة اللغات لهيئات دولية .

وإذا كان صحيحاً أن الجامعات معاقل قوية للمقاومة ضد الحرب الثقافية ، وأنها الحصون الأخيرة ضد التفسخ والإنحلال الذى يتهددنا ، فإن الجامعات ومعها المدارس الأولى تستطيع إدارة النضال ضد الحرب الثقافية . إن الأساتذة والطلاب يجب أن يكونوا أركان الحرب الأوائل الذين يعدون الاستراتيجية والتكتيك لهجوم مضاد لمواجهة المد الأسود الهائل مثل (مياه البحر الملوثة

بالبترو (لتغلغل الدعاية غير المباشرة ، تماما كما يفعلون بالنسبة للدعاية الإعلامية المباشرة التي تسلب الناس إرادتهم وتحولهم إلى جمهور من المستهلكين .

إن الجميع يجب أن يكرسوا أنفسهم من اليوم لحوض حرب حتى الموت ضد أسوأ عدو لم تعرفه البشرية من قبل . إن هذا العدو المرعب يقدم نفسه مبتسما ، وليس هناك عدو أسوأ من ذلك الذى يتنكر فى صورة الصديق ، لأن يده تصافح يدا وإبتسامته ملء كفه . إنه يحشدنا بخطبه ، وعندما يعتقنا أى (يحررنا) فى النهاية ، فما ذلك إلا لكي يمنحنا الحق الوحيد فى التصديق .

لقد حان الوقت ، ومازال هناك وقت كبير ، كما أنه الوقت المناسب لكي نستيقظ ونستعيد أنفسنا ، وطالما أنه قد تم طعننا بعمق فى الداخل أو غرقنا ، فإنه يجب من الآن أن نحاول النهوض أو أن نقفز لنطفو على السطح .

هذا الوثوب أو القفز سيكون رمزا لرفضنا المطلق أن نترك أنفسنا للإستغلال بواسطة المد الأسود للإتحلال الصناعى والرأسمالى . إن المد الأسود قد تغلغل بالفعل فى شواطئنا ، لقد أصبحت الأنهار مجارى آسنة ، وتحولت المدن إلى صناديق قمامة ، أما الضواحي فأصبحت متسودعات للمخلفات ، والمكاتب بيوتاً للنمل ، والمصانع سجوناً ، والمدارس ثكنات ، والثكنات سجوناً ، والسجون جحيماً . وفى هذا العالم المجنون من الطبيعى أن تصبح الجامعات ملاجئ حينما تصبح الملاجئ النفسية سمة عالمية .

لقد استسلمت كل دول العالم دون مقاومة أمام أسوأ عدو للثقافات ألا وهو المال. إن أى شعب باستطاعته أن يقاوم ضد الأسلحة التى تدمر بضراوة . إن ذكرى « فارسوفيا » - وارسو - هى دليل على أن الروح تسود على القوة ، ولكن إذا كانت أهوال القصف المرعبة لم تستطع النيل من روح مدينة ، فإن إبتسامة تجارية تكفى اليوم لإبادة كل القرى وكل المدن ، وكل البلاد ، وكل الثقافات ، وتحويل الأمم الى شركات مساهمة مجهولة ، والرجال إلى زبائن .

إن الاستغلال الإقتصادى يعضى على قدم المساواة مع التصدع الثقافى ، الذى يستهدف القضاء على كل السمات والخصائص القوية لثقافة من الثقافات (لخلق سمات أو خصائص صناعية غير حقيقية) باسم الديمقراطية المزيفة ، ويسمح لأولئك الذين لا وطن لهم والذين لا يدافعون إلا عن حرية واحدة هى حرية رأس المال بأن يتنكروا ويتخفوا .

يقول « آلان بيرفيت » Alain Peyrefitte إن الاستقلال كل لا يتجزأ ، إنه يعتمد على الإقتصاد وكذلك على الجيوش . وإهمال الشرط الأول سيكون خطيراً تماماً كإهمال الشرط الثانى . ولأنه يمكن إستعمار الشعوب وإخضاعها واجتياحها بدون صراع وبدون هزيمة واضحة ، وفى سلام كامل ، وبدون معاناة ، وبدون أن يشعر أحد ، وليس بواسطة خصوم ، وإنما من خلال أصدقاء لا

تتطابق مصالحهم مع مصالح هذه الشعوب ، إلا أن الناس يقبلون رسالتهم دون تفكير . إن الحرب القصيرة يكون لها دائما نهاية ، في حين أن النضال الإقتصادي ليست له نهاية على الإطلاق . (لوموند في ٩ - ١٠ نوفمبر ١٩٧٥) .

وينسى « آلان بيرفيت » Alain Peyrefitte الشرط الثالث الذي يفرض الشرطين الأخيرين : الثقافة ، وذلك ثابت واضح ولكن بالتحديد لا يوجد شيء ثابت اليوم حتى الثقافة وما يتعلق بها بالنسبة لاستمرارية النضال الإقتصادي : النضال هو التصدي للخصم ، والحرب هي التدمير المادي للعدو ، والحرب الثقافية هي إعادة الروح . ولكن مما يؤسف له أننا لا نهتم بشيء مما يحدث أمامنا .

ثم يتحدث المؤلف « هنري جوبارد » عن الإنهيارات الأربعة فيقول : لأن الأركان العامة تأخرت أو تخلفت عن الحرب ، فإن الثوريين تخلفوا عن الثورة . وفي العصور القديمة ، أدى تدهور أو انهيار الفكر « اللاهوتي » إلى ترك المجال للمسيحية ، كما أدى الإنهيار السياسي للملكية إلى ترك الميدان للثورة . اليوم سيترك التدهور أو الإنهيار الإقتصادي المجال أمام المؤسسات غير القومية . التحليل يقف عموما عند هذه المرحلة في حين أننا نعيش الإنهيار الرابع والأخير وهو الإنهيار الثقافي ، تفسخ كل قيمة التي تحولت إلى سلع وإلى دولارات .

إن الشعوب يمكن أن تخسر معركة وأن تخسر حربا ، ومع ذلك تولد من جديد : « فارسوفيا » دمرت منذ ثلاثين عاما ويعاد تشييدها اليوم كما كانت من قبل ، بل وأفضل مما كانت عليه ، وذلك لأن بولندا فقدت ستة ملايين قتيل ، ولكن لم تفقد ثقافتها - أي كبرياتها - ولم تفقد إيمانها بنفسها وكذلك قوتها . وعندما يفقد شعب ثقافته ، فإنه لن يكون أكثر من قطيع سهل الإنقياد ، يلقي بنفسه نحو المجزر الآلي شاكرا التقدم الذي قام بتحديث سبل وفاته .

أن تكون بلا ثقافة فمعناه أن تكون بدون إنتماء إلى مجتمع له قيمة ، فالإنسان ليس أكثر من « مخلوق آدمي » ، وفرد منعزل ، وفريسة معدة لدراسات السوق ، وللشراء ولكي يكون الإنسان إنسانا يجب أن ينتمى إلى جماعة التي تعطيها : إمكانية الميلاد ، وأن يكون محبوبا ، وأن يغذى ويربى ويتم حمايته ، وأن يستمع إلى لغة ، ويعيش ثقافة هي ثقافته الأصلية التي بدونها لن يكون العالم سوى خواء وفوضى عديمة الشكل .

إن كل ثقافة هي مفهوم لعالم الإستقلال الذاتي الذي لن يعترف إلا بنفسه في تحديد ما هو المقبول وما هو غير المقبول . ومن المؤكد أن كل ثقافة لها معاييرها المحددة التي تختلف عن معايير الثقافات الأخرى ، التي قد تبدو متعسفة للمراقب البعيد ، ولكن لنتذكر أن المراقب عن بعد ليس سوى مشاهد أو جاسوس ضمن مجموعة من المراقبين الذين هم « بوليسيون » بلا شك ، يراقبون دون تدقيق وتححيص .

إن الثقافات ليست لديها حسابات لتقدمها ، فكل ثقافة تنظم بطريقتها الأسرار التي ترمز بنا كما يستمتع الطفل إلى البحر أو المحيط وإلى صوت الأصداغ والمعار وكما يرى الحب فى الابتسامة . ولكن عندما لا تكون المحارة إلا قطعة من الصخر حيث لا نسمع فيها إلا الضوضاء والضجيج ، وعندما لا تكون الابتسامة إلا مجرد تكشيرة عن أسنان طريفة فإن ذلك هو الرعب ، هذا الرعب هو رعبنا ، رعب العصر الذى نعيشه .

إن الحروب والسياسات والسلب والنهب تكون دائما مفاجئة وطارئة . بين رجال كانوا يعيشون داخل ثقافتهم كما يعيش السمك فى الماء . ولكن البحر قذر اليوم ، وغدا سيكون ميتا فهل يجب الإنتظار دون قول شئ أو عمل شئ إلى أن يدمر الناس كل المجتمعات الطبيعية ، وكل الأجناس ، وكل الثقافات ، وكل الشعوب ، وكل الأمم ، لتحويل العالم إلى مناطق اقتصادية ، وتحويل الرجال إلى اقتصاديين ؟!

شيئا فشيئا سنكتشف بصعوبة التناقض و التعارض بين الإقتصاد والثقافة . يجب الاختيار بين أولئك الذين يحبون إحصاء تقودهم وأولئك الذين يحبون أن يقصوا أحلامهم . ولكننا نتردد على الرغم من أن الحلم أكثر حقيقة من المال ، فالحلم حى وفيه حياة والأموال ليست إلا مواتا . لدينا الدليل على ذلك ، فالدول التى أثرت تبدأ فى الموت ، وكلما ازدهادت ثروتها ، زادت شيخوخة ، لأن الثروة لا تعطى أبدا الرغبة فى الحياة . وسوف ندرك أخيرا أن الانسان وحده لا شئ ، وأن الإنسان الفرد هو أسوأ ما يتم إختراعه لصالح كل أولئك الذين لا يتحدثون إلا عن أفضل طريقة لسرقتك ، دون أن يقولوا لك شيئا ينبع من ضمائرهم لأنها بيعت . هل نبيع نحن أيضا أنفسنا مقابل ثلاثين ألفا أو ثلاثين مليون دولار ؟ وهل نقدم ونعرض أنفسنا جميعا للسوق الأمريكية . هذا الخيار هو خيار سياسى وهو الخيار الأساسى الذى يُعد ويُجهز للآخرين .

وإذا كانت السياسة فى خدمة الإقتصاد فإن ذلك معناه تدمير الثقافة ، كما أنه يعنى تبعية السياسة للمال . إن بلدا بدون ثقافة لن يلبث أن يحل محل رئيسه مدير عام قادر على التهذؤ ، وعلى إجراء تصفية سكانية يسهل التنبؤ بها ، وقتل أى موت كبار السن فى كل شعب . وعلى العكس من ذلك إذا وضعت السياسة الإقتصاد فى موضعه بأن تكون الثقافة أولا والاقتصاد بعد ذلك ، فإن البلاد ستذوق طعم الحياة وطعم النضال ، ضد مجتمع التفسخ والإنحلال ، عندما يتخفى وراء الحرية . حرية إفتاء مجتمع وإبادة جنس .

كل شعوب أوروبا مهددة أولا بالفناء القادم من الغرب : الإستثمارات الربوية ليست مالية فقط ، إنها أولا ثقافية ، الدعاية الربوية هى دعاية دائمة تفرض علينا منتجات على شكل أفلام ، وتلفزيون ، وأغاني ، وملابس ، وهذه تلقى رواجاً فى جميع الأنحاء ، لأن الولايات المتحدة يمكنها

تصدير أعمال على الموضة ، وبأعداد كبيرة لا تترك للإنتاج الوطنى فى أى دولة منفذاً للتوزيع ، وتستطيع أيضا إغراق العالم بانتاج من الدرجة الثانية ، وبأسعار رخيصة ، لأنها استوفت نفسها أولا على صعيد السوق الربوى الداخلى ، وكل ساعة يتم استثمارها فى إنتاج ربوى هى ساعة ضائعة من الإنتاج الوطنى . ولكن السوء لا يأتى فقط من البائعين (التجار) بل من الإختيار التجارى « للمشروع » . ويجب أن نقول مرة للجميع : الثقافة ليست « مشروعا » تجاريا . إنها مسألة حياة أو موت . »

هذه الصورة الذهنية الجديدة لمفهوم الغزو الثقافى تَسْطَعُ من فرنسا فى أواخر القرن العشرين مبينة أن التفكير والتحليل وإعادة النظر يمكن أن يضع فى أيدينا حلولاً شجاعة لمشاكلنا الثقافية كجماعات إنسانية لها ثقافتها التى تدافع عنها . ويبين لنا أن القول « بأن الغزو الثقافى مجرد وهم » غفلة فادحة .

وتقدم لنا العلوم الطبيعية صورة للغزو الثقافى فى المجتمع بنموذج ما يحدث فى مرض الجسم . إن « الفيروس » " Virus " الذى يتكون من غطاء بروتينى من الخارج ومن مواد كبروهايدراتية « ومن الحامض النووى مشهُو أو DNA وليس الـاثنين معا . هذا الحامض النووى DNA مركب عضوى يتألف من مجموعة من النيوكليوتيدات التى تترتب على شكل لولب مزدوج وتتألف منها الجينات .

إن هذا الحامض النووى هو الذى يحمل الإرشاد الوراثى لبناء البروتين . وعند دخول « الفيروس » جسم الإنسان فإنه يلغى هيمنة الإرشاد الوراثى للجسم ، ويفرض إرشاده الوراثى . وبذلك يبنى داخل خلايا الجسم « فيروسات » من نوعه . وزيادتها تستطيع أن تهيمن على البناء لصالحها . « فيروس » « الايدز » مثلا ماذا يفعل عندما يدخل جسم الانسان ؟ ، بعد فترة تحضين يلغى إرشاد الجسم الوراثى ويفرض إرشاده ، ويهاجم البروتينات المناعية المسئولة عن المقاومة فى الجسم ، أو الخط الدفاعى الأخير . و« الانفلونزا » عند دخول « فيروسها » جسم الانسان فإنه يتوجه بالإصابة الى الأغشية المخاطية بالأنف ، ويبنى على حساب هذه الأغشية المخاطية نظامه ، لماذا ؟ لكى يأخذ المواد الغذائية اللازمة لتكاثره منها ، كما أنه يلغى الإرشاد الوراثى فى منطقة الإصابة ، ويفرض إرشاده أو هيمنته الوراثية الخاصة .

ليست المقابلة بين إصابة المجتمع بالغزو الثقافى وبين مرض « الايدز » من باب زخرف القول ، وإنما هى من باب العلم وباب الواقع . لقد أخذت العلوم الانسانية مصطلحات العلوم الطبيعية لتعبر تعبيراً دقيقاً عن نفسها ، فالطاقة الاجتماعية ، وخلايا الحزب ، والنسيج الاجتماعى ، والتخطيط الاعلامى ، وماشابه ذلك ، دليل على مدى الترابط بين مصطلحات العلم فى مجالاته الاجتماعية ومجالاته الطبيعية . ودليل على تلمس الدقة والتقريب إلى الأذهان والتصور .

ويصور نجيب محفوظ فى قصته « صباح الورد » مدى ترسخ الغزو الثقافى فى حياة أسرة
مصرية مسلمة عندما يقابلها تحول الإبن إلى الاتجاه الدينى فيقول فى القصة : « كان اسم الولد
شكرى كجده ، وكان وسيما رياضى الجسم ومتقدما فى الدراسة ، وكان سامح يحبه جبا فاق جبه أى
شئ . ولاحظ بعينيه المحبة أن الشاب لم يعد كسابق العهد به . فترك مرجه . ومال إلى الانطواء ،
ورمق والديه بنظرات غريبة حائرة . لعلها أزمة من أزمات المراهقة ، أو قصة حب خائب . وإذا
بأمه تسأله :

- ما لشكرى يا سامح ؟ . . إنه لا يعجبني .
 - ولا أنا ، فلنعتزف أنه جيل مجهول رغم أى إدعاء آخر .
 - ولكننا ربيناه على الحرية والصرامة . .
 - حلمك وصبرك ، إنه جيل يعانى من ذكريات الهزيمة والغلاء والمستقبل المسدود .
 - عليك أن تستدرجه إلى الكلام .
 - إنى أتوقع أن يتكلم هو .
- وتكلم ، غادر حجرته الحاوية لفراشه ، ومكتبه ، إلى حجرة المعيشة ، حيث يجلس والداه أمام
التلفزيون . ضغط على مفتاح التلفزيون فأسكتته ، وجاء بكرسى صغير فجلس أمام والديه وهو
يقول :

- ثمة سؤال يشغل بالى .
 - فقال سامح بشئ من الجدية :
 - ولكنك أغلقت التلفزيون دون استئذان ؟
 - آسف ، ولى عذر فى الهم الذى يركبنى .
 - ليكن وإن كنت لا أوافق على هذا الأسلوب . ماذا لديك ؟
 - لماذا لا تصليان ؟
- ذهلا للمفاجأة . وخيم صمت فاندفع فيه زفيف رياح خريفية تهب فى الخارج . أى سؤال لم
يتوقعا أن يسمعاها أبدا .
- ولم تصوما رمضان قط ؟
 - ثم بنبرة أعلى :
 - ولدى كل سهرة فى الصالون تقدمان الخمر وتشربانها .

كيف يجيبان ؟ ليسا متدينين . لا يضرمان للدين شراً ولا خيراً . لا يشغل لهما بالا ، ولا فلسفة وراء ذلك ، ولا يتصوران أن الله يكثرث لشرب الخمر أو الامتناع عنها . الأمور تجري بلا تفكير ولا مشكلات . إنهما لا يؤذيان أحداً ، ولا يسمحان لأحد بالتدخل فى شئونهما الخاصة . ولكن التدخل هو ابنهما الوحيد . وهو يطرح سؤاله فى حرية كاملة ، ولكن لا حرية لهما فى الإجابة ، بل ويشعران بأن الإجابة يجب أن تلتزم حدودا معينة .

وتبادلا نظرة . نظرة حيرة واستغاثة . ولما طال الصمت ، تساءل الشاب :

- أأستما مسلمين ؟

فقال سامح :

- طبعاً .

- المسلم ليس مجرد إسم ولكنه عقيدة وسلوك .

فقال سامح بضيق :

- المسلم مسلم فى جميع الأحوال .

فقال شكرى بأسى :

- كلا . . إما أن تكون مسلماً أو لا .

- هذا رأيك ؟

- نعم . . مُذْ هَدَانِي اللهُ إِلَى طَرِيقِهِ .

فتساءلت أمه بقلق

- هل انضمت إلى التيارات التى يتحدثون عنها . . ؟

- هَدَانِي اللهُ إِلَى طَرِيقِهِ

- إنه طريق شديد الخطورة

- هو طريق الله ولا يهم ما عدا ذلك .

فقال سامح باستياء :

- لم تحدثنا من قبل بهذه اللهجة ؟

- كنت فى غيبوبة الجاهلية .

- لا أقبل أن تخاطبنى بهذا الأسلوب

- أنظر . . طالما شجعتنى على الصدق والصراحة ، ها أنت تضيق بمن يخالف رأيك .
- فليمض كل فى حياته كما يرضاها .
- فقال الشاب بتصميم :
- غير ممكن - قال الرسول عليه الصلاة والسلام : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الايمان .
- لم يسمعا بالحديث من قبل فرجعا وهما يتفكران فيه .
- ثم سأله سامح متهمكما :
- وماذا اخترت ؟
- فقال بتأثر :
- إنى حائر بين الواجب وبين البر بكما .
- وتنهذ سامح ، ثم قال لينهى الحديث الأليم :
- شكرى ، أحصر انتباهك الآن فى دراستك الصعبة ، ولما تقف على قدميك أفعل بنفسك ما تشاء . أسرتنا لم تقم يوما على الإكراه أو العسف .
- وطن أنه تحاشى الزلزال كى يسترد أنفاسه . ولما انفرد بزوجه قال :
- إنه يتكلم مستندا إلى الدين والتراث فكيف نناقشه ؟
- فقال بحيرة :
- لن نستطيع أن نقول له أنه مخطئ . أو نقتنه بأننا على صواب .
- هذه هى المشكلة .
- وضايقه موقفه المتخاذل فقال مدافعا عن كرامته أمام نفسه وأمام زوجته :
- لو أن لى رأيا محددا فى الدين لألقيت به فى وجهه .
- وانبثق سؤال من عدم لم يطرح من قبل . ترى ما رأى فى الدين ؟ خيل إليه أنه مؤمن بالله ومؤمن أيضا بأنه لا شأن لله بحريته الشخصية . وأن الفرائض لا معنى لها ، والخمر مفيدة وممتعة ما احتملتها الصحة . ولكنه مقتنع تماما بأنه لا يستطيع أن يصارح ابنه بذلك . ولم يتصور من قبل أنه سيواجه هذا الموقف الحرج .
- وقال لزوجته :

- إنه يطالبنا بالتخلي عن أجمل ما فى حياتنا .

فحركت رأسها بالموافقة دون أن تنبس . فتساءل :

- كيف نستطيع أن نواصلها دون متاعب ؟

كيف يمارسان حياتهما المألوفة تحت سمعه وبصره ؟ وضاعف من همهما أنه دأب على تجنبهما تماما . فهو إما فى الكلية أو فى جامع الحى ، أو فى حجرته . طعامه يتناوله فى المطبخ . أنها مقاطعة مطلقة . هما نفسيهما فضلا ذلك - مع الألم والأسف - على مواجهة أخرى أليمة . إن يكن استطاع أن يتحدى ناقديه طوال حياته بلا مبالاة كاملة فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك فى بيته ومع ابنه . إنها مصيبة لا تخف بمرور الزمن ولكنها تتعقد وتستفحل وتنذر بشر العواقب .

- كدرت صفوى ، عليك اللعنة .

واضطر أخيرا إلى إحياء سهراته فى بيوت أصدقائه بعيدا عن ابنه ، وخوفا من أن يقدم على تصرف أحمق يخرجه أمام المدعين . وحنق على تلك التيارات المتطرفة واعتبرها غريمه الأول فى الحياة .

لا تهمنا نهاية البطل « شكرى » فى قصة نجيب محفوظ ، ولا يهمنى التيار الدينى الذى انجذب إليه . بل لا يعنينى « شكرى » فى هذا السياق ، وإنما تعنينى رؤية الأب للمؤمن ، بأن الفرائض لا معنى لها ، والخمر مفيدة وممتعة ما احتملتها الصحة . وأن هذه الأمور هى أجمل ما فى حياة الأب والأم معا .

إنها صورة التغريب ، وليست صورة الكفر .

وخلاصة القول أن مصطلح الغزو الثقافى من الصعب الإمساك به لأنه مثل الزئبق . ولكن من الممكن وضع المصطلح أمام بصائرنا مثلما نضع الزئبق فى أنبوبة زجاجية فنراه وندرس خواصه . وأن مصطلح الغزو الثقافى يحمل أسماء كثيرة ومعانى مختلفة ، وهو بذلك أشبه « بالحرباء » التى تتلون بألوان البيئة الجغرافية السائدة . ويرغم ذلك فإن هذه السمات للحرباء هى التى تبين هويتها بين أقرانها ، كذلك فإن سمات الأسماء الكثيرة والمعانى المختلفة هى العامل الرئيسى فى تحديد هوية الغزو الثقافى بين المصطلحات الثقافية والاجتماعية .

الفصل الثانى

وسائل الغزو الثقافى وأساليبه

ما الأساليب ؟ وما الوسائل ؟ هل هما شيئان متباينان ؟ أم مختلفان ؟ أم أنهما شئ واحد ؟ وهل الرابطة بينهما فى مجال الغزو الثقافى لها صفة أو سمة خاصة أم لا ؟ وإن كانت الرابطة تتسم بصفات أو سمات خاصة فما هى هذه الخصوصية فى هذا المجال ؟ .

نحن نقول فى لغتنا الإعلامية المعاصرة وسائل الإعلام ، ونعنى بها الصحيفة ، «والراديو» «والتليفزيون» ، و«السينما» ، والكتاب ، ووكالات الأنباء . وما شابه ذلك من وسائل «تكنولوجية» جديدة ، كما نعنى بها المحاضرة ، والخطبة ، الندوة ، المؤتمر ، وما شابه ذلك من وسائل قديمة ، ونحن نقول فى لغتنا التعليمية المعاصرة الوسائل التعليمية ، ونعنى بها الكلمة المنطوقة ، وأجهزة التسجيل ، والصور الشفافة ، والشرائح الفوتوغرافية ، والأفلام التعليمية ، والحرائط ، والرسوم ، وما شابه ذلك من وسائل التعليم .

أما الأساليب فهى الطرق والاختيارات التى أفرزها التفكير وأفرزها التخطيط لتحقيق أهداف معينة ومحددة . فإذا كُنْتُ فى النقطة (أ) وهدُفْتُ الوصول إلى النقطة (ب) فإن وسائلك هى الطائرة والباخرة والقطار والسيارة والدراجة والسير على الأقدام ، وإن أساليبك أو طرقك هى الطريق البرى أو البحرى أو الجوى وهكذا . وهكذا نجد التباين بين الأساليب والوسائل ونجد الترابط بينهما . وفى الغزو الثقافى تتمركز سمات وخصائص هذا الترابط فى أهداف الغزو الثقافى .

ويمكن تحليل الرابطة بين أساليب الغزو الثقافى ووسائله كما نحلل الضوء بواسطة المنشور الزجاجى إلى ألوان الطيف ، ولأن الغزو الثقافى عملية إتصالية فإن تحليل علماء الاتصال لأطراف العملية الاتصالية ينطبق تماماً على عملية الغزو الثقافى . وأطراف العملية الاتصالية تشمل :

- ١ - المرسل : وهو هنا القائم بالغزو .
- ٢ - المستقبِل : وهو هنا الجمهور المستهدف .
- ٣ - الرسالة : وهى هنا مضامين الغزو .
- ٤ - الوسيلة : وهى الوسائل المختلفة المستخدمة فى الغزو الثقافى .
- ٥ - التأثير : ويختلف باختلاف المتلقى وباختلاف ظروفه المركبة والمتشابة .
- ٦ - رد الفعل : ويتباين تبايناً شديداً بين الاستسلام ، أو المقاومة ، أو التذبذب ، أو

تعديل السلوك والاتجاهات ، أو تأكيد الهوية الذاتية الثقافية وحمايتها كما يفعل التطعيم في تنبيه مناعة الجسم ضد المرض أو العدوى ، وغير ذلك .

هذا التحليل يبين لنا حتمية الترابط بين وسائل الغزو وأساليبه ، لأن أهداف الغزو هي التي دفعت القائمين بالغزو والمخططين له لسُلِّ الوسائل سَلِّ السيوف والإمساك بزمَام الأساليب إمساك الفارس بزمَام الخيل . والأهداف هنا هي الأهداف المباشرة أو التنفيذية . وليست الأهداف العليا أو « الاستراتيجية » . لأن لها حديثا يستغرق الفصل الرابع برمته .

ولقد حاولت صياغة نموذج لوسائل الغزو الثقافي وأساليبه يَقُوم على محورين : المحور الرأسى خَصَصْتُهُ لأهم الوسائل وهي ثلاثة : الإعلام ، ثم التعليم ، ثم المنظمات وتشمل الشركات والنوادي والهيئات والظواهر وما شابه ذلك . والمحور الأفقى خَصَصْتُهُ لأهم الأساليب وهي ثلاثة أيضا : الدوائر المتتابعة مثل الدوائر التي تتوالى عند إلقاء حجر في ماء راكد . بعد الدوائر المتتابعة تأتي أنماط الحياة . ثم ثالثها رواد التغريب أو حَمَلَةُ حَطَبِ الغزو الذي أصبح يعبر عنه في زماننا بحملة المشاعل ، لأن التكنولوجيا جعلت حمل النار في المشاعل أيسر وأخفى من حملها في الحطب . وبالتفاعل المستمر بين الوسائل والأساليب في هذا النموذج - الذي حاولت صياغته بالارتكاز على النظريات الاجتماعية الغربية - يحقق الغزو الثقافي أهدافه بطريقة تشبه الريح المركب أو تشبه المتواليات الهندسية ، بمعنى أن الإعلام يحقق أهداف الغزو في الدوائر المتتابعة ، وفي أنماط الحياة ، وفي دَعَم رواد التغريب . والتعليم يعمل العمل نفسه في الأساليب الثلاثة .. وهكذا يُصَيِّحُ التفاعل المستمر مثل تكاثر الجراثيم ومثل الأرباح المركبة ومثل المتواليات الهندسية . ويصبح الجمهور المستهدف بالغزو الثقافي يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه ومن فوق رأسه ومن تحت أقدامه .

ولقد بَنَيْتُ النموذج مستنداً إلى خَلْقِيَةِ التصور الإجتماعى الغربى (١) بأن السمات الأساسية لمجتمعاتهم المتقدمة هي الأنماط المثالية للحياة المتقدمة والحديثة . كما يستند إلى خلفية التصور الإجتماعى الغربى بأن نموذج التقدم يشبه إلقاء حجر في ماء ساكن فإنه يصنع سلسلة من الدوائر المتتابعة ، تبدأ صغيرة عند المركز ثم تتسع في تتابع واستمرار . وعلى هذا التصور فإن نموذج الإنتشار الثقافى والحضارى الغربى يركز على إيجاد النموذج فى المجتمع ثم بمرور الوقت

(١) يقسم الدكتور سعد الدين إبراهيم النظريات الاجتماعية الغربية في التنمية إلى ثلاث مجموعات طبقا لنوع التغيرات التي تستند

إليها كل مجموعة وطبقاً لمصدر ومسار التغيير الإجتماعى المنشود وهي :

(أ) انحاء الأنماط المثالية للمؤثرات . Ideal type of index models.

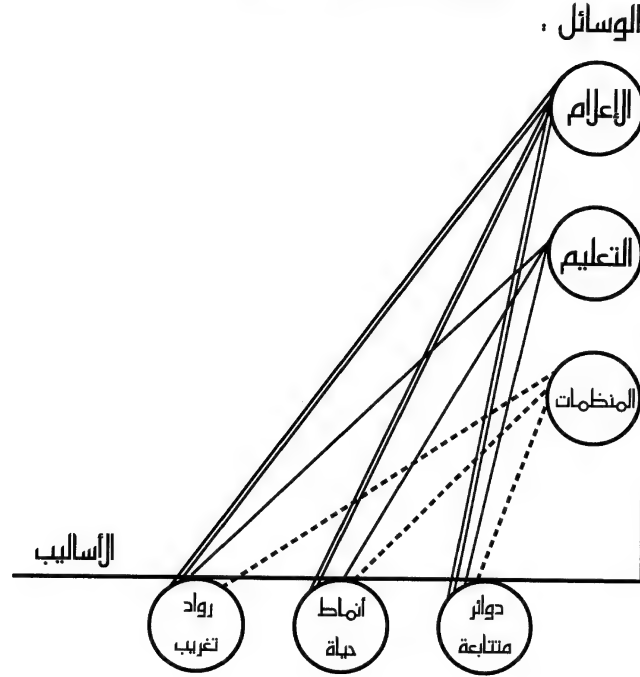
(ب) انحاء الإنتشار الثقافى الحضارى . The acculturation diffusion model .

(ج) انحاء تغيير الأفراد نفسياً . Individual psychological change model .

(انظر كتاب الإعلام والتنمية للمؤلف ص ٩٧) .

واستمرار عملية الانتشار ، تتحول المجتمعات التقليدية إلى صورة المجتمع الغربي. كما تستند إلى خلقية التصور الاجتماعي والنفسي الغربي بأن تغيير الأفراد في المجتمعات التقليدية نفسياً وعقلياً ليصبحوا قدوة ونموذجاً لأبناء جلدتهم في محاكاة الحياة الغربية هو الطريق لصنع المجتمعات بالصيغة الغربية الحديثة . وأنه لكما زاد عدد هؤلاء الأفراد أسرع المجتمع في التحديث والإصطباغ بالصيغة الغربية.

نموذج وسائل الغزو الثقافي وأساليبه



الإعلام :

يُفصلُ اختراع " جوتنبرج " للطباعة عام ١٤٣٦ بين نوعين رئيسيين فى تاريخ الإعلام المتمثل فى الخطابة والندوات وما شابه ذلك ، وهو الإعلام القديم ، ثم الإعلام الذى بدأ مع الطباعة فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ، وهى التى أدت إلى ظهور الكتب بأعدادها الكبيرة وتكلفتها الرخيصة ، ثم ظهور الصحف . وجاء " الراديو " عام ١٩٢٠ لبيان أهمية هذا الإعلام الحديث ، ثم " التليفزيون " عام ١٩٣٦ ، وبانتشاره بعد الحرب العالمية الثانية وبتوسعاته الخطيرة فى استخدام البث المباشر عن طريق الأقمار الصناعية ، أصبح الإعلام المعاصر نسيجاً أساسياً فى حياتنا المعاصرة ، ويتوقف المؤرخون والباحثون كثيراً أمام اختراع الطباعة ، وهم يتحدثون عن تاريخ الحضارة ، وعن الإنتشار الثقافى ، وعن المدى الواسع والأثر العميق للكلمة المطبوعة . وجوهر اختراع " جوتنبرج " هو صب حروف معدنية منفردة وبارزة فى أمهات يمكن جمعها فى أسطر أو صفحات ، ثم فكها بعد الطباعة حتى يمكن استخدامها من جديد . . وهكذا .

منذ حروف الطباعة المعدنية (والرصاص هو المعدن الغالب فيها) أحس أعداء العرب والمسلمين بأن رصاص المطابع بين أيديهم يُمكنهم من أن يطلقوه فى الكتب على عقول المسلمين ونفوسهم كما يطلقون رصاص البنادق والمدافع على صدور المسلمين وقلوبهم . وهكذا بدأت تصدر الكتب التى تُحطّ من قيمة الدين الإسلامى وتُسبّ رسوله . وبدأت الكتب التى تروج طريق الخلاص أمام العرب والمسلمين بالانسلاخ عن دينهم وثقافتهم وسلوك الطريق الغربى وبدأت الكتب التى تزكى المثل والقيم والفكر الغربى لتصبح جميعها قدوة للعرب والمسلمين . وكان الصدى الغربى لهذا الدوى الغربى هو ظهور كتابات وبحوث بأقلام العرب تقلد . وفى أحيان أخرى تهلل وتطبل .

وحتى لا يقع الخلط بين الطباعة " الجوتنبرجية " وبين استخدام الكتاب كوسيلة للغزو الثقافى ضد العرب والمسلمين نقول إن النماذج التى بين أيدينا تسبق الطباعة " الجوتنبرجية " وتقتد إلى الطباعة الحديثة القائمة على التصوير (أى جمع الحروف تصويرياً) . والقائمة على استخدام " الكمبيوتر " والتى نستطيع تسميتها الطباعة " الكمبيوترية " .

الكتاب :

إن النماذج التي نُصَرِّفُها لاستخدام الكتاب في الغزو الثقافي ضد المسلمين والعرب تمتد من كتابات " دانتي " في الكوميديا الإلهية (١٢٦٥م - ١٣٢١م) إلى كتابات سلمان رشدي في الآيات الشيطانية (١٩٨٨م) .

لقد صَوَّرَ دانتي في كتابه " الكوميديا الإلهية " رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم صورة تعبر عن مدى الحقد والكراهية القَظَّة للإسلام ورسوله . ففي درجات الجحيم يضع رسولنا في الدرجة الثامنة من درجات الجحيم التسع . ولا يوجد بعد الدرجة التاسعة إلا الشيطان في قعر الجحيم . ويُسَهَّبُ دانتي في وصف العذاب الخاص برسولنا الكريم إسهاباً قبيحاً إلى حد بعيد .

وكشف الدكتور / محمد صالح البنداق (١) عن مراسلة بين فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) وبابا روما " بنوا بنلاكتوش " الرابع عشر Benoit xiv بتاريخ ١٧/٨/١٧٤٥ حول المسرحية التي وضعها " فولتير " ضد النبي صلى الله عليه وسلم ضد الإسلام وسماها " التعصب أو النبي محمد " وقدمها لهذا البابا . وفي عنوانها دليل إدانتها .

ويورد محمد سليم قلاله (٢) نماذج لكتابات الأدباء والمفكرين الغربيين ضد عقيدة العرب والمسلمين فيقول :

* لو نبدأ " بشاتوبريان " (١٧٦٨ - ١٨٤٨) نجده يكتب عن جوهر الحروب الصليبية فيقول : لم تدرُ الحروب الصليبية حول إنقاذ كنيسة القيامة فحسب ، بل دارت حول معرفة من الذي سينتصر على هذه الأرض ، مذهب تعبدى هو عدوُّ للحضارة ، مُجَبَّدٌ باطراد للجهل (يقصد الإسلام) وللطغيان وللعبودية ، أو مذهب تعبدى أدى إلى أن يوقظ في البشر المعاصرين عبقرية الزمن وألقى العبودية الدنيئة . وكان " شاتوبريان " وزيرا للخارجية في فرنسا قبيل فرض الحصار البحري على الجزائر في سنة ١٨٢٧ .

* الشاعر " لامرتين " يصف العرب بأنهم أمم دون أرض أو أوطان أو حقوق أو قوانين أو أمن ، وهم ينتظرون الملاذ الأمين باحتلال الأوربيين لهم . وقد تولى " لامرتين " وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٨٤٨ .

(١) د. محمد صالح البنداق - المستشرقون وترجمة القرآن الكريم - الطبعة الثانية - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ١٩٨٣ ص ١١٥

نقل عن Theatre de Voltaire Paris, Firmin Diderot Edz, ١٨٥٣

(٢) محمد سليم قلاله - التغريب في الفكر والسياسة والاقتصاد - الطبعة الأولى - دار الفكر - دمشق - ١٩٨٨ ص ١٨ إلى ص ٢٢ .

* كارل ماركس يقول إن على المجلترة أن تحقق فى الهند (كانت آنذاك تشمل الهند وباكستان وبنجلاديش) رسالة مزدوجة : الأولى تدميرية ، والثانية إحيائية تجديدية ، إثناء المجتمع الآسيوى وإرساء الأسس المادية للمجتمع الغربى فى آسيا .

* " أرنتست رينان " (١٨٢٣ - ١٨٩٢) صاحب الرسالة الحضارية للاستعمار ، والقائل دائماً بعدم أهمية الحضارة الاسلامية وانعدام أى دور لها فى التاريخ ، يقول إن الحضارة تشكلها ثلاثة توارىخ : التاريخ اليونانى ، وتاريخ بنى إسرائيل اليهود ، والتاريخ الرومانى . اليونان قدموا النزعة الانسانية والعقلية . بنوا اسرائيل غطوا النقص لدى اليونان فقدموا الدين . الرومان أتموا الحلقة بتقديم القوة التى انتشر بها الانتاج العقلانى والدين والحضارة . أما الحضارة الاسلامية فلم تقم إلا بدور الناقل والمُخزّن لعدة قرون لهذه الحضارة حتى تسلمها منهم الغرب الحديث ، حتى يواصل المسيرة .

* " وليام موير " مؤلف كتاب حياة محمد ، وكتاب الخلافة ، يقول : إن سيف محمد ، والقرآن ، هما أكثر أعداء الحضارة والحريّة والحقيقة الذين عرفهما العالم حتى الآن عناداً .

* " سيلفان ليفى " يرى أن الغرب هو المسئول عن الشرق وينبغى أن يواجهه ويقول : لقد أخذنا على عاتقنا مسئولية التدخل فى تطورهم . ونحن ندعى خطأً أو صواباً ، أننا نُمثّل حضارة أسمى ، وبسبب الحق الذى يمنحنا إياه هذا التفوق . فقد وضعنا جميع تقاليدهم موضع تساؤل .

ويروى الدكتور ابراهيم عبده (١) نقلاً عن " بروشى " Brocchi واقعة حدثت فى المطبعة الأميرية بالقاهرة فى حكم محمد على ، لها دلالة واضحة على روح العداء الغربى للإسلام فيقول : "كان بين مدرسى مدرسة الفنون الجميلة " بيلوتى " الإيطالى Bilotti وقد نظم هذا المدرس قصيدة شعرية طويلة سماها ديانة الشرقيين ، أساء فيها إساءةً بالغةً إلى الإسلام والمسلمين . ودعا فيها إلى التهوين من أمر هذا الدين والسخرية برجاله ، وقد اتفق " بيلوتى " سرا مع " نقولا مسابكى " أفندى ناظر مطبعة بولاق على نشر قصيدته فى المطبعة . وكان مسابكى تلميذاً لإيطاليا ، وأحد مبعوثى الوالى فيها ، وهو لا يعنيه أمر احترام الدين الإسلامى فى شىء ، وإيطاليا فى ذلك الوقت موطن العداء لهذا الدين ، فتم طبع القصيدة دون علم الوالى . وعندما علم الباشا بالخبر من أحد القناصل . وتبين للباشا أن فى الكتاب فحشاً فى القول وزرارة بالدين ، إلى درجة أنه يستحيل على أى حكومة أن تقبل ألفاظه أو معانيه مهما تساهلت فى حرية النشر أو حرية القول والكتابة ، أمر محمد على بمخطوط الكتاب فألقى فى النار . وكاد يقتل مسابكى ولولا شفاعته " عثمان نور الدين " أحد رجاله المقربين لتسم القضاء على المؤلف وناشره معا .

(١) د. ابراهيم عبده - محنة الصحافة وولى النعم - سجل العرب - القاهرة ١٩٧٨ ص ٨ - ٩

* وفى مجال العلوم البحتة لم يَسَلِّمْ العلماء المسلمون من تقليل الشأن ويَحْسُ دورهم ، وبلغت الدكتور أحمد فؤاد باشا (١) أستاذ الفيزياء بكلية العلوم بجامعة القاهرة الأنظار إلى وجود نوع جديد من الاستشراق لا يكتفى بمعرفة الشرق من أجل إختراقه وإحكام السيطرة عليه ، ولكن يهدف أيضا إلى بث أفكار خاطئة عن الإسلام والمسلمين من أجل حماية الإنسان الغربى من أن يرى نور الإسلام فيؤمن به ويحمل رايته . ويسوق أمثلة من كتابات مؤرخى العلم يشوهون وينكرون الدور الإسلامى فى تاريخ العلوم ، فهذا هو " جورج سارتون " G. Sarton الذى يعد على رأس المشتغلين بتاريخ العلم فى القرن العشرين يقول فى مقدمة الجزء الأول من كتابه " تاريخ العلم " : وحديثنا عن الماضى محدود من عدة وجوه . أحد هذه الوجوه الضرورية أنه يجب أن نقصر أنفسنا على أسلافنا فحسب . ثم يواصل حديثه مركزا على ما أسماه بالمعجزة اليونانية ، وتفوقها على الحضارات المجاورة لها قائلا : والواقع أن ثقافتنا النابعة من الأصل الإغريقى والعبرى هى الثقافة التى تعيننا كثيرا ، إن لم تكن هى كل ما يعيننا . وفى سلسلة تاريخ العلوم العام التى تقع فى أربعة أجزاء ساهم فى تأليفها أكثر من مائة باحث بأشرف " رينية قاقون " نجل المدح والثناء يكالان على ما يسمى " بالعلم العبرى " والعلم المسيحى " كما تساق التبريرات الواهية لاعتبار إسرائيل ضمن الحضارات الكبرى القديمة فى الشرق الأوسط وللإشادة بالعصر الذهبى للعبرية السامية فى حضارة بابل وآشور . وفى كتاب " العلم فى التاريخ " لم يستطيع " جون ديزموند برنال " J. Ber-nal أن يخفى تحيزه الواضح إلى جانب الإغريق والفرس والرومان ، فى الوقت الذى يكيل فيه اتهامات متنوعة للإسلام والمسلمين دون أن يشرحها أو يَدُلِّل عليها ، فالإسلام فيما يزعم " برنال " - هو التى حجبت الدور الكبير للعنصر الفارسى فى العلوم الإسلامية الشرقية . والمسلمون يتحملون مسئولية كبيرة عن إقامة حواجز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية إلى يومنا هذا ، يدعوى أنهم لم يترجموا إنسانيات الإغريق مثلما ترجموا معارفهم العلمية والفلسفية . فانتقلت الإنسانية والعلوم إلى الثقافة الحديثة عن طريقين مختلفين .

وينكر " برنال " مآثر علماء المسلمين ويَقْصُرُها فقط على مجرد حفظهم لموارث القدماء ، قائلا : رضى معظم علماء المسلمين بالنمط الكلاسيكى الأخير للعلوم ، وَتَقَرُّوا هذا النمط ولم يكن لديهم طموح كبير ليحسنوه ، ولم يكن لديهم أى طموح لأن يطوروه تطويرا ثوريا .

* وقد أَسْتُخْذِمَت دوائر المعارف العالمية لبث سموم التشكيك فى رموز الاسلام . إن أعرق الموسوعات العلمية وأكثرها شهرة فى العالم وهى دائرة المعارف البريطانية لم تخلو من الإفتراء على

(١) د. أحمد فؤاد باشا- الاتجاهات المعاصرة فى دراسة العلم الإسلامى - مجلة الأزهر- عدد ذى الحجة ١٤١٢ الموافق يونية ١٩٩٢

الإسلام ، وعلى القرآن الكريم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، ففي طبعة عام ١٩٧٨م نتناول الأضاليل الفاحشة في المادة المنشودة بدائرة المعارف البريطانية (١) تحت عنواني " الاسلام " و " محمد " بالبحث والتحصيل حيث يقول مؤلف مقال " الإسلام " :

" إن الصورة التي تتداخل فيها صفات القوة والعدل والرحمة ذات صلة بالتراث اليهودي المسيحي ، حيث استمدت منه بعد أن طرأ عليها بعض التعديلات ، وكذلك تتصل بالوثنية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية " . وقد حاول الكاتب بكل دهاءٍ وَخُبْرٍ وعن عمدٍ الزعم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد استقى مفهوم الله من المصادر اليهودية - المسيحية والمفاهيم الوثنية التي سادت شبه الجزيرة العربية ، ويقول مؤلف المقال نفسه " لم يأت (النبي محمد " بمعجزة إلا معجزة القرآن . . . ومع ذلك فقد نسب المسلمون إليه عقب وفاته فيضاً من المعجزات. وتتناول هذه الموسوعة موضوع " الإسراء والمعراج " بأسلوب أكثر وقاحة وأشد خبثاً فنشرت صورة بين سطور الموضوع تصور النبي صلى الله عليه وسلم محتطياً صهوة " البراق " وهو يعرج إلى السماء وفي معيته جبريل عليه السلام ، وظهرت الحوريات أيضاً وهن فوق ظهور الجبال .

وكتبت أسفل الصورة العبارة التالية : " زيارة محمد للجنة " قد ظهر محمد إلى اليمين فوق البراق ذي الرأس الآدمي ، وجبريل إلى اليسار " وفي أسفل الصورة ظهرت ثلة من الحور العين وهن يتبادلن باقات الزهور إحتفاءً بيوم الجمعة الذي يعتبر يوم عطلة إسلامي " .

و تدلُّ مثل هذه الصور والرسوم والعبارات دلالة واضحة على خبث كل من اختارها وكتبها ونشرها ، وسوء نيتهم وعدائهم وسخريتهم من عقيدة الإسلام ومبادئه وسيرة رسوله الكريم .

وفي الصفحة نفسها من هذه الموسوعة التي انخدع بها - ولا يزال ينخدع بها - عدد كبير من المثقفين المستغربين ، من العرب والمسلمين ، صورة أخرى تسخر بالشخصيات الإسلامية الدينية ، مع التركيز على الاستهزاء بالزى العربي التقليدي وهي : صورة ظهرت فيها الملائكة وهي تسجد لآدم بينما جلس ابليس رافعا هامته وقد أبى أن يشارك في السجود .

وكتب أسفل الصورة التعليق التالي :

" رفض ابليس أن يعيد آدم . وقد ظهر ابليس على هيئة إنسان فوق سجادة صلاة إلى اليمين " ، والملاحظ في هذه الصورة أن هؤلاء المستشرقين الذين يضمرون كراهيتهم وسوء نيتهم تجاه الاسلام والمسلمين والعرب قد صَوَّروا الشخصية التي يتخيلها العرب والمسلمين رمزا للتدين والآداب الاسلامية ، على هيئة " ابليس " فهو (في الصورة) قد ارتدى عباءة وعمامة ، وقد أطلق

(١) وقائع ندوة التحدي الحضاري (مرجع سابق) ص ١٦٠ الى ص ١٦٣ .

لحيته وجلس فوق سجادة للصلاة بينما ظهرت فيها صورة آدم عليه السلام عاريا حليق الوجه وفي وضع مضحك للغاية ، وهل يمكن تصور صدور مثل هذا الخداع والغش والمكر من العلماء الأكاديميين؟! .

ومن الزيف الصريح ، والظلال المين الذي حفلت به هذه الموسوعة العالمية ، فى تناولها إطار العقيدة الاسلامية التى جاء بها القرآن الكريم وبينتها السنة النبوية الشريفة . زيفها عن المصادر الأصلية للعقيدة الاسلامية إذ تقول :

" إن النبى محمدا قد تبعه سبعة أئمة يتولون تفسير إدارة الله إلى الناس ، وهم بمعنى معين ، أسمى منزلة من النبى صلى الله عليه وسلم لأنهم يستمدون علمهم مباشرة من الله وليس من ملك التنزيل " . وهل يمكن تصور صدور مثل هذه الترهات من عالم باحث يريد التعرف على حقائق الأمور من مصادرها الأصلية ؟ مهما كان اتجاهه السياسى واعتقاده الدينى . وهل يخفى عليه أن الإسلام يتعرف عليه من خلال مصادره الأصلية ألا وهى القرآن والسنة النبوية ؟ ولا ينبغي أن يحكم عليه من خلال أقاويل أو أضاليل المخرفين والمخرفين ! .

وتقول الموسوعة فى مقالها بعنوان " محمد " :

" وفى أغلب الأوقات كان المسلمون يشاركون محمدا فى الصلاة فى داره التى تحولت بعد وفاته إلى مسجد المدينة " ، والواضح جدا من هذا القول أن المؤلف لاعلم له حتى بأبجدية حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتاريخ بناء مسجد الرسول بالمدينة المنورة الذى هو أهم معالم التاريخ الإسلامى ، ويعلم التلميذ المبتدئ لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أن أول وأهم عمل قام به الرسول عقب وصوله إلى المدينة مباشرة هو بناء المسجد ، الذى تضافر فى إقامته الرسول وصحابته الكرام ، وبعد ذلك شيدت دار للرسول بجواره من الطين مكونه من غرفتين ، ومنذ أول وهلة للهجرة كان مسجد الرسول فى المدينة مركزا للقيادة ومقرا للتعليم والقضاء والإدارة والشورى ، فكيف يهذى هذا الكاتب العالم الموسوعى بأن دار النبى تحولت بعد وفاته إلى مسجد المدينة؟! ولا يقتصر التشويه لصورة الاسلام والمسلمين فى دائرة المعارف البريطانية على تشويه رموز الاسلام والمعتقدات الاسلامية ، بل يصل إلى دجة تزييف الارقام والاحصاءات . ففى الكتاب السنوى لدائرة المعارف البريطانية عام ١٩٦٨ والكتاب السنوى لعام ١٩٧٢ يرد الجدول التالى:(١)

(١) د. أحمد اسماعيل - دراسات فى جغرافية العالم الإسلامى - معهد الدراسات الإسلامية القاهرة - ١٩٨٢ -

الديانة	١٩٦٨		١٩٧٢	
	العدد بالملايين	النسبة المئوية	العدد بالملايين	النسبة المئوية
المسيحية	٩٧٧.٤	٪٢٨.٨	٩٨٥.٤	٪٢٧.٧
الاسلام	٤٧٤.٣	٪١٤	٤٧١.٣	٪١٣.٣
اليهودية	١٣.٥	٪٠.٤	١٤.٥	٪٠.٤
جملة الديانات الثلاثة	١٤٦٥.٢	٪٤٣.٢	١٤٧١.٢	٪٤١.٤
معتقدات وديانات أخرى	١٩٢٦.٦	٪٥٦.٨	٢٠٨٠.٨	٪٥٨.٦
جملة سكان العالم	٣٣٩١.٨	٪١٠٠	٣٥٥٢	٪١٠٠

من هذا الجدول يبدو أن الديانة الوحيدة التي حدث تناقص في عدد أتباعها هي الاسلام . والأمر ليس قاصراً على النسبة المئوية . ولكن يمتد إلى العدد المطلق . وهذا يوضح مدى التحيز . في الوقت الذي تجمع فيه المصادر المختلفة في الغرب ذاته أن معدلات الزيادة الطبيعية والانحباب بين المسلمين أعلى المعدلات بين أتباع الديانات المختلفة ، إلى جانب إعتناق أعداد من الديانات الأخرى الاسلام ديناً لهم . وكشف التزييف الرقم الخاص باليهود فإنه يعطى إنطباعاً بثبات نسبتهم المئوية ولكن الواقع يؤكد أن نسبة الانحباب لديهم أقل وأنه دين مغلق لا يقبل أعضاء من خارجه .

* « أنطوان شلمت » أديب فلسطيني يعيش داخل إسرائيل ويعمل في صحافة اليسار ويكتب النقد الأدبي والمسرحي ، أصدر في لندن عام ١٩٩١ كتاباً بعنوان « أسطورة التكوين ، الثقافة الاسرائيلية الملفقة » والمؤلف كما يصفه - فاروق عبد القادر (١) - يصحبنا في جولة حول مختلف جوانب الثقافة في إسرائيل ولكننا نتوقف أمام الكتب الاسرائيلية التي تحط من شأن الانسان العربي والفلسطيني خاصة ، وتسفه العادات والتقاليد العربية ، في الفصل الأول يتناول الكتاب بعض الكتب التي لا يتضمنها منهاج التدريس الرسمي ، لكنها ترد في قائمة كتب المراجع للمعلمين ، والتي تقرها وزارة المعارف والثقافة في منشور دوري خاص . أول هذه الكتب

(١) فاروق عبدالقادر - الدولة العنصرية تستخدم الكتاب والمسرح والصحف والأفلام لتأكيد أهدافها - صحيفة الأهالي بتاريخ ١٩٩٢/٧/٨

وواحد من أكثرها بشاعة عنوانه « موضوعات مركزية في تاريخ الشعب والدولة إبان العصور الأخيرة » من تأليف « أمنون حيفر » الذي يقول في كتابه هذا أن كل الأقوال بشأن الحقوق التاريخية التي يحفل بها النقاش بيننا وبين العرب تفتقد إلى الحقيقة ، وناجمة لدينا عن قلة الفهم ، وقلة المعرفة والدراية بتاريخ الاستيطان اليهودي في أرض إسرائيل . إن أمتنا ولدت فرضيات كاذبة ، بينها تلك الفرضية أنه لدى عودتنا إلى البلاد ، بعد هجرة دامت ألفي سنة ، وجدنا البلاد مستوطنة من قبل شعب آخر أقام لمدة مئات السنين ، هذا غير صحيح ، لا من قريب ولا من بعيد ، الحقيقة هي أننا عندما أتينا إلى هنا ، الآن ، لم نلق أي شعب ، وبالتأكيد ، لم نلق شعباً أقام مئات السنين.... »

وطبيعته الحال لا بد أن تتعرض هذه الكتب لما حدث عام ١٩٤٨ ، وأن تسعى لتقديم إجاباتها عن السؤال : هل تم تشريد اللاجئين العرب من أرضهم ؟ الإجابة في : كتاب آخر هو « أسطورة التشريد الصهيوني » . من تأليف « أرييه أفنيري » والصادر أيضاً عن وزارة المعارف والثقافة ، الإجابة من شقين مرتبطين ، تأكيد الحق المطلق لشعب إسرائيل في العودة والاستيطان على أرض أبنائه وأجداده ، من ناحية ، وإسقاط هذا الحق ، عن الفلسطينيين من الناحية الأخرى ، وتأكيد الشق الأول لا يتم إلا بنفي الثاني ، هنا يأتي القول بأن « الجماهير العربية (لاحظ التسمية التي تهدف إلى تغييب الهوية الفلسطينية تماماً) لم يزد عددها أبداً عن ٣٠٠ ألف نسمة ، وهذه الحقيقة عائدة إلى افتقار هذه الجماهير إلى الروابط القوية بالأرض ، وإلى انعدام العوامل التي تجعل منها مجتمعاً قائماً بذاته ، ويركز الكتاب على الحديث حول « العربي » أو « البدوي » أو « المستأجر » ولا يتحدث أبداً عن الفلسطيني ، ويؤكد إختفاء الروابط بين هذا البدوي أو المستأجر وبين أرضه ، وبما أن الأرض هي الوطن فإنه يفتقد الروابط القوية بالوطن ، لهذا يتنازل عنه طائعاً مختاراً راضياً ، ثم إن هذا العربي أو البدوي « متخلف » ولا يستطيع أن يستغل جميع الإمكانيات التي تتيحها الأرض ، وهو - من ثم لا يستحقها ، ويخلص المؤلف إلى القول أنه يتعين على كل مواطن إسرائيلي مخلص للدولة والأمة ، أن يواجه مزاعم الفلسطينيين بالإنتماء إلى أرض فلسطين بإسقاطها كلياً . فكما أن أجداد العرب غادروا بلاداً عربية أخرى .. وجاؤا للسكن في الأماكن التي تقوم عليها اليوم دولة إسرائيل ، فإنه ليس اقتلاعاً قومياً أن يعود أحفاد المستوطنين العرب من تلك الفترة إلى أراضي أبائهم في بلادهم الأصلية »

ثم يقف الكاتب بالتفصيل عند كاتب قصص الأطفال « شراغا غفني » ، ومن الواضح أنه من أهم أولئك الكتاب وأخطرهم ، يكتب بإسمه السابق وبأسماء مستعارة ، وقد كتب حوالي مائة وعشرين مجموعة قصصية للأطفال وللفتيات ، وهو يعلن دائماً أنه أحد رجال جماعة « أرض إسرائيل الكاملة » وأنه عمل في صفوف المنظمات الإرهابية المختلفة ، ويؤكد ولاءه وتبعيته لأفكار

«إبراهيم شترين» ، وهو يقول فى قصصه بصراحة ووضوح " إن العربى الصالح هو العربى الميت أو العربى الذى انصهر فى الشعب العربى « وهو يصوغ مقولات التوراة فى مسلسل رائع جدا باسم «عالم التوراة للأطفال» وينطلق فيه من قبول العنصرية « تماما مثلما إنطلق مؤسس الصهيونية «تيودر هرتسل» فى صياغة مقومات أيدلوجيته من قبول العنصرية ، وإعتبارها عاملا مقررأ وهاما. ويدلل « أنطوان شلحت » على وجهة نظره بعرض مفصل لأحد أسفار التوراة هو « سفر استير» ليخلص إلى القول بأن حصيلة ما تقوله المعطيات والنماذج السالفة لا نجد تفسيراً لها إلا فى إحتواء الثقافة الاسرائيلية الرسمية ذاتها ، ومن ثم الوعى الاسرائيلى برمته ، من قبل السياسة الصهيونية ، أو بمعنى آخر فى تحويل هذه الثقافة وذلك الوعى إلى أدوات فى معركة تلك السياسة . وحرمانها من أية أصالة ذاتية أو استقلالية .

ما الموقف الذى تؤدى إليه هذه " الثقافة " تجاه الإنسان العربى ؟ وما شروطه ؟ ، وكيف تتولد تلقائيا لدى أجيال الفتيان فى إسرائيل ؟ أجرى أحد المحاضرين فى كلية التربية بجامعة حيفا - " أويركوهينى " - استطلاعاً بين طلاب الصفوف النهائية فى مدارس حيفا ، ثم كتب مقدمة لبحثه ونشر نتائجه فى كتاب : " إنعكاس شخصية العربى فى أدب الأطفال العربى " وشارك فى الاستطلاع ٥٢٠ طالبا حيفاويا ، طلب إليهم أن يكتبوا حول خمسة موضوعات :

أولا : ما هى التدايعات التى يثيرها سماع كلمة : عربى ؟

ثانيا : كتابة قصة أو وصف قصير ، أو موضوع إنشاء ، حول لقاء مع عربى .

ثالثا : تلخيص كتاب قرأوه ، وينطوى على وصف للعربى ، وشرح تأثيره عليهم .

رابعا : محاولة شرح أسباب النزاع مع العربى .

خامسا : المجاهرة بأرائهم فيما إذا كان إحراز السلام ممكنا ، وفيما إذا كان ممكنا قيام حياة صداقة وتعاون مع العرب

وقد تمثلت أهم نتائج الاستطلاع فيما يلى :

أولا : مستوى الخوف من العربى عال بشكل مذهل ، ففى أكثر من ٧٥ ٪ من الإجابات ترافقت شخصية العربى مع " خاطف الأولاد والقاتل " و" المخرب " و"المجرم "وما إلى ذلك .

ثانيا : تجريد شخصية العربى تجريدا سلبيا (قوليبتها) ، ففى حوالى ٨٠ ٪ من الأجابات تأطرت تشايبه العربى فى العبارات التالية :

" يعيش فى الصحراء و" راعى بقر " ، " ذو سحنة مخيفة " ، " فى وجهه ندبة " قدر "وتن " ، تنبعث منة رائحة كريهة " .: ألغ .

ثالثا : الجهل التام بين أوساط الطلاب اليهود لشكل العربى وهيبته وتاريخه وعاداته ، فقال بعض الطلاب إن العرب أصحاب شعر أخضر ، وأكد البعض الآخر أن العرب لهم ذبول " .

رابعا : تسعون بالمائة من الطلاب يتنكرون لحق العربى فى البلاد ، ويؤمنون بأنه ينبغي قتلهم أو شنتهم أو ترحيلهم .

خامسا : قاتل هم الذين حاولوا شرح أسباب النزاع مع العرب بقدر من التفصيل ، وأكتفى الباقون بجمل مقتضبة ومبتسرة مثل " إنهم بنو قتلنا " ، " وتشريدنا من البلاد " واحتلال مدننا وقذفنا فى البحر !

سادسا : غالبية الطلاب الذين يرغبون فى السلام يرون أن السلام يعنى تسليم العرب بالسيادة الاسرائيلية على " أرض اسرائيل الكاملة " بما فى ذلك الضفة الغربية وقطاع غزة .

تعليق : أليس هذا كله هو الحصاد الطبيعى والمطلوب ؟!

آيات شيطانية :

فى أكتوبر ١٩٨٨ نشر الكاتب « سلمان رشدى » رواية فى لندن عنوانها آيات شيطانية ، و « سلمان رشدى » من الهنود المسلمين ، أصبح قبل ما يزيد عن ثلاثين عاما من نشر رواية انجليزى الجنسية .

والكتاب رواية وليس بحثا فى الاديان ولا نقداً للتدين . ولغة الرواية هى الانجليزية التى يكتب بها سلمان . هذه الرواية تحمل - كما وصفها الكاتب القدير « فهمى هويدى » بعد قراءتها - قدرا من الفحش غير المسبوق فى سب الإسلام . فالمؤلف لم يترك رمزا من رموز الاسلام إلا وسبه وهتك حرمة . والمؤلف - على حد وصف فهمى هويدى - لم يترك للقارى مجالا للإلتباس ، وإنما أشار إلى الجميع بإسمائهم الصريحة.

وإمعانا فى ذم النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه أشار إليه بكلمة " مهوند " ومعناها الشرير أو النبى المزيف . وهو فى كتاب سلمان رشدى مصاب بالصرع والهلوسة . وفى مستهل الكتاب يصف سيدنا ابراهيم أبو الأنبياء بأنه ابن زانية . ثم يصف الصحابة بأنهم من الأوباش والحثالة ،

وزوجات الرسول أمهات المؤمنين توزعت أسماؤهن على مجموعة من الساقطات يعملن في بيت للدعارة يحمل اسم الحجاب .

وقد ظل أمر هذا الكتاب عند صدوره فى وسائل الاعلام العالمية والعربية هينا حتى أصدر الإمام " الخميني " رحمه الله فتوى باهدار دم المؤلف وحث المسلمين على قتله . واهتزت دوائر الغرب السياسية والإعلامية وأرغمت وأزبدت ، فسحبت أثنى عشر دولة أوربية غربية سفراءها من إيران . واعتبرت المؤسسات الغربية والولايات المتحدة الامريكية هذا السباب قضية حرية رأى . واعتبرت فتوى الإمام الخميني ردة حضارية وتعصبا إسلاميا وعودة الى القرون الوسطى . ومن هذا الهدير الغربى نشرت صحفنا العربية أطرافا من الحكاية . وكان طبيعيا أن يتصدى كتابنا العرب للموضوع لاعتبارات متباينة . ومن خلال سبيل الكتابات المصرية تبين أن من قرأ الرواية وألم بأطرافها هم : أنيس منصور ، وأحمد بهاء الدين . وفهمى هويدى . قال أنيس منصور (١) تحت عنوان (سلمان الكذاب ٠٠ مؤامرة على الاسلام) إن سلمان رشدى يستحق ضرب الجزم (الأحذية) من كل المقاسات . فما هى هذه الرواية ؟ انها رواية طويلة فى ٥٤٧ صفحة . وقد إنطلق خيال المؤلف فى كل الاتجاهات .. طبعاً هو كمسلم يعرف الكثير من الأحداث فى تاريخ السيرة النبوية ، وعدد من الأسماء العربية من الصحابة . هذه الأسماء قد حرفها . وهذه الرواية قد بدأت بانفجار إحدى الطائرات الهندية فوق بحر « المانش » ليموت كل الركاب ، وينجو إثنان من نجوم الشاشة الهندية . أحد هما أسماء جبريل رمز الخير ، والآخر رمز الشر . ويسقط الاثنان على الأرض دون أن يصاب أحدهما بأذى ، ولكن بعد ذلك تبدأ المشاكل .

والمؤلف عنده عدة مشاكل نفسية وثقافية ، فهو هندي وليس هنديا . بريطاني وليس انجليزيا ، فهو هندي حتى العاشرة من عمره وبريطاني بعد ذلك . وروايته هلوسة تاريخية وفنية- وهو يلعب بالأحداث وبالأسماء . فمكة يسميها الجاهلية . وأبو سفيان يسميه أبو سميل والرسول صلى الله عليه وسلم يسمينه « محندا » . ثم يصفه هو وجبريل بأنهما من رجال الأعمال . وأن القرآن الكريم ينزل على شكل أوامر من جبريل للناس فى كل شئ . فى الطعام والشراب وكيف ينامون معا وكيف يستحمون ، وكيف العلاقات فى الفراش ويعيدا عنه . وأسلوب سلمان رشدى عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن القرآن وعن الوحي فيه قدر هائل من الوقاحة والاستخفاف والتشكيك ، والهلوسة المسمومة . ويختتم أنيس منصور مقاله قائلا : المؤكد أن سلمان الكذاب قد تعمد الإساءة إلى الإسلام والقرآن والرسول والوحي ، وكل العلاقات الشريفة الرفيعة للرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) أنيس منصور - سلمان الكذاب ٠٠ مؤامرة على الإسلام - صحيفة أخبار اليوم بتاريخ ٢٥ / ٢ / ١٩٨٩ .

أما فهمى هويدى (١) فقد ذكر أنه تلقى الكتاب وقرأه . وإن أمرين استلفتا نظره . أكذوبة مألوفة ، وفحش غير مألوف ، وهذا الفحش هو سب رموز الإسلام الظاهرة سباً لم يسبق مثله أما الأكذوبة المعادة ، والمكررة فى كتب المستشرقين فخلاصتها أن الشيطان استطاع أن يُلقي على لسان النبی صلى الله عليه وسلم بآيات تمتدح الأصنام وتُعظم من شأنها وتثبت شفاعتها للناس عند الله ، وتلك هى الآيات الشيطانية التى جعلها المؤلف عنواناً لكتابه . والقصة لها أصل مدسوس فى بعض كتب التراث ، ويُرجع العلماء وضعها إلى الزنادقة . ويضيف فهمى هويدى أن المرء يُصعق وهو يقرأ كتاب سلمان رشدى، ويشعر بأن إنساناً جاحداً وكارهاً يلاحقه بسكين مسموم ، يغرزه فى قلبه كلما لاحت له الفرصة . ينتهك عقيدته ويمزق أوصال إيمانه ، ويدوس عليها بحذاء قذر.

وتناول أحمد بهاء الدين (٢) هذا العمل فقال إنه رواية تزيد عن خمسمائة صفحة ، وكتابتها « سلمان رشدى » الهندى المسلم سابقاً الانجليزى الملحد حالياً . وقد كتب هذه الرواية بطريقة مغرقة فى الخيال ، أقرب إلى الأحلام غير المنطقية ، للتعبير عن غريته وتخلصه من هنديته وحياته القديمة ، بما فيها الإسلام . ولكنه اتخذ الإسلام مادة له فى هذه القصة . ويقول أحمد بهاء الدين : لن أحاول هنا سرد القصة أو تلخيصها ، فناقِل الكفر فى هذا المجال كافر ، وما قاله فيها فاحش ومفجع لأى مسلم . ويضيف أحمد بهاء الدين أنه يمكن الإشارة إلى الرواية فى أضيق الحدود . وتبدأ الرواية بنسف طائفة فى الجو فتسقط فوق « المجلثرا » . ينجو هنديةان ويبدأن حياتهما الجديدة . يروى الكاتب أحلامه وذكرياته وهلوساته الفنية . وسلمان رشدى يُدخل الأزمة فى بعضها البعض ، الجاهلية متداخلة فى الإسلام ، وشبه الجزيرة فى لندن الحالية ، وصوت بلال ينطلق من ميكروفونات الإذاعة . كله بأسلوب ساخر مستهتر ، محتقر لكل هذا . وهو لا يخفى كفره وارتداده ، وإنما يسجله فى أواخر الكتاب حين يسجل سعادته بأنه صار انجليزياً ، ونجماً من حياته الأولى ، ويضيف أحمد بهاء الدين قائلاً ، على هذا النحو من الهلوسة الفنية صاغ سلمان رشدى روايته ، وتجرأ على الإسلام ورموزه ببذاءة ليس لها مثيل فى أى كتاب آخر عن الإسلام .

(١) مقال فهمى هويدى بجريدة الاهرام بتاريخ ٢٨ / ٢ / ١٩٨٩ م.

(٢) أحمد بهاء الدين - سيويعيات - جريدة الاهرام بتاريخ ٢٥ / ٢ / ١٩٨٩ ، ٢٦ / ٢ / ٢٧ ، ٢٨ / ٢ / ٢٩ ، ٣٠ / ٢ / ٢٩ ، ٣١ / ٢ / ٢٩ .

وكشف أحمد بهاء الدين عن موقف دار النشر وهي دار «بنجوين» التي يصفها بأنها أشهر وربما أكبر دار نشر إنجليزية فقال إن دار «بنجوين» لها جزء هندي ، بإعتبار سوق قراءة اللغة الإنجليزية في شبه القارة الهندية من أكبر الأسواق . ودور النشر الكبرى في العالم الخارجي تعرض المخطوطات التي تتلقاها على نقاد خيرا في الموضوع مهما كان حجم الكتاب ليكون هناك أكثر من رأى . وقد ظهر أن دار «بنجوين» للنشر عرضت مخطوط آيات شيطانية قبل نشره على أستاذ وخبير هندي - غير مسلم هو «مستر كوشوانت سنج» وقد قال وأعلن ذلك في صحيفة «التاميز» الإنجليزية أنه رفض الموافقة على نشر الرواية ، وأنه كتب تقريرا بذلك لدار «بنجوين» وبعد فترة عادوا فطلبوا منه تقريرا آخر ، فكتب لهم تقريرا ثانيا يؤكد رأيه الأول في خطورة نشر هذا الكتاب ، وقال لهم إن الكتاب ينطوي على إساءة غير محتملة ، بالنسبة لتسعين مليون مسلم هندي ، وأنه يعتقد أن الحكومة الهندية لن تسمح بطبعه في الهند . ولكن دار «بنجوين» برغم هذه التحذيرات لم تأخذ برأيه ونشرت الرواية (١)

والواقع أن «سلمان» ودار النشر ينفذان في آيات شيطانية عنصرا من عناصر خطة العمل التي اقترحتها قادة الحرب الثقافية ضد الاسلام من الاوربيين في القرن الثاني عشر الميلادي ، وهي تنفيذ تعاليم الاسلام ورموزه وإثارة السخرية حولها والاستخفاف بها .

ويقول الدكتور أحمد عبد الرحمن (٢) إن هذه الخطة لا تزال تطبق في أوروبا وأمريكا إلي اليوم « فمنذ ذلك التاريخ لم تنقطع السخرية بالقرآن الكريم ، ولم يوقف الاستخفاف بنبي الاسلام ، وبذلت المحاولات بلا إنقطاع لتصوير محمد صلى الله عليه وسلم على أنه المسيح الدجال ، والنبي الكاذب . ومؤسس أشنع فرقة دينية في تاريخ المسيحية ، لقد لاحظ بعض كتاب الغرب المعاصرين أنه من بين عظماء العالم أجمعين لم تشوه سيرة كما شوهت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يؤذ أحد كما أذى . وهي ملاحظة صحيحة دون شك . وفي الشعر الاوربي بمختلف اللغات اللاتينية والفرنسية والالمانية والانجليزية ملاحم طويلة تنسب الرسول صلى الله عليه وسلم وتشتم دينه وتتناول على القرآن الكريم »

إن الجمهور المستهدف في المقام الأول المسلمون الهنود لتشكيكهم في دينهم ثم في المقام الثاني غير المسلمين حتى لا يقتربوا من الاسلام . لقد ظهر ذلك واضحا من سلمان رشدي نفسه . فبرغم إختفائه عقب إعلان فتوى الامام الخميني رحمة الله إلا أنه صاح من مخبئه عندما منعت الهند دخول الكتاب . فقد كان من ضمن البلاد التي بادرت بمنع دخول الكتاب إلى بلادها الهند

(١) أحمد بهاء الدين - يوميات - جريدة الأهرام - بتاريخ ٨ - ٣ - ١٩٨٩ م

(٢) د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم - كتاب آيات شيطانية ، الصباغات الجديدة لتراث الإنساف ، صحيفة الشعب

بتاريخ ٢٨ - ٢ - ١٩٨٩ م .

والذي أصدر قرار المنع ، وزير مالية الهند عن طريق مدير الجمارك . وقد أرسل سلمان رشدي خطاباً إلى رئيس وزراء الهند (١) ، يرجو فيه أن يقرأ كتابه « آيات شيطانية » ، ثم يحكم عليه ، وقد نشرت الرسالة جريدة « النيويورك تايمز » وهذه أول رسالة يكتبها سلمان رشدي من مخبئه يقول فيها : عزيزي راجيف غاندي . أصدر وزير ماليتكم قراراً بحظر دخول روايتي (آيات شيطانية) بمقتضى المادة ١١ من قانون الجمارك الهندية . وقد دهش الناس في أنحاء العالم أن يكون وزير المالية هو الذي يقرر ماذا يقرأ الشعب الهندي وما لا يقرأ ؟ وقد منع الكتاب بناء على طلب إثنين من أعضاء مجلس البرلمان الهندي المسلمين وهما : سيد شهاب الدين ، وخورشيد علام خان ، ومن المعروف أنهما من الجماعات الإسلامية المتطرفة ، وأنهما صرحا بأنهما لم يقرأ الكتاب بعد ، والحكومة الهندية بإستسلامها لهذا المنطق أمر يدعو إلى القلق العميق . أن الأمر يدعو إلى الاستغراب الشديد . هكذا يقول (سلمان رشدي) مخاطباً « راجيف غاندي » ، لأن مثلي كمثلي « إنسان برئ ، إختير هدفاً من البعض فيوضع في السجن لحمايته ويمضى سلمان رشدي ، قائلا : دعنا « نميز بين الحقيقة ، والزيف » وأنت ياسيادة الرئيس (راجيف) لم تقرأ كتابي ، تماماً كما فعل أعدائي ، ولذلك دعني أشرح لك بعض الحقائق البسيطة ، فأنا متهم بأنني صرحت بأن كتابي يهاجم الإسلام . أنا لم أصرح بشئ من هذا القبيل وأنكر أنني فعلت هذا ، والجزء من كتابي محل الاتهام والكتاب كله بالمتناسبة لا يتناول الاسلام في موضوعه بتاتاً ، ولكنه يتحدث عن (الهجرة ، وتغير الأشياء ، وإنقسام الشخصية ، والحب والموت ، ولندن ، وبومباي) وهو يتحدث عن نبي - ليس اسمه محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يعيش في مدينة خرافية من الرمال ، تنهار بمجرد سقوط الأمطار عليها ، وهذا النبي محاط بأتباع خرافيين يحمل أحدهم بالصدقة الجزء الأول من اسمي .. كل هذا الجزء من الرواية ، يحدث برمته في المنام حين يحلم شخص خرافي ، حلما خرافيا ، هذا الشخص هو نجم سينمائي هندي . ويمضى مخاطباً راجيف غاندي . إن ترك أمر هذا الكتاب إلى وزير المالية ، والجماعات المتطرفة من كل إتجاه ، من أجل الحصول على أصواتهم هو إستخدام كتابي « كرة قدم في اللعبة السياسية » .

هكذا تكشف رسالة الكاتب الى حاكم الهند جانبا مما كانت تهدف إليه الرواية .

وقد إستطاع سامي خشبة (٢) ، أن يحلل أهداف سلمان رشدي في روايته تحليللا يؤكد توظيف فصول الرواية للدعاية المضادة للإسلام والمسلمين فيقول : « إن الرواية موجهة إلى جمهور

(١) - سعد كامل - خواطر سياسية ، في الجانب الآخر من فتوى الحوميني ، جريدة الأخبار بتاريخ ٥-٣-١٩٨٩م

(٢) سامي خشبة - الأسئلة الأولى والملاحح الخارجية في آيات شيطانية - جريدة الأهرام بتاريخ ١٢/٥/١٩٨٩م

المسلمين المقيمين في أوروبا الغربية والطمحين إلى هدفين في وقت واحد : الهدف الأول هو أن تقبلهم المجتمعات الغربية التي هاجروا إليها -وكسب الكثيرون منهم جنسياتها - قبولاً نهائياً بوصفهم أعضاء أساسيين ومواطنين لهم كل حقوق وامتيازات الموطنة وذلك في مواجهة موجة الكراهية العنصرية والتطبيقية ضدهم والتي ترسمها الرواية أيضاً باستفاضة و الهدف الثاني الذي نتحدث الرواية عنه بأنه الهدف الرئيسى للمسلمين الملونين في أوروبا هو قولهم بأن الاسلام هو هداية أوروبا وخلصها وإنقاذها من نفسها .

إن أحد بطلى الرواية المسمى « جيريل فاريشتا » الذى أصابه سقوطه من الطائرة بخلل عقلى كما تقول الرواية يتخيل نفسه سيدنا جيريل رسول الله إلى الأنبياء وكبير الملائكة ، إن جيريل الروائى المختل عقلياً يقرر فى نوبات مرضية أن يهدى لندن رغم أنفها، مثلما ساعد من قبل فى تحويل العرب ومدينتهم التى يسميها المؤلف الجاهلية . ولكن جيريل الروائى لا ينفرد بهذه الرغبة فى فرض هداية الإسلام على لندن ، وإنما يشاركه فيها الكثيرون . هكذا يقدم سلمان رشدى المسلمين المستوطنين فى أوروبا الغربية ، باعتبارهم خطراً داهماً على أوروبا ، وعلى تكوينها الحضارى والعقائى ، ليس فقط بوصفهم إرهابيين فعليين أو محتملين ، وإنما أقلية تتكاثر بسرعة وتجذب أعداداً متزايدة تمثل خطراً داهماً على أوروبا والغرب .

تعقيب :

إن كتاب آيات شيطانية حلقة فى سلسلة طويلة متعاقبة . فقبل سلمان رشدى بأكثر من قرن من الزمان نقرأ فى صحيفة العروة الوثقى»(١)

« إن الافرنج تأكد لديهم إن أقوى رابطة بين المسلمين إنما فى الرابطة الدينية وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية ، ولأولئك الإفرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم إلى بث الأفكار الساقطة بين أرباب الديانة الإسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وقصم حبالها ليقضوا بذلك على الملة الإسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً وتمضى العروة الوثقى قاتلة : « من هذا ما سلك الانجليز فى الهند لما أحسوا بالعراء بخيال السلطة يطوف على أفكار المسلمين لقرب عهدا بهم وفى دينهم ما يبعثهم على الحركة إلى إسترداد ما سلب منهم . وأرشدتهم البحث فى طبائع الملل إلى أن حياة المسلمين قائمة على الصلة الدينية وما دام الاعتقاد المحمدى والعصبة المليية سائدة فيهم فلا يؤمن من بعثهم إلى طلب حقوقهم ، فاستهوا طائفة ممن يتسمون بسمه الاسلام ، ويلبسون لباس المسلمين ، وفى صدورهم غل ونفاق وفى قلوبهم زيغ وزندقة . وهم المعروفون بالدهريين ، فاتخذهم الإنجليز أعوانا لهم على فساد عقائد المسلمين وتوهين علاقتهم بالتعصب الدينى ، ليطفئوا بذلك نثار حميتهم ويخمدوا ثائرة غيرتهم ، ويبددوا جمعهم ويمزقوا

(١) العروة الوثقى - الطبعة الثانية - دار العرب للبستانى - القاهرة - ١٩٥٨ ص ٤٦ .

شملهم .وساعد الانجليز هؤلاء على إنشاء مدرسة كبيرة ، وإصدار صحيفة لبث الأباطيل بين الهندين حتى يعم الضعف فى العقائد وتضعف الصلات بين المسلمين ، فيستريح الانجليز فى التسلط عليهم» .

ومع موجة التشويه العالمية لصورة الإسلام والمسلمين ، وإتهامهم جميعا بالإرهاب والبربرية ، تطالعنا كتب عربية مؤلفين عرب ، يمكن تسميتها بكتب الفتنة . بعضها سافر الوجه ظاهر القصد فى الهجوم على الإسلام وعلى العرب وعلى الفكر الإسلامى . وبعضها يختفى وراء مسميات ومصطلحات مثل المستقبلية ، والحداثة والتنوير . وبعضها مقحم كأنه دسيسة فى بضاعة ، يترىص بها تاجرها فرصة بيع أو سوق من الأسواق فيدسها فى بضاعته زيادة على البيع الذى يبيعه .

والمثال نجده عند الدكتور غالى شكرى فى كتابه ذى العنوانين : أقنعة الارهاب - البحث عن علمانية جديدة . الذى نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر عام ١٩٩٢ . إن المؤلف قبل مقدمة الكتاب يدس على القارئ ثمانى صفحات بعنوان « برولوج » عبارة عن رسالتين : الأولى من فرج فودة ، وهى ليست من فرج فودة ...! إنما تخيلها المؤلف ، وفيها كلام من نخاع الفتنة حيث يقول غالى شكرى فى الرسالة التى تخيلها من فرج فودة مخاطبا قاتله : « كان أبوك الذى يرسلك إلى العم جرجس لتأتيه بما لذ وطاب من الجبن والزيتون وكانت أمك هى التى تحملك كعك العيد إلى الست جميانة . وكنت وإخوتك تلعبون فى الحارة مع إبراهيم وسعدية وبطرس ... ويمضى غالى شكرى فى رسالته التى جعلها على لسان فرج فودة مخاطبا قاتله فيقول : فى السادسة من عمرك ذهبوا بك إلى المدرسة البعيدة عن الحى وذات يوم أثناء عودتك من المدرسة - هل تذكر - قابلك بطرس فلم تقف وتصافحة كما هى عادتك . قلت لوالدتك فى السر : لن ألعب معه بعد الآن ، لأنه وأهله أجمعين سوف يذهبون إلى النار ، هكذا قال الأستاذ ، وهكذا قرأت فى كتاب المحفوظات ... وذات يوم آخر ، أنت لا تنسأه قال الأب أنه سمع وشاهد فى التلفزيون عند أحد الأصحاب كلاما قريبا مما سبق أن سمعته فى المدرسة عن الكفرة والمشركين أعداء الله . ثم يمضى غالى شكرى قائلا: فى إحدى ظلمات الليل وفى رقعة من الصمت والسر والخوف الغامض قيل لك إن المسدس هو الذى يبنى البيت الجديد ، وهو الذى يحقق وجودك ويكسبه معنى . به تظهر الاسلام من الجاهلية الجديدة وتفتح دياراً للإسلام ما زالت فى غيبوبة الكفر »

هكذا يدس غالى شكرى على القارئ أن تعليم المحفوظات فى المدرسة الابتدائية فى مصر هو سبب الفتنة الطائفية وهو سبب الإرهاب ...!! وأن برامج التلفزيون المصرى المزدحمة بالرقص والغناء والمسلسلات والاعلانات تسبب الإرهاب لأنها تقدم قليلا من البرامج الدينية بعضها يفسر القرآن الكريم !! هكذا يكون نموذج الدس . فإذا عرفنا أن فرج فودة كاتب مصرى مسلم أبدى آراء

فى الفكر الاسلامى إعتبرها شباب مسلمون مصريون أنها تسخر من أفكارهم فوقع الصدام . فرج فودة إستخدم فى حربه معهم مساحة واسعة من الإعلام، فردوا هم بالرصا ص . فقتلوه . وهو أمر مؤسف متكرر فى التاريخ . ولكن اصطياد الحادثة ، ووضع لحن جنائزى كنسى عليها هو الدس وهو البهتان .

الصحافة

لكى ندرك دور الصحافة فى الغزو الثقافى تتبادر إلى أذهاننا تساؤلات ، ومن الإجابة عنها، وتحليل الإجابة ، وما يحيط بها ، تتحدد ملامح الدور الذى إقترفته الصحافة فى الغزو الثقافى بإعتبارها وسيلة أساسية من وسائل هذا الغزو فى المجتمع العربى ؟ أول هذه التساؤلات : من أنشأ الصحف فى الوطن العربى ؟ ومن الذى كان وراء إصدارها ؟ ومن الذى أمدها بالمال والتأييد ؟

ثم ما هو المضمون الذى نشرته هذه الصحف ؟ ما هى الأفكار والقضايا التى وقفت منها موقف الدفاع أو الهجوم ؟ وما هى المادة الإعلامية التى قدمتها لقراءها ؟ ثم ما هى الأهداف التى سعت الصحف لتحقيقها ؟ هذه التساؤلات تتعلق بالصحف العربية التى صدرت فى الوطن العربى باللغة العربية متوجهة أساسا إلى القارئ العربى . ولكن خارج الوطن العربى هل اقترفت الصحف الأجنبية دوراً فى الغزو الثقافى ضد العرب ؟ وما المدى الذى بلغته ؟ وما الأثر الذى خلفته ؟ وفى داخل الوطن العربى صدرت صحف بلغات أجنبية - فى مصر مثلاً - أصحابها ومصدروها أجنبىة يحمل بعضهم الجنسية المصرية ، وتقف وراء كل منها قنصلية من قنصليات الدول الكبرى المعنية بأمور مصر فى ذلك الوقت . فماذا كان دورها ؟ إلى جانب تلك الصحف المختلفة صدرت صحف تعبر عن أقليات أو منظمات مثل الصحف «اليهودية» فى مصر والصحف «الماسونية» فى مصر أيضا . فهل كان لها ثمة دور فى ذلك الصدد ؟

لقد كانت نشأة الصحف فى البلدان العربية ، وفى مصر على وجه الخصوص فى كنف الحكام ثم فى كنف القراء بحكم حركة التطور فى التعليم والتقدم السياسى . وفى المواجهة بين الاحتلال العسكرى والصحافة الذى سجلته وقائع الغزو البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ تبدو صورة للغزو بالصحافة يمكن تعميمها على نموذج الغزو الثقافى للعالم العربى والعالم الاسلامى ، فى القرنين التاسع عشر والعشرين . كذلك يمكن تعميم الصدام الصحفى بين القوى الوطنية وبين الاحتلال ومؤازريه فى التجربة التاريخية المصرية تعميما ينطبق على صور الصدام الصحفى فى البلدان العربية والاسلامية بين الغازى ومؤازريه وبين القوى الصحفية الوطنية .

وقصة الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٩٨٨٢ ليست قصة إحتلال وحسب ، وإنما هى قصة القضاء على ثورة وطنية مسلحة بقيادة عربى ، وقصة وأد للتطور السياسى والاجتماعى فى مصر وإحكام طوق الهيمنة الغربية عسكريا وثقافيا بعد الهيمنة الاقتصادية . وينزول القوات الإنجليزية

الاسكندرية واحتلالها أصبحت في مصر صحافتان، صحافة في القاهرة وصحافة في الاسكندرية التي انتقل إليها الخديوي، تصف عرابي ورجاله بالبغية والجهال العاصين . أما عن الصحافة في عهد الاحتلال فقد شوهت صورة الثورة العربية والنضال الوطني بصورة لم يسبق لها مثيل ، فقد صورت الثورة ورجالها بأنهم أتوا كبيرة لم تعرفها أمة من الأمم . واستلم الانجليز - على حد تعبير الدكتور إبراهيم عبده - أمة ذاهلة أوفى شبة ذهول ليس لها قادة فقد أخرجهم الاحتلال من الميدان ، فظهر الحمود على الخاصة ، وبلغ الإعياء عند العامة مبلغا مضى بهم إلى لون من التسليم . (١)

بل إنه مما يلفت النظر في مجال الغزو بالصحافة أن الخطوات الأولى للغزاة بدأت قبل نزول القوات أرض مصر ، وبإحكام الهيمنة كان يهدف إلى حجب تأثير الرأي العام الخارجى عن الواقع المصرى حتى يمكن تنفيذ الجريمة في هدوء

ويورد الدكتور إبراهيم عبدة (٢) في كتابه تطور الصحافة في مصر واقعة لها دلالتها وهي أن جريدة لينجيت « L'Egypte » التي يصدرها فرنسي في القاهرة نشرت في ٢ أكتوبر ١٨٨١ مقالا عرضت فيه بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فهاجت لذلك الصحافة المصرية ولفقت النظر إلى هذا المقال فصدر الأمر بتعطيلها ، كما ذكرت الوقائع المصرية في ٨ / ١١ / ١٨٨١ ، وحاول صاحبها أن يحتوى بالقنصلية الفرنسية غير أن حزم الحكومة المصرية حال دون هذا التدخل ، كما يذكر الراقعي في كتابه عن الثورة العربية ، وذكرت صحيفة المحروسة في ٧ / ١١ / ١٨٨١ في إبتهاج شديد نبأ إغلاق جريدة "L'Egypte" وموقف الحكومة المشرف من القنصل الفرنسي الذي نصح صاحبها بمغادرة البلاد ، ثم يورد موقفا يبين مدى الدور الذي أدته الصحف الأجنبية التي صدرت في مصر تعبيراً عن التدخل الأجنبي في شئون مصر المالية بوجه خاص ، بسبب الديون وفوائدها ، قبيل الغزو الإنجليزي العسكري لمصر. وذلك أن صحيفة «الاجيشيان جازيت» Egyptian Gazette حملت على البرلمان المصرى حملة عنيفة فردت عليها صحيفة المحروسة بأن «الاجيشيان جازيت» تكيد للمواطنين ، وتزعم تعصبهم للدين وحملتهم على المسيحيين .

وأشارت إلى مصر البلد الذي يكرم الأجانب ، وهم يسيئون إليه . وأكدت بعد المصريين عن التعصب في أمور الدنيا أو شئون الدين . وساهمت معظم الصحف الأوربية في لندن وباريس في الحملة على المصريين ومجلس نوابهم وحكومتهم . (٣)

وإلى جانب ذلك كانت وكالتا « رويتر » و« هافاس » خاضعتين لنفوذ المراقبة الثنائية

(١) د . إبراهيم عبده - تطوير الصحافة المصرية - مرجع سابق ص ١٣٣ .

(٢) د . إبراهيم عبده - تطور الصحافة المصرية - مرجع سابق ص ١١٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٠ .

(الانجليزية والفرنسية) في مصر . ولا ترسل « رويتر » برقيات إلى لندن إلا بعد إجازتها من القنصلية البريطانية أو الرقيب الانجليزي . وقد أضر هذا الأسلوب الصحفي بالقضية المصرية في الخارج ، إذ وضعت الأنباء الصحفية تحت المراقبة السياسية أو ما يشابهها ، فقد كان لموظفي فرنسا وإنجلترا في مصر السيطرة التامة على الأخبار التي يجوز أو لا يجوز إرسالها إلى لندن ، (١) وبذلك أمكن تشويه صورة الثورة العربية حتى يمكن إحكام مؤامرة الغزو العسكى .

وقد لاحظ الدكتور إبراهيم عيده (٢) وهو يؤرخ للصحافة المصرية قبيل الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ أن الصحفيين المصريين لم تكن لهم الزعامة الصحفية فى بلادهم . لأن محررى تلك الصحف وأصحابها فى أكثرهم غير مصريين . ويرى الدكتور إبراهيم عيده أن ذلك كان مصدرا من مصادر التصدع فى الوحدة الصحفية المصرية . ويقول أن بعض الصحف المصرية أو المتحصنة كانت تعتمد فى حياتها على القنصلية الإيطالية أو الفرنسية أو الروسية .

وقد أحصى أمين سامى باشا الصحف الصادرة فى مصر قبل الاحتلال البريطانى لمصر إحصاءً يبرز بصورة واضحة قدر التدخل الأجنبى وحجمه فى مصر إقتصاديا وثقافيا ، بل وحجم الوجود الأجنبى فى مصر تحت مظلة الامتيازات الأجنبية ، فقال بأن الجرائد التى كانت منتشرة فى عصر الحديوى إسماعيل سبع وعشرون ، منها تسع باللغة العربية ، وواحدة باللغة العربية والتركية وواحدة بالعربية والفرنسية وواحدة بالعربية والإيطالية . والباقى خمس عشرة جريدة باللغات الفرنسية والإيطالية واليونانية و الانجليزية . (٣)

وفى ظل الثورة العربية ومخاطر التهديد الأجنبى لمصر متمثلا فى غزو الانجليز لمصر عسكريا تعتمد صحيفة الأهرام إلى نشر رأى الغرب فى الشئون المصرية ، ثم تنشر رأى الحكومتين الانجليزية والفرنسية فى الحركات السابقة على تأليف وزارة شريف باشا ، وموقفها الجديد " لكبح كل حركة " وهى تنذر العربيين وأحمد عرابى بالذات . (٤)

وقد عمدت الأهرام إلى التحدث عن أوروبا وتقديمها من الناحيتين المادية والأدبية ، وقابلت بينها وبين تركيا . فأفرطت فى ذكر المساوئ التى نتجت عن نظم الحكم العثمانى ثم نقلت عن صحف لندن ، حملات على الباب العالى ، وفى ألقاظها ما لا يليق أن ينشر ، حتى أن الحكومة

(١) المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٢) د . ابراهيم عيده : تطور الصحافة المصرية (١٧٩٨ - ١٩٨١) الطبعة الرابعة - مؤسسة سجل العرب - القاهرة ص ١٩٨٢ م ص ١٠٢

(٣) د . بنت الشاطىء - جيل الشتات الفكرى والثقافى - جريدة الأهرام بتاريخ ٤ / ٢ / ١٩٩٣ .

(٤) الأهرام فى ٨ / ١٠ / ١٨٨١ .

أُنذرتها مرتين . (١) هكذا كانت الصحيفة خنجرا في ظهر الحركة الوطنية بدلا من أن تكون سيفاً في يدها على العدوان الخارجي .

ولما دخل الإنجليز القاهرة ووسطوا غزوهم على مصر كلها ، وضعوا حكومة تنفذ أوامره وتخطو خطاهم . فألفت وأنذرت الصحف الوطنية خلال أربع سنوات من الاحتلال . ومنعت صحيفة « العروة الوثقى » التي كان يصدرها الأفغانى ومحمد عبده في باريس من دخول مصر . بل إن التعطيل وصل إلى جريدة لوبو سفور اجيسيان Le Bosphore Egyptien وهي صحيفة فرنسية النزعة تحتمى بالقنصلية الفرنسية . وكان تعطيلها بسبب دأبها على الخط من الاحتلال ، وتَبَّعَ تَقَاتُصه ونشرها . وكانت تصدر باللغتين الفرنسية والعربية . هذه الصحيفة نُشرت منشور الزعيم السودانى «المهدى» عند قيام الثورة المهدية في أبريل ١٨٨٥ ، وكان هذا هو السبب المباشر في تعطيلها . ولكن القنصلية الفرنسية عندما فشلت في تدخلها لمنع ذلك محليا ، كتبت إلى الحكومة الفرنسية بذلك ، فهددت بقطع العلاقات مع الحكومة المصرية إذا لم تعتذر الحكومة وتعيد الجريدة المطبوعة إلى الحياة . وذهب نوبار باشا بملابسه الرسمية إلى معتمد فرنسا وقدم إعتذاره ، وعادت الجريدة المطبوعة . وكان ذلك يَتَخَلَّى الإنجليز عن «نوبار» في تلك المحنة ، بل وتُصَحِّم له بحل الموقف مهما يكن الثمن .

لم يكتف الإنجليز عند إحتلالهم مصر عام ١٨٨٢ بتعطيل الصحف الوطنية التي ساندت الثورة العربية ، بل أبعدت الأقلام الوطنية بطرق مختلفة عن الصحافة . وقدمت مبالغ سخية للصحف غير الوطنية بحجة أن خسائر مالية أصابها بسبب ظروف الثورة العربية ، وأسمنت هذه الأموال تعويضات . فتسلمت الأهرام ١٨٠ ألف فرنك بما يزيد عن ثمن مطبعتها أكثر من ثلاث مرات . وقبض سليم نقاش ٤٠ ألف فرنك تعويضا . (٢)

وبالقضاء على الثورة العربية وسيطرة الإحتلال الإنجليزى حَمَلَت الأهرام على " العاصى عرابى " ورفاقه البغاة . ثم نشرت صورة منتقاة بعناية للجندال " ولسلى " قائد الحملة الإنجليزية وأُرْخِئت لحياته في صدر صفحتها الأولى . وحتى صحيفة الوطن لصاحبها ميخائيل عبدالسيد ، أصبحت هى وصاحبها بعد وقوفه وصحيفته إلى جانب الثورة العربية عبيدين للإنجليز بعد الإحتلال . وصفت عرابى ورجال الثورة بأنهم أشبه بالطاعون ، وأن سياستهم كانت كناية عن إلقاء الوحشة في الصدور ، وتَمَزِيق البلاد بالتعصبات ، وكانوا أعداء لكل مصرى عاقل .

(١) د . إبراهيم عبده - تطوير الصحافة المصرية - مرجع سابق - ص ١١٤ ، ١١٥

(٢) د . سامى عزيز - الصحافة المصرية وموقفها من الإحتلال الإنجليزى - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٨ - ص ٦٦ الى ص ٩٣ .

ولقد أدرك الإنجليز خطورة تأثير الصحف في الرأي العام الاسلامي في مستعمراتها فأقدم الإنجليز على شراء مليون نسخة من جريدة " الجوائب " التي كانت تصدر باللغة العربية في " الأستانة " لأنها نشرت القرار السلطاني بإعلان عصيان عرابي . وقامت السلطات الإنجليزية بتوزيع النسخ في الهند حتى تطفئ لهيب الرأي العام الهندي المؤازر لعرابي وللعرابيين في مصر . كما أدرك الإنجليز خطورة الصحف ذات الصيغة الإسلامية مثل العروة الوثقى ، أو ذات الصيغة الوطنية المعادية للإستعمار الإنجليزي مثل « أبو نظارة » تلك الصحف التي هاجرت من مصر في أعقاب الاحتلال ، لتصدر من أوروبا ومن باريس على وجه التحديد ، فعمد الإنجليز إلى منع وصولها إلى مصر بطرق وأساليب عديدة .

ولإحكام السيطرة الإنجليزية على العقل المصري . وعلى الرأي العام في مصر . لجأ الإنجليز إلى إصدار صحف تنطق بلسانهم بصورة مباشرة ، مثل تشجيع جريدة التايمز السياسية الأسبوعية على الصدور باللغة العربية . وقد صدرت قبيل الاحتلال ، ثم ظلت بعده أربع سنوات . وقد توخى صاحبها خدمة مصالح بنى جنسه المحتلين ، وإفهام سكان مصر الوطنيين منافع الاحتلال لتوفير أسباب نجاحهم وتأييد الأمن في مصر (١) . كما لجأ الإنجليز إلى إصدار صحف جديدة إنجليزية العقل والقلب والتمويل ، أهمها وأشهرها صحيفة المقطم . أصدرها ثلاثة يتحدثون العربية ، ويحملون الجنسية العربية ، ولكنهم أكثر إنجليزية من كثير من الإنجليز ، هم « شاهين مكاربوس » و« فارس غر » و« يعقوب صروف » وقد نشأ الثلاثة في أكبر مدرسة غربية تأسست في الشرق في أواخر القرن التاسع عشر ، وهي الكلية الأمريكية في بيروت . وقد اقترن فارس غر عام ١٨٨٨ بإبنة قنصل إنجلترا السابق في الاسكندرية . ثم سافر إلى لندن واجتمع فيها بكبار السياسين ، وفي العام التالي ١٨٨٩ صدر المقطم في مصر . ومورخو الصحافة ومزخو فترة الاحتلال يُثبتون أن « المقطم » كان يقبض مبلغاً ضخماً من المال من الإنجليز ، (٢) فهو لسان حالهم ، ووسيلتهم في إفساد الرأي العام المصري ، وإلى جانب ذلك كانت المطبوعات الحكومية تطبع في مطبعة المقطم بمبالغ تعادل عشرة أمثالها . وعينته الحكومة ناشراً للإعلانات القضائية لمحكمة الاستئناف الأهلية ثم للمحكمة الابتدائية الأهلية . وقد بلغ من مساعدات الاحتلال للمقطم أن أعدت للصحيفة مطبعة خاصة في إنجلترا ، كانت تطبع المقطم ثم تقوم بطيئة في طيات (٣) صغيرة حتى يسهل حملها ، وأُطلق على هذا النوع من المطابع تعبير مطبعة حجم المقطم .

وكانت مقالات المقطم تدور حول الإشادة بالإنجليز وتقديمهم حريياً وعملياً ، وتفوقهم على

(١) المرجع السابق ص ٩٤ نقلاً عن فليب دي طرازي ص ٣ ، ص ٢١ ، ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٩ .

جميع دول العالم، وأن إنجلترا سلطنة البحار وجيشها يحكم ٣٢١ مليوناً من الأنفس، و تدور حول مدى الفائدة والسعادة التي تحققت للمصريين بإحتلال الإنجليز لبلادهم...! فتقول عن التعليم إنه يحول بينه عدم تيسر المال ، والضرورة تقتضى إبقاء زمام التعليم بأيدي الأساتذة الأوربيين ، وتقول لقد تقدمت الأشغال العمومية بفضل " ويلكوكس " و" فوستر " . وأن أعيان الفلاحين يعترفون بأن الهناء الذى شملهم وشمل وطنهم كان للإحتلال فيه اليد الطولى . وعندما تُلقي ملكة إنجلترا خطبة فى لندن تنشرها المقطم كاملة باللغة العربية فى صفحتها الأولى ، وفى عيد ميلاد الملكة تصبح الصفحة الأولى من المقطم مخصصة لهذه المناسبة . ويقول الدكتور سامى عزيز (١) لعل أشد المقالات قسوة على الشعور الوطنى المصرى المقال الذى تقول فيه المقطم : « ما هو الاستقلال الذى يكونه، والحرية التى يندبونها ؟ ففى زمان أى الأبناء والجدود تمتعوا باستقلال وحرية حرموها الآن؟ ومتى كان زمام البلاد فى قبضة يدهم وسلب الآن منهم ؟ وأي شئ تغير عليهم . وماضهم إذا انفردت بالنفوذ دولة واحدة بينهم لاسبع عشرة دولة أجنبية وأى خسارة خسروها بتقليد رجال من الإنجليز وظائف كان يتقلدها غيرهم من سائر الأجانب . وما ضرهم وجود فرقة من الجنود الانجليز لزيادة توطين الأمن » .

وإلى جانب المقطم اجتذبت سلطات الإحتلال عدداً وفيراً من الصحف ، جلبت أصحابهم من خارج مصر ، وسهلت لهم إصدار صحفهم ، كما سبق لها أن جذبت إليها أو اجتذبت إليها من داخل مصر بعض الصحف . وشملت الحركة الإنجليزية الصحفية صحفاً أدبية وفنية وصحفاً أقليمية ، ففى أسبوط أصدر " جورجى خياط " صحيفة النزهة يكتب فيها عن لندن أكبر مدينة فى الدنيا ، ومقر كرسى جلالة ملكة إنجلترا وامبراطورة الهند ، وللحكومة فيها ميل مفرط لإنتشار التعليم ، وتعميم الآداب ، وهى معمورة بأسباب التقدم وبواعث الإرتقاء ، يتسابق فى مضمارها العلم والصناعة والتجارة (٢) "

ومن المجلات الأدبية والفنية نجد مجلة اللطائف لصاحبها "شاهين مكاربوس" تفرد عشر صفحات كاملة بمناسبة مرور خمسين عاماً على جلوس الملكة فيكتوريا على العرش . وتنشر المجلة أن مساحة بلاد الإنجليز ومستعمراتهم والبلاد الداخلة فى حماهم تساوى ثلاث قارات، مثل أوروبا والأساطيل الإنجليزية دائمة الحروب .

ويحلل الدكتور سامى عزيز (٣) إنتشار المجلات المتخصصة ، تحت جناح الإحتلال بأنها

١- المرجع السابق ص ١٠٢ .

٢ - المرجع السابق ص ١١٩ .

(٣) - د. سامى عزيز (المرجع السابق) ص ١٢١ .

كانت تهدف إلى تحويل إهتمامات الناس بعيداً عن الموقف السياسي . وأنها تهدف إلى أن ترسخ في الأذهان الدعاية للإنجليز ، وأن مداومة القراء الإطلاع على مثل ذلك ستتمكن منه رواسب ترسخ بمرور الوقت حتى تصبح يقيناً. وهذا ماكان الاحتلال يعمل على تحقيقه، ومتبعاً هذه الخطط الملتوية التي يغفل عنها الكثيرون ، فتتسرب إليهم دون وعى ، وتتركز في أذهانهم، وتتخذ طابع الحقيقة يوماً ما ."

ولكن أخطر ما مارسته سلطات الاحتلال في مصر في مجال تشويش الرأي العام المصري هو استخدامها لصحف إسلامية تبرز الاحتلال ، وتدعو إلى مسالته ، في محاولة لتلفيق تفسير أو تطويع للنصوص الدينية تخدم هذه الأهداف ، وتقاوم بالصحافة تيار الجهاد الوطني الصحفى ضد الاحتلال .

وقد كان استخدام سلطات الاحتلال لصحف ذات مداخل إسلامية في وقت مبكر لاحتلالهم أرض مصر، لقد أوعزت إلى تونسى مقيم في مصر هرباً من الإستعمار الفرنسى في تونس لكى يصدر في مطلع عام ١٨٨٥ صحيفة تحمل اسم الإعلام ، واسمها الكامل هو الإعلام بعلوم الإسلام ومقتضى المقام بحوادث الأيام ونصائح الأنام . ولكنها تُعرف في تاريخ الصحافة باسم الإعلام إختصاراً. ولعل ذلك يعود إلى إبراز كلمة الإعلام في عنوان الصحيفة ، ودوران بقية الكلمات حول الكلمة الأم . وهو ما يسمى في لغة الإخراج الصحفى " ترويسة * الصحيفة " . كانت هذه الصحيفة تصدر في أربع صفحات في حجم الصحف اليومية الكبيرة . وكانت تصدر أسبوعياً في يوم الخميس من كل أسبوع ، وكانت كما تذكر في " الترويسة تُطبع بالمطبعة الإعلامية لمحمد بيرم ، أى أنها كانت لها مطبعتها الخاصة .

وبما يورده مؤرخو الصحافة في مصر، ومن أقوال الصحف المعاصرة للإعلام يتبين بوضوح أن الإنجليز أنفقوا عليها وعلي مَصْدَرها بسخاء .

ويقول " محمد بيرم " أن مجاراة الصُحف للديانة والشرعية جارٍ في سائر الممالك المتمدنية ، ولم ترَ صحيفة تنحو منحى الملائمة بين الشرعية والسياسة في كون هذه المملكة جديرة بمثل ذلك حيث كانت أعظم ممالك الأسلام . (١)

وكان محمد بيرم يُبَيِّنُ هَمَّ المسلمين والمصريين ، ويوهمهم بمقالاته أن الاستعمار قضاء وقدّر كتب على هذه البلاد، فلا محالة في رده . وأنه أصبح حقيقة واضحة فيجب الاستسلام والخضوع ، فيقول : " إن كانت هناك دولة قوية ودولة ضعيفة فلا يسع الضعيفة إلا السكون والاستسلام

* الترويسة إصطلاح في الإخراج الصحفى يطلق على إسم الصحيفة وبياناتها من رئيس التحرير الى العنوان والتاريخ ورقم العدد وما الى ذلك . ويكون في أعلى الصفحة الأولى عادة وفي المنتصف منها .

(١) صحيفة الاعلام بتاريخ ١١ يناير ١٩٨٥ م.

للقضاء ، وأغلب شطوط أفريقيا الشمالية قد جرى عليها الحكم من الأزل أن تكون خاضعة لغيرها ، وعقلاء الأمة الخبيرون بأغوار السياسة لا يكرهون الاحتلال الانجليزي لما يرون من المنافع لبنى جنسهم على أيدي الإنجليز .

ويؤكد الشيخ علي يوسف (١) صلة " محمد بك بيرم " بالإنجليز " ويصفه بأنه مقرب من الوكالة الانجليزية ومن رئيس النظار (الوزراء) . " وكان " محمد بيرم " ماهرا في مزج الدين بالسياسة ، وكان كسبا للإستعمار الإنجليزي ، فالرجل يسوق الحُجَج والأسانيد التي يريد بها إثبات فَضْل الإستعمار وأهمية بقائه . بل يذهب إلى القول بأن الاستعمار أفضل من بنى الجنس الذين يتفقون معنا في اللغة العربية والدين . ويقع " محمد بيرم " في المحذور فنراه يقول : فإذا كان لامندوحة عن أجنبي فالذى رأيناه فعل مع أبناء جنسنا الحسن يكون أولى ممن فعل معهم الإضرار . فنرى مثلا الأموال تأتي في كل عام من الهند إلى مكة والمدينة ، ولا نرى درهما واحدا أتى من الجزائر أو القوقاز ، حتى إن نفس أوقاف الحرمين لم يبق لها هناك ذكر (٢) . ثم نراه يتحدث عن أن إنجلترا هي الدولة الوحيدة في معاملة رعاياها باللطف واللين ، والمحافظة على عوائدهم ودياناتهم ، فلا بدع إذا استماتوا في المحافظة على تخليد وزيادة شرفها (٣) .

ولم يقتصر محمد بيرم على الدفاع عن الإستعمار الإنجليزي في مصر ، بل أخذ يدافع عن الإستعمار الإنجليزي في الهند ، ويذكر أنها تحسنت أحوالهم تحت سيطرة الإنجليز . ويذكر الحاكم العام الإنجليزي للهند وأعماله قائلا عنه : وذلك مما يشهد له بحرية الضمير وخدمة الإنسانية . (٤)

وتحاول الإعلام تبرير اعتماد توفيق على الإنجليز فتأتى من التاريخ الإسلامى بشواهد على ذلك . وأن هذه السياسة ليس فيها ضيّر ولا ضرر . بل إنها صحيحة ، ومن الاسلام ، وأن هذا مافعله الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أمر أصحابه أن يهاجروا إلى ملك الحبشة ويحتسوا به من ظلم مشركى مكة ، رغم أنه نصرانى . ويقول بيرم : إن القسم من المصريين المُعَصَّد للإنجليز بحق ساع في نفع وطنه ، والشرعية تؤيده ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر جمعا من أصحابه وفيهم إبنته بالإحتماء بملك الحبشة - وهو نصرانى - من ظلم مشركى مكة . وأقاموا عنده مدة ، وهذا دليل لجواز الاحتماء بغير المسلم ، وقد استدلل به الفقهاء في الأفراد ، والعلة جارية في الكل . والحالة الراهنة شاهدة به فإن لم يكن تسلط الإنجليز الذى هو عبارة عن حراسة فقط مع

(١) صحيفة المؤيد بتاريخ ٣ شعبان ١٣٢٤ هـ .

(٢) صحيفة الإعلام بتاريخ ١ مارس ١٨٨٥ م .

(٣) صحيفة الاعلام بتاريخ ١٧ يناير ١٨٨٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه .

بقاء الأمور على مجراها كان تسلط غيرهم ، وحالة الدين تحت أيديهم معلومة ، ولو مع أبناء ملتهم. (١) . هكذا يصل التليفق في كتابات صحيفة الإعلام وهي تسعى إلى تسميم العقل المصرى .

وهكذا كان محمد بيرم الخامس . وشتان ما بين موقفه الذى هو حياته ، وبين موقف بيرم التونسى الشاعر والزجال الذى ملأ سمع مصر ووجداتها دفاعا عن الوطنية المصرية ، والعدالة الاجتماعية فى مصر .. ولذلك كان حظ بيرم الشاعر من الذبوع والانتشار فى قلب مصر ووجداتها وتاريخها النضالى مثل شمس الظهيرة ، وكان حظ بيرم الصحفى مثل شعاع الغروب الخافت المتلاشى .

وهلكت صحيفة الإعلام عام ١٨٨٨ ، ولكن سلطات الاحتلال الإنجليزى فى مصر استدعت حسن حسنى باشا من الأستانة لينشئ فى مصر عام ١٨٩١ جريدة وادى النيل ، فى محاولة للخدمين القبول والذبوع لجريدة المؤيد ، للشيخ على يوسف ، لدى الشعب المصرى والحركة الوطنية المصرية . ولكن على حد قول الياس فاخورى - فى كتابه مرآة العصر : إن حسن حسنى جاء إلى مصر وأنشأ جريدة "وادي النيل" على خطة نُفّر منها الناس ، فبقى "المؤيد" كما كان الجريدة الوطنية الإسلامية .

وقد وصل الأمر بالإنجليز إلى حد إستخدام الرموز الإسلامية الراسخة لث دعائهم المفضوحة ، فلقد وصل بهم الأمر إلى أن مهندس الرى الإنجليزى ، "وليم ويلكوكس" يشتري إمتياز الصحيفة التى كانت تسمى " الصحة " وأصبح إسمها "الأزهر" ظناً منهم أن إسم الأزهر المجلة سيكون مقبولا من المصريين ، ومن ثمّ يستطيع الإنجليز بث غزوهم الثقافى من خلال هذا العنوان الشريف . ويكتب "ويلكوكس" فيها عام ١٨٩٣ مقالا بعنوان : لمْ تُمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ؟ ويقول إن سبب ذلك يعود إلى إستعمال المصريين لغة ميتة هى اللغة الفصحى . ويدعو إلى التعليم والتأليف بالعامية . ! (٢)

وعندما نقلب صفحات كتاب "الصحافة والأقلام المسمومة" لأنور الجندى (٣) الكاتب الإسلامى عالى الصوت الذى يكتب وكأنه يصرخ لا نستطيع بصوتنا العادى وبحديثنا الهادى إلا أن نوافق فى كثير مما صرخ به فى وجوهنا . أنور الجندى عندما يتحدث عن الصحافة العربية

(١) صحيفة الاعلام بتاريخ ٣١ / ١ / ١٨٨٥ .

(٢) د. سامى الكومى - الصحافة الإسلامية فى مصر فى القرن التاسع عشر - رسالة دكتوراه - جامعة الأزهر - قسم الصحافة والاعلام - عام ١٩٨٥ ص ٢٣٨ .

(٣) أنور الجندى - الصحافة والأقلام المسمومة - الطبعة الأولى - دار الاعتصام - القاهرة - ١٩٨٠ ص ٧ إلى ص ١٠ .

بعامة فى كل الوطن العربى فى مرحلة الهزيمة والنكبة والنكسة .وهى كما يسميها بدأت فى عام ١٩٤٨ تقريبا بقيام رأس جسر للصهيونية فى فلسطين ، إلى ما يطلق عليه النكسة عام ١٩٦٧ . وهو يرى أن خطورة هذه المرحلة على التاريخ الإسلامى العربى لا يوازيها جسامه ولا يماثلها أثراً إلا مرحلة الحروب الصليبية والتتارية فيقول :

« إن دراسة هذه المرحلة الجديدة التى تجمعت فيها قوى النفوذ الإستعماري الصهيونية والشيوعية تحتاج إلى النظر فى تلك الآثار التى تركتها الصحافة على الأحداث . ثم يقول : وإذا كانت هناك قوى خطيرة عملت على توهين القوى بحيث خضعت للهزيمة والنكبة والنكسة ومنها الاستشراق والتبشير والتغريب فقد كانت الصحافة عاملاً هاماً فى إحضار كل ما قدمته هذه القوى وتاريخه وبثه وإذاعته يوماً بعد يوم وفق ألوان الطيف ومن خلال كل القنوات . ثم يقول : منذ وقت طويل كشف "هاملتون جب" عن خطة الصحافة العربية بأن معظم الصحف اليومية العربية واقعة تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية. ويؤكد أنور الجندى أن الصحافة العربية قد قامت أعمدها بأيدى "المارون" خصوم الإسلام والعروبة منذ اليوم الأول لا فى مصر وحدها (المقطم ، الأهرام ، الهلال) ولكن فى مختلف أجزاء الوطن العربى ، حتى المغرب الأقصى . ثم تسلمت هذه ، الصحافة من بعد أيد عربية ومصرية كانت أشد عنفاً وقسوة وأكثر ميلاً إلى الكشف والإباحية . ثم جاءت أخبار اليوم فعادت الصحافة فى الوطن العربى على نحو أشد خطورة ، قوامه المزيد من التقليد للصحافة الأمريكية المثيرة ، القائمة على إرضاء رغبات الجماهير ، والاهتمام بالتفاهات ، والبعد عن الأصالة وتكوين أجيال لا ترى فى الحياة إلا هزلاً ورقصاً ومتعة . وإنصرفاً عن التبعات الجسام التى تواجه المجتمع العربى الإسلامى ، وقد جاءت هذه الموجة الصحفية موازية للنفوذ الصهيونى والشيوعى فى الوطن العربى ، ويمضى المؤلف قائلاً : وقد أدخلت الصحافة أعرافاً جديدة تعارض تماماً الأعراف الأصلية ، ومفاهيم زائفة تضاد القيم الصحيحة ، وبدت ميادين الرقص والغناء والمسرح وكأنها دور لها قدر وجلال وخطر ، وانخداع الشباب المسلم بهذه المفاهيم ، التى أزرتها صور عارية ، وقصص مكشوفة ، وأغانٍ خليعة ، وتقديم المغنين والممثلين على أنهم أبطال ومثل عليا ، ولهم تاريخ يروى وأحاديث تجرى وذكريات تجدد ، بينما لم يحظ بمثل هذا علماء أفذاذ ، ولا أبطال مجاهدون ، ولا نوابغ قدموا لأوطانهم أجل الخدمات وضحو فى سبيل بلادهم واستشهدوا أو ماتوا مغتربين . ويختم قوله : هذا هو الخطر الذى قدمته الصحافة العربية خلال فترة الهزيمة والنكبة والنكسة و الذى كان بعيد الأثر فى الواقع الذى يعيشه العرب والمسلمون اليوم . وفى الواقع أنك لا تستطيع أن تجد مقولة خطيرة أو مؤامرة مبيتة أو كلمة مسمومة أو فكرة مدسوسة أو دعوى باطلة إلا وقد وجدت عن طريق الصحافة طريقاً لها إلى الناس ، أيدتها صحف ، وعارضتها صحف ، ولكنها على كل حال استطاعت أن تبلبل خواطر الناس ، وتناقل من كيانهم وتزلزل رواسيهم » .

ومهما قيل عن كتابات أنور الجندى من أسلوب خطابه ومن اندفاع فى التعميم أحيانا .ومن إصدار أحكام كثيرة ومتشدة إلا أن أقواله فى هذا المقام لا يستطيع ناقد عادل إنكارها أو التخفيف من آثارها .

وإذا انتقلنا إلى الساحة الدولية ونظرنا إلى الصحف فى بلدان العالم الغربى المتقدم نجد سبلا من تشويه صورة الإسلام وصورة الإنسان العربى والقضايا العربية . وهو سبيل دائم التهديد ، متواصل فى تتابع محكم سريع ، وهذا السبيل المعادى يتنوع ويتشكل ويتلون ، ولكن خيطا مشتركا يتواجد فى كافة تنوعاته واختلاف أماكنه وأزمانه وألوانه هو الخيط الصهيونى .

يوجز الدكتور سليمان صالح (١) تجربة السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام بنصوص منقولة عن برتوكولات حكماء صهيون على النحو التالى :

- إن القنوات (أى وسائل الاعلام) التى يجد فيها الفكر الإنسانى تُرجمانا له يجب أن تكون خالصة فى أيدينا . وإن أى نوع من أنواع الصحافة أو النشر أو الطباعة يجب أن يكون تحت سيطرتنا .

- يجب ألا يكون لأعدائنا وسائل صحفية يعبرون فيها عن آرائهم ، وإذا وجدت فلا بد من التضيق عليها بجميع الوسائل لكى نمنعها من مهاجمتنا .

- لا بد من الهيمنة على الصحافة الدورية والسيطرة على الأخبار فلا تصل للقارىء دون أن تمر علينا ، فالأخبار تتسلمها وكالات قليلة تتركز فيها الأخبار من كل أنحاء العالم ، وحينما نسيطر عليها لن ننشر إلا ما نختاره نحن من هذه الأخبار .

- سيكون لنا صحف شتى تُرضى الطوائف المختلفة من أرستقراطية وجمهورية وثورية بل وفوضوية أيضا ، وستكون هذه الصحف مثل الإلهة الهندى "قشنو" لها مئات الأيدي ، وكل يد ستحس لنا نبض الرأى العام المتقلب .

- يجب أن نكون قادرين على إثارة عقل الشعب عندما نريد ، وتهديثه عندما نريد ، وسنفعل ذلك بطبع أخبار صحيحة أو زائفة حسبما يوافق غرضنا ، وستنشر الأخبار بطرقنا الخاصة بحيث يتقبلها الشعب ويصدقها ، ولكننا يجب أن نحتاط جيدا قبل ذلك لجس الأرض قبل السير فيها .

ولقد استخدم اليهود فى سباقهم المحموم للسيطرة على وسائل الاتصال جميع الأسلحة . ويوجز الدكتور سليمان (٢) صالح مثلا بجريدة التايمز البريطانية كيف حازها اليهود ؟ وتعتبر جريدة التايمز أعرق الصحف البريطانية ، وقبلة للجماهير البريطانية جزءا مهما من تاريخ

(١) د. سليمان صالح - الانتفاضة الفلسطينية ، ثورة الذات الحضارية - الزهراء للإعلام العربى - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٩٢ - ص ١٥٥ ، ص ١٥٦ .

(٢) د. سليمان صالح - الانتفاضة الفلسطينية ، ثورة الذات الحضارية - المرجع السابق - ص ١٥٧ ، ص ١٥٨ .

بريطانيا ، أى أنها تشكل مصدر اعتزاز وفخر للشخصية الإنجليزية . ولكن ثورة الاتصال ، وظهور الآلات الحديثة فى مجال الطباعة قد أدى إلى أن تواجه التاييز هذه الثورة الاتصالية ، وهى مثقلة بتركة الماضى من ناحية العمال ومن ناحية المضمون .

فقد كان إصرارها على أن تحتفظ بشخصيتها الصحفية المحافظة ، وما تقدمه من مادة رفيعة للقارىء دون الإحجام إلى إثارة غرائزه قد أدى إلى الهبوط المستمر في توزيعها ، وانصراف المعلنين عنها لنشر إعلاناتهم في الصحف ذات التوزيع الكبير ، التي يمكن أن تصل بإعلاناتهم إلى عدد أكبر من الجماهير . و قد أدى ذلك إلى تزايد خسائرها ، وفى الوقت نفسه فإنها لم تكن قادرة علي أن تواجه هذه الخسائر بهذا العدد الكبير من عمال الطباعة الذين عارضوا إدخال الآلات الحديثة . واستحكمت الأزمة بين إدارة التاييز وعمالها ، فاضطرت التاييز إلى التوقف عن الصدور ، وهنا تقدم المنفذ اليهودي " روبرت ميردوك " ليشترى التاييز . ومن المؤكد أن " ميردوك " لم يشتر " التاييز " كمشروع تجاري يمكن أن يحقق ربحا ، بل إنها يمكن أن تسنفد معظم أرباحه من صحفه الأخرى مثل "الصن " و نيوز أوف ذي وورلد" فلماذا إذن يقدم هذا الملياردير اليهودي علي شراء مثل هذه الصحيفة الخاسرة ؟ إنه لم يتقدم لشراء التاييز بعقلية التاجر ، ولكن بعقلية السياسي الذي يريد تحقيق أهداف سياسية حتي لو أدى ذلك إلى تحميل خسائر مالية . لقد كانت التاييز من الصحف القليلة في الغرب التي تقدم تغطية للأحداث العربية تعتبر متوازنة إلى حد كبير . وجاءت وفاة رئيس تحريرها " تشارلز دوجلاس هيوم " فرصة ذهبية أمام " ميردوك " ليقضي علي استقلالها التحريري ، و سرعان ما انقلبت طريقة معالجتها لقضايا الشرق الأوسط ، و ظهر تعاطفها مع إسرائيل واضحا ، وضد حقوق الانسان العربي .

وفى مطلع العقد الأخير من القرن العشرين الميلادي كشف الموت الغامض لإمبراطور الصحافة في بريطانيا جانبا من جوانب السيطرة الصهيونية على إعلام العالم المعاصر . فقد عثر على جثة " روبرت ماكسويل " بالقرب من جزر الكنارى فى أسبانيا كان وقد اختفى من فوق بخته فى تلك المنطقة .

وما أعلن عن وفاته أنها طبيعية وأنها بسبب أزمة قلبية إنتابته فسقط من فوق بخته ليلا دون أن يحس به أحد . وتناولت وسائل الإعلام العالمية قضية « ماكسويل » صاحب « الدبلى ميرور » الصحيفة اليومية الواسعة الانتشار فى بريطانيا ، وغيرها من توابع إعلامية . ولد روبرت ماكسويل فى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٢٣ ولما كبر نذر حياة للدفاع عن اليهود وقضايا الصهيونية . وارتبط بالمخابرات الاسرائيلية . وكرس حياته فى الصحافة الشعبية الواسعة الانتشار ، وكرس هذه الصحف للدفاع عن إسرائيل والصهيونية العالمية ، وظف كل طاقاته واتصالاته لخدمة إسرائيل ، وجعل صورتها براقا أمام الرأي العام العالمى . وقد دفن فى جبل

الزيتون بالقدس يوم ١٠ نوفمبر ١٩٩١ كما طلب في وصيته . ودفنت معه أسرار كثيرة كلها تؤكد الهيمنة الصهيونية على صناعة الإعلام في عالمنا المعاصر .

وعند ما برز الدور الأمريكي منذ الحرب العالمية الثانية بروزاً يعبر عن وراثته للإستعمار الأوربي القديم لدول العالم الثالث تحول النصيب الأكبر للغزو الثقافي بواسطة الصحف إلى الأيدي الأمريكية . ويكشف محمد حسنين هيكل (١) في كتابه «الصحافة والسياسة» النقاب عن دور المخابرات الأمريكية في إنشاء الصحف التي تسعى إلى نشر القيم الأمريكية . وطريقة الحياة الأمريكية، في كل أنحاء الدنيا . ويورد في هذا الصدد تقرير اللجنة الخاصة التي شكلها الكونجرس الأمريكي برئاسة السناتور «تشرش» سنة ١٩٧٤ لتقصي نشاط وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبالذات الجزء الخاص بعمليات إنشاء دور صحف ونشر في عدد كبير من بلدان أوروبا والعالم الثالث ، وحتى في الولايات المتحدة ذاتها . ومن الظواهر الملفتة للنظر في هذا التقرير أن مجلة الريدز دايجيست - أو المختار ، كما صدرت باللغة العربية فيما بعد - ورد إسمها ضمن المجلات التي ساعدت المخابرات المركزية على نشرها . ومن الغريب أن أول طبعة عربية ظهرت في مصر رأس تحريرها الدكتور فؤاد صروف ، وهو الذي يشير إليه الأستاذ مصطفى أمين في رسالته - الاعتراف - ويقول إنه هو الذي قدمه إلى «كيرميت روزفلت» سنة ١٩٤٤ التي صدرت في نهايتها صحيفة أخبار اليوم : - كذلك فإن المختار صدرت فيما بعد عن دار أخبار اليوم ، وذكر الأستاذ مصطفى أمين في رسالته - الاعتراف - إن ذلك كان بين الفوائد التي حصل عليها من صلاته الأمريكية .

ويسترعى النظر في القيم التي تروج لها المختار شينان : الأول أن النجاح مرهون بالحفظ والمصادقات - والثاني أن العدل الاجتماعي معلق بكرم المستعدين للتبرع والإحسان .

«ويقول تقرير لجنة نشاط المخابرات في الكونجرس على سبيل المثال أن سلطات الاحتلال الأمريكي في ألمانيا كانت هي التي ساعدت أكسيل سبرنجر - الناشر الألماني المعروف - على إعادة تأسيس دار صحفية كبرى في هامبورج ، وهي التي جاءت له بالمطابع والورق - لكي يبدأ على الفور في إصدار صحف تتولى غسيل مخ الشعب الألماني مما قد يكون عالقاً فيه من بقايا التراث النازي .

نفس الشيء حدث في اليابان مع الدور الصحفية التي كانت على استعداد لكي تغسل مخ الشعب الياباني من آثار العسكرية اليابانية التي كادت تنجح في رفع علم الشمس

(١) محمد حسنين هيكل - بين الصحافة والسياسة - الطبعة الأولى - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت ١٩٨٤ - ص ٢٢٩ إلى ص ٢٣٧ .

المشرق فوق المحيط الهادى ، ونفس الشئ حدث فى بريطانيا .
وينتقل الأستاذ هيكمل إلى العالم الثالث فيقول : فور إنتهاء الحرب على سبيل المثال ظهرت
فجأة ، سنة ١٩٤٥ ، فى طهران دار صحفية كبرى كان أبرز ملامحها دعوتها المستمرة لمجموعة
قيم جديدة وطريقة جديدة فى الحياة ، وهى دار كيهان المشهورة . ولم تترك الوثائق التى وجدت
فى مبنى السفارة الأمريكية فى طهران - حين احتلها طلبة الثورة الإسلامية فى إيران - مجالا
لأحد أن يشك فى الملابس التى إكتنفت تأسيس الدار وظهور صحفها .

ثم يتناول الأستاذ هيكمل الواقع المصرى فى هذا الصدد ، وأخبار اليوم على وجه التحديد
فيقول : يخطر على البال أن أخبار اليوم ظهرت فى نفس الفترة - أواخر ١٩٤٤ - فهل
كانت ، أخبار اليوم منذ اليوم الأول حلقة من هذه السلسلة ؟ فقد كتب الأستاذ مصطفى أمين
فى هذه الفترة أول كتاب له فى حياته وكان عنوانه (أمريكا الضاحكة) وكان موضوعه عرضا
شيقا وجذابا لطريقة الحياة الأمريكية .

إن الأستاذ مصطفى أمين فى رسالته - الوثيقة - يعترف أنه قابل « كيرمت روزفلت »
« وأرشى روزفلت » - لأول مرة - فى نفس السنة - ١٩٤٤ . فهل هى مصادفة.. أو هى أكثر؟

خاطر آخر يطرح نفسه وهو أن مراسلى أخبار اليوم فى الخارج وقت إنشائها كانوا - كما
يبدو الآن - طرازا غريباً من الصحفيين . كان مراسلها فى نيويورك - مثلاً - هو جوزيف ليفى
واتضح فيما بعد أنه لم يكن يهوديا فقط ، وإنما كان واحداً من أبرز الدعاة للوكالة اليهودية -
المقدمة لأولى لحكومة إسرائيل ، وكان مراسلها فى لندن هو « جون كيمشى » والآن نعرف أنه ابن
عم دافيد كيمشى وكيل وزارة الخارجية الاسرائيلية . ثم يقول الأستاذ هيكمل إن قصة الصحافة
المصرية هى قصة الصحافة فى بقية البلدان العربية . وكان يضرب المثل - فى وقت من الأوقات -
بصحافة لبنان . والحقيقة وقد عبر عنها جمال عبدالناصر ذات مرة بقوله : إن فى لبنان حرية صحافة
ولكن ليس فى لبنان صحافة حرة - إن التعدد والتنوع الذى كان ظاهرا فى صحافة لبنان فى وقت
من الأوقات كان سببه تعدد وتنوع مصادر التمويل . وميكرا كان للولايات المتحدة ولبريطانيا
ولفرنسا صحافتهم ، وبعد ذلك أصبحت لمصر صحافتها ، وللسعودية صحافتها ، وكذلك لسوريا
... الشكل الظاهر أن هناك حركة متنوعة الاتجاهات لكنها لم تكن صحافة حرة بالمعنى
المطلوب أو المرجو ، وإنما شئ آخر . صراع قوى يحدث فى لبنان ، وتغيرات متعددة متنوعة
بتعدد وتنوع القوى التى تعمل فى ساحته باعتباره مركزا مفتوحا لصراعات العالم العربى كله
وتوازناته ."

ويرى الأستاذ هيكمل « إن الصحف الكبرى التى نشأت فى العالم الأكثر تقدما - بمعونة
أمريكية - استطاعت بعد وقت أن تقطع الحبل السرى الذى يربطها بالسياسة الأمريكية - حدث

ذلك بالنسبة لـ "دي فيلت" في ألمانيا، وكذلك على وجه اليقين حدث لجريدة ميموري في اليابان وصحيفة أساهي أيضا - فهل يمكن أن تكون الصحف التي نشأت في بلدان العالم الأقل تقدما - إيران ومصر وغيرهما - أعجز عن أن تقطع الحبل السري مع جهة المنشأ، ومن ثم تبقى غط العلاقات كما كان، ثم نزلت به الحوادث إلى ما هي أدنى من مجرد نشر القيم الأمريكية وطرق الحياة الأمريكية؟".

يحذر الصحفي الأمريكي جورج بول في صحيفة النيويورك تايمز ماجازين بتاريخ ٢٨ يونيو ١٩٧٠ من أن مأساة فيتنام قد تؤدي إلى اللاعنف والعزلة في أمريكا، في حين إن مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط كبيرة إلى الحد الذي يجعل لزاما على الرئيس أن يشقق الأمريكيين حول إمكانية التدخل العسكري هناك.

وإلى جانب هذا القول الصحفي يذكرنا الدكتور إدوارد سعيد (١) بأمر جدير بالاهتمام والنظر هو أن الشخصية الدينية التي تتمسك بها إسرائيل لاتذكرها الصحافة الغربية إلا نادرا. فلم ترد أي إشارات صريحة إلى تعصب إسرائيل الديني إلا مؤخرا، غير أن هذه الإشارات جميعا كانت تتعلق بجماعة غوش إيمونيم المتطرفة في تعصبها، والتي ينحصر نشاطها الرئيسي في إقامة مستعمرات غير قانونية في الضفة الغربية بشراسة عنيفة. ولكن معظم التقارير المنشورة في الغرب حول غوش إيمونيم تغفل ببساطة حقيقة مزعجة وهي أن حكومات حزب العمل العلمانية هي أول من أنشأ مستعمرات غير قانونية في المناطق العربية المحتلة، لا المتطرفون الدينيون الذين يقومون بالإثارة والشغب، وحدهم. ويعلق الدكتور إدوارد سعيد قائلا: أن هذا الصنف من التقارير الأحادية الجانب يشكل دلالة على الطريقة التي استخدمت بها إسرائيل الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط والحليف العتيد للولايات المتحدة الأمريكية في مقابل الإسلام. وهكذا ظهرت إسرائيل كأنها معقل للحضارة الغربية تم تشييده في الصحراء الإسلامية، (مع كثير من الفخر والإطراء الذاتي). وهكذا ثانيا أصبح أمن إسرائيل في العيون الأمريكية، قابلا للتبادل بصورة مرضية ومريحة، مع إتقاء خطر الإسلام، وديمومة السيطرة الغربية، وعرض فضائل التحديث، وبهذه الطرق تتكاتف وتتعاقد اقتصاديا ثلاث مجموعات من الأوهام، وتولد كل منها الآخر في صالح تدعيم الصورة الذاتية الغربية وتعزيز القوة الغربية على الشرق. وتوكيد القيمة العامة لإسرائيل بالنسبة للغرب.

ويعتمد جهاز كامل للإعلام في وضع السياسة في الولايات المتحدة الأمريكية على هذه الأوهام وينشرها على أوسع نطاق. ومن هنا ينتج التصور "الكاريكاتوري" والغوغاء المخيفة

١ - د. إدوارد سعيد - تغطية الإسلام، كيف تتحكم وسائل الإعلام الغربية في تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم - (ترجمة: سميرة نعيم خوري) الطبعة الأولى - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٨٣ - ص ٦١ ص ٦٢

والتركيز على العقاب الإسلامى ، وما إلى ذلك . وتنتصب على رأس كل ذلك مؤسسات القوة الهائلة : شركات النفط الأمريكية والشركات المتحدة العملاقة والشركات متعددة الجنسيات ، وجماعات الدفاع ، والمخابرات ، والفرع التنفيذى للحكومة .

وعلى ضوء ما تبين لنا من خيوط عالمية ومحلية ترتبط وتتشابك وتتقاطع فى محاولة غزو القارئ العربى ثقافيا بواسطة الصحف ، وعلى ضوء المصباح الذى يكشف لنا التاريخ العربى الحديث فى هذا الحقل نستطيع أن نقرأ مجلدات الصحافة العربية قراءة جديدة ، وسوف نرى عروق الغزو الثقافى كيف تشعبت فى الصحافة العربية حتى فى الجوانب الشكلية . لقد كشفت دراسة عن مجلة حواء لنيل درجة الماجستير فى قسم الصحافة بجامعة القاهرة أن غلاف المجلة لم ينشر صورة امرأة عربية واحدة وإنما كان دائما ينشر صورة امرأة أمريكية أو أوربية .! وعلى ضوء الخيوط المتشابكة مثل بيت العنكبوت فى عالم الصحافة نستطيع إعادة قراءة الرسوم والكلام المصاحب لها التى قدمها الرسام الصحفى بيكار فى أخبار اليوم ، وهو زعيم من زعماء البهائية، كما نستطيع أن نفهم أهداف الكاريكاتير الذى نشرته صحيفة الأهالى القاهرية لسان حزب التجمع والذي يصور الطيار السعودى الذى سافر فى سفينة فضائية أمريكية باعتباره من الفريق الفضائى ، لقد نشرت الأهالى صورة كاريكاتيرية له ومعه أربع نساء بلباس الفضاء تهكما على مبادئ الإسلام ، لأن الطيار السعودى لم يكن قد تزوج عندما قام برحلته الفضائية . وعندما تزوج بعد ذلك تزوج بامرأة واحدة . ونشر ذلك فى معظم الصحف العربية لأن الطيار السعودى أمير من العائلة المالكة .

الراديو والتليفزيون

لم تمض سنوات قلائل على انتشار الراديو حتى دخل ميدان الحرب النفسية . وبدأت الدول الكبرى فى العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين الميلادى فى بث إذاعات باللغات التى يتكلم بها أبناء البلدان الموجهة إليهم دعاياتها ، وكان فى طليعة الدول التى مارست أساليب الحرب النفسية فى هذين العقدين إيطاليا والإتحاد السوفيتى وألمانيا وبريطانيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية .

وكانت الحرب العالمية الثانية ساحة للحرب الإذاعية فى الوطن العربى ، كما كانت ساحة للمعارك التى جرت على الأراضى العربية بين الحلفاء (بريطانيا وفرنسا والدول الأوربية ثم أمريكا وروسيا وغيرها) وبين دول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان) . فلقد أنشأت الحكومة الإيطالية فى عام ١٩٣٥ إذاعة باسم « بارى » باللغة العربية ، وأدخلت عليها تحسينات متعددة فى البث الخارجى وتوسيعه حتى أصبحت فى عام ١٩٣٧ قوة بارزة مسموعة فى الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط . وعمدت إذاعة «بارى» إلى تقديم برامجها باللهجات الشامية والمصرية

والعراقية . وأمر الزعيم الإيطالي " موسوليني " بتوزيع أعداد كبيرة من أجهزة الراديو على المستمعين العرب مجاناً . وكانت أجهزة الراديو هذه لا تلتقط غير محطة « باري » . وكان مضمون الدعاية الإيطالية في هذه المحطة ينصب على مهاجمة السياسة البريطانية في الشرق الأوسط وتخريض العرب ضدهم . وإضعاف صورة القوة والسيطرة للبريطانيين بالحديث عن عجز وضعف الإمبراطورية البريطانية .

ومن جانب آخر أمر القائد والزعيم الألماني " هتلر " بإنشاء إذاعة بالعربية ، بدأت في إبريل ١٩٣٩ باسم محطة «برلين العربية» . وهي أول إذاعة أجنبية في برلين . وكان مضمون الدعاية الألمانية في هذه المحطة هو إلهاب الشعور القومي العربى ، بصفة عامة، بالحديث عن الحرية والاستقلال . واستمرت إذاعة برلين العربية تبث برامجها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وتحطم النازية الألمانية فأغلقت الإذاعة أبوابها في أبريل ١٩٤٥ .

الإذاعة البريطانية :

ولكن أهم الإذاعات الموجهة إلى العرب بلغتهم هي الإذاعة البريطانية . وتبدأ قصة الإذاعات البريطانية عام ١٩٢٢ محطة إذاعية تمتلكها شركة تنتج أجهزة الراديو . (١) ثم تبين للحكومة البريطانية أهمية هذه الوسيلة الإعلامية الجديدة فأصبحت هيئة الإذاعة البريطانية قطاعاً حكومياً عام ١٩٢٧ ووضع النظام الداخلى للهيئة الذى يضمن للبرلمان حق التدخل فى شئون الإذاعة .

والكتب السنوية لهيئة الإذاعة البريطانية ، والأوساط الرسمية البريطانية تنفى مراراً إشراف الدولة على الإذاعة . وتقول إن إذاعة لندن مستقلة ، وغير خاضعة للحكومة البريطانية ، وأنها فوق الخلافات الحزبية ، وأنها تتمتع باستقلال واسع فى النقد .

ومن الباحثين (٢) من يعتبر الحديث حول استقلالية هذه الإذاعة وهماً من الأوهام . ويتندرون بما قاله تشرشل فى هذا الصدد بأن فى أوروبا ثلاث دول محايدة هي النمسا ، وسويسرا ، وهيئة الإذاعة البريطانية . ويتندرون بقول بعض مديري هيئة الإذاعة البريطانية بأنه ليس فى العالم مؤسسة أخرى مثل مؤسساتهم فى الإستقلال . ويقول الباحثون إن كل هذا هدفه أن تحصل الإذاعة على ثقة مستمعيها . وهو شرط أساسى لنجاح الإذاعة . وإن الزعم باستقلالية هيئة الإذاعة البريطانية مردود عليه بأربع نقاط . أولاًها : المساعدات المالية والحكومية للإذاعة وثانيها : السلطات التى يخولها القانون لوزير البريد والمواصلات فى مجال الإذاعة . وثالثها : حق الحكومة فى إختيار أعضاء مجلس الإدارة للإذاعة ويعينون بمرسوم ملكي ورابعها : العلاقة

(١) محمد خير الوادى - من خفايا وأسرار إذاعة لندن - دار بن هانى - دمشق - (غيرمبين) تاريخ ص ٢٦ ص ٢٧ ص ٢٨

(٢) محمد خير الوادى - من خفايا وأسرار إذاعة لندن - مرجع سابق - ص ١٤ إلى ص ١٧

بين الإذاعة والمخابرات البريطانية .

أما القسم العربى لهيئة الإذاعة البريطانية فقد تأسس عام ١٩٣٨ وأهداف الإذاعة البريطانية الموجهة إلى العرب أو بمعنى أدق القسم العربى لهيئة الإذاعة البريطانية الذى بدأ عام ١٩٣٨ هى :

- ١ - المساعدة على نشر معلومات أوسع حول المملكة المتحدة فى الوطن العربى .
 - ٢ - نشر اللغة الإنجليزية .
 - ٣ - إقامة علاقات ثقافية بين بريطانيا وشعوب الدول العربية .
 - ٤ - توجيه النشاط الإعلامى والثقافى لخدمة المصالح العليا البريطانية .
- وهذا ما يلمسه المستمع . ولكن ما يعلنه الكتاب السنوى لهيئة الإذاعة البريطانية يقول إن أهداف الإذاعة البريطانية هى :
- ١ - توصيل الأخبار عن الأحداث الجارية إلى المستمعين فى الخارج دون إنقاص أو تضليل .
 - ٢ - إبراز وجهة النظر البريطانية فيما يخص الأحداث السياسية الدولية .
 - ٣ - تعريف المستمعين الأجانب بمنجزات الثقافة الإنجليزية وبحياة البلاد . أو كما عبر أحد كبار موظفى الإذاعة إظهار المجتمع الحر فى حركته المستمرة .
 - ٤ - تعليم اللغة الإنجليزية للمستمعين الأجانب .
- ومما يسترعى النظر أن ابتداء البث باللغات الأجنبية لهيئة الإذاعة البريطانية بدأ بالعربية ثم تلاه البث بلغات أخرى بلغت حوالى أربعين لغة . والأطوار التى مرت بها الإذاعة البريطانية باللغة العربية يمكن إجمالها فيما يلى :

* كان إسم المحطة إذاعة الشرق الأدنى . وكان مقرها فلسطين وكان ذلك هو الطور الأول الذى يمكن أن نحدده زمنيا بإنشاء هذه المحطة من ٣ / ١ / ١٩٣٨ حتى قيام الحرب العالمية الثانية . كانت برامج هذا الطور نشرات الأخبار ، والتعليق عليها . ثم أضيف إلى ذلك إستعراض أقوال الصحف البريطانية . وأضيفت الأحاديث الإذاعية مع بعض الشخصيات العربية التى تزور لندن . هذا إلى جانب الموسيقى والأغاني ، بطبيعة الحال ، ودروس تعليم اللغة الانجليزية .

* أما الطور الثانى فيبدأ مع الحرب العالمية الثانية حيث زادت ساعات الإرسال . وزاد عدد نشرات الأخبار التى تغطى المعارك الحربية فى أوروبا وأفريقيا . واستخدمت برامج المحطة فى الحرب النفسية ضد ألمانيا ودول المحور فأصبحت تصف الألمان بالزندقة والكفر ، ولكن المحطة برغم ذلك حافظت بقدر الإمكان على الأسلوب الهادى . الرزين وحافظت على الجرعة الثقافية فى برامجها إلى حد ما ، فى الوقت الذى كانت الإذاعة الألمانية والإذاعة الإيطالية تتسم بالصراخ

والنبرة العالية والانتعاش . ويستمر هذا الطور الثانى من أطوار الإذاعة البريطانية باللغة العربية إلى أعقاب الحرب ، بل ويمتد إلى عام ١٩٤٨ حيث كان الصدام المسلح الأول بين العرب وإسرائيل ذلك الصراع الأول الذى قامت على أثره دولة إسرائيل فى معظم الأراضى الفلسطينية . والذى به بدأت سلسلة الصراع العربى الإسرائيلى المسلح بعد ذلك.

* ويبدأ الطور الثالث بانتقال مركز المحطة وكان إسمها لايزال إذاعة الشرق الأدنى إلى قبرص . ولكن هذا الطور الثالث لم يستمر زمنيا لفترة طويلة فهو ينتهى بالعدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ . وخلال الفترة من قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ إلى العدوان الإسرائيلى الفرنسى البريطانى على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦ كانت المحطة تهاجم حركة التحرير الوطنى المصرية بوجه خاص ، والعربية بوجه عام . وزادت ساعات إرسالها من ٣ ساعات إلى ٤ ساعات يوميا . فلما وقع العدوان الثلاثى غيرت الإذاعة إسمها من إذاعة الشرق الأدنى إلى صوت بريطانيا . وأخذت تؤيد العدوان بشكل علنى، وتدعو إلى القضاء على مقاومة الشعب المصرى. وأخذت تذيع الأوامر العسكرية والموسيقى الحربية ، وتقدم برامج سافرة فى الحرب الدعائية ضد الشعب المصرى ضد قاداته . وفى أعقاب ذلك أغلقت المحطة أبوابها فى مارس ١٩٥٧ وانتقل القسم العربى لهيئة الإذاعة البريطانية إلى لندن .

* والطور الأخير من أطوار الإذاعة البريطانية باللغة العربية يبدأ من عام ١٩٥٧، حيث ارتفع عدد ساعات الإرسال إلى ٦٣ ساعة أسبوعيا عام ١٩٥٨ ثم ٨٨ ساعة أسبوعيا عام ١٩٥٩ . وفى أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ زادت ساعات الإرسال يوميا عن ١٩ ساعة ثم خفضت بعد ذلك بسبب الظروف المالية . ولكن فى عام ١٩٧٣ إرتفعت إلى ٨٤ ساعة أسبوعيا .

ويقول محمد خير الوادى (١) عن إذاعة لندن باللغة العربية إن الخطورة تكمن فى النفوذ الواسع الذى تتمتع به داخل الوطن العربى، فكثير من المستمعين يعتمد على إذاعة لندن فى نقل الأخبار ، وأحيانا ينطلقون فى تقييمهم للأمور السياسية من تعليقات إذاعة لندن ، ومازال العديد من المستمعين يعتقدون أن القسم العربى هو المصدر الوحيد للأخبار الصادقة والموضوعية ، ويحاول محمد خير الوادى أن يعلل هذه الظاهرة بعدة أسباب . أولها أن البريطانيين نتيجة إحتلالهم لبعض الأقطار العربية ظلوا لفترة طويلة على إتصال مع العرب . وقد مكنتهم ذلك من دراسة النفسية العربية ومعرفة كل خصائصها . وكذلك معرفتهم للعادات والتقاليد العربية وأسلوب الحياة فى المجتمع العربى. ثم تبع المرحلة الإستعمارية قيام معاهد الإستشراق والمعاهد العلمية باستمرار

(١) محمد خير الوادى - من خلفها وأسرار إذاعة لندن - مرجع سابق - ص ٤٦ إلى ص ٥٢

بالدراسات حول جوانب الحياة العربية . وثانيها أن القائمين على هذه الإذاعة يقومون بدراسات منتظمة للمستمعين العرب بطرق العينات ، والاستمارات ، ثم رسائل المستمعين التي ترد إلى الإذاعة ، والتي تشجع البرامج ذاتها على كثرتها وزيادتها مثل برامج : ندوة المستمعين ، ولكل سؤال جواب ، والسياسة بين السائل والمجيب ، وقول على قول ، وما شابه ذلك من البرامج . وثالثها أن هذه الإذاعة تحاول استغلال شعور الوحدة النامي لدى المستمعين العرب بأن تجعل برامجها بعيدة عن التحيزات والإنشاقات و الخلافات العربية ، وخلق هذا الانطباع عند كثير من المستمعين يزيد من تعلقهم بهذه الإذاعة ، ورابعها يعود إلى المستوى المنخفض نسبيا لكثير من الإذاعات العربية ، فكثيرا ما تقوم بعض الإذاعات العربية بتجاهل أحداث حصلت في بلدان عربية أخرى أو قد يجري الحديث عنها باختصار شديد ويشكل ضبابي ويعيد عن الموضوعية . لذلك ينتج المستمعون العرب إلى إذاعة لندن التي تقدم لهم صورة مفصلة لما يجري في الوطن العربي .

وقد كشف محمد خير الوادي في دراسته الحيلة الإذاعية في ترويج وجهات نظر سياسة معينة دون التبنى المباشر لوجهات النظر هذه بقوله : إن النظام الداخلي لهيئة الإذاعة البريطانية يمنع موظفيها من إبداء آرائهم حول مختلف القضايا السياسية أو الاجتماعية ، ولكن قادة القسم العربي استطاعوا إيجاد صيغة مرنة يعبرون من خلالها عن أفكارهم ومواقفهم باختيار أقوال الآخرين من صحف ، رجال سياسة تقيم أو تفسر حدثا معنيا بما يتلائم ووجهة نظر الإذاعة . هذا بالإضافة إلى تكرار ذلك في البرامج .

راديو مونت كارلو *

وهو الوجه الإذاعي الفرنسي باللغة العربية المقابل للوجه الإنجليزى المتمثل في هيئة الإذاعة البريطانية (القسم العربي) . وقصة التنافس ، بين الإنجليز والفرنسيين في إستعمار الوطن العربي والسيطرة اقتصاديا وثقافيا في التاريخ الحديث من القرن الثامن عشر حتى الآن ، تكاد تشبه التنافس بين أكبر أسرتين في القرية المصرية حول « العمودية » ونسبة المشايخ ومركز شيخ الخفراء وقد تنعدها إلى مجالات أخرى كالترشيح لمجلس النواب ، أو بناء المساجد أو حيازة وابور الطحين . برغم ما بين المثليين من اختلاف جذري فإن الصورة تظهر بجلاء التنافس بين فرسى رهان .

وكان ميلاد إذاعة راديو مونت كارلو صورة من صور التنافس بين الإنجليز والفرنسيين في

* مونت كارلو شاطئ في إمارة موناكو التي تقع في الجنوب الشرقي من فرنسا والتي تبلغ مساحتها تقريبا ميلا مربعا وهي إمارة صغيرة جدا تعيش على السياحة وفيها كازينو القمار الشهير عالميا وهو في مونت كارلو .

الوطن العربى، تروى جيلان حمزة (١) هذا الميلاد الإذاعى فتقول : بعد حرب يونيو عام ١٩٦٧ . وبعد الغارة الاسرائيلية على مطار بيروت عام ١٩٦٨ ، وبسبب الود التقليدى بين لبنان وفرنسا فكر الجنرال ديجول فى أنه ليس لفرنسا حضور إعلامى فى المشرق العربى ، خلافا للحضور الفرنسى فى المغرب العربى بواسطة إذاعاتها الفرنسية اللسان.. فجمع الرئيس الفرنسى ديجول عددا من مستشاريه وطلب منهم دراسة مشروع إعلامى فى الشرق العربى يؤمن الحضور الفرنسى إعلاميا كما تؤمنه الإذاعة العربية لبريطانيا. وعلى الفور تشكلت لجنة لهذا الغرض ، وذهب رئيسها إلى المنطقة فى زيارة إستطلاعية على الطبيعة ، وتبين له أن إذاعات المنطقة لا تعمل على الموجة الطويلة الشائعة فى الإرسال الفرنسى. وكذلك الموجة القصيرة نادرة الاستعمال . وبدأ التفكير فى ضرورة البث من مكان قريب . وبرز التفكير فى مكان محايد حتى لا يكون البث من بلد عربى سببا فى تورط البلد أو فرنسا أو تورطهما معا . ثم استقر رأى على قبرص لتكون بلدا متاسبا . وعندما خلف جورج بومبيدو الجنرال ديجول فى الرئاسة الفرنسية عام ١٩٦٩ واصل الفكرة وشجعها. ثم ظهرت مشكلة تاريخية تحول دون الإرسال الفرنسى من جزيرة قبرص . ذلك أن البريطانيين عندما غادروا قبرص إثر حصولها على الاستقلال فى أغسطس عام ١٩٦٠ اشترطوا فى معاهدة الاستقلال ألا تنصب قبرص على أراضيها أجهزة بث لأى دولة كبرى حتى عام ١٩٩٩ . ولأن فرنسا دولة كبرى وإمارة موناكو دولة صغرى تم تغير اسم المحطة الذى كان مقترحا هنا باريس ليصبح راديو مونت كارلو وهكذا وجدوا الحل .

هذا الراديو الفرنسى كان قد سبقه راديو باريس باللغة العربية الذى يوجه إلى المغرب العربى ، ويبث إرساله بالموجة القصيرة .

وبدأت إذاعة راديو مونت كارلو فى أول مايو عام ١٩٧١ بمدة إرسال تبلغ أربع ساعات(٢) فى اليوم . ويتأجير استديو للبث من راديو مونت كارلو الذى يذيع بالفرنسية ، وباستخدام المكتبة الموسيقية لراديو مونت كارلو الفرنسى، ثم أصبحت منذ ٢ أبريل عام ١٩٧٢ فى باريس ، وكانت قوة المحطة فى قبرص ٢٠ كيلو وات ، وهى لاتكاد تغطى الساحل العربى الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، ثم أصبحت المحطة فى عام ١٩٧٩ قوتها ٦٠ كيلو وات ، بالإضافة إلى استخدام الميكروويف والكابل الممتد تحت البحر . وبذلك غطى إرسالها الوطن العربى ، وعلى إثر حرب أكتوبر ١٩٧٣ بين العرب واسرائيل دخلت إذاعة راديو مونت كارلو

(١) جيلان حمزة - كواليس راديو مونت كارلو - لهيته المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٣ ص ٢١ الى

(٢) جيلان حمزة - كواليس راديو مونت كارلو - مرجع سابق ص ١٠٩ ، ص ١٢٥ ، الى ص ١٢٩ .

مرحلة جديدة من حيث ساعات الإرسال ، وتغير المضمون من مضمون شبابي مرح إلى مضمون إخباري إلى حد ما. وبعد أسبوع من بداية حرب أكتوبر ١٩٧٣ أصبحت ساعات الإرسال تمتد من الساعة الخامسة صباحاً بتوقيت جرينتش إلى العاشرة مساءً بالتوقيت نفسه ثم أخذت إذاعة راديو مونت كارلو في إجراء أحاديث إذاعية مع شخصيات عربية بارزة ، وبخاصة في أعقاب الحرب الأهلية في لبنان ، ثم الاجتياح الإسرائيلي لبيروت .

وبالرغم من التنوع والتعدد في أشكال الفن الإذاعي الذي تطور في هذه المحطة مع اتساع جمهورها إلا أن المضمون ظل في جوهره الترفيهي ، من موسيقى وأغان عالمية ، إلى جانب الأخبار ، وأصبح للمحطة عدد من المراسلين في معظم العواصم العربية للتغطية الإخبارية إلى جانب اعتماد المحطة على وكالات الأنباء ، وتقدم المحطة الرأي والتعليق في برامجها مثل البانوراما أو جريدة الجرائد.

وتقول جيلان حمزة (١) : إذا قيل ما هو راديو مونت كارلو ؟ فالجواب يكون فوراً بأنها محطة تجارية يشكل الإعلان ٧٠ ٪ من دخلها ، والحكومة الفرنسية تدفع مرتبات العاملين في المحطة ، ولكنها لا تملكها ملكية مباشرة وإنما هي مؤسسة تتألف من أسهم إلى جانب رأسمال حكومي . وعندما بدأت المحطة كان مكتب إعلانات في بيروت يتولى حق الحصول على الإعلان في راديو مونت كارلو العربي ، بعمولة تصل إلى ٤٠ ٪ من ثمن الإعلان . ثم ظهر لون آخر من ألوان برامج الإعلانات على خريطة راديو مونت كارلو وهي إعلانات ضمن برامج مكفولة ، وفيها تقوم مؤسسة ما بدفع تكاليف إنتاج البرامج كاملة ، وهذا البرنامج يتحدث بالطبع عن نشاط تلك المؤسسة ، وعن أهدافها ، وهناك شكل ثالث للإعلان وهو برامج المسابقات ، على أن تقوم أيضاً إحدى الشركات أو المؤسسات بتمويله. ثم هناك برامج مكفولة لا يذكر إسم ممولها ، وإن كان يفهم ضمناً جهة التمويل . هذا إلى جانب تقديم برامج منوعات مثل أجمل أغاني الأسبوع ، ويتم إذاعته تحت رعاية إحدى الشركات المنتجة لأجهزة التسجيل .

وتذكر جيلان حمزة (٢) نقلاً عن تقرير لتوم رستم أحد الناطقين بلسان الخارجية الأمريكية عام ١٩٨٦ م أن إذاعة راديو مونت كارلو ٣٢ ٪ من المستمعين في المشرق العربي ، بينما للإذاعة البريطانية ٢٤ ٪ ولصوت أمريكا ٤ ٪.

(١) جيلان حمزة - كواليس راديو مونت كارلو - مرجع سابق ص ١٥٨ .

(٢) جيلان حمزة - كواليس راديو مونت كارلو - مرجع سابق ص ١٥٨ .

وعندما اشتدت الحرب الباردة بين الإتحاد السوفيتي والمعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية منذ النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي حتى منتصف العقد الثاني من القرن العشرين نفسه ، استخدمت الإذاعة وسيلة في هذه الحرب الباردة بألوان وأشكال مختلفة ومتنوعة . ومن أهم هذه الحروب الإذاعية ما كانت تبثه خمس عشرة محطة إذاعية غربية موجهة إلى حوالي مائة ألف بحار سوفيتي في بحار العالم حيث يقضي هؤلاء البحارة ما يقرب من العام متنقلين بين السواحل العالمية . وكانت برامج هذه المحطات تبث معلومات معدة خصيصاً لإشاعتها بين البحارة السوفيت ، وفي المقابل نظمت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي في ذلك العهد حملة توعية لبحارة سفنها في البحار العالمية لمواجهة الحرب الإذاعية الغربية .

التليفزيون :

وسائل الإعلام لا ينسخ أو يلغي بعضها بعضاً ، ولكنها تتكامل ، وتتنافس أيضاً ، ويظل لكل منها دوره وجاذبيته في الاتصال الانساني . وهكذا كان ظهور التليفزيون منذ عام ١٩٣٦ ، وانتشاره بعد الحرب العالمية الثانية التي أعاققت انتشاره المباشر بعد اختراعه .وعندما جاء التليفزيون ، وهو وثيق الصلة بالراديو ، لم تكن دائرة بثه تتعدى الحواجز الجغرافية للدول كما تفعل الإذاعة . حتى جاء العقد الأخير من القرن العشرين فأصبح نقل برامج التلفزيون عن طريق الأقمار الصناعية حافزاً لمحطات تلفزيونية عديدة أن تبث إرسالها عالمياً وقضائياً . وأن يستقبل المشاهد العادي هذه البرامج العديدة بإضافة « ايريال » أي هوائي على شكل طبق إلى جهاز التلفزيون العادي . وأصبحت هذه الظاهرة تسمى ظاهرة الأطباق .

وهكذا أصبح التليفزيون متخبطاً الحواجز الجغرافية مثل الراديو ، بعد أن كان يتخطاها بإنتاج البرامج وبيعها للمحطات التلفزيونية المحلية فحسب . أصبحت المحطة التلفزيونية الفضائية بكامل إرسالها في متناول المشاهد العادي بعد أن كان الأمر قاصراً على نوعيات من الانتاج تشتريها المحطات المحلية ، أو تهدي إليها ، أو تتبادلها . ومن ثم أصبحت الظاهرة الجديدة حديث الناس في الوطن العربي . حديث الخبراء ، وحديث الآباء . لأن بعض المحطات الأوربية ، والتجارية منها بخاصة تبث برامج جنسية ، وأفلام عري تضر بصحة الشباب العربي جسدياً ونفسياً . والاختلاف بين تلك المحطات التي تعبر في برامجها عن القلق والتوتر الذي يسود مجتمعات غرب أوروبا إختلاف في الدرجة وليس في النوع . ففي الدانمارك مثلاً تعرض هذه المحطات جنساً حقيقياً ، أما في إنجلترا فتعرض هذه المحطات جنساً تمثلياً . هذا فيما يتعلق بالجنس والعري . إما فيما يتعلق بالأخبار ، والإعلانات ، والبرامج الدرامية فإنها تعبر عن ثقافة أخرى ، ورؤية أخرى ، وتطور إقتصادي واجتماعي مختلف عن الواقع العربي .

وبرغم أن الجمهور العربي الذي يتعرض لهذا البث التلفزيوني محدود ، إلا أن الظاهرة في

سبيلها إلى الانتشار ، وسوف تقدم التكنولوجيا تسهيلات جديدة تجعل البث بالأقمار الصناعية للتلفزيون قليل التكاليف .

والعلاقة بين التلفزيون والغزو الثقافي للمجتمع العربى المعاصر يمكن إجمالها فى ثلاث نقاط جوهرية ، النقطة الأولى : هى الأحداث و الأكثر إثارة وانتباها وهى البث المباشر عبر الأقمار الصناعية . والنقطة الثانية : هى البضاعة الأمريكية بصفة عامة والأوروبية وغيرها التى تبثها محطات التلفزيون العربية والإسلامية . والنقطة الثالثة : هى صورة العرب والمسلمين المشوهة فى المحطات التلفزيونية الأمريكية والأوروبية .

لقد تذكرت مقولة الدكتور جليبرت أستاذ التاريخ اليونانى بجامعة أكسفورد فى منتصف القرن العشرين الميلادى ، حين قال : لو كان لليونان صحف ، ولو أن صحيفة واحدة أو حتى صفحة واحدة من صحيفة وصلت إلى أيدينا لكانت معرفتنا بالتاريخ اليونانى أكثر حيوية وأعظم مما هى عليه الآن ، تذكرت هذا القول وأنا أطلع بحجيرة أستاذ مصرى باحدى كليات الطب مع البث التلفزيونى عبر الأقمار الصناعية عام ١٩٩٣ . حيث يقول :

واشترت « الدش » أى الطبق الذى يتيح لى استقبال إرسال محطات التلفزيون العالمية فى بيتى ، وكان شراؤه بالنسبة لى أمرا هاما مطلوبا فأنا أصلا من هواة إستعمال الموجة القصيرة بالراديو لأنها تقدم لى كنزا من المحطات المختلفة وحضارات متنوعة ، وأخباراً وتعليقات وفنونا من كل أنحاء العالم ... « والدش » يمثل لى نفس المميزات لتلفزيونيا ، وقد انتظرت حتى هبط السعر حتى صار فى حدود ثمن التلفزيون الجديد .. بل وأصبح بالتقسيم المريح ثم أشتريته .. فى يوم وصوله صباحا .. جلست أمام التلفزيون ومعى جهاز الرميوت كونترول أتجول معه بين ٣٦ محطة متنوعة ، وجبت أقطار العالم كله من أمريكا لفرنسا لتركيا للمجر لألمانيا والمغرب يا إلهى إنه أمر مذهل ، مسرحية فرنسية ، مباراة كرة قدم فى ألمانيا ويمبلدون بانجلترا ، أوركسترا تركى كلاسيكى، فرقة غجرية من المجر، تعليق سياسى رصين من إيطاليا، أحداث عالمية على الهواء من محطة انجليزية .. العالم كله بين يديك أو قل تحت قدميك. ثم أتى المساء .. وأمسكت الرميوت كونترول وحركت المحطات ففوجئت بمنظر لا يتفجع معها لفظ مخفف أو كلمات ديبلوماسية ، لأنها بصراحة.. مناظر فاحشة ... !!

وحمدت الله أن كان أبنائى نياما.. وأن الرميوت كونترول مازال فى يدي استعداداً لأى مفاجأة ، ولكن هل ينام الجميع !!! ومن سوف يمسك بالرميوت كونترول فى يده فى كل بيت ؟! بل فى كل مقهى؟! إنها كارثة حقيقية ، لم أتصور حجمها . ومن إنطباعاتى عن البث القمري :

أنه أولا : كنز من الثقافة والمعلومات .. فقط لمن يجيد اللغات الأجنبية إجادة عالية متمكنة. ثانيا : أنه إلى جانب ذلك قد يكون مصدرا خطيرا للإخلال بالتوازن الأخلاقى والاجتماعى لدى

المجتمع ، ولا تحدثنى كثيرا عن حكاية التربية العائلية والترابط الأسرى ، وأنهما حاجزان ضد الانحراف !! فمن يقول ذلك إما لم يشاهد ما شاهدت أو لم ينبج !! ثالثا : أن منع الأطباق أمر غير ذى فائدة وصعب تطبيقه ، فقد بدأت التلفزيونات فى أنواعها الجديدة تدخل هوائيات الاستقبال الفضائى بداخلها ، كالراديو تماما عندما أصبح يستقبل الموجات القصيرة بدون ايريال خارجى . رابعا : أن محطات البث الفضائى إما محطات دول كقنوات سوبر شاتل والمحطة الفرنسية والايطالية والألمانية وهى تتقيد إلى حد كبير بحدود الأخلاقيات العامة وإما المحطات التجارية فهى تتنافس فيما بينها بمثل هذه الأفلام.

والحل فى رأىى : أمران أولهما حل عاجل يتم بفرض ضرائب باهظة على هذا الطبق وهو طبعاً أمر سهل بل وسوف - يجد هوى لدى المسؤولين - بحيث يصبح شراؤه بعيداً عن متناول - أى صاحب محل أو مقهى صغير فى الشارع . أما الحل الحقيقى فهو لابد من ميثاق تعدده منظمة «اليونسكو» وتلزم به دول الأمم المتحدة ، وخاصة دولها المتقدمة فى صناعة الأقمار لوضع الحد الأخلاقى - أو قل اللا أخلاقى - الأقصى لما بث بواسطة الأقمار . وأظن أنه مهما اختلفت أخلاقيات الأمم فلا اختلاف فى أن المناظر الفاحشة أمور خارجة عن كل عرف ودين، وإلى أن يتفق العالم على ذلك ويطبق هذا الميثاق فلتشجع الدولة محطات الكابل الرصينة بل والمشوقة مثل ال C.N.N. وقناة الرياضة بل لا مانع أن تقدم الدولة محطة غنائية ومحطة رياضية ومحطة دينية . وأقرب ما خطر ببالي هو قناة للمعلومات جاهزة ، ولكن لم تحتل قناة كاملة لأنها مشفرة أى تعمل بالشفرة وإن لم يتيسر الحلان فأظن الأبدىل عن التشويش على إرسال بعض المحطات أسوة بما يحدث فى الإرسال المسموع ، لابد من ذلك لأن الأمر جاد جدا والخطر قريب ويدخل البيوت من نوافذها بدون إستئذان (١) .

هذه التجربة أشبه بالصورة المعبرة للإنسان العربى وللإنسان المسلم فى العقد الأخير من القرن العشرين مع البث التلفزيونى عبر الأقمار الصناعية .

ويحلل د . السيد عليوه (٢) ظاهرة البث التلفزيونى المباشر عبر الأقمار الصناعية من زاوية تأثيره على المشاهد العربى فيرى أن الجوانب الإيجابية تتمثل فيما يلى :

(١) د . خليل مصطفى الديوانى - ولا تحدثنى كثيراً عن التربية - جريدة الأهرام بتاريخ ٣ - ٦ - ١٩٩٣ .

(٢) د . السيد عليوه - ماذا يفعل هذا الطبق الأمريكى الشهى؟ - مجلة الأهرام الإقتصادى - بتاريخ ١ - ٤ - ١٩٩١

- تجديد الثقافة الوطنية الراكدة فى بعض الأحيان بتطعيمها بنماذج وتطلعات عصرية جديدة تتعلق بالإبداع والأداء الرفيع والإيقاع السريع، مع تشجيع التبادل الحضارى، ونشر التسامح الثقافى بين الأمم والشعوب .
- تطوير وسائل الاتصال المحلية وبالأذات التلفزيون حيث تفرض عليها المنافسة مع القنوات العالمية ضرورة تحديث أساليبها .
- إختفاء فكرة السيادة الإعلامية التى كانت تتمسك بها الدول ، الأمر الذى سوف يثير قلق الحكومات الاستبدادية و النظم العنصرية لأنه يتضمن مزيداً من الدعوة إلى التحرير والانطلاق، كما سوف يزود الناس بالمزيد من المعلومات التى تساعدهم على حرية الاختيار.
- ويرى أن الجوانب السلبية تتمثل فيما يلى :
- تشكيل العقول والتلاعب باتجاهات الرأى العام وتوجيه رغبات الناس بما يتفق مع سياسات ومصالح أصحاب هذه المحطات من الدول الصناعية الغربية (وفى مقدمتها الولايات المتحدة) وغيرها من رجال الأعمال.
- حقن الوجدان القومى بقيم ومعايير وسلوكيات قد لا تتفق مع الثقافة التقليدية ، الأمر الذى يهدد النسيج الاجتماعى .
- إشاعة الميول الاستهلاكية النهمه ، والرغبة فى التقليد والمباهاة .
- ويضيف إلى ذلك أن بعض المحطات الإخبارية فى الولايات المتحدة الأمريكية تهتم بجذب اهتمام المشاهد فى تقديم الأخبار بعيدا عن المجرى الصحيح أو الحقيقى للأحداث بغرض الإثارة والتشويق والملاحقة .
- وإذا انتقلنا إلى النقطة الثانية التى تتمثل فى البضاعة الأمريكية بصفة عامة، ثم الأوربية وغيرها التى تبثها محطات التلفزيون العربية والإسلامية فإننا نجد شهادة الدكتور إدوارد سعيد الأستاذ الأمريكى من أصل عربى معبرة عن واقع حال حيث يقول :
- « إن أجزاء عديدة من العالم الإسلامى تفرق الآن فى برامج تلفزيونية من إنتاج الولايات المتحدة الأمريكية . ذلك أن المسلمين، شأنهم شأن جميع سكان العالم الثالث ، يعتمدون غالبا على عدد صغير من وكالات الأنباء ووكالات الأخبار المصورة ، مهمتها نقل الأخبار وإعادتها إلى العالم الثالث ، حتى فى العدد الكبير من الحالات التى تكون الأخبار فيها عن ذلك العالم . لقد تحول العالم الثالث عامة والبلدان الإسلامية خاصة من مصدر للأخبار إلى مستهلك للأخبار . ولأول مرة فى التاريخ (أى لأول مرة على مثل هذا النطاق الواسع) يمكن القول بأن العالم الإسلامى يتعلم عن نفسه عن طريق تصورات وتواريخ ومعلومات مصنوعة فى الغرب ، فإذا أضفنا إلى ذلك

حقيقة أن الطلاب والباحثين في العالم الإسلامي لا يزالون يعتمدون على المكتبات و المؤسسات العلمية الأمريكية والأوروبية فيما يعتبر الآن دراسات شرق أوسطية . وإلى جانب ذلك لا توجد مكتبة مركزية كاملة حقا للمواد العربية في أى مكان في العالم الإسلامي برمتة . وإى جانب حقيقة واقعية وهى أن معظم العالم الإسلامي الذى يقوم اقتصاديا على النفط، ويعتمد الآن فى نخبته على توليد طبقة مديرين من المواطنين الذين يعتمدون فى اقتصادياتهم ومؤسساتهم الدفاعية والكثير من فرصهم السياسية ، على نظام السوق الإستهلاكي العالمى الذى يسيطر عليه الغرب . كل هذه الحقائق تزودنا بصورة دقيقة ، وإن تكن مثبطة إلى أقصى حد ، عما فعلته ثورة وسائل الإعلام بالإسلام ، وهى ثورة تخدم قطاعا صغيرا من المجتمعات التى أنتجتها(١).

يقول الدكتور مصطفى محمود (٢) عن المسلسلات الغربية التى تعرضها محطات التلفزيون العربية والإسلامية :

«كل ما يتسلسل أمامنا من أحداث هى جرائم قتل وسرقة واختلاس واغتصاب وإنحلال وعهر وتبذل ، ولكن تلك السفالات نراها ملفوفة فى أجمل الثياب وأبهى الأزياء وأرق الأجسام وأنور الوجوه وأحلى القدود وأشهى الحدود ، وكل ما تقع عليه العين فى المسلسل نظيف ولامع وباهر ومتألق وجذاب وخالاب فلا غللك إلا أن نبتلع الجرعة بما فيها من سموم ، ونحتضن المضمون بما فيه من انحلال دون أن نفطن إليه، ويتمنى الساذج منا أن يكون مثل هؤلاء الأبطال و أن يمتلك مثل تلك الليوت ، ويرتدى مثل تلك الثياب ويعيش فى تلك الوفرة ويستمتع بذلك الثراء - وهكذا يأكل الطعم الذى يهدف إليه هذا اللون من الفن ، والطعم هو أن تحتال وتسرق وتقتل وتخون وتكذب وتطعن فى الظهر وتتآمر فى الظلام ، مثل ما يفعل الأبطال الذين تراهم لتكون لك تلك الوفرة وتلك المتع ولتعيش حياة فيها كل ذلك البريق .

ويغرق الأبطال فى تلك السفالات ، مع أنهم بخير وأصحاب ملايين ، ويمرحون فى النعمة والرزق الوفير والمال الكثير . ولكن هذا ضرورى لمثل تلك الفنسون . فمن الضروري أن يكون المجرم أنيقا ومهذبا ومعطرا ، وعنده يخت ، وأسطول سيارات ، وفى جيبه مليون جنيه ليبدو فى عينك غوذا ومثالا تشتهييه ، ولا يجوز أن يكون مثل مجرمى الصعيد الحفاة المطاردين من البوليس .

إن شخصية بطلنا محمود المليجى لا تنفع لأنها قد تعطى عبرة .. وهم لا يريدونك أن تخرج بعبرة ، بل يريدونك أن تتقمص تلك الشخصية الإجرامية فى حب وعشق وتذوب فيها .

(١) د . إدوارد سعيد - تغطية الإسلام - مرجع سابق - ص ٨٠

(٢) د. مصطفى محمود - جريدة الأهرام بتاريخ ١٨ / ٤ / ١٩٩٢

يريدون أن يستلوا منك هويتك ويلبسوك هويتهم وأن تلبس ثوبهم بمزاجك واختيارك ، وهذا هو التنويم الثقافى الرفيع الشيك .

ولو ارتفع صوت ينقد هذا اللون من المسلسلات ، فسوف يخرج عليه مليون صوت يرحمونه بالحجارة ، ويتهمون بالرجعية والتخلف والانغلاق والتحجر، وسوف تنتفض قبيلة من النقاد الأكابر يدافعون عن حرية الفن وحرية الابداع وحرية الخلق .. الخ .. الخ " ثم يقول :

« فى السوق الغربية التى تبيع هذا اللون من المسلسلات نجد ألوانا أخرى من الثقافة الجيدة والفنون الرفيعة ، ونجد ألوانا رائعة من البرامج الوثائقية والأفلام العلمية والأفلام التاريخية والدراما الراقية لا تقل عنها إقناعا مع فارق كبير أنها لا تقدم هذه النماذج الساخنة ، ولا تمتع المشاهد إمتاعا فارغا بل تثرى عقله وتفتح بصيرته وتعمق وجدانه ، وهى أولى بالاستيراد من هذه المسلسلات »

ولم يُقصر النقاد السينمائيون وكتاب « الدراما » العرب فى كشف ما تعبر عنه البضاعة الأمريكية والأوربية فى مجال الأفلام والمسلسلات ولم يترددوا فى نقد زملائهم المنبهرين ببضاعة الغرب هذه وبيان مدى تفاهتها وتفاهة المنبهرين بها .

فى عام ١٩٩٢ فاز فيلم « صمت الحملان » بالجوائز الست الكبرى من جوائز «الأوسكار» المعروفة عالميا . فاز بجوائز أحسن ممثل ومخرج ومثلة وكاتب سيناريو وأحسن روائى وأحسن فيلم. وصاحب هذا الفوز ضجيج إعلامى عالمى. ولكن الصحفى المصرى عبدالنور خليل (١) يصف ذلك بالمفاجأة لأن الأفلام التى نافست صمت الحملان فى الحصول على الجائزة أثارت عند عرضها ضجيجا سياسيا ، مثل الفيلم الذى حاول تعقب حادثة إغتيال « كينيدي » الرئيس الأمريكى الأسبق . ولكن الفوز كان « لصمت الحملان » ، الذى عرض عالميا لأول مرة فى مهرجان برلين فى فبراير ٩١ وقدمه مهرجان القاهرة السنمائى الدولى فى ديسمبر من العام نفسه ، فيلم جريمة ، وإن زادت عليه صفة العنف الدموى الذى يحكى تحول طبيب نفسى بارع إلى آكل وحشى للحوم البشر . يبدأ فى قضم خدود مرضاه أو يأكل سمانة أذرعهم ويحاكم ويسجن لدى الحياة فى جب تحيطه الأسوار الحديدية وجدران من الزجاج غير القابل للكسر .

وقصة الفيلم تبدأ بسفاح نساء مطلق السراح اطلق عليه اسم بافلوبيل يختار ضحاياه من نسوة ممثلات الجسد لحبسهن حتى يفقدن الوزن ، ويسهل عليه نزع جلودهن بعد قتلهن ، لأنه يريد أن يصبح له جلد امرأة ، وتتعدد ضحايا السفاح ، ويختار ضابط المباحث الفيدرالية جاك كراوفورد تلميذة جادة فى أكاديمية الشرطة اسمها كلاريس ستارلنج كان أبوها ضابطا قتلته بعض المجرمين

(١) عبد النور خليل - صمت الحملان بطلاه طبيب يأكل لحوم البشر وسفاح نساء - مجلة المصور- بتاريخ ١٠-٤-

أمام أعينها فقررت أن تصبح ضابطة تكافح الجريمة .ويرسلها كراوفورد لمقابلة الطبيب المجرم ليكستر في سجنه لكي تحاول أن تصل إلى شخصية السفاح الذي كان واحدا من مرضاه ذات يوم . ويرغم المحاذير ويرغم القضبان المزدوجة والحوائط الزجاجية المدرعة ، تلقاه في الجب الذي سجن فيه ، وينظرة خبيرة ينفذ إلى أعماقها . إنه يكشف كابوس حياتها . صيحات الحملان وهي تساق إلى الذبح لكنه يضعها على أول الطريق لتعاقب سفاح النساء بافلوبيل الذي استمر في ذبح ضحاياه ، ثم اختطف ابنه سيناتور في مجلس الشيوخ الأمريكي فقامت ضجة ضخمة أدت إلى المطالبة بأن يجيء البوليس بالطبيب أكل لحوم البشر من سجنه مكتم الفم بقيد حديدي محبوسا داخل قفص . ورغم ذلك ينجح في نهش وجه حارسه ويهرب ، وإن كانت الضابطة الشابة قد استطاعت أن تصل إلى معقل سفاح النساء وتقتله وتحرر ابنة السيناتور ، وتصبح بطلة وتتخرج وتتزوج ضابط المباحث الفيدرالية وتتلقى مكاملة عبر البحار وهي بلباس الزفاف أن الطبيب أكل لحوم البشر يهنئها بصمت الحملان في كابوسها اليومي ، وزفافها ، ولا ينسى أن يخبرها أنه في وسط إفريقيا ، يوشك أن يتمتع بوجبة عشاء من لحوم البشر طبعاً . هذا الفيلم وهذا الفن برمته يعبر عن ثقافة أخرى لا تتوافق مع الثقافة العربية ، مهما قيل من توحيد الفكر الإنساني ، ومهما قيل من مبررات .

والكاتب المصري أسامة أنور عكاشة (١) مؤلف المسلسلات التلفزيونية المشهورة برد علي المنهريين بالأعمال الدرامية الأجنبية التي يبثها التلفزيون المصري قائلا :

«فوجئت ذات صباح بكلمات منشورة في العدد الأسبوعي لإحدى صحفنا القومية الكبرى لمحرر فني كبير وقديم بعاموده النقدي الأسبوعي يدعو فيها كتاب الدراما المصريين ليواظبوا على متابعة مسلسل الجري والجميلة يوميا على شاشة القناة الثانية لكي يتعلموا منه فن الكتابة الدرامية !! ولو أن حضرته قد اكتفى بالتعبير عن إعجابه وإنبهاره بالمسلسل لما استوقفنا هذا ولا أثار فينا أى نوع من الاستفزاز وخاصة أن ملايين المشاهدين يشاركونه الإعجاب بالتفافهم اليومي حول أجهزة التلفزيون في انتظار إطلالة السيد "ريدج فورستر" وشقيقه "ثورن" مع الأنسة "بروك" وصاحبتها "كارولين سينسر" وباقي شخصيات هذا المسلسل الأعجوبة ولكن أن يتطرق فيدعونا إلى الجلسوس في مدرسة "ريدج فورستر" لتعليم الدراما الرشيدة، فهذا ما يدفعني بحماس لمراجعة دروس هذا المسلسل و المدرسة مع سيادته ومع القراء الأعزاء . ولنبدأ أولاً بدرس النجاح لنحسم منذ البداية قضية المبدأ الفني، ولا نطيل اللجاج حولها .

(١) أسامة أنور عكاشة - لغز نجاح مسلسلات الصابون - مجلة روز اليوسف - بتاريخ ١٨ - ١ - ١٩٩٣ .

فهذا المسلسل ناجح بلا شك ،وعلى حد تعبير الأخت المذبة التي تقدمه كلما جاء عليه الدور بقولها أعزائي كل أفراد الأسرة موعدكم الآن مع الحلقة رقم كذا من المسلسل اليومي المثير المتع "ذى بولد أند ذا بيوتيفل" إذا فنحن لا نغارى ولا نمأحك فى أن المسلسل ناجح كما نجح قبله دالاس و فالكون كريست ونوتس لاندنج وآل كولى وسائر درر هذا العقد من التحف الدرامية التي تمتعنا وتشيرنا بها شركات الإنتاج الأمريكية والأسترالية وغيرها . ونجسنا فيها نحن شعوب العالم الثالث المتعطشة للفرجة على أنماط الحياة والعلاقات والسلوكيات التي حرمننا منها فى مجتمعاتنا المقفولة والتي تجعلنا نلهث ونتقلب على جمر النار ونحن نشاهد أحلى فتيات العالم الأول، تستطيع كل واحدة منهن أن تحمل من على حبل المشنقة ، ومجموعة العلاقات الجنسية غير الشرعية التي تصل فى كثير منها إلى الزنا بالمحارم، فتضرب على أوتار "التابوهات" الشرقية مستخرجة من العقل الباطن لدينا كل أحلام وكوابيس خالد الذكر سيجموند فرويد !

ولكننا نرفض أن يكون النجاح بهذا المعنى هو المقياس الفنى ،فكل هذه الأعمال لا تصمد أمام التحليل الدرامى المنهجي والموضوعى ،وكلها تعتمد على الإبهار الإنتاجى ودقة الصنعة وتخفي وراء هذا تلفيقا دراميا قاضحا وأخطاء لو اقترفها مؤلف دراما - مصرى ابن بلد وليس خوجة - لنصبت له المشائق النقدية !

ولن نقارن بين تلك الأعمال وأعمالنا نحن، بل سنقارنها بالأعمال الدرامية المحترمة عندهم ولنتذكر معاً مسلسلات مثل الغنى والفقير والجذور والشمال والجنوب و أعلا السلم وأسفل السلم وإدوارد ومسز سامبسون وغيرها من الأعمال القيمة التي شهدناها .وهناك الكثير لم نشاهده لأن السادة المنوط بهم اختيار الأعمال الدرامية الأجنبية وشرائها فى التلفزيون المصرى لا يعرفون أن هناك سلسلة مثل" البست سيلرز" تقدم دراما جيدة وممتعة وغير مسففة، أو يعرفون ولكنهم يفضلون بشكل شخصى أو لأسباب لا نعلمها . مسلسلات السوب أوبرا soap opera والترجمة الحرفية لها مسلسلات الصابون أى تلك التي تذاع لريسات البيوت فى فترة انشغالهن بأعمال المطبخ. ومسلسلنا الأخير موضوع هذا المقال الجرىء و الجميلة هو المثال الواضح لهذا النوع .

ففى الجرىء والجميلة نرى نموذجاً للدراما - اسمحوا لى أن أطلق عليها اسماً من عندى - أعتقد أنه أصدق وصف موضوعى لها وهو الدراما الحلزونية فهنا لا يجرب الكاتب تكتيك فن السيناريو المتوازي ،أو المستعرض، أو المتتابع ،أو المتقاطع أو التراكمى ،أو أى تكتيك آخر فى السيناريو بل يخترع تكتيكاً فريداً فى نوعه هو السيناريو الحلزونى ،أى يبدأ من نقطة ثم يدور حولها ، ثم يتقدم خطوة ليعود إلى حيث بدأ ويكرر التقدم والدوران والعودة حتى يقطع نفسك معه ولكى لا يفقدك كمشاهد يحافظ على اللعبة البوليسية القديمة (الملبس فى الايد دى ولا فى الايد دى) ، إنه يغيطك باللف والدوران ، ويشيرك بأن يجعل من الحبة قبة ، ويجعلك فى الوقت نفسه

تضطر للمتابعة حتى تعرف آخرتها معاه " .

ويضيف الكاتب قائلا :

«الدروس الحقيقية التي يمكن أن يستخلصها كتاب الدراما من هذا المسلسل هي كيفية الابتعاد عن أخطائه الدرامية وركاكة بنائه فلو حاول أحدهم أن يقلده فلن يجد عقدة الخواجة لتحميمه بل سيسلق ويشوى على نار النقاد وكتاب أعمد الانطباعات .

وكتاب الدراما في مصر ليسوا في حاجة لمسلسلات الصابون ليتعلموا منها دروسهم. وإذا وضعنا في الاعتبار فارق الإمكانيات المادية والتقنية وأدوار الابهار والثراء في الكوادر الفنية فسنجد أن كثيرًا من الأعمال الدرامية المصرية تتفوق - كتابة وإخراجا - على هذه المسلسلات . ولن استشهد بأعمالى أنا حتى لا تكون شهادة مجروحة ! ويكفى أن أذكر السادة القراء ومعهم الأستاذ الناقد الذى يطالبنا بتلقى دروس الدراما في مدرسة الجرىء والجميلة - بأعمال مصرية- مثل عيلة الدوغرى ، ولسه باحلم بيوم ،وليلة القبض على فاطمة للأستاذ محسن زايد، و الكتابة على لحم يحترق، وليلة سقوط غرناطة للأستاذ محفوظ عبدالرحمن ، وسفر الأحلام، و أحلام الفتى الطائر للأستاذ وحيد حامد ، وزينب والعرش للأستاذ صلاح حافظ ،و رأفت الهجان للأستاذ صالح مرسى ، وغيرها مما تضيق به الساحة !

لقد ذكرت أكثر من مرة في أكثر من حديث صحفى أننى أحزن حين يقارن المتحمسون بسلامة نية بين لىالى الحلمية وفالكون كريست أو نوتس لاندنج لأنى اعتبر هذه المقارنة إجحافا بحق لىالى الحلمية ، وتصغيراً من حجمها، وأكرر الآن أن مطالبة الكاتب الدرامى المصرى بالتعلم من الجرىء والجميلة هو إهانته له فضلاً عن كونه نوعاً من اختلاط الفهم والعجز عن التقييم النقدي السليم ،وربما كان جهلاً بأصول الدراما وقواعدها ؛ وكان الأخرى يصاحب هذه الدعوى أن يطالب الرقابة فى التلفزيون المصرى والتلفزيونات العربية بأن ترفع وصايتها واعتسافها عن قلم الكاتب المصرى، وعقول الجماهير العربية ، وسنرى حينئذ إبداعات درامية متفوقة لا يمكن أن تصبو إلى قامتها أعمال مثل مسلسل السيد "ريدج فورستر" ساحر النساء ومحطم قلوب العذارى وسنرى فى هذه الإبداعات معايير وقضايا أخلاقية وإجتماعية أسمى بمراحل من تلك المنظومة الأخلاقية العجيبة التى تجعل الأخ يدفع أخته لعلاقة حرة والأبناء يدفعون أمهم والأم تصطاد احد "الجيجولوجات" لتنصب به فخاً لا ينتها ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وقد نشرت الصحيفة تعليق مديرة الرقابة على الأفلام الأجنبية على هذا المسلسل قائلة :
مسلسل الجرىء والجميلة يحمل قيما ومبادئ إنسانية عامة ،ويناقد مشاكل ليست محلية بل تقترب كثيراً من مشاكل المجتمع الشرقى، ولهذا أجزناه رقابيا وأقبل الناس على مشاهدته .

وفيما يتعلق ببطء الايقاع فقد طرحت فكرة عمل مونتاغ للحلقات ولكن بعض المسؤولين فى التلفزيون رفضوا كما أن الشركة المنتجة أكدت أن مخرج المسلسل تعتمد هذا البطء أما المشاهد التى حذفت رقابيا فهى قليلة وأهمها مشهد اغتصاب كارولين ، وآخر لقبله بين ريدج و بروك!!"

وإذا إنتقلنا إلى النقطة الثالثة المتعلقة بالصورة المشوهة للعرب والمسلمين وللإسلام فى محطات التلفزيون الأمريكية والأوربية فإن الأمثلة أكثر من الحصر ففى تحقيق عرضته إحدى المحطات الأمريكية (عام ١٩٨٨) عن الإسلام فى بلاده ، كانت الحلقة الرابعة عن مصر (١) . ويحلل أحمد بهجت مدى التشويه فى المادة التلفزيونية قائلا :

« الفرق بين الدراسة الموضوعية والدعاية الموجهة هو الفرق بين الحياد العلمى ، والانتحياز لفكرة سابقة أو مخاوف داخلية تلقى بظلالها على موضوع الدراسة .

ويعبر التحقيق الذى أذاعه التلفزيون الأمريكى وقامت به جريدة كريستيان ساينس مونيتور عن وجهة نظر الغرب حين يدرس الإسلام فى موطنه .. إنه يدرسه من خلال أحاسيسه هو وتاريخه وأفكاره السابقة وعلاقته به ونفذه عليه .. وبالتالى فإن الدراسة تتلون بالهوى الشخصى ، وتخرج عن كونها دراسة هدفها البحث عن الحقيقة . ولعل أبرز مثال على ذلك هو قول شيرمان:

- هناك مئات الآلاف من المصريين الذين إنجرفوا إلى الأصولية الإسلامية ، وهؤلاء ليسوا إرهابيين ولكن هدفهم هو هدف الإرهابيين . إنهم يريدون تحويل مصر العلمانية إلى دولة إسلامية متشددة . هنا فى جامعة الأزهر ، يدرس الطلبة فى فصول الذكور المنفصلة ، القانون الإسلامى ، بكل قواعده المتشددة كالتمييز بين الجنسين ، وتحريم الخمر ، وأوامر الزى الصارمة للرجال والنساء ، وموضوع عمل النساء ، وأيضا هذه القواعد الجديدة للعمل الاقتصادى والبنوك ، وكل حركة فى الحياة . والحق أن تأمل هذه العبارة يعكس موقف الغرب عموما من القضية ، وهو موقف يدرس تاريخ الإسلام من خلال حركة المسيحية فى أوروبا ، ويقبسه بها برغم إختلاف ظروف التاريخ والحياة والطبيعة . وفى موضع آخر من البرنامج يقول ويليس :

- تنمو الأصولية الإسلامية فى مصر وتؤثر حركتها على الحياة اليومية بما فى ذلك حركة المال والاقتصاد .. وهذه الحركة فى الغرب لا تخضع للدين مطلقا ، ولكن الأصوليين الإسلاميين يرون أنه لا تمييز بين العقيدة والحياة والسياسة ، ولا انفصال بين الكنيسة والدولة (يقصد المسجد والدولة) ، عندهم أن القوانين التى وردت فى القرآن يجب أن تطبق ، حتى فى الحياة المعاصرة وبنوك الاستثمار .. ومن هنا جاء ما يسمونه بالبنوك الإسلامية .

(١) أحمد بهجت - جريدة الأهرام بتاريخ ٤ - ٦ - ١٩٨٨ ، ٥ - ٦ - ١٩٨٨ ، ٦ - ٦ - ١٩٨٨ .

ونلاحظ على قول ويليس دهشته ورفضه المبدئي لفكره تدخل العقيدة في الحياة الاقتصادية أو المالية أو البنوك . كما نلاحظ عليه أنه ينظر إلى حركة تاريخ المسيحية في أوروبا ، ويحاول فهم الاسلام من خلالها ، وعلى حين كان فصل الدين عن الدولة إنجازاً هائلاً في أوروبا فإن نفس الفكرة في الشرق تبدو بعيدة وغريبة عن الاسلام ، الذي يعتبر الحياة كلاً لا يتجزأ بكل جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية يقول الدكتور «إدوارد سعيد» : (١) «لعلنا لا نبالغ إلا قليلاً في قولنا إن المسلمين والعرب تتم تغطيتهم الاعلامية أساساً ، ويدور النقاش حولهم ويتم إدراكهم بوصفهم مورد نفط إرهابيين محتملين ، أما تفاصيل الحياة العربية الاسلامية والكثافة الشعرية الانسانية وزخماها النابض ، فلم يدخل إلا النذر اليسير منها حتى في وعى أولئك الذين إمتنعوا تغطية العالم الاسلامي والكتابة عنه . ونجد ، عوضاً عن ذلك ، سلسلة محدودة من الكتابة الكاريكاتورية الفجة المختزلة حول العالم الاسلامي ، معروضة بطريقة من شأنها أن تجعل هذا العالم معرضاً للعدوان العسكري بالإضافة إلى أشياء أخرى تسمح بها هذه الطريقة .»

وإذا كانت معظم وسائل الاعلام في الغرب تشترك في تشويه صورة الانسان العربي ، وصورة الاسلام ، وصورة المسلمين ، إلا أن الصورة التليفزيونية لها تأثير مضاعف . إن الصورة تعد وتتحور وتشكل فتصبح صورة كاذبة برغم ما فيها من لقطات واقعية . إن عملية التركيب والاختيار تجعل المغالطة أكثر إحكاماً من الواقع ذاته .

ويضرب الدكتور إدوارد سعيد (٢) مثلاً معبراً عن تشويه الاسلام والمسلمين في الاعلام الأمريكي المعاصر قائلاً : ومن أمثلة ذلك الكتاب الذي صدر في الطبعة الشعبية عن كتب «مانورا» وهو كتاب «الحكومة الاسلامية» للامام الخميني ، غير هذا العنوان فقد استبدل ليصبح: كفاحي لآية الله الخميني . وأرفق بالنص تحليلاً أعده «جورج كريبوازي» وهو من كبار مراسلي صحيفة «النيويورك بوست» . وقد زعم لأسباب خاصة به أن الخميني عرسي وأن الاسلام ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد ، ويبدأ تحليل «كريبوازي» بشكل مرتب كما يلي «إن آية الله روح الله الخميني مثله مثل أدولف هتلر في زمان آخر ، طاغية ، حاقد ، يغوى الناس ، وهو خطر على نظام العالم وسلمه . والفرق الأساسي بين مؤلف كتاب كفاحي وبين مؤلف كتاب الحكومة الاسلامية النافه ، هو أن أولهما كان ملحدًا بينما يتظاهر الثاني بأنه من رجال الله»

(١) د. إدوارد سعيد - تغطية الإسلام ، كيف تتحكم وسائل الاعلام الغربية في تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم -

(ترجمه : سميرة نعيم خوري) - الطبعة الأولى - مؤسسه الأبحاث العربية - بيروت - ١٩٨٣ - ص ٥٧

(٢) د. إدوارد سعيد - تغطية الاسلام ، - مرجع سابق ص ٦٩ ثم ص ٧٢ .

هذه النماذج والأمثلة التي يقدم بها الاسلام في وسائل الاعلام الأمريكية تحاول فرض أنماط وقيم ومعلومات خاطئة ومزيفة إلى جانب تكرارها وتجنب التفاصيل ، وغيباب الرؤية الأصلية والصحيحة .

أما فرع الجهاز الثقافى الذى زود ويزود معظم الأمريكيين ، وينطبق ذلك على الأوربيين بصورة عامة، بما يتلقونه عن الاسلام فيشتمل فى معظم الأحيان على الشبكات الاذاعية والتلفزيونية، والصحف اليومية ، والمجلات الإخبارية الواسعة الانتشار . وتلعب الأفلام دورا ، دون شك ، حتى لو إقتصرت ذلك الدور على ما نستمد منه إحساس بصرى بالتاريخ ، والبلاد البعيدة، الذى يتم عن طريق السينما ، فى غالب الأحيان . ويمكن القول بأن هذا التركيز القوى لوسائل الاعلام مجتمعة ، يشكل نواة مشتركة من التفسيرات توفر صورة معينة للاسلام وتعكس ، دون شك ، الاهتمام والمصالح المسيطرة فى المجتمع الذى تخدمه هذه الوسائل ، ويرافق هذه الصورة ، وهى ليست مجرد صورة بل هى أيضا مجموعة من الأحاسيس توصلها الصورة وما حول الصورة ، ما يمكن أن ندعوه بالسياق العام . أى الخلفية أو الاطار لهذه الصورة وموقعها بالنسبة للواقع الفعلى ، وما تتضمنه من قيم ، وأخيرا وليس آخرا ، نوع الموقف الذى تولده فى نفوس المشاهدين .

فإذا دأبت الشبكات التلفزيونية الأمريكية على عرض الأزمة الإيرانية عبر صور وحشود إيرانية تنشد الأناشيد وترافقها التعليقات حول العداء لأمريكا ، فإن من شأن البعد المكانى وانعدام الألفة مع مثل هذه المشاهد ، وما تتضمنه من تهديد أن تحدد الاسلام فى نطاق تلك الخصائص . وهذا بدوره يولد لدى المشاهد الأمريكى شعورا سلبيا وغير جذاب . وبما أن الاسلام هو ضدنا نحن الأمريكين ، وهو يقبع هناك بعيدا . تصبح الحاجة إلى إتخاذ موقف مواجهة ضده ضروره لا شك فيها . وهذا ما يفسر قول « جين دانييل » فى صحيفه « النوفيل أوزيرفاتور » بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٩٧٩ : « إن الولايات المتحدة الأمريكية محاصرة بالاسلام » .

إلى جانب ذلك فإن الضعف المهني فى المحطات العربية يسهل أهداف الغزو الثقافى الذى يقدم إلى المشاهدين العرب . أذكر أنه فى يوم الثالث من شهر نوفمبر عام ١٩٨٦ قرأت العمود الصحفى « يوميات » للكاتب المصرى أحمد بهاء الدين فى جريدة الأهرام يستنكر إغفال الاعلام المصرى لذكرى حرب السويس . ويقول : ماذا تذكرت الدولة ؟ ماذا فعل الاعلام التلفزيونى والاذاعى الذى يحبى ذكرى كل من هب ودب ، ولديه برنامج يومى إسمه حدث فى مثل هذا اليوم ؟ وفى مساء اليوم ذاته أذاع التلفزيون المصرى صورة لقرار تأميم شركة قناة السويس . واستعرض بعض الجنود المصريين ، وذلك ضمن برنامج « الكاميرا الأجنبية » ... مع تغيير فى الرسالة المنطوقة . والواقع أن سبب هذا التناقض يعود إلى مستهلك الاعلام ومنتج الاعلام . إن هذا البرنامج يعتمد على الأفلام التى تأتية من الخارج ، من المصدر الغربى . لذلك فإن أقصى ما يفعله

المخرج ومقدم البرنامج أن يقدم أو يؤخر أو يحدف ما يتعارض مع الرقابة . ولا أكثر من ذلك . وهذه صورة تلقائية ويومية للغزو الثقافي الذي يعتمد فيه مستهلك الاعلام على ما يقدم له ويقف عاجزا عن الانتاج في ذكرى أعظم إنتصاراته الوطنية في عصره الحديث !!...

السينما :

أخترعت السينما عام ١٨٩٥ ، وبدأ إنتاج الافلام الصهيونية عام ١٩١١ ، وينقسم تاريخ السينما الصهيونية إلى مرحلتين . الأولى : قبل إنشاء الدولة اليهودية (١) في فلسطين ، والثانية بعد إنشاء الدولة ، في المرحلة الأولى كان الهدف هو إنشاء الدولة ، وفي الثانية كان الهدف تثبيت وجودها . وأبرز ما استخدمته السينما الصهيونية في المرحلة الأولى اضطهاد اليهود في ظل النازية والفاشية في أوروبا قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية ، فقد اعتبرت أن هذا الاضطهاد يبرر إنشاء دولة يهودية في فلسطين . وظلت تكرر هذا المعنى بعد إنشاء الدولة برغم أن اليهود لم يعانون من أى اضطهاد في العالم العربي كله ، بل وفي العالم الاسلامي . وبعد إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين أصبح موضوع الحروب العربية الاسرائيلية أكثر بروزا في السينما الصهيونية . وتم تناول هذه الحروب باعتبار أن حرب ١٩٤٨ هي حرب الاستقلال وأن الحروب التالية حروب دفاعية تدافع فيها الدولة المسالمة الديمقراطية عن وجودها الضعيف تجاه الدول العربية القوية والكبيرة والغنية . ويرى سمير فريد (٢) إن ما ساعد على نجاح السينما الصهيونية في غسل دماغ البشر ضعف السينما العربية ، وضعف الاعلام العربي بصفة عامة وهذا الضعف ليس مسئولية السينمائيين أو الاعلاميين العرب ، إذ لا يرجع إلى ضعفهم المهني ، أو الثقافي ، أو قصور وعيهم السياسي ، أو الفكري ، وإنما يرجع أولا وأخيرا إلى ضعف المؤسسات السينمائية والاعلامية ، وتقصير الدول والحكومات العربية ، فقوة الاعلام الصهيوني تكمن على وجه التحديد في قوة المؤسسات ، وعدم تقصير الدول والحكومات المعنية بنصرة الصهيونية . وليست على الاطلاق فيما يسمى العبقورية اليهودية . وباستمرار ضعف المؤسسات العربية وعشوائية الأسواق ، ومع انتشار الفيديو ثم البث التلفزيوني بالأقمار الصناعية أدى ذلك كله إلى انتشار الأفلام الصهيونية في الوطن العربي . وفي شهر مارس ١٩٩٣ حضر الكاتب المسرحي المصري سعد الدين وهبه ندوة عن الصوتيات والمرئيات بين الغرب والعرب . أو بمعنى أوضح وأقصر كيف ينظر الغرب للعرب من خلال السينما والتلفزيون والاذاعة ، وعاد من الندوة ليكتب عن الندوة التي حضرها ، ولكنه لا يكتب بقلم الصحفي أو الكاتب المسرحي ، وإنما يكتب بقلم الفنان الباحث صاحب الخبرة الطويلة . ويؤصل كتابته أو بحثه ،

(١) - سمير فريد - السينما والإعلام الصهيوني - مجلة العربي - بتاريخ مارس ١٩٩٣ .

(٢) المرجع السابق .

ويرد القضية إلى جذورها الموثقة بالبحث والدراسة فيقول : (١) « تحدث فنانون فرنسيون كثيرون في الندوة ، اعترف بعضهم بأن رأى الغرب فى العرب لا يناسب الحقيقة ، ولأم بعضهم أو أكثرهم العرب على تقصيرهم فى تقديم أنفسهم للعالم بصورة صحيحة ، حتى أنه ليست هناك محاولات جادة لتصحيح المفاهيم فى الأعمال الفنية التى يشاهدونها تعرض ، وهى تسود صورتهم ، أو تقدمهم فى شكل غير حقيقى ، وقال « إدجار بيزانى » مدير معهد العالم العربى إن الهوية العربية لا يعكسها الاعلام العربى ، بل ، وبصراحة ، هناك خلل فى النظم الاعلامية . وأن العرب لا يحسنون إقامة العلاقات مع العالم الخارجى . وشكا « بيزانى » من الغزو الأمريكى للثقافة الفرنسية ، وقال إن جاذبية الارسال والاستقبال أصبحت ضرورة فى عالم يفقد هويته الثقافية ، وطالب العرب بتأكيد هذه الهوية ، مع ضرورة حل مشكلة الأصالة والمعاصرة ، وقال « كلود شيسون » وزير الخارجية الاشتراكى الأسبق: إن فرنسا لا تعامل العرب على مستوى واحد ، بل تعامل كل دولة على حدة ، وعلى قدر حرص الدولة على العلاقات مع فرنسا ، فعند الحديث عن علاقة العرب بفرنسا فعلا لا يمكن التعميم ، فعلاقة فرنسا بالمغرب العربى غير علاقتها بمصر ، وهكذا ، ولكنه أيضا لأم العرب على تقاعسهم الشديد فى تقديم أنفسهم للعالم الغربى تقديما مناقضا للصورة المزيفة التى تصورها بها أجهزة إعلام مأجورة ، أو ميسسة ، والواقع أن المشاكل بين العرب والغرب ليست وليدة اليوم ، بل هى قديمة قدم الاستعمار القديم ، وحياته فى الدول العربية ، وحروبها المتصلة للخلاص منه ، واستقلالها جميعا ، بعد حروب طويلة أو مفاوضات مضنية ، فإيطاليا وفرنسا ، وإيطاليا وأسبانيا ، عاشت فى العالم العربى ، اقتسمت أرضه وهى تعرفه تماما ، وتعرف كل ما فيه ، ولكن اليوم غير الأمس وشباب اليوم ، أو العاملون اليوم فى الأنشطة الفنية يحتاجون لشئ كبير من الصبر والصدق ، كى يعكسوا الصورة الحقيقية ، لا الصورة التى يريدون إظهارها ، أو تريد لهم إظهارها قوى الصهيونية العالمية التى دون شك تملك قوة كبيرة فى الاعلام العالمى .

وشخصية العربى فى السينما ، والتلفزيون ، لا يمكن تجاهلها ببساطة على أساس أن الفيلم مجرد وسيلة للتسلية ، بل على العكس ، فالواقع إنهما يلعبان دورا فى تشكيل نظرة الغرب إلى العرب ، وخاصة بالنسبة للنشء فالشباب الصغار بانطباعاتهم الخاصة هم عشاق السينما الذين يتأثرون بها ، والأفلام بعد أن تترك دور العرض تنتقل إلى داخل المنازل من خلال التلفزيون والفيديو ليتسع تأثيرها على الأسرة الغربية بكامل أفرادها .. وقد إهتم بهذه الظاهرة « جاك شاهين » الأستاذ فى مادة الاعلام الجماهيرى فى جامعه « الينسوى » الجنوبية وهو أمريكى من أصل لبنانى، نشر دراسة هامة حول دور التلفزيون الأمريكى فى تشويه الشخصية العربية ، يقول

(١) سعد الدين وهبة - العرب فى عيون الغرب - جريدة الأهرام بتاريخ ١٠ / ٤ / ١٩٩٣ .

فيها : أهم الادعاءات الأيديولوجية التي يمكن أن نجدها في الأفلام التي تنتج من أجل العرض التلفزيوني أن العربى إرهابى ، وعلى الرغم من أن هذا النوع من «الأكليشيئات» أصبح مستهلكا ، وعلى الرغم من أن تأثير أى فيلم منفرد أيا كانت أهميته يظل محدودا فإن التأثير الأكثر خطورة والبعيد المدى يكمن فى عملية تكرار القولية والتنميط ، فمن شأن هذه الصورة التي توفر لها عنصر الثبات والتوكيد التي لم تجد من يغير من شأنها ، أن تشوه القيم والتصورات التي يأخذها المشاهد عن المواطن العربى . ينطبق هذا على هؤلاء الذين يعملون فى الأجهزة الحكومية حيث أن القوالب المنمطة السلبية لا تتواجد من فراغ ، رغم أنها لا تشكل ظاهرة عامة.

وقد عولج هذا الموضوع أيضا فى العديد من الدراسات العربية ، فقد قدم الناقد المصرى أحمد بهجت فى عام ١٩٨٨ كتاب « الشخصية العربية فى السينما العالمية » ، وفيه يصل إلى أن السينما العالمية بدلا من أن تساعد على خلق جو من التفاهم بين العرب والغرب . أكدت مع مرور الأيام أنها لا تستطيع أن تلتقى بالآمال العربية خاصة والانسانية عامة، بل زرعت الشك والخوف فى النفوس وأفسدت على الإنسانية بشكل عام أملا عزيزا فى أن يسود التعاون والتفاهم مختلف الأجناس . وكان عمادها التعصب ، والتشويه ، والتزييف ، والسخرية ، بشكل لا يبرر الاستمرار فى إنتهاج رد الفعل السلبى المضطرب الذى انتهجه العرب تجاه هذه السينما .

كما واصل الناقد اللبنانى « وليد شميظ » دراساته الهامة فى هذا المجال ، فكتب فى عام ١٩٨٦ دراسة بعنوان « العربى فى العيون الأمريكية » ، وفى عام ١٩٨٩ كتب دراسة بعنوان « حرب التشويه الحضارى » حدد فيها جذور هذه الظاهرة بقوله : « لقد حكمت العلاقة بين العرب والغرب خلفية شائكة ومعقدة ، قائمة على تاريخ طويل من الصراع المجهول بالخوف والعنف أحيانا ، والتنافس والتناحر أحيانا أخرى ، والاستعمار ومحاولات الهيمنة فى أحيان كثيرة . هذا التوتر فى العلاقة التي بدأت مع الحملات الصليبية . واستمرت مع الفتوحات الاسلامية التي وصلت إلى جنوب أوروبا وبلغت وسط فرنسا ، إزدادت حدة فى زمن الاستعمار . وخضوع الشعوب العربية خلال عقود طويلة لهيمنة المستعمر الأوروبى ، مع ما تبع ذلك من حركات إستقلال ، وحروب تحرير ، وضعف هذه الشعوب فى مواجهة مباشرة مع الأوروبيين ، وهى مواجهة لا تزال قائمة ومستمرة ، وإن كانت فى أشكال مختلفة عن تلك التي سبقتها . فرضها الاستعمار نفسه الذى تحول إلى «إمبريالية» قمارس هيمنة ثقافية، وإقتصادية ، وحضارية ، لا تقل ضراوة عن هيمنة المستعمر القديم ، السياسية ، والعسكرية ، فالعلاقة بين العرب والغرب بين جنوب المتوسط وشماله غالبا ما كانت علاقة صراعات أدت إلى تكوين أفكار مسبقة عن العرب ، وإلى صنع أنماط جاهزة لهم حفل بها الأدب الأوروبى وقنونه ، ووصلت إلى الأمثال الشعبية ، وترسخت فى الذهن العام . ويبدو أن الأمريكيين أنفسهم ، وهم فى النهاية أبناء أوروبا الذين هاجروا إلى القارة الجديدة،

ورثوا كل هذه الرواسب، وعندما بدأت الصهيونية تخوض ضد العرب حرب التضليل الاعلامي وجدت الأرض خصبة جدا ، فالانسان عدو ما يجهل ، والأمريكيون يجهلون العرب تماما.

والمحصلة التي وصل إليها الجميع هي أن شاشة العرض السينمائي ، والتلفزيوني ، أصبحت تمثل المكان الرئيسي الذي يلتقى عليه العرب ، الذين صنعتهم الأفلام ، ولذا فإن النمط العربي كما تقدمه هذه الأفلام يستحق منا نظرة تحدد ملامحه التاريخية بإيجاز .

لقد ارتبط ميلاد السينما الأمريكية والأوروبية منذ قرن من الزمان بهذه الصورة النمطية للعربي ، ففي عام ١٨٩٣ عندما أسس « توماس أديسون » أول استديو سينمائي في الولايات المتحدة بولاية « نيوجرسي » كان أحد أوائل أفلامه عن العرب بعنوان « رقصة المحجبات السبعة » The Dance of the seven Veils وكانت وسيلة العرض هي آلة « الكنتوسكوب » . وفي السينما الفرنسية ظهر النمط العربي في أفلام « جورج ميليه » في عدة أفلام بدأ ظهورها عام ١٨٩٧ « المهرج المسلم » Le Musulman Rigola و « بياع جوارى الحرم » Vent Desclaves Au Harim .

وأثناء العصر الذهبي للسينما الألمانية قدم « إرنست لوبيتش » عام ١٩١٨ فيلما ضخما لحساب شركة UEA بعنوان Sumunun وفيه يجسد الصراع بين الشيخ العربي الشرير وابنه من أجل الحصول على الراقصة المشيرة « بولانجيري » بينما كانت زوجته الشيخ « زليخة » تخونه مع تاجر أوربي شاب ، وقد عرض الفيلم في الولايات المتحدة في عام ١٩٢١ تحت عنوان : One Arabiani Night ليلة عربية .

وتعاملت السينما التعبيرية الألمانية مع « النمط العربي الشرير » في عدة أفلام منها « الأضواء الثلاثة » (les trois Lumiers) لفريز لانج عام ١٩٢١ و « حجرة الوجوه الشمعية » عام ١٩٢٤ إخراج أحد رواد هذه السينما ، وهو « بول فيني » وفيه يجمع بين ثلاث شخصيات تاريخية : العربي « هارون الرشيد » ، والروسي « إيفان الرهيب » ، والانجليزي « جاك السفاح » (باقر البطون) الذين مارسوا على الأرض سلوكا إرهابيا ليسوموا الناس أنواعا من التعذيب الوحشي .

وفي العشرينات وصلت حصيلة الأفلام التي تدور حول موضوعات عربية بصورة أو بأخرى في السينما فقط ٨٧ فيلما كان بعضها ينتمي إلى نوعية الأفلام الكوميديية حيث يظهر العربي كشخصية تهرجية تشير الضحك والسخرية ، وأحيانا يبدو بروح طيبة وفي أحيان أخرى شريرا كريها ، وكان البعض الآخر ينتمي إلى نوعية أخرى أكثر شعبية وهي أفلام الميلودراما المعتمدة على المغامرات الغربية الطابع التي تدور أحداثها في الصحراء وتركز حبكتها على علاقة مشبوهة بين الشيخ العربي الشاب الذي تتوحد شخصيته مع القفار والأودية ، فتصبح حياته موحشة جافة لا يأنسها إلا الحلم بامرأة بيضاء ، ربما يعثر عليها بين الشابات الأوربيات ، أو أعضاء بعثات

التبشير. وقد حققت هذه النوعية من الأفلام شهرة عظيمة ، لنجوم من أمثال «إدجار سلوين» و«رودلف فلاتتينو» و« رومان نوفارو» . وكانت أفلامهم « العرب (١٩١٥) the Arabs والشيخ TheSheik وابن الشيخ Son Of shaik (١٩٢٦) والهمجي (The Barbarian) (١٩٣٣) وخطيبة الشيخ La Fiancee de Cheik نموذجاً لهذه النوعية التي استؤنف التعامل معها خلال الثمانينيات في أفلام مثل الفردوس Peradise ١٩٨٢ صحارى Sahara (١٩٨٤) جوهرة النيل The Jewel of The Nile ١٩٨٥ حريم Harem (١٩٨٥) بروتوكول Protocol (١٩٨٥) بولير Boler (١٩٨٥) وفي أفلام شبيهة مثل أشانتي Ashanti (١٩٧٩) . وعشتار ishtar (١٩٨٧) . ورغم الفارق الزمني في تتابع هذه النوعية فإن حبكتها والأهداف منها لم تتغير أو تتبدل على الأقل بحكم تطور الزمن حيث تؤكد هذه الأفلام أن مجتمع الصحراء لا يسمح للعربي بالتطور والنمو كفرد عادي فرغم أنه قد يصل إلى أعلى درجات السلم الاجتماعي إلا أنه في النهاية يعتبر غطا لكل الملامح السلبية التي تفرزها حياة الصحراء.

لقد تعددت الموضوعات التي تعاملت معها السينما الأمريكية والأوروبية حول الشخصية العربية ، ومع ذلك تكرر موضوع الفيلم الواحد في أكثر من مرة والهدف التجاري لم يكن هو وحده السبب وراء هذا التكرار إنما الدوافع الأيدولوجية والسياسية ومحاولة استغلال نجاح بعض الأفلام ، لترسيخ الملامح الشائعة عن العرب، ومن النماذج السينمائية التي تكرر إنتاجها نذكر الآتي : قسمت Kismet عن أجواء الجوارى والحريم . ١٩٢٠ ألمانيا ١٩٣١، ١٩٤٤، ١٩٥٥، U.S.A, لص بغداد " Theif of Bagdad أجواء ألف ليلة وليلة ، ويطش الحكام العرب ١٩٢٤ . ١٩٤٠ ، ١٩٦١، ١٩٨٧ ، ١٩٨٤ . هي أو عائشه She أجواء السحر في العالم العربي ، ٧ مرات في السينما الصامتة أهمها ١٩٢٦ ، وفي السينما الناطقة أعوام ١٩٣٤ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٨١ . الريشات الأربع (The four feathers) (البطولات الإستعمارية في مواجهة العربي البدائي) (١٩٢١ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٩ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦١ ، ١٩٨٧ .

أما الإرهاب الذي قدمته السينما خلال الثمانينات فقد أصبح طاعوناً تنتقل عدواه الأقليات العربية في الولايات المتحدة إلى الجسد الأمريكي كله، من خلال أحداث ليس لها أي أساس من الواقع . لقد أبرزت أفلام الثمانينات زعامات إرهابية عربية طرحت جانباً كل ما هو إنساني ، وتمكنت من إشعال شرارة التخريب والعنف داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد أسقط أيضاً الهدف الذي يحاربون أو يخربون من أجله ، فاللبناني الشيعي «أبولادين» المقيم في ولاية «ديترويت» في فيلم تحت الحصار (Under Siege) إنتاج تليفزيوني (١٩٩٦) يقود العمليات الإرهابية ضد المواطنين الأبرياء ، في المعسكرات والشوارع والمطاعم والمطارات والطائرات ، وتصل به الجرأة في النهاية إلى التحريض على تفجير البيت الأبيض ، وفي فيلم مطلوب حيا أو ميتا (١٩٩٧) نرى

اليمنى الشيعى " مالك الرجم " ينشر إرهابه فى لوس أنجلوس حيث يقتل ١٣٧ أمريكيا بعد أن فُجر داراً للعرض السينمائى ، وبمساعدة الطلبة العرب فى جامعة لوس أنجلوس ينجح فى تحضير مواد ناسفة لتفجير صهاريج غاز الميثيل فى أحد مصانع الكيماويات الكبرى ، بهدف قتل ٣٠ ألف شخص بعد أن يتحول الميثيل إلى إيروسول مشتعل ، وتقوم الرياح بالجزء الباقى من خطته ، ويظهر الليبى محمد فى فيلم عصر الإرهاب (١٩٧٩) وهو يقود مجموعة من الشباب الليبى ، من أجل تفجير القاعدة النووية فى ولاية انديانا . وعندما تفشل خطته ينطلق فى شوارع المدينة ، ليجعلها بواسطة الصواريخ ، ومدفع آر بى جى ، والرشاشات مقبرة جماعية ، لكل المارة من الرضع والأطفال والشباب والنساء والكهول ، ثم يلجأ إلى حرم جامعة « انديانا » ليحتجز مجموعة من الطلبة والطالبات ، ولتبدأ أحداث مذبحة جديدة . وحاولت أفلام تلفزيونية أخرى التنقل بأحداثها الدموية بين الولايات المتحدة الأمريكية ، لتجعلها جميعا فى متناول الإرهاب العربى ، مثل الطائرة الرهيبة (١٩٨٥) وسيف جديعون (١٩٨٦) ومحاكمة إرهابى (١٩٨٨) .

ولا جدال أن هناك ارهابيين عرباً ، ومن المؤكد أن الإرهاب « تيمة » تقليدية للأفلام ، ولكن مع ذلك يمكن أن نتبين على حد تعبير جاك شاهين إنه على الرغم من كل هذا الوقت الذى يخصصه التلفزيون لعشرات الأفلام عن الإرهاب العربى ، فانه لم يتم أبدا عرض أو تناول تيمة الإرهاب بصورة جديّة أو عميقة .. فلم يحاول أى فيلم تلفزيونى أن يقترب من طبيعة التعقّد الذى ارتبط بتواجد بعض الاتجاهات الإرهابية العربية ، والاكثر من هذا أن الأفكار والصور التى بينها التلفزيون أحادية الرؤية ، ولا تتغير ، فالمشاهد يرى العرب على أنهم إرهابيون ، مرتكبون لأعمال العنف فقط ولا يراهم أبدا كضحايا ، وخاصة إذا كانوا من ضحايا حالة الإرهاب الموجودة فى الضفة الغربية ، فلم نر على الشاشة أية مشاهد لأى عربى ، كسرت ذراعه ، أو فجر منزله أو أطلق عليه الرصاص ومات فى إحدى المظاهرات كذلك لم نر أية مشاهد للعرب ، بعيدا عن الصور السياسية ، فعلى سبيل المثال ، لا يرى المشاهد أى أم عربية تغنى لطفلها الرضيع . ولم ير طبيبا عربيا يعرّى مريضا أو مدرسا عربيا يعطى دروسا فى الجبر أو مبرمجا عربيا يعمل على جهاز كمبيوتر ، ولم ير المشاهد رجلا عربيا يحتضن زوجته ، ولم ير أسرة عربية تتجمع لتذهب إلى الكنيسة أو المسجد .

والغريب أنه فى خلال الثمانينات تم التعامل مع الحضارة الفرعونية من خلال أفلام معاصرة تبغى تشويه الإنسان المصرى فى ماضيه وحاضره ، منها الصحوة (١٩٨١) أبو الهول (١٩٨١) تابوت العهد المفقود « ١٩٨٦ » . ويرى "لورنس ميشالك" أن أفلام المومياة فى السينما الأمريكية ، توحى للمتفرج براحة القدم والنشانة والطين والتحلل والموت ، بينما يمثل عالم الآثار الأوروبى الغربى الذى يسيطر بطبيعة الحال على هذه المومياة الحس الديمقراطى ، والشباب ،

والقوة ، والحياة ، والعلم. ولا تريد مجاملة أو محاباة ، ولكن تقديم الصورة بصدق ، مجرد الصدق ، مهما كانت العناصر السلبية ، فمن المؤكد أن العرب يملكون في ماضيهم وحاضرهم الكثير من الإيجابية .

ويتولى المهاجرون العرب في الولايات المتحدة الرد على الإعلام الذي يشوه صورة العرب ، وبخاصة في الأفلام . ويكتبون إلى الصحف في الوطن لعلها تنبه المواطنين العرب في ديارهم إلى هذه السموم . وفي ربيع عام ١٩٩٣ ينشر الصحفي المصري صلاح منتصر (١) رسالة واضح فيها الانتزاع. يقول كاتبها محمود عبدالهادي بالفاكس من مكان إقامته في "سان فرانسيسكو" : أشارت بعض الصحف المصرية إلى أن إحدى الشركات السينمائية المصرية قد اتفقت مع شركة «الت ديزنى» الأمريكية على عرض برنامج الحسنة والوحش في مصر في الصيف القادم . وقد أصاب هذا الخبر أفراد الجاليات المصرية والعربية في معظم أنحاء الولايات المتحدة بالذهول بسبب ما تحاول هذه الجاليات طوال الشهرين الماضيين مع شركة والت ديزنى لمنع عرض فيلم انتجته يحمل اسم علاء الدين الذي يسمى إلى المسلمين والعرب بشكل لا مبرر له . فالفيلم يبدأ بأغنية تقول على لسان علاء الدين : إني آتيكم من بلاد بعيدة ، بلاد تركب الجمال التي تفرح في الشوارع ، آتيكم من بلاد يقطعون فيها أذنتك لمجرد أنهم لا يحبون وجهك ، أنها بلاد بربرية ، بلاد يقطعون فيها ذراعك إذا سرقت تفاحة تعطيها لطفل جائع ، إنها بلاد بربرية ، إنها وطني !!

وهذا الوطن الذي يشير إليه علاء الدين هو العالم العربي بأجمعه ، وبعد ذلك يصور فيلم علاء الدين - وهو فيلم كارتون مثل فيلم الحسنة والوحش - العرب على أنهم جنس متوحش ، أنوفهم طويلة مدببة ، شواربهم ضخمة وقذرة تصرفاتهم غير إنسانية بل هي الوحشية ! في أحد مشاهد الفيلم هربت الأميرة ابنة السلطان من قصر أبيها الذي حاول أن يفرض عليها الزواج بمن لا تحب . وتجد الأميرة نفسها في أحد أسواق المدينة حيث يبيعون الأطعمة من مختلف الأنواع ، والفاكهة من كل صنف . وقد الأميرة يدها وتأخذ بحسن نية تفاحة تعطيها لطفل رآته على الرصيف جائعا ، ولكن صاحب المحل يكتشف جريمة الأميرة فيقرر (هكذا قطع ذراعها لأنها سارقة ، وعقوبة السرقة في شرع المسلمين هي بتر الذراع حتى لو كانت لإطعام طفل جائع !!) .

وتتوالى أحداث الفيلم على هذا الشكل البالغ القسوة في الإساءة إلى العرب والمسلمين على غير أساس . وقد حاولت الجاليات العربية التدخل لدى الشركة المنتجة لحذف بعض مشاهد الفيلم أو حتى أغنية المقدمة ، ولكن بدون فائدة ، وإذ يخبر التعاقد مع الشركة لعرض فيلمها الأخير (الحسنة و الوحش) . يأتي كضربة فوق رموس ألوف العرب . فالتشويه هنا متعمد

(١) صلاح منتصر - من بلاد بربرية - جريدة الأهرام بتاريخ ٤ - ٣ - ١٩٩٣ .

ويتجه إلى ملايين الأطفال الذين يخاطبهم الفيلم، ويفرز فيهم هذه الصور التي لا علاقة لها بحقيقة العرب . إننا نرجو من مصر ومن العرب أن ينفوا معنا في مواجهة هذه الهجمة على كل العرب . هذه رسالة محمود عبدالهادي من سان فرانسيسكو ، وهي هجمة فعلا فلا أقل من أن ندافع فيها عن حقيقتنا . »

تلك شهادة التاريخ وشهادة شهود العصر . مشاهدين ونقاد ومفكرين تبين دور السينما في غزو العرب ثقافيا ، وفي تشويه صورتهم عالميا .

وفي المقابل كان الفيلم العربي متأثرا بالتطور الإجتماعي والاقتصادي والثقافي ، وقد أنتج العرب والمصريون على وجه الخصوص أفلاما مُشرقة . وعلى المستوى العالمي كان فيلم « الرسالة » الذي أنتجه مصطفى العقاد فيلما ممتازا . ولكن الكثرة من الأفلام المصرية كانت موضوعات مكررة ومعادة وتسعى إلى التسلية وضياع الوقت ، فإذا أضفنا إلى ذلك احتلال الفيلم الأجنبي لدور السينما في الوطن العربي كانت المحصلة هي مضاعفة تأثير الغزو الثقافي بالسينما . وإذا أضفنا إلى ذلك انتشار الفيديو ، وعرض محطات التلفزيون العربية للأفلام الأجنبية تضاعف التأثير .

الإعلان :

قصة الإعلان مع وسائل الإعلام بدأت مع الصحف . وكانت الإعلانات في الصحف قليلة متواضعة التأثير . ونحن نبتسم الآن عندما نقرأ إعلان القهوة المشهور الذي نشر عام ١٦٥٧ م في لندن بصحيفة The Public Adviser . وهذا نصه : في شارع « بارتلمو » خلف مبنى البورصة يباع شراب القهوة في الصباح وبعد الظهر ، وهو شراب صحي له مزايا عديدة ، فهو يذفيء المعدة ويساعد على الهضم ويشرح النفس ويشيع فيها السرور، ويفيد في علاج التهابات العين والسعال والروماتزم والسل والصداع والحمول وأمراض أخرى كثيرة » .

ولكن الانتاج الصناعي الكبير الذي برز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين جعل للإعلان في الصحف شأنًا كبيرا . حتى أن موارد الصحف من الاعلانات أصبحت في بعض الأحيان تفوق مواردها من التوزيع . وبدأت سيطرة الاعلانات على الصحف .

وفي القرن العشرين عند اختراع الراديو في أواخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث كان الاعلان في الراديو شديد التواضع، ولكن سرعان ما أصبح موردا رئيسيا . وأصبحت محطات إذاعية كثيرة تعتمد على الاعلانات باعتبارها المورد الرئيسي لها . وهكذا كان الشأن مع التلفزيون في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، لكن النصف الثاني من القرن العشرين شهد دورا خطيرا للإعلان باعتباره وسيلة للغزو الثقافي . لقد أصبحت الاحتكارات الرأسمالية والشركات العملاقة

المتعددة الجنسية أكبر وأخطر معلن في وسائل الإعلام . وأصبح توسيع نطاق الاستهلاك معركة رئيسية لها على النطاق العالمي .

« وفي عديد من النظريات الاقتصادية يُعرّف الاستهلاك بمصطلح الإحتياجات الاقتصادية للإنسان ، والوسائل التي يمكن بها إشباع هذه الإحتياجات .

ولكن الانتاج الرأسمالي يقلب هذا المفهوم الإنساني للإحتياجات ، فلا يمكن تعريفها بمفهوم الطبيعة الانسانية ، ولكن يمكن تحليل هذه الإحتياجات بعلاقتها بفاعلية هيكل الانتاج .

إن عملية الانتاج أى دولا الإنتاج يقوم بانتاج السلع التي يتم استهلاكها كما يقوم بتقديم النمط الاستهلاكي لهذه السلع . وعلى هذا الأساس فإن الانتاج الرأسمالي يولد استهلاكاً على النحو التالي :

١ - توفير مادة الاستهلاك .

٢ - تحديد شكل المنتجات .

٣ - خلق الرغبة لدى المستهلك للقبال على المنتجات .

والاستهلاك يفتح شهية المستهلك باقتناعه أن هذا الشيء مفيد له (١) »

ولم يقتصر دور الشركات العملاقة المتعددة الجنسية ، ودور الاحتكارات العالمية على توسيع قاعدة الاستهلاك عالمياً مهما كان الثمن ، بل امتد نشاطها الإعلاني إلى السياسة .

يذكر الدكتور إدوارد سعيد (٢) وصفاً لإعلان تجاري عرضته شركة (إديسون المتحدة - نيويورك) في صيف ١٩٨٠ في التلفزيون يعبر تعبيراً بليغاً عن كيفية استخدام الإعلان التجاري لأغراض سياسية ، فقد كان الإعلان عبارة عن عرض لقطات حية لعدد من الأشخاص المرموقين الذين يمكن التعرف عليهم على الفور من أعضاء منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) - تتداخل بينها صور ولقطات حية أيضاً لشخصيات أخرى ترتبط في ذهن المشاهد بالنفط والاسلام : الخميني ، وحافظ الأسد، وياسر عرفات . ولم يذكر الاعلان اسم أى شخصية من الذين عرضت صورهم ، غير أن الاعلان يُخبر منذراً بالشؤم أن هؤلاء الرجال يسيطرون على مصادر النفط بالنسبة لأمريكا . ولا يورد الصوت الرزين الجاد المرافق للصورة ، أى إشارة إلى ماهية هؤلاء الرجال « أو مراكزهم أو

(1) Gohn G. Taylor - From Modernization To Modes Of Production - Unwin Brothers London . ١٩٧٩ . P . ٧٤ .

(٢) د. إدوارد سعيد - تغطية الإسلام ، وكيف تتحكم وسائل الإعلام الغربية في تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم - ترجمة سميرة نعيم خوري - الطبعة الأولى - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت - ١٩٨٣ - ص ٣٥ .

الجهة التى أتوا منها ، مما يترك فى نفوس المشاهدين الأمريكيين انطباعاً بأن هذه الزمرة من الرجال الأشرار قد وضعت الأمريكيين جميعاً فى قبضة ساديين (محبى التعذيب) لاضابط لهم . ويكفى أن يظهر هؤلاء الرجال بالصورة التى ظهرُوا عليها فى الصحف و التلفزيون حتى يتولد فى نفوس المشاهدين الأمريكيين مزيج من مشاعر الغضب والخوف والنفور . ولقد أثارت شركة أديسون المتحدة هذا المزيج من العواطف بسرعة فائقة واستغلته لأسباب تجارية وداخلية وأسباب دعائية . وكان من بين الأهداف تعبئة الرأى العام الأمريكى ضد الأويك .

وفى عام ١٩٩٣ قدم كبير المحاكمات اليهود فى مدينة نيويورك الذى تجاوز عمره تسعين عاما خدمة إعلانية لشركة يهودية للتنقيب عن الذهب والأحجار الكريمة كانت على وشك الإفلاس، فانقلب حالها بسبب الإعلان الذى يمنح فيه المحاكم بركته للشركة وصاحبها . كانت الشركة قد حصلت من الحكومة الأسترالية على حق التنقيب عن الذهب والأحجار الكريمة فى إحدى المناطق الأسترالية . وخلال عدة أعوام فشلت الشركة فى العثور على أية ثروة تدفع عنها الإفلاس . إلى أن خرج صاحب الشركة بشريط «فيديو» يبدو فيه المحاكم الكبير محاطاً بمجموعة من الملتحين اليهود بملابسهم السوداء ، وهو يشير بأصبعه إلى المنطقة الأسترالية محل التنقيب ، ومع الصورة يخرج صوت صاحب الشركة قائلاً : المحاكم باركنى قال إننى خلال ستة أشهر سوف أصيب نكاحاً كبيراً أى أن هناك ثروة فى انتظارى . وتضاعف سعر السهم لهذه الشركة فى البورصة أربع مرات .

ويعلق الكاتب العربى أنور الياسين على ذلك قائلاً : بالطبع يمكن الاستنتاج بسهولة أن المحاكم عندما يتحول إلى سمسار فإن القضية برمتها تدخل فى باب النصب والإحتيال ، وتعيدنا إلى أيام صكوك الغفران فى روما الكاثوليكية . ولكن ما يدعو إلى الدهشة أنه فى عصر الاتصالات والتكنولوجيا ومراكز المعلومات فإن بركة رجل دين يهودى تكاد تلغى العقل فى أسواق المال التى لا تقوم إلا على الأرقام والحسابات والرياضيات (١) .

وحقيقة الأمر أن ما أثار دهشة الكاتب العربى ، هو الواقع المعاصر للسيطرة اليهودية على الإعلان وعلى البورصات والأسواق فى الوقت نفسه .

وقد انزلت وسائل الإعلام فى الوطن العربى إنزلاقاً واضحاً فى سلبيات الإعلان . وانعكست الأشكال الغربية للإعلان على الإعلان فى العالم العربى بدرجات مختلفة .

يرصد الكاتب الصحفى المصرى أحمد بهجت (٢) ظاهرة الاعلانات فى التلفزيون قائلاً : تشترك معظم الاعلانات فى التلفزيون فى شئ واحد .. هو الرقص .. أو الاهتزاز الدلوع الذى يدخل فى باب الرقص .

(١) أنور الياسين - المحاكم والتيس - مجلة العربى - بتاريخ يوليو ١٩٩٣ .

(٢) أحمد بهجت - هتلر والشائى - جريدة الأهرام - بتاريخ ١٠ - ١٠ - ١٩٩٢ م .

إذا كان الاعلان عن صابون جديد لغسيل الثياب ، وجدت السيدة المعلنه تتلوى دلالة وسحرا «وتتقصع» إغراء ولطفا وهي تتحدث عن الثياب المغسولة البيضاء .و إذا كان الاعلان عن مياه غازية وجدت شبابا من الجنسين وهو يرقص ويتنطط حتى إذا انتهى من الرقص وسال العرق على الوجوه كانت المكافأة زجاجة من المياه الغازية .

يمكن القول إذن أن الرقص هو أساس الإعلان ، والتثنى والدلع هما بداية الإعلان ومنتهاه ولحمة وسداه ، ومن هنا يمكن الزعم بأن الدنيا تبدو راقصة من خلال إعلانات التلفزيون وإن كانت رقصة بغير بهجة فلا السلع في مقدورنا ولا وجوه النساء في الحياة اليومية ملونة مثل الوجوه التلفزيونية الراقصة ...

أخيرا خرج علينا أحد إعلانات التلفزيون بتقليعة جديدة يبدأ الإعلان بالهر «أدولف هتلر» وهو يخطب ويزداد الهر حماسا في خطابه ، بعد ذلك نفاجا بأن «هتلر» يسك في يده «باكو» من الشاي الانجليزى الذى يقوم بالاعلان عنه .. وسخافة هذا الاعلان لا تقل عن سخافة الإعلانات الراقصة. ولكنها تزيد علي الإعلانات الراقصة أن هتلر أصبح يستخدم فى الدعاية للشاي الانجليزى . وهذا أمر فيه من فساد الذوق ما فيه ، كما أنه يغضب هتلر - لو عرف به - أشد الغضب ، وإغضاب هتلر أمر غير مأمون العواقب رغم أنه مات . هل نفهم من هذا أن الشخصيات التاريخية سوف تصبح نجوما للإعلانات في التلفزيون .فيدعو هتلر للشاي الانجليزى ويدعو ستالين للجنة الفلمنكي ويدعو فرعون مصر لشورية الدجاج. مثلا هناك إعلان فى التلفزيون فيه رسم كاركاتيرى لفرعون وهو يقوم بالرقص ، بينما هو يعلن عن سلعة ..

هل هذه هى أصول الإعلان ؟ هل يجوز الهزل مع التاريخ واستخدام الشخصيات التاريخية للإعلان عن السلع ؟ هل هناك من يفعل ذلك فى العالم! . أم أننا وحدنا أصحاب السبق فى فساد الذوق والجليطة ؟

وفي الصحف تبدو سلبيات الإعلان ، أكثر خطورة وتأثيرا .ففى الجهة المقابلة إعلان نشرته جريدة الأهرام فى ٢٤ - ٩ - ١٩٩٢ ، ونشر فى غيرها من الصحف . وهو إعلان يتناقض مع الدين ، ومع العلم ، ومع التفكير المادى فى آن واحد . ويدخل فى باب النصب والاحتيال وتخريب العقول .

وفى معظم دول العالم تنص المواثيق الاعلامية والقوانين المنظمة لنشر الإعلانات على قواعد دقيقة لهذا العمل ، وقد طلب مكتب مراقبة الإعلانات الفرنسى (عام ١٩٩٢) ، وهو هيئة فرنسية تشرف على كافة مجالات الاعلانات والحملات الإعلانية ، حظر عرض إعلانين من

« فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين الحرف والوجه » ١٠٢ سورة البقرة
 « واسترهم بهم وجاهوا بهمحر عظيماً » ١١٦ سورة الأعراف
 قرآن كريم



بقوة الله نزيل هذا السحر
 إن كنت كذلك ونساعدك على
 مواجهة أعدائك .
 لا تلقت إلى الذين لا يفهمون
 حلم حركة النجوم في أفلاكها
 بل قل كما قال تعالى :
 « وبالنجم هم يهتدون »

سنكشف لك بهذا العلم ما كنت تجهل ونساعدك على
 مواجهة ما يحاك حولك من الأعداء وأنت لا تعلمه .
 وكذلك سنعمل على حل مشاكلك العملية
 والعائلية والمالية وكل ما ترغبه ، فإن هزمت على
 مخاطبتنا فافعل ذلك الآن ولا تؤجله .

ترسل جميع الخطابات بالبريد العادي فقط أو بواسطة
 الفاكس وعلى العنوان المدون أدناه مشروطاً بما هو أد .

- ١ - أن يكون الخط واضحاً وعلى صفحة واحدة .
- ٢ - مرفق بصورة حديثة .
- ٣ - الاسم كاملاً .
- ٤ - الاسم الأم .
- ٥ - تاريخ الميلاد .
- ٦ - رقم التليفون إن وجد .
- ٧ - العنوان كاملاً .
- ٨ - نوع الوظيفة أو العمل .

وسنجهيك على سؤال واحد فقط بدون مقابل ونحن نتحمل
 أجور البريد ، أما بالنسبة لحل المشاكل أو أي موضوع آخر
 سواء كان كشف الماضي والمستقبل أو الأهمال الروحية
 الأخرى فسيتم تحديد أجور ذلك حسب الاتفاق مع العلم أن
 الذي يورث بمقابلتنا سيتحمل تكلفة ذلك متى وإن كان الهدف
 من المقابلة للتمارف .

إن هذا الإعلان موجه إلى جميع الجنسيات باستثناء دول شمال
 إفريقيا فبإمكانهم مراجعة ممثلينا هناك بهدف تسهيل الاتصال
 . أما الحصول على جميع مؤلفاتنا مرة واحدة فسيكلف ذلك
 ألف دولار وستكون جميع تلك المؤلفات موقمة ومختومة من قبلنا

للاتصال : Dr. ALAZRE HAMID
 A. rue Eugene Delacroix
 75016 PARIS
 Tel : 45047854
 Fax : 45047905
 Tel. VOIURE : 44810157

جيسد الأتري
 رئيس الاتحاد العالمي للفلكيين

الإعلانات الستة التي أعدتها
 مؤسسة « بنتون » الإيطالية
 المتخصصة في النسيج والملبوسات .
 وقالت في أسباب الرفض أن أحد
 الإعلانين يقدم اثنين من مرضى
 الأيدز وهما يحتضران أمام ذويهم .
 وأن الاعلان الثاني المرفوض يصور
 جندياً يلوح وفي يده جزء من
 اللحم ومدفع رشاش (١) .

ومع عالمية الأسواق في
 العقد الأخير من القرن العشرين ،
 ومع سطوة الشركات المتعددة
 الجنسية وسطوة الاحتكارات أصبح
 الإعلان قوة بالغة في تشويه الذوق
 في بلدان العالم العربي
 والإسلامي، وتشويه العقول ، وإثارة
 غرائز الانسان العربي ونهمه إلى
 نمط الحياة الغربية وطرق
 استهلاكها .

وكالات الأنباء :

لم يعد أمر سيطرة وكالات
 الأنباء العملاقة على الإعلام عالمياً
 من أمور البحث العلمي فحسب ،
 وإنما أصبح حديث المثقف العام في
 بلدان العالم الثالث . لقد سيطرت وكالات : « رويترز الانجليزية » ووكالة الأنباء الفرنسية ، وكالة

(١) جريدة عمان بتاريخ ٤ - ٢ - ١٩٩٢ .

تاس الروسية ، و«الأسوشيتد برس» الأمريكية ثم «اليونيتد برس» إلى حد ما علي سوق الأخبار في العالم بأسره.

و برغم إنشاء وكالات أنباء وطنية في معظم دول العالم إلا أن السيطرة باقية وتزداد يوما بعد يوم لوكالات الأنباء العملاقة التي أشرنا إليها . لقد شهد الربع الأخير من القرن العشرين إنشاء وكالات أنباء وطنية في الدول الحديثة الاستقلال ، و قد اعتبرت هذه الدول إنشاء وكالة أنباء وطنية من أهم مظاهر استقلالها مثل العُلم والنشيد الوطني ، لذلك وجدنا سعي دول العالم الثالث إلي إنشاء وكالات أنباء وطنية يأتي في قائمة المهام الأولي التي تحرص عليها هذه الدول ، و لقد ساعد ذلك الاهتمام اعتماد الحكومات علي الإعلام كسند للحكم بياشر مهامه اليومية . و لكن هذه الوكالات المحلية و إن تفاوتت قدراتها تظل محدودة التأثير .

إن معرفة دولة نامية أخبار جارتها تتم عن طريق وكالات الأنباء الدولية . والمشكلة تتعلق بالوقاية من تحريف الأخبار مثل تسمية المجاهدين بالمخربين و ما شابه ذلك . و تتعلق بأن القارئ في البلدان النامية أو المستمع أو المشاهد لا يجد أخباراً تتعلق بواقعه و إنما يجد سيلا من الأخبار التي تتعلق بالدول الغنية المتقدمة والمؤسسات الدولية الكبرى .

والخبر باعتباره السلعة الرئيسية في الساحة الإعلامية يحتاج إلي جهود الأمم المتحدة في إنشاء وكالة للأنباء تابعة "لليونسكو" لتنتشر الخبر محايدا إلي أقصى حد مستطاع . ولكن يحول دون تنفيذ ذلك النظام الدولي الحالي للإعلام والذي يجعل السيطرة للإعلام المتقدم الغني . ومن أجل ذلك ترتفع أصوات بضرورة إيجاد نظام عالمي جديد للإعلام .

و هذا الواقع الاعلامي الذي يعاني منه العالم الثالث في مجال وكالات الأنباء هو واقع العالم العربي والعالم الاسلامي . و قد يظن البعض أن بروز مشكلة عدم التوازن في النظام الإعلامي المعاصر مشكلة جديدة في حقل وكالات الأنباء . الواقع أن أجدادنا من الصحفيين العرب قد تنبهوا إلى هذا الخلل في عمل وكالات الأنباء منذ أكثر من قرن من الزمان . نقرأ علي صفحات المقطم (١) (عام ١٨٩٧) : يظهر أن هافاس (وكالة الأنباء الفرنسية حاليا) يستخف بجميع الذين يقرأون أخباره في مصر "

و نقرأ في المقطم (٢) (عام ١٩٠١) : "مللنا القول ونحن نقول لوكلاء "رويتز" و "هافاس"

(١) جريدة المقطم بتاريخ ٦ - ١٠ - ١٨٩٧ ص ٣

(٢) جريدة المقطم بتاريخ ٢٣ - ١٠ - ١٩٠١ ص ١

في هذا القطر أن أخبار الشرق هي التي لها المنزلة الأولى عند سكان بر مصر ، ثم تليها أخبار السياسة الأوروبية العمومية ، و آخرها في الأهمية أخبار الأقطار القصوي . مثل تفصيل ما يجري في العالم الجديد و الصين والهند من الحوادث التي لاعلاقة لها بنا و لا تؤثر في العالم أقل تأثير « و نقرأ في صحيفة المؤيد (١) " لاتزال شركتنا "رويتير" و " هافاس" «كما كانت منذ بضع سنوات لا تأتينا إلا بالندى اليسير و النافذة القليل من أخبار العالم وحوادث الكون . ولا يزالان علي جمودهما معائني الأخبار الخاصة بالشرق ، وما يهم مصر والمصريين، بالرغم من الترقى الذي حدث في الصحافة المصرية ، ومضاعفة صفحاتها ، والحاجة إلي زيادة المواضيع و المواد ، وبالرغم من زيادة عدد القراء". و تمضي صحيفة المؤيد قائلة : " فإذا أتانا "رويتير" بتفصيل مشيع عن خبر من الأخبار فإنما يكون عن خطبة من الخطب لأحد رجال السياسة في إنجلترا ، عن "الهارلم رول " أوعن الرسوم والضرائب في إنجلترا، أو عن طيار قطع بضع مئات من الأميال علي متن طيارته ".منذ أكثر من قرن مضى أدرك أجدادنا من الصحفيين العرب الحلل الواضح في أخبار و كالات الأنباء...و خلال قرن و بعده سنوات لم يستطع المسئولون العرب إنشاء و كالة أنباء عربية متحدة !

و ظلت و كالات الأنباء العربية تستقي الكثير من أخبارها من الوكالات العالمية بعد ترجمتها ، و حذف مالا يناسب سياساتها الإعلامية . و كأننا كان الجهد المبذول هو إلباس الخبر العقال أو العمامة أو الطريوش فحسب . ويظل ما تحت ذلك أجنبي المنبت و المصدر و البث ..!

و تتعدد و تتجدد الوسائل : إلي جانب وسائل الإعلام المختلفة المستخدمة ، في الغزو الثقافي للعالم العربي تتجدد و تتعدد الوسائل الأخرى باختلاف الظروف فنجد البحوث المشتركة ، و تأثر المبعوثين ضعاف النفوس ، و تأثر المتزوجين بالأجنبيات من مرضى القلوب ، و نجد غير ذلك من وسائل الغزو الثقافي كلما وهن وضعف وارتخي النسيج الثقافي في العالم العربي . وفي مجال العلاقات العامة نلمس طرقا للغزو الثقافي للإتسان المسلم وللإتسان العربي جديدة بالتأمل والتدبر والحذر . يروي الدكتور محمد الهواري (٢) عضوية التدريس بجامعة دمشق و أول رئيس لاتحاد الطلبة المسلمين في أوربا أنه في أوائل عام ١٩٦١ م كان يودع زميلا له في محطة القطر في مدينة " بروكسل " في بلجيكا ، فيقول " بينما نحن في انتظار موعد القطر إذا بنا نشاهد علي الرصيف المقابل قطارا احتشد فيه عدد كبير من الأطفال ، وعلي الرصيف جمع وثير من الأشخاص

(١) جريدة المؤيد بتاريخ ٢٣ - ٩ - ١٩١٣ ص٥

(٢) الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية - أبحاث ووقائع اللقاء الثالث لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي . الرياض - ١٩٧٦ م - ١٣٩٦ هـ ص ٧٥

يودعونهم بينهم عدد لا بأس به من الرهبان والراهبات . لفت نظرنا هذا المشهد العجيب . وأردنا استطلاع الأمر فذهبنا إلى الرصيف ، وتبين لنا هناك أن الاطفال هم أبناء من عائلات إسلامية تعمل في شمال فرنسا في عدد من المعامل والمناجم ضمن ظروف معيشية سيئة ووضعية ، ويعاني أبنائها نقصا كبيرا في التغذية و الرعاية والصحة . وتنهت لهذا الأمر جميعات تبشيرية تعمل في فرنسا وبلجيكا ، فأرسلت أفراد منها للاتصال بهذه العائلات و اقناعها بضرورة إرسال أولادها إلى بيوتات نصرانية تستقبلهم وتعنى بتغذيتهم و تقدم لهم الرعاية والعناية و كل وسائل التسلية والترفيه خلال فترة الصيف ، إلي ما هنالك من الأمور التي تترك أكبر الأثر في نفوسهم و كان الأمر كذلك .

لقد شاهدت بعيني هؤلاء الأطفال في أحسن حلة من اللباس وأجمل منظر من الطلعة وفي أيديهم الهدايا والحلوي ولذائذ الطعام . و اغرورقت الدموع في عيون كثير منهم أسفا علي الفراق ، فقد كانت الإقامة مؤثرة في حياتهم . وفعلت فيهم فعلتها ، ووصلت إلى غايتها المنشودة، حتى أن هذا المنظر (الإنسانى الأليم) أثر في نفوس بعض المودعين فلوحو بأيديهم وأعينهم تفيض من الدمع . ووقفت جانبا مع صديقي نبكى هذه الحالة التي وصل إليها المسلمون ، حتى أصبحوا لقمة سائغة وفريسة ضعيفة لكل من يترصص بهم الدوائر . نبكى على حال هذه الجماعة البيضاء هنا التي تتمثل بهؤلاء الأطفال المساكين الموجودين في حالة نفسية صعبة . «مستعدة لتقبل جميع ما يقدم إليها من أفكار وتأثيرات نفسية . والهدف النفسى : هنا هو التأثير على معنوياتهم . وازدراء الحياة البائسة الأليمة التي كانوا يعيشونها بين أهليهم ، وبالتالي حضهم على المقارنة اللاشعورية بين معيشتهم في البيئة الإسلامية المختلفة ، وبين ما قدمته لهم العائلات النصرانية التي أقاموا لديها ، من عطف ومحبة وعناية من كل الوجوه . والمهمة النفسية : هنا هي الوصول إلى الهدف النفسى عن طريق إثارة القلق لدى هؤلاء الأفراد ، ووضعهم في حالة نفسية يختارون بموجبها بين حياة بائسة ومستقبل ملؤه الأمل والازدهار . وأسلوب العمل النفسى يتجلى في محاولة استقطاب أفكارهم نحو حياتهم البائسة الراهنة ، وتذكيرهم بالمستقبل الأسود إذا ما استمروا فيه ، وإثارة اهتمامهم بما لا قوة من حسن الضيافة والإكرام ، وريط ذلك بالعاطفة الإنسانية النصرانية التي تنبهت لبؤسهم وقدمت لهم كل عون . أما النداء فيتجلى بالمحاورات والقصص والأحاديث العاطفية، التي تتلى عليهم خلال إقامتهم الطويلة في هذه البيوتات ، التي ترمى للتأثير على مشاعرهم وعواطفهم ، بغرض تحقيق الهدف النفسى ، وإخراجهم عن دينهم إن استطاعوا . »

وبعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما يتعرض المسلمون في البوسنة والهرسك للإبادة من الصرب

والكروات بتدبير أوربي محكم . ويصبح مئات الألوف من الأطفال المسلمين يتامى مشردين - هائمين على وجوههم في البلدان الأوربية . فتستقبلهم القلوب الصليبية بترحاب مزيف وتسرف وسائل الإعلام الصليبية في الحديث عن الحنان الواجب لرعايتهم.

وفي أواخر يوليو ١٩٩٣ تنشر وكالات الأنباء خبراً من بلجراة العاصمة التي يتم منها تدبير أمور ذبح المسلمين يقول أن السكرتير العام لمنظمة سفارة الأطفال الإنسانية ومقرها مدريد أعلن أن وفداً من هذه المنظمة سيتوجه إلى السويد لترشيح أطفال البوسنة والهرسك لجائزة نوبل الخاصة بالسلام . وكانت المنظمة قد قامت بإجلاء الأطفال من سرايفيو عاصمة البوسنة والهرسك . ويعلق الكاتب المصري أحمد بهجت (١) على ذلك قائلاً :

توقفت أمام الخبر وقرأته أكثر من مرة وفي كل مرة كان يتصاعد داخلي إحساس مختلف . في البداية أحسست بالدهشة وخيبة الأمل لقد تركت أوروبا مأساة البوسنة تتصاعد ، وتركزت المذابح تستمر ، لم تضرب على يد السفاحين من الصرب ، لم تساعد مسلمي البوسنة بالسلح أو العتاد ، كل ما فعلته هو ترك القضية في أيدي المنظمات الانسانية ، وقد نجحت إحدى المنظمات في إجلاء مائة ألف طفل وبسبب هذا النجاح الباهر .. نتيجة النية إلى منح جائزة نوبل للسلام لهؤلاء الأطفال . هذا هو عدل أوروبا .. وهذه هي إنسانيتها . لقد وقفت تتفرج على المذبحة ، ساهمت في تكتيف الضحية ، ولكنها أخرجت بعض الأطفال من أرضهم لاتقاذهم من الذبح .. ومجرد خروج بعض هؤلاء الأطفال من بلادهم يعنى نجاح سياسة التطهير العنصرى التي بدأها الصرب ثم اشترك فيها الكروات وساهمت فيها أوروبا كلها ودول العالم الغربى .

والآن .. بعد أن انتهت الجريمة ووصل الجانى لأغراضه يقولون لنا أن هؤلاء الأطفال مرشحو لجائزة نوبل للسلام أى سلام ؟! سلام التشرد .. والبعد عن الوطن . أم سلام فقد الآباء والأمهات والأهل والأقارب .. عن أى سلام تتحدث أوروبا وإلى أى سلام تشير ؟! هل تشير إلى سلام اليتامى ، أم سلام الشتات .. لقد اختلط علينا الأمر وبات من الصعب أن نفهم المقصود بالسلام .. أو العدل أو الإنسانية .»

(١) أحمد بهجت - نوبل للسلام - جريدة الأهرام - بتاريخ ٢٦ - ٧ - ١٩٩٣ .

التعليم:

- س : أين ظهرت الفلسفة أم العلوم ؟
ج : فى اليونان .. عند « أرسطو وأفلاطون » .
س : وأين آخر الابتكارات العلمية اليوم ؟
ج : فى الغرب عند أحفاد اليونان .
س : متى بدأ التاريخ السياسى وأين ؟
ج : فى العهد اليونانى بدولتى « أثينا واسبرطا » .
س : أين يوجد أرقى فكر سياسى اليوم ؟
ج : فى الغرب ، فى المدرسة الانجلوسكسونية بفروعها .
س : متى وأين بدأ قول الشعر فى التاريخ ؟
ج : فى القرن السادس قبل الميلاد ، عند هومر فى « الالياذة والأوديسة » ، ثم عند فرجيل قبيل الميلاد .

- س : أين بدأ التمثيل وَمَنْ أَلَّفَ فيه أول مرة ؟
ج : بدأ فى اليونان ، وأول من أَلَّفَ فيه إشييل (٥٢٥ - ٤٦٦) قبل الميلاد .
س : أين ظهرت النقود لأول مرة ؟
ج : اخترعها اليونان سنة ٦٨٠ قبل الميلاد .
س : وأين هى أهم مراكز النقود اليوم ؟
ج : عند روكفلر ، وتشيز منهاتن بنك ، وبنك أوف أمريكا .

هكذا يدعوننا محمد سليم قلاله (١) فى كتابه التغريب لتأمل مثل هذه الأسئلة وإجاباتها التى أوردها ثم يُعَقِّبُ قائلاً : هكذا بكل بساطة تُرْبِطُ الحلقة من اليونان إلى أمريكا ، وبساطة أكثر تُلَقِّنُ هذه الأسئلة والأجوبة كل يوم ، وغيرها كثير ، وتنقلها وسائل الاعلام وتتحدث بها ويحفظها الناس وترسم فى الذاكرة سلسلة التاريخ طرفها فى اليونان والآخر فى أمريكا ، أو فى أى بلد من بلدان الغرب . أما بقية بلدان العالم فقد كانت فى الظلمات !.

ثم يضيف : هكذا يريدون أن يُصَاغَ تفكيرنا ، وبالرغم من وضوح معالم المخطط فى محتوى كل ما يقدم لنا ، ونقدمه نحن فى جامعاتنا ، هناك من يصير على تسمية الفترة من القرن السادس

(١) محمد سليم قلاله - التغريب ، فى الفكر والسياسة والاقتصاد - الطبعة الأولى - دار الفكر دمشق - ١٩٨٨ ص ٥٥ و ٥٦

الميلادى ، إلى القرن الخامس عشر ، كما يسميها الغرب ، عصر الظلمات !! وهناك من بصر على تقسيم تاريخ الانسانية إلى : ما قبل الميلاد ، وعصور وسطى ، وحديثة ومعاصرة ! ما معنى هذا ؟ أليس معناه أننا جميعا نفكر بواسطة العقل الغربى !! إن هذا التقسيم يلقى عشرة قرون من الحضارة بكاملها ويسمى عهد الاشرار الإسلامى ، بكلمة تعبر عن نقبض الواقع تماما ، عصر الظلمات ، لماذا ؟ لأن الغرب بذاته كان يعيش فى تلك الفترة فى الظلمات ، هو يفكر إنطلاقا من واقعه ، ونحن نرده ما يقول !..

والكاتب يعمق هذا المثل بقوله إن الغرب المسيطر اليوم إقتصاديا وعسكريا سيطر قبل ذلك ومازال ثقافيا ، إن الظاهرة الإستعمارية بذاتها هى تعبير عن درجة من الإدراك للثقافة الذاتية . وللثقافة المضادة لها التى تحجب محاربتها . وكذلك الظاهرة الاستقلالية هى تعبير عن درجة عليا من الادراك الذاتى الثقافى ترجمت بحمل السلاح ، أو بالنضال السياسى من أجل التحرر . وقد أدرك الغرب هذا ومن ثم راهن على أن لا بقاء له دون بقاء سيطرته ثقافيا ، فهى التى تضمن له بقية أنواع السيطرة .

ويستطرد الكاتب قائلا بأن الغرب عقب استقلال الدول التابعة له بحث عن الوسيلة التى تضمن له أن لا تستطيع شعوب هذه الدول تطوير استقلالها الثقافى ، وكانت الجامعة هى الوسيلة . لأن البلدان النامية هذه يصعب عليها التحكم فى هذه المؤسسة العلمية العليا . ومن ثم فإنها الأداة السياسية التى يمكن بواسطتها تمرير سياساته الإستعمارية . وهكذا كان تحت غطاء العلم كانت تمرر اللغة ، والعادات ، ونمط التفكير والسلوك ، وكان الهدف الأساسى من كل هذا هو خلق الانسان التابع فى تفكيره ، قبل أن يكون تابعا فى نمط استهلاكه وسلوكه . كان أساس هذا المشروع هو ترسيخ فكرة رئيسية فى أذهان الشباب المتعطش للعلم ، إن الغرب هو كل شئ ، وبدونه لا يمكن عمل أى شئ ، هو البداية ، وهو النهاية . وما عدا ذلك فهو معتقسات وغيبيات و تقاليد وتراث ونوم عميق (١) .

إن المدرسة فى أى مجتمع من المجتمعات تقوم بوظيفتين رئيسيتين هما : نقل التراث الثقافى الاجتماعى للأمة من جيل إلى جيل ، والعمل على تكوين شخصية الطالب ليصبح مواطنا نافعا وصالحا لأمنه . ومن خلال هاتين الوظيفتين تتفرع الوظائف الفرعية العديدة وفق ظروف المجتمع ، ووفق درجة التطور والتقدم التى تقطعها المجتمعات ، واستخدام التعليم وسيلة للغزو الثقافى يتخذ أساليب رئيسية ثلاثة هى :

١ - زرع النمط التعليمى الغازى فى المجتمعات المراد غزوها ثقافيا ، والهيمنة عليها .

(١) المرجع السابق ص ٥٣ و ص ٥٤ .

٢ - هدم وإضعاف النظام التعليمي الوطنى عقب الاحتلال مباشرة ، أو الوقوف أمام تطوره وانتشاره .

٣ - استمرار النموذج التعليمي الغازى في المجتمعات التي نالت استقلالها . وخلق النموذج فى البلدان التى لم يتم احتلالها عسكريا ، وإنما تمت الهيمنة عليها سياسيا واقتصاديا ومراقبة عدم خروجه عن النمط المسموح به أو المطلوب .

ومن خلال هذه الأساليب الرئيسية تتعدد وتتفرع الأساليب الفرعية ، والأشكال المختلفة لتحقيق الغزو الثقافي بوسيلة التعليم .

١ - الأسلوب الأول :

وإذا تناولنا كل أسلوب من هذه الأساليب بالإجلاء وضرب الأمثال ، فإن الأسئلة والأجوبة التي طرحها الأستاذ قلالة وتعليقه عليها تبين لنا مضمون أسلوب زرع النمط التعليمي الغازى . ومن المهم أن ندرك أن أسلوب زرع النمط التعليمي الغازى يبدأ قبل الاحتلال ، ويستمر ويتضاعف معه ، ويبقى بعد رحيله عسكريا ، واستمرار هيمنتته بدون تواجد عسكري مباشر . وفي تاريخ التعليم المصري يبرز دور التعليم الأجنبي باعتباره طلائع للغزو العسكري . بل يسبقه بقرن .

والباحث المصري جرجس سلامة (١) الذي أרך للتعليم الأجنبي في مصر . ونال ببحته درجة الماجستير في التاريخ من جامعة القاهرة ، توصل إلي نتائج بالغة الدلالة في استخدام التعليم وسيلة للغزو الثقافي . يقول الباحث أن التعليم الأجنبي في مصر منذ بدايته في القرن الثامن عشر الميلادي حتي نهايته بعد حرب السويس ١٩٥٦ ، أو بمعنى أدق إشراف الحكومة المصرية عليه إشرافا كاملا قد بدأ لأغراض دينية بحثة ، حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها في الشرق وفي مصر بصفة خاصة ، وإخضاع الأقلية القبطية الأرثوذكسية في مصر لرياستها ، ومن جانب آخر بذلت الإرساليات الدينية البروتستانتية مجهودات كبيرة لتحويل أقباط مصر إلي "البروتستانتية" بل إن الباحث يرجع مجهودات "الكاثوليك" في هذا السبيل إلي القرن الثالث عشر الميلادي . ويقول إن الهيئات الدينية الكاثوليكية كثيرة متشعبة ذات فروع في جميع أرجاء العالم ، وهي ليست فرنسية أو إيطالية ، فحسب ، وإنما هيئات دينية عالمية تتبع معظمها "البابا" في روما . وهذه الهيئات تنتشر في جميع أنحاء العالم ، حيث تبني الكنائس ، وتلحق بها المدارس ، وتحاول أن تجذب إليها من يمكنها جذبهم لكى تزيد من أعداد تابعيها ، وتنشر الكاثوليكية ما أمكنها . من هذه الهيئات

(٢) جرجس سلامة - تاريخ التعليم الأجنبي فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين- المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة - نشر الرسائل الجامعية - القاهرة - ١٩٦٣ - ص ١٥ ، ص ٤٠ ص ٥٣ .

(الفرنسيون والمجزيون والفرير والراعى الصالح و القلب الأقدس) وغيرها ، ولقد امتد نشاط هذه الهيئات والإرساليات إلى مصر منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، حين وفد الفرنسيون إلى مصر . ويقول جرجس سلامة إن الفرنسيون حينما حضروا إلى مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى ، كان هدفهم تحويل أقباط مصر عن المذهب الارثوذكسى إلى المذهب الكاثولىكى . وقد كانت هناك سياسة عامة من البابوية تجاه هذا الهدف ، وكان يشرف على توجيه هذا العمل كلية الدعاية بروما ، وتشرف على أعمالهم هذه رئاسة أخرى بالقدس .

وقد لجأ الفرنسيون لتحقيق أغراضهم هذه بالتوغل فى الصعيد ، وقد بلغ الأمر من ناحية الاهتمام بتحويل الأقباط إلى الكاثوليكية إلى الحد الذى جعل البابا يصدر أوامره للفرنسيون بمصر بإمساك أطفال الأقباط وإرسالهم إلى روما ، لكي يتعلموا وفق الكنيسة الكاثوليكية الرومانية

وفى عام ١٧٤١ تم إنشاء كنيسة فى مصر تشمل جماعة من الأقباط يتبعون نظمهم الخاصة ، ولكنهم فى نفس الوقت يعترفون برئاسة البابا فى روما ، وكان ذلك ضمن مجهودات تبذلها البابوية لإجبار الكنيسة القبطية على الاعتراف برياستها ، ولكن البابوية وجدت أن إجبار الكنيسة القبطية على الاعتراف برياستها أمر بالغ الصعوبة ، ولذلك تحولت مجهوداتها إلى تحويل الأقباط فى مصر إلى الكاثوليكية . وبدأ الفرنسيون ينشئون الكنائس كمقدمة للقيام بحركة دينية تعليمية لتحقيق هدفهم . غير أن هذه الحركة لاقت مقاومة شديدة من الأقباط الذين قاموا بالاستيلاء على هذه الكنائس وطردوا منها الفرنسيون ، مثال ذلك ما حدث للكنيسة التى أنشأها الفرنسيون عام ١٦٩٨ فى مصر القديمة وقام الأقباط بالاستيلاء عليها (١) .

ولم يقتصر نشاط الإرساليات الدينية على الكاثوليك وحدهم وإنما كانت هناك إرساليات دينية بروتستانتية من إنجلترا وأمريكا أسهمت بنصيب فى نشاط التعليم الأجنبى ذى الطابع الدينى فى مصر . وفى وقت مبكر اهتم الأمريكيون بإرسال الإرساليات البروتستانتية إلى مصر . فقد بدأ هذا النشاط عام ١٨٥٥ بافتتاح أول مدرسة للبنين بالقاهرة ، ثم افتتح مدرسة أخرى للبنات بالقاهرة أيضا عام ١٨٦٠ ، وفى العام نفسه افتتحت مدرستان بالإسكندرية .

ثم فى عام ١٨٦٥ أنشأت الإرسالية الأمريكية مدرسة فى أسبوط وتوالى إنشاء المدارس فى المدن . ويذكر جرجس سلامة أن المدرسة كانت تتخذ بداية ومركزاً لنشر المذهب البروتستانتى .

ويدعم رأيه بما قاله مستر واطسن عن الإرسالية الأمريكية إذ يقول : وكانت المدارس هى المدخل الوحيد إلى المدينة ، وبمجرد أن يوجد هذا المدخل ، وتنشأ جالية بروتستانتية صغيرة ، كانت

(١) المرجع السابق ص ٥٤ .

المدرسة تترك للأهالي . وقد بلغ عدد مدارس الإرسالية البروتستانتية الأمريكية عام ١٨٩٦ حوالي ١٦٨ مدرسة منها ١٣٣ للبنين و٣٥ للبنات وزاد عدد طلابها من الجنسين عن ١١ ألف طالب وطالبة وقد قفز عدد البروتستانت في مصر من ٦٠٠ في عام ١٨٧٥ إلى ٤٥٥٤ في عام ١٨٩٥ ، ثم قفز إلى أكثر من ٦٦ ألفا في عام ١٩٣٧ ثم اقترب من مائة ألف عام ١٩٤٧ . وكذلك قفز عدد الكاثوليك في مصر من ٢٢ ألفا في عام ١٩٠٤ إلى أكثر من ٨٠ ألف في عام ١٩٥٧ . (١)

لقد ساعدت الظروف التاريخية المتمثلة في ضعف الدولة العثمانية ، وحملة نابليون بونابرت علي مصر عام ١٧٩٨ ، ثم الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ ، هذه الارساليات وغيرها في تحقيق أهدافها . وكان تطور المدارس الأجنبية في مصر ينبع أساسا من ظروف الجهات والهيئات التي أنشأتها وليس له علاقة بالظروف المصرية . فقد تطور التعليم الفرنسي في مصر من غلبة الجانب الديني إلى النزوع العلماني نتيجة لتطور التعليم في فرنسا . والمدارس الانجليزية التي افتتحت قبل الاحتلال كانت ذات طابع ديني ، أما المدارس الانجليزية التي افتتحت بعد الاحتلال كانت لتعليم أبناء الجالية البريطانية الكبيرة التي جاءت إلى مصر عقب الاحتلال . وكانت ذات صبغة علمانية . ومن جانب آخر زاد وفود الارساليات الأجنبية بعد الاحتلال زيادة كبيرة .

وقد بين الإحصاء التعليمي في العام الدراسي ١٩٥٥ / ١٩٥٦ أن عدد المصريين في التعليم الأجنبي بلغ ٦٦٥٠٥ تلميذاً وتلميذة بينما كان عدد الأجانب ٢٦٦١٤ ، فقط ، مما يبين انخراط أعداد كبيرة من المصريين مسلمين ومسيحيين في هذه المدارس الأجنبية . وكان التلميذ المصري في المدارس الانجليزية يدرس تفاصيل تاريخ بريطانيا وجغرافيتها واقتصادها ، ويتخرج دون أن يعرف شيئا عن بلده إلا من خلال التاريخ الانجليزي بأنها مستعمرة من المستعمرات البريطانية .

وقد ظلت محاولات الحكومة المصرية في إخضاع التعليم الأجنبي للإشراف الحكومي بين شد وجذب منذ عام ١٨٧٢ وعام ١٩١٣ حتى كانت حرب السويس عام ١٩٥٦ فرصة سانحة لإشراف الحكومة المصرية إشرافا كاملا على هذا التعليم .

٢ - الأسلوب الثاني :

وإذا تناولنا الأسلوب الثاني المتمثل في هدم وإضعاف النظام التعليمي الوطني عقب الاحتلال مباشرة ، والوقوف أمام تطوره وانتشاره ، فإننا نجد النموذج الصارخ يتمثل في تجربة المغرب العربي مع الاستعمار الفرنسي ، فقد كان الهدف هو القضاء على اللغة العربية، والنظام

(١) المرجع السابق ص ٦٧ .

التعليمي الوطني قضاءً كاملاً .

وفى مصر كانت المؤسسة التعليمية قد نبتت وأزدهرت أيام محمد على ، إلى جانب الأزهر ، الجامع والجامعة العريقة ، لقد أنشأ محمد علي مدرسة الهندسة عام ١٨٢٠ م كما أنشأ الطب والصيدلة والطب البيطرى عام ١٨٢٧ . وكانت هذه المدارس أو الكليات بمعناها المعاصر لنا تستمد طلبتها من الأزهر . وجاء عصر إسماعيل ليُدفع بالنهضة التعليمية المصرية دفعة إلى الأمام ، فقد أنشئت دار العلوم عام ١٨٧٢ وفى عام ١٨٧٣ افتتحت أول مدرسة للبنات تحت رعاية زوجة إسماعيل . فماذا حدث عندما بدأ الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ ؟

عند الاحتلال البريطانى فى مصر إلى إحلال اللغة الانجليزية محل اللغة العربية فى المدارس المصرية ، وجعلها لغة التدريس فى المرحلتين الابتدائية والثانوية عام ١٨٨٢ .

وجعل التعليم فى المرحلتين بمصروفات لا يحتمل دفعها إلا القادرون من أبناء الشعب . وقد ساعد ذلك على تكوين طبقتين متميزتين فى الثقافة والميول والاتجاهات لا تكاد إحداهما تؤمن بالأخرى ، أو تقوم بالتفاهم الجدى معها ، إلى جانب تشجيعه للمدارس الأجنبية على خلق طبقة تتسم بالارستقراطية فى ثقافتها الأجنبية ، ولا تستطيع أن تلتقى مع الشعب فى الثقافة والقيم الموروثة والتراث المشترك (١)

ولقد هبطت ميزانية التعليم فى ظل الاحتلال الانجليزي هبوطاً مضطرباً ففى عام ١٨٨٥ نجد ميزانية التعليم ٨٤٦٨٩ جنيهاً ثم نجدها فى عام ١٨٨٩ قد هبطت إلى ٨٠٣٣٨ جنيهاً ، وكان التعليم فى مصر خلال ٢٥ عاماً قضاها كرومر فى تدهور مستمر.

ولقد أورد الكتاب الغربيون شهادتهم فى إضعاف التعليم المصرى فى ظل الاحتلال البريطانى فيها هو « ناداف سافران » الكاتب الأمريكى فى كتابه مصر فى البحث عن مجتمع سياسى موحد «Egypt in search of political Community» يقول إنه لا يمكن إنكار اتهام الوطنيين للإنجليز فى مجال التعليم ، لأنه يجب أن يقال إن التعليم سار ببطء شديد تحت الحكم البريطانى ، واستمر التعليم فى هذه المرحلة بهدف لتخريج موظفين للحكومة . وليس هناك أى دليل على أن المصريين لم يكونوا فى نهم إلى التعليم ، فقد كان إقبالهم على المدارس الخاصة والمدارس الأجنبية واضحاً تماماً .

٣ - الأسلوب الثالث :

يتمثل هذا الأسلوب فى استمرار النموذج التعليمي الغازى فى المجتمعات التى نالت استقلالها . وخلق النموذج فى البلدان التى لم يتم احتلالها عسكرياً ، وإنما تم الهيمنة عليها

(١) جرجس سلامة - تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر - مرجع سابق - ص ١١٣ ، ص ١٣٢

سياسيا واقتصاديا ، ومراقبة عدم خروجه عن النمط المسموح به أو المطلوب ، والأمثلة فى هذا الصدد أكثر من الحصر . ويشير تنوعها وتعددتها أمثلة متباينة ومتفاوتة . الجامعة الأمريكية فى القاهرة والجامعة الأمريكية فى بيروت لم تفتح كلية للطب أو الصيدلة أو الزراعة فى حين أن تعليم الإعلام والصحافة بدأ فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٣٣ على الرغم من أن جامعة القاهرة لم تبدأ فى تعليم الصحافة إلا فى عام ١٩٣٩ وهى أقدم جامعة عربية تقوم بتعليم الصحافة . كانت الجامعة الأمريكية تدرك دورها فى تخريج إعلاميين يفكرون أمريكيا...!!

والجامعات التى أنشئت فى البلدان التى لم يتم استعمارها عسكريا ، وإنما وقعت تحت الهيمنة الأمريكية أو الانجليزية أو الفرنسية سياسيا واقتصاديا كانت جامعاتها صورة مصغرة وباهته للنمط الغربى إلى جانب الظروف المحلية الفقيرة فى الإبداع والحرية.

وبروى الشيخ على عبدالرحمن الأمين (١) ، السودانى وعضو مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر قصة ذات دلالة عميقة فى الغزو الثقافى عن طريق المدرسة فيقول :

« أرجو أن أقص على حضراتكم واقعة ، تدلكم على حيل المبشرين ومكرهم ، فقد أردت أثناء مرورى فى بحر الغزال : أن أزور مركز راجا ، وهو مركز تسكنه قبيلة مسلمة ضمن سكانه الوثنيين والمسيحيين ، وبالمركز كنيسة كبيرة حاولت إنشاء مدرسة فى مدينة «حورشام» عاصمة القبيلة المسلمة ، فعارض عمدة القبيلة ونشبت بينه وبين القسيس محاولة فتدخل مفتش المركز مؤيدا القسيس ، وحاول الضغط على العمدة ، لقبول مدرسة الكنيسة بين قومه المسلمين .

ولما أصر العمدة نفاه المفتش ، بموافقة الحكومة المركزية بالخرطوم ، إلى مديرية دارفور ، وعين أخاه بدله ، فأذعن الأخ لأوامر المفتش ورغبة القسيس ، ويعد أن تعهدوا له بأنهم لا يعلمون الدين المسيحى ، وكانت المدرسة يؤمها عدد كبير من أبناء المسلمين ، فلما أخبرت مدير بحر الغزال : بأننى سأزور « راجا » قال لى : إن « راجا » تبعد ٢٥ ميلا من واو ، وتبعد مسافة أكثر من ذلك ، من حدود دارفور ، فلا وسيلة لتعليم أبنائها إلا بواسطة الارشالية ، وقد أذنت للإرشالية أن تفتح مدرسة بحور شمام ، لتعليم أولاد المسلمين التاريخ والجغرافيا والرياضة والصحة واللغة الانجليزية ، وحظرت بشدة أن يدخل فى المدرسة أى درس دينى ، فإذا وصلت راجا أرجو أن تزور المدرسة ، لتقف على هذه الحقيقة ، وتزيل الشكوك من أذهان بعض المتعصبين الذين يظنون أن مجرد تبعية المدرسة إداريا للإرشالية معناها التنصير ، فوعده أن أزور المدرسة مصحوبا بالعمدة وبعض كبار الوطنيين ، وفعلا تمت الزيارة التى استغرقت يوما دراسيا كاملا ، حضرت أثناءه كل المحصص فى كل أنواع الدروس ، فذهبت كل الدهشة ، لأن جدول المحصص خال من أى مادة دينية ، ولكن

(١) الدعوة إلى الاسلام - المؤتمر السابع لمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م ص ١٤٤ ، ١٤٥

الدروس كلها باستثناء الحساب : هى فى الواقع دروس دينية مسيحية ، فالتاريخ كله يتعلق برحلات المسيح والحواريين ، وسير المسيحية من قنطرة إلى آخر ، والصحة كلها تتعلق بالشفاء ببركة المسيح ومسه للمصابين ، وشفاء المرضى بدعواته وصلواته ، والجغرافيا كلها تتعلق بدراسة الرقعة المسيحية بوجه عام ، ومنطقة فلسطين وسوريا والأردن والفاثيكان بوجه خاص ، والمحفوظات عبارة عن ترتيب الكنيسة وتمجيد المسيح ورساله ، والانجيلية عبارة عن مطالعة من الكتب المسيحية ، والقصص الدينية .

ثم خرجنا من المدرسة ، وذهبنا إلى الاستراحة ، وأفهمنا الجميع أن كل ما سمعته فى المدرسة دروس دينية مسيحية ، وأن الطالب حينما يستوعب هذه الدروس ، ويتخرج من المدرسة لا بد أن يكون مسيحياً ، أو على الأقل مستعداً لاعتناق المسيحية ، ولا أثر بالمدرسة للغة العربية ، وللإسلام ، مع أن الطلبة لفهم العربية ودينهم الإسلام ، أو هكذا يعتقدون ، لأن عريتهم ركيكة مفككة أقرب إلى الرطانة ، ولأن إسلامهم إسمى يتعصبون له ولا يعرفونه ، واتفقت معهم على إحضار رجل يحفظ القرآن من أقرب منطقة وأن ينشئوا خلوة لتحفيظ القرآن .»

ولقد أخذت القوى الاستعمارية فى الغرب تشكل مثقفين عرب يقومون بتسويق النموذج الغربى فى العالم العربى ، ويساهمون بوعى أو بلا وعى فى فصل الجماهير العربية عن ذاتها الحضارية . ويشير جان بول سارتر إلى هذا المعنى حيث يقول : لقد كنا نأخذ أبناء السراة والأشراف من الدول المستعمرة ، ونطوف بهم بضعة أيام فى أوروبا ونعلمهم لغتنا ، ونزوجهم زوجات أوروبيات ، لكى يعودوا يرددون ما نريد أن يرددوه ، وأن يقولوا ما نريدهم أن يقولوه . لقد كان جزءاً من استراتيجىة الغزو الثقافى الغربى للعالم العربى الذى يستهدف فصل الجماهير العربية عن ذاتها الحضارية القادرة على المقاومة . ولقد قام هؤلاء المثقفون الذين صنعهم الغرب بالدور المطلوب (١) .

ويقول بول موفلان ، أحد كبار اليسوعيين ، إن تعليم الناس لغتنا لا يعنى مجرد أن تألف ألسنتهم وأذانهم الصوت الفرنسى ، بل إنه يعنى فتح عقولهم وقلوبهم على الأفكار وعلى العواطف الفرنسية حتى نجعل منهم فرنسيين من زاوية ما . إن هذه السياسة تؤدى إلى فتح بلد بواسطة اللغة ، (٢) .

ويقول محمد حسنين هيكل (٣) إن العلم الحديث فى معظم بلداننا منقول ، والتجديد مظاهر

(١) د. سليمان صالح - الانتفاضة الفلسطينية ثورة الذات الحضارية (مرجع سابق) ص ٦٥ .

(٢) محمد السماك - تبعية الاعلام الحر - الطبعة الأولى - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت

- ١٩٩١ ص ١٤ نقلا عن مراسلات القناصل السياسية (وزارة الخارجية الفرنسية) المجلد رقم ٢

(٣) محمد حسنين هيكل - بين السياسة والصحافة مرجع سابق ص ٨ ، ١١

مستعارة ، لأن التغريب بالتقليد سهل والتجديد الأصيل مشقة . وهكذا فإنه حتى وسائل التنوير يمكن أن تتحول في أيدينا إلى أدوات تعتيم . ثم يصل هيكل إلى القول بأن النموذج الجاهز للنقل من الغرب قوى . والقوة لها قدرة إقناع كامنة . والقيم المطروحة مثل الحرية والمساواة لها جاذبية باهرة تفرض نفسها على الناس فلا تترك لهم فرصة كافية ليتدبروا ويدركوا أن هذه القيم لم تجىء بمجرد التمنى ، وإنما جاءت لأن تفاعلات اجتماعية وإقتصادية طويلة وعنيفة مهدت لها وفتحت الطريق أمامها . »

ويظل التعليم في البلدان العربية والإسلامية مستهدفاً بالغزو الثقافي الصهيوني والاستعماري والعلماني ، فمن كان يصدق أو حتى يخطر على باله أن التعليم الأساسي في مصر في العقد الأخير من القرن العشرين يختزل فيه التاريخ الإسلامي وتحذف من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم غزواته ضد عدوان اليهود وتآمرهم على الجماعة الإسلامية الأولى؟!

لقد نشرت الصحفية المصرية مایسة عبد الرحمن بقلمها الأمين سلسلة موضوعات صحفية في ربيع عام ١٩٩٣ حول ما أطلق عليه تطوير التعليم تبين منها أن التطوير يعني اختزال التاريخ الإسلامي في مراحل التعليم المصري الابتدائي والاعدادي والثانوي ، ويعني حذف غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ضد العدوان والتآمر اليهودي في عصر النبوة . وكتب الكاتب الإسلامي القدير فهمي هويدى مقالا عن ذلك عنوانه «فتنة في الأرض وفساد كبير» (١) ثم كتب الدكتور مصطفى محمود (٢) ملخصا وفاضحا الأمر تحت عنوان تطوير أم تزوير؟! قائلا: «في محاولة لتطوير المناهج التعليمية قامت الجهات المسؤولة بحذف واختصار جانب كبير من التاريخ الإسلامي وقلصته إلى أربعين صفحة فقط تقرر على الصف الأول الاعدادي بدلا من فصول الابتدائي ، والاعدادي والثانوي .. وحذفت من المقررات القديمة .. المعارك التي خاضها الرسول ضد اليهود في خيبر ، وبنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، ومؤتة وتبوك .. وقصص كل ما هو إسلامي في تاريخنا ، وعمقت كل ما هو فرعونى!!

وهذه العملية التطويرية باشرها ٢٩ أستاذًا، ومستشارا أمريكيا بينهم اثنان من اليهود بتمويل من المعونة الأمريكية .

والسؤال .. أين كانت وزارة التربية والتعليم ورجالها الأفاضل .. وكيف تقبل مثل تلك التوصيات من لجنة أمريكية .. وهل أصبح التاريخ الإسلامي قابلا للبيع .. والحقائق التاريخية قابلة للمساومة .. وهل يتغير التاريخ لمجرد أننا عقدنا سلاما مع إسرائيل ؟

(١) جريدة الأهرام بتاريخ ٦ - ٤ - ١٩٩٣ .

(٢) د. مصطفى محمود - تطوير أم تزوير؟! جريدة الأهرام بتاريخ ١٠ - ٤ - ١٩٩٣ .

وهل شطبت فرنسا حملة نابليون على مصر حرصا على حسن علاقاتها مع مصر ، أو شطبت اليونان ، ومقدونيا حملة الاسكندر المقدوني على بلادنا على سبيل المجاملة .. ، هل نشط من القرآن ما قاله الله في حق اليهود مجاملة لأولاد العم ؟!

ومن قال إن الصراع العربي الاسرائيلي قد انتهى ، وأن اسرائيل أخذت العرب بالأحضان .. ولو أخذتهم بالأحضان ، وأغرقتهم بالقبلات فلن يتغير شيء مما كان، وما سجلته صحائف التاريخ .. فحقائق التاريخ لا تسقط بالتقادم .

إن العقلية التي سمحت بهذا يجب أن تسأل ، إن شطب الحقائق لا يدخل تحت بند التطوير بل يدخل تحت بند التزوير ، ولن ينفعتنا أن نصبح مزورين . بل إننا سوف نسقط بهذا التزوير حتى في نظر أصدقائنا الذين نجاهلهم . ولقد حاول وزير التعليم أن يبرر اختزال التاريخ الاسلامي بعذر يؤكد الاختزال أو بأعذار تؤكد الاختزال . ولكن الأكثر سفوراً كان قوله بالحرف الواحد : « ثالثا : حذف المعارك التي خاضها الرسول ضد اليهود . واقتصر على بعض الغزوات كغزوات بدر وأحد والحنديق وفتح مكة . وذلك تخفيفا على تلاميذ الصف الثاني الاعدادي الذين يدرس لهم هذا الموضوع ، وهذا معمول به من عام ١٩٩٠/١٩٩١ » (١) هكذا بالنص .

وحاول أناس آخرون أن يكتبوا تبريرا لفعله الوزير وللجانه المختصة بذلك ولكن الأمور كانت أشد وضوحا من كتاباتهم ، حتى أن أحمد عبدالمعطي حجازي (٢) الذي دافع عن التاريخ الفرعوني واتهم الكتاب الاسلاميين بأن بعض المعلومات التي نشرها حول تطوير مناهج التعليم كانت غير صحيحة بناء على ما قرأه من رد الوزير ، ختم حجازي مقاله بالحرف الواحد قائلا :

« ويظل في بيان السيد الوزير شيء لم أستطع أن أفتنع به ، وأطالب الوزارة بأن تعيد النظر فيه ، وهو المتصل بغزوات الرسول التي اتفق فيها بيان الوزير مع ما ذكره بعض الكتاب، إذ جاء في البيان أن التلاميذ المصريين يدرسون غزوات بدر ، وأحد ، والحنديق ، وفتح مكة ، ولا يدرسون بقية الغزوات تخفيفا عليهم . فمما يلفت النظر في هذا التخفيف أنه حذف من المنهج كل المعارك التي وقعت بين النبي صلوات الله وسلامه عليه وبين اليهود . ولو ذكر بعضها وترك بعضها لكان التوازن واضحا ، وكان التخفيف غير مثير للشبهات ! صحيح أن هذا التعديل معمول به منذ ثلاث سنوات ، ولكن هذا لا يعفى الوزارة من إعادة النظر فيه . »

وعاد للرد على الوزير الدكتور مصطفى محمود (٣) قائلا :

(١) د. حسين كامل بهاء الدين (وزير التعليم) - لافتنة ولا تزوير - جريدة الأهرام بتاريخ ١٧ - ٤ - ١٩٩٣

(٢) أحمد عبدالمعطي حجازي - خدعوك فقالوا - جريدة الأهرام بتاريخ ٢١ - ٤ - ١٩٩٣ .

(٣) جريدة الأهرام بتاريخ ٢٧ - ٤ - ١٩٩٣ .

«ما كنت أحب أن أعود إلى ذلك الموضوع المؤلم موضوع التطوير الذي هو أقرب إلى التزوير في مناهجنا التعليمية .. لولا أن أولياء الأمور جاءوا إلى مكتب أولادهم . وبناتهم ، وقد خططوا ملاحظاتهم على الصفحات هنا وهناك .. وهى ملاحظات تخالف ماكتبه السيد الوزير فى مقاله ..

قال السيد الوزير أن الغزوات الاسلامية التي شطبت من المناهج كان شطبها من أجل التخفيف على الصغار من تلاميذ الصف الثانى الاعدادى فقط .. والحقيقة أنها شطبت من كتب الصغار والكبار ، وتحازرت كتب الاعدادى إلى الابتدائى والثانوى .. والسؤال الأهم : لماذا جاء الشطب فى معارك النبى عليه الصلاة والسلام ، وانتصاراته على اليهود .. فى خيبر وبنى قريظة .. وبنى النضير .. وهى جزء هام من التاريخ الاسلامى ويوصل الصراع العربى الاسرائيلى ويبين جذوره .. وهل يكون الاختصار فى الحشو أم فى الأصول .. ولماذا الشطب فى هذه النقطة بالذات ؟؟؟

وقال السيد الوزير فى مقاله : أن مركز تطوير المناهج لم يتعرض لكتب الاعدادى ، والثانوى وهو اعتراف ضمنى بأنه تعرض لمناهج الابتدائى .. ولكننا نصحح معلومات السيد الوزير ونقول له بل تعرض أيضا لمناهج الاعدادى ، الصف الأول والثانى أيضا ونقول له افتح كتب التاريخ فى هذه الصفوف ، وانظر الى الصفحة رقم ٢ وقرأ البادج أسفلها ، والمكتوب فيه .. أجاز هذا الكتاب مركز تطوير المناهج.

والسيد الوزير يعلم جيدا حكاية هذا المركز الذى يعمل فيه فريق أمريكى من الخبراء برئاسة د . جيرالد فيرس ، وعضوية د . بيتر نويمان ، ود . جوان كابرود ، ود . ديفيد بتس ، ود . ايفرت كيتش ، ود ليندا لامبرت ، ود . كارولينا .. وأنه قام بمراجعة سبعين كتابا فى مختلف المواد الدراسية .. وأن مديرة المركز السيدة كوثر كوجك - التى خرجت على المعاش لتتولى إدارة هذا المركز - قد انفتحت من المنحة الأمريكية ثلاثين مليوناً من الدولارات ، وأعطت لنفسها خمسة آلاف جنية مرتبا شهريا من هذه المنحة بالإضافة إلى معاشها .. وأن الجهاز المركزى للمحاسبات يحقق فى هذه المخالفات المالية . هناك إذن فريق من المنتفعين وراء هذا المركز وما يقوم به من تطوير وتزوير وهناك تقرير مفصل أمام السيد الوزير بهذا الدور المشبوه وبهذه المخالفات . ولم نكتب ماكتبناه من فراغ .. وإذا أراد السيد الوزير مزيدا من التفاصيل يمكننا أن نفتح باقى الدوسيه .

وللحق نقول أن ما حدث من أمر هذا المركز لم يحدث فى عهد السيد الوزير بل بدأ فى عهد الوزير الذى سبقه .. ولكن السيد الوزير أراد أن «يكفى على الخبر ماجور»، فقال فى مجلس الشورى فى جلسة الأحد ١١ / ٤ / ١٩٩٣ إن دور الأمريكان اقتصر على تحديد المقاس الأنسب للصور ، وعدد الأسطر وبنط الحرف .. بقى ده معقول ياسيادة الوزير؟ بنط ايه ، وحروف ايه ..

وهل يدفع الأمريكان ٥٧ مليون دولار من أجل تغيير مقاس الصور وبنط الحروف، ويحشدون كل هذه الأموال، والدكتوراهات والخبرات من أجل هذا الهدف العبيط .. بل كان الموضوع أكبر من ذلك بكثير .. وكان المطلوب تغيير عقل أولادنا، ومحو ذكرايتهم، ومحو فترات بعينها من تاريخهم، ودفع الملايين من الرشاوى فى مقابل ذلك .. والحكاية واضحة، وهناك تقرير مكتوب بهذا الموضوع بين أيدي المسؤولين.

ولانشك ياسيادة الوزير فى غيرتك ولا فى وطنيتك .. وأنتك سوف تبادر بغلق هذا المركز المريب .. فلا أحد فى مصر ولا أنا ولا أنت يريد أن يعود ببلادنا إلى عصر دنلوب، وعصر الوصاية الأجنبية على ما يقرؤه أولادنا، وما لا يقرءونه.

وقد فعلوها فى أبو ظبي، والامارات فقاموا بشطب كل الآيات القرآنية، وكل الأحاديث النبوية من كثير من كتب الأطفال والأولاد وبذلك تم تقشير هذه العقول الغضة من دينها، ومن عرويتها وأصبحت الآن تتعلم ما يريد الأوصياء الأجانب الجدد أن يتعلموه.

وهم يحاولون منذ سنتين أن يفعلوا فى مصر نفس الشيء .. لكن مهمتهم ستكون أصعب بفضل يقظة أمثالكم.

ولماذا نحرص على غسل الأيدي الأمريكية من أى شبهة بينما الواقع يقول إنها شريكة فى كل صنوف التآمر على المنطقة .. ومن أين تلقى الارهابيون أوامرهم بضرب السياحة؟ ألم يعترفوا بأفواههم أنها أوامر الشيخ عمر عبد الرحمن؟! وأى بلد يأوى الشيخ عمر عبد الرحمن ويقوم بتلميذه فى أجهزته الاعلامية؟ أليست هى أمريكا التى أخذته فى أحضانها وأعطته البطاقة الخضراء ووضعت على شاشات تليفزيوناتها خمس مرات كل يوم ليقول أن النظام فى مصر كافر، وأن رئيسها كافر، وأن السياحة كفر، وضلال، ويستحق العاملون عليها القتل؟

وأنت ترى تلك الاذاعات وتسمعها على شاشات ال CNN كل يوم وأنت تعلم - ولا شك- بالتحقيق الذى يجرى فى تكتم شديد حول اللقاءات السرية التى تمت بين بعض قيادات الارهاب. وبعض أفراد السفارة الأمريكية .. وأنت تعلم أن أمريكا هى التى زرعت الخنجر الاسرائيلى وسط المنطقة العربية، وهى التى سلحتها، وساندتها بالمليارات، وأيدتها بالصوت العالى فى الأمم المتحدة، ودافعت عن جرائمها بالفتوى، وصنعت لها ترسانتها الرهيبة من القنابل النووية، والميكروبية والكيمياوية ثم اتخذتها مخزنا لفوائض أسلحتها.. وحرمت على أى دولة عربية أى معلومة أو حتى شبهة تفكير فى سلاح نووى ..

وهذه هى أمريكا ياسيادة الوزير .. فكيف يخطر ببالك أنها تحشد ٢٩ من خبرائها وعلمائها،

ودكتوراهاتها، وملايينها فى مركز تطوير المناهج من أجل تغيير مقاس الصور وبنط الحروف؟! لا ياسيادة الوزير .. ليس إلى هذه الدرجة يكون حسن النوايا .. وفى موقع حساس وخطير

مثل الموقع الذى تحتله كوزير للتعليم فى بلدنا ، من حقنا عليك أن تعيد النظر فى جميع أحكامك الخاصة بهذه القضية . مع تحياتى »

هذا ما حدث فى التعليم فى مصر فى العقد الأخير من القرن العشرين فى ظل وزيرين من كبار أساتذة جامعة القاهرة هما الدكتور فتحى سرور ثم الدكتور حسين كامل بهاء الدين . وهما من أبناء ثورة ٢٣ يوليو فكرا واشتغالا بالسياسة ، ولكن طاغوت الاستعمار الأمريكى والغزو الثقافى الصهيونى حلقة فى سلسلة الصراع بين الإسلام وبين أعدائه ، والمناخ الذى يعيشه المجتمع فى الاعتماد على القوى الاستعمارية السائدة فى العالم يختلف عن المناخ الذى يعتمد فيه المجتمع على تنمية ذاتية وقوة ذاتية . ومن هنا يختلف دور الخبير الأجنبى من عصر إلى عصر . ويختلف تأثير البعثات والمبعوثين إلى العالم المتقدم من عصر ناهض متوثب إلى عصر مقلد يستجدى التطوير والمساعدة .

تقول الدكتورة بنت الشاطىء (١) : « طلاب البعثات العلمية الأولى على عهد محمد على فى النصف الأول من القرن الماضى كانوا جميعا ممن تخرجوا فى الأزهر الشريف وعادوا من أوروبا جنودا فى كتائب اليقظة لا مبشرين بالانصلاح الفكرى من قوميتنا والسولاء للفرنجية ومنهم كان النظار والأساتذة بالمدارس العليا للألسن والطب والصيدلة والهندسة والعلوم العسكرية و البحرية والزراعة والمساحة وسائر المدارس التى عمرت بها ديار مصر فى الوجه البحرى والصعيد ، وفى عهده أنشئت مطبعة بولاق وطبعت بها مترجمات العلوم . وفى السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٢٥٠ هـ ٣٠ / ٨ / ١٨٣٤ م صدر أمر عال بتشكيل المجلس العالى للتعليم برئاسة عبدى بك شكرى أحد رجال البعث وعضوية اثنين من العلماء يرشحهما شيخ الجامع الأزهر واثنين من أعضاء مجلس التجارة يرشحهما النقيب واثنين من ذوى الخبرة يختارهما رئيس الديوان واثنين مندوبين عن كل مديرية من مديريات مصر ينتخبهما الأهالى .. وانتصف القرن الماضى وليس فى مصر غير مدارسها القومية ومدرسة واحدة لأبناء الطائفة الأرمنية تابعة للبطريركية الأرثوذكسية وأربع مدارس لتعليم ذرارى الجاليات الأوربية بالقاهرة والاسكندرية .

فلنتابع ما طرأ على الموقع التعليمى فى النصف الثانى من القرن الماضى ابتداء من سنة ١٨٥٤ م أيام سعيد باشا ، وصل المرسلون الأمريكيون لأول مرة وفتحوا مدرستهم بالأزكية وسط العاصمة . وعلى أثرهم أسست ارسالية الفرير مدرستين : سانت فام للبنات وسان جوزيف للبنين . وابتداء من سنة ١٨٥٦ م فتحت الارسالية الأمريكية المدارس الانجيلية فى الدلتا

(١) د. بنت الشاطىء - الفكر الاسلامى والتحضير للعالم الجديد - جيل الشتات الفكرى - جريدة الأهرام بتاريخ ٤ - ٢ - ١٩٩٣ .

والصعيد ، والارسالية الايطالية ومدارس الراهبات الفرنسيكان ، ثم أنشئت مدارس ملية على غرار مدارس الارساليات منها (مدرسة تلمود) للطائفة الاسرائلية بحارة اليهود بالعاصمة سنة ١٨٦١ م. وفى عهد الحديوى اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) كان الانفتاح الواسع على أوروبا والامتيازات الأجنبية والاحتلال الاقتصادى لمصر بصندوق الدين، وفى عهده أنشئت اثنتا عشرة مدرسة أهليه مقابل ثلاث وأربعين مدرسة أجنبية للبنين والبنات غير مقصورة على تعليم ذرارى المجاليات الأجنبية بل مفتوحة لأبناء المسلمين .

كتب شاهد المرحلة أمين سامى باشا فى تأريخه للتعليم بمصر فى عصر اسماعيل : (ولم تنتشر المدارس الأجنبية إلا من عهده، وأول مدرسة فتحت بالأقاليم مدرسة الارسالية الأمريكية بأسبوط ، قبل أن تمد إليها السكك الحديدية بسنتين ، ثم انتشرت فى أنحاء القطر وفتح فى وجه خريجها مكاتب البوستة وفروع المصالح والمحال التجارية ووظائف المترجمين فى القنصليات والمحاكم المختلطة والبنوك وغير ذلك . وزين للموسرين من المتعلمين فيها حب الميل إلى التماس حماية الدول الأجنبية فرغبوا فى ذلك ولم يخضعوا للقوانين المصرية. وفى عهد ابنه الحديوى توفيق (١٨٧٩ - ١٨٩٢) كانت الثورة العربية واقتحام عسكر الانجليز مصر لاجمادها بعد أن وطأ الغزو الفكرى للاحتلال الانجليزى لمصر مع تبعيتها الإسمية لدولة الخلافة العثمانية .

فى السنة الثانية من ولاية توفيق ، صدر أمره العالى فى ٢٨ / ٣ / ١٨٨١ م بتشكيل المجلس العالى بنظارة المعارف (برئاسة ناظر المعارف واشترك فيه السادة الأجانب الأعضاء باسمائهم :

مدير صندوق الدين و السكرتير العام للمراقبة ورئيس عموم أركان الحرب وناظر المدرسة الطبية وناظر مدرسة المعلمين ومدير أملاك الميرى وناظر مدرسة الحقوق وناظر مدرسة الفنون والصنابع وناظر المدرسة العلية وناظر الكتبخانة الحديوية والمدرس الأول للفرنسية بمدرسة الألسن.

وفتحت فى عهد توفيق تسع وثمانون مدرسة للارساليات التبشيرية والبعثات العلمانية مقابل إحدى وثلاثين مدرسة أهلية ، وسجل الاحصاء لسنة ١٨٨٤ م أن نسبة التلاميذ المصريين فى المدارس الأجنبية ٥٢ فى المائة . ثم أدخل على برامج المدارس الوطنية التعديل التالى :

فى التعليم الابتدائى : صدر المنشور بتاريخ ١١ / ١١ / ١٨٨٨ من نظارة المعارف إلى جميع المدارس الابتدائية يقضى بحذف حصص القرآن الكريم المقررة على السنتين الثالثة والرابعة وأن تكون دراسة الأشياء فيهما باللغة الأجنبية وأن تدرس الجغرافية فى حصتين بالسنتين الثالثة والرابعة حصّة باللغة العربية وحصّة بلغة أجنبية .

(المدارس الثانوية) جاء فى المنشور بشأنها ما نصه :

«إن تعليم اللغات الأجنبية لها في هذا العصر من الأهمية مالا يخفى بمصر خاصة ، لم يأت إلى الآن بالنتائج المطلوبة ، وليس لتقصير من المعلمين فانهم في الواقع أهل لما عهد إليهم من الوظائف ، غير أن الوقت المخصص لتعليم هذه اللغات غير كاف حتى تكسب التلامذة ملكة استعمالها ويسهل عليهم التكلم بها . وهو أمر لا يمكن الحصول عليه إلا بعد تمرين طويل مستمر. فلتألفي هذا الأمر بقدر الإمكان تقرر أن العلوم الجارية تدريسها الآن باللغة العربية تعلم من الآن فصاعد بمدارس اللغة الأجنبية الفرنسية أو الإنجليزية فإذا درس التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية بلغات أجنبية وضم هذا إلى تعليم اللغة المقصودة بالذات سهل نيل المقصود ، هذا ويناط تعليم اللغات الأجنبية بمدرس فرنسي وإنجليزى ذى أهلية نظرا لكونها لغتهم الأصلية».

هكذا هيمن النفوذ الأجنبي علي أجهزة التعليم الرسمية والمؤسسات الثقافية الكبرى وفتحت ثغور وطننا للإرساليات التبشيرية والبعثات العلمانية من كل جنس وملة ، تتلقي أفواجا من أبناء الأمة في مرحلة التنشئة والتوجيه لتخرجهم غرباء في وطنهم لسانا وفكرا ووجدانا ومزاجا ، قد برئوا تماما من عقدة مقت الفرغية وأبدلوا بها عقدة الشعور بالنقص من قوميتهم ، وعز علي هؤلاء الغرباء أن يلتقوا فيما بينهم إذ توزعتهم مدارس اللبسيه واليسوعيين والإنجليكية والأمريكية والفرير وسان جورج والتلمود وفيكتوريا ، ومدارس البنات الإنجليكية الأمريكية والقلب المقدس وأم الاله والراهبات الفرنسيسكان وسيدة الرسل . فضلا عن أن يلتقوا بإخوة لهم وأقارب وجيران تلاميذ المدرسة الإسلامية ومعاهدها الدينية المحصنين بمناعة ضد بضاعة الفرغية ، وأزيحت المدرسة الإسلامية عن موضعها الأول في التربية والتثقيف والتوجيه . وبدأ العمد إلي ترسيخ الطبقية الثقافية ليقود الحياة الفكرية والإجتماعية والوجدانية للأمة ، أخلاط المتخرجين في مدارس الفرغية ودونهم طبقة المتخرجين في المدارس المصرية التي عدلت مناهجها في عهد الحديوي توفيق ، ومن دونهم طبقة أبناء المدرسة الإسلامية أشبه بمنبوذين علي هامش الحياة الحديثة . ويقدر ماحطت الرجعية بكل ثقلها علي الجامعة الإسلامية ، حط الإستعمار بأشد وطأته علي جامعتنا الحديثة، فكانت للأجانب علي عهدي بها أكثر كراسي الأستاذية في كلية الحقوق التي يتخرج فيها رجال السياسة والقضاء والتشريع وكلية الآداب التي تدرس شخصية الأمة في لغتها وأدائها وتاريخها وفلسفتها وتراثها وأثارها وما تلقت وتتلقى من روافد فكرية وثقافية شرقية وغربية قديمة وحديثة . وظهرت هذا الغزو لحصوننا الفكرية مؤسسات ثقافية أجنبية - كمؤسسة فرنكلين - بأجهزة إعلامها المدربة وعصريتها الخلاية وخزائن مالها الغنية السخية .

وطرأت علينا المذاهب الحديثة فازدادت أزمة الغربية بين جيلنا ، حدة وتعقيدا . وبهذا الجيل من المثقفين الغرباء كان التحضير لمرحلة ما بين التقسيم والكارثة فما بعدها ، وفيها انسحب الأجانب من المواقع المكشوفة للغزو الفكري وتركوا الميدان لتلاميذ من مريدتهم حملوا ويحملون إلي

فكرنا المعاصر بضاعة الإسرائيلية ومفرازاتها ، تعاطاها الناس في غيبة الوعي التاريخي وغفلة عن الذرائع الماكرة والأقنعة والأزياء المتغيرة .

وجدت علي وجودنا المعاصر عوامل التغيير فأشرفت وزارة المعارف علي المدارس الأجنبية ، فاستبدل بعضها باسماء فيكتوريا وكلية البنات الأمريكية ، أسماء مدارس النصر وكلية رمسيس وبقيت مبانيها الفخمة ومناخها وسمتها ورموزها تغض من مدارسنا المتواضعة، كما بقيت معاهد الجزويت والليسيه وأم الإله تخرج طبقة متميزة مؤهلة للمناصب القيادية السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، وتتابع التحضير لتحديات العالم الجديد بجيل أفدح شتاتنا وتقزقا ، يرسخ طبقة عصرية علي المستوى الوطني والإقليمي والدولي والعالمي . «

منظمات وحركات التحريف والتشويه وقتل روح الإسلام:

تناول كتب تاريخ عصر الخلفاء الراشدين ، وهو العصر الذي يلبي عصر النبوة ، حكاية عبد الله بن سبأ وحكاية جماعته الفكرية المسماة بالسبائية نسبة إليه . وتقول الروايات التي ذكرها الطبري أن عبد الله بن سبأ كان يهوديا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، لذلك يسمي أحيانا بإبن السوداء . وأنه أعلن إسلامه زمن سيدنا عثمان . ثم تنقل في بلاد المسلمين يحاول ضلالتهم ، ثم استقر في مصر يقول للمسلمين (وأعتقد أن جمهورهم كان من جند الفتح ، فمن غير المعقول أن يكون بعض المصريين الذين أسلموا فور حدوث الفتح يمثلون رأيا عاما فيما يقول عبد الله بن سبأ) أن علياً رضي محمد ، وأنه أولي بالخلافة ، ويقول لهم انهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدعوا بالظعن علي أمرانكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعوا إلي هذا الأمر . وتقضي الروايات المتعددة في شأن عبد الله بن سبأ بأنه كان يريد إفساد دين المسلمين ، وأنه أول من أظهر الظعن علي أبي بكر وعمر وعثمان ، وأنه وألي سيدنا علي . وأن سيدنا علي أراد قتله لما وجد في قوله من غلو ، ولكن أصحاب سيدنا علي اعترضوا فنفاه إلي المدائن . وكان عبد الله ابن سبأ يقول أن عليا رضي الرسول صلي الله عليه وسلم ، كما أن " يوشع بن نون " رضي موسي . وظهرت فرقة السبائية كأول منظمة للغزو الفكري والثقافي ضد الإسلام . ومن الغريب أن بعض المستشرقين يجتهد في إنكار وجود شخصية عبد الله بن سبأ ، تماما كما تُصنّر الأمم المتحدة في أواخر هذا القرن العشرين قرارا بالغاء قرار سابق يُنعتُ الصهيونية بالعنصرية . !! رغم أن الكيان الصهيوني واليهودي المعاصر يقوم علي أساس عنصري شديد التعنت والتعصب .

ومن الباحثين من يربط الإسرائيلية التي بدأت منذ إنطلاقة الإسلام وعصره الأول بنوادي " الروتاري " والليونز" القائمة في أواخر القرن العشرين ، بديلا عن الماسونية التي تُعد أبرز المنظمات

(١) محمد الشاذلي - الماسونية ، عقدة المولد وعار النهاية - الطبعة الثانية - مكتبة وهبه - القاهرة - ١٩٩٠ ص ٢٩، ص ٣٠

ويوثق الشاذلي في كتابه عن الماسونية توثيقاً تحليلياً مقولات إخوان الصفا ، الفرقة السياسية الفلسفية المعروفة في التاريخ الإسلامي بالشبيبة والريية ، وبين الرابطة بينها وبين أقوال أحد أقطاب الماسونية ، هو الإنجليزي "أرثر إدوارد" في القرن العشرين الميلادي ، على النحو التالي :-

عبارات آرثر إدوارد	عبارات إخوان الصفا
<ul style="list-style-type: none"> - تشتتوا في أماكن عديدة حيث طردتهم مؤامرة الأحداث المشتومة . - أولئك الآتون من المنفى مُنْتَلًاً في مصر وبابل . - وجوههم متجهة إلى المدينة الروحية «أورشليم» التي فوق . 	<ul style="list-style-type: none"> - تتقلب بنا تصاريف الزمان ونوابغ الحدثان . - حتى جاء وقت الميعاد بعد تفرق في البلاد في مملكة صاحب الناموس الأكبر . - وشاهدنا مدينتنا الروحانية المرتفعة في الهواء .

ويعلق الشاذلي على ذلك بقوله : نفس الألفاظ ، وفي لغتين مختلفتين : العربية والإنجليزية . وبين النصين عشرة قرون !!

هذه الحركات والمنظمات والظواهر لا تتوقف ولا تهدأ منذ ظهور الإسلام ، حتي يومنا المعاصر ، وحتى غدنا القادم . وهذه النماذج التي نقدمها ترتبط بالسابق واللاحق في هدف محوري مستمر هو محاولة قتل الروح الإسلامية . وهذه النماذج تدور مثل الدوامات في بحر الغزو الثقافي الموجه إلي المجتمع العربي المعاصر ، تختفي وتظهر وتبرز في مكان أو تكثر فيه كما تتشكل في زمان مختلف عما تشكلت فيه . ولكنها تحمل من السمات والخصائص ما يجمع بينها ويربطها برباط ما . وتتناول أظهرها وأهمها بغير إفراط وبغير تقتير في آن واحد .

العلمانية أو الدنيوية :

تشيع في حياتنا الفكرية وحياتنا السياسية نحن العرب ونحن المسلمين مقولة تزعم أن مجتمعاتنا العربية والإسلامية ليست لديها صلة بموضوع العلمانية بحجة أن العلمانية ظهرت في مجتمعات أوروبية كرد فعل لسيطرة الكنيسة ، وهيمنتها ، وفي ظروف نهضة ما كانت لتتحقق لو ظلت الهيمنة الكنسية على حياة الناس . ونتيجة لذلك ظهرت العلمانية لِقْصُر النشاط الديني داخل

مجتمعاتنا العربية والإسلامية ليست لديها صلة بموضوع العلمانية بحجة أن العلمانية ظهرت في مجتمعات أوربية كرد فعل لسيطرة الكنيسة ، وهيمنتها ، وفي ظروف نهضة ما كانت لتتحقق لو ظلت الهيمنة الكنسية على حياة الناس . ونتيجة لذلك ظهرت العلمانية لقصر النشاط الديني داخل الكنيسة ، وممارسة أنشطة الحياة والتطور والتقدم على أسس دنيوية متحررة تماما من اللاهوت وأن يبقى التدين للأفراد ، بعيدا عن القوانين والنظم والمؤسسات التي تشكل هيكل الدول ، والتي تشكل قواعد الحياة .

هذه المقولة الشائعة في حياتنا عربياً ومسلمين بنقُ الصلة بموضوع العلمانية . والمقولة بأنه موضوع مُقحمٌ على حياتنا الفكرية وحياتنا السياسية ، ليست صحيحة .. وواقع التاريخ يؤكد غزونا بالعلمانية كرهاً ، ويؤكد أن توجيه النظر إلى ظروف نشأة العلمانية تاريخياً في أوربا ، وبالتأكيد على أوجه الاختلاف بين هيمنة الكنيسة ، وفلسفة الهيمنة الكنسية ، وبين عدم وجود هذه الهيمنة من المسجد ، وأنه لاهنوت في الإسلام ومن ثم ليست لدى العرب في عالمهم المعاصر مشكلة علمانية ، هذا الطرح ، وهذا التوجيه للنظر بعيداً عن طبخة العلمانية أسلوب من أساليب الغزو الثقافي يصرّف النظر عن الخطر حتى يتم تحقيق الهدف ، دون مقاومة ، بل دون إدراك . !!

وليس أمامي من خيار إلا أن أبدأ بمناقشة مصطلح ومفهوم العلمانية قبل النظر فيما وقع للبلدان الإسلامية والعربية من جرائها ، وفيما وقع للفرد العربي والمسلم من فتنها .

أول من صك مصطلح العلمانية secularism الكاتب الانجليزى هوليوك Holyoake في صحيفة The Reasoner عام ١٨٤٦ (١) .

وفي لغتنا العربية المعاصرة نجد روايتين لتحديد أول استعمال لها ، الرواية الأولى تقول أن أول من أدخل هذه الكلمة - وكتبها هكذا - عالماني وعالمانية - نسبة إلى العالم - كقابل لله والدين والمقدس - هو أحد المترجمين عن الفرنسية ، ويدعى الياس بقطر المصري . والذي عمل مترجماً للحملة الفرنسية على مصر عام (١٧٩٨ - ١٨٠١) والذي رحل إلى فرنسا حيث عمل مدرسا للعربية العامية بمدرسة اللغات الحية بباريس . وكان الياس بقطر هو أول من ترجم هذا المصطلح عن الفرنسية عند ترجمة المعجم الفرنسى إلى العربية سنة ١٨٢٨ (٢) .

(1) G.M. young - portrait of an age victorian england - second edition - oxford university press london 1953 p. 36 . The term secularism was invented by Holyoake and first appears in his paper The Reasoner 1846 The Badge secularism was the defence of sabbatarian restriction

(٢) الدكتور محمد عمارة - الاسلاميون والعلمانيون - جريدة القدس العربى العدد ٢٧٩ بتاريخ ٢٣ - ٣ -

ولكن الشيخ عبدالله العلايلي أستاذ علم اللغة اللبثاني يقول : « العلمانية وضعت بادئ ذي بدء في أواسط القرن التاسع عشر في مقابل كلمة secularism الإنجليزية و laïcisme الفرنسية. وكان أسبق الواضعين (لعله يقصد المترجمين) لها اللغوي التركي شمسى. واقتبسها عنه المعلم بطرس البستاني في معجمه محيط المحيط. كما تبناها الدكتور خليل سعادة في معجمه الكبير الإنجليزي - العربى ، وشاعت شيوعها الكبير بين الناس بكسر العين وهو خطأ فاحش ، إذ لا علاقة للأصل اللاتينى بالعلم من قريب أو من بعيد ، وإنما صحتها بفتح العين وتسكين اللام ، بمعنى العالم الدنيوى ، ذلك بزيادة الألف والنون. ويتأصيل هذه الكلمة صرّفوها تصريف المزيّدمن الأفعال، أو الملحق بالمزيد فقالوا علّمَ السلطة أى جعلها بأيدي العامة ، وهذا متفق مع الأصل اللاتينى لأن ال laïcisme تعني الإشاحة عن الإنتساب إلى فئة الكهنوت ، فهي مفرّغة من أى محتوى إيجابى ، وأعنى خلواً من أى مفهوم معتقدى ، ولذا درج الباحثون الإجتماعيون على مصطلحي العلمانية المؤمنة والعلمانية الملحدة ، وساعدهم على هذا أنها بنفسها وضعا واستعمالاً لا تشتمل على محتوى معين (١) .

وقد وجد بعض الكتاب المسلمين أن كلمة الدنيوية أكثر صواباً لمفهوم كلمة secularism الإنجليزية ، كما وجدوا أن مصطلح الدنيوية يبعد أى لبس لكسر العين في كلمة العلمانية فتصبح منسوبة إلى العلم وذلك مجاف لحقيقة كلمة Secularism وذكر الكاتب الإسلامى المصرى فهمى هويدى (٢) أن الكتاب في باكستان هم الذين ترجموا الكلمة الإنجليزية secularism بالكلمة العربية "دنيوية" ، وهم الذين أدخلوا الكلمة العربية في لغتهم الأردية ، واعتبرت الدنيوية من الكلمات العربية المستقرة في اللغة الأردية . وقد زكى فهمى هويدى تعبير الدنيوية واعتبره الأكثر صواباً ، لأنه يحدد بدقة إطار الدعوة المطروحة ، التي تقوم أساساً على فصل الدين عن الدنيا . كما أنه يزيل لبساً يقع فيه كثيرون ، حينما يتوهمون أن العلمانية مشتقة من العلم ، بينما هي تخرّيج من العالم - بفتح اللام - الذي هو بخلاف الدينى أو الكهنوتى . وذكر فهمى هويدى أن الكلمة الفرنسية laïque تُعبر عن معنى العلمانية . وهذا خطأ اقتضه الكاتب المصرى أحمد بهاء الدين (٣) اقتناصاً يزيد الأمر وضوحاً فقال :

" لقد بدأ الزميل فهمى هويدى حديثه قائلاً : فلنبداً بالتصحيح! . وبالتالي فليسمح لنا أن نبدأ

(١) أحمد حاطوم - العلمانية - مجلة الناقد - فبراير ١٩٩٠ نقلاً عن مجلة آفاق (البيروتية) يونية ١٩٨٧ م.

(٢) فهمى هويدى - العنف ليس إسلامياً - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٦/٥/١٩٨٧ .

(٣) أحمد بهاء الدين - يوميات - جريدة الأهرام بتاريخ ١٢/٦/١٩٨٧ .

الحرفي "الزمنية" وقد ترجمها اللبنانيون إلى «العلمانية» نسبة إلى «العلمانية» لا إلى العلم ، ونقلت محرفة في مصر إلى علمانية ومعناها الاصطلاحي السياسي هو فصل الدين عن الدولة. أما كلمة laïque الفرنسية ، أصلها الروماني «لا يكوس» أي الذي ينتمي إلى الشعب وليس إلى الكهنة . وقد استخدمت وما تزال أساسا في مجال التعليم ، بعد الثورة الفرنسية ، فوجد تعليم مدني لأول مرة ، إلى جانب مدارس كنائسية ، كالجوزيت والفرير ، وقاموس «لاروس» موجود في مكتبات القاهرة . والكلمتان متقاربتان في فصل الدين عن الدولة ليس بمعنى اللادينية الموجودة في الاتحاد السوفيتي مثلا ، ولكنها لا تأمر وتوجه ناقلة رأي « الكنيسة » إلى البرلمان المنتخب هي رئيسة الكنيسة الإنجليزية . ولكنها لا تأمر وتوجه ناقلة رأي « الكنيسة » إلى البرلمان المنتخب من الشعب . والعملة الأمريكية مكتوب عليها نحن نؤمن بالله In god we Trust ورونالد ريجان في حملته الانتخابية الأخيرة كان يحمل الإنجيل ويخطب قائلا : إن في هذا الكتاب حلا لكل المشاكل ، وعندما رشع جون كينيدي نفسه للرئاسة وكان أول رئيس كاثوليكي . اعترض كثيرون على رئاسته لأن كاثوليكيته ستجعله يطيع أوامر البابا الكاثوليكي في روما . الأمر غير الموجود في البروتستانتية ، وعقد جون كينيدي اجتماعا شهيرا مع ألف رجل دين بروتستانت ، يشرح لهم أن مسيحيتهم وكاثوليكيته لا تجعله تابعا لقرارات البابا ، وأنه ملتزم بالدستور الأمريكي . فالترجمة الباكستانية الأردية غير دقيقة . »

هكذا أصدر الأستاذ بها ، حكما على ترجمة المصطلح بأنه خطأ دون حيثيات يطمئن إليها مترجم أو باحث . فواقع الطرح الذي طرحه الكاتبان يبين ببساطة وتعمق أن الدنيوية هي الترجمة الأكثر تعبيراً عن المصطلح وعن المفهوم ، برغم شيوع وسبق كلمة العلمانية .

وفي دائرة معارف العلوم الاجتماعية (١) نجد كلمة secularism تشغل نحو أربع صفحات من الحجم الكبير . تبدأ بالبحث في أصول نشأة العلمانية في أواخر العصور الوسطى في غرب أوروبا . وتسعى إلى محاولة تعريف العلمانية ، باعتبارها محاولة لإنشاء عالم معرفي مستقل بذاته وخال من المقولات الإيمانية والمخارقة للطبيعة ، وتتناول الفروق بين اللاهوت الظاهر وبين اللاهوت الفلسفي ، واستيعاب المنظور الإنساني للمعرفة الطبيعية . وتستعرض آراء الفلاسفة في العقائد الإيمانية ، وقبول المنطق أو عدم قبوله لها ، والاستنتاج القائل بأن المنطق يمكن أن يكون فعالا في حيز التجريب وليس في خوارق الطبيعة ، وضرورة وجود خط يفصل ما بين عالم المعرفة المستند إلى المنطق الإنساني وبين عالم الإيمان القائم على الهيمنة «الكليركية» .

(1) Encyclopedia of Social Sciences, Volume Thirteen, The macmillan Company
، ٦٣١ - ٦٣٤ . Newyork, P

وتقتضى دائرة معارف العلوم الاجتماعية إلى القول بأن الاختلاف المتزايد بين الدين وبين البحث العلمي القائم على استبعاد الافتراضات الإيمانية قد مهد الطريق لتطوير العلم الحديث ، ولكن على الرغم من إسهامات عصر النهضة الأوربية فإن العلمانية أو الدنيوية لم تتقدم وتلقى الدعم المستمر إلا في القرن السابع عشر . ثم تطور الإهتمام بالعلمانية في القرن الثامن عشر إلى مطلب ملح وتجريبي للمعرفة بكل ظواهرها الملموسة . وكما تطور تفسير العلمانية أو الدنيوية في المجال الفلسفي فإن المفهوم نفسه قد تطور في المجال السياسي والاجتماعي وذلك بالخروج من المفهوم الذي يعتبر الدولة مؤسسة سلبية ، إلى المفهوم الذي يرى أن الدولة مؤسسة إيجابية ، ومصدر ثقة يعهد إليها بترسيخ الأوضاع الاجتماعية الضرورية . وهكذا بدت فكرة أن الدولة هي الوصي على الانسان وسعادته ورفاهيته ، بعد أن كانت الفكرة السائدة في العصور الوسطى هي أن الكنيسة ، هي الوصي على الانسان وسعادته . وهي التي تنظم وجود الانسان على الأرض ، ولها الأسبقية على الدولة ، ثم ركز ميكافيللي في كتابه « الأمير » على واجب الأمير بأن يحكم بأسلوب مستقل طبقاً لمبادئه ، ثم ظهر النمط العلماني الجديد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر المسمى بالتنوير وأصبحت فكرة أن الانسان باعتباره وحدة متماسكة يسعى وراء الأهداف التي تتطور وفق عوامل البيئة ، وأنبثق من هذه الفكرة نمط من المبادئ والقيم ومجموعة من التشريعات والقوانين الصالحة لكل الشعوب ، ولكل العالم ، ولقيت هذه الخلاصة تأييداً في النظريات الاجتماعية للقرن التاسع عشر ، وبصفة خاصة في محاولات الطبقة العاملة إقامة تنظيم يعمل على المستوى الدولي ويشمل البشرية جميعها .

وتختتم دائرة معارف العلوم الاجتماعية موضوع العلمانية أو الدنيوية بقولها : إن انتشار الاتجاهات العلمانية قد أدى إلى التركيز على العناصر العملية في الحياة التي تبتعد عن اللاهوت* والميتافيزيقا . كما ركز بعض الفلاسفة الواقعيين في بحثهم على التجربة التي تحكمها مثالية الكنيسة ، ولكن جنباً إلى جنب مع هذه العلمانية الواقعية فهناك اتجاه أضاف إلى العلمانية عدداً من العناصر المثالية القديمة التي تتعلق بالدين وقد ظهر ذلك واضحاً في فرنسا حيث امتزجت الفكرة المثالية للسعادة الانسانية والاجتماعية كما صورها الأنبياء وكما صورها زعماء الثورة الفرنسية . ولم يكن هذا المزج موافقاً لطبيعة ومزاج الطبقة البرجوازية (الوسطى) الفرنسية ، بل أصبح موافقاً لمجموعات كثيرة في بلاد مختلفة . حيث أقرت المجموعات البشرية الكثيرة بأن الانسان عليه أن يسعى بكل الطرق المستنيرة لإرساء العدالة الاجتماعية والرفاهية في العالم . إن

* اللاهوت هو علم العقائد المسيحية ، وهو يختلف عن الفلسفة في أنه يقوم على معطيات الإيمان ، في حين أن الفلسفة تعول على العقل وحده.

هذا النمط من العلمانية يرتبط بالاجتماع والعلم ارتباطا وثيقا، وهكذا تمت العلمانية ووصلت الى ذروتها .

والباحث اللغوي أحمد حاطوم (١) اللبناني يرى أن التسمية الصحيحة هي العلمانية بكسر العين لا بفتحها ، وهو يقيم حيثيات حكمه على أساس لغوي صرّف . فهو يُقنّد مقولة الشيخ عبدالله العلابي . ويُقنّد قول القائلين بفتح العين في الكلمة ، بأن لسان العرب شغلت مادة (ع ل م) فيه خمس صفحات ، وأنه لم يعثر على أي أثر لـ "العلم" المفتوح العين الساكن اللام بمعنى العالم الدنيوي المقابل للعالم الديني . ويقول أنه يرى ، بكل بساطة ، أن كلمة علمانية هي نسبة مزيدة بالألف والنون إلى كلمة علم المكسورة العين . وإنها نموذج من نماذج النسبة التي منها على سبيل المثال : روحاني ، جسماني ، عقلاني وما شابه ذلك ويشرح تصوّره اللغوي بأن النسبة البسيطة المجردة في اللسان العربي تتكون كلماتها بياء النسبة المعروفة على النحو التالي : روح + ي = روحى ، جسم + ي = جسمى ، عقل + ي = عقلى . ثم النسبة المزيدة وتتكون كلماتها من بياء النسبة المعروفة وألف ونون تزدادان على النحو التالي : روح + ان + ي = روحاني ، جسم + ان + ي = جسماني ، عقل + ان + ي = عقلاني .

ويخلص أحمد حاطوم في بحثه إلى القول بأن كلمة العلمانية بفتح العين منسوبة إلى كلمة وأهية سابحة في الهواء ليس لها جذر ثابت في تربة اللسان العربي . وأن القول بولادة الكلمة من النسبة إلى العلم المكسور العين الذي هو مرتبة مميزة من مراتب المعرفة هو قول موقّظ . وأن إقامة العلمانية بكسر العين مصطلحا ومضمونا على العلم إقامة على أساس ثابت.

وهكذا أسرف الباحث اللغوي على نفسه وعلى استخدام علم الصرف لثبيت مفهومين بعيد الصلة بالترجمة لكلمة secularism التي هي أساس وجوهر المصطلح والمفهوم . ولكن بحثه اللغوي في - رأيي - يبين أن كلمة دنيوية هي الأصوب ترجمة واصطلاحا ومفهوما لما أسميناه فترة طويلة في لغتنا العربية بالعلمانية بكسر العين أوقفها .

وعندما نتجاوز إجلاء المصطلح ، وتحديد مفهوم الدنيوية ، نقَلب صفحات التاريخ العربي والتاريخ الاسلامي الحديث لنُبصّر كيف استبدلت الدنيوية بالإسلام ، أو على أقل تقدير بالنظام الإسلامي .

كانت تركيا مقر دولة الخلافة العثمانية وكانت عاصمتها هي عاصمة الدولة الكبرى . وعندما تدهورت أحوالها كانت تركيا أول دولة إسلامية تتحول من النظام الإسلامي إلى النظام الدنيوي أو العلماني . فكيف تم ذلك عام ١٩٢٤ ؟ بعد أكثر من ستين عاما زار فهمي هويدي

(١) أحمد حاطوم - العلمانية بكسر العين لا بفتحها - مجلة الناقد بتاريخ فبراير ١٩٩٠ .

استنبول عام ١٩٨٦ وكتب يقول (١) .

فى استنبول سعت إلى لقاء بعض المخضرمين الذين عاشوا التجربة الكمالية وقلت لهم إننى أريد أن أسمع منهم حقيقة ما جرى ، جميعا تحفظوا على الفور . وقالوا إن القانون التركى يسمح بالتعرض بالنقد والتقييم والتجريح للذات العلية ، وللرسل وللكتب السماوية ولأى شىء مقدس ، باستثناء رمز واحد هو : شخص كمال أتاتورك .

ليس هذا فقط ، بل إن ذكر الإسلام أو الشريعة يُعد من المحظورات التى يعاقب عليها القانون بالسجن ١٢ عاما ، والمشتغلون بالعمل الإسلامى يتحايلون على ذلك النص القانونى ، فلا يذكرون أمثال تلك الكلمات المشبوهة ولكنهم يشيرون إلى الإسلام والشريعة أحيانا ، بكلمة الحق أو وجدان الأمة (مللى شعور) وفى هذا الصدد يذكر أن نجم الدين أريكان، رئيس حزب الرفاة - وهو حزب إسلامى لم يجرؤ على ذكر صلته بالإسلام - سئل أثناء محاكمته عما إذا كان يعنى الإسلام أو الشريعة . بكلمة الحق التى يرددها أحيانا ، فكان رده أنه لم يقل بأنه يقصد المعنى الذى أشارت إليه المحكمة ، وأنه يحاسب على نص كلماته لا على تفسير المحكمة له .

وعندما ألححت فى الأسئلة ، اشتراطوا على قبل أى حديث ألا يشار إلى أسمائهم . ونصحونى فى الوقت ذاته بالرجوع إلى كتابين - إن أردت التعرف على الوجه الآخر للصورة - هما : الرجل الصنم (أتاتورك) وهو من تأليف ضابط تركى مات منذ عام ١٩٨٤ حجب اسمه ووضع صفة فقط على غلاف الكتاب ، خشية التعرض للعقاب أو الملاحقة من جانب الكماليين .

والكتاب يتداول سراً فى تركيا ، وقد ترجم إلى العربية فى السبعينات وطبع فى بيروت والكويت ، أما الكتاب الثانى فعنوانه هو : النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة (يقصد الكماليين) من تأليف شيخ الاسلام فى عهد السلطان عبد الحميد . الشيخ مصطفى صبرى . وقد طبع خلال الخمسينات فى القاهرة ، وصدر له نسخة محققة فى العام الماضى ١٩٨٥ م قدمها الدكتور مصطفى حلمى من جامعه الأسكندرية .

تشير مجمل تلك المصادر إلى أن مصطفى كمال - الذى أعطى لاحقا لقب أتاتورك أو أبو الأتراك - قدم نفسه فى البداية باعتباره منقذاً للخلافة وللأمة الإسلامية ، وفى بيان أصدره بمناسبة افتتاح مجلس الأمة التركى سنة ١٩٢٠ ، قال إن افتتاح المجلس المحلى فى يوم الجمعة هو من أجل الاستفادة من بركة هذا اليوم وباشتراك جميع النواب فى صلاة الجمعة بجامع حاجى بيرام سيؤخذ الفيض من نور القرآن والصلوات على الرسول .. سيبدأ من الآن فى جميع أرجاء الوطن المقدس والجريح بقرأة القرآن والبخارى الشريف ، وستتلى الصلوات من فوق المنابر فى يوم الجمعة

(١) فهمى هويدى - شهادات من أزمنة - الخلاص - جريدة الأهرام بتاريخ ١١ - ٤ - ١٩٨٦ .

بعد الآذان . وعندما تتلى الأسماء السلطانية لمولانا وسلطاننا وخليفتنا ، فستتلى الأدعية من أجل خلاص حضرته السامية ، ومن أجل خلاص بلده وخلاص رعيته وتحقيق السعادة لهم فى أقرب وقت. ولكنه بعد عامين فقط من هذا الكلام ، فى سنة ١٩٢٢ أعلن أن تجربته أثبتت إمكانية فصل السلطنة عن الخلافة ، وأن مجلس الأمة التركى يستطيع أن يمثل الحاكمية والسلطنة ، وبذلك تعود السلطة إلى الأمة .

على الفور شكلت لجنة لبحث الأمر ، وأعدت مشروع قانون الفصل بين الخلافة والحكومة ، وعندما طرح المشروع للتصويت ، اعترض مصطفى كمال على مبدأ التصويت ، قائلاً أنه من الطبيعى أن يوافق مجلس الأمة بالإجماع على إعادة السلطة إلى الأمة ، والحفاظ على استقلال الأمة والوطن .

كانت هذه الخطوة هى التمهيد الطبيعى لإلغاء الخلافة بعد ذلك فى شهر مارس من عام ١٩٢٤ بالقوانين الثلاثة الشهيرة ، التى حملت أرقام ٤٢٩ - ٤٣٠ - ٤٣١ - وينص أولها على إلغاء الخلافة وطرد الخليفة هو وأسرته من البلاد - وينص الثانى على إلغاء وزارة الأوقاف الشرعية- بينما ينص القانون الثالث على أن تلحق جميع المؤسسات العلمية والدينية بوزارة المعارف.

كان ذلك إيذاناً بميلاد الدولة العلمانية الجديدة التى بدأت هويتها تلك تتردد على مختلف الألسنة وفى مختلف المحافل ، وفى مذكرات على كليتيج - أحد رجال أتاتورك - أن قضية العلمانية أثبتت فى اجتماعات مجلس الأمة ، فى حضور مصطفى كمال فقام أحد العلماء من أعضاء المجلس وقال ، إن الكل يتحدث عن العلمانية ، ولكننى لا أستطيع فهم معناها على وجه التحديد . عندئذ قاطعه مصطفى كمال بحده وقال : إنها تعنى أن نكون آدميين باشيخنا .. آدميون!

وبينما كانت الدعوة إلى العلمانية تشتد ، فإن الحملة على الشريعة كانت تمضى معها فى خط مواز ، وكان مصطفى كمال هو الذى قاد تلك الحملة حيث بدأها بأن قال غامزا : إن الدين المتعلق بالضمير شئ ، والشريعة التى تريد أن يتجمد المجتمع وأمور الدنيا عند القرن السابع الميلادى شئ آخر (لاحظ أن العبارة تردد بنصها الآن فى أوساط العلمانيين المتطرفين) وما قاله أيضا : أن التشريع والقضاء فى أمة عصرية يجب أن يكونا مطابقين لأحوال الزمان ، لا للمبادئ ولا للتقاليد ، أما وزير العدل فى حكومته ، محمود أسعد ، فقد هاجم الشريعة ووصفها بأنها قانون الصحراء ، وقال " إن الشعب التركى جدير بأن يفكر بنفسه دون أن يتقيد بما فكر غيره من قبله . فقد كانت كل مادة من مواد كتبنا القضائية تبدأ بكلمة قال المقدسة أما الآن فلا يهمنا أصلا ماذا قالوا فى الماضى ، بل يهمنا أن نفكر نحن ، وأن نقول نحن وقد شاعت فى أنقره آنذاك

عبارة تقول : لا نريك شرعا فيه قال وقالوا ، لكننا نريد شرعا فيه قلنا ونقول .»

هذه التظاهرة أفرزت القانون المدني الجديد ، الذي جاء ترجمة للقانون المدني السويسري وكان هو البديل الذي حل محل الشريعة الاسلامية . وقد اعتبره أتاتورك تحقيقا للانتصار النهائي للكفاح في سبيل المدنية في عصر تأسيس الجمهورية ، وقال أن إقرار القانون المدني وتنقية الدستور لصالح العلمانية (بحذف المادة التي تنص على أن دين الدولة الرسمي هو الاسلام) هو بمثابة لبس التاج في مراسم انتصار مبادئنا الثورية .

أراد الكماليون أن يتخلصوا (من الشريعة فترجموا كل ما أمكن نقله من مواد القانون السويسري ، وقد واجهتهم بعض المشاكل الصغيرة في هذا الصدد . إذ تبينوا - مثلا - أن القانون السويسري يمنع الزواج بين الإخوة في الرضاة ، استنادا إلى اجتهادات الكنيسة الفرنسية، شأنه في ذلك شأن الشريعة الاسلامية ، وقد عرضوا الأمر على أتاتورك الذي أغضبه هذا التماثل، مما دفع ناقل القانون إلى إلغاء الحظر ، والسماح للتركي بأن يتزوج أخته في الرضاة ، إمعانا في رفض كل ما جاءت به الشريعة .

وألغيت كل مدارس التعليم الديني ، وألغيت أعياد الفطر والأضحى لعدة سنوات . ومنع الأذان باللغة العربية حيث أصبح يؤذن بالتركية .

واستمر هذا الوضع حتى سنة ١٩٥٠ أي بعد وفاة كمال أتاتورك . وألغيت عطلة يوم الجمعة وأصبحت العطلة يوم الأحد ، ومنع الحجاب ، فضلا عن أن القانون المدني كان قد منع تعدد الزوجات ، وأباح زواج المسلمة بغير المسلم ، صدر قانون يمنع إرتداء الطربوش، الذي عد رمز الانتماء للدولة الإسلامية ، وتم استبداله بالقبعة ، التي كان الناس يعتبرونها لباس أهل الكفر ، لأن حافة القبعة تحول دون السجود في الصلاة ، كما قرر أتاتورك إلغاء الحرف العربي واستبدل به الحروف اللاتينية ، وتم ذلك تحت شعار إتاحة الفرصة للنشأة الأتراك لأن يستفيدوا من علوم الغرب، ولتخليص الأتراك من إسار اللغة العربية . ليكون انتماءهم القومي صافياً ، كما كتب فالح رفقي ، أحد رجال أتاتورك ، ولكن القرار كان يعني في حقيقة الأمر ليس فقط قطع الصلة بين الأتراك وبين لغة القرآن ومنابع الثقافة الاسلامية ، ولكن أيضا إسقاط كل التراث الثقافي الإسلامي الذي نهل منه الأتراك معارفهم الدينية .

وكانت الذروة في جنون أتاتورك للالتحاق بالغرب والتعلق به ، أن طلب - وهو على فراش المرض - من السفير البريطاني في أنقرة أن يخلفه في حكم تركيا !!! . وهي المفاجأة التي أعلنتها صحيفة الصنداي تايمز قبل سنوات (عدد ١٤ فبراير ١٩٦٨) عندما نشرت القصة ونقلت تفاصيلها ووثائقها المثيرة عن ابن السفير البريطاني الأسبق السير بيرسون ديكسون .

لقد تمت عملية التحول من النظام الاسلامى إلى العلمانية فى تركيا بالقوة المسلحة وبالبطش والقتل والسجن والتعذيب . واستمر ذلك لما يقرب من ثلاثة أرباع قرن من الزمان .
يقول أحمد بهجت (١) :

« بعد ولاية كمال أتاتورك أصبح محرما على الناس إرتداء ملابس الشيوخ ، وتم قهر الناس على لبس الملابس الإفرنجية بالقبعة .. وأعلنت علمانية الدولة .. وبدأ اضطهاد المشايخ ورجال الدين ، وأصبح الهمس بالرغبة فى تطبيق الشريعة الإسلامية جريمة كبرى تتصل بأمن الدولة العليا ولها عقوبتها وهى الشنق .

وفى هذا الجو المسموم تم حذف دروس الدين من المدارس ، كما حذفت كلمات الخالق .. والرب . والله جل جلاله من كتب المدارس ، ووضعت بدلا منها كلمات الطبيعة والتطور والوطنية والقومية .. كان الهدف هو محو مفهوم الاله ومحو فكرة الخالق من الأذهان ، وأصبحت النظرة إلى المتدينين تعتبر جماعة من الأفاقيين الذين يعتقدون فى وجود شىء وراء الطبيعة .

سنة ١٩٣٢ نشرت فى أستانبول بتركيا دائرة معارف الحياة ، فماداً كتبت دائرة المعارف هذه . أو بمعنى أصح دائرة الجهالات . تحت كلمة لفظ الجلالة الله ؟

كتبت دائرة المعارف التركية فى عهد العلمانية تقول : " أن الفكرة التى تريد الأديان الموجودة حاليا أن تبنيها هى أن الله واحد ، وأنه هو الذى خلق الكون ، ولكن التقدم العلمى بدأ يوضح لنا شيئا فشيئا أن هذه الفكرة باطلة ، وأنه لا وجود لشيء اسمه الله ، وقد انتشرت فكرة عدم الاعتقاد بالله بين أوساط المثقفين .. هذا ما كتبتة دائرة المعارف التركية ، فى هذا الجو الكتيب كان الاسلام يتعرض لحرب علنية تشنها الحكومة بكل أجهزتها » .

كانت التجربة التركية هى التجربة الكاملة فى التحول إلى العلمانية أى الدنيوية ، وكان ذلك مشهودا أمام المسلمين وأمام العرب ، فقد تم ذلك فى ضحى وسائل الإعلام العصرية ، حيث كانت الكتب والصحف ووكالات الأنباء وكان الراديو . وتم ذلك فى دانسة انتباه العرب لأنهم جميعا كانوا ضمن دولة الخلافة العثمانية . ولقد وعى الوجدان العربى هذه التجربة برغم انشغاله بمناهضة الاستعمار الأوربى لبلاده ، وترسبت فى أعماق هذا الوجدان ، وإن كانت الأقطار العربية قد تعرضت للغزو العلمانى أى الدنيوى منذ أواخر القرن الثامن عشر بحادثة الحملة الفرنسية على مصر ، ثم الاستعمار الأوربى لمعظم البلدان العربية ، فى القرن التاسع عشر ، إلا أن التجربة

(١) أحمد بهجت - إنقاذ الايمان - جريدة الأهرام بتاريخ ٣٠ / ٩ / ١٩٩٢ .

التركية هي التجربة الكاملة ، وما التجارب الأخرى إلا تجارب جزئية ، وبدرجات متفاوتة . فعند المقارنة بين حملات الغزو العلماني التي تمت في مصر وسورية من جانب ، والتي تمت في تونس والجزائر من جانب آخر ، نجد أنها كانت أكثر عنفا في المغرب العربي وأعمق تخريبا ، كانت الوسائل تتسم بالصلبية التقليدية ، مثل تحويل أكبر مساجد مدينة الجزائر إلى كنيسة ، وإحلال اللغة الفرنسية محل العربية ، بل والقضاء على العربية من جذورها . وألغيت عطلة يوم الجمعة لتصبح الأحد . وفي أيام الاستقلال الأولى أعيدت الكنيسة إلى أصلها مسجداً في ساحة الشهداء بالعاصمة الجزائر . ولكن عطلة يوم الأحد ظلت ما يقرب من عقدين من الزمان لتعود إلى يوم الجمعة.

وفي مصر يقول الدكتور محمد عمارة (١) : أمتنا على مدى ثلاثة عشر قرناً تُحكّم بالشرعية الإسلامية . كيف تم الإختراق ؟ كيف أصبحت هناك ثنائية في القانون ؟ كيف زاحمت القوانين الغربية شريعتنا الإسلامية في مؤسسات الحقوق ، وفي مؤسسات القضاء ، وفي مؤسسات التشريع ؟ نحن نعلم جميعاً أنه حتى عصر الخديوي إسماعيل لم تكن هناك علمانية ولم يكن هناك قضاء مدني بالمعنى الغربي . ولم يكن هناك تشريع وضعي بالمعنى الغربي ، بعد افتتاح قناة السويس وزيادة الجاليات الأجنبية في بلادنا نشأت المحاكم القنصلية التي يحتكم إليها المصري والأجنبي إذا كانا طرفين في قضية واحدة ، ويحكم فيها بالقانون الغربي . ثم جاءت المحاكم المختلطة في سبعينات القرن التاسع عشر فنظمت هذه الفوضى القضائية وأصبحت المحكمة المختلطة تحكم بالقانون الفرنسي بل وباللغة الفرنسية .

ثم جاء كرومر فصنع في عام ١٨٨٣ ما سمي بالإصلاح القضائي وعممت القوانين الوضعية والقوانين العلمانية في القضاء المصري . إذاً هذه العلمانية وصمة عار وبصمة للاستعمار في بلدنا .»

وكانت التجربة العلمانية في العقد الثامن من القرن العشرين في أكبر بلد إسلامي من حيث عدد السكان . يرويها فهمي هويدي (٢) بأسلوب تصويري مباشر والتحليل الصريح فيقول : « كانت رحلتي إلى بنجلاديش في عام ١٩٧٧ ، لمهمة صحفية عادية . لا علاقة لها بمسألة العلمانية من قريب أو بعيد ، وأكثر من ذلك . فقد كنت خالي الذهن عن حقيقة ما جرى في ظل حكم الشيخ مجيب الرحمن ، باستثناء ما كانت تتناقله الصحف والوكالات عن عملية تصفيات

(١) د . محمد عمارة - مناظرة في معرض الكتاب الدولي بالقاهرة في يناير ١٩٩٢ نشرت مجلة أكتوبر في العدد ٧٩٥ بتاريخ ١٩ / ١ / ١٩٩٢ .

(٢) فهمي هويدي - المقال السابق - جريدة الأهرام بتاريخ ٤ / ١١ / ١٩٨٦ .

للمعارضين ، مما لم نعد نفزع له كثيراً أو نستهلوه ، لكثرة وقوعه في دول العالم الثالث ، حيث باتت أخبار الاعتقالات والتعذيب والإعدامات قصصاً عادية ، ألفها الناس ، وصاروا يقرأونها بغیر إكتراث ولا حزن . !

كان مما أثار انتباهي في دكا - العاصمة - أن العطلة الأسبوعية الرسمية هي الأحد ، وليست الجمعة كما كان عليه الحال في باكستان ، قبل أن ينفصل عنها البنغال ويصبح بنجلاديش ، استغرقت هذا التحول في بلد ٩٥ ٪ من سكانه مسلمون ، وليست فيه جاليات أجنبية تذكر ، وعلاقاته بالعالم الخارجي لا تتجاوز إقرار اعتمادات القروض ، ومحاولات الإغاثة في أعقاب الفيضانات والأعاصير .

بدافع الفضول سألت عن السبب في تغيير يوم العطلة فقبل لي أن ذلك تم في إطار خطوات « الإصلاح » التي قررها الشيخ مجيب الرحمن .

أثارت الإجابة مزيداً من الفضول عندي ، للتعرف على بقية خطوات الإصلاح التي جاءت بها المجيبية بعد الانفصال عن باكستان في سنة ١٩٧١ ، فكانت على النحو التالي : احتكر السلطة حزب رابطة الشعب (عوامي ليج) الذي خرج من رحم حزب رابطة الشعب الإسلامية ، وكان أول ما فعله الشيخ مجيب أن أعلن علمانية نظامه ، مما ترتب عليه تعديل دستور البلاد وإدخال صياغات العلمانية والاشتراكية فيه ، ثم حذف كل الإشارات التي تدلل على علاقة شعب بنجلاديش بالإسلام ، ابتداء من البسملة التي وضعت في صدارة الدستور ، إلى النص فيه على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام .

ويبدو أن الحرص على « الإصلاح » دفع الشيخ مجيب ويطانته إلى تتبع كل ما هو إسلامي في البلاد ، وإزالته . فقد كان شعار جامعة دكا كتاباً مفتوحاً - قد يكون مصحفاً - وضع فوقه كلمة اقرأ فألغى هذا الشعار واستبدل به غيره .

وفي داخل الجامعة كانت هناك قاعة عريقة وشهيرة ظلت مصانة طوال سنوات الاحتلال البريطاني ، برسمها واسمها ، وقد عرفت باسم قاعة سليم الله الإسلامية ، فحذفت الكلمة الأخيرة وأصبحت تحمل اسم قاعة سليم الله فقط . وكانت هناك جامعة أخرى في بلدة نجر معروفة باسم جامعة جهانجير نجر الإسلامية فشملها الإصلاح أيضاً ، وشطب كلمة الإسلامية .

وكانت هناك مؤسسة ثقافية متخصصة في طباعة ونشر كتب الأدب والتراث الإسلامي تحمل اسم مكتب الإصلاح الوطني ، هذه المؤسسة أوقف نشاطها وسحبت رخصتها ، ولم يصدر كتاب له بالإسلام نسب طوال حكم مجيب الرحمن .

لسبب أو آخر فليست هناك معلومات وافية عن تلك الفترة التي سادت فيها المجيبية لكن

هذا هو القدر من الإشارات الذي سجلته في أوراقى منذ حوالى عشر سنوات ، متعلقا بعلمنة بنجلاديش ، وبالرغم من هذا وذاك . فربما كان القدر المتاح من المعلومات كافيا للتدليل على أن العلمنة التى تمت فى تلك الفترة اقترنت بثلاثة أمور : هى حكم الفرد والحزب الواحد - الخصومة الشديدة لكل ما هو إسلامى - محاولة الالتحاق بالغرب ومحاكاته حتى فى عطلته الأسبوعية . وهكذا يتبين لنا أن الدنيوية التى أسميناها وما زلنا العلمانية كانت غزوا ثقافيا شاملا . وأنها لم تكن بعيدة عنا نحن العرب نحن المسلمين لا فى بداياتها ولا فى ذروتها الكمالية ولا مستخها المعاصر على السنة سفهاء العصر أو على أيدي عملاء الغرب ، وأن محاولة صرف أنظار وبصائر الجماهير العربية والإسلامية بأن الدنيوية العلمانية مسألة مقحمة على حياتنا السياسية والثقافية والإجتماعية هى محاولة إلهاء حتى يتم تحقيق التحول إلى الدنيوية بديلا للنظام الإسلامى أو التطبيق الإسلامى أو العودة للذاتية الإسلامية .

الماسونية وتوابعها

كلمة الماسونية Freemasonry "تعني البناء الحر ، والماسونى" Freemason "هو البناء ، وجمعها الماسون أو الماسونيين" Freemasons "أي البنائون الاحرار ، هذا هو المفهوم المعلن عن الماسونية . كما أنها تعلن أنها جمعية أو محفل Lodge مفتوح الأبواب لجميع البشر ، من كل النحل والمذاهب والديانات . ولادخل للماسونية فى عقائد الناس . وكل ما بهم المنظمة وحدة الجنس البشري . بهدف الأخوة والخيرية والحرية والمساواة والسلام والخدمة والمصلحة العامة للإنسانية . ويقول أحد قادتها : نحن نهدف إلى بناء الانسانية بناءً معنوياً فى بناء مُنظمٍ وفقَ خُطّةٍ وتصميم . (١)

وقد اختلف المؤرخون فى منشأ هذه الحركة ، ويرجع السبب فى ذلك الى السرية والغموض اللذين تحيط بهما الحركة الماسونية نفسها ، ولكن المرجح من الناحية التاريخية أن هذه الحركة بدأت فى إنجلترا عام ١٧١٧ م . وهذا الترجيح لبداية التاريخ العملي أو الفعلي للماسونية يرجع إلى أن حوليات الماسونية تبدأ بهذه السنة ، التى تعد ذات أهمية خاصة فى تاريخ الحركة (٢) . ففي أحد الدهاليز الخفية فى " إنجلترا " سنة ١٧١٧ م اجتمع نفر من اليهود الوارثون لما كان

(١) محمود ثابت الشاذلي - الماسونية عقدة المولد وعار النهاية - الطبعة الثانية - مكتبة وهبه - القاهرة - ١٩٩٠ م ص ٦٦ .

ص ٦٧

(٢) د. سهام نصار - الصحافة الاسرائيلية والدعاية الصهيونية فى مصر - الطبعة الأولى - الزهراء للإعلام العربى - القاهرة - ١٩٩١ ص ٨٥ نقلعن مجلة فتحي صفرة : الماسونية فى الوطن العربى - سلسلة أوراق عربية رقم ٤ مركز الدراسات العربية - لندن - سبتمبر ١٩٨٠ .

يسمى " القوة الخفية " ، وقرروا تشكيل المحفل الأكبر الانجليزي (١) ليكون ممثلاً للماسونية الجديدة، ويتولي هذا المحفل حذف ما يراه من تعاليم المحافل القديمة ، وإضافة ما يجدونه ملائماً لروح العصر، مع تخفيف حدة الطقوس التي كانت تجري داخل الهيكل ، وتطوير الرموز والاشارات التي خلّفها لهم القدماء . في هذا الاجتماع التاريخي اتخذوا قرارهم الجريء بأن تتحول كل محافلهم من الماسونية العملية الخاصة ، إلى الرمزية العامة . علي أن تحتفظ هذه الماسونية الجديدة بما كانت عليه القديمة من سرية وكنمان . وأن يكون شعارها البراق : المساواة والإخاء والحرية . وقد انطبق علي الماسونية في إخفاء هويتها وأهدافها ما قاله الشاعر العربي :

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ إِمْرٍ مِنْ خَلِيقَةٍ

وَأَنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ

لقد تجمعت حصيلة كبيرة من كتابات مؤلفين غربيين ، ومن دراسات باحثين مسلمين ، في باكستان مثلاً ، ومن الكتاب العرب ، هذه الحصيلة الكبيرة إلى جانب الصحف الماسونية، وبعض الممارسات العلنية للماسونية ، جعلت ما خفي من هويتها واضحا ، وما خُتّأت من أهدافٍ شديد الوضوح .

وعلي طريقة كثير من المؤلفات القديمة التي تبدأ بابها الأول بخلق آدم عليه السلام ، لتصل بسلسلة النسب إلى نبي من الأنبياء أو ملك من الملوك أو شعب من الشعوب ، نجد في المراجع الماسونية ما يرجع تاريخها إلى الأزمان التي مرت بها الديانة اليهودية . وهذه العودة بالماسونية إلى الأزمان الأولى للديانة اليهودية . يمكن النظر إليها نظرة تحليلية ناقدة علي النحو التالي : - أولاً: إذا كان مصدر هذه الكتابات من زعماء الديانة اليهودية فإنهم بذلك يحاولون أمام شيعتهم ، إكساب " الماسونية " صفة القداسة . وبرغم الأكاذيب والخرافات والإلتواء والتشويه في مضمون هذه الكتابات عن أنبياء بني إسرائيل وسيرهم فإن التحريف الذي وقع علي التوراة أشد ، والأباطيل أكثر بكثير ، بل وتشويه سيرة أنبيائهم في التوراة التي ابتدعوها أكثر بكثير . وبذلك يمكن قبول القول بأن المصادر يهودية .

ثانياً : إذا كان المصدر من مؤلفين مسيحيين فإن كتاباتهم أخذت من مصادر مشوهة . وكان الربط بين التواريخ تحكمه صناعة التأليف التي كانت عادة من عادات الكُتّاب الأقدمين .

ثالثاً: إذا كان المصدر من فرق يهودية إنشقت - وهو أمر متكرر في التاريخ اليهودي - فقد أرادت أن تسجل تاريخاً أسود ، مثلما يفعل بعض المنشقين من الأحزاب السياسية في القرن العشرين الميلادي .

(١) أبو إسلام أحمد عبد الله - الماسونية في المنطقة ٢٤٥ - الطبعة الأولى - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة ١٩٨٦ - ص ٢٩٠ ، ص ٢٩١

رابعاً : لم يكن للمؤلفين فى كافة النصوص والمؤلفات التى تناولت تاريخ الماسونية غير النقل والترجمة والاسترشاد بما جاء فى المصادر الغربية المعلومة المؤلف أو المجهولة المؤلف . ومن كتب من العرب عن الماسونية من أمثال شاهين مكاربوس فقد كتبوا إجلالا وتعظيما . ومن المتأخرين العرب الذين اكتشفوا أهدافها التخريبية للروح الإسلامية وكانوا فى محافلها من كتب فاضحا أمرها معرضا عنها محذرا منها .

حتى كانت قرارات الحكومات العربية فى العقد السابع من القرن العشرين بتجريم نشاطها بدءا من القرار أو القانون العسكرى المصرى بمعنى أدق الصادر فى عام ١٩٦٣ م . وأهم المصادر التى تناولت التاريخ القديم للقوة الخفية وهو الاسم الذى آل بعد قرون إلى اسم الماسونية كتاب ترجمه الخورى عوض الخورى اللبنانى عام ١٨٩٨ م وطبع فى مطبعة الجهاد فى بيروت عام ١٩٢٩ م، بعنوان تبديد الظلام . ويقول المترجم أنه عاد من البرازيل بهذه الترجمة . وأن (١) الفضل قبل كل شىء لله وحده جل جلاله ثم لمن هدانى وأوصلنى إلى تلك الضالة المنشودة ، وهو الدكتور برودانتى دى موريس رئيس جمهورية البرازيل حينئذ ، الذى كان مفوضا إلى أسرار خاصة ، فهو الذى عرفنى بصاحب هذا التاريخ المخطوط العبرانى الحاجة لوران جورج صموئيل بن جونا صموئيل لوران والمعروف باسم لوران ، وباسم حفيد أحفاد أحد التسعة ، أجداد جمعية القوة الخفية .

ويقول المترجم أنه اتفق مع لوران على ترجمة الكتاب من الفرنسية إلى العربية وبعدها التركية . وأن يجعل من الترجمة نسختين أخذ هو واحدة وأعطى لوران الأخرى وقد اشترط عليه لوران أن يترجم فى بيته ولا يخرج بالنسخة الفرنسية خارج بيت لوران . وفى هذا الكتاب نجد الإشارة بأن المحفل هو خيمة الإجتماع ، ومحاولة ربط ذلك بخيمة سيدنا موسى عليه السلام بجانب الطور ، ونجد أن الجمعية الخفية هى الجماعة القيادية اليهودية التى تتجمع فى الأزمات التى تتلاحق نتيجة أعمالهم الشريرة ، ويقول بعض الكتاب أنه فى عام ٤٣ ميلاديا سمى هيرودس زعيم اليهود اثنين من مستشاريه وستة من صفوة الكهنة المقربين إليه ليكونوا التسعة المؤسسين للقوة الخفية ، وسمى أول أركان دعوتهم الإخاء وصاغ مينا للقسم . وهكذا بدأ التاريخ الماسونى . ثم عقد هيرودس زعيم اليهود وملكهم إجتماعا خطب فى جمعية القوة الخفية قائلا : الآن قد تأسست جميعتنا القوة الخفية لتبقى قوتها وأعمالها ومبادئها وغايتها خفية إلى الأبد . هاقد صرنا إخوة ، وكل من ينضم إلينا أو إلى أحفادنا خلفاء المؤسسين يكتسب سر الإخاء ويوسم به ، وبهذه الرابطة وحدها نقهر الأعداء ، ونسحق قوتهم التى يزعمون

(١) أبو سلام أحمد عبدالله - الماسونية فى المنطقة ٢٤٥ - الزهراء للإعلام العربى - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٨٦ ص ٢٥٠ .

أنهم يقومون بها على ملاشاة ديانتنا . وليكن أساس أعمالنا الأمانة والكتمان والجرأة الدمية التي منحوهم بها ، ولتورث هذه المبادئ أحفادنا الذين سنسلم إليهم هذه الأسرار . ويسرد بعض الكتاب تتابع التاريخ والاجتماعات حتى إضطهاد الرومان لهم . وما تلى ذلك وما سبقه من تشتيت لليهود الذين تقوم فلسفتهم كما وصفها بولس حنا مسعد (١) إن النصارى يؤمنون بأن الله هو أبو الجميع ، والمسلمين يعترفون بأن الله رب العالمين أما اليهود والماسون فلا يريدون أن يكون الإله إلا لهم وحدهم . وينص التلمود * على أن جميع خيرات الأرض ملك لأبناء اسرائيل وأن النصارى والمسلمين وعبداء الأوثان خلقوا عبيدا لهم . وينقل بعض المؤلفين كلاما من سجلات محاكم القوة الخفية نسب المسيح عليه السلام وتسب محمدا صلى الله عليه وسلم فتقول : فى أواخر الجيل السادس للدجال يسوع الذى أضحكنا بتدجيلاته ، ظهر دجال آخر ادعى التنبؤ بالوحى وأخذ ينادى بالهداية مرشدا العرب ، الذين كانوا عبدة الأصنام إلى عبادة الإله الحق وسن شرائع مخالفة لسن ديانتنا اليهودية . فمال إليه كثيرون فى مدة قصيرة ، فقمنا نناهض دعوته ، وسنته ، ونصرخ بأصواتنا الخفية لنفهم الذين يميلون إليه وإلى رجاله ، أنه وإياهم دجالون كسابقه يسوع (٢) .

وإذا كان فى التاريخ القديم للماسونية قدر قليل من التوثيق فإن تاريخها المعلن منذ عام ١٧١٧ يحوى قدرا كبيرا من التوثيق ، وفى الوقت نفسه يشرح ويؤكد السياق التاريخى للماسونية . ففي عام ١٧٣٢ أقيم فى باريس المحفل الماسونى على ما قرره المحفل الانجليزى الأكبر . وفى عام ١٧٣٣ توحدت محافل الماسونية فى فرنسا ، كما توحدت فى فلسطين وروسيا والمجلترا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وفى الولايات المتحدة الأمريكية . وفى عام ١٧٨٤ أصبح ٤٤٧

(١) أبو سلام احمد عبدالله - الماسونية فى المنطقة ٢٤٥ ص ٢٨٨ ، نقلا عن بولس حنا فى كتابه همجية تعاليم صهيون .

* تقول المصادر اليهودية أنه حوالى عام ١٥٠٠ بعد ميلاد المسيح عليه السلام جمع حاخام يهودى التعاليم الدينية فى كتاب سماه «ميشنا» ومعناه الشريعة المكررة أو الشريعة الثانية باعتبار أن ما أنزل على موسى عليه السلام من الوحي هو الشريعة الأولى . ثم بعد فترة ثانية قصيرة من تاريخ اليهود علقت شروح إضافية على ميشنا وسميت هذه التعليقات والشروح باسم جيمارا والميشنا والجيمارا هما معا التلمود أى كتاب شرائع وآداب بنى اسرائيل . كل ذلك تم حوالى عام ٢٠٠ بعد ميلاد المسيح .

أما بروتوكولات حكما صهيون فتتضمن إلى ما بعد عصر النهضة الأوروبية فى عام ١٨٩٧ عقد فى مدينة بازل بسويسرا المؤتمر الصهيونى الأول برئاسة هرتزل ، وقد اجتمع فيه ثلاثمائة من زعماء اليهود الهائزين على الدرجة الماسونية الثالثة والثلاثين ، قمة التنظيم الماسونى . وقد صدر عن المؤتمر قرارات سرية عرفت باسم بروتوكولات حكما صهيون . (٢) المرجع السابق .

من أعضاء محفل الشرق الأكبر فى فرنسا نوابا فى البرلمان الفرنسى البالغ عدد أعضائه ٦٠٥ عضوا . وكان لليهود دور فى تمويل الثورة الفرنسية . وبعد نجاح الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨ ازدهر نشاط المحافل الماسونية فى فرنسا . وامتد نشاط الماسونية فى معظم الدول الأوروبية وفى آسيا وأفريقيا . (١)

ويؤكد جمهور الباحثين أن الفكرة الرئيسية للماسونية تنطلق من العقيدة اليهودية ، وتتحرك فى إطار التاريخ اليهودى . وإن الطقوس الماسونية تستمد وحيا من التراث اليهودى ، والرموز الماسونية تمثل الفكر والثقافة اليهودية (٢) .

وقد فسر الكاتب الباكستانى مسبهول إسلام فارقى مدلول الاله عند الماسونية واسمه « به » بل ، أن ، jah - bul - on من النصوص الماسونية بأنها كلمة مركبة من ثلاثة ألفاظ يحتفظ كل عنصر فيه بخصائصه : يهوه Jahweh إله اليهود ، ويعل baal إله آشور ، وأوزيريس osoris إله قدماء المصريين (٣) وهكذا يتم تخريب العقائد الإسلامية والمسيحية فى وقت واحد . بذلك حرمت معظم الكنائس فى العالم على أتباعها الإنتخاط فى الماسونية ، واعتبرت إشتراك المسيحي فى الطقوس الماسونية ردة .

ولكل درجة من درجات التنظيم الماسونى قسم يقول فيه المنتسب إلى الدرجة أنه يقسم بإخلاص وجدية أنه يخفى أسرار الماسونية وأنه لا يرسم شيئا من رموزها وأسرارها . ويقسم على مراعاة ذلك بوقار ودون إنحراف أو مراوغة ، وأن عقوبة كشف هذه الأسرار أو انتهاك القسم ليست أقل من أن يترك شق صدره الأيسر يفتح ، وينزع قلبه ، ويعطى لطيور السماء الجارحة ، أو يلقي فريسة للوحوش المفترسة (٤) .

ولقد كشفت الدكتورة سهام نصار (٥) فى دراستها عن الصحافة الاسرائيلية فى مصر مدى الترابط بين الماسونية والحركة الصهيونية من واقع الصحف الصادرة فى مصر (عام ١٩٢٤) فهى تتساءل : هل كان للماسونية موقف من قضية فلسطين ومن مسألة الوطن القومى ؟ وتجييب بأن أولى هذه الإجابات تقدمها لنا مجلة الاتحاد الإسرائيلى * . فتذكر المجلة أن رجال الماسونية فى أمريكا اتفقوا على إمداد حركة تعمير فلسطين بالمساعدة المالية والأدبية لإعداد البلاد كوطن

(١) المرجع السابق ص ٢٩٢ إلى ص ٣٠٠ .

(٢) محمود ثابت الشاذلى - الماسونية عقدة المولد وعار النهاية - الطبعة الثانية - مكتبة وهبة - القاهرة ١٩٩٠ ص ١٩

(٣) المرجع السابق ص ٣٣ ، ص ٣٤ . (٤) المرجع السابق ص ٧٤ ، ص ٧٥

(٥) د. سهام نصار - الصحافة الاسرائيلية والدعاية الصهيونية فى مصر - الطبعة الأولى - الزهراء للإعلام العربى - القاهرة ١٩٩١ ص ٨٦ ، ص ٨٧ .

* (مجلة الاتحاد الاسرائيلى مجلة لطائفة اليهود القرائين فى مصر صدرت عام ١٩٢٤)

قوى لليهود ، وأن ثمانية من الرؤساء السابقين لمحافل نيويورك أقاموا وليمة فاخرة للدكتور حاييم وايزمان عام ١٩٢٤ ، أعلنوا فيها وقف أنفسهم ومحافلهم لخدمة الحركة الصهيونية ، كما كونوا لجنة للتفاوض مع أستاذ أعظم محافل ولاية نيويورك لتحديد مبلغ المساعدة التي سيقدّمونها ، وتوقعت المجلة أن يصل مبلغ الاكتتاب إلى ٢٠٠ ألف دولار نظرا للحماس الكبير الذي أبداه الماسون الأمريكيون .

وانضم اليهود في مصر منذ وقت مبكر إلى المحافل الماسونية أيضا وتدل وثائق عابدين الخاصة بالمحفل الماسوني - على الرغم من قتلها - على مدى تغلغل اليهود داخل المحفل الأكبر والشرق الأكبر المصري ، وجميع المحافل المصرية الفرعية الأخرى في مدن الاسكندرية والقاهرة وبورسعيد من المدن المصرية ، كما تدل وثائق عابدين على أنه كانت هناك محافل أسسها اليهود وكانت تحمل أسماء يهودية مثل محفل سليمان ومحفل مجن ديفيد وقد سيطر اليهود على ما يقرب من نصف عضوية المجلس السامي المصري لدرجة ٣٣ ، وهي أعلى درجات الماسونية الرمزية . ومن المعروف أن بعض الزعماء المصريين كانوا أعضاء في المحافل الماسونية قبل أن تكشف حقيقتها الصهيونية .

أما توابع الماسونية فقد نشطت وزادت بعد أن حرمت بعض البلدان العربية والإسلامية نشاطها . وتتناول الصحف العربية بين الحين والآخر نوادي الروتاري وما شابهها بالنقد باعتبارها من توابع الماسونية ، ولكن هذه النوادي لم تنع في معظم البلدان العربية والإسلامية من ممارسة نشاطها . أما الكتب التي تناولت نوادي الروتاري وما شابهها فإنها توثق العلاقة بينها وبين الماسونية بتأكيد وحساس واضح .

أنشئت منظمة الروتاري في شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٥ تحت شعار الخدمة وتذويب الفوارق بين الأديان والأجناس . وشعار الخدمة والتذويب هما الدهان الخادع (١) واثنان من الشعارات التي تنسب من ورائها الماسونية . وترجمة كلمة روتاري تعني الدوران حول نقطة مركزية . والنقطة المركزية التي تدور من حولها الماسونية هي بناء الهيكل في أورشليم. وقد تعاصر وجود منظمة الروتاري في بداية الأمر مع نشأة منظمة النهلست الدولية mihilis التي تعنى العدمية أو اللاشيئية ، والنهلية وجهة نظر تقول بأن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة . وأن الوجود لا معنى له ولا غناء فيه . وكانت منظمة النهلست تضم أشقاتا من الناس يتحدثون عن اضطهاد روسيا لليهود ويتغنون بفضل النمسا وإتاحتها لهم فرصا لجمع المال ، كذلك

(١) محمود ثابت الشاذلي - الماسونية عقدة المولد وعار النهاية - الطبعة الثانية - مكتبة وهبه - القاهرة -

١٩٩٠ ص ١١ ، ص ١٢

كانت منظمة الروتارى تضم أشتاتا من الناس مرتبطين على المستوى العالمى بفكرة محبة اليهود ، ويجتمعون دوريا على المستوى المحلى أو القطرى أو الدولى . فيأكلون ويشربون ويدعون المتخصصين فى شتى فروع المعارف ، أو المسؤولين فى مختلف المواقع المؤثرة ، ليحاضروهم فيما استشكل عليهم أو غاب عنهم من معلومات ، وذلك بقصد رصد الأخبار والتقاطها وتصنيفها وتقديمها من خلال الأعضاء المتقدمين فى السلك إلى مجلس شيكاغو اليهودى . وليس عجبا أن يكون المحفل الماسونى الكونى الذى يدير الماسونية العالمية هو الذى أوحى بإنشاء المنظمين النهلية والروتارى .

ويربط كثير من الكتاب بين تحريم النشاط الماسونى فى البلدان العربية والإسلامية وبين انتشار أندية الروتارى فيها . وحقيقة الأمر أن الأندية هذه تشوبها شوائب الغموض . والدكتور عبدالصبور مرزوق (١) يضع عدة تساؤلات تبين جوانب الشبهات فى هذه الأندية على النحو التالى:

أولا : لماذا حرصت أندية الروتارى على أن يكون نشاطها شاملا لأى مجتمع توجد فيه ، بحيث يكون الروتارى للرجال ، والإنزهور للسيدات ، والروتارى آلت للشباب فتيانا وفتيات ؟

ثانيا : لماذا التركيز على ضم الشخصيات ذات المكانة الخاصة فى مجتمعها المهنى دون سائر أفراد المجتمعات ؟ وهل يصح الظن بأنهم يدخرون لأمر مافى زمن ما ؟

ثالثا : لماذا أصدر الفاتيكان أمره للمسيحيين بتحريم الإنتماء إلى هذه الأندية ؟

رابعا : كيف نفسر اعتراف بعض الأعضاء بأنهم انتقلوا إلى الروتارى بعد ما أغلقت الدول المحافل الماسونية التى كانوا بها أعضاء ؟

خامسا : هل يتبرع الأعضاء بقيمة ما يقدمه النادى من مساعدات للحى الذى يقوم فيه أم يحصلون على المساعدة من المنظمة الأم فى الخارج ؟

ثم يطرح الدكتور عبدالصبور سؤالين أكثر أهمية السؤال الأول : لماذا تختار نوادى الروتارى اعضاها ولا يسمح لأى شخص أن يتقدم بطلب العضوية ؟ والسؤال الثانى : ما رأى الروتاريين من أبناء الأمة الإسلامية فى الملاحظات التى سجلها الباحث Charles . F. Marden تشارلز-ماردين فى كتابه الروتارى وأخواتها ، وهو من مطبوعات جامعة برنستون التى تقول ما يلى :

١ - أن المجموعة الأولى التى اشتركت مع بول هاريس فى تأسيس الروتارى كانوا أعضاء فى المحافل الماسونية .

٢ - هناك حالات قصرت فيها عضوية الروتارى على الماسونيين فقط كما حدث بالنسبة

(١) د. عبدالصبور مرزوق - تقديم كتاب أبو إسلام احمد عبدالله الماسونية فى المنطقة ٧٤٥ مرجع سابق .

لنادى أدنبرة فى بريطانيا عام ١٩٢١ .

٣ - التناسب العكسى بين نشاط الروتارى وأخواتها وهى الليونز والكيبوانى ، والاكتشاج ، والمائدة المستديرة وما شابه ذلك ، وبين النشاط الماسونى ، أى أن الروتارى وأخواتها تحصل على شعبية كبيرة ، ويقوى نشاطها عند ضعف الحركة الماسونية . وهل هناك علاقة بين النشاط المكثف للروتارى فى بلادنا وبين حظر النشاط الماسونى ؟

هذه التساؤلات فى حد ذاتها وبخاصة حقيقة أن النوادى هى التى تختار الأعضاء وأن الإنسان لا يستطيع أن يتقدم للعضوية يجعل علامات الاستفهام موجبة بالإجابة أكثر من الإجابة البسيطة أو الصريحة أو المباشرة .

ومن أبلغ الردود الحاسمة عن علاقة المسلم بمثل هذه المنظمات والنوادي ذلك القول البليغ للدكتور يوسف القرضاوى (١) : ليس هناك أدنى حاجة للمسلم للإلتزام لجمعية يلابسها القموض من جانب ، وتحيط بها الريب والشبهات من هنا وهناك . وقد وضع لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم القاعدة التى تقول : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، وأيضاً من اتقى الشبهات فقد استبرأ ل عرضه ودينه ، وإذا كانت هذه الجمعيات ، تدعو إلى الإخاء والمساواة والحرية ، أو تعليم المحبة والتسامح - كما يقال - فلنسنا نحن المسلمين فى حاجة إليها ، لأننا أساتذة الدنيا فى هذه المعانى ونحن دعائنا ومعلموها للناس .»

البهائية

البابية

خرجت البابية من طائفة تدعى الشيعية من غلاة الشيعة ، من معتقداتها رجعة الإمام المستور ، وترقب ظهور المهدي . وكان خروجها على يد على محمد الشيرازى . كان طفلاً فى المهدي حين مات أبوه فكفله خاله فألحقه وهو فى السادسة من عمرة بمدرسة فى شيراز* كان القائم عليها يسميها قهوة الأنبياء والأولياء . ولكن الغلام عزف عن التعليم ، بعد أن حصل على قدر من مبادئ العربية والنحو الفارسي وبرع فى الخط وسرعة الكتابة . فألحقه خاله بمتجر فى شيراز ، ثم انتقل إلى بلدة تسمى سراى الحاج عبدالله حيث افتتح خاله متجراً بها للأقمشة ، وهناك التقى الغلام المراهق بأحد رجال الشيعية يدعى جواد الكربلاي الذى لقنه أقوال الشيعية . وزعم أن فيه ملامح المهدي المنتظر ، فعزف المراهق عن التجارة ، وأقبل على كتب الشيعية وغيرها . والتزم

(١) أبو إسلام عبدالله - الماسونية فى المنطقة ٢٤٥ - مرجع سابق ص ١٧٣ ، ١٧٤ نقلاً عن مجلة الدعوة عدد شعبان ١٤٠٠ هـ

(٢) د. عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) قراءة فى وثائق البهائية - مركز الأهرام للترجمة والنشر - الطبعة الأولى -

١٩٨٦ (*) شيراز مدينة فى الجنوب الغربى من إيران

بالرياضة الروحية المنحرفة ، فكان يقف ساعات طويلة على سطح الدار عارى الرأس في حر الظهيرة حتى ظهرت عليه أعراض اختلال الأعصاب واهتزاز العقل ، وزار النجف وكربلاء للاستشفاء ، وهناك حضر مجالس الشيخية علي إمامها كاظم الرشتي الذي قربه وخصه برعايته وتصادف وجود كنيانز الجوركي المترجم بالسفارة الروسية ، وكان يحضر مجالس الشيخية باسمه الإسلامي الشيخ عيسى النكراني فقرر أن يصطاد الشاب الشيرازي ، ويتقرب إليه ، وقد كتب ذلك الروسي بعد سقوط القيصري في مجلة الشرق السوفيتية يقول أنه في بحثه عن الزائغين في العقائد الإسلامية لضرب المسلمين من بينهم ضربة تقضي على وحدتهم ، فكان من أسهل الطرق الموصلة إلى هذا إنشاء الخلافات الدينية ونشرها وإسعاد نارها بينهم . ويقول أنه عندما رأى على محمد الشيرازي بدأ يرسخ في ذهنه أنه سيكون الشخص المطلوب .

وقال أنه كان يخاطبه : يا صاحب الأمر ، يا صاحب الزمان ، فكان في أول الأمر يترفع ويتأفف ، ولكن مالبث أن أبدى السرور والفرحة من هذه المخاطبات .

وفي حلقات كاظم الرشتي لقي على محمد الشيرازي فتاة من أتباع الشيخية اسمها زين تاج كان لها دور في دعوة البابية فيما بعد ، وكانت الفتاة فائقة الجمال والذكاء هجرت ذوبها في قزوين وجاءت إلى حلقات كاظم الرشتي الذي سماها قرة العين ، وبعد موت كاظم خلفته قرة العين في الحلقة ، وتوزع كثير من أتباعه في البلاد ، وخرج الشيرازي من كربلاء إلى بوشهر يخطب ويعظ ويعقد مجالس الذكر . ثم مضى إلى شيراز ولحق به واحد من المريدين فزين له أنه الباب الموصل إلى الإمام الغائب .

واتفقا على أن يعلن الشيرازي دعوته في الحج من مكة المكرمة . ولكن الشيرازي اختفى في بوشهر وبعد الحج زعم أن الأرض المقدسة نزلت له من السماء ، وأنه حج ، وأنه أعلن دعوته بين الركن اليماني من الكعبة وبين مقام إبراهيم .

وأعلن أنه ينتسب إلى البيت النبوي ، ثم اصطفى حواريين له ، لكن أهم الأدوار كانت من نصيب قرة العين التي زعمت بأنه إله وأن البابية نسخت الإسلام وهكذا أصبحت البابية كفرا صريحا ، حتى حكم على الشيرازي بالإعدام . وكان من قضاته من ينتسب إلى الشيخية ذاتها . وكان إعدامه في تبريز عام ١٨٥٠ بعد محاولات عديدة من القنصل الروسي والقنصل الإنجليزي في الإبقاء على حياته . وألقى بجثته في خندق خارج المدينة . وتقول روايات مؤرخين عديدين بأن الجثة سرقت ودفنت في قبر جميل على بضعة أميال من جبل الكرمل في فلسطين .

هلك الباب على محمد الشيرازي ، وجاء دور البهاء والبهائية في مدينة بدشت حيث التقى حسين علي النوري بقرّة العين فرنا إليها مأخوذاً بسحرها والتفتت إليه معجبة بوسامته وفتوته ، وخلعت عليه لقب بهاء الله . واستقر حسين بهاء الله في شيراز بينما قلّول البابيين تقتلهم الدولة

وتقضى عليهم ، وبخاصة بعد مؤامرتهم لقتل الشاه ناصر الدين شاه عام ١٨٥٢ ، وأعدم المتآمرون وكانوا نحو أربعمائة فيهم قرة العين.

وقد أتهم حسين بهاء الله بالتحريض على اغتيال الشاه ، ولكن كنياز الجوركي القنصل الروسي السابق الذي أصبح وزيرا مفوضا حماه بإبقائه في السفارة الروسية وتدخل في محاكمته حتى انتهى الأمر ببراءة البهاء حسين من تهمة التحريض على قتل الشاه ، ثم نفى إلى بغداد . وفي بغداد اشتد التنافس بين البابيين والبهائيين ، وظهر زيف الفريقين واضحا لعلماء الشيعة في بغداد والتجف وكربلاء ، واتصلوا بسفير إيران في بغداد ليعمل علي نقلهم من بغداد . وتم نقلهم بأمر الباب العالي بالدولة العثمانية إلى الآستانة . وكانت الخصومة والتنافس بين بهاء الله وأخيه صبح أزل قد بلغت أوجها ولكن رجح اليهود كفة بهاء الله وأهله . وقُتل الرحيل من بغداد ، وفي ابريل ١٨٦٣ أسر بهاء الله إلى أحيابه بأنه الموعود الذي بشر به الباب . وأرخوا سنتهم البهائية بذلك التاريخ . وخلع بهاء الله أخاه ومن معه . وفي تركيا شاعت الفوضى بين فرقهم المختلفة ، فقررت الدولة العثمانية نفيهم مع التفريق بينهم : البهائيون مع رئيسهم إلى عكا ، والبابيون مع صبح أزل إلى جزيرة قبرص . وظل بها حتى مات عام ١٩١٢ . ولكن نجمه كان قد أفل ببرز نجم أخيه ومساعدة اليهود للبهاء . وبعد عامين من الإقامة الجبرية الفقيرة في " عكا " أصبح له قصر يعيش فيه . وأطلق علي القصر اسم قصر البهجة . وفيه ألف كتاب البهائية بعنوان "الكتاب الأقدس" وهو كتاب كفرهم الصريح . ولكن الملفت للنظر ، الصلة الوثيقة بين ما ورد في الأقدس وما هو مستقر ومتصل في الخطاب اليهودي الصهيوني ، وما هو متعلق بمخطط زرع إسرائيل في فلسطين . فقد حرم حمل آلات الحرب . وبهذا النص منع البهائيون استعمال الاسلحة النارية لأي سبب . ودعا إلى لغة من اللغات يتكلم بها علي الأرض ، أي خلق لغة عالمية . وادعي الألوهية . ثم انتهى به الأمر إلى الجنون ثم إلى الموت عام ١٨٩٢ . وعمره إذ ذاك خمس وسبعون قضي أربعاً وعشرين منها في فلسطين في رعاية الصهيونية .

وجاء ابنه عباس أفندي عبد البهاء- فهو في زعمه وزعم البهائيين والده وريه -وذلك بعد إبعاد إخوته بالمكيدة والاعتقال والحرمان والطرده . وكان عباس أفندي عبد البهاء قد ولد في طهران عام ١٨٤٤ وكان في الثامنة من عمره عند اعتقال أبيه في مؤامرة اغتيال الشاه ناصر الدين ، ثم رافقه في منفاه ببغداد . ومنذ صباه وهو يسرف في تعظيم إلهه أبيه . ويعمل حارساً وحاجباً له . وادعي عباس أفندي النبوة . وساندته الصهيونية بنصوص يهودية تبشر بنبوته . وسخرته وطاقفته للأهداف الصهيونية . ومحاولة قتل روح الإسلام في نفوس المسلمين وعقولهم وقلوبهم . فعباس أفندي عبد البهاء هو الذي ابتدع لدعائه أن يقولوا بأن البهائي يكون مسلماً ويكون نصرانياً ويكون يهودياً ، وأي شيء وكل شيء في وقت واحد . وفي عصر عباس أفندي عبد البهاء انتقلت البهائية بجهود اليهودية العالمية إلى مرحلة جديدة من حياتها هي مرحلة الانتشار . ففي الشرق الإسلامي

الآسيوي كانت "الهند" في قبضة الاستعمار البريطاني . ويتواطؤ معه جعلت مركزا للمنشورات البهائية باللغات : العربية ، الفارسية ، والأردية . وطبعت كتب الكفر البهائية بتلك اللغات . أما في الغرب فقد نشطت البهائية واعتنقتها يهوديات أمريكيات وأوروبيات وتوجهن للحج إلي مقر نبي البهائية ، بجوار جبل الكرمل في فلسطين . وأسهم المستشرقون اليهود في دعم البهائية إعلاميا ، وفرضها علي تاريخ الأديان ودوائر المعارف والموسوعات .

وأعدت الصهيونية لعباس أفندي عبد البهاء رحلات إلي الهند وأمريكا وأوربا يدعوللبهائية من خلال اليهودية العالمية . وكان يقول : إننا ندعو المجتمع البهائي بجميع طبقاته أن يبادروا في السنوات القادمة عند قيام دولة إسرائيل إلي تأسيس فروع للمحافل الروحية البهائية ، الإيرانية ، والعراقية ، والأمريكية ، والأسترالية في إسرائيل .

وقد كان هذا الكلام يقوله نبي البهائية وإسرائيل ليس لها وجود ، فلم تقم الدولة الاسرائيلية إلا بعد موته (١٩٢١) بأكثر من ربع قرن .

وزار عباس أفندي مصر ولبنان . وهناك في بيروت قابل الشيخ محمد عبده ، وزعم للشيخ محمد عبده أنه يسعى إلي التقريب بين الشيعة والسنة . لكن الإمام كشف نفاقه ودعا إلي التحذير من كذبه ونفاقه .

وطاف نبي البهائية بلندن وباريس وألمانيا وسويسرا وبلجيكا وقيينا وبودابست في رحلة استمرت عامين ، ختمها في الولايات المتحدة الأمريكية ، فأقام بتشجيع اليهود محافل بهائية هناك ، ثم لما عاد توجه إلي حيفا يصلي الجمعة في مسجدنا نفاقا وزندقة . برغم أن إقامته الدائمة كانت في "عكا" .

وفي العام الأول من القرن العشرين تنبّهت الدولة العثمانية إلي تأمره فحددت إقامته في عكا ، ولكنه كان تحت الرعاية اليهودية والاستعمار البريطاني . وبعد انتصار " الانجليز " علي الدولة العثمانية منحت الحكومة الإنجليزية عباس أفندي عبد البهاء وسام "فرسان الإمبراطورية " عام ١٩٢٠ . وهلك بعد ذلك في نوفمبر ١٩٢١ وليس له من ولد سوى أربع بنات . كبراهن ولدت شوقي . فعهد عبد البهاء إلي حفيده من ابنته الكبرى بالخلافة وعمره إذ ذاك أربعة وعشرون عاما .

والتحق هذا الحفيد بكلية بيروت الأمريكية ثم التحق في بريطانيا بجامعة "أكسفورد" ، وتزوج الأمريكية "ماكسويل" التي سمت نفسها "روحية" عام ١٩٣٦ ، ثم مات عام ١٩٥٧ ، في لندن ، ودفن بها . ولم ينجب شوقي ولدا ولا بنتا . وآل أمر البهائية إلي مجلس من تسعة أعضاء يدير أمورها .

وكانت قد أدت دورها في محاولة تخريب عقول المسلمين ، وقتل الروح الاسلامية ، وتهميد السبيل لإقامة دولة إسرائيل في فلسطين . لقد إستشري وباء المحافل البهائية في البلدان الاسلامية ، والعربية علي وجه الخصوص . وكان البهائيون أكثر كثافة في إيران أيام الشاه الأخير . وفي وثائق

البهائية ما أذاعته وكالات الأنباء من طهران في شهر مايو ١٩٥٥ عن ضغط المسلمين علي حكومة الشاه لحسم شر البهائيين ، الذين كتموا بهائيتهم حتي هيمنوا علي الحكومة والجيش والمصارف والجامعات ، وتأهبوا لإقامة حكم بهائي بالقوة . وصدر قرار رسمي باعتبار هذه الطائفة المتآمرة علي نظام الدولة غير قانونية ، وفي صباح ٢٣ مايو ١٩٥٥ هدمت السلطات الإيرانية محفلهم المركزي في طهران ، وتم احتلال كافة المحافل الفرعية في أنحاء إيران . ثم صدر فرمان بمصادرة أموالهم في ٥ يونيه ١٩٥٥ ، ولكن السلطات اكتشفت أنهم سحبوا أموالهم من المصارف الايرانية وأودعوها في البنك السوفيتي الإيراني قبل أيام من صدور قرار مصادرتها .

وفي مصر صدر القانون ٢٦٣ لسنة ١٩٦٠ بحظر وتجريم نشاط البهائية في البلاد ، كما أن عددا من البلدان العربية والاسلامية فعلت ذلك ، وفي فبراير ١٩٧٩ صدر قرار من جامعة الدول العربية بمقاطعة المؤسسات البهائية وإدراجها في القائمة المعلنه لمن تحظر الجامعة العربية تعامل دولها معهم .

وبرغم ذلك فإن نشاطهم العلني ظل في البلدان التي لم تحظر هذا النشاط . كما أنهم في كل مرة يُحظر نشاطهم يقيمون مآتماً صاخبا في دوائر الأمم المتحدة ، وحقوق الإنسان ، وكذلك يستمر نشاطهم السري . كما يبشون بعض معتقداتهم في صور جديدة ، أو بمعنى أدق يدسونها كما يدس السم فيما يقدم للمجتمعات الاسلامية من معرفة أو ثقافة دينية .

والدليل علي إستمرار نشاطهم السري ما ضبط وأعلن من خلاياهم في مصر برغم كثافة الجهود الأمنية في مصر ، في هذا الجانب علي وجه الخصوص ، الذي يس أمن الدولة ، ويتصل بحماية نظام الحكم . وقدمت طوائف بهائية للمحاكمة ، بعد تجريم نشاطها .

كما ناورشت طوائف منهم النشاط الاجتماعي والاداري والحكومي في مصر بمحاولة تسجيل الديانة البهائية في بطاقتهم الشخصية والعائلية ، أو تسجيل عقود زواجهم البهائي في الشهر العقاري ، وغير ذلك مما شهدته المحاكم المصرية خلال عقود متتالية فيما بين عام ١٩٤٠ حتي عام ١٩٨٥ حيث أُلقي القبض علي الرسام الصحفي " بيكار " زعيم الخلية البهائية ونائب الرئيس للمحفل الروحاني المركزي بمصر والسودان وأفريقية ، وقال في التحقيق الذي نشرته جريدة الأهرام في عددها الصادر أول مارس ١٩٨٥ : " إن البهائية وهي ديانة عالمية ، طبقت في مصر منذ مائة سنة ، حيث كان يوجد مجمع بهائي مسجل في المحاكم المختلطة ومقره بالعباسية (حي من أحياء القاهرة) إلي أن صدر قانون ١٩٦٠ بحظر المحافل البهائية ومصادرة أملاكها ووقف نشاطها ، فكان لابد لأعضاء المحفل أن يعقدوا إجتماعاتهم ، فحولوها إلي زيارات بينهم كأصحاب عقيدة واحدة ، وكان طبيعيا أن نتزوج من بعضنا ، وكنا نقرأ المناجاة الخاصة بالبهائية ، وهي الأدعية التي نزلها حضرة بهاء الله ، والكتاب الأقدس وفيه تجمعت الأحكام البهائية ، وهي منزلة علي حضرته من الله تعالى.. " .

انتهت قضية الرسام بىكار بحكم البراءة . ولكن الباحث في الإعلام أو الأديان أو الظواهر الاجتماعية يستطيع شرح الرسوم الأسبوعية البارزة وتفسيرها التي يرسمها بىكار في أكبر صحيفة مصرية توزيعاً ، وهي " أخبار اليوم " ، وتشغل مساحة كبيرة وبارزة ، ومعها زجل يدور بطريق غير مباشر حول المعتقدات البهائية .

أما المدسوسات البهائية فيما يقدم للمجتمعات الاسلامية فأوضح مثل لها ما شاع في العقد السابع من هذا القرن العشرين الميلادي من فتنة الرقم ١٩ . وهو إدعاء بعض الكتاب بأن سر العدد تسعة عشر يظهر إحصائياً في القرآن الكريم ، بما يؤكد إعجاز القرآن الكريم . وقولهم بأن حروف البسملة تسعة عشر حرفاً . وقول بعضهم بأن لفظ الجلالة (الله) يتكرر في القرآن ٢٦٩٨ مرة أي حاصل ضرب ١٩ X ١٤٢ ومثل ذلك من تكرارات عديدة .

وكشفت الدكتورة عائشة عبد الرحمن هذا الزيف العددي فذكرت أن لفظ الجلالة (الله) عدده الصحيح في القرآن الكريم ٢٦٩٧ وعقبت بقولها اختل "الكيبوتر" ولم يختل نظام القرآن .

كما كشفت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (١) المدسوس البهائي في سر الرقم ١٩ ، فزكاة البهائية تسعة عشر مثقالاً من الذهب عن كل مئة ، كل سنة . وعدة شهور السنة عند البهائيين ١٩ شهراً ، وأيام الشهر عندهم ١٩ يوماً . وبذلك فإن السنة البهائية ٣٦١ يوماً وبقية الأيام الأربعة هي أيام اللهو والفرح والانتباط ، "عيد النيروز" . وغير ذلك كثير من ذكر العدد ١٩ في الكفر البهائي بصفة عامة .

الاستشراق Orientalism

يُطلق مصطلح الاستشراق في لغتنا العربية علي مفهوم orientalism في اللغة الإنجليزية . وفي الغرب يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمي بصدور قرار من مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢ م بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في اللغات: العربية ، واليونانية ، والعبرية ، والسيرانية في جامعات باريس ، واكسفورد وبولونيا ، وأفينيون، وسلامنكا(٢) . ويستعرض الدكتور عدنان محمد وازن في كتابه الاستشراق والمستشرقون (٣) الآراء الواردة حول نشأة الاستشراق ؛ فيري أن تحديد بداية الاستشراق محل جدل وخلاف بين المؤرخين .

(١) عائشة عبد الرحمن ، المرجع السابق، ص ٢٢٥

(٢) إدوارد سعيد -الاستشراق: المعرفة، السلطة، الانتشار - (ترجمة كمال أبو ديب) الطبعة الثانية -مؤسسة الأبحاث العربية -بيروت-١٩٨٤ ص ٨٠

(٣) عدنان محمد وازن- الاستشراق والمستشرقون. (وجهة نظر) -رابطة العالم الاسلامي - مكة المكرمة - غير مبين تاريخ النشر ص ١٧ الى ص ١٩

فبعضهم يري أن ظهور الدراسات الإستشراقية يعود إلي تاريخ دخول المسلمين أسبانيا ، وجنوب إيطاليا ، وصقلية ، في العصور الوسطي . وهذا الأمر لفت أنظار أهل تلك البلاد إلي أحوال المسلمين ، وإلي الحركة الإسلامية ، فعكفوا علي دراسة المسلمين ، وتاريخ الدعوة الاسلامية ، وأهدافها .

بينما يري فريق آخر من الباحثين أن الدراسات الإستشراقية بدأت في القرن الثالث عشر الميلادي .

ويرجعها آخرون إلي القرن العاشر الميلادي . ومن المؤرخين من يري أن الدراسات الإستشراقية بدأت في أعقاب الحروب الصليبية . وهناك من يعتبر أن الحملة الفرنسية علي مصر عام ١٧٩٨ هي البداية الحقيقية للإستشراق . وهناك من يقول أن الإستشراق بدأ بصفة جدية بعد فترة عهد الإصلاح الديني ، في أوروبا ، أي في نهاية القرن السادس عشر الميلادي وبداية القرن السابع عشر ، ذلك أن النواة الأولى للدراسات الاستشراقية التي كانت قد بدأت في عصور وقرون سابقة ، لم تسمح لها الظروف بالظهور والعمل بصورة موجبة ومنظمة إلا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . في حين يذهب أحد المستشرقين وهو "يوهان فول " إلي القول بأن الاستشراق إنما ارتبط بالحروب الصليبية ، وأن المستشرقين الأوائل كانوا يرون في عملهم أنه نوع من الجهاد ضد الإسلام

ويربط بعض الباحثين العرب بين حركة الاستعمار الحديث و نشاط الاستشراق ربطا منطقيا . فيذكرون أن أوروبا والغرب عموما عندما بدأ يتطلع إلي استعمار الشرق ، أدي الاستشراق دورا حيويا في ذلك الصدد . وعندما أرادت الدول الغربية عقد صلات سياسية واقتصادية بدول الغرب استعانت بالمستشرقين . وأحسن ملوك أوروبا إلي المستشرقين ، وضمومهم إلي بلاطهم كأمناء أسرار ومترجمين وانتدبهم للعمل في الجيوش والبعثات القنصلية إلي بلدان الشرق . وتم إنشاء كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الغربية الكبرى . ويذهب معظم الباحثين المسلمين إلي تصنيف المستشرقين إلي نوعين رئيسيين:

النوع الأول هم الفئة التي درست الإسلام دراسة هدفها النيل من المسلمين والحضارة الإسلامية وكتاباتهم مملوءة بالحقد والتحاميل علي الإسلام والمسلمين . والنوع الثاني من المستشرقين هم الفئة التي توصف بالاعتدال . والنقاد للاستشراق يرون أن المتعصبين من المستشرقين ليست لدراساتهم قيمة علمية صحيحة . أما المنصفون من المستشرقين فإنهم ينقسمون إلي قسمين: الأول جماعة إشتهروا بالانصاف في الأوساط العلمية ، وأظهروا أنهم أقبلوا علي الاستشراق بدافع من حب الإطلاع علي حضارات الأمم وأديانها وثقافتها ولغاتها ، وأنهم متحررون تماما في بحوثهم من أثر العواطف الدينية، فكتبوا عن الإسلام وأظهروه في ثوب نظيف علي جسد متسخ فهم من منافقي المستشرقين . والثاني جماعة لهم أهداف علمية خالصة لا يقصد منها إلا البحث والتحصيل ودراسة

تجلبو لهم بعض الحقائق الخافية عنهم وهذا الصنف قليل جدا .
لقد كانت غالبية المستشرقين في بداية ظهور الدراسات الاستشراقية (١) من الرهبان والقسس والمبشرين . وكان بعضهم من الذين اهتموا بدراسة اللاهوت .
والاستشراق جزء مكمل للحضارة الغربية وللإستعمار . وقد يبدو الاستشراق وكأنه اتجاه أكاديمي يعمد إلي دراسة الشرق وحضارته عموما ، وإلي دراسة الحضارة الإسلامية والإسلام خصوصا . ولكنه في حقيقته جزء من الحروب الصليبية الحديثة التي أخذت صيغة جديدة بأن صارت حربا فكرية بدلا من الحرب العسكرية .
والدكتور مصطفى السباعي في كتابه السنة ومكانتها من التشريع الإسلامي يحلل الصفات الرئيسية للمستشرقين فيما يلي :

* سوء الظن وسوء الفهم لما يتصل بالإسلام وأهدافه و مقاصده .
* وسوء الظن بعلومهم .
* تصوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصور ، وبخاصة العصر الأول ، بصورة الأنانية والتفكك بين قاداته .

* التهمين من شأن الحضارة الإسلامية ، واحتقار آثارها ومساهماتها الانسانية .
* إخضاع النصوص الإسلامية للفكرة الاستشراقية وفق أهواء المستشرقين ، وتحريف النصوص في بعض الأحيان تحريفا مقصودا لخلق جو من الشك واللبلة حولها .
* الخلط في تقييم المصادر التي ينقلون عنها ، فهم ينقلون مثلا عن كتب الأدب ما يحكمون به علي الأحاديث النبوية ، وينقلون من كتب التاريخ ما يحكمون به علي التشريع والفقه . فنري بعض المستشرقين يُعرضُ عن النصوص الثابتة ليأتي بنصوص ملفقة من ألف ليلة وليلة ، وكتاب الأغاني وكتاب الحيوان للدميري ، وما شابه ذلك .
يقول الدكتور إدوارد سعيد إن (٢) الشرق جزء تكاملي من حضارة أوروبا وثقافتها الماديتين . ويُعبّرُ الاستشراق عن ذلك الجزء ، ويمثله ثقافيا ، بل حتي عقائديا ، من حيث هو الاستشراق نُهَج من الإنشاء الكتابي ، له ما يعززه من المؤسسات والمفردات ، وتراث البحث ، والصور والمعتقدات المذهبية ، وحتى الأجهزة الإدارية الاستعمارية والأساليب الاستعمارية . والفهم الأمريكي للشرق يبدو أقل كثافة بكثير . ولكن الدور السياسي والإقتصادي الأمريكي المتنامي تناميا هائلا في الشرق الأوسط يفرض علي الفهم الأمريكي للشرق مطالب كثيرة .

(١) عدنان محمد وازن- الاستشراق والمستشرقون "وجهة نظر" المرجع السابق.

(٢) د. إدوارد سعيد -الاستشراق : المعرفة. السلطة. الإنشاء- (ترجمة كمال أبو ديب) الطبعة الثانية -مؤسسة الأبحاث العربية- بيروت -١٩٨٤ ص٣٧؛ ص٣٨؛ ص٣٩ ثم ص٧٢

ويعني الاستشراق عددا من الأشياء متبادلة الاعتماد ، فهناك الدلالة الأكاديمية ، ففي الجامعات الغربية من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه ، سواء كان في علم الاجتماع أو فقه اللغة فهو مستشرق . ولكن الاستشراق - في رأي إدوارد سعيد - أسلوب من الفكر قائم علي تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب . ومنذ أواخر القرن الثامن عشر فإن الإستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق . التعامل معه بإصدار تقارير حوله ؛ وإجازة الآراء فيه وإقرارها ، ووصفه ، وتدرسه ، والاستقرار فيه ، وحكمه . وبإيجاز الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة علي الشرق ، وامتلاك السيادة عليه » .

وكانت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الإستشراق وفي مضمونه مواكبة لمرحلة التوسع الأوروبي الاستعماري . فمن عام ١٨١٥ إلى عام ١٩١٤ اتسع مجال السيطرة الأوروبية الإستعمارية المباشرة من حوالي ٣٥٪ من سطح الأرض إلى حوالي ٨٥٪ منه .

ويحلل الدكتور إدوارد سعيد (١) منطق الاستعمار المتولد عن فهم الشرق ومعرفته ومن ثم التفوق عليه من خلال خطاب ألقاه "بلفور" في مجلس العموم البريطاني حول المشكلات التي ينبغي علينا (الإنجليز) أن نعالجها في مصر في ١٣ يونيو ١٩١٠ . فيقول "بلفور" : "قبل كل شيء ، أنظر إلي حقائق القضية . إن الأمم الغربية فور إنشائها في التاريخ تظهر تباهير القدرة علي حكم الذات . لأنها تمتلك مزايا خاصة بها . ويمكنك أن تنظر إلي تاريخ الشرقيين بأكمله فيما يسمى بشكل عام المشرق ، دون أن تجد أثرا لحكم الذات علي الإطلاق . كل القرون العظيمة التي مرت علي الشرقيين - ولقد كانت عظيمة جدا - انقضت في ظل الطغيان ، ظل الحكم المطلق . وكل إسهاماتهم العظيمة في الحضارة الإنسانية - ولقد كانت عظيمة - أُنجزت في ظل هذا النمط من الحكم . فقد خلف فاتح فاتحا ، وتلت سيطرة سيطرة ، غير أنك في دورات القدر والمصير كلها لا تري أمة واحدة من هذه الأمم تؤسس بدافع من حركتها الذاتية ما نسميه نحن ، من وجهة نظر غربية ، حكم الذات . هذه هي الحقيقة . ثم يضيف "بلفور" قائلا : "أهو خير لهذه الأمم العظيمة - وأنا أعترف بعظمتها- أن نقوم نحن بممارسة هذا النمط من الحكم المطلق ؟ في ظني أن ذلك خير . وفي ظني أيضا أن التجربة تظهر أنهم في ظل هذا النمط عرفوا حكومة أفضل بمراحل مما عرفوه خلال تاريخ عالمهم الطويل كله ؛ وأنها ليست مصدر نفع لهم فقط ، بل هي دون شك مصدر نفع للغرب المتحضر بأكمله . نحن في مصر لسنا من أجل المصريين فحسب ، مع أننا فيها من أجلهم ، نحن هناك أيضا من أجل أوروبا كلها "

هذه المقتطفات من خطاب "بلفور" في مجلس العموم البريطاني عام ١٩١٠ وقف أمامها طويلا الدكتور إدوارد سعيد فبين أهم ملاحظتين وهما : المعرفة والقوة . "بلفور" يبرر ضرورة

(١) المرجع السابق ، ص ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ .

الإحتلال لمصر بالتفوق بمعرفة الإنجليز لمصر ، المعرفة التي تعني المسح الشامل لتاريخها وأحوالها ، المسح الكامل لحضارة من أصولها الأولى إلى ذروتها ، ثم إنحطاطها ، وتعني امتلاك القدرة على القيام بهذا المسح .

وفي نهاية المطاف يقرينا د . إدوارد سعيد من كُباب المعرفة الأساسية التي تشرح العلاقة العضوية بين الإستشراق والإستعمار . تلك المعرفة التي ردها إلي نوعيها : الجامعي ، والعلمي والتي ورثها "بلفور" و"كرومر" عن قرن من الإستشراق الغربي الحديث . معرفة حول الشرقيين ، بعرقهم وخصائصهم ، وثقافتهم ، وتاريخهم ، وتقاليدهم ، ومجتمعاتهم ، وإمكانياتهم . وكانت هذه المعرفة فعالة . وقد آمن "كرومر" بأنه وضعها موضع التنفيذ في حكمه لمصر . وإضافة إلى ذلك ، فقد كانت معرفة موثقة بالامتحان ، وغير قابلة للتغيير ، مادام "الشرقيون" ، عمليا ، جوهرأ أفلاطونيا (جوهرأ ثابتا) * يستطيع أي مستشرق ، أو أي حاكم للشرق ، أن يتفحصه ، ويفهمه ، ويعرضه ، وهكذا ، ففي الفصل الرابع والثلاثين من كتاب "كرومر" ذي المجلدين "مصر الحديثة" وهو السجل الجليل لتجربته وإنجازاته ، يثبت ما يمثل شرعا شخصا للحكمة الاستشراقية حيث يقول "كرومر" :

قال لي "سير ألفرد لاتل" مرة : إن الدقة كريمة بالنسبة للعقل الشرقي ، وعلي كل إنسان أنجلو هندي أن يتذكر هذا المبدأ الأساسي . والإفتقار إلى الدقة ، الذي يتحلل بسهولة ليصبح انعداما للحقيقة ، هو في الواقع الخصلة الرئيسية للعقل الشرقي . الأوروبي ذو محاكمة عقلية دقيقة ، وتقريره للحقائق خال من أي التباس ، وهو منطقي مطبوع ، رغم أنه لا يكون قد درس المنطق ، وهو بطبيعته شاك ويتطلب البرهان قبل أن يستطيع قبول حقيقة أي مقولة ، ويعمل ذكاؤه المدرب مثل آلة ميكانيكية . أما عقل الشرقي فهو علي التقيض ، مثل شوارع مدته الجميلة صوريا ، يفتقر بشكل بارز إلى التناظر . ومحاكمته العقلية من طبيعة مهلهلة إلى أقصى درجة . برغم أن العرب القدماء قد اكتسبوا بدرجة أعلى نسبي ، علم الجدلية (الديالكتيك) فإن أحفادهم يعانون بشكل لامثيل له من ضعف ملكة المنطق ، وغالبا ما يعجزون عن إستخراج أكثر الإستنتاجات وضوحا من أبسط المقدمات التي قد يعترفون بصحتها بدءا . خذ علي عاتقك أن تحصل علي تقرير صريح للحقائق من مصري عادي ، فسيكون إيضاحه بشكل عام مسهيا ، ومفتقرا للسلامة ، ومن المحتمل أن يناقض نفسه بضع مرات قبل أن ينهي قصته ، وهو غالبا ما ينهار أمام أكثر عمليات التحقيق لينا^١

وهكذا يظهر الشرقيون والعرب سُدجا غافلين ، محرومين من الحيوية والقدرة علي المبادرة ، مجبولين علي حب "الإطراء الباذخ" والدسيسة^٢ ، والقسوة علي الحيوانات ، المكر ، والكسل ، وسوء

* الجوهر في الفلسفة الأفلاطونية هو طبيعة الشيء الباطنة التي تحتل عليها أعراض الشيء فالجوهر الحامل لأعراض الشيء المتغيرة

الظن ، والفوضى. وهم في كل شيء علي طرف نقيض من العرق الأنجلو - ساكسوني في وضوحه ، ومباشرة ونبله .

ولا يحاول "كرومر" إطلاقاً أن يُخفي حقيقة كون الشرقيين بالنسبة له، دائماً وحسراً ، المادة الإنسانية التي قام بحكمها في المستعمرات البريطانية . و"كرومر" يصرح مباشرة بأن الشرقي بوجه أو بآخر، وبشكل عام ، يتصرف ، ويتحدث، ويفكر بطريقة هي النقيض المطلق لطريقة الأوروبي . ويعلق الدكتور "إدوارد سعيد " علي ذلك بقوله ليس لدي "كرومر" من شك في أن أي معرفة بالشرق ستؤكد سلامة آرائه التي تعتبر الشرقي ، كما يتضح من وصفه لإنهيار المصري أمام التحقيق ، مذنباً . وكانت جريمة الشرقي ، أنه شرقي (١).

ويقول الدكتور محمد عبود (٢) "إن الاستشراق ظاهرة معقدة بالنسبة للدارس ، نظراً للتغيرات المختلفة، ولا سيما تلك التي حدثت إبان القرنين التاسع عشر والعشرين. حيث بلغت هذه الظاهرة أعلي مراحل تطورها . وبوسعنا أن نرجع سمة التعقيد تلك إلي عدة أسباب، مثل تزايد عدد التقاليد الوطنية التي أسهمت في عملية الاستشراق (كالبريطانية والفرنسية والألمانية والإيطالية). والبعد المتنوع المتعدد لهذه التقاليد وما تدخل في صنع هذه التقاليد من علوم مختلفة . أو مختلف القوي الاجتماعية والسياسية، والعديد من التيارات الفكرية التي مارست ضغوطاً خارجية علي أبرز المستشرقين ، عبر فترات زمنية مختلفة . وكذلك تنوعت أساليب المعالجة (الداخل) وطرقها التي طبقها الدارسون المستشرقون علي الدراسات الإسلامية من حيث الزمان والمكان،" و يسوق الدكتور محمد عبود مثالا في الدراسات الاستشراقية يمثل في واقع الأمر نموذجاً للتناقض بين الرؤية الإسلامية، أو بمعنى أدق رؤية المسلم في الإيمان بالله و الرسل السابقين، و بين الرؤية الاستشراقية - يهودية أو مسيحية أو إلهادية للإسلام بإنكار أنه رسالة سماوية . فيقول بأن أثر الأديان والأفكار والحضارات المختلفة وغير ذلك علي الاسلام موضوعاً مألوفاً في مؤلفات المستشرقين الغربيين . وهناك يبرز مدي الاختلاف في المنظور . فإن ما قيل عن تأثيرات علي الإسلام ليس موضع اختلاف، وإنما طبيعته ، هي التي موضع اختلاف . فالإسلام كما يراه المسلمون هو ذروة ما وصلت إليه رسالة التوحيد الموحى به إلي البشرية، من خلال الأنبياء عبر العصور ، وفق سياق كل فترة من الفترات . إلي أن أرسل في النهاية خاتم الأنبياء محمد صلي الله عليه وسلم . ومن ثم نجد أن جوهر رسالتهم ينبع من المصدر نفسه ، علي الرغم من تنوع تعليماتهم ولغاتهم وكتبهم ، والطرق التي إتخذوها لتحقيق تلك الرسالة . والإسلام يتطابق مع رسالات الأنبياء الكتابيين ، ويشاركهم في محاولة رفع مستوي الإنسان روحياً باعتباره إنساناً .

(١) إدوارد سعيد - الاستشراق - مرجع سابق - ص ٧٠

(٢) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الجزء الأول - مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض - ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م ص ٣٤٥ إلى ص ٢٥٣

فالمسلمون لا ينكرون الصلة بين دينهم وبين سائر الأديان ؛ والثقافات ، ولكنهم يختلفون مع المستشرقين إزاء طبيعة هذه الصلة . فمن السمات الشائعة في الدراسات الاستشراقية الميل إلى دراسة الإسلام باعتباره إفرازا لحضارات ليست إسلامية . وبعضهم يجرده الإسلام من أية سمات إبداعية أو أصلية . وذلك بطبيعة الحال لا ينفي وجود كتابات استشراقية قليلة تسلم للعرب ببعض التجديدات ، ومثال ذلك ما كتبه "جورج سارتون" من جامعة "هارفارد" بأن التجديدات العربية للرياضيات الجديدة ، وعلم المثلثات الجديد ، تقوم أساسا على مصادر "سانسكريتية" و "إغريقية" ، ولكن ذلك - على حد قوله - لا يقلل من شأن إبداع العرب في الحالتين السابقتين ، لأن علماء الرياضة العرب لم يستنسخوا من المصادر الإغريقية والسانسكربتية ، صورة طبق الأصل . ولكنهم جمعوا بين الحضارتين وطعموا الأفكار الإغريقية بالأفكار الهندية . ويتساءل "سارتون" إن لم تكن هذه الإنجازات ابتكارات فليس ثمة ابتكارات في العلم إذن؟! إن الابتكار العلمي في الحقيقة ما هو إلا نسيج موحد من خيوط متفرقة ، ويربط عقد جديدة . فليس ثمة إختراعات تظهر من عدم .

ويورد الدكتور البنداق (١) نبذة عن ترجمات القرآن الكريم فيقول بأن "جهود المستشرقين والمستعربين انحصرت بوجه خاص في درس القرآن الكريم ، وباهتمامهم بترجمة هذا الكتاب العظيم من لغته الأصلية أو فيما بعد ، من ترجمته ، إلى سائر اللغات الأوروبية والأمريكية . وتُجمع المراجع العديدة التي أمكن للدكتور البنداق الاطلاع عليها والتي عالجت هذا الموضوع ، تُجمع على ما يأتي :

١. أول ترجمة للقرآن الكريم باللغات الأوروبية كانت باللاتينية ، وقد تمت بإيعاز وإشراف رئيس دير "كلوني" Clugny بجنوب فرنسا ، الراهب بطرس المجل Pierre Venerable وكان ذلك سنة ١١٤٣ م . وعلي يد راهب إنجليزي يدعى روبرت Robert ، وراهب الماني يدعى هرمان Her-man .

٢. جابهت الدوائر الدينية المسيحية هذه الترجمة بإتخاذها من مخطوطتها موقفاً حازماً ، وهو منعها من الظهور بعد أن اعتبرتها هذه الدوائر - عاملا مهما من شأنه أن يُسهّل التعريف بالإسلام ، وانتشار هذا الدين بدلا من أن تخدم الهدف الذي سعت إليه الكنيسة أصلا وهو محاربة الإسلام .

٣- ظلت الترجمة المذكورة ضمن محفوظات الدير ، ولم تصدر إلا في سنة ١٥٤٣م أي بعد مئات من السنين على وضعها ، حتى قيض لها الظهور في مدينة بال Bale (بسويسرا) على يد الطابع "ثيودور ببلياندر" Théodore Biblinader . ويعد أن تم طبعها ، اعتمدت لمدة طويلة أساسا للترجمات إلى عدد من اللغات الأوروبية .

(١) محمد صالح البنداق - المستشرقون وترجمة القرآن الكريم - الطبعة الثانية - منشورات دار الأفاق الجديدة - بيروت ١٩٨٣. ص ٩٥

٤- تقول المصادر التي بين يدي الدكتور البنداق أنه بعد صدور طبعة من هذه الترجمة، على يد العالم الإيطالي باغانيني Paganini ، أمر البابا بولس الثالث باتلافها ولم تسمح الكنيسة بطبع ترجمة القرآن الكريم باللاتينية إلا في عهد البابا ألكسندر السابع (١٥٥٥ - ١٥٦٧).

٥- بعد ذلك أخذت الترجمات تتوالى بالعديد من اللغات، ومنها العبرية، التي وضعها حاخام جزيرة زانتي Zante يعقوب بن اسرائيل عام ١٦٣٤ نقلا عن الترجمة اللاتينية.

هذا بطبيعة الحال غير ترجمات المسلمين غير العرب كالفرس والأتراك والباكستانيين والماليزيين والأندونيسيين وغيرهم."

وقد اكتشف الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة (عام ١٩٦٩) وكان يعمل خبيراً في الشؤون المعنوية بالجيش المصري، أن أحد الخبراء الروس للشؤون المعنوية يعد بحثاً عن الروح القتالية في القرآن ، كما يفهمها جند مصر. وعندما سأله الدكتور عبد الحليم عن الموضوع رد الضابط الروسي بأنه يجري بحثاً للدكتوراه في جامعة موسكو، برغم أن وظيفته في الجيش، وأن مهمته في الجيش المصري كانت إلقاء محاضرات عن الأبطال الروس في الحروب.

ويفرق الدكتور "إدوارد سعيد" بين الإستشراق الكامن ذلك الإستشراق المتمثل في الصورة التراكمية غير الواعية والتي تشبه جسدا من الأفكار والمعتقدات والشعائر اللغوية حول الشرق، وبين الإستشراق الظاهر المتمثل في الدراسات التاريخية حول الشرق والدراسات اللغوية والآداب وما إلى ذلك. ويرى أن الاستشراق الكامن في صورة ثابتة، لا تكاد تتغير. ويمكن تخصيص الفروق في الاستشراق الكامن بين أفكار مستشرق وآخر، وهي فروق في الشكل والأسلوب الشخصي، ونادراً ما كانت فروقا في المضمون (١).

وفي أواخر القرن التاسع عشر، ومنذ المؤتمر الأول للاستشراق عام ١٨٧٣، عرف الباحثون في هذا الحقل أعمال بعضهم البعض بصورة شديدة المباشرة . ومن جانب آخر أصبح معظم المستشرقين البارزين مشهودين إلى بعضهم سياسياً. وتولى البارزون منهم مناصب ترتبط بأعمالهم الإستشراقية. فقد انتقل "سنول هير غرونج" مباشرة من دراسته للإسلام ليشغل منصب مستشار الحكومة الهولندية في الشؤون الإدارية لمستعمراته الأندونيسية المسلمة. كما كان ماكdonالد وماسينيون يستشاران على صعيد واسع من الإدارات الاستعمارية الأوروبية باعتبارهما خبيرين في القضايا الإسلامية ، من شمال أفريقيا إلى باكستان . (٢)

وفي أوائل القرن العشرين نجد صورة الاستشراق في الثقافة الأوروبية استطرادا ، وتواترا لما

(١) إدوارد سعيد - الإستشراق - مرجع سابق ص ٢١٦ ، ٢١٧

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٠ . ص ٢٢١

كان فى القرن التاسع عشر ، وورثت الثقافة الأمريكية هذه الصورة ، كما ورثت الولايات المتحدة الأمريكية النفوذ البريطانى الفرنسى والأوروبى بصفة عامة فى الشرق . وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية . وبسبب الصراع العربى الإسرائيلى قبيل النصف الثانى من القرن العشرين أصبح المسلم العربى شخصية فى الثقافة الشعبية الأمريكية . وأصبح الاستشراق الأمريكى أكثر تخصصا وتشابكا وأكثر تحيزا ضد الاسلام وضد العرب .

يقول الدكتور إدوارد سعيد (١) فى الأفلام والتلفاز يربط العربى ، إما بالفسق أو بالغدر والحديعة المتعطشة للدم ، ويظهر منحلا ، ذا طاقة جنسية مفرطة ، قديرا دون شك على المكيدة الباردة المراوغة ، لكنه جوهر ، سادى ، خؤون ، منحط ، تاجر رقيق ، راكب جمال ، صراف ، وغد ، متعدد الضلال ، هذه بعض الأدوار التقليدية للعربى فى السينما . وفى أشرطة الأخبار يظهر العرب دائما بأعداد ضخمة . لا فردية ، لا خصائص أو تجارب شخصية . وتقتل معظم الصور الهيجان والبؤس الجماعى ، والإشارات والحركات اللاعقلانية والشاذة . وخلف هذه الصور جميعا يترص خطر الجهاد المهدد . والعاقبة هى الخوف من أن المسلمين أو العرب سوف يحتلون العالم .

وتنشر الكتب والمقالات بانتظام عن الاسلام والعرب ، دون أن تمثل تغيرا إطلاقا ، بالقياس إلى الكتابات التى سادت القرون الوسطى وعصر النهضة ضد الإسلام والعرب . حتى إن دليل المقررات الدراسية لعام ١٩٧٥ فى كلية كولومبيا عن برنامج اللغة العربية يزعم إن كل لفظ من لفظين فى اللغة العربية له علاقة ما بالعنف .. !

وأن العقل العربى كما ينعكس فى اللغة تَبْجُحى دون انقطاع . وكتاب عن الإسلام يقول : بدأ الدين الإسلامى ، المسمى الإسلام ، فى القرن السابع . وقد بدأه رجل أعمال ثرى من شبه الجزيرة العربية يدعى محمد . وقد ادعى أنه نبي ووجد أتباعا بين العرب الآخرين . وأخبرهم بأنهم اختيروا ليحكموا العالم . ثم تتلو هذه التفتة من المعرفة نتفة أخرى مثلها ، تقول : بعد موت محمد بقليل ، سجلت تعاليمه فى كتاب يدعى القرآن . وصار الكتاب المقدس للإسلام .

ويعلق الدكتور إدوارد سعيد قائلا : هذه الأفكار تلقى الدعم ، لا النقض ، من قبل الجامعى الأمريكى الذى هو متخصص فى دراسة الشرق العربى .. !

والإسهام الأمريكى فى تاريخ الاستشراق هو أن المستشرق لم يعد دارسا للغة ، وإنما باحث اجتماعى يطبق علمه على الشرق . لكن المستشرق الجديد ، على أية حال ، ورث مواقف العدائية الثقافية واحتفظ بها .

وخلاصة القول فى خطورة الاستشراق باعتباره وسيلة للغزو الثقافى أن هذا التراث المعادى

(١) المرجع السابق ص ٢٨٧

للثقافة العربية الاسلامية تسلسل إلى عقول رواد التغريب في الوطن العربي وأرواحهم وأصبحوا هم بتعديلات طفيفة ، وتلفيقات كثيفة ، تجار التجزئة لمخزون هائل من الإنتاج الفكرى المعادى للإسلام وللعربى باعتباره إنساناً وآدمياً .

إستمرار حوكمت التحريف والتشويه للإسلام :

في سلسلة الحركات التى تظهر بين الحين والآخر مُحَرَّفَةً للإسلام ومشوهة له ، مثل البهائية والبابية والقاديانية وغير ذلك ، ظهرت في القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية حركة من هذا القبيل اعتمدت على مشاعر الزواج في مجتمع تشويه شوائب التفرقة العنصرية حادة أحياناً ، وغير حادة في أحيان أخرى .

كانت البداية عام ١٩١٣ على يد أحد الأمريكيين السود من ولاية نورث كارولينا (١) ، وكان يطلق على نفسه اسم النبيل على إلا أنه لم يعرف حتى الآن اسمه الحقيقى ، قبل أن يبدأ دعوته ، بدأ " على " هذا دعوته على نطاق ضيق ، حيث تركزت على جماعات صغيرة من السود الأمريكيين لاقتناعهم بضرورة إقامة نواة مجتمع داخل أمريكا ، على غرار مجتمع العرب المسلمين في الأندلس داخل أوروبا في العصور الوسطى .

في أعقاب وفاته ، انقسم أتباعه على بعضهم البعض ، حيث شكل كل منهم جماعة جديدة صغيرة ، ولم يستغرق الأمر عدة أسابيع بعد وفاة النبيل ، حتى ظهر فجأة في شهر يوليو عام ١٩٣٠ شخص غامض في مدينة ديترويت لم يعرف سوى باسم فارض وكان يعمل بانعاً جانلاً للحرير ، وقد ادعى هذا الفارض أنه قادم من مدينة مكة المكرمة حيث كان يعيش بها من قبل . وأدت ملامحة الشرقية إلى تصديق العديد من الناس له ، وسرعان ما نجح الرجل في ترسيخ فكرة كونه رسولا من الله لنشر الحرية والعدالة والمساواة لإخوانه السود في أمريكا الشمالية . ولكن الأمر لم يقتصر على تلك المفاهيم البراقة ، وإنما تخطاها وجنح بها بنفس الشدة التى ذهب إليها الرجل الأبيض في التفرقة ضد السود ، فطبقا لتعاليم فارض التى لا تمت للإسلام بأى علاقة ، أصبح الإنسان الأبيض هو الشيطان نفسه . وسرعان ما نجح هذا الفارض في إعادة توحيد معظم الجماعات التى انشقت بعد وفاة النبيل على ، وإعادة تنظيمها بشكل جيد ، وتوسيع دائرة التنظيم وتنويع ذلك بتأسيس جناح عسكري للتنظيم أطلق عليه اسم ثورة الإسلام!!! ثم اختفى فارض .

وجاء بعده اليشا محمد الذى تولى زعامة جماعة أمة الإسلام بعد الاختفاء الغامض لفارض ، حيث قام الرجل بادخال المزيد من التشويه والخرافات على تلك العقيدة التى تتمسح باسم الإسلام .

(١) يحيى غانم - مليون أمريكى أسود يتبعون محتالا يستغل التفرقة العنصرية ويزيف القرآن - جريدة الأهرام بتاريخ ١٠ - ٨ - ١٩٩٢ .

فبعد أن إدعى بأن أسلوب سلفه ليس سوى تجسيد لله زعم أنه رسول الله ، ولأن أسلوبه فى حشد مؤيدين له كان يعتمد على اللعب على وتر التفرقة العنصرية، والتي كانت تمارس ضد السود الأمريكيين ، فإنه زعم بأن الله قد خلق الإنسان فى الأساس أسود ، وكان تفسيره فى ذلك ساذجا، وهو أن الإنسان خلق من طين !! ويمضى فى نسج خيالات مريضة فيقول إن الإنسان الأبيض ليس من خلق الله ، وإنما مسخ صنعه سيدنا يعقوب عليه السلام . وأن الإنسان الأبيض هو المسؤول عن جميع الاضطرابات فى العالم !! مزاعم كاذبة ولكنها كانت براءة نظرا لحجم الغضب المكبوت فى صدور السود تجاه البيض فى ذلك الوقت .

ويمضى اليشا محمد فى نسج خيالاته المريضة ، فيدعى أن الإسلام كان ديانته خاصة بالسود ، الذين ينتمون إلى قبيلة أسماها شاباس التي هيبت من السماء على الأرض منذ ٦٦ تريليون سنة ، على حد زعمه !! ويوغل الرجل فى تخاريفه فيقول إن الإسلام ابتلى بالبيض الذين كانوا على شكل مسخ نجح سيدنا يعقوب فى خلقه على مدار ٦٠٠ عام، وأن هؤلاء المسوخ البيض حكموا وسيطروا منذ ٦٠٤٥ عام بواسطة الخديعة والنفاق والدس !

وعلى مدى ١٣ عام منذ توليه قيادة جماعة أمة الإسلام نجح اليشا محمد فى كسب أكثر من ١٠٠ ألف من الأنصار والمؤيدين ، كلهم من السود ، حيث كان من المنطقي منع إنضمام أعضاء بيض ، بالإضافة إلى ثروة طائلة ، وصلت إلى أكثر من ٢٠ مليون دولار ، أموالا سائلة فى البنوك، و ١٥ ألف فدان أرض زراعية ، ومزارع وماشية ، وصحيفة وصل توزيعها إلى ٥٠٠ ألف نسخة ، وعشرات الطائرات الخاصة ، وعشرات المطاعم ، ومحلات السوبر ماركت ، والمخابز ، وشركة كبرى للاستيراد والتصدير بالإضافة إلى ٧٦ مسجدا فى جميع أنحاء الولايات المتحدة !! .

ولعل كاسيوس كلارى ، محمد على كلارى فيما بعد ، البطل الأسطوري للعالم فى الملاكمة ، يعد واحدا من أشهر من أتبعوا التعاليم المحرفة لجماعة أمة الأسلام ، حيث كان من أشد مؤيدى اليشا محمد وذلك قبيل أن يهتدى إلى الطريق السليم، ويعود إلى تعاليم الإسلام الحنيف .

ولكن نقطة التحول الحقيقية كانت عام ١٩٤٧ عندما انضم مالكوم اكس داعية حقوق الإنسان الشهير فيما بعد أثناء تمضية عقوبة السجن عامين حيث كان أعوان اليشا يمارسون التشهير ، وبعد خروج اكس من السجن وفى غضون سنوات قليلة أصبح من أبرز وأنشط أعضاء جماعة أمة الاسلام، حتى جاء عام ١٩٦٣ عندما ثار خلاف بينه وبين اليشا محمد بسبب ماوصف بسلوكيات اكس الفردية . وبناء على ذلك تقرر تعليق عضوية اكس فى الجماعة لمدة ثلاثة شهور أعلن قبل انتهائها انفصاله من الجماعة ، وعزمه على تأسيس حزب قومى للسود . بعد ذلك بشهر واحد سافر مالكوم اكس إلى مصر والسعودية حيث أعلن هناك توبته عن تعاليم اليشا وإسلامه حقا ، وفور عودته من مصر والسعودية بدأ اكس فى إعادة تنظيم جماعته إلا أنه بعد مرور ثمانية أشهر

اغتيال برصاصات مجهولة المصدر ، وإن كانت الشبهات حامت حول جماعة أمة الإسلام .

إلا أن أكس لم يكن أول المتطرفين على تعاليم جماعة أمة الإسلام ، وإنما سبقه في التمرد أقرب الناس إلى اليشا محمد وكان ابنه وارث الدين محمد الذي أعلن عام ١٩٦٠ أن والده أفاق ومخادع وأنه ليس رسولا من الله ، وأن فارض ليس تجسيدا لله ، وأنه يجب على الجميع أن يتوبوا ويعودوا إلى حظيرة الإسلام الحنيف ، وعلى الفور تم طرد وارث الدين من الجماعة وتم استنزال اللعنة عليه حتى تراجع عن قمره وتوبته وكشفه عن حقيقة والده ، ولكنه يبدو أن تراجع وارث عن هذا لم يكن سوى خطوة تكتيكية عندما اكتشف أن الوقت ليس مواتيا لمثل هذا الموقف ، ولذا فإنه بمجرد تسلمه قيادة جماعة أمة الإسلام بعد وفاة والده اليشا عام ١٩٧٥ بدأ في تنفيذ خطة وضعها من قبل لمحاولة هداية أتباع الجماعة أمة الإسلام هذه ، وكان ذلك على يد ادجار هوفر الرجل الذي رأس جهاز مكتب التحقيقات الفيدرالية - المخابرات الداخلية - المعروف - اختصاراً إف بى آى. ضرب هذا الرجل الرقم القياسى فى رئاسة هذا المنصب الخطير، كما أنه كرس جانباً كبيراً من وقته فى ضرب حركة أمة الاسلام ليس لأفكارها البعيدة كل البعد عن الاسلام ، وإنما لما تمثله هذه الأفكار من تهديد للنظام السياسى والاجتماعى . وخاصة مع تزايد ثروتها وأنصارها . ولم يكن "هوفر" وحده فى تلك الحرب ، وإنما كان يقف معه جهاز وكالة المخابرات المركزية : « سى ، آى ، ايه . » وإذا كان الجهازان قد إعتدما فى ضربهما لجماعة الفهود السوداء إحدى جماعات السود التي تتبنى العنف للمطالبة بالمساواة ، على العنف المضاد ، فإنهما إعتدما على العامل الإقتصادي فى تدمير جماعة أمة الإسلام .

وحيث أن الثروة كلها كانت مركزة فى أيدي وحسابات "اليشا محمد" فإن ذلك سهل من ضربها بهدف إفلاسها وإغراقها فى الديون. بالإضافة إلى ذلك، لجأت أجهزة المخابرات الأمريكية إلى أسلوب تجنيد بعض من أعضاء الجماعة لحسابها، كما دست بعضاً من عملائها داخل أعضاء الجماعة.

ولم تسفر مساعي أجهزة المخابرات الأمريكية عن تدمير الجماعة فوراً ، وإن بدا للعاقليين من قياداتها أن الهزيمة واقعة . وبناء على ذلك كانت "لوارث الدين" وقفة غيرت مسار حركة الإسلام بين السود الأمريكيين . كانت الوقفة هي تغيير جذري لسياسات الجماعة ، الأمر الذي يعني ببساطة العودة إلى الإسلام السمع و العودة للحق ، إلا أن الأمر لم يتم بهذه البساطة ، فقد أدى ذلك لانقسام أمة تحمل اسم الإسلام إلى جبهتين متنافستين داخل المجتمع الأمريكي .

وفي داخل المجتمعات الإسلامية تسعى بعض هذه الحركات إلى التسليح بغية قتل الروح الإسلامية فقد كتب عبد الله كمال (١) في روزاليوسف (عام ١٩٩٣) يقول : "خرجت شائعة مثيرة

(١) روز اليوسف العدد ٣٣٨٠ بتاريخ ٢٢ - ٣ - ١٩٩٣ .

من سجن طره ، تقول : إن هناك أربعة جواسيس من الولايات المتحدة ألقى القبض عليهم مؤخرا في قضية خطيرة .لم تنشأ الشائعة من فراغ، فقد دخل الأميركيان سجن ليمان طره منذ أسبوعين ، لكن القضية لم تكن تجسسا ، و إن كانت تؤدي في النهاية إلي نفس النتيجة :ضرب المجتمع من الداخل.. ورغم هذا خرج المساجين الأربعة من الزنزانة ، كما تخرج الشعرة من العجين ، و بدون أي عقوبة !! بدأت القصة منذ عامين ، عندما أبلغ موظف أمريكي ، في شركة بترول ، معارفه المصريين بأنه مسلم .. ولم يكتف بهذا ، وبدأ يصلي أمامهم بطريقة وصفت بأنها محرقة . ومن جلسة إلي أخرى بدا أن هذا الأمريكي ليس وحده وأن هناك ثلاثة غيره معهم "تيوزلندي" ، يروجون لتفاليح علمي أنها الدين الاسلامي .. بطريقة ابتكرتها جمعيات أجنبية تصل "بالهدف" مباشرة إلي أحد مذاهب المسيحية ، ولم تكن هذه قضية تبشير عادية ، إذ تختلف تماما عن قضية تبشير ضبطت العام الماضي في "ميت عقبة" ، عندما رحل أروبيان - بعد أن رصد أمنيًا - يقدمان أدوية و أموالا و كتبنا لفقراء المنطقة .. و من ثم يدخلان من هذا الباب إلي عقول أصحاب الحاجة ، وتفتح المناقشة ، التي تنتهي بترك الرجل لدينه.. وإثارة المشاعر ، ثم اشتعال الفتنة الطائفية بأيد أجنبية .لكن القضية الأخيرة لم تكن كذلك ..فالفريق الأجنبي كان يقدم هدايا مميزة ، ليست أدوية يحتاجها فقير لتشفيه من مرض ..ولكنها أشياء يمكن أن تسبب شعورا بالسعادة .. ملابس مثلا ، أو جهاز راديو أو خلطاط .. وغير ذلك . ويعد تقديم الهدية ، يبدأ دس السم في العسل ..فيقول "الأمريكي للمصري إن الإسلام للمسلمين والمسيحية للمسيحيين " .. ومن هنا يضمن أن تبقى العقول في حالة استسسلام ، بعيدة عن موقف الاستنفار الديني ، والعداء المذهبي ، إلا إن الأمل لا يقف عند هذا الحد.. فمن التعارف ، إلي الهدية ، إلي زيارة البيوت حيث يري المصريون من الأجانب تفاليح دينية جديدة ، و ملفقة .. فالآذان يرفع بدون أن يتضمن اسم الرسول ، والصلاة تؤدي بالعكس ، وآيات القرآن تحرف ، اعتمادا علي أن المستمعين من ضعاف الثقافة .. الذين قد يستمعون لآية فتمر عليهم فيها كلمات جديدة تقلب المعني ، بدون أن ينتبهوا . و تبدو تلك الطريقة مختلفة إلي حد كبير ، عن أساليب أخرى كانت معروفة من قبل .. مارسها أجانب ، ثم ضبطوا ورحلوا .. وحسب ما يقوله الدكتور رفيع حبيب فإن أغلب هؤلاء الأوروبيين والأمريكيين كانوا يستخدمون في التبشير أسلوبهم في حياتهم الغربي .. يعتمدون فيه علي مناهج الدعاية التي تقدم الدين ، وكأنها تعلن عن قطعة شيكولاتة أو صابونة برائحة جديدة " .ويشت وكالة الأنباء العالمية "رويتر" من القاهرة خبرا يوم ١٢ مايو ١٩٩٣ وفي ١٣ مايو ١٩٩٣ تنشر الصحف العربية الخبر : مصر تفرج عن أربعة مبشرين حاولوا تنصير مسلمين (١) . القاهرة رويتر . قالت محامية عن أربعة غربيين مسيحيين

(١) جريدة عمان - بتاريخ ١٣-٥-١٩٩٣ ص ١٧ - ، عمود ٤ .

كانوا معتقلين بتهمة محاولة تنصير مسلمين أمس أن السلطات المصرية أفرجت عنهم . وقالت مجيدة رشوان أن الرئيس حسني مبارك أمر الأسبوع الماضي بالإفراج عن الأربعة الذين كانوا معتقلين منذ مارس الماضي . وأضافت أن ثلاثة أمريكيين غادروا القاهرة إلى قبرص يوم الإثنين، أما الرابع وهو نيوزيلندي سيرحل قريبا . ويوجب قانون الطوارئ الساري منذ عام ١٩٨١ يمكن للسلطات اعتقال مشتبه فيهم دون توجيه اتهام لفترات غير محددة . والأربعة يعملون موظفين أو مستشارين في شركة "اندستريال سيستمز اند كومبوننتس" ومقرها في الولايات المتحدة ، التي تعمل في توزيع مساكن مؤقتة ، وأجهزة كمبيوتر مستعملة ، و سلع أخرى في الشرق الاوسط ، لحساب شركات أمريكية صغيرة ومتوسطة .

الغزو الثقافي في العمارة و المساكن

يقول وزير التعمير الجزائري (١٩٨٥) عن الغزو الثقافي في المجال المعماري و المجال الهندسي إن ميدان التعمير والهندسة والعمارة ميدان ثقافي . وعلى ذلك فهي موضع غزو . إن كيفية تنظيم حجرات السكن وتقسيمها شقة وأخرى ، يرتبط بالعلاقات الإنسانية و الاجتماعية . فالغنى الهندسي مرتبط بالمجتمع ، لذلك نجد تباينا بين الإنتاج الهندسي المعماري الأوروبي ، وبين العربي ، أو الصيني مثلا . وقال الوزير الجزائري : هناك ارتباط عضوي بين التفكير الديني والهندسة المعمارية منذ القدم ، والهندسة المعمارية الغربية لم تقدم للفرد المسلم ولا للأسرة المسلمة المتطلبات الأساسية السكنية التي تلي حاجاتهم . مثل صون حرمة العائلة . مثل تسهيل عملية الوضوء ، وما شابه ذلك (١) .

ومن أبلغ صور الارتباط بين الثقافة و المباني ، الكوارث التي تقع لبعض "العمارات" ويدفن فيها أصحابها ، لأنهم غشوا أو ارتفعوا بالطوابق فوق ما سمح به القانون أو علم الهندسة ، وهم غافلين ، أو غير مقتنعين بصرامة العلاقة بين التصميم وسلامة مواد البناء ، وبين انهيار المباني .

ويعلق أستاذ الهندسة بجامعة عين شمس الدكتور يحيى محمد (٢) عيد(عام١٩٩٢) علي عدم وضوح الرؤية المعمارية للشخصية المصرية بأنه يمثل صراعا بين القديم المورث الذي يمثل القيم والعادات المصرية ، والحديث الوارد وما يمثله من تكنولوجيا وحضارة غربية لها عاداتها ، وقيمتها ، التي نقلدها ، بخيرها ، وشرها . ولعل الإعتبارات الاقتصادية التي تحكم عصرنا من أهم العوامل التي أدت إلي تدهور شديد في مستوى الأعمال المعمارية ، وإلي إغفال النواحي الجمالية ، في

(١) من كلمة لوزير التعمير الجزائري في ملتقى الفكر الاسلامي بالجزائري عام ١٩٨٥

(٢) من مقال أحمد عبد المعطي حجازي بعنوان روضة من رياض الجنة أوحفرة من حفر النار نشر بجريدة الأهرام في

سبيل الحصول علي أقصى استثمار لرأس المال . ونحن نمر هذه الأيام بمرحلة حاسمة لها أبلغ الأثر في تكوين الملامح المعمارية ، والتخطيطية ، مرحلة تركت فيها المدينة المصرية للنمو العشوائي ، واختفت فيها شخصية المدينة و طابعها ، ودعائم ذاتيتها ، فكل شئ يتم دون أي ضابط ، مما يقضي علي أي جمال و يشجع علي إتلاف البيئة الطبيعية ، وتلويثها . مرحلة خلت فيها أغلب المباني من الاحتياجات الوظيفية ، بحجة الإقلال من التكلفة الاقتصادية ، وبدت غريبة علي البيئة والمكان ، لاقمت إليهما بأي صلة و اختفت المسطحات الخضراء وتحول الكثير من الفراغات العمرانية، والحدائق التي كانت موجودة في وسط الأحياء السكنية إلى مبان حكومية أو ما شابهها ، أو أسواق تجارية ، خلت جميعها من القيم الفنية ، تلك الصفة التي تمتع الحواس ، وتبعث الشعور بالتوافق بين التكوينات المعمارية و البيئة المحيطة . لقد اعتاد سكان المدن علي التلوث البيئي بكل أنواعه و اختلط الأمر علي الكثيرين من البسطاء ، والمتعلمين أيضا ، و منهم بعض المشتغلين بمهنة العمارة ، الذين يساهمون في هذا التدهور المعماري بقصد ، أو بدون قصد ، لإرضاء نزعات الملاك و أهوائهم ، فيقومون بتشكيل واجهات المباني في بهرجة بصرية تنمنح منها النفوس ،وتهدم ما تبقى من التذوق الفني لدي المجتمع .

ولو أنك تجولت في أنحاء المدينة لوجدت تشكيلات غريبة من الحوائط الصماء ، أو البلكونات التي أغلقها أصحابها كل حسب هواه ، وأضاف إليها إضافات ، ودهنها بألوان كل حسب مزاجه الشخصي ، والنتيجة هو هذا الخلط الغريب من الأشكال المختلفة ، التي تراها في أي شارع من شوارع القاهرة. معبرة عن الانفصام الذي أصاب شخصيتنا ، وعن فقداننا هويتنا الثقافية. فإذا انتقلنا إلي كورنيش النيل ، وجدت العمارات الشاهقة التي نمت هنا وهناك مخالفة للمقياس والحس المعماري ، وخاصة تلك التي تراها في المناطق المؤدية للمعادي ، والتي شبت فيها إحدى الحرائق فأظهرت عدم إستكمالها لشروط الأمان ، وأكدت أنها مصدر خطر علي قاطنيها . ولو انتقلنا إلي أطراف المدينة وجدنا أن النمو العشوائي يزحف علي إمتداداتها العمرانية بشكل غير مخطط ، يزيد المشكلة تعقيداً ويؤدي إلي مزيد من المشاكل ، وعلي رأسها مشكلة التلوث العمراني، والبصري ، وهو من أهم عوامل التلوث البيئي لآله من تأثير ضار علي صحة الإنسان النفسية والفسيولوجية وعلي نشاطه وحجم إنتاجه .

إن ما يقوله أستاذ الهندسة المصري يكاد ينطبق علي عدد كبير من بلدان العالم الثالث ، التي تنتمي إليها الأغلبية العربية والإسلامية . وكما فرض الإستعمار الغربي غزوا في المباني ، فرضت الشيوعية غزوها . ومن يَزُرُ مدينة إسلامية قديمة مثل "طشقند " ، بعد تفكك الإتحاد السوفيتي ، في العقد الأخير من القرن العشرين ، يلحظ بجلاء شديد ، المدينة القديمة إسلامية المباني والمعمار، برغم أن الشيوعية خلال سبعين عاما حولت المساجد إلي مخازن ومصانع ، وغير ذلك ، والمدينة الجديدة التي لا أثر فيها لمسجد ولا فن إسلامي ، إنما هي غط آخر كله شيوعي فيه تماثيل لينين ، ورموز الشيوعية ، وأفكارها وشعاراتها .

[illegible]

جميع الغري، الزانية في مدينة قريه ببلد ساعاته من المواضيع التي يتر
ها العسكر اعداء في قلوبهم عليها انها عرض للسرعة زحف
هذه من عندنا نحيها يعزوا الفخر اليه لهم طاعوا وانهم نعموا
دستجات الفراء اوى التي عوايوش وكحل وامر
اشهد بالعلمه

كل في الحق وادم على العسكر الفرائسي ودمشق بالبار
 • الحاء البند •

كل قبه الحق تابع لوجه كبر العرشاني الواجب صلواتها نصب
لمسجدات العرشاني واحداً مع جميع السلاطان العثماني
فيما دام يملكه

المناجى إلى كل المذنبين حاشاً جميع الأرزاق واليهود والملوك
 مع للملكين ولجميع بني جنه الزيد لعلنا يصح ادنا في منها
 المادة الخاصة

الواجب على الدافع والتمتع ولا يذمهم أنهم بالذم والواجب
على كل واحد من أن لا يجلد أنه يسعى في مسكنة مطمئن وكيف
كثير السمت غلبت في الجوع على العادة والتمتع بهم
مذكروا نزل آية - صادق وعمل من الغرض وطلب للملك فاعلم
صوب آدم آية - ليجازي المظلم المظلم آدم آية - ليعزل
عن الغرض آدم آية - للملك والمسلم حال آدم آية -

مجلس شورای اسلامی در تاریخ ۱۳۳۵/۱۰/۲۵
تصمیم گرفت که در شهر تهران
مجلس شورای اسلامی در تاریخ ۱۳۳۵/۱۰/۲۵

[illegible]

هاليتا المعسر: من قد يقولوا لكم اني ما فرابي في هذا الطريق
 بعدد اركله فيكم غللت كلب مرع قد تصعبه وتوارا المعسر
 اني ما تصعب لكم ان نعوما اكلعي حكيم من يد الشايبين
 وانى المعسر من الله يرك احد الله يدجانه زناك ولعمري نوده
 صعد والفران انطيم »

وفلما أوصاهم أن يخرجوا من مساكنهم عبثاً وأن يسألوا
الذي يقرئهم من كتبهم بشأه هو العدل والفضائل والعلوم فقال
ويشأ لكم ما تعملون في العمل والعرفاء إلى غيرهم من
الأمور ووجههم أنهم يتكلموا ووجههم كمالهم إلى وجهه
الغني.

حاشا يوجد أرض حمراء ذي صفعة لعماليك والجواري النجمل
والجميل النعمى والمساكن انتهى فربنا صل على محمد وآله

١٥ كانت اربعون الف سنة دارم العالينك يا خيرين الله اني
 دعواهم لهم في فلكي ربه العالين هو رؤوف وواسل على العفر
 سيرة العالين في العوم فاعلموا اني سمعتي انما انا من مصر من
 المشركين في الدنيا السعيدة ومن اهل بيت الرب العالين فاعلموا
 اني سمعتي انما انا من مصر من المشركين في الدنيا السعيدة ومن اهل بيت الرب العالين فاعلموا

[illegible]

على مصر عام ١٧٩٨ م



صورة طبق الأصل لمنتشر احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ م

ان آلاف كثيرة من اخوانكم قد استغلوا الفرصة التي اعطيت لهم وغادروا غربي بيروت واصبحوا يعيشون في حرية وامان .

ان وقف اطلاق النار يوفر فرصة لا تعوض لسكان غربي بيروت لانقاذ حياتهم وحياة اعزائهم . .

وانت الذي تتواجد في بيروت اليوم تذكر ان الوقت اخذ يتضائل وكلما تأخرت كلما ازدادت المخاطر على سلامتك وسلامة اعزائك .

اعلم

ان محاور الخروج من المدينة الى الشرق والى الشمال مضمونة .

اسرع لئلا تتأخر .

اعلم

ان جيش الدفاع الاسرائيلي يعود ويؤكد على انه ليس معنيا باصابة المدنيين الابرياء ، ومن لا يشهر السلاح ضده .

اسرع وانقذ حياتك وحياة اعزائك قبل فوات الاوان .

قيادة قوات جيش الدفاع الاسرائيلي

صورة طبق الأصل من المنشورات الإسرائيلية
على لبنان عام ١٩٨٢ م

الفصل الثالث

المنشور الغربي وغزو العرب

(نموذج الارتباط العضوي بين المنشور وطلقات الرصاص)

* منشور الحملة الفرنسية علي مصر (عام ١٧٩٨ م) .

* منشور احتلال الجزائر (عام ١٨٣٠ م) .

* المنشور البريطاني الذي طبع ولم يوزع علي مصر (عام ١٩٥٢ م).

* المنشورات الإسرائيلية علي لبنان (عام ١٩٨٢ م) .

- الخلفية التاريخية .

- الدراسة الوثائقية .

- نص المنشور .

- تحليل المضمون .

* التحليل المقارن .

* ملاحق الفصل الثالث (خطابات الصليبيين والتتار والبرتغاليين في

غزو العرب) .

تمثل الحروب - كما يقولون - ذروة صراع الإرادات . وتمثل الذروة في القصة قمة منحني الإثارة . وتمثل هذه المنشورات بياناً حاسماً للغزو الثقافي ، لأن بعض عناصر هذا الغزو الثقافي ترتبط ارتباطاً عضوياً مع طلقات الرصاص ، بحيث لا يصبح المجال مجرد وهم أو محل بحث أو اختلاف ، وإنما هو الحياة والموت ، والبقاء والفناء . وهذه المنشورات التي واجهتها المجتمعات العربية في مرحلتها الحديثة والمعاصرة ترتبط بسياق تاريخي يبعد زمنياً عن مرحلة الدراسة ، وفي هذا التاريخ البعيد نجد خطابات تشبه المنشورات تستحق النظر . لذلك نجدها ملحقة بهذا الفصل بغير تفصيل ، حتي لا تغيب ظلال التاريخ عن عيوننا ، ونحن نستحضر الوقائع التاريخية القريبة بحاضرنا ، ونُحصيها ، لنستخلص مَقَارَزةً للمستقبل . وبمجرد رفع الستار عن هذه المنشورات تتدفق الأضواء لتظهر الصورة شديدة الوضوح ، لأن في كلماتها ، القضية ، وحشيات الحكم فيها .

* منشور الحملة الفرنسية علي مصر (عام ١٧٩٨ م)

الخلفية التاريخية :

تَشْغَلُ الحملة الفرنسية علي مصر عام ١٧٩٨ م موقعا بارزا في تاريخ مصر الحديث . وذلك لاهتمام المؤرخين بعلاقتها ببداية اليقظة الشعبية المصرية ، ولعلاقتها بالتدخل الأوربي المباشر ، والغزو الاستعماري المسلح ، للمنطقة العربية . وتاريخ الجبرتي ^(١) يسرد وقائع الغزو سردا خبريا فيقول :

« وردت مكاتبات من الثغر (يقصد الاسكندرية) ومن رشيد ودمههور بأنه في يوم ثامن عشر من المحرم ١٢١٣ هـ (الموافق ٢ يولية ١٧٩٨م) وردت مراكب وعمارات للفرنسيين كثيرة ، فأرسلوا في البحر ، وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل ^(٢) وبعض أهل البلد . فلما نزلوا إليهم عَوَّوْهُم عندهم . فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلي جهة العجمي ^(٣) ، وطلعوا إلي البر ، ومعهم آلات الحرب والعساكر ، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد ، فعندها خرج أهل الثغر وما انضم إليهم من العربان المجتمع ، وكاشف البحيرة ، فلم يستطيعوا مدافعتهم ، ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم ، وانهزم الكاشف ومن معه من العربان ، ورجع أهل الثغر إلي التَّحَرُّس في البيوت والحيطان ، ودخلت الإفرنج البلد ، وانبعث فيها الكثير من ذلك العدد ^(٤) .

وكل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون ، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمنعون .. فلما أعياهم اليغال ، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال ، وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود ، وكثرة العدو وغلبته . طلب أهل الثغر الأمان ، فأمنوهم ، ورفعوا عنهم القتال ، ومن حصونهم أنزلوهم . ونادي الفرنسيين بالأمان في البلد ، ورفع « بند براته » عليها ، وطلب أعيان الثغر فحضروا بين يديه ، فألزمهم بجمع السلاح وإحضاره إليه ، وأن يضعوا « الجوكار » في صدورهم فوق ملبوسهم .

(١) تاريخ الجبرتي - طبعة دار الشعب - القاهرة - ١٩٥٨ ص ٢٤٣ إلي ص ٢٤٥ .

(٢) كان القنصل في هذا الوقت ابن أخي « ماجاللون » القنصل السابق لفرنسا في مصر . (حافظ عوض - فتح مصر الحديث ص ٨٠) .

(٣) كانت قرية لصيد السمك صغيرة تبعد حوالي الأربعة أميال غربي الاسكندرية . وكانت خطة بونايرت توزيع قواته لإنزالها إلي البر في جملة مواقع ، والاستيلاء في وقت واحد علي الاسكندرية ودمياط ، ثم التوغل من هذين المركزين في الدلتا والوصول إلي القاهرة بسرعة . (دكتور محمد فؤاد شكرى - الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ص ١٣٤) . والعجمي الآن حي من أحياء الاسكندرية .

(٤) لم يخسر الفرنسيون في فتح الاسكندرية أكثر من نحو أربعين قتيلًا ، مع ثمانين إلي مائة من الجرحي . (حافظ عوض - فتح مصر الحديث ص ١٠٤) .

« والجوكر » ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك ، مستديرة في قَدْر « الريال » سوداء وحمراء وبيضاء ، توضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التي تحتها حتي تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض .

ولما وردت هذه الأخبار مصر ، حصل للناس انزعاج ، وعَوَّل أكثرهم علي الفرار والهجاج . وأما ما كان من حال الأمراء بمصر ، فإن « إبراهيم بيك » ركب إلي قصر العيني وحضر عنده « مراد بك » من الجيزة لأنه كان مقيما بها ، واجتمع باقي الأمراء والعلماء والقاضي ، وتكلموا في شأن هذا الأمر الحادث ، فاتفق رأيهم علي أن يرسلوا مكاتبة بخبر هذا الحادث إلي « إسلامبول » . وأن مراد بيك يجهز العساكر ويخرج لملاقاتهم وحربهم . وانفض المجلس علي ذلك ، وكتبوا المكاتبة ، وأرسلها بكر باشا مع رسوله علي طريق البر^(١) ، ليأتيه بالترياق من العراق^(٢) . وأخذوا في الاستعداد للثغر ، وقضاء اللوازم والمهمات في مدة خمسة أيام ، فصاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه بدون ثمن .

ثم ارتحل « مراد بيك » بعد صلاة الجمعة . ويَزَّرُ خيامه ووَطَأَهُ إلي الجسر الأسود ، فمكث به يومين حتي تكامل العسكر وصنابقه ، وعلي باشا الطرابلسي وناصف باشا - فإنهم كانوا من أخصائه ومقيمين معه بالجيزة - وأخذ معه عدة كثيرة من المدافع والبارود ، وسار من البر مع العساكر الخيالة وأما الرجالة - وهم الألداسات القلنجية والأروام المغاربة - فإنهم ساروا في البحر مع الغلايين الصغار التي أنشأها الأمير المذكور .

ولما ارتحل من الجسر الأسود أرسل إلي مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية التخن والمتانة ، طولها مائة ذراع وثلاثون ذراعا ، لتنصب علي « البغاز » عند برج مغيزل من البر إلي البر لتمنع مراكب الفرنسيين من العبور لبحر النيل - وذلك بإشارة علي باشا - وأن يعمل عندها جسر من المراكب وينصب عليها متاريس ومدافع ، ظنا منهم أن الأفرنج لا يقدرين علي محاربتهم في البر ، وأنهم يعبرون في المراكب ويقاتلونهم وهم في المراكب ، وأنهم يصابرونهم ويطاولونهم في القتال حتي تأتيهم النجدة .

وكان الأمر بخلاف ذلك ، فإن الفرنسيين عندما ملكوا الاسكندرية ، ساروا علي طريق البر الغربي من غير ممانع . وفي أثناء خروج « مراد بيك » والحركة بدت الوحشة في الأسواق وكثر الهرج بين الناس والإرجاف ، وانقطعت الطرق ، وأخذت الحرامية في كل ليلة تطرق أطراف البلد ، وانقطع مَشْيُ الناس من المرور في الطرق والأسواق من المغرب ، فنادي « الأغا » والوالي « بفتح الأسواق والقهاوي ليلا ، وتعليق القناديل علي البيوت والدكاكين ، وذلك لأمرين : الأول - ذهاب الوحشة من القلوب وحصول الاستئناس . والثاني - الخوف من الدخيل في البلد .

وفي يوم الاثنين وردت الأخبار بأن الفرنسيين وصلوا إلي دمنهور ورشيد ، وخرج معظم

(١) بطريق البر .

(٢) هو مثل شعبي قديم ، نصه : « علي ما يجي الترياق من العراق ، يكون العليل مات » .

أهل تلك البلاد علي وجوههم ، فذهبوا إلي « قُوَّة » ونواحيها ، والبعض طلب الأمان وأقام ببلده وهم العقلاء .

وقد كانت الفرنسيين - حين حلولهم بالاسكندرية - كتبوا مرسوماً وطبعوه وأرسلوا منه نسخاً إلي البلاد التي يقدمون عليها . . تطميناً لهم . ووصل هذا المکتوب مع جملة من الأساري الذين وجدوهم « بمالطة » ، وحضروا صحبتهم ، وحضر منهم جملة إلي بولاق - وذلك قبل وصول الفرنسيين بيوم أو يومين - ومعهم منه عدة نسخ ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس ، وهم علي شكلهم من كفار « مالطة » ، ويعرفون باللغات . . « .

هذا السرد الخبري لوقائع الغزو يورده جورجى زيدان^(١) بصورة تكاد تقترب من تحرير المجلات الذي لا يقف عند السرد وإنما يتعمق إلي التحليل ، وتفسير الحدث ، وربطه بالماضي والحاضر فيقول :

« كان بونايرت قد قُر في البحر المتوسط وضم قسماً عظيماً من سواحله إلي فرنسا فطمع بمصر ، وقد أعجبه شأنها وما فيها من الخيرات . فكتب مخاطباً الإدارة الفرنسية : أن مصر أيتها السادة أكثر الأرض خصباً . وقد كانت « لرومية » قديماً « وللقسطنطينية » الآن ، وفيها الخنطة (القمح) والأرز - وأنواع البقول والسكر والنبيلة والقطن والسنا والخيار والنبطون والكتان والقنب ، وفيها أنواع الماشية والطيور الداجنة ، وقد اشتهرت بحسن حميرها ، وقوة جمالها . »

وظل بونايرت يعدد أهمية موقع مصر التجاري إلي أن قال : فما هي مستعمراتنا بالنسبة إلي هذه البلاد الخصبة الشاسعة الأطراف ، هلم إليها فنستغل من أرزها وسكرها وقطنها كما فعل غيرنا ، وهي تغنينا عن محاصيل أمريكا وتكفينا مؤنة الارتباط معها .

ثم عدد « نابليون » أهمية غزو مصر ، في ترجيح الكفة الفرنسية علي الكفة الانجليزية في التنافس بينهما . ثم ركز علي الأهمية التجارية لهذا الغزو . وقد ترددت الإدارة الفرنسية في قبول مشروع بونايرت في غزو مصر . ثم أمام إلحاحه وافقت . وأرسلت الإدارة الفرنسية « تاليران » مندوباً عنها إلي « الأستانة » لمخابرة الباب العالي بشأن تلك الحملة ، وطلب مصادقته عليها .

وفي ١٩ مايو ١٧٩٨ أبحرت الحملة من ميناء « طولون » الفرنسي فوصلت « مالطة » في ٩ يونية ثم وصلت الاسكندرية في ١٨ يونية .

ولقد استغل نابليون الأسري الذين وجدهم بمالطة ، ليحملوا المنشور إلي مصر قبل وصوله إليها . وكان هؤلاء الأسري من رعايا الدولة العثمانية - كما يذكر المؤرخ أحمد حافظ عوض^(٢)

(١) جورجى زيدان - تاريخ مصر الحديث - الجزء الثاني - مطبعة المقتطف - القاهرة - ١٨٨٩ م ١٣٠٦ هـ - ص ١٤٩ - ص ١٥٩ .

(٢) أحمد حافظ عوض - فتح مصر الحديث أو نابليون بونايرت في مصر - مطبعة مصر - القاهرة ١٩٢٥ - ص ١٠١ - ص ١٠٢ .

- يبلغ عددهم السبعمئة أسير . وكان بعضهم من أهالي طرابلس والجزائر وتونس ومراكش وسورية وأزمير ومن « الأستانة » أيضا . وقد أمر نابليون بفك أسرهم ، كما أمر بأن يصرف لهم الغذاء الحسن ، واللباس الجيد ، وأن يعاملوا معاملة طيبة . ووزعت عليهم مبالغ من النقود يستطيعون بها السفر . وسلم إليهم نسخا من المنشور الذي أعده « نابليون » لتوزيعه على الشعب المصري . هؤلاء هم الذين ذكر الجبرتي وصولهم إلي بولاق قبل الغزو بيومين ومعهم المنشور وبينهم بعض الجواسيس .

الدراسة الوثائقية :

يعد تمحيص أحمد حافظ ^(١) عوض لهذا المنشور توثيقا دقيقا من جانب وله دلالة مقصودة في الترجمة من جانب آخر . فقد لاحظ أن الأصل الفرنسي نقل إلي العربية بلغة ركيكة غير مضبوطة ، ولكن الأهم هو أن الترجمة ليست منطبقة علي الأصل الفرنسي تماما . ويقول أحمد حافظ عوض ^(٢) :

« نقل هذا المنشور » جورجى زيدان « و » شاروويم « في كتابيهما عن تاريخ مصر الحديث . وغير فيه الأول بضع كلمات بما يقابلها ، فكلمة شرع بدل ساوون في قوله متساوون عند الله . والكرج بدل الجركس . ونسي الثاني كلمة دينكم في قوله « إنني جئت لإزالة دينكم » فكتبها لإزالتكم » .

أما الخلاف بين الأصل والتعريب - مع التجاوز عن سوء الترجمة وأغلاطها - فهو أن الأصل في خزائن وزارة الحربية الفرنسية ، والموجود في مكاتبات نابليون تحت غرة ٢٧٢٣ ، ليس فيه ذكر في مقدمته لما ورد في الترجمة « بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا هو لا شريك له » وليس فيه عبارة « من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية » بل جاء في أوله: « من بونابرت عضو » الانتسيسيو ناسيونال والقائد العام، وأوله « إنه من زمان مديد إلخ » .

وجاء في الأصل : « وأنني أكثر من الممالك احتراما لله ونبيه وللقرآن » وفي « التعريب » أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم » . وليس في الأصل مطلقا قوله : « قولوا إن فرنساويين هم أيضا مسلمون مخلصون » . والذي فيه هو : « قولوا إننا أصدقاء للمسلمين الصادقين » . وفرق بين العبارتين كبير » .

(١) أحمد حافظ عوض - المرجع السابق - ص ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله ، لا ولد له ولا شريك له في ملكه

من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش
الفرنساوية بونايرته .

يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية
يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي.
فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، وآخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوين من بلاد
الأبازة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها .
« فأما رب العالمين القادر علي كل شيء ، فإنه قد حكم علي إنقضاء دولتهم » .

يا أيها المصريون ...

قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح ... فلا
تصدقوه ، وقولوا للمفتريين إنني ما جئت إليكم إلا لأخلصُ حُكمكم من يد الظالمين ،

وإنني - أكثر من المماليك - أعبد الله - سبحانه وتعالى - وأحترم نبيه والقرآن العظيم.
« وقولوا أيضاً لهم إن جميع الناس متساوون عند الله ، وأن الشيء الذي يفرقهم عن
بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ... فماذا
يُميّزهم عن غيرهم حتي يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شيء أحسن فيها: من
الجواري الحسان ، والخيول العتاق ، والمساكن المفرحة » .

« فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ؛ ولكن
رب العالمين رءوف وعادل وحليم » .

« ولكن - بعونه تعالى - من الآن فصاعداً ، لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في
المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون
الأمر ... وبذلك يصلح حال الأمة كلها » .

« وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة ، والمتجر المتكاثر...
وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك » .

« أيها المشايخ والقضاة ، والأئمة والجرجية وأعيان البلد ...

« قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون ، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في
رومية الكبرى ، وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصاري علي محاربة الإسلام ،
ثم قصدوا جزيرة مالطة وطرّدوا منها الكوالرية الذين كانوا يزعمون أن الله - تعالى - يطلب منهم

« ومع ذلك الفرنسية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني ، وأعداء أعدائه - أدام الله ملكه - ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان ، غير ممثلين لأمره ، فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم » .

« طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير ! فيصلح حالهم ، وتعلي مراتبهم » .

« طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ، فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب » .

« لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر ! » .

« المادة الأولى : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن الموضع التي يمر بها عسكر الفرنسية ، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوه ، وأنهم نصبوا علم الفرنسية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر . »

« المادة الثانية : كل قرية تطيع العسكر الفرنسي - أيضاً - تنصب صنجان السلطان العثماني ... محبنا دام بقاءه . »

« المادة الثالثة : المشايخ في كل بلد يختصمون حالاً جميع الأزواق والبيوت والأماكن التي تتبع المماليك ، وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شيء منها . »

« المادة الرابعة : الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلي كل أحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئناً ، وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة . »

« والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله - سبحانه وتعالى - لانتقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالٍ : أدام الله إجلال السلطان العثماني ! »

أدام الله إجلال العسكر الفرنسي !

لعن الله المماليك !

* وأصلح حال الأمة المصرية *

*** تحريراً بمعسكر اسكندرية في ١٣ شهر سبتمبر من إقامة الجمهور الفرنسي ***

تحليل المضمون :

ينصب تحليل مضمون هذا المنشور على تحليل أساليب الإقناع والتأثير بصفة أساسية ، إلى

جانب وصف الاتجاهات التي ينطوي عليها هذا المضمون . ومن ثمَّ يمكن اكتشاف الأهداف الدعائية للمصدر الذي صدر عنه المنشور . وهذا التحليل هو ما ينصب علي كافة المنشورات في هذه الدراسة .

أما الوحدة التي تناسب تحليل مضمون المنشورات فهي وحدة الفكرة أو الموضوع Theme . وهي العبارة أو الجملة التي تتضمن الفكرة ، وهذا ما أخذت به في تحليل مضمون هذا المنشور وبقية منشورات الدراسة .

وفي مجال فئات تحليل المضمون فقد وجدت في التقسيمين الرئيسيين : ماذا قيل ؟ وكيف قيل ؟ التصنيف الذي يحقق أهداف التحليل بموضوعية وسهولة في وقت واحد .

جدول يبين الأفكار الرئيسية لتبوير الغزو العسكري كما وردت بالمنشور وتكراراتها .

وحدات التحليل	التكرار
١- الأهداف العامة للغزو .	٣
٢- الدافع إلي للغزو .	٢
٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية .	٢
٤- الفاعل في الرسالة الدعائية .	١
٥- التبوير للعمليات العسكرية .	٢
٦- التخويف والترهيب .	٢
٧- العزل والتمييز .	٣
٨- استغلال الدين .	٦
٩- إثارة الشعب علي الحاكم .	٢
١٠- استخدام العاطفة وغريزة القطيع .	٣
١١- الإغراء والترغيب .	٩
١٢- الدعوة إلي الاستسلام بالمودة .	٦

وعندما تنتج الدلالات في هذا المنشور كما بينتها فئات تحليل المضمون نجدها علي النحو التالي :

١- الهدف من الغزو :

- أ (الصناجق يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنسية .
- ب) الصناجق يظلمون تجار الملة الفرنسية بأنواع الأذى والتعدي .
- ج) المماليك والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن والأحسن .

٢- الدافع إلي الغزو :

- أ (تخليص حق المصريين من يد الظالمين .
- ب) صلاح حال الأمة كلها .

٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية :

- أ (يا أيها المصريون .
- ب) أيها المشايخ والقضاة وأعيان البلد .

٤- الفاعل في الرسالة الدعائية :

- أ (السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنسية (بوناپرت) .

٥- التدريب للعمليات العسكرية :

- أ (الآن ساعة عقوبة الصناجق .
- ب) رب العالمين القادر علي كل شيء قد حكم علي انقضاء دولتهم .

٦- التخويف والترهيب :

- أ (طوبى لأهالي مصر الذين يتفوقون معنا .
- ب) الولل للذين يعتمدون علي المماليك في محاربتنا .

٧- العزل والتمييز :

- أ (ماذا يميز المماليك ليملكوا مصر، ويختصوا بكل شيء أحسن فيها .
- ب) من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية .
- ج) المصريون ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك .

٨- استغلال الدين :

- أ (لا تصدقوا أنني ما نزلت إلا بقصد إزالة دينكم .
- ب) إنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم .

- (ج) رب العالمين روف وعادل وحليم .
(د) قولوا لأمتكم أن الفرنساوية مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد
نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا .
(هـ) الفرنساوية مخلصون لحضرة السلطان العثماني .
(و) تكون الصلاة قائمة في الجوامع علي العادة .

٩- إشارة الشعب علي الحاكم :

- (أ) ما جئت إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين .
(ب) سابقا كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة ،
والمتجر المتكاثر . وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك .

١٠ - استخدام العاطفة وغريزة القطيع :

- (أ) جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة من المواضع التي يمر بها عسكر
الفرنساوية ، فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء
كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوه .
(ب) أنهم نصبوا علم الفرنساوية .
(ج) الواجب علي المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون
وظائفهم.

١١ - الإغراء والترغيب :

- (أ) تخليص حق المصريين من يد الظالمين .
(ب) الدخول في المناصب السامية واكتساب المراتب العالية .
(ج) العلماء والفضلاء والعقلاء سيدبرون أمور المصريين وبذلك يصلح حال
الأمة كلها .
(د) طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا .
(هـ) طوبى أيضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين
المتحارين ، فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب .
(و) المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة يلازمون وظائفهم .
(ز) كل أحد من أهالي البلدان يبقي في مسكنه مطمئنا .
(ح) تكون الصلاة قائمة في الجوامع .
(ط) المصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء
دولة المماليك .

١٢ - الدعوة إلي الاستسلام بالمودعة :

- (أ) طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا .

ب) طوبى أيضا للذين يقعدون في مساكنهم .
ج) جميع القرى ترسل للسر عسكر وكلاء ليعرف أنهم دخلوا في طاعته.
د) وأنهم نصبوا علم فرنساوية .
هـ) المشايخ في كل بلد يختصمون حالا جميع الأزواق والبيوت والأماكن التي تتبع الماليك ، وعليهم الاجتهاد التام لتلا بضع أدنى شيء منها .
و) المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة يلزمون وطانفهم . وكل أحد من الأهالي يبقى في مسكنة مطمئنا .

أما المرتكزات الأساسية للاختراق الثقافي في هذا المنشور الفرنسي الموجه للمصريين فنجدها علي النحو التالي :

- اصطناع التناقض بين المصريين والماليك ، والتنبيه المستمر إلي سلطة الماليك المستبدة الظالمة ، الطامعة ، الفاشلة التي يشكل استمرارها مصدر خطر علي مصالح المصريين .
- الترويج لحكمهم واستعمارهم للبلاد ، ودعوة الناس لقبوله باعتباره الأساس الذي يكفل إنها استبداد الماليك ، « وتخليص » البلاد من فسادهم . وفي هذا السياق يعرض الفرنسيون أنفسهم علي الشعب باعتبارهم القوة المخلصة التي تحرر البلاد من نفوذ الماليك وإذلالهم لأهالي البلاد .

- تعزيز موقفهم بالبحث عن السبيل الذي يكفل التنويم السيكلوجي للجماهير ، والاستناد إلي شرعية دينية تكفل هذا التعزيز ومؤداها أنهم قوة مرسلة من الله بهدف إنقاذ البلاد وتخليصها من حكم الماليك .

- الحرص علي قتل روح المقاومة في نفوس المصريين من خلال الإيحاء بأن الحرب بينهم وبين الماليك أصلا ، وأنه من الواجب علي المصريين أن يبعدوا أنفسهم عن هذا الصراع ، وأن في هذا الابتعاد لمن يلتزم به خيرا ومصالحة علوا في المراتب . وكذلك التهديد بالويل للمصريين الذين يمكنهم أن يتعاونوا مع الماليك في مقاومة الفرنسيين . والتأكيد علي أن التخلص من الماليك يعد من الأمور التي تستوجب شكر الله سبحانه وتعالى .

- التوجه إلي القوي المؤثرة في حركة المجتمع والتي يسهم بعضها في تشكيل الرأي العام ، فمرة يخاطب المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد ، ومرة أخرى يتوجه إلي العلماء ويعيد التوجه إلي المشايخ والقضاة والأئمة . وفي الحالتين يتبين أن الفرنسيين يدركون بشكل كبير دور هذه القوي في تقديم صورة إيجابية لهم تؤثر أيضا بالإيجاب في أذهان الشعب المصري وتضمن الحيلولة دون قيام مقاومة ضدهم في مصر ، وذلك بالنظر إلي ما تتمتع به قوي المشايخ والعلماء والأئمة والقضاة وغيرهم من مصداقية لدي الجماهير تعطي لدورها وزنا وتأثيرا يصعب تجاهله من جانب الفرنسيين كقوة خارجية تسعى للسيطرة علي البلاد وتنصرف لتوظيف

واستثمار كافة السبل والوسائل التي تمكنهم من ذلك . واختيار هذه القوى من جانب الفرنسيين في ذلك الوقت يتسق مع المكانة الأساسية لها باعتبارها الممثل للنخبة . أو «الصفوة» في المصالح الاجتماعية والسياسية المعاصرة ، والمكانة الأساسية التي كان الفرنسيون يراهنون عليها حسيما يبدو من سياق النصوص الواردة في المنشور ، هي إمكانية قيام قوي النخبة السابق الإشارة إليها ، بدور « الوسيط » الذي يملك القدرة علي نقل صورة إيجابية وبراقة عن الفرنسيين إلي جماهير الشعب المصري .

- يبتعد الفرنسيون تماما عن أمور أساسية ، فهم لا ينظرون إلي أنفسهم كقوة غازية ، مستعمرة ، وتنزع نحو « الاحتلال » ، وإنما يروجون لأفكار أخرى تقدمهم باعتبارهم القوة « المنقذة » للبلاد من « ظلم المالكين وفسادهم وإذلالهم للمصريين » .

أما معالم الصورة السلبية للمالك في المنشور الفرنسي لمصر فإنها تدور حول النقاط التالية :

* عني المنشور الفرنسي بالفصل بين المصريين والمالك ، وتقديم صورة الصراع علي أرض مصر بين طرفين لا ثالث لهما ؟ الأول : الفرنسيون والثاني : المالك ، وأنه لا مصلحة لأهل مصر للدخول في هذا الصراع إلي جانب المالك لأن ذلك سيمثل مصدرا لخطر علي من يحاوله ، وأن المصلحة الكبرى لهم في الابتعاد عن الصراع إذا أرادوا لأنفسهم خيرا وصعودا في المراتب .

وفي هذا الإطار ركز الفرنسيون علي تقديم المبررات التي تستدعي دخولهم البلاد واصطدامهم بالمالك ، وتسريب الإيحاء للمصريين بأنهم القوة التي تكفل الخلاص من سيئات المالك ، وقد بالغ الفرنسيون كثيرا في العناية برسم صورة سلبية علي النحو التالي :

١- يمثل المالك مصدرا لإذلال المصريين واحتقارهم .

٢- يمثل المالك قوة ظالمة تتعدي علي التجار الفرنسيين وتلحق بهم الأذى .

٣- يعتبر المالك قوة دخيلة علي أهل مصر ، غريبا ، أجنبيا وبلغه المنشور نفسه : « مجلوبين من بلاد الأيالة والجراكسة » .

٤- يمثل المالك مصدرا للفساد الذي يشوه إقليم مصر « الحسن الأحسن » .

٥- يبدو المالك في المنشور الفرنسي باعتبارهم غير عقلاء ، متخلفين ، (ليسوا أصحاب فضيلة) ، والأكثر من ذلك أنهم يمثلون طرفا يتناقض تماما مع العقل والعلوم والفضائل ، وإن هذا يمثل مبررا قويا لخلعهم من حكم البلاد .

٦- ينبه المنشور للممارسة الاحتكارية في سلوك المالك ، فهم في ضوئه : محتكرون « للجواري الحسان والخيول العتاق والمساكن المفرحة » ومحتكرون للأرض المصرية ومحتكرون « للمناصب والمرتبات » .

٧- في رؤية المنشور ، يرتبط ظلم المالك بسمات أخرى في شخصيتهم ، وفي مقدمتها الطمع

والجشع الذي يدفعهم لنهب ثروات البلاد (المتجر المتكاثر) .

٨- يسعى المنشور لتثبيت فكرة تمرد المالكين وخروجهم عن طاعة السلطان العثماني ، وذلك في إطار تصوير الصدام علي أنه صدام بين طرفين فقط ، واختلاقي المبررات التي تمثل الأسس الشرعية للتخلص منهم .

هذه الدلالات ، ومراكز الاختراق الثقافي تأخذ أولويات تبدأ بالإغراء والترغيب، وفق تكرار الفكرة الذي بلغ تسع تكرارات . ثم استغلال الدين ، والدعوة إلى الاستسلام بالمودة ، حيث يتساويان في تكرار الفكرة ، ثم تتسلسل بقية الفئات . وتصبح الصورة أظهر وأوضح عند المقارنة مع تحليل مضمون المنشورات الأخرى .

* منشور احتلال الجزائر (عام ١٨٣٠ م)

الخلفية التاريخية :

اشتركت خزينة الدولة الجزائرية مع بعض التجار في تمويل صفقة إنقاذ لفرنسا من الجوع، صفقة قمح . وأصبحت فرنسا مدينة للخزانة الجزائرية بمليونين ونصف المليون من الفرنكات الذهبية . وتلكأت فرنسا في الدفع ، وألحت الحكومة الجزائرية في المطالبة .

وكانت الأحداث في فرنسا آنذاك تنذر بالشر ، فقد سقطت الجمهورية الفرنسية الأولى، وانتهى الحكم الامبراطوري ، وتسلم السلطة الملك الطاغية ، « شارل العاشر » ، وظلت الماطلة الفرنسية أمام المطالبة الجزائرية . ووجد « شارل العاشر » أن في غزوه للجزائر وهي بلد إسلامي فرصة لاستدرا عطف الكنيسة من جهة ، وفرصة للتخلص من العاطلين والمشغبين في فرنسا من جهة ثانية . وكانت ظروفه الداخلية تنذر بالشر أيضا .

أرسل الملك « شارل العاشر » - كما يؤكد المؤرخ الفرنسي « هنري جارو » - إلي قنصله في الجزائر باغتنام الفرصة لخلق حادث يبرر غزو الجزائر .

ويقول « جوان جليس » ^(١) أن الملك « شارل العاشر » قد اتخذ قرار الغزو أساسا لانقاذ حكمه المتداعي ، إذ كان يأمل من وراء مثل هذه الحملة أن يحول اتجاه الاستياء الداخلي ، وأن يتيح لفرنسا أن تظهر بمظهر الذي يقوم بحرب صليبية غربية ضد قراصنة شمال أفريقيا .

وجاءت الفرصة في يوم العيد . ذهب القنصل الفرنسي لتهنئة « الداى حسين » والي الجزائر في قصره بحي القصبة ، كعادة القناصل آنذاك ^(٢) ودار حديث بين القنصل الفرنسي والداى حسين .

(١) جوان جليس - ثورة الجزائر - ترجمة عبد الرحمن صدقي أبو طالب - الدار المصرية للتأليف والترجمة- القاهرة - ١٩٦٦ .

(٢) أحمد توفيق المدني - هذه هي الجزائر - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٦ - ص٧٦ إلي ص٨٠ .

- الداي حسين : لماذا لم أتلق إلي الآن جوابا من الملك عن رسالتي المتعلقة بتصفية حساب الدين ؟

- القنصل الفرنسي : وهل تظن أن جلالة ملك فرنسا يتنازل لجواب « داي » الجزائر ؟

وهنا وجم الحاضرون ، وفهموا أن الأمر مذبذب . ووقف « الداي » قائلا للقنصل الفرنسي :
أخرج يا ابن الكلب وأشار - بمروحة من الريش كان يحملها - إلي الباب . وزعم القنصل أن ريش
المروحة لمس وجهه ، وخرج هائجا محتجا .

وقف الملك « شارل العاشر » يوم ٢ مارس ١٨٣٠ يقول في خطاب العرش معلقا علي هذه
الواقعة بأن العمل الذي سيقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون يعون الله لفائدة المسيحية جمعا .

وفي يوم ١٣ يونية ١٨٣٠ م نزلت القوات الفرنسية « بسيدي فرج » غرب الجزائر العاصمة
بعشرين كيلو مترا . وقاوم الجزائريون مقاومة باسلة ، ولكن النتيجة النهائية للمعركة كانت في
صالح الفرنسيين . واستسلمت العاصمة في ٥ يولية ١٨٣٠ م ١٢ محرم ١٢٤٦ هـ . وفي سنة
١٨٣٤ أعلن الملك « لويس فيليب » الجزائر ممتلكات فرنسية .

يقول أحمد توفيق المدني : (١)

إن احتلال فرنسا للجزائر كان أول ثغرة فتحتها الاستعمار في بلاد العروبة بأقطار البحر
المتوسط ، ولم تستطع الدول العربية والإسلامية أن تغير ساكنا أمام ذلك الحادث العظيم ، فالدولة
العثمانية ، صاحبة السيادة الأسمية علي قطر الجزائر ، كانت « الرجل المريض » . وكانت الحروب
الفتاكة التي يشنها عليها جيرانها « الروسون » قد انهكت قواها . ثم إن معركة « نفارين »
التي حطم فيها الانجليز والفرنسيون والروس الأسطول العثماني والجزائري والمصري كانت قد
أصابته الدولة في الصميم ، وسلخت عنها بلاد اليونان ، وفتحت بصفة رسمية وراثتها .

أما البلاد المصرية فكانت تُجرَّب يومئذ مغامرات محمد علي ، وكانت سياستها تجاهل
الدولة الفرنسية إلي حد بعيد ، نكاية ، بالدولة الانجليزية ، وجريا وراء التوسع والاستقلال .

أما تونس والمغرب الأقصى فكان ضعفت الدولتين « الحسينية » و« الشريفية » لا يكاد
يمكنها من حفظ الأمن الداخلي فضلا عن التدخل لفائدة الجزائر ومد يد المساعدة للمناضلين
الجزائريين .

ويقول محمد علي ديبوز (٢) عن أسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر : « إن الجزائر لقمة سائغة
بالقرب منهم . فلماذا يمدون إليها يد الاستجداء وهم أقوياء يستطيعون الاستيلاء عليها ! أياكون
الانجليز ، والأسبان ، والبرتغاليون ، والهولنديون أحسن منهم . لقد تقطعت كلها وامتدت وضربت
أوتادها في بلد من بلاد الشرق أو الغرب ، ففتحت متسعا حيويا غنيا لها ! إن الجزائر هي الأرض

(١) المرجع السابق ص ٨١ .

(٢) محمد علي ديبوز - نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة - الجزء الأول - الطبعة الأولى - المطبعة التعاونية
- غير مبين مدينة الطبع والنشر - ١٩٦٥ - ص ٧ .

الغنية الواسعة التي تتقلب فيها وترتع في خيراتها ؛ وفيها الدولة الإسلامية التي تُقْذِي عيون الصليبيين وتقلق راحتهم . إن القضاء عليها يشفي أحقادهم ، ويورث ثناء ونفوذًا ومنزلةً كبيرة لفرنسا في العالم المسيحي ! » .

والواقع أن إحتلال فرنسا للجزائر كان محصلة لتدبير الاستعمار الفرنسي منذ أوائل القرن التاسع عشر . فقد كان « نابليون » الأول يضع الجزائر في قائمة ممتلكاته في المستقبل ، عند تجزئة الامبراطورية العثمانية . وكان يعتبرها سوقًا ضرورية لتطوير الصناعة الفرنسية . كذلك كان التعطش لأسواق جديدة^(١) في عهد شارل العاشر ، والرغبة في إحياء السياسة التوسعية لفرنسا ، كل ذلك كان وراء إحتلال الجزائر .

الدراسة الوثائقية :

توجد أكثر من نسخة من المنشور في المكتبة الوطنية الفرنسية و في المكتبة الوطنية الجزائرية . وفي هذه الأخيرة تحت رقم ٢٧٢ توجد « إضبارة » تحوي عددا من الوثائق والصور بعنوان « صور جزائرية » Iconographie de L'Algérie من إعداد الباحث الفرنسي « جابريل اسكير » Gabriel Esquer .

والمنشور يقع في صفحة واحدة (طولها ٣٦ سم وعرضها ٢٦ سم) .

وباستعراض صورة طبق الأصل من المنشور مع الدكتور أشرف صالح أستاذ الإخراج الصحفي بجامعة القاهرة أشار إلي عدة نقاط حول الجوانب الإخراجية ثري توثيق المنشور من جانب وتفسر بعض معانيه الإضافية من جانب آخر . وذلك علي النحو التالي :

أولاً : الحروف :

- ١- تمت كتابة حروف هذا المنشور بخط اليد ، سواء بالنسبة لعنوانها أو متنها .
- ٢- استخدم كاتب الحروف التشكيل بالنسبة لبعض الحروف ، وخاصة (الشدة) مثل (سكان) في العنوان .
- ٣- يلاحظ اختلاف طريقة كتابة بعض الحروف عن الطريقة الشائعة ، ومن ذلك مثلا :
أ (نقطة حرف (الفاء) تقع أسفله هكذا : [الأشراف بدلا من الأشراف] .
ب) تنقيط حرف (القاف) يتم بنقطة واحدة أعلي الحرف هكذا [فلي بدلا من فلي] .
ج) وبالتالي يتم تنقيط حرف الجر (في) هكذا [في] .
د (حرفا : الصاد والضاد يكتبان بدون أسنان [ص بدلا من ص] أي كالطاء والظاء بدون ألف.

(١) د . عبد العظيم رمضان - الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٥ - ص ٩٥٥ .

هـ) توضع نقطة حرف (ظ) الظاء إلى يسار الألف هكذا [ظ] كما في كلمة (المحفوظ) في آخر سطر .

٤- الاتساع بين كل سطر والذي يليه كبير جدار بالنسبة لحجم الحروف .

ثانيا : النقوش والزخارف :

١- أحاطت بالصفحة نقشة علي شكل حرف (٦) بالعربية ، أي من أعلي أفقيا ، ومن اليمين رأسيا .

٢- هذه النقشة في جزئين :

أ (الجزء الأول : يمتد علي الزاوية كلها (رأسيا وأفقيا) وهي نقشة ذات طابع إسلامي تشبه نقوش صفحات المصاحف ، وعرض هذا الجزء يبلغ ١,٧٥ سم في الضلع الراسي من الزاوية ، لكنه يقل في الضلع الأفقي إلى ١,٥ سم فقط .

ب) الجزء الثاني : يعلو الضلع الأفقي (العلوي) من الزاوية المذكورة ، وهو عبارة عن نصف دائرة مكورة عدة مرات ، وهي تبلغ ربع دائرة فقط في الركن العلوي الأيمن من الزاوية ، ويغلب الطابع الكنسي (المسيحي) على هذه الوحدات المتكررة ، والتي فصلت بينها خطوط رأسية رقيقة ، يحمل كل منها في أعلاه دائرة ، تحوي في داخلها ثلاثة نقوش متشابهة ، كل منها تعطي شكل الصليب و نلاحظ أن بلوغ عدد الصليبان المذكورة ثلثاثة ، له معنى في المسيحية ، وهو معنى (التثليث) .

٣) ويشير ارتفاع هذه الصليبان إلى أعلى المخطوط الرأسية ، إلى الرغبة في تأكيد التفوق لهذا الرمز ، فهو يعلو ولا يعلو عليه ، أما الوحدات المكورة والمكونة من نصف دائرة ، فهي أشبه بالشمس المشرقة ، والتي تعطي معنى البعث أو البزوغ ، ومن بين هذه الشموس (المجازية) تبرز الصليبان العالية المتفوقة .

٤) أغلب الظن أن المصمم أراد في نقوشه أن يجمع بين الإسلام والمسيحية تأكيدا لعنق الروابط بينهما ولكسب تعاطف الجزائريين ، الأمر الذي يتفق مع الهدف من هذا المنشور الصادر عن الفرنسيين إلى سكان الجزائر ، ولكنه لم ينس - في غمرة توضيح الارتباط - أن يركز على تفوق المسيحية والمسيحيين ، باعتبار الفرنسيين غزاة أقوياء .

ومن ملاحظة اختلاف الحرف الواحد من حيث الشكل في المنشور فإن الأرجح أن تكون طباعة المنشور تمت على الحجر . وليست على طريقة الحروف المنفصلة التي يتم تجميعها في كلمات وسطور . وبخاصة أن النقوش تؤكد أن الطباعة في ذلك العصر لم تكن قد تقدمت في طباعة الصور اللهم إلا إذا كانت طباعة حجرية .

هذه مناداة من سار عسكر أمير الجيوش الفرنسية

إلي سكان الجزائر وأهالي القبائل

بسم الله المبدئ العبد وبه نستعين

يا أيها ساداتي القضاة والأشراف والعلماء وأكابر المشايخ والاختيارية ... اقبلوا مني
أكمل السلام ، وأشمل إشراف قلبي بمزيد العز والإكرام ... أما بعد ...

اعلموا هداكم الله إلى الرشد والصواب أن سعادة سلطان فرنسا مخدمي وعزة جنابه
الأعلى -عز نصره- قد أنعم عليّ بتوليته إيتاي منصب سارعسكر ، وبأعز أصدقائنا ومحبيننا
سكان الجزائر ومن ينتمي إليكم من شعب المغاربة أن الباشا حاكمكم من حيث إنه تيجراً على بهدلة
بيرق فرانسه المستحق كل الاعتبار ، وأقدم على إهانتته فقد سبب بجهله هذه كل ما هو عتيد أن
يحلّ بكم من الكوارث والمضرات لكونه دعى عليكم الحرب من قبلنا فإن عزة اقتدار سلطان
فرانسه - دام ملكه - نزع الله من قلبه رحمته المعهودة ، ورأفته المعروفة المشهورة فلا بد أن هذا
الباشا حاكمكم من قلة بصيرته وعمارة قلبه قد جذب على نفسه الانتقام المهول وقد دنا منه القدر
المقدر عليه ، وعن قريب يحلّ به ما استحقه من العذاب المهين أما أنتم يا شعب المغاربة اعلموا
وتأكدوا يقيناً أنني لست أتيا لأجل محاربتكم فعليكم أن لا تزالوا آمنين ومطمئنين في أماكنكم
وتعملوا أشغالكم وكل ما لكم من الصنائع والحرف براحة سرّ، ثم إني أحقق لكم أنه ليس فينا من
يريد بضرركم لا في مالكم ولا في أعيالكم ، وبما أضمن لكم أن بلادكم وأراضيكم وبساتينكم
وحوانيتكم وكل ما هو لكم - صغيراً كان أو كبيراً - فيبقى على ما هو عليه ولا يتعرض لشيء
من ذلك جميعه أحد من قومنا بل يكون في أيديكم دائماً ، فأمنوا بصدق كلامي ، ثم إننا نضمن
لكم ونعدكم وعداً حقيقياً مؤكداً غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة
معمورة على ما هي الآن عليه وأكثر وأنه لا يتعرض لكم أحد في أمور دينكم وعبادتكم فإن
حضورنا عندكم ليس هو لأجل محاربتكم وإنما قصدنا محاربة باشتكم الذي بدأ وأظهر علينا
العداوة والبغضاء ، وبما لا يخفى عليكم غاية تحكّمه وقبح طبعه المشؤوم ولا ينبغي لنا أن نطيعكم
على أخلاقه الذميمة وأعماله الرذيلة فإني واضح لديكم أنه لا يسعى إلا على خراب بلادكم
ودنارها وتضييع أموالكم وأنفسكم ومن المعلوم إنه إنما يريد أن يجعلكم من الفقراء المنحوسين
المبهدين الخاسرين أكثر من المسخط عليهم ...

فمن أعجب الأمور كيف يخفي عنكم أن باشتكم لا يقصد الخير إلا لذاته ، والدليل كون
أحسن العمارات والأراضي والخيل والسلاح واللبس والحليّ وما أشبه ذلك كله من شأنه وحده ، فيا
أيها أحيائنا سكان المغرب إنه - عز وجل - ما سمح بأن يصدر من باشتكم الظالم ما فعله من
أعمال الخيث والردى إلا إنعاماً منه - سبحانه وتعالى - عليكم حتى تحصلوا بهلاكه وبزوال
سلطنته على كل خير ويفرج عنكم ما أنتم فيه من الغم والشدة ، وإذا الحال هذه أسرعوا واغتموا

الفرصة ولا تعمي أبصاركم عما أشرقته الله عليكم من نور اليسر والخلاص ، ولا تغفلوا عما فيه مصلحتكم بل استيقظوا لكي تتركوا باشتكم هذا وتتبعوا شورتنا الذي يؤول إلي خيركم وصلاحكم، وتحققوا أنه - تعالي - لا يبغى - قط ضرر خليقته بل يريد أن كل واحد من براياه يحوز ما يخصه من وافر نعمه التي أسبغها علي سكان أرضه .

يا أيها أهل الإسلام إن كلامنا هذا صادر عن الحب الكامل وأنه مشتمل علي الصلح والمودة وأنتم إذا شيعتم مراسيلكم إلي أورديننا حينئذ نتكلم وإياهم ، والمرجو من الله تعالي . أن محادثتنا مع بعضنا بعض تؤول إلي ما فيه منافعكم وصلاحكم ، وعشنا بالله أنكم بعد ما تحققت أن مقاصدنا وغاياتنا الفريدة ليست هي سوي خيركم ومنفعتكم تشيعوا لنا صعبة مراسيلكم كل ما يحتاج إليه عسكري المنصور من الذخائر ما بين طحين وسمن وزيت وعجول وغنم وخيل وشعير وما يشبه ، وحين وصلت مراسلاتكم هذه إلينا فحالاً ندفع الثمن فلوساً نقدياً علي ما تريدون وأكثر هذا ، وإما إن كان منكم - معاذ الله - خلاف ذلك حتي تختاروا محاربتنا ومقاومتنا إعلموا أن كل سايصيبكم من المكروه والشر إما يكون سببه من جهتكم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، فأيقنوا أنه ضد إرادتنا فليكون عندكم محققاً أن عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام ودون تعب ، وإن الله يسلطها عليكم فإنه - تعالي - كما أنه يأمر من يجعل لهم النصر والظفر بالمرحمة والمسامحة علي الضعفاء المظلومين فكذلك يحكم بأشد العذاب علي المفسدين في الأرض العائنين علي البلاد والعباد ، فلا بد إنكم إن تعرضتم لنا بالعداوة والشر هلكتم عن آخركم - هذا أيها السادة ما بدالي أن أكلمكم به ، فهو نصيحة مني إليكم فلا تغفلوا عنه وأعلموا بأن صلاحكم إنما في قبوله والعمل عليه ، وأن هلاككم لا يرده عنكم أحد إذا أعرضتم عما نصحتكم وأنذرتكم به ، وأيقنوا يقيناً مؤكداً أن كلام سلطاننا المنصور المحفوظ من الله - تعالي - غير ممكن تغييره لأنه مقدر ، والمقدر لا بد أن يكون .

والسلام علي من سمع وأطاع ،

وهذا جدول يبين الأفكار الرئيسية لتبرير الغزو العسكري كما وردت بالمنشور وتكراراتها .

وحدات التحليل	التكرار
١- الأهداف العامة للغزو .	٢
٢- الدافع إلى للغزو .	١
٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية .	١
٤- الفاعل في الرسالة الدعائية .	١
٥- التبرير للعمليات العسكرية .	٢
٦- التخويف والترهيب .	٥
٧- العزل والتمييز .	٣
٨- استغلال الدين .	٣
٩- إثارة الشعب علي الحاكم .	٤
١٠- استخدام العاطفة وغريزة القطيع .	٣
١١- الإغراء والترغيب .	٢
١٢- الدعوة إلى الاستسلام بالمودة .	٣

وإذا تتبعنا الدلالات في هذا المنشور كما أوضحناها فئات تحليل المضمون نجدها علي النحو التالي :

١- الهدف من الغزو :

- أ (القضاء علي مفسد الحكام السابقين وتأديبهم .
ب) التغيير من أجل خير البلاد وصلاح أهلها ومنفعتهم .

٢- الدافع إلى الغزو :

- أ (أن الباشا حاكم الجزائر تجرأ علي بهدلة بيري فرنسة وإهانتته .

٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية :

أ (الشعب عامة .

٤- الفاعل في الرسالة الدعائية :

أ (سار عسكر أمير الجيوش الفرنسية .

٥- التبرير للعمليات العسكرية :

أ (مسئولية الحاكم عما سيحدث من الكوارث والمضرات لأنه أهان سلطان فرانسـة .

ب) الباشا هو البادئ بالعداوة والبغضاء .

٦- التخويف والترويب :

أ (استحقاق بيرق فرانسـة لكل اعتبار .

ب) اقتدار سلطان فرانسـة علي إزال العقاب .

ج) إذا اخترتم محاربتنا ومقاومتنا فسيصيبكم كل مكروه وشر .

د (عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام ودون تعب .

هـ) إن تعرضتم لنا بالعداوة والشر هلكنم علي آخركم .

٧- العزل والتمييز :

أ (المقصود بالعقاب هو الباشا الحاكم أما شعب المغاربة فلهـم الأمن والطمانينة .

ب) الغزو لا يريد ضرر المغاربة .

ج) الباشا لا يقصد الخير إلا لذاته والدليل أحسن العمارات والخيـل

والسلاح واللبس والحلي عنده .

٨- استغلال الدين :

أ (الوعد بصيانة الجوامع والمساجد .

ب) يا أيها أهل الإسلام .

ج) إن الله يسلطها عليكم .

٩- إثارة الشعب علي الحاكم:

أ (قبح طبع الحاكم المشنوم وأخلاقه الذميمة وأعماله السيئة.

ب) الحاكم يسعى لخراب بلادكم وتضييع أموالكم وأنفسكم.

ج) إنه يعمل ليجعلكم من الفقراء المنحوسين المبهـدلين الخاسرين .

د) الباشا لا يقصد الخير إلا لذاته .

١٠ - استخدام العاطفة وغريزة القطيع :

- أ) أسرعوا واغتنموا الفرصة ولا تففلوا عما فيه مصلحتكم .
- ب) إرسال الذخائر والمؤن للجيش المعتدي .
- ج) الدعوة للاتضمام لصفوف الغازين .

١١ - الإغراء والتغيب :

- أ) مقاصدنا وغاياتنا خيركم ومنفعتكم .
- ب) طلب الذخائر مقابل الفلوس النقدية فوراً .

١٢ - الدعوة إلى الاستسلام بالمودة :

- أ) الحب الكامل .
 - ب) دعوة الحب والصداقة والسلام .
 - ج) الصلح والمودة بإرسال مراسيلكم والتفاوض معنا للمنفعة والصلاح .
- وبين لنا التحليل الكمي للتكرارات أن التخويف والترهيب حظي بالصدارة ثم تلاه إثارة الشعب علي حاكمه . وبعد ذلك تساوت التكرارات في العزل والتمييز واستغلال الدين . واستخدام العاطفة وغريزة القطيع . وتصبح الصورة أوضح في التحليل المقارن لبقية المنشورات .
- كذلك فإنه علي ضوء هذه الفئات تتحدد مركيزات وأساليب الاختراق الثقافي علي النحو التالي :

* أولاً : مركيزات الاختراق :

- ١- اصطناع التناقض بين الباشا الحاكم للشعب الجزائري من ناحية والشعب من ناحية أخرى ، فالأول الباشا لا يمثل الشعب ، وهو علي أقل تقدير يمثل السبب الرئيسي في « الاحتلال » الذي يقدمه المنشور الفرنسي باعتباره « تحريراً » للبلاد من نفوذ الحاكم (الباشا) الذي لم يحسن معاملة الفرنسيين وتجراً علي الخطأ حق في « بيرق فرنسه المستحق كل اعتبار » .
- ٢- اختلاق مساوئ للباشا ، والبحث في مساوئه الحقيقية ، واستدعائها ، والمبالغة في تضخيمها والعمل علي الترويج لها بين الجماهير بهدف إيجاد فجوة يفقد معها الحاكم شعبيته وتضيق مصداقيته ، وينتهي به الحال إلي الوقوف وحيداً عند تفكيره في مقاومة « الاحتلال » الفرنسي للبلاد .
- ٣- الحرص علي الربط بين مجي قوات الاحتلال الفرنسي وتزايد الفساد والهوان والظلم ونهب ثروات البلاد علي يد الباشا ، وفي هذا السياق تبدو قوي « الاحتلال الفرنسي » باعتبارها « المنقذ » للبلاد الذي جاءت به العناية الإلهية .
- ٤- تهيئة العقول للقبول بالوجود الفرنسي الجديد ، وذلك بالإيحاء المستمر بأن ذلك يعد أمراً طبيعياً ، وأن الترحيب بالجنود الفرنسيين هو سلوك العقلاء الذين يلزمون أماكنهم ويواصلون

أعمالهم دون أن يشغلوا أنفسهم بأدني خوف ، وأن ما عدا ذلك ، وخاصة مساندة الحاكم ضد الفرنسيين والمشاركة في مقاومتهم ، فإنه يعد تحديا لمشيئة الله في « تحرير » البلاد علي أيدي الفرنسيين .

٥- التلويح المستمر بالعقاب الشديد لمن يجرؤ علي مساعدة الحاكم « الظالم والفساد والمستبد » والترغيب الدائم في إعلان التأييد للتواجد الفرنسي باعتبار أن ذلك هو السلوك الواجب الذي يحقق لأصحابه الخير ويساعدهم في الوصول إلي أهدافهم سواء تلك التي تتعلق بالمال أو بالمنصب .

*ثانيا : أساليب معالجة المراكز :

١- تشويه صورة الباشا الجزائري (الحاكم) بالتحرك علي المحاور التالية :

أ) التركيز علي أفعال « سيئة » أقدم ويقدم عليها الحاكم - في رؤية المنشور - وتشكل مصدر استفزاز للفرنسيين .

ب) التركيز علي صفات « سيئة » للحاكم ، بعضها قد يكون مختلفا وبعضها الآخر قد يكون أمرا قائما ويصعب نفيه ، لكن المؤكد أن المنشور ينزع دوما إلي تضخيم مساوئ الحاكم ويبالغ في عرضها .

ج) التنبيه إلي الأفعال السيئة التي ينبغي أن تقع علي الحاكم وغيره بسبب أفعاله وصفاته السيئة باعتبار أن ذلك رد فعل طبيعي ، وذلك في إطار الإيحاء للمواطنين بأن هذا الحاكم مصدر الخطر علي الشعب يجلب عليه الضرر وأنه لا منفعة وراء وجوده أو استمراره في الحكم .

أ) الأفعال « السيئة » للباشا (الحاكم) الجزائري :

- تجرأ علي بهدلة « يبرق فرنسا المستحق كل الاعتبار ، وأقدم علي إهانتته » .

- أضمر لفرنسا العداوة والبغضاء .

- يسعى لخراب الجزائر ودمارها وتضييع الأموال والأنفس .

- يريد أن يجعل الجزائريين من الفقراء ، المنحوسين ، والمبهذلين الخاسرين .

- يقصد الخير لذاته ، ولا يهتم حال الآخرين ، إذ احتكر أحسن العمارات والأراضي والخييل والسلاح واللبس والحلي ، وما إلي ذلك لنفسه .

- تصدر منه أعمال خبيثة وردينة .

- يؤدي استمراره في الحكم إلي دوام « حالة الغم والشدة » التي يعيشها الشعب الجزائري .

ب) الصفات السيئة للحاكم :

- جاهل ، أدي جهله إلي كوارث ومضرات عديدة لحقت بالشعب الجزائري ، وفي مقدمة هذه

الكوارث ، قدوم الفرنسيين أنفسهم في حرب تعتبر في مجملها رد فعل علي الأفعال السيئة للحاكم الجزائري بإهانة بيرق فرنسا الذي لا ينبغي لأحد أن يتناول عليه .

- قليل البصيرة .

- أعمى القلب .

- متسلط ، ومستبد في حكمه .

- قبيح الطبع .

- أخلاقه ذميمة .

- أعماله رذيلة .

ج) الأفعال السيئة التي تقع علي الحاكم (الجزء) :

- محاربتة للتخلص منه بمفرده عقابا له علي أخطائه في حق فرنسا وفي حق الشعب الجزائري ، ومن قبلهما في حق الله .

- الانتقام منه شخصا ، باعتباره الإنسان الأول في الجزائر الذي يستحق ذلك .

- استخدام أقسى ألوان العذاب معه كمحصلة طبيعية لعدائه لفرنسا .

وهكذا ، ففي إطار أفعال الحاكم السيئة ، وصفاته السيئة ، والأفعال السيئة التي يتسبب في وقوعها ، تتم محاولة إقناع الشعب الجزائري ، بأن هذا الحاكم هو السبب الرئيسي في الحرب (التي هي غزو عسكري أصلا) ، وأن ما يجري من صدام مع فرنسا ليس سوي صدام بين طرفين الباشا والفرنساوية ، وأنه ليس هناك ما يعني الشعب في الاشتراك في هذا الصدام ، وأن الباشا يستحق ذلك ما دام علي هذا الحال السيئ ؛ فأفعاله وصفاته السيئة ، لا بد وأن تقود إلي أفعال سيئة تقع عليه ؛ إنه العقاب الواجب في المنشور الفرنسي . والمحصلة الطبيعية لكل ذلك أن يجد فرنساوية المبرر القوي والشرعية الأقوي لاحتلال الجزائر ، الذي يسمونه «تخليصا لشعبها من ظلم الحاكم وتسلطه » ، ومن ثم تضييع الحقيقة ، وعندما ينطلي ذلك علي عقول العوام يصدقون أن الأوضاع في ظل الوجود الفرنسي الجديد ستكون أفضل مما كانت عليه في ظل الباشا .

٢- التقدير « الخاص » للجماهير :

من اللافت للنظر في المنشور الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ أن صياغاته تحمل في طياتها نوعا من التقدير للشعب الجزائري . وإذا كان من الصعب إصدار حكم قاطع حول حقيقة هذا التقدير ، فمن السهل القول بأن هذا تقدير « ظاهري » توحى به لغة المنشور نفسه ، وأن الواقع قد ينفي ذلك تماما ، فأبي تقدير هذا الذي تكنه فرنسا لشعب تغزو أرضه وتنتهك استقلاله وتبيد ثقافته ؟ . وإذا كان هذا التساؤل ينفي التقدير الظاهر ، فإن هذا لا يمنع من رصد مظاهره ، وهي علي النحو التالي :

أ) لا يقدم المنشور أفكاره ومعلوماته باعتبارها « أوامر » أو « قرارات » يجب على الجزائريين الامتثال لها أو تنفيذها ، وإنما يحرص علي أن ينبه بداية إلى أنه - أي المنشور بمثابة « مناداة من سار عسكر أمير الجيوش الفرنسية » يعرض فيها أفكار ومعلومات الفرنسية التي تهم الجمهور الجزائري بصياغات معينة « اعلموا هداكم الله » أو « اعلموا وتأكدوا » و « تتبعوا مشورتنا التي تؤول إلي الخير والصلاح » .

ب) يؤكد المنشور أن الشعب الجزائري لا يمثل طرفا في الصراع ضد الفرنسية ، وفي هذا السياق فإنه يحرص علي التركيز المستمر علي أن الحرب ليست ضد الشعب الجزائري ، وإنما ضد الباشا ، فهو يشير إلي « أننا لم نأت إلي بلادكم لمحاربتكم » ويؤكد « إن حضورنا عندكم ليس لأجل محاربتكم وإنما قصدنا محاربة باشتكم » .

ج) التنبيه علي ابتعاد الفرنسيين عن كل ما يضر الجزائريين في أموالهم وفي عيالهم ، والدعوة باستمرار الأمان والطمانينة ومواصلة الأعمال في الصنائع والحرف .

د) التقرب إلي السكان من خلال التأكيد علي معزتهم وصدقتهم والتعبير عن الحب والمودة اللذين يحتفظ بهما الفرنسيون لأهل الجزائر . ومن ثم فإنه كان يستند إلي صياغات تعزز هذا الاتجاه مثل : « يا أعز أصدقائنا ومحبينا سكان الجزائر ومن ينتمي إليكم من شعب المغاربة » أو « يا أهل الإسلام » أو « يا أحبائنا سكان المغرب » .

هـ) يمتلئ المنشور بالصياغات التي تؤكد حرصه علي التوجه إلي « سكان الجزائر وأهالي القبائل » ولكنه في الوقت نفسه يعطي اهتماما خاصا لبعض الكيانات الاجتماعية التي تحظى بمكانة خاصة في المجتمع الجزائري . حيث يبدأ المنشور بمناداة « للقضاة والأشراف والعلماء وأكابر المشايخ والاختيارية » يدعوهم بقبول « أكمل السلام وأشمل أشراف قلبه بمزيد العز والإكرام » . وبعد ذلك يبدأ المنشور في التوجه بلسان « سار عسكر أمير الجيوش الفرنسية » إلي « أعز أصدقائه ومحبيه سكان الجزائر ومن ينتمي إليهم من شعب المغاربة » . وتتسق بداية المنشور في التوجه إلي القضاة والأشراف والعلماء وأكابر المشايخ والاختيارية مع مكانة هذه الفئات جميعها في حركة المجتمع الجزائري ، وفي تحديد رد الفعل الممكن أو المتوقع إزاء الاحتلال الجزائري ، بحكم ما تحتله هذه الكيانات أو القوي من مناصب تزداد فيها درجة الاحتكاك بالجماهير ، وبالتالي فإن الأهمية الخاصة التي تمنح لهذه الكيانات لا تمنح لها لذاتها ، وإنما لقدراتها التأثيرية في تحريك الشعب وإشعال المقاومة في مواجهة الغازي الدخيل ، أو في تهدئة الأوضاع لصالح الاحتلال ، إما بالصمت عن انتهاكه لاستقلال الجزائر وسيادتها ، وإما بالدعوة إلي القبول بالوجود الفرنسي تحت مسميات براقية في مظهرها ، خادعة في حقيقتها .

هذا التقدير المصطنع الهدف منه الوصول إلي غايات معينة ، يمكن حصرها فيما يلي :

- كسب ود الشعب الجزائري وقطع الطريق أمام أية مقاومة أو معركة متوقعة ضد الغزو الفرنسي.
- الفصل بين الباشا والشعب ، وضمان بقاء الشعب بعيدا عن الباشا في حال تفكيره في مقاومة

القوات الغازية، وفي هذا الإطار فإن المنشور يفصح عن ذلك صراحة ويخاطب الجزائريين: «استيقظوا لكي تتركوا باشتكم هذا وتتبعوا شورتنا «مشورتنا» الذي يؤول إلي خيركم وصلاحكم» .

- دفع الشعب الجزائري إلى إرسال مندوبيه لمقر «سار عسكر أمير الجيوش الفرنسية» ومن ينوب عنه، لكي يعلنوا تأييدهم للوجود الفرنسي، وبعبارة أكثر دقة للاحتلال الفرنسي للبلاد.

- ضمان حصول الجيش الفرنسي على امداداته من المؤن المختلفة . وفي هذا الصدد يطلب « سار عسكر» صراحة من الشعب الجزائري أن يرسل مع مندوبيه (مراسيله) « ما يحتاج إليه عسكرهم المنصور من الذخائر ما بين طحين وسمن وزيت وعجول وغنم وخيل وشعير وما يشبهه» ويعرب الفرنسيون عن المبالغ المرتفعة التي يمكن أن يدفعوها مقابل ذلك : « حين تصل مراسلاتكم هذه إلينا فحالا ندفع الثمن فلوساً نقدية علي ما تريدون وأكثر ».

في البداية تتضح لغة المنشور « الرقيقة » ويستمر حالها هكذا ، وهي تندرج من العرض للأهداف المختلفة ، والتقدير الفرنسي « للشعب » في إطار الاحترام لكل من يدرك مساوئ الباشا، ويتعدد عنه ، ويقدر دور فرنسا في التخلص منه ، ويعلن تأييده لها ، ويوفر لها ما يحتاجه جنودها من مؤن ، ولكن سرعان ما يتحول « التقدير » إلى « تهديد » لكل من تسول له نفسه الخروج علي هذا . فيقول « وأما إن كان منكم معاذ الله خلاف ذلك ¹ خلاف المؤيدين] حتي تختاروا محاربتنا ومقاومتنا اعلما أن كل ما يصيبكم من المكروه والشر إنما يكون سببه من جهتكم ، فلا تلوموا إلا أنفسكم ، وأيقنوا أنه ضد إرادتنا وليكون عندكم محققا أن عساكرنا المنصورة تحيط بكم بأيسر مرام ودون تعب ، وأن الله يسلطها عليكم ، ذلك لأنه تعالي كما أنه يأمر من يجعل لهم النصر والظفر بالمرحمة والمسامحة علي الضعفاء المظلومين فكذلك يحكم بأشد العذاب علي المفسدين في الأرض علي البلاد والعباد ، ولابد أنكم إن تعرضتم لنا بالعداوة والشر هلكتم عن آخركم » .

وهكذا يتبين أن المنشور لا يكتفي بالتهديد بعساكر فرنسا المنصورة التي يفاخر بها والتي تحيط بالمعارضين في سهولة ويسر وإنما يتسلح في تهديده بالدين فيعتبر أن هلاك المعارضين أو قتلهم إنما هو نوع من العذاب الذي حكم به الله علي المفسدين في الأرض ، ويتبين أن كل هذا التهديد المبني علي التلويح باستخدام القوة لقتل المعارضين وضمان هلاكهم ، إنما ينهني علي موقف المعارضين الرافض لإتاحة الفرصة أمام فرنسا لتحقيق أهدافها .

٣- خلق الشرعية الدينية اللازمة لتعشيب النفوذ الفرنسي وضمان استمراره :

يعمد المنشور الفرنسي إلي تليفق مفاهيم دينية يتم تزيفها لتصبح للفرنسيين سندا قويا لتحقيق أهدافهم في الغزو . ولا شك إن ذلك يثير قضية اهتمام قوي الغزو الاستعماري بالمعالم المميزة للمجتمعات العربية الإسلامية، وفي مقدمتها المكانة المركزية للدين الإسلامي في هوية هذه المجتمعات ، وفي صياغة حركتها وتحديد مواقفها وممارساتها . ومن الواضح إن المنشور الفرنسي

للجزائر يدل دلالة قاطعة علي وعي الفرنسيين بهذا وأهمية « توظيفهم » لتلفيقات دينية في تسهيل عملية الغزو ، وفي الإسراع بالتخلص من الحاكم وعزله عن شعبه وضمان تحييد الشعب الجزائري وإبعاده عن التفكير في مقاومة الاحتلال الفرنسي ، ويمكن ملاحظة ذلك علي النحو التالي :

- يبدأ المنشور الفرنسي مستفتحاً بالبسملة « بسم الله المبدئ المعيد وبه نستعين » وبذلك فإنه يصدر نفسه باسم الله موجياً بحرصه علي التقليد الإسلامي في استهلال الحديث أو في بداية الأعمال وهو البدء بذكر الله سبحانه وتعالى . وهكذا فإن المنشور بدأ بتعليق لافتة « البسملة » ثم يقدم من أفكاره ما يشاء .
- يزعم المنشور الفرنسي أن ما ينقله لسكان الجزائر يمثل أمورا حقيقية ، صادقة ، لا كذب فيها ولا افتراء ، ولذلك فإنه عندما يتوجه إلي عليية القوم من الجزائريين ، يطلب منهم التصديق ويدعو لهم بالهداية والرشاد ، ومن ثم يتجه الإيحاء هنا إلي أن من يقبل علي التسليم بما يقوله المنشور يكون الله له هاديا ومرشدا ، وبالتالي إذا أراد المرء الهداية والرشاد فلا ينبغي له التفكير في غير ما يقوله المنشور ، وإلا أُعْتَبِر من هؤلاء الذين لم يَحْظَوْا بشرف الهداية والرشاد .
- يحرص الفرنسيون علي التأكيد علي عدم المساس بالمساجد ، وضمان استمرارها معمورة كما هي عليه بل أكثر ، وكذلك عدم التعرض للجزائريين في عبادتهم وأمور دينهم .
- يعرض المنشور للأعمال الخبيثة للبasha باعتبارها أعمالا لا يقبلها الله .
- ينبه المنشور الجزائريين إلي أن زوال سلطة البasha وهلاكه علي يد الفرنسيين يعد من النعم التي أنعم بها الله عليهم ، وأن دور الفرنسيين في هذا ، يعد بمثابة « إشرافة إلهية من نور اليسر والخلاص » . إذ يذكر الشعب الجزائري بأنه إذا كان البasha قد احتكر كل شيء لنفسه ؛ العمارات والأراضي والخيول والسلاح واللبس والحلي... إلخ ، فإن « الله يقضي بأن يحوز كل واحد من برباه ما يخصه من وافر نعمه التي أسبغها علي سكان أرضه » . ومن الواضح أن الإيحاء هنا ينصرف مباشرة إلي القول بأن الفرنسيين لا يقبلون ممارسات البasha الاحتكارية التي تحول دون تمتع الشعب الجزائري بثرواته ، وإنهم سيمثلون لإرادة الله التي تقضي بالتوزيع العادل للثروة . وأن فارقا بينهم والبasha كبيرا ؛ فبينما يتجاهل البasha شريعة الله وحكمه ، ويقبل أن يكون علي درجة عالية من « الأنانية » يهيمن بمقتضاها علي الثروة والسلطة في البلاد ، يعي الفرنسيون شريعة الله وحكمه وسيؤدي تخليصهم من البasha وتوطيد دعائم وجودهم في الجزائر إلي سياسات تفضي إلي توزيع عادل للمنافع ، يتغير معه حال الجزائريين ويودعون حياة الفقر والذل والغم والشدة التي أفرزتها سياسات البasha . وبالإجمال « الخير في قديمهم » ، لأنهم الذين يعرفون الله حق المعرفة ويملكون الاستعداد للامتثال لموجبات شرعه ، و « الشر كل الشر في بقاء البasha أو التجرد علي مساندته » لأن ذلك يرتبط - بالضرورة -

بالحاق الأذى بالشعب الجزائري وتعطيل شرع الله .

ومما سبق يتبين أن ثمة رؤية يعمد المنشور للتأسيس لها في العقل الجزائري ، وتقوم هذه الرؤية على إقامة الارتباط المزيف بين الوجود الفرنسي ، ومعرفة شريعة الله وموجباتها من ناحية، وبين بقاء الحاكم الجزائري « الباشا » وتجاهل شريعة الله وتعطيل أحكامها من ناحية أخرى. ولاشك في أنها تحاول جاهدة ، استثمار العاطفة الدينية لدى الشعب الجزائري في إقرار نوع ما من الانحياز لأي من طرفي الصراع ! « الانحياز مع » المحافظ على الشريعة المذكور لموجباتها ، و « الانحياز مع » المتجاهل للشريعة ، المعطل لموجباتها ، والأول هو في مجمله : « انحياز مع الله » والثاني : « انحياز ضد الله » وما دامت القضية تصاغ هكذا : إما هذا ؟ وإما ذاك ؟ فلاشك أن هذا سوف يقضي إلى تحقيق المصلحة الفرنسية، ذلك لأنه من الذي يجرؤ على الانحياز إلى جانب الباشا الذي هو في حقيقته - الظاهرة - انحياز ضد الله - كما يصوره المنشور.

وتلك واحدة من المغالطات الرئيسية التي تؤذيها القوي الاستعمارية بوعي شديد لكي تضمن الاستيلاء على عقول العوام ممن تنطلي عليهم هذه التلقينات ، لكي تتجنب الثورة العارمة التي يمكن أن تشتعل من جراء الربط بينها وبين ضرب المجتمعات الإسلامية ، وإلحاق أبلغ الضرر بقيم هذه المجتمعات وتقاليدها .

*** المنشور البريطاني الذي طبع ولم يوزع علي مصر (عام ١٩٥٢م):**

كان قيام الثورة في مصر عام ١٩٥٢ حدثا مشهودا في تاريخها وبداية جديدة ، مثلما كانت الحملة الفرنسية علي مصر عام ١٧٩٨ بداية مرحلة تاريخية جديدة . وكما كان الجبرتي أيامها شاهدا ومؤرخا فذاً ، كذلك يحتل محمد حسنين هيكل مكانا فذاً وفريداً بصفته شاهدا ومؤرخا للحقبة الناصرية في تاريخ مصر المعاصر . يبسط هيكل تحليلية لقيام الجيش بالثورة في ليلة ٢٢ يوليو وفجر ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ فيقول :

« إن تدافع الحوادث من حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢ وخلال ستة شهور إلى يوليو ١٩٥٢ ، لم يكن يترك لأحد مجالا للشك في أن التغيير قد أصبح علي الأبواب . ويمضي هيكل إلى القول بأن الجيش المصري كان مرشحا ليؤدي دور التغيير ويورد ثمانية حشيات لهذا الحكم التاريخي يسوقها علي النحو التالي :

أولا : لأن الجيش كمؤسسة وطنية في مصر له دور قديم في التاريخ فهو الجهاز الرئيسي في سلطة الدولة في وطن تقوم فيه سلطة الدولة (في مجتمع مائي) بدور رئيس في حياته . ولقد كان من هنا أن الكهنة وقواد الجيش كانوا أهم شخصيات السلطة إلى جانب « الفرعون » .
ثانيا : لأن تاريخ مصر الحافل بالغزوات الخارجية بسبب موقعها الجغرافي أعطي لقضية الدفاع عنها أهمية كبرى .

ثالثاً : لأنه حتى في العصر الإسلامي ودوله المختلفة لعب القواد دوراً رئيسياً في قيام وسقوط الحكام والعصور .

وأيضاً : فإن خصائص العصور المملوكية ، والعصر العثماني في وسطها ، كرس هذا الوضع لقرون طويلة ، وإن كان الشعب المصري بكل قواه لم يكن له فيها غير دور المتفرج ، حتى علي صراعات هؤلاء المماليك أو العثمانيين الأجانب ، وأدوارهم الغريبة في قيام الدول وسقوطها .

خامساً : فقد كانت تجربة مصر الحديثة التي بدأت مع (محمد علي) تجربةً مثُلَ الجيش فيها دور أداة التطوير والانتقال .

سادساً : فإن الثورة العربية في محاولتها اليائسة اعتمدت لأول مرة - أو حاولت - علي جيش وطني مصري ، الأمر الذي أدى بعد فشلها إلي حل الجيش المصري تماماً .

سابعاً : لأنه بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ فإن الباب قد انفتح مرة أخرى لعودة جيش مصري وطني يدخله أبناء طبقات أخرى غير أبناء الأمراء والنبلاء وأبناء ملاك الأراضي أو محاسبيهم .

ثامناً : فإنه مع طبيعة مرحلة النمو التي كانت مصر تحتازها بعد الحرب العالمية الثانية ومع تعثر نشأة طبقات اجتماعية قادرة علي تحقيق توازن يكفل الاستمرار والاستقرار في علاقاتها فإن جهاز الدولة أصبح هو في الواقع مكنن السلطة وأداتها ، وفي هذا الجهاز فإن القوات المسلحة تصبح بالطبع جزءاً رئيسياً منه فهي القادرة بقوتها علي دعم أوضاع قائمة أو التخلي عن دعمها . ولأن الجيش المصري الوطني لم يتحول إلي مؤسسة عسكرية بالمعني الموجود والمتعارف عليه في بلدان أخرى ، وإنما كان جزءاً من الحياة العادية والطبيعية في الوطن المصري فقد كان منطقياً أن يظهر فيه ، وينعكس عليه كل ما يتعرض له « الكل » الوطني ويجري عليه .

ثم يسجل هيكل الواقع التاريخي لأحداث الثورة ممتزجا برؤيته التحليلية فيقول :

« وفي مساء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ وفجر اليوم التالي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كان تنظيم الضباط الأحرار ، داخل الجيش المصري هو الذي اقتحم الساحة ، واستطاع بلورة وتوجيه واستغلال « الحالة الثورية » ، وأطاح بأسرة « محمد علي » ، وبكل النظام الذي كان يمثل السلطة تحتها » .

ويقول هيكل : كانت المعضلة الكبرى هي الاحتلال وقوته المتربصة والمتحفزة في منطقة قناة السويس . كانت هذه القوات هي الحقيقة الكبرى في المواجهة الخطرة التي أعقبت قيام الثورة ، وكانت تلك النقطة بالذات هي الشغل الشاغل ، « لجمال عبد الناصر » في الساعات الحاسمة السابقة علي إعلان الثورة والتالية لها ، وقد حاول جاهداً استكشاف الاحتمالات الكاملة فيها وتداعياتها وعواقبها .

كان السؤال الكبير المعلق فوق كل الرؤوس في تلك الساعات الحرجة هو :

- « هل تتدخل القوات البريطانية عسكرياً لحماية النظام الملكي الذي استعملته واجهة لحكم مصر طوال فترة الاحتلال ، أو تتركه لمصيره (وهي في هذه الحالة لا تترك النظام الملكي وحده

لمصيره ، ولكنها تضع الاحتلال نفسه أمام عامل مجهول في مصر ظهر دوره فجأة ، ولم تتضح بعد حقيقة نواياه (؟) .

ولقد مال « جمال عبد الناصر » إلى الرأي الذي كان يرى أن الانجليز لن يتدخلوا لحماية الملك لأسباب عديدة . ومن نتيجة ميله لهذا الرأي فإن تحسبه للموقف البريطاني إزاء الثورة اقتصر على خطوات محدودة ، تمثلت في إرسال بعض القوات بسرعة صباح يوم ٢٢ يوليو ، لكي تحتل خطأ دفاعيًا مؤقتًا على الطرق المؤدية إلى القاهرة والدلتا ، من السويس والاسماعيلية وبورسعيد ، ولم تكن هذه القوات في هذا الخط الدفاعي المؤقت قادرة على ما هو أكثر من مجرد تعطيل التدخل لكن مجرد التعطيل بدا كافيًا . فقد كان الجزء الأهم في المواجهة هو الاعتماد على التأييد الشعبي المتوقع للثورة ، بحيث يكون هو الرادع الحقيقي لأي محاولة للتدخل وقد أضيف إلى ذلك على أي حال إجراء آخر تمثل في إرسال مبعوثين في الصباح الباكر من قيادة الثورة الجديدة إلى عدد من السفارات الأجنبية في القاهرة ، وأولها السفارة البريطانية لإخطارها بأن التغيير الذي حدث في مصر هو قضية داخلية بحتة ، وأن السلطة الجديدة تتحمل كافة مسئوليات مصر الدولية إزاء العالم الخارجي .

ولقد أثبت الرأي الذي يميل لاستبعاد تدخل الانجليز أنه مثل كل اجتهد إنساني يصدق في جزء منه ، ويخطئ في جزء آخر . فإن احتمال التدخل لم يتحقق في اليوم الأول للثورة ، وحتى بعد أن حاول الملك « فاروق » أن ينشأ الانجليز بالتدخل لحمايته ، وعلى عكس ما نصحه به رئيس وزرائه « نجيب الهلالي » (باشا) في آخر لقاء بينهما في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٢٣ يوليو ، فإن الملك حاول الاتصال بعدد من أصدقائه العسكريين البريطانيين ، ولم يستطع هؤلاء أن يعدوه بأكثر من إخطار لندن بمطلبه . ولم يتلق الملك جوابا حتى خروجه من الاسكندرية ، إلى منفاة في إيطاليا تحت الحماية الشخصية للسفير الأمريكي « جيفرسون كافري » الذي وجدها فرصة لإسداء جميل أخير للملك ، إلى جانب كونها فرصة يقابل فيها مباشرة أي واحد من الرجال الجدد الذين اقتحموا المسرح .

ولكن الذي لم يعرفه الملك ، والذي لم يقدره الرأي الذي مال لاستبعاد التدخل البريطاني ، هو أن الحكومة البريطانية بدأت فعلا تعد للتدخل العسكري إلى الحد الذي دعاها إلى إصدار الأمر بالاستعداد لتنفيذ الخطة « روديو » (Rodeo) (لاحتلال القاهرة والدلتا والاسكندرية) . كان تفكير لندن يتحرك بسرعة زائدة في الفترة ما بين ٢٣ و ٢٦ يوليو ١٩٥٢ . في البداية كان وقع المفاجأة شديداً فإن لندن لم تكن مستعدة لقبول أن يقع حدث بهذا الحجم في القاهرة دون أن تكون على علم مُسبق به ، ودون أن تكون لديها أدنى فكرة عن مصدره واتجاهاته . ولقد بدا كل شيء غامضا بالنسبة للسفارة البريطانية في القاهرة ولما كان السفير البريطاني السير « رالف ستيفنسون » غائبا وقتها عن مقره في إجازة صيف في لندن فإن عبء السفارة كله وقع على نائبه المستر « مايكل كريسويل » . وتظهر أول برقية من « كريسويل » إلى وزارة الخارجية بعد الثورة حيرته الشديدة في إخبار لندن بما حدث ثم تظهر برقيته الثانية صدمته من تلاحق التطورات

الجارية أمامه ، ثم تظهر برقيته الثالثة أن كل ما لديه هو معلومات مبتسرة ومشوهة عن دخائل ما جري . وصباح يوم ٢٤ يوليو كانت برقيات «كريسويل» لوزارة الخارجية حافلة بالندر ، ولعله كان يريد أن يغطي موقفه بإظهار أقصى حالات التشاؤم لكي يبرر مفاجأته بالتطورات فأقصى حالات التشاؤم في مثل هذه الحالة تظهر الموضوع وكأن مؤامرة سرية كان من الصعب علي أحد أن يتنبأ مقدما بها ثم أن أقصى حالات التشاؤم كانت ترفع عنه مسئولية أية عواقب قد تتطور الأمور إليها فهو إذ يعد حكومته لأسوأ الاحتمالات يعني نفسه في الواقع ومقدما من أي شيء.

وهكذا فإن « كريسويل » راح يومي ٢٤ ، ٢٥ يوليو يصور قادة الثورة في مصر علي أنهم مزيج من « الأشرار والمغامرين والبلطجية (Thugs) .

وتكشف ملفات وزارة الحربية البريطانية إن اجتماعا عسكريا عقد في مقر القيادة في فايد (قيادة قوات الشرق الأوسط البريطانية في منطقة قناة السويس) يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحضره القائد العام للقوات البريطانية في مصر وممثلون عن قيادة الشرق الأوسط بما فيهم البحرية والطيران وحضره أيضا المستر « مايكل كريسويل » القائم بأعمال السفير البريطاني في القاهرة وأنهم بعثوا بتقديرهم للموقف عما يرونه في مصر ، وبناء علي ذلك صدرت تعليمات للقيادة البريطانية بأن تكون جاهزة للتدخل بموجب خطة « روديو » (Rodeo) بعد إنذار لا تزيد مدته علي ست ساعات .

ولقد كان تقدير حجم القوات البريطانية الموجودة في قاعدة قناة السويس هو النقطة الرئيسية في خطأ الرأي الذي مال إلي استبعاد تدخل عسكري بريطاني ضد الثورة .

كان هذا التقدير يظن أن القوات البريطانية في قاعدة قناة السويس لا تزيد علي فرقة واحدة ، وكان هذا التقدير خطأ ، فإن حجم القوات البريطانية في منطقة القناة كما تقول بذلك ملفات وزارة الخارجية البريطانية لم يكن فرقة واحدة - كما كان الظن - وإنما كان أربع فرق أي ٨٠ ألف جندي بخلاف قوات الطيران والبحرية . والواقع أن حجم هذه القوات كان بالفعل فرقة واحدة ، حتي قامت حكومة الوفد بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، ولكن إلغاء المعاهدة وتوتر الموقف بين مصر وبريطانيا في أواخر ١٩٥١ وأوائل ١٩٥٢ أدى إلي زيادة حجم القوات إلي درجة تكفيها لتحمل أعباء الخطة « روديو » (Rodeo) ، وفي يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ كانت آلات المطابع السرية في قاعدة قناة السويس تدور لتطبع المنشورات التي كانت القوات الغازية سوف توزعها عند دخولها علي السكان المدنيين في القاهرة المحتلة وفي الاسكندرية المحتلة .

ويختم هيكل هذا المشهد التاريخي بقوله : إن خطر التدخل العسكري ضد الثورة في تلك الفترة ظل معلقا فوق الرؤوس لمدة شهر كامل .

الدراسة الوثائقية :

ظل هذا المنشور سرا علي جمهور القراء والدارسين حتي نشره محمد حسنين هيكلي في الحلقة السادسة من كتابه ملفات السويس في صحيفة الأهرام في ٨ أكتوبر ١٩٨٦ ، وكان عنوان

الحلقة « سر يذاع لأول مرة » . وفي طبعة الكتاب نشرت صورة المنشور في الملحق الوثائقي تحت رقم ٧٨ في ترتيب الوثائق بالكتاب في صفحة ٧٣٤ من صفحات الكتاب^(١) .

نص المنشور :

إلى سكان القاهرة

إن القوات البريطانية التي تحت إمرتي وقد وصلت إلى القاهرة لحماية أرواح الرعايا البريطانيين المقيمين فيها بشكل قانوني . وقد أصبح هذا ضروريا بسبب العجز الواضح للحكومة الملكية المصرية في القيام بواجبها الأساسي في حماية أرواح الأجانب في مصر . ولن أسمع بأي ثمن بتكرار الأحداث التي وقعت في هذه المدينة في ٢٦ كانون الثاني ، يناير ١٩٥٢ حيث قتل رعايا بريطانيون وخرت ممتلكاتهم .

ولتحقيق هذه النية أصدرت الأوامر الآتية ، والتي عليكم إطاعتها :

- ١- لحين صدور أوامر أخرى سأعلنها عن طريق مكبرات الصوت أو بأي وسيلة أخرى ، سيكون عليكم الوجود داخل حدود منازلكم إلا إذا كان بحوزتكم تصريح مرور صادر تحت أوامري يسمح لكم بالوجود في أماكن أخرى ، وقد صدرت الأوامر للحراس والدوريات بإطلاق النار على الأشخاص الذين يوجدون خارج منازلهم والذين لا ينفذون الأوامر الصادرة لهم فوراً .
 - ٢- عليكم التصرف بطريقة مسالمة ولن يسمح لكم بتعطيل أو إيذاء القوات التي تحت إمرتي .
 - ٣- عليكم إطاعة جميع الأوامر الصادرة في إطار سلطتي دون إبطاء .
 - ٤- طالما تصرفتم بطريقة مسالمة واتبعتم أوامري فلن يجري التدخل في شئونكم بأكثر مما هو ضروري ، ويمكنكم القيام بأعمالكم المعتادة دون خوف .
 - ٥- سيجري احترام القوانين السارية والعادات والحقوق والممتلكات طبقاً للقانون الدولي ، ويقدر ما تسمح به الضرورات العسكرية .
 - ٦- ومن مصلحتكم أن تسير الإدارة والخدمات المصرية بشكل كفء . ولذلك فعلي المسئولين والموظفين المصريين أن يبقوا في وظائفهم وأن يقوموا بأداء واجباتهم بإخلاص .
 - ٧- وستصدر أوامر أخرى من آن لآخر حسب الحاجة .
 - ٨- وفي حالة حدوث أي اختلاف بين النصين الانجليزي والعربي لهذا الإعلان سيعتبر النص الانجليزي هو الأصل وسيفسر طبقاً للقانون الانجليزي .
- صدر في هذا اليوم ١٩٥٢ .

(١) محمد حسنين هيكل - ملفات السويس - الطبعة الأولى - الناشر مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٨٦ .

ت . برودي ماجور جنرال

قائد القوات البريطانية في القاهرة » .

وفي الوقت نفسه كانت المطابع تدور بمنشور آخر موجه إلى سكان الاسكندرية موقع بتوقيع
الماجور جنرال « ج . ن . بويت » قائد القوات البريطانية المكلفة باحتلال الاسكندرية .

تعقيب :

لم ير هذا المنشور النور . لذلك لم تنجر عليه المقاييس البحثية التي أجريت علي بقية
المنشورات ، ولكن القارئ يلحظ فئات تحليل المضمون فيه ، ويلحظ مدي تشابهها مع بقية
المنشورات. وتفسير ذلك أن المصدر يشترك في صفاته الذهنية وفي رؤيته للواقع العربي . وصدق
القرآن الكريم في تساؤله : ﴿ أتأصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ (آية ٥١ سورة الذاريات) .

*** المنشورات الإسرائيلية علي لبنان (عام ١٩٨٢ م) :**

الخلفية التاريخية :

أذاعت وكالات الأنباء العالمية والمحلية يوم ٤ يونية ١٩٨٢ خبرا تناقلته مختلف وسائل
الإعلام ، مؤداه أن السفير الإسرائيلي في لندن أصيب أثر إطلاق النار عليه . وأن الشخص
المجهول الذي أطلق النار وصفته مصادرة الشرطة الإنجليزية بأنه شاب ملامحه تدل علي أنه من
الشرق الأوسط. كما وصفت الإصابة بأنها بالغة ، وفيما بين الساعة الثالثة والرابعة والربع
من اليوم نفسه أغارت الطائرات الإسرائيلية علي مواقع الفلسطينيين في لبنان تسع غارات جوية
فقتلت ٦٠ شخصا وجرح ٢٧٠ شخصا . وفي ٥ يونية ١٩٨٢ استع نطاق القصف الإسرائيلي ،
وبدأت العمليات العسكرية لغزو لبنان ، وفي اليوم التالي ٦ يونية بدأت الألوية الإسرائيلية
المُعززة بالدبابات اجتياح الجنوب اللبناني . وفي يوم ٨ يونية أصبحت القوات الإسرائيلية علي بعد
٢٠ كيلو مترا من بيروت ، مع استمرار القصف العنيف علي المواقع الفلسطينية في بيروت .
واستمر العدوان الإسرائيلي محاولا تصفية المقاومة الفلسطينية في بيروت ، فقطعوا الكهرباء ،
عنهما ومصادر الماء ، وفي ٤ يولية عزز الإسرائيليون وجودهم علي مداخل بيروت الغربية ،
وأحكموا الطوق علي العاصمة ، وقد بلغت القذائف الإسرائيلية علي بيروت والضواحي يوم ١١
يولية ٧٨٤٠ قذيفة . وفي أواخر يولية اشتركت الطائرات والزوارق والدبابات في فتح جحيم من
النيران علي مواقع الفلسطينيين في بيروت حتي وافقت المقاومة الفلسطينية علي الانسحاب من
بيروت في ٢٩ يولية ، ورغم ذلك ظل الغزو الإسرائيلي مستمرا فسقط مطار بيروت الدولي
بأيديهم في أول أغسطس ، واستمر الغزو عنيفا حتي بلغ عدد القتلى يوم ٤ أغسطس ٣٠٠
قتيلا. واحتلت القوات الإسرائيلية مبني مجلس النواب اللبناني يوم ١١ أغسطس ، وظل الغزو
مستمرا حتي بدأ خروج الفلسطينيين يوم ١٩ أغسطس الذي استمر ١١ يوما .

الدعوة الوثائقية :

عندما دَعَتْ قواعد البحث العلمي أن أوثق نصوص المنشورات التي ألفتها الطائرات الإسرائيلية علي لبنان واجهتني صعوبة . فقد كنت أريد رؤية هذه المنشورات ، وطلبت من أحد الباحثين في الماجستير بقسم الصحافة بكلية الإعلام بجامعة القاهرة وأنا مشرف علي رسالته أن يحاول مساعدتي في ذلك ، وهو يعمل في الجهاز المعني بهذه الأمور ، ولكنه قال لي بعد جهد وبحث أن ما يحفظونه هو صورة المنشور التي نشرته إحدى الصحف اللبنانية . وطلبت من مسئول في الجهاز الفلسطيني المعني بهذه الأمور فكان جوابه أنهم لم يحتفظوا بهذه المنشورات . وطرحت الأمر علي الشيخ ماهر حمود رجل الدين الشاب اللبناني الذي كان يخطب الجمعة في جامعة بيروت العربية ، وعن طريق المصلين حصل لي علي عدة منشورات أصلية أحتفظ بها حتي الآن . وهي أوراق حمراء وخضراء مساحتها ٢١ سم × ١٦ سم ، والطباعة عليها بالحبر الأسود والحروف بالآلة الكاتبة العادية .

نصوص المنشورات إذاعياً وطباعياً :

يوم ٦ يونية ١٩٨٢ وجه الجيش الإسرائيلي بيانات إلي سكان جنوب لبنان يشتها الإذاعة الإسرائيلية تكرارا .

البيان الأول جاء فيه : « إن جيش الدفاع الإسرائيلي اضطر إلي دخول جنوب لبنان كي يزيل الكابوس الذي يخيم علي السكان ويعيد الأمن والطمأنينة إلي ما كانتا عليه في السابق . هدف جيش الدفاع الإسرائيلي هو القضاء علي أوكار المخرين فقط ، مع بذل كل مجهود للإمتناع عن المس بالمواطنين العزل . من أجل مصلحتكم والمحافظة علي سلامتكم التزموا الهدوء والسكينة واستمعوا في استمرار إلي صوت إسرائيل الذي يذيع بيانات وإرشادات للسكان المدنيين » .

وفي البيان الثاني : « لضمان سلامتكم وسلامة أقبائكم والحفاظ علي أرواحكم وأملاككم اتبعوا بدقة متناهية ما يأتي :

أولا : امنعوا العناصر المسلحة من استعمال أحيائكم وبيوتكم مراكز لإدارة قتال عديم الجدوي .

ثانيا : لازموا دوركم ولا تغادروها .

ثالثا : علقوا علي الشبابيك أو الشرفات قطعة من القماش الأبيض بحيث يمكن رؤيتها في وضوح من الشارع .

رابعا : تذكروا ، بغية الحفاظ علي أمنكم وسلامتكم أنه يجب تمكين قوات جيش الدفاع الإسرائيلي من التمييز بدقة بين الأماكن التي توجد فيها عناصر تخريبية وتلك التي يوجد فيها المدنيون العزل » .

وجاء في البيان الثالث : « أولا - حاولوا ، رجاء ، إقناع المخرين الموجودين في منطقتكم

بالتخلي عن أسلحتكم في أسرع ما يمكن وعدم الاختباء وراء ظهوركم ، امنعوه من أن يكونوا السبب في ضياع أرواح أبنائكم وأقربائكم .

ثانياً : نرجو منكم ملازمة بيوتكم وتعليق قطعة من القماش الأبيض علي شباك الشرفة بحيث تمكن رؤيتها في وضوح من الشارع .

ثالثاً : الرجاء عدم مغادرة قراكم البتة لأن الطرق معرضة للقصف وغير ذلك بسبب المعارك.

رابعاً : عليكم أن تجمعوا كل الأسلحة التي تملكونها ، ثم التصرف بها وفقاً للأوامر التي تداع في الميدان من قوات جيش الدفاع الإسرائيلي .

أما المنشورات فقد ألقته الطائرات الإسرائيلية فوق المناطق الجنوبية يوم ٦ يونية موجهة إلي المقاتلين تدعوهم إلي ترك السلاح وجاء فيها ما يلي :

« إنكم تعلمون علم اليقين أنه ليس من أمل في استمرار القتال ضد قوات جيش الدفاع الإسرائيلي المتفرقة . فكر جيداً في هذا الأمر ، لقد قمتم بواجبك حتي الآن والمعركة علي وشك الانتهاء . فهل تريد أن تضحي بنفسك عبثاً وتلتحق بآخر القتلي ألق سلاحك فوراً إلي جيش الدفاع الإسرائيلي . لا تمس بسوء العناصر التي لا تحمل السلاح » .

وفي يوم ٧ يونية بثت الإذاعة الإسرائيلية بياناً موجهاً من قيادة الجيش إلي من أسلمتهم بالعناصر المسلحة في جنوب لبنان يقول البيان :

« جيش الدفاع الإسرائيلي ليس معنياً بسفك الدماء دون جدوي وإنه لقادر علي ذلك كما ثبت لديكم بعد أن ذقتم طعم قدرته الحربية . لقد قمتم بأكثر من الواجب الملقي علي عاتقكم كمصدين لقوات تفوقكم عدداً وعدة ، وما من شك في أن ما أسلمتم به حتي الآن يفوق كثيراً ما قام به من يسمون أنفسهم ضباطاً وكانوا أول الهاربين من الميدان فضلاً عن الساسة والمترجمين .

إخوانكم في المناطق التي اجتازتها قوات جيش الدفاع الإسرائيلي ألقوا السلاح ويحظون الآن بالمعاملة الحسنة التي تمنحها قواتنا لهم ، في حين يحظى الجرحي منهم بالعلاج الطبي الأمين.

إنكم تدركون تماماً عدم جدوي التصدي لجيش الدفاع الإسرائيلي الذي يملك أحدث الأسلحة التي أعدت خصيصاً لهذه العملية . قف وفكر ، لقد أنجزت ما كلفت به علي الوجه المطلوب ، المعركة تقترب من نهايتها المحترمة . أمن الأفضل التضحية بالنفس عبثاً ، وإضافة أسمك إلي قائمة القتلي ؟ أم الأفضل إلقاء السلاح ؟ وضمان العودة إلي الأهل والأقارب ورؤية الأشقاء والشقيقات وجها لوجه ؟ قف وفكر ، قف وفكر .

وفي يوم ١٠ يونية ألقط الطائرات الإسرائيلية منشورات فوق مدينة بيروت موجهة إلي القائد السوري « طلال » تدعوه إلي الاستسلام مع قواته وتشير إلي الطرق الواجب سلوكها لتسليم أنفسهم .

وهذا نموذج من البيانات التي أُلقت بها الطائرات الإسرائيلية فوق مدينة بيروت في ٢٧
حزيران ١٩٨٢ :

إلي السكان :

إن جيش الدفاع الإسرائيلي يواصل حربه ضد المخربين ولم يستعمل بعد بكامل قوته إنما
ليس هو معني بالمس بالمواطنين الأبرياء . ونحن لم يحارب ضده . أنت الساكن في بيروت استغل
وقف إطلاق النار وانقذ حياتك .

أمامك الإمكانيات التالية :

أ) عن طريق قوات جيش الدفاع الإسرائيلي شرقاً علي محور بيروت - دمشق .

ب) شمالاً إلي اتجاه طرابلس .

انقذ حياتك وحياة أعزائك .

قيادة قوات جيش الدفاع الإسرائيلي .

الى السكان

- ان جيش الدفاع الاسرائيلي يواصل حربه ضد الخزيين ولم يستعمل بعد بكامل قوته الدائري هو معني بالسك بالوطنين الابرياء ومن لم يحارب ضده .
- انت الساكن في بيروت .
- استغل وقت اطلاق النار وانتق حياتك .
- المحك الاكثريات التالية .
- أ . من طريق قوات جيش الدفاع الاسرائيلي شرقا على محور بيروت - دمشق .
- ب . شمالا الى اتجاه طرابلس .
- انتق حياتك وحياة املاكك .

قيادة قوات جيش الدفاع الاسرائيلي

نموذج من البيانات (المنشورات) التي ألقت بها الطائرات الإسرائيلية
فوق مدينة بيروت في ٢٧ / ٦ / ١٩٨٢م

ويبين الجدول التالي تكرار الأفكار الرئيسية لتبرير الغزو العسكري كما وردت في المنشورات التي ألقتها الطائرات وفي البلاغات التي أذاعها الراديو الإسرائيلي باللغة العربية.

وحدات التحليل	التكرار
١- الأهداف العامة للغزو .	٢
٢- الدافع إلى الغزو .	١
٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية .	٣
٤- الفاعل في الرسالة الدعائية .	١
٥- التبرير للعمليات العسكرية .	٣
٦- التخويف والترهيب .	٣
٧- العزل والتمييز .	٤
٨- استغلال الدين .	-
٩- إثارة الشعب على الحاكم .	-
١٠- استخدام العاطفة وغريزة القطيع .	٦
١١- الإغراء والترغيب .	٤
١٢- الدعوة إلى الاستسلام بالمودة .	٥

تبرز التكرارات الواردة في النداءات الإسرائيلية طباعيا وإذاعيا استخدام العاطفة وغريزة القطيع في المقام الأول ، تليها الدعوة إلى الاستسلام بالمودة ثم العزل والتمييز . وسنرى ذلك كله متوافقا مع ظروف الغزو الإسرائيلي الذي يختلف في بعض الوجوه مع ظروف الغزو الفرنسي لمصر ثم للجزائر .

وعندما نتتبع الدلالات الواردة في المنشورات التي ألقتها الطائرات الإسرائيلية فوق مدينة بيروت عام ١٩٨٢ ، والدلالات الواردة في بلاغات الإذاعة الإسرائيلية باللغة العربية ، كما بينتها فئات تحليل المضمون نلاحظ ما يلي :

١- الهدف من الغزو :

- أ) مهاجمة المخربين .
- ب) التغيير من أجل خير أهل البلاد وصلاحيهم ومنفعتهم .

٢- الدافع إلى الغزو :

- أ) أن هناك فلسطينيين مخربين .

٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية :

- أ) السكان عموماً .
- ب) المقاتلون والمسلحون في جنوب لبنان (برمي ٦ ، ٧ يونية) .
- ج) القائد السوري (يوم ١٠ يونية) .

٤- الفاعل في الرسالة الإعلامية :

- أ) قيادة قوات جيش الدفاع الإسرائيلي .

٥- التبوير للعمليات العسكرية :

- أ) جيش الدفاع الإسرائيلي يواصل حربه ضد المخربين .
- ب) جيش الدفاع الإسرائيلي اضطر لدخول جنوب لبنان لإزالة الكابوس الذي يخيم على السكان ويعيد الأمن والطمأنينة .
- ج) هدف جيش الدفاع الإسرائيلي القضاء على أوكار المخربين .

٦- التخويف والترهيب :

- أ) جيش الدفاع الإسرائيلي لم يستعمل بعد كامل قوته .
- ب) قوات جيش الدفاع الإسرائيلي متفوقة .
- ج) جيش الدفاع الإسرائيلي قادر على سفك الدماء بعد أن ذقتهم طعم قدرته الحربية .

٧- العزل والتمييز :

- أ) جيش الدفاع الإسرائيلي يريد المخربين ولا يريد المس بالمواطنين الأبرياء ومن لم يحارب ضده .
- ب) إن الهدف هو القضاء على أوكار المخربين وعدم المس بالمواطنين العزل.
- ج) القول بأن الضباط أول الهاربين من الميدان وكذلك الساسة والمتزعمين وترك الجنود للموت .
- د) امنعوا العناصر المسلحة من استعمال أحيائكم وبيوتكم مراكز لإدارة قتال عديم الجدوي .

٨- استغلال الدين :

لا يوجد .

٩- إثارة الشعب علي حاكمه :

استبدل بهذا التخلي عن المقاتلين ، ومنعهم من استعمال البيوت والأحياء مراكز للقتال ، وتمكين قوات جيش الدفاع الإسرائيلي من التمييز بدقة بين الأماكن التي يوجد بها المقاتلون وتلك التي يوجد فيها المدنيون العزل .

١٠- استخدام العاطفة وغريزة القطيع :

أ) انقذ حياتك وحياة أعزائك .

ب) من أجل مصلحتكم وللمحافظة علي سلامتكم التزاموا الهدوء والسكينة .

ج) امنعوا المخربين من أن يكونوا السبب في ضياع أرواح أبنائكم وأقربائكم .

د) هل تريد التضحية بنفسك عبثا وتلحق بآخر القتلي .

هـ) المعركة تقترب من نهايتها المحتومة فمن الأفضل عدم التضحية بالنفس وإضافة اسمك إلي قائمة القتلي .

و) الوقت يتضاءل وكلما تأخرت ازدادت المخاطر علي سلامتكم وسلامة أعزائك .

١١- الإغراء والتوغييب :

أ) قوات جيش الدفاع الإسرائيلي لا تمس بسوء العناصر التي لا تحمل السلاح .

ب) الذين ألقوا السلاح يحظون الآن بالمعاملة الحسنة التي تمنحها قواتنا لهم في حين يحظى الجرحى منهم بالعلاج الطبي الأمين .

ج) إلقاء السلاح وضمن العودة إلي الأهل والأقارب ورؤية الأشقاء والشقيقات .

د) الذين غادروا غرب بيروت يعيشون في حرية وأمان .

١٢- الدعوة إلي الاستسلام بالهودة :

أ) عدم المساس بالمواطنين العزل .

ب) عدم مساعدة العناصر المسلحة من المخربين .

ج) مساعدة جيش الدفاع الإسرائيلي في التعرف علي مناطق العناصر التخريبية .

د) تسليم الأسلحة التي يملكونها .

هـ) علقوا علي الشبابيك أو الشرفات قطعة من القماش الأبيض بحيث يمكن رؤيتها في وضوح من الشارع .

هـوتكنزات الاختراق :

من القراءة التحليلية للمنشورين الصادرين عن قيادة قوات جيش الدفاع الإسرائيلي وكذلك البيانات التي أذاعها راديو صوت إسرائيل يتبين لنا ما يلي :

١- يتوجه المنشوران إلي سكان غربي بيروت .

٢- يحرض المنشوران علي عزل السكان تماما وضمان تجميعهم في الصراع من خلال اختلاق عدو آخر يتم فصله عن السكان يطلق عليه تسمية « المخربين » .

٣- يعني المنشوران بتكرار مخاطبة السكان بأن يسارعوا بالخروج من بيروت الغربية إلي بيروت الشرقية أو إلي الشمال حيث مدينة طرابلس . ولا يكتفي المنشوران بذلك بل إنهما يحددان طرق الخروج .

٤- يربط المنشوران بين بقاء السكان في بيروت الغربية وبين تعرضهم لحظر الموت والفناء والجيش الإسرائيلي يقدم نفسه باعتباره الحريص علي عدم الإضرار بالسكان المدنيين ، ويدعوهم لانتهاز الفرصة لإنقاذ حياتهم وحياة أعزائهم والإسراع في ذلك قبل فوات الأوان، وأن يتأسوا في ذلك بأخوانهم الذين استغلوا الفرصة من قبل .

٥- استعراض القوة وتنبيه إلي أن جيش الدفاع الإسرائيلي لم يستعمل كامل قوته ، وتذكير بأن اللبنانيين ذاقوا طعم قدرته الحربية .

٦- يرمي المنشور إلي تسريب عدد من الأفكار المغلوطة يمكن تركيزها فيما يلي :

أ) الإيحاء بأن إسرائيل يهتمها المحافظة علي حياة المدنيين وأنها تلتزم بالقوانين والمعاهدات الدولية الخاصة بحماية حقوق المدنيين وعدم ضرب أو تدمير تجمعاتهم ومدنهم أو أحيائهم السكنية أثناء الحرب .

ب) الإيحاء بأن إسرائيل لا تهدف إلي غزو لبنان وإنما تبغي تدمير الوجود العسكري الفلسطيني في لبنان قائلة بأنها تحارب « مخربين » .

ج) الحرص علي توقيع المنشورات بهذا التوقيع : « جيش الدفاع الإسرائيلي » ، ويرتبط ذلك - في ضوء الخبرة التاريخية للصراع العربي الإسرائيلي - بموقف إسرائيل الإعلامي الدولي الخاص بالترويج لفكرة مؤداها أنها « حمل وديع » لا يملك الهجوم ، وأن كل ما تملكه هو الدفاع عن نفسها ضد العرب الذين يقومون بالهجوم أولا عما يضطر إسرائيل إلي الدفاع ، وهذا لا يتعارض أبداً مع احتلالها لأرض الغير ذلك لأن هذا الاحتلال من ثمار « الحرب الدفاعية » التي طاردت فيها المعتدين الذين « يخبون » .

٧- هناك ريط مستمر بين الفلسطينيين « المخربين » في المفهوم الإسرائيلي وبين قيام الحرب وتعرض لبنان لمخاطرها وأضرارها . وينطوي هذا الريط على اللجوء لفكرة مدمرة في نفوس اللبنانيين ، وهي أن مطاردة الفلسطينيين هي الهدف الوحيد للحرب وأن تدمير لبنان أو تعرضه لذلك إنما هو نوع من دفع الثمن باسم هؤلاء الفلسطينيين ، ويفضي كل ذلك في نهاية الأمر إلي نوع من الكراهية للفلسطينيين الذين يمثلون مصدر الدمار للبنان واللبنانيين .

٨- هناك نوع من التكرار المستمر علي فكرة التسليم ورمي السلاح ورفع الرايات البيضاء وعدم مساعدة المقاتلين ، بل الإبلاغ عنهم وتمكين جيش الاحتلال الإسرائيلي من التعرف علي أماكنهم، وجمع السلاح وتسليمه لقوات الاحتلال ، ومداومة البقاء في السكن وملازمته وعدم الخروج إلي الطرقات .

٩- يحرص جيش الاحتلال الإسرائيلي علي تعميق فكرة التسليم بالتأكيد علي مجموعة من المرتكزات يمكن حصرها فيما يلي :

أ) التركيز علي عدم جدوي مقاومة جيش الدفاع الإسرائيلي ؛ حيث لا أمل في ذلك ، فالجيش قوي ، متفوق ، لم يستخدم إمكانياته المتقدمة بالكامل ، ويملك أحدث الأسلحة التي أعدت خصيصا للغزو ، قادر علي سفك الدماء .

ب) التنبيه إلي أن التستر علي « المخربين » ، وعدم الإبلاغ عنهم ، ومنعهم من الاستمرار في المقاومة، يمكن أن يكون سببا في ضياع أرواح السكان وأرواح أبنائهم وأقربائهم .

ج) تصوير الخروج إلي الطرقات باعتباره سلوكا خطرا يعرض صاحبه للقصف المستمر بسبب المعارك .

د) التشكيك في قدرة المقاتلين علي المواصله ، وبث اليأس في نفوس المواطنين بالتركيز علي فكرة محورية مؤداها أن الحرب قد أوشكت علي الانتهاء لصالح جيش الدفاع أو اقتربت من نهايتها المحتومة .

هـ) نشر الأخبار الكاذبة حول صمود المقاتلين في المناطق المختلفة ، فمرة يزعم البيان الصادر في ٧ يونيو « أن الضباط كانوا أول الهاربين من الميدان ، فضلا عن الساسة » والمتزعمين « ومرة يزعم البيان نفسه في مخاطبته اللبنانيين « إن إخوانكم في المناطق التي اجتازتها قوات جيش الدفاع الإسرائيلي ألقوا السلاح » وهكذا يتجه المنشور مباشرة نحو تحطيم « القدوة » أو « القيادات من رجال المقاومة الفلسطينية واللبنانية » في ذهن السكان ، في إطار سعيه لقتل المقاومة الوطنية . ودفع المواطنين لرمي السلاح ، من خلال خلق المبرر الذي يمكن أن يتسلحوا به في سلوكهم الانهزامي وهو « هروب الضباط والقادة » .

و) يصور البيان الصادر عن صوت إسرائيل الموقف ، وكأنه ليس أمام السكان سوي بدلين لا ثالث لهما ، الأول : التضحية بالنفس عبثا وإضافة الاسم إلي قائمة القتلى ، والثاني : إلقاء

السلح وضمان العودة إلى الأهل والأقارب ورؤية الأشقاء والشقيقات وجهاً لوجه ، وباختصار يصور البيان الموقف باعتبار أن المرء مطالب بالاختيار بين الموت والحياة . ويحاول الغواية بالأمور التي تستثمر نقاط الضعف في النفس البشرية .

التحليل المقارن :

ويبين الجدول التالي المقارنة بين التكرارات في وحدات تحليل المضمون

م	المنشورات	منشور الحملة الفرنسية علي مصر	منشور الحملة الفرنسي للجزائر	منشورات وإذاعات الإسرائيليين في غزو بيروت
وحدات التحليل	التكرار	التكرار	التكرار	التكرار
١- الأهداف العامة للغزو .	٣	٢	٢	٢
٢- الدافع إلي للغزو .	٢	١	١	١
٣- الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية .	٢	١	١	٣
٤- الفاعل في الرسالة الإعلامية .	١	١	١	١
٥- التبرير للعمليات العسكرية .	٢	٢	٢	٣
٦- التخويف والترهيب .	٢	٥	٣	٣
٧- العزل والتمييز .	٣	٢	٢	٤
٨- استغلال الدين .	٦	٣	٣	-
٩- إثارة الشعب علي الحاكم .	٢	٤	-	-
١٠- استخدام العاطفة وغريزة القطيع .	٣	٣	٣	٦
١١- الإغراء والترغيب .	٩	٢	٢	٤
١٢- الدعوة إلي الاستسلام بالمودة .	٦	٣	٣	٥

- من القراءة الكمية لتكرارات وحدات تحليل المضمون في المنشورات المختلفة زمانيا ومكانيا والمتفقة في غزو العرب نفسيا في اللحظة ذاتها التي يتم فيها غزوهم عسكريا نلاحظ الآتي :
- ١- تتفق المنشورات في تحديد الأهداف العامة للغزو بين ٣ أسباب (مصر) وسببين (الجزائر) و (لبنان) .
- ٢- الدوافع للغزو في المنشورات يتساوي في حالتي الجزائر ولبنان ويصبح دافعين في حالة (مصر) .
- ٣- تختلف المنشورات في تحديد الجمهور المستهدف بالرسالة الدعائية وفق اختلاف ظروف الغزو فهي في الجزائر الشعب عامة . وفي مصر المصريون عامة وقادة الرأي بصفة خاصة . وفي لبنان: السكان عموما ، المقاتلون والمسلحون في جنوب لبنان ، القائد السوري بصفة خاصة .
- ٤- كان الفاعل في الرسالة الإعلامية محددا في مصدر واحد في كافة المنشورات .
- ٥- تتفق المنشورات في تكرارات تبرير العمليات العسكرية بتكرارين (مصر) و (الجزائر) وثلاثة تكرارات في (لبنان) .
- ٦- في التخويف والترهيب ازدادت التكرارات في الحملة علي الجزائر إلي خمس تكرارات ، ثم تلتها في العمليات العسكرية ضد لبنان فوصلت إلي ثلاثة تكرارات وبلغت في الحملة الفرنسية علي مصر تكرارين .
- ٧- في العزل والتميز كانت أكثر في حرب لبنان ثم تلتها في غزو مصر وبعدها في غزو الجزائر .
- ٨- كان استغلال الدين في الحملة الفرنسية علي مصر أعلي التكرارات ثم تلتها في حملة الجزائر . أما في الحرب الاسرائيلية ضد لبنان فقد انعدم تماما .
- ٩- كانت إثارة الشعب علي حاكمة أعلي التكرارات في غزو الجزائر ثم في الحملة الفرنسية علي مصر . أما في غزو لبنان فقد انعدم هذا التكرار ، وحل محله التخلي عن المقاتلين ، ومنعهم من استعمال البيوت والأحياء مراكز للقتال ، وتقنين قوات جيش الدفاع الإسرائيلي من التمييز بدقة بين الأماكن التي يوجد بها المقاتلون وتلك التي يوجد بها المدنيون العزل .
- ١٠- في استخدام العاطفة وغريزة القطيع كانت التكرارات في غزو لبنان ضعف التكرارات في الحملتين علي مصر وعلي الجزائر .
- ١١- أما الإغراء والترغيب فكانت تكراراته في الحملة الفرنسية علي مصر أعلي التكرارات (٩) وكانت في غزو لبنان (٤) بينما نزلت في غزو الجزائر إلي (٢) .
- ١٢- وفي الدعوة إلي الاستسلام بالمودة كانت أعلي التكرارات في الحملة علي مصر (٦) ثم قاربتها في غزو لبنان (٥) بينما وصلت إلي (٣) في غزو الجزائر .
- ويمكن تخيص نقاط الدراسة المقارنة لتحليل مضمون هذه المنشورات فيما يلي :

أولاً : المَرسَل :

- ١- من طرف فرنسا والمبنى علي أساس الحرية والتسوية السر عسكري الكبير أمير الجيوش الفرنسية بونابرته .

- ٢- من سار عسكر أمير الجيوش الفرنسية .
- ٣- من قيادة قوات جيش الدفاع الإسرائيلي .

ثانيا : المُستقبل :

- ١- إلي أهالي مصر جميعهم .
- ٢- إلي سكان الجزائر وأهل القبائل .
- ٣- إلي الساكن في بيروت ، إلي سكان جنوب لبنان .

ثالثا : سبب الحوب :

- ١- من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنسية . ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي .
- ٢- إن الباشا حاكمكم من حيث أنه تجراً علي بهدلة بيرق فرنسه المستحق كل اعتبار وأقدم علي إهانتته .
- ٣- الحرب ضد المخربين .

رابعا : الأفكار السائدة في المنشورات :

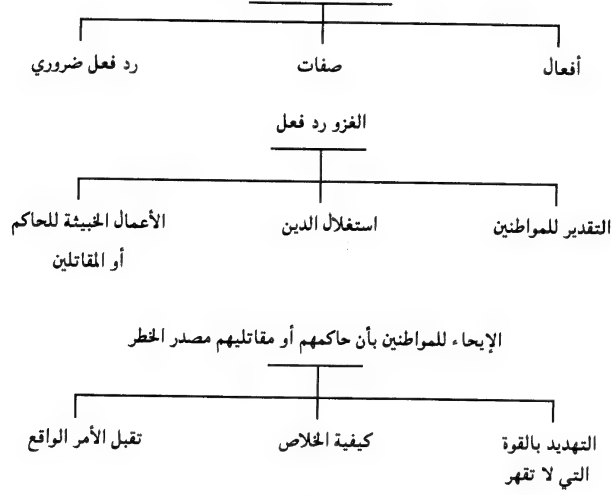
- ١- فكرة « العدو للمشارك » للمستعمر ولأبناء البلد .
 - (أ) الداي وحاشيته .
 - (ب) المماليك .
 - (ج) القذاييون (المخربون) .
- ٢- فكرة عدم جدوي المقاومة .
- ٣- فكرة أن يكون السكان آمنين مطمئنين .
- ٤- فكرة التعايش بين الغازي وابن البلد والتعامل معه .
- ٥- فكرة السبب المنتحل .
 - (أ) ضربة منشة للقفصل .
 - (ب) إطلاق رصاص علي سفير أصبح مختفيا .
 - (ج) سب الملة ومضايقة التجار الفرنسيين .
- ٦- فكرة القضاء والقدر بالمفهوم الخاطي .
- ٧- فكرة بث العداء لمن كان السبب في الغزو وطلب أبناء البلد في العمل ضدهم مع الغازي .
- ٨- فكرة الوعد بالسلام والأمن لأبناء البلد في حالة امتثال الأوامر .
- ٩- تلفيق الفكرة الدينية واستغلالها بقوة في عام (١٧٩٨) ثم أقل في عام (١٨٣٠) ثم انعدامها عام (١٩٨٢) .

خامسا : مرتكزات الاختراق :

- أ) اصطناع التناقض بين المقاتلين والشعب .
- ب) اختلاق مساوئ للقيادة وللمقاتلين .
- ج) الربط بين الفساد وبين مجيء الغزو المخلص .
- د) تهيئة العقول للقبول بوجود الغزاة والتعايش معهم .
- هـ) التلويح بالعقاب الشديد .

سادسا : أساليب المعالجة :

- ١- تشويه صورة المقاتلين .
 - ٢- التنبيه علي أن الغزو رد فعل وليس فعلا .
 - ٣- الإيحاء للمواطنين بأن حاكمهم أو مقاتليهم مصدر الخطر عليهم ومصدر الضرر لهم .
- وتتمثل هذه الأساليب في الشكل التالي :
- تشويه صورة المقاتلين أو الحاكم



تتقيب :

يتساءل القرآن الكريم في موضعين تساؤلا شديدا الدلالة في التحليل الذي تقدمه في هذا المقام ، التساؤل الأول في الآية ٥٣ من سورة الذاريات : ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ .
والتساؤل الثاني في الآية ٣٢ من سورة الطور : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴾ .
والتساؤلان استنكارا للطغيان . وكما يقول سيد قطب في ظلال القرآن : « وما تواصوا بشيء ، إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع بين الغابرين واللاحقين » .

وصدق الله العظيم في قوله تعالى : ﴿ فإن للذين ظلموا دنوياً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴾ (سورة الذاريات الآية ٥٩) .

ولعل ملاحق هذا الفصل تؤكد تواصل الطغيان في صور الارتباط العضوي بين القول والسيف في غزو العرب .

ملحق الفصل الثالث

خطابات الصليبيين والتتار (المغول)

والبرتغاليين في غزو العرب

تتد الحروب الصليبية من عام ٤٨٩ هـ إلى عام ٦٩٠ هـ .

أي من عام ١٠٩٦ م إلى ١٢٩١ م .

ويواكب الغزو المغولي الفترة من عام ٦٥٦ هـ إلى ٨١٧ هـ .

أي من عام ١٢٥٨ م إلى عام ١٤٠٤ م .

أولا : خطاب لويس التاسع الملك والقائد الصليبي إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب عام ١٢٤٩ م .

عندما وصل لويس التاسع علي رأس حملته أمام دمياط في أوائل يونية ١٢٤٩ م . اتبع أسلوبا أشبه بالأسلوب الذي اتبعه المغول من بعده في ذلك العصر من إرسال رسائل تهديد ووعيد ودعوة للاستسلام .

وهذا نص الخطاب كما أورده المقرئزي^(١) .

يقول المقرئزي : وسير ملك الفرنج إلي السلطان كتابا ، نصه بعد كلمة كفرهم :

أما بعد فإنه لم يخف عنك أنني أمين الأمة العيسوية ، كما أنني أقول أنك أمين الأمة المحمدية ، وأنه غير خاف عنك أهل جزائر الأندلس « يحملون إلينا الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار . وقد أبديت ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصع إلي النهاية . فلو حلفت لي بكل الأيمان ، ودخلت علي القسوس والرهبان ، وحملت قدامي الشمع طاعة للصليب ، ما ردني ذلك عن الوصول إليك وقتالك في أعز البقاع عليك فإن كانت البلاد لي فبا هدية حصلت في يدي وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة إليّ . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي بملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا » .

ومن يقارن بين أسلوب هذه الرسالة ورسالة هولوكو إلي قطز - كما سنشير في السطور الآتية - يجد التوافق شديدا في المعاني والأفكار . ومهما يكن من أمر ، فإن رسالة لويس التاسع وصلت السلطان الصالح أيوب وهو يعاني آلام مرض الموت ، فأغرورقت عيناه ، وكتب الرد إلي

(١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لتقي الدين أحمد بن علي المقرئزي (صححة ووضع حواشيه) د . محمد مصطفى زيادة - الجزء الأول - القسم الثاني - طبعة ثانية منقحة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٧ ص ٣٣٤ .

لويس بندد بغروره ، ويذكره بما فعله المسلمون بالصليبيين « قلو رأيت عيناك أيها المغرور حد سيفونا وعظم حروينا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، واخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان منك أن تعض علي أنا ملك للندم » .

ثانيا : خطابات التتار (المغول) :

هل المغول هم التتار ؛ الواقع أن المغول أشمل لأن التتار بعض من المغول . ولكن المصادر التاريخية تستخدم كلمة التتر أو التتار وكلمة المغول بمعنى واحد . ولا بأس في ذلك لأن المقصود هو الدولة أو الأمة التي كونها « جنكيز خان » .

« وجنكيز خان » - يعني أقوى الحكام - وهو الذي اختار هذا الاسم لنفسه أما اسمه الحقيقي الذي عرف به في حياته فهو « تيموجين » ومعناه في اللغة الصينية الصلب الخالص . وقد تمكن بعد حروب ومنازعات مع أبناء جنسه أن يصل إلى غايته وهي زعامة المغول وأن يجعل منهم قوة خارقة . وقد امتدت امبراطوريته من الصين إلى البحر الأسود عندما توفي عام ١٢٢٧ م .

وفي عام ١٢٥٤ م زحف « هولاكو » حفيد « جنكيز خان » غربا نحو فارس فاستولي عليها ثم تقدم فقتل علي الخلافة العباسية ، واستولي علي بغداد في فبراير ١٢٥٨ م وقتل الخليفة وأهله ، ولم يبق أمامه سوى الشام ومصر . وفي سبتمبر ١٢٥٩ م غزا « هولاكو » الشام واستولي علي حلب في يناير ١٢٦٠ ، وفي مارس أسلم الوزير زين الدين الحافظي دمشق للمغول . في ذلك الوقت رأي هولاكو أن يعد العدة للهجوم علي القدس ثم يبدأ بغزو البلاد المصرية فأرسل رسله إلي مصر بكتاب الوعيد والتهديد . أمام هذا الخطر الداهم عقد السلطان قطز مجلسا من كبار الأمراء المالكيك واستقر الرأي علي مقابلة وعيد التتر بالاستعداد للحرب . والتحدث كلمة المالكيك ، بعد فرقة ، لمواجهة الخطر المغولي . وكانت وحدتهم سببا في انتصار « عين جالوت » الذي به تمّت هزيمة المغول ودخل قطز دمشق علي رأس الجيوش المصرية والشامية في سبتمبر ١٢٦٠ م ليظهرها من بقايا المغول «^(١)» .

وترجع أهمية عين جالوت في أنها حطمت الأسطورة التي ذاعت بأن المغول قوة لا تقهر . وأنها فتحت الطريق لتصفية الاستعمار الاستيطاني الصليبي الذي ظلت بقاياها بعد الانتصار علي المغول . وأنها فوتت علي الصليبيين أحلامهم في أن يعتنق المغول المسيحية ويتحالفوا معهم للقضاء علي المسلمين القضاء الكامل^(٢) .

وهذا نص خطاب التهديد الذي أرسله هولاكو خان إلي سلطان مصر سيف الدين قطز قبيل موقعة « عين جالوت » .

(١) د . أحمد مختار العبادي - قيام دولة المالكيك الأولى في مصر والشام - دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - ١٩٨٦ .

(٢) د . السيد الباز - المغول - دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - ١٩٨٦ .

« من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم » .

باسمك اللهم باسط الأرض ، ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس الماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بإنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا علي من حل به غضبه ، فلکم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمرکم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد . وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب ، فأی أرض تأویکم ، وأی طريق تنجيکم ، وأی بلاد تحميکم ؟ فما لکم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعدونا كالرمال . فالخوصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤکم علينا لا يسمع ، فإنکم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عند كلام ، وختتمت اليهود والإيمان ، وفشا فيکم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . فمن طلب حرنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلکم مالنا وعليکم ما علينا ، وإن خالفتم هلكنم ، فلا تهلکوا نفوسکم بأيديکم ، فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندکم أن نحن الکفرة ، وقد ثبت عندنا أنکم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة . فكثيرکم عندنا قليل . وعزيزکم عندنا ذليل ، وبغير الإهانة ما لملوککم عندنا سبيل . فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم نار الحرب نارها ، وترمي نحوکم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرزا ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادکم منکم خالية . فقد أنصفناکم إذ راسلناکم ، وأيقظناکم إذ حذرناکم ، فما بقي لنا مقصد سواکم . والسلام علينا وعليکم ، وعلي من أطاع الهدي ، وخشي عواقب الردي ، وأطاع الملك الأعلي .

ألا قُلْ لمصرها « هلاوون » قد أتى
بحد سيوف تنتضي وسواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ويلحق أطفالا لهم بالأكابير^(١)

ثالثا : خطابات المغول (التتار) بعد إسلامهم :

كان السلطان أحمد المغولي (٦٨٠ هـ - ٦٨٣ هـ) (١٢٨١ م - ١٢٨٤ م) أول من أسلم من ملوك المغول وأعلن في بيان أذيع في بغداد اعتناقه للإسلام . وأرسل رسالة إلى حاكم مصر السلطان « قلاوون » بذلك المعني . وظلت الرسائل متبادلة بين ملوك المغول المسلمين ، وبين خليفة

(١) « هلاوون » صيغة لاسم هولاكو . المقرئ كتاب السلوك (مرجع سابق) ص ٤٢٧ إلى ٤٢٩ ود . أحمد مختار العبادي قيام دولة الماليك الأولى في مصر والشام - مرجع سابق ص ٢٥٤ و ٢٥٥ .

قلاوون ابنه الناصر محمد بن قلاوون ، تتناول بعض المناوشات حتي احتل « غازان » ملك المغول دمشق عام ٦٩٩ هـ . وظلت الحروب قائمة بين ملوك المغول بعد إسلامهم وبين المماليك في الشام وفي مصر . وكان « تيمورلنك » أقوى ملوك المغول المسلمين . وفي عهده اجتاحت جيوشه الشام وآسيا الصغرى ، ثم بعث هذه الرسالة إلي السلطان « برقوق » الذي كان يحكم مصر والشام ، وكانت دولته تمتد من جنوب مصر إلي حدود آسيا الصغرى شمالا ، متضمنة كل مصر وفلسطين ولبنان والأردن وسورية الحالية والتي كانت تسمى جميعها الشام .

وهذا نص الرسالة التي أرسلها « تيمورلنك » إلي الملك الظاهر « برقوق » وذلك قبل أن يبدأ غزوه لبلاد الشام سنة ٧٩٢ هـ أو سنة ٧٩٦ هـ :

قل اللهم مالك الملك فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون^(١) .

اعلموا أننا جند الله مخلوقون من سخطه ، ومسلطون علي من حل عليه غضبه ، لا نرق لشاك ولا نرحم عبدة بك ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا ، فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ، ومن جهتنا قد خربنا البلاد ، وأتيننا الأولاد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، وذلت لنا أعزتها وملكتنا بالشوكة أزمته . فإن خيل ذلك علي السامع وأشكل وقال : إن فيه عليه مشكلا ، فقل : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » .^(٢) وذلك لكثرة عددنا وشدة بأسنا . فخيّلونا سوابق ، ورمحنا خوارق ، وأستنتها بوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجهال ، وجيوشنا كعدد الرمال ، ونحن أبطال وأقيال . وملكتنا لا يرام ، وجارنا لا يضام ، وعزنا لسؤدد منقام ، فمن سألنا سلم ، ومن حاربنا ندم ، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل . وأنتم إن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلکم ما لنا وعليکم ما علينا ، وإن خالفتم وعلي بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم . فالحصون منا ، مع تشييدها لا تمنع ، والمدائن بشدتها ، لقتالنا لا ترد ولا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا فلا يسمع ، فكيف يسمع الله دعاكم ، وقد أكلتم الحرام وظلمتم جميع الأنام ، وأخذتم أموال الأيتام ، وقبلتم الرشوة من الحكام ، وأعدت لكم النار وبئس المصير . ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾^(٣) .

فيما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك . وقد قتلتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء . وأرقت دم الأشراف . وهذا والله هو البغي والإسراف ، فأنتم بذلك في النار خالدون ، وفي غد ينادي عليكم : ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾^(٤) . فأبشروا بالمدلة والهوان يا أهل البغي والعدوان وقد غلب عندكم أننا

(١) سورة الزمر الآية ٤٦ ونصها : قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .

(٢) سورة النمل من الآية ٣٤ . (٣) سورة النساء الآية ١٠ .

(٤) سورة الأحقاف من الآية : ٢٠ .

كفرة، وثبت عندنا والله أنكم الكفرة الفجرة ، وقد سلطنا عليكم الإله له أمور مقدرة ، وأحكام محررة ، فعزبكم عندنا ذليل ، وكثيركم لدينا قليل ، لأننا ملكنا الأرض شرقا وغربا ، وأخذنا منكم كل سفينة غصبا ، وقد أوضحنا لكل الخطاب فأسرعوا برد الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء وتضرم الحرب نارها ، وتضع أوزارها وتصير كل عين عليكم باكية ، وينادي منادي الفراق : «فهل تري لهم من باقية »^(١) وقد أنصفناكم إذ راسلناكم فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين ، فما علي الرسول إلا البلاغ المبين ، وقد أوضحنا لكم فأرسلوا برد الجواب والسلام^(٢) . (انظر : النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٢ ص ٤٩ - ٥٠) .

رابعاً : خطاب البرتغاليين :

وفي القرن السابع عشر نجد التهديد بعاود الظهور في الخليج العربي ، ففي كتاب تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان تأليف الشيخ نور الدين عبد الله بن حميد السالمي (الجزء الثاني - الناشر وزارة التراث القومي والثقافة - مسقط - سلطنة عمان عام ١٩٨١م - ١٤٠١هـ) يقول المؤلف أن الإمام سيف خلصت له الإمامة في عام ١١٠٤ هـ ١٦٩٣م وظل حتى عام ١١٢٣ هـ ١٧١١م حيث توفي فخلفه ابنه مالك . ويورد المؤلف (ص ١٠٨) هذا الخطاب قائلاً :

وهذا كتاب من النصاري للإمام سيف بن سلطان اليعربي : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون أعلم أننا جنود الله مخلوقون من سخطه مسلطون علي من يحل عليه غضبه ، لا نرق لشاكي ولا نرحم عبدة باكي ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل كل الويل لمن لا يمثل لأمرنا ، قد خربت البلاد وأهلكنا العباد ، وأظهرنا في الأرض الفساد ، فإن أعجبكم شرطنا كان لكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن أنتم أبيتم وعلي بغيبكم تماديتم فالحصون منا لا تمنع ، والعساكر لدينا لا ترد ولا تدفع ، لأنكم أكلتم الحرام وضيعتم الجمع فابشروا بالذل والجزع ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون . فإن أعجبكم كلامنا إننا كفرة وقد صار عندنا أنكم فجرة ، قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ، كثيركم عندنا قليل ، وعزبكم ذليل ، قد ملكنا الأرض شرقا وغربا وأخذنا منها كل سفينة غصبا . قد أرسلنا إليك هذا الكتاب

(١) سورة الحاقة الآية ٨ .

(٢) ورد نص هذه الرسالة في كل من « نزهة النفوس » للمصير في ج١ ، ٣٧٩ - ٣٨١ و « الدرة المضيتة في الدولة الظاهرية » لابن صصري ١٤٧ و « تاريخ ابن الدوات » ج١ ٣٧١ - ٣٧٣ و « السلوك » للمقريزي ج٣ ، ٨٠٣ مع وجود خلاقات طفيفة فيها .

المرجع :

د . محمد ماهر حمادة - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٩٨٦ .

فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء ولم تبق لكم باقية وينادي عليكم بالفناء هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ، وقد أنصفناكم وأرسلنا عليكم جواهر الكلام والسلام » .

ويورد الشيخ نور الدين عبد الله بن حميد السالمي جواب الإمام سيف علي القائد البرتغالي في صفحة (١٠٨) ، (١٠٩) من كتابه فيما يلي :

« هذا جواب الإمام » قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، قد حصل الوقوف علي هذه الكتبة الشاهرة لقولكم قد نزع الله الرحمة من قلوبكم ، فهذا من أقبح عيوبكم وأشد وأشنع ، ويغتم وذكرتم أنكم كافرون ، ألا لعنة الله علي الكافرين ، من تعلق بالأصول فلا يبالي بالفروع ، ونحن المؤمنون حقا لا يصدنا عنكم عيب ولا يدخلنا شك ولا ريب ، والقرآن علينا قد نزل ، فهو رحيم بنا لا يزل ، وخبولنا برية وبحرية ، وهمتنا سامية عالية ، إن قتلناكم فتعم البضاعة ، وإن قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة . ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ . وقولكم قلوبنا كالجبال وعددكم كالرمال : الجزار لا يبالي بكثرة الغنم الكثيرة ، وإن الله مع الصابرين . فتحن بالمنع عاليه أمنيّة إن عشنا عشنا سعداء وإن متنا متنا شهداء « ألا إن حزب الله هم الغالبون » ، « لقد جئتم شيئا إدا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا » فقل لصاحبك إذا رجع وشيد مقالته حصل الوقوف علي هذا الكتاب كصير باب وطنين ذباب « سنكتب ما قالوا ونمد لهم من العذاب مدا » وما عندنا بعد ذلك إلا الخيل تمطر بالويل والنار مظهرة العار ، والسيوف مسقية بالحتوف والسلام علي من اتبع الهدى ، وخشي عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلي واختار الآخرة علي الأولي ، والصلاة والسلام علي خير الأنام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

غير أن نصا آخر للخطاب يورده الدكتور سعيد عبد الله علي النحو التالي :

« وها هو القائد البرتغالي الذي جاء لغزو منطقة الخليج العربي موجها رسالة إلي إمام عمان الإمام » سيف بن سلطان الأول اليعربي « كتب فيها يقول :

« من ربان برتغالي إلي الإمام سيف بن سلطان الأول اليعربي ، قيد الأرض (*) .. الحمد لله خلق الأرض والسموات .. أنتم يا من تحكمون علي رعاياكم في خلافتكم ، تعلمون أننا نحن جيش الله ، وقد خلقنا لنكون أداة لعقابة الإلهي ، وهبنا السيطرة علي الذين يحل بهم سخطه ، وإننا لا نحن علي من يشكو أو نشفق علي من يبكي ، فقد نزع الله الرحمة من قلوبنا حقا ، والويل كل الويل لأولئك الذين لا يمتثلون لأوامرنا .. لقد دمرنا مدنا وقضينا علي أهلها ، وأفسدنا الأرض ، فإذا قبلتم شروطنا فسيكون هذا من مصلحتكم أنتم لا مصلحتنا نحن ، أما إذا رفضتموها وثابرتم علي ظلمكم فلن تمنعكم حصونكم منا ، ولن نحميكم جيوشكم فقد أكلتم ثمار

(*) قيد الأرض اسم للسلطان يعني أنه عمر الأرض واعتني بها .

الشر ، واضعتم أنفسكم قاما ... تتمتع اليوم فيما يساورك من قلق ، فإنك إنما تدفع عقوبة طفيفة لما فعلت .. وإذا كانت كلماتنا غير مقبولة منكم ، فيبدو لنا بالتأكيد أنك ظالم ، وأن قلوبنا قدت من حجارة ، وأعدادنا كحيات الرمال ونحن نعتبر أن أعدادكم الوفيرة قليلة ، وقوتكم خسيصة .. إننا نحكم الدنيا بالتأكيد من مشرق الشمس إلي مغربها .. وقد بعثنا لكم هذه الرسالة فأجيبوا عليها بسرعة قبل أن تتمزق جباهكم ولا يبقى منكم شيء .. وهذا لإبلاغكم لموقفنا .. مع تحياتنا «^(١) .

(١) د . سعيد عبد الله حارب - الخليج العربي أمام التحدي العقدي - ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي (مرجع سابق ذكره - ص ٢٣٨ و ٢٣٩) .

الفصل الرابع

المواجهة ، استراتيجيتها ووسائلها

أولاً : أهداف الغزو الثقافي .

ثانياً : التأثير .

ثالثاً : استوائية المواجهة :

أ) الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي.

ب) الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي.

رابعاً : الاتصال الثقافي :

أ) ضرورة الاتصال الثقافي ومعوقاته .

ب) وسائل الاتصال الثقافي .

أولاً : أهداف الغزو الثقافي :

تتمركز سمات الترابط وخصائصه بين وسائل الغزو الثقافي وأساليبه في أهداف هذا الغزو.
فما هي أهداف الغزو الثقافي ؟

لاشك في أن الأهداف العامة للغزو الثقافي تتمركز في السيطرة الشاملة على الشعوب المستهدفة بالغزو . ووضع شعوب تلك البلدان وما يملكون في نطاق التبعية الكاملة . وهذه هي الأهداف العامة للغزو الثقافي للمجتمع العربي المعاصر . والأهداف تتشكل وتتفرع وفق الظروف المتغيرة .

والهدف المحوري للغزو الثقافي هو الحيلولة بين شعوب الأمة العربية وبين عناصر بناء ذاتها أو استردادها وذلك بجعلها في حالة دائمة من الاغتراب ، ثم بالاختراق المستمر لها لتفتيت أية محاولة لبناء قاعدة ثقافية وحضارية تسترد بها ذاتها ، ثم بالتفريغ المستمر لطاقتها حتي لا تتكون من هذه الطاقات شحنة تفجر قبلة وعيها بذاتها الثقافية .

يرتبط بهذا الهدف المحوري أو يلحق به هدف رئيسي آخر هو المحافظة علي استمرارية الأسواق واستمرارية استنزاف موارد العرب . بمعنى أن تصبح المنطقة العربية سوقا دائمة للأجنبي وأن يظل استنزاف المواد الخام والأموال العربية مستمرا وفي قبضة الأجانب .

بعد هذين الهدفين تتوالي الأهداف ثابتة ومتغيرة بحيث يمكن أن تتشكل في كل عصر وفي

كل مرحلة من مراحل الهيمنة الغربية وفق طبيعة المرحلة . لقد كانت محاولة الغرب تجنيد العرب وقودا للحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي هدفا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى بداية العقد الأخير من القرن العشرين ، ثم بسقوط الدولة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي أصبح الهدف تجنيدهم للصمت والحذلان في مواجهة التطهير العرقي الأوربي والإبادة للمسلمين في البوسنة والهرسك .

كذلك ترتبط أهداف الغزو الثقافي للمجتمع العربي المعاصر بأنها - بصورة أو بأخرى - موجهة ضد الإسلام ، وأنها موجهة ضد المسلمين في الأقطار الإسلامية ، أو ضد الأقليات المسلمة في مختلف بلدان العالم . أي أن الأهداف تحمل سمة صليبية بلون معاصر .

وإذا انتقلنا إلي الأهداف المعاصرة للغزو الثقافي للمجتمع العربي المعاصر يمكننا أن نحدد مجموعة من الأهداف الظاهرة ، هي بطبيعتها صورة للعصر ونحن في أواخر القرن العشرين الميلادي .

* من أهداف الغزو الثقافي للمجتمعات العربية والإسلامية صرف انتباه هذه المجتمعات عن تنفيذ الخطط المعادية ، حتي تتم والناس مشغولون بالحدث أو الأحداث القريبة المفتعلة .

ولعل ما يوضح ذلك ، المثال الشائع في الأفلام المصرية القديمة ، حيث يكون حفل الزواج في القرية المصرية - قبل دخول الكهرباء - مضاء « بالكلويات » ، و « الكلوب » مصباح كبير يعمل « بالكيروسين » ، فماذا يفعل الأشرار في « الفيلم » ؟ . إنهم يضربون « الكلوب » الكبير بأحد الكراسي ، فيبدأ صرف الانتباه لتتمة السرقة ، أو قتل العريس ، أو اختطاف العروس . ولقد أصبح النظام العالمي الجديد - متمثلا في القوي الاستعمارية القديمة والجديدة - يقوم بذلك العمل في أي عرس عربي أو إسلامي ، فتقوم أجهزة مخابراته ويقوم عملاؤه بتوجيه جماعات من المُثَلِّين لإشاعة أعمال من الإرهاب حتي تتم سرقة البوسنة والهرسك من أبنائها المسلمين . وتعد منظمة المؤتمر الإسلامي اجتماعها عام ١٩٩٣ لتبدأ بقضية الإرهاب . وفي آخر أعمالها تشجب هلاك البوسنة والهرسك دون فعل إيجابي أو قيمة معنوية لهذا الشجب .

* ومن أهداف الغزو الثقافي للمجتمعات العربية والإسلامية أن تصبح هذه المجتمعات دائما في حالة من عدم الاستقرار ، ومن ثم يسهل استنزافها وإضعافها والسيطرة عليها .

* ومن أهدافها الغزو الثقافي أيضا بعث الحياة في المقيورين من أصحاب النظريات التي قضت نحبا في الغزو الثقافي . لقد أصبح ميسورا للقارئ العادي أن يشهد في مصر في عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣ مثلا خروج الماركسيين من قبور الشيوعية ليحملوا أعلام التطرف العلماني . في دور جديد ضد الإسلام أولا والعروبة ثانيا .

* ومن أهداف الغزو الثقافي الذي تقوم به القوي العالمية المعادية للإسلام وللغرب تشويه صورة الإسلام وصورة العرب والمسلمين . وذلك علي النحو التالي :

١- تقوم وسائل الإعلام الغربية بتصوير سلوك المخربين علي أنه السلوك الإسلامي الأصولي . والإيحاء للقارئ والمستمع والمُشاهد العالمي بأن الإسلام دين متأخر لا يصلح لهذا العصر .

٢- الربط بين الإسلام وبين العنف والإرهاب والتخريب والقتل .

٣- تصوير الإسلام بأنه لا يقر التعددية وأنه يتضاد معها ويتعارض مع الديمقراطية . وكما كان المستشرقون - بسوء نية - يأخذون حكايات ألف ليلة وليلة علي أنها صورة الإسلام فإن الإعلام الغربي اليوم يأخذ مقولات مجهولة المصدر بأن الإسلام لا يقر الديمقراطية .

٤- الانتهاء بالقارئ والمستمع والمُشاهد العالمي إلي صورة حكمية وإلي انتطباع راسخ بأن المسلمين- ونحن ندخل القرن الحادي والعشرين الميلادي - لابد من إبعادهم خارج الساحة الجديدة وخارج النظام العالمي الجديد . وإلقائهم في البحر لكي تنجو سفينة التقدم العالمي .

وهكذا أصبحت وسائل الإعلام في الغرب ومن ثم أصبح الرأي العام فيها وفي معظم أنحاء العالم يتحدث عن الإسلام وكأنه القوة التي ستدمر الحضارة ، إذا امتلك المسلمون عناصر القوة . وأن الإسلام سيعيد البشرية إلي القرون الوسطي . ونتيجة لهذا النوع المتحيز من التفكير ضد الإسلام ، ونتيجة لتضخيم الأعمال الإرهابية التي تقع في بلدان العالم الإسلامي ، وهي أقل ضراوة واستمرارا مما يقع في أمريكا وأوروبا ، أصبحت المجتمعات العربية والإسلامية هي كبش الفداء المتوقع في القرن الحادي والعشرين .

وتسعي إسرائيل مع حليفها الاستراتيجي الولايات المتحدة الأمريكية والنظام العالمي الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي إلي مقولة كبيرة وخطيرة ، فحواها أن العدو البديل للعدو السوفييتي هو الإرهاب الإسلامي . وإن إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي تستطيع أن تتعامل مع هذا الإرهاب بما يخدم أمريكا . وبالضغط الإعلامي الصهيوني عالميا يتم تضخيم وتحجيم حوادث إجرامية تقع في مصر أو الجزائر بأنها إرهاب إسلامي ، وتساند في الداخل العربي والإسلامي جماعات منحرفة من المتطرفين لا تتقيد بقول الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعا ﴾ سورة المائدة آية ٣٢ .

* ومن أهداف الغزو الثقافي الغزو هدم اللغة العربية . ولقد حاول الاستعمار في المشرق العربي هدم اللغة العربية وإحلال العامية محلها إلي جانب لغته الأجنبية التي سعي لأن تكون لها السيادة ، ولكن محاولاته ومحاولات أنصاره المحليين لم تحقق هدفهم ، وإنما أضعفت الفصحى إلي حد ما . وكانت محاولة الاستعمار في المغرب العربي أقسى وأعتى ، ولذلك حقق بعض أهدافه في هدم اللغة العربية ، ولكنه لم يتمكن من القضاء عليها .

وفي داخل الأوطان العربية ظل المرجفون من صرعي الغزو الثقافي يرددون اتهام اللغة العربية بأنها لغة دين ، وليست لغة حياة ، وأنها لغة الماضي ولا تصلح للمستقبل ، وأنها لغة الأدب والشعر ، وليست لغة العلوم البحتة مثل الكيمياء والفيزياء والهندسة والطب وغير ذلك .

إلى جانب الدعوة لاستبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي في كتابة اللغة العربية . ولكن كافة المحاولات لم تفلح في هزيمة اللغة العربية وزحزحتها عن مكانتها باعتبارها وعاء الثقافة العربية وعمودها الفقري . وعلى حد تعبير الخطة الشاملة للثقافة العربية « التفريط في اللسان القومي تفريط في الهوية وكسر لهيكل تماسك المجتمع ووحدته ، واللغة العربية بمساندة القرآن الكريم قد حافظت علي وجودها وتطورها حتي العصر الحديث » . وفي الوطن العربي حتي العقد الأخير من القرن العشرين ست مجامع لغوية ونحو ثمانين جامعة .

وحتى لا يظن صرعي الغزو الثقافي في الوطن العربي أن رعاية اللغة العربية يعود لأسباب دينية باعتبارها لغة القرآن الكريم وحسب ، نقدم لهم ما أذاعته وكالات الأنباء عام ١٩٨٩ ونشرته معظم الصحف من قيام فرنسا بإلغاء استخدام أربعمئة ألفين كلمة (٢٤٠٠) فرنسية إنجليزية ، وذلك لتنقية اللغة الفرنسية من الكلمات ذات الأصل غير الفرنسي ، واستبدالها بكلمات فرنسية تعطي المعني نفسه . وتم تشكيل هيئة خاصة لمتابعة تنفيذ هذا القرار وبخاصة في المعاملات الرسمية ^(١) .

لقد صدقت مقولة إن التفريط في القومي تفريط في الهوية .

* ومن أهداف الغزو الثقافي زرع القلق في صميم التاريخ الوطني والقومي . فمن صور الغزو في داخل الثقافة العربية ذاتها تصوير التاريخ الإسلامي بزاوية واحدة حادة هي صورة القهر والغدر والصراع الدنيوي القبيح . وتصوير التاريخ الإسلامي بأنه تاريخ عصابة إرهابية أهدافها الطمع والجشع والاعتبال . ورغم المبرر الذي يطرحه هؤلاء الغزاة بأن التاريخ الإسلامي شبيء والدين الإسلامي شيء آخر - وهذا أمر سليم وصحيح - إلا أن خطأهم العقلي، والمنهجي والعلمي هو الرؤية العوراء للتاريخ الإسلامي بقصد الوصول إلي نتيجة واحدة ثابتة هي عدم صلاحية تطبيق الإسلام في السياسة ، أو عدم إقامة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية علي أساس إسلامي أو أيولوجية إسلامية .

لقد كشف محمد حسنين هيكل في كتابه « الانفجار » العلاقة بين الهجوم علي التاريخ وتشويه الذاتية الثقافية بقوله إن الهجوم علي الماضي يصبح في جزء منه هجوما علي التاريخ والهجوم علي التاريخ يصبح في جزء منه هجوما علي الثقافة ، والهجوم علي الثقافة يصبح في جزء منه هجوما علي الهوية .

إن المقصود هو أن تهتز وتتداعي كل ركائز الثبات واليقين وأن تزدهم الأجواء - علي حد تعبير هيكل - بسحابات من الشك والقلق .

ومن الكتاب العرب ^(٢) من يري أن الشعوبية التي بدأت في العصر الأموي واستفحل

(١) جريدة الأخبار بتاريخ ٦ - ٧ - ١٩٨٩ .

(٢) جهاد فاضل - فتافيت شاعر - دار الشروق - بيروت والقاهرة - ١٩٨٩ ص ١٣٨ و ص ١٤٩ .

أمرها في العصر العباسي مازالت لها صور جديدة في عالمنا العربي » وكدليل علي أن الشعوبية مازالت تحيا في عصرنا هذا ، وفي صور مختلفة ، ما نقرأه أحيانا من أدب لا يمكن أن يؤدي مضمونه إلا إلي ضرب الكيان العربي من خلال ثقافته وفكره والقيم التي تضمنها تراثه الحضاري: ومن صور الشعوبية الجديدة النظرة إلي العرب علي أنهم من جنس فيه كسل فطري وعقم فكري ولغتهم تسودها المبالغات . ومن صور الشعوبية الجديدة النظرة إلي العرب علي أنهم مجموعات متفرقة وليسوا أمة واحدة وأنهم في حالة سمجة من الهمجية والتخلف ، وهي نظرة تقع في أسر الخطاب الشعبي القديم الذي كان يقول إن العرب قبائل لا تربطها رابطة وليس لهم من الحضارة نصيب .

وكما يطالب الشعبي الجديد بإحياء تراث بعض الملل والنحل والفرق لبؤس عليها . الحداثة، لا علي التراث الإسلامي الشائع والمعروف ، فقد طالب الشعبي القديم بإحياء التراث السابق علي الإسلام للشعوب الأخرى . حتي فكرة الحداثة التي يرفعها الشعبي الجديد ويركز عليها كستار يخفي به كراهيته للثقافة العربية الإسلامية ، هذه الفكرة استخدمها الشعبي القديم من أجل إرباك العقائد وتشويه المفاهيم الإسلامية والدعوة المبطنة إلي إحلال مفاهيم أخرى . فباسم الحداثة والعقل والمنطق عملت الشعوبية علي تحوير معني النصوص والمفاهيم الإسلامية ، فأولتها عما يخرج بهذه النصوص والمفاهيم من معانيها الإسلامية إلي مفاهيم غريبة بعيدة عن الإسلام .

والشعوبية تفعل ذلك باسم الحرية الثقافية والفكر المتجدد ، وهي تندد بالقيم الإسلامية وتذهب إلي التحلل ، وهي تدرك أن هذا سبيل فعال لتفكيك الروابط وإضعاف الكيان الاجتماعي . وقد مثلت الشعوبية القديمة تحديا هاما للعروة وللثقافة العربية . وقد فند فريق كبير من الكتاب والمفكرين العرب مقولات الشعوبية . وقد اتفق هدف الشعوبية الجديدة مع هدف أسلافهم ويمكن تلخيصه فيما يلي :

* التوكيد علي المظاهر السلبية في المجتمع العربي وترك الجوانب الإيجابية .

* الموقف السلبي من الإرث الحضاري العربي وتشويه التاريخ العربي وتصغير شأن العرب قديما وحديثا .

* التشكيك في كون العرب أمة والخط من مزاياهم ومقوماتهم ووصمهم بالبلادة والانحطاط.

هجوم آخر علي الإسلام لا يقل عنفا عن الهجوم علي العرب علي أساس أن العرب هم مادة الإسلام .

وفي العصر الحديث أسهمت الانقلابات العسكرية والسياسية المتتالية في الساحة العربية علي زيادة القلق وعدم المصادقية وبخاصة أن كل حركة انقلابية تلعن سابقها وساعدت الصحف بسعة انتشارها ، وبكثرة نفاق كتابها علي اتساع دائرة القلق وعدم المصادقية ، في مصر مثلا « ألم يتحول الملك فاروق من الوطني الأول والعامل الأول والفدائي الأول لكي يصبح بعد نزوله عن

عرش مصر وخروجه منها - أفاقا ولصا وهاتك أعراض ؟ - علي نفس المكان من صحف أخبار اليوم .

ألم يتحول مصطفى النحاس - علي نفس هذا النمط - وهو الذي كان علي الأقل طوال حقبة الثلاثينات - رمزا للمقاومة المصرية ضد الاحتلال وضد القصر - إلي خائن وفاسد وألعوبة في يدي زوجته ؟ - علي نفس صفحات أخبار اليوم .

ألم يتحول جمال عبد الناصر وهو رمز حركة الحرية والتحرر والعدل الاجتماعي - إلي طاغية وجلاذ - بعد أن تأكد رجيله إلي رحاب الله ؟ بنفس الأقلام وإن اختلفت ألوان الحبر!!!^(١).

* ومن أهداف الغزو الثقافي التريص بأي صحوة ثقافية إسلامية عربية وتشويهها وقلبها رأسا علي عقب ، أو الانحراف بها بعيدا عن مجراها الصحي والصحيح . إن الصحوة الإسلامية التي بدت واضحة في الوطن العربي بعد يونيو ١٩٦٧ ، هذه الصحوة التي شملت قطاعات وشرائع اجتماعية عديدة أمكن تدبير المكائد لها بدفع عناصر مضللة في داخلها لتمارس نشاطا إرهابيا ، ثم مصادرة الصحوة وقد حصلت في الجزائر في ديسمبر عام ١٩٩٢ علي الأغلبية في الانتخابات فتم حصارها لترد أطراف منها علي ذلك بالعنف ، ثم بالحصار العام للاتجاهات الثقافية الإسلامية الناهضة ومحاولة التريص بها .. بكل ذلك وغيره أمكن إجهاض الصحوة الثقافية الإسلامية . ثم أمكن تحويل المسار التريوي والديمقراطي لها إلي صورة لا تمت لها بصلة هي صورة الإرهاب .

وعلي قدر قوة الدفع لأية صحوة ثقافية إسلامية تكون قوة التشويه والجذب إلي الوحل . إن كتابات الدكتور محمد حسين هيكل « باشا » الإسلامية مثل حياة محمد ، و « في منزل الوحي » و « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » ، وكتاباته الدكتور طه حسين في « هامش السيرة » و « الفتنة الكبرى » وغيرهما وعقريات العقاد الإسلامية ، وكتاباته الإسلامية بصفة عامة ، هذه الكتابات مثلت في الربع الثاني من القرن العشرين ملامح صحوة ثقافية إسلامية أدبية وتربوية هادئة . هذه الكتابات وهؤلاء الكتابات كيف يصورهم حمالو الحطب في حرائق الغزو الثقافي ؟

يقول الدكتور لويس عوض في هؤلاء الرواد قولاً يتناقض مع جهدهم في حقن الكتابات الإسلامية . « فخلاصة رأي الدكتور عوض أن هؤلاء الرواد بدأوا حياتهم زنادة ، أي أنهم كانوا مفكرين لا يؤمنون بالدين ، ثم اتجهوا في النصف الثاني من حياتهم إلي الدين ، ولم يكن دافعهم إلي الكتابات الدينية إلا محاولة إرضاء الرأي العام والتقرب إليه ، ثم تحقيق النجاح والرواج والشهرة من خلال هذه الكتابات الدينية .. وهذا الموقف إن دل علي شيء فإنما يدل علي النفاق ..

(١) محمد حسين هيكل . بين الصحافة والسياسة ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - الطبعة الأولى - بيروت

وانعدام الصدق ، والازدواجية الفكرية عند هؤلاء الرواد ، فهم يؤمنون في أعماقهم بشيء ، ويعبرون عن شيء آخر مختلف .. وهذا أسوأ ما يمكن أن يصاب به الفكر الحر، فأحرار الفكر ينبغي أن يكون ظاهريهم مثل باطنهم ، وأن يبتعدوا تماما عن الجري وراء الجمهور والعمل على إرضائه ، ولو كان ذلك على حساب آرائهم الحقيقية التي كانوا يؤمنون بها في الفترة الأولى من حياتهم .

هذا هو المعنى العام الذي نخرج به من رأي الدكتور لويس عوض في هؤلاء المفكرين الرواد الثلاثة وهم : هيكمل وطه حسين والعقاد ..

والحقيقة أن رأي الدكتور لويس في هذه القضية هو رأي شائع بين الكثيرين من المثقفين ، وإن كان الدكتور لويس هو أشجع الجميع في إعلانه والتصريح به ^(١) «

ويفند الناقد والكاتب المصري رجاء النقاش هذه المزاعم ، فثبت أن هؤلاء الكتاب الثلاثة كانوا من كبار المفكرين المصريين قبل أن يتجهوا إلى الكتابة في الموضوعات الإسلامية المختلفة . وبذلك فإن أي حديث عن اتجاههم إلى الإسلاميات بدافع البحث عن الشهرة والتجاذب والتأثير الواسع على الجماهير هو حديث لا يثبت للبحث العلمي . وأن إسلامياتهم قد حررت القارئ المصري من التعصب والتطرف والخصومة مع العصر » .

وعندما نقارن الفعل المتمثل في كتابات هيكمل والعقاد وطه حسين الإسلامية ، برد الفعل المتمثل في تحليل الدكتور لويس عوض لهذه الأعمال الإسلامية ، يمكننا أن نفهم المقارنة المعاصرة خلال العقدين التاسع والآخر من القرن العشرين لفعل آخر هو اعتزال عدد كبير من المثلات المصريين للفن الرخيص وارتدائهم الحجاب ، وانصراف عدد من الفنانين المصريين إلى الإنتاج الفني الإسلامي ، والتوقف تماما عن التمثيل والإخراج في اللون السائد تجاريا ، هذا الفعل قابله رد فعل يتمثل في السخرية والصاق التهم إليهم بالحصول على أموال من جهات دينية خارجية للاعتزال ، وما شابه ذلك من أكاذيب .. !!

تفسر لنا المقارنات الماثلة أن أي فعل ثقافي إسلامي رشيد لابد وأن يقابله رد فعل من حمالي حطب الغزو الثقافي للمجتمعات العربية الإسلامية . بغية تشويه الفعل وقلبه رأسا على عقب .

ثانيا : التأثيرو :

الذباب والتلوث وتأثير الأشعة ومثل ذلك ، هل يمكن لإنسان معاصر في مدينة معاصرة أن يتجنبها كلية ؟ لا .. ولكن يمكن تقليل أضرارها إلي أقل حد ممكن . ولكي يتحقق ذلك ينبغي أن تكون حواسه نشطة فيسد أنفه بمجرد خروج دخان السيارات والمصانع وابتعد عن مجال الأشعة

(١) رجاء النقاش - الإسلام بين التسامح والتطرف - مجلة المصور بتاريخ ١ - ٦ - ١٩٩٠ .

وينظف مكانه ليبعد الذباب عنه . والغزو الثقافي شأنه شأن الذباب والتلوث وتأثير الأشعة يستحيل تجنبه كلية ، ولكننا نستطيع تقليل أخطاره علينا إلي أدنى حد ممكن . ولكي يتحقق لنا ذلك ينبغي أن تكون عقولنا نشطة متيقظة ، عالمة به ، وبأساليبه . وأن تكون في أيدينا الوسائل التي تقينا هذا الغزو .

ولقد عبر الزعيم الهندي الراحل « المهاتما غاندي » عن العلاقة بين الغزو الثقافي والاتصال الحضاري عندما قال :

« لا أحب لبيتي أن تحجب الحوائط العالية، ولا لنوافذه أن تغلق دون الهواء النقي . وكم أحب أن تهب رياح الثقافات جميعها علي بيتي طليقة لا تعوقها سدود ، إلا أنني لا أحب منها أن تنتزع قدماي من بيتي ، ولا أرضي أن أعيش في بيوت الآخرين طفيليا أو متسولا أو مستعبدا » .

وكلا الأمرين السيئين : الحوائط التي تحجب التفاعل الثقافي ، والعواصف التي تحمل رياح السموم المشبعة بالغزو الثقافي ، كانا من التأثير المباشر للغزو الثقافي لمجتمعاتنا العربية المعاصرة. لقد تخوف غلاة المحافظين والسلفيين من الغزو الثقافي فأحجموا عن التفاعل الثقافي وأقاموا الحوائط العالية حول القديم لا يتجاوزونه ولا يعرضوه للهواء والنماء . وعلي الجانب الآخر أسرف المولعون بتقليد الغرب والفرحون بريح السموم ما دامت قادمة من الغرب فعصفت بملابسهم كما عصفت بعقولهم فأصبحوا مجانين غراة في مجتمعات تقيم للحشمة والحكمة قيمة وقدرًا ومكانة رفيعة .

* من تأثير الغزو الثقافي علي المجتمع العربي المعاصر زرع روح الإحباط وعدم الثقة بالنفس علي المستوي الفردي ، والمستوي المحلي ، والمستوي القومي . وذلك بمحاولة تجريد أي نصر عربي من استكمال طريقه أو الوصول إلي نقطة الثقة بالنفس . فانتصار الإنسان العربي متمثلا في الانتصار السياسي للشعب المصري عام ١٩٥٦ علي قوي العدوان الثلاثي (بريطانيا، فرنسا ، إسرائيل) لحقته رياح شديدة من العداء الإعلامي الغربي والحرب الباردة ، ودمغ مصر بالارتقاء في أحضان الشيوعية . وكذلك انتصار الإنسان العربي متمثلا في الثورة الجزائرية المظفرة لحقه الحصار الاقتصادي وإعاقة التعريب من الداخل ، وإزكاء رواد التعريب في الداخل لروح الفساد والتطرف العلماني . وحتى الازدهار السياحي في لبنان لحقته حرب أهلية إجرامية مخطط ومدير لها استمرت لما يقرب من عقدين من الزمن . وانتصار الإنسان العربي متمثلا في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ذلك الانتصار العسكري الذي قام به الجيش المصري والجيش السوري ، ومعه الانتصار السياسي والاقتصادي الذي قام به العرب جميعا ، هذا الانتصار لحقه تفريغ من ثماره بالفرقة بين العرب ، وإرجاع سعر برميل النفط الذي زاد عن أربعين دولارا إلي أقل من خمسة عشر دولارا في بضع سنين ، وبالاتفاق الاقتصادي في مصر الذي خرب الصناعة المصرية الوليدة ، وفتح أبواب النشاط الطفيلي ، وعوّق الإنتاج ، وزاد من

عدد العاطلين ، وأسهم في كثرة الديون . فإذا لم يبق للعرب نصر يمكن تحويله إلى هزيمة ، ثم التخطيط لدفع مجنون لأم المهالك في حرب الخليج في أغسطس عام ١٩٩٠ ليقتل العرب أنفسهم بأنفسهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ، ويدفعون ثمننا ماليا واقتصاديا باهظا للخراب. حتى لا يصبح في جعبة الثقافة العربية غير الحزبي والعار والإجباط وعدم الثقة بالنفس .

ويساعد الإعلام العربي في ترسيخ الكآبة في الوجدان العربي بذلك الجو المسيطر علي تحليل الموقف الدولي في معظم الأحيان وهو جو متشائم يطلق علي العالم أنه في أزمة . «وبالتالي فجميع التحليلات الفرعية تتسم بالسلبية والسوداوية والتشاؤم . وهذا انعكاس للأزمة التي يستشعر بها مركز الهيمنة الغربية . وهو مصدر المعلومات والأخبار . بينما لو تابعنا مصادر المعلومات علي سبيل المثال في اليابان أو الهند أو البرازيل سنجد الصورة مغايرة . هذه المصادر غير الغربية تقدم صورة خطها العام الإيجابية وليس التفاؤل الطوباوي (العفوي المثالي) بل الإيجابية الفعلية الواقعية ، المتمثلة في تطور الاقتصاد ، وتطور التعليم ، وتطور الثقافة . وفي مصر باعتبارها نموذجا للعالم العربي والعالم الثالث نجد مصدر الخبر المنشور ، وهو أساس التحليل في إعلامها من وكالات غربية وأمريكية . كيف يمكن أن نفهم الصين من خلال أعداء الصين ؟ كيف يمكن أن نفهم اليابان من خلال منافسيها منافسة ضاربة تصل إلي حد العداء الشديد ؟ كيف يمكن أن نفتح هذه المصادر المصدقية ؟ إن خطورة الأمر هنا أن التأثير لا ينحصر علي القرار ، بل علي العقل والفكر فستدوق المعلومات خطأ . كيف أعمل وعدة الشغل غير صالحة ؟ فالاتجاهات التابعة والقائمة علي المعلومات ناقصة وغير صادقة (١) »

وقد أجري علماء النفس تجارب أسموها العجز المُتعلم^(٢) Learned Helplessness وذكر « مارتين سيلجمان » أثر الخبرات السابقة التي تؤدي بالمكتئبين إلي أن ينظروا لأنفسهم علي أنهم عاجزون ، وحينما يواجه الأفراد العاجزون موقفا طارئا فيأنهم يشعرون بعدم كفاءتهم. ويتجهون إلي السلبية ، وعدم الاهتمام . ولقد أجري « سيلجمان » تجربة علي الكلاب بتعريضها إلي صدمات كهربائية شديدة وفي الوقت نفسه سد منافذ الهرب . وبعد ذلك وضعت هذه الكلاب في مواقف تسمح لها بالهرب ، وعند تعريضها لصدمات كهربائية شديدة كانت محاولاتها للهروب قليلة للغاية ، لأنها تعلمت العجز . أما الكلاب التي لم تجبر من قبل علي الظروف السابقة فإنها تعلمت الهروب من تلك المواقف تحت نفس الظروف ، لأنها لم تتعلم العجز .

من تأثير الغزو الثقافي جعل الشعوب التابعة تستبطن الصورة السلبية التي يصنعها لها المجتمع المسيطر أو الثقافة المسيطرة ، حتي تشعر أنها من طبيعة دونية ، وتقبل هذا الوضع .

(١) أنور عبد الملك في حديث صحفي مع مجلة المصور بتاريخ ٢٩ - ٤ - ١٩٨٨ .

(٢) لنذا ل. دافيدوف - مدخل علم النفس - الطبعة الثالثة (ترجمة د. سيد الطواب وآخرون) - الدار الدولية للنشر والتوزيع- القاهرة - ١٩٨٨ ص ٦٧٦ .

وتخضع من تلقاء نفسها للهيمنة الأجنبية . ويصبح مثلها مثل الكلب في تجربة « بافلوف » (١٨٤٩ - ١٩٣٦) عالم الفسيولوجيا الروسي المشهور . فقد عمد « بافلوف » إلى وضع كلب جائع في غرفة معزولة الصوت . ووضع الكلب على منضدة مع ربطه ربطا مريحا ولكنه يمنع من الحركة . ثم قام بعمل فتحة في خد الكلب وأدخل أنبوبة في هذه الفتحة أوصلها بإحدى الغدد اللعابية ، بحيث إذا سال لعاب الكلب . سال اللعاب من هذه الغدة إلى الأنبوبة المدرجة التي تمكن الباحث من التحقق من أن اللعاب قد سال والتحقق من كميته .

وتقوم التجربة أساسا على إصدار صوت معين ، أو نفخة صوتية مسموعة في ضوء مصباح . فبالتجربة الكلب عادة نحو مصدر الصوت إلا أنه لا يسيل لعابه . ثم يبدأ الجانب الرئيسي في التجربة حيث يبدأ الصوت ، وبعد جزء من الثانية ، يقدم الطعام للكلب . وبعد تكرار المزاوجة بين الصوت وتقديم الطعام عددا يتراوح بين عشر مرات إلى عشرين مرة ، فإن مجرد صدور الصوت منفردا سيستثير الاستجابة اللعابية .

ولقد أجري علماء النفس الكثير من تجارب الارتباط الشرطي على نسق تجارب بافلوف ، واستخدموا فيها كائنات حية كثيرة غير الكلاب ، كما أجروا كثيرا من التجارب أيضا على الإنسان ، وقاموا بدراسة ، استجابات شرطية أخرى أكثر تعقيدا من إفراز اللعاب . ففي إحدى الدراسات تم تعليم الفئران بطريقة الارتباط الشرطي هذه الإرجاع المرتبط بالأنسولين . والمعروف أن الأنسولين هرمون يعمل على التحكم في مستوى السكر بالدم . وهو يستخدم عادة في علاج مرضي السكر . وتؤدي الجرعات الزائدة من الأنسولين إلى أوجاع فسيولوجية شديدة تعرف بصدمة الأنسولين ، وهي تكون مصحوبة بفقدان الوعي .

وفي هذه التجربة يتم تعريض الفئران لضوء مبهر ، وفي الوقت نفسه حقنهم بجرعة مفرطة من الأنسولين . وهنا يعمل كل من الضوء المبهر وإبرة الحقن كمنبهات شرطية . أما الحقن بالأنسولين الذي يحدث الصدمة فكان يمثل المنبه غير الشرطي . وبعد عدة مرات تصاحب المنبه الشرطي بالمنبه غير الشرطي ، يتم استبدال الأنسولين بحلول ملحي ليست له أية تأثيرات . ولكن الفئران بعد حقنها . بالحلول الملحي الذي ليس له أية تأثيرات فسيولوجية لوحظ أنها تحدث لها صدمة تشبه إلى حد كبير ، الصدمة التي يحدثها الأنسولين . هنا يتأكد علماء النفس أن صدمة المحلول الملحي استجابة متعلمة .

ويؤكد علماء النفس أن التجارب المعملية في التشريط الكلاسيكي قد أشارت إلى أن كلا من الإنسان والحيوان يتعلم وفقا لهذا النوع من التشريط ^(١) .

* ولعل أخطر تأثير للغزو الثقافي هو تزييف الوعي ، ومن ثم تتصرف المجتمعات وفق وعي

(١) د. عبد الحليم محمود وآخرون - علم النفس العام - الطبعة الثانية - مكتبة غرب - القاهرة - ١٩٩٠ - ص ٢٥٣ إلى ٢٥٨ .

مزيف كاذب يحمق وجنون يؤدي إلي هلاكها . والمثل الشائع بأن العملة المزيفة والرديئة تطرد العملة الصحيحة من السوق يمكن تطبيقه علي عقول الناس ، لأن تزيف الوعي يطرد التعقل . لقد كشفت مصادر إعلامية وكتابات صحفية أن وكالات المخابرات الأمريكية والأوربية عمدت إلي نشر أخبار كاذبة حتي تدفع الأمور في حرب الخليج إلي الكارثة التي شهدها العالم في أغسطس ١٩٩٠ . ويتجدد الهدف في الوقيعة بين الشعوب العربية والإسلامية ليسفكوا دماء بعضهم البعض .

يقول الدكتور مصطفى محمود ^(١) :

ألا نفهم ؟

ألا نريد أن نفهم ؟؟

ألا نريد أن نري عدونا الحقيقي ؟

لماذا نتعامي عن حقائق تفصح عن نفسها كوضوح النهار ؟

ولماذا نسارع إلي اتهام بعضنا البعض ، ونصدق أي شائعة ؟

ونجري وراء أي فتنة يطلقها الشارع الصحفي والإعلامي في أوروبا وأمريكا . وهو الشارع الذي قتلته رؤوس أموال صهيونية . إن « الأوركسترا » الإعلامي الذي حشده الغرب قبل حرب العراق وإيران ، والذي اتهم إيران بسبق التحرش بالعراق تبين أنه كان أكذوبة ملفقة . والاتهامات التي أشاعوها عن الكويت بأنها كانت تسرق بترول بنر الرمييلة العراقي ليوغروا صدر صدام علي الكويت كانت مكيدة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . واليوم (١٩٩٣) تنطلق وكالات الأنباء الغربية في أوركسترا يتهم إيران في وقت واحد بتفجير القنابل في تونس والجزائر ومصر . والهدف واضح وهو الوقيعة بين الدول الإسلامية وجرحها إلي مسلسل النزاعات والحروب . ونحن ننساق وراء كل ناعق ، ونصدق أي شائعة وتخرج صحفنا بنفس العناوين التي تنشرها وكالات الأنباء والصحف الصهيونية وتنقلها عنهم نقلا كاملا . !! «

هذا التأثير المعاصر للغزو الثقافي للمجتمعات العربية والإسلامية هو البديل بعد انهيار الحرب الباردة إعلاميا فبعد أن كانت المصادر الإعلامية الغربية تسعى إلي الوقيعة بين حركة القومية العربية وبين الدول الإسلامية التي تتمتع بعضوية الأحلاف الغربية ، أصبحت الوقيعة المعاصرة أشد وأقسى لتصل إلي حد الوقيعة بين مصر والسودان !!.. تسعى بأن يقتل الشقيق شقيقه . وقد فعلها صدام في الكويت !!..

* والتأثير الخطير الآخر للغزو الثقافي للمجتمعات العربية والإسلامية هو محاولات تفتيت الوحدة الوطنية علي المستوي القطري وعلي المستوي القومي ضمن محاولة التفرقة الدائمة وأحب

(١) د. مصطفى محمود - أصابع الاتهام تشير - جريدة الأهرام - بتاريخ ١٠ - ٤ - ١٩٩٣ .

أن أبين بوضوح شديد أن تعبير الوحدة الوطنية تعبير ثقافي قبل أن يكون أي شيء آخر ، اجتماعي ، أو سياسي ، أو ديني .

لقد حاول الاستعمار في الوطن العربي إثارة أشكال من الصراع بين المسلمين والأقباط في مصر . كما حاول في الجزائر إحياء القومية البربرية ضد عروية الجزائر . ومثل هذه المحاولات المشهورة في التاريخ العربي الحديث ليست إلا مدخلا مشهورا وشائعا للإطار العام الذي سعي إليه الاستعمار في تفتيت الوحدة الوطنية بمعناها الثقافي العام والوحدة القومية بمعناها الثقافي العام . ونستطيع أن نتبين ذلك بوضوح شديد عندما نطرح سؤالا : كيف تعامل الغرب مع ثقافة الشعوب المستعمرة ؟

١- حاول المحافظة على كل قديم بال في حياتها الثقافية .

٢- اتهم المثقفين الوطنيين في محاولاتهم التجديدية بالعمالة .

٣- تزييف مفهوم الأصالة ودعم التقليد الأعمى لقيمه الثقافية .

٤- تعزيز الأساطير والخرافات والمحافظة عليها .

٥- تمجيد حكمة الشرق وجعلها البديل للتكنولوجيا والعلم التجريبي .

لقد جند الاستعمار أعلاما عديدة لتأدية ذلك الدور في داخل البلدان العربية وسانده سياسيا واقتصاديا بل عسكريا في بعض الأحيان . ولما جاء زمن البترول جاهد الاستعمار في إقامة سدود من التحفظ والخوف بين الشعوب العربية الثرية بالبترول وبين الشعوب العربية الثرية بالخبرات العلمية والمهنية حتى لا تثمر الثروة العربية الطارئة تقدما قوميا له قيمة كبيرة . وحل محل التنمية السبب والشتائم بالرجعية والشيوعية بين الأنظمة العربية . ولقد تنبّهت الحطة الشاملة للثقافة العربية^(١) إلى الوظيفة التاريخية للثقافة العربية باعتبارها أداة توحيد لا أداة تفتيت . كما تنبّهت إلى ما تضمه الثقافة العربية في ثناياها من ألوان الثقافات المحلية التي تختلف حسب الوضع الجغرافي ، والأخلاق العرقية ، والطوائف الدينية، ودور هذه الثقافات فيها كدورها ضمن جميع الثقافات الكبرى ، وهو أن تزيد من غناها وألوانها ، وأن تنوع من عطائها لا سيما هي تعيش فيها ومعها ، وضمن فلكها الواحد منذ العصور الإسلامية الأولى، وتتفاعل معها أخذًا وعطاءً وإنتاجا وتعبيرا طوال هذه العصور ولقد أسهم الكثير منها في تكوين الثقافة الإسلامية .

ولكن التنوع لا يعني التعدد الثقافي ولا يعني الصراع والتمزيق للوحدة الثقافية العربية . هذا الاستدراك الذي استدركته الحطة الشاملة للثقافة العربية ، هو الذي أثار انتباه الناقد والكاتب المصري سامي خشبة^(٢) قائلا : لماذا كان التعدد الثقافي في الماضي يزيد ثقافتنا ألوانا وغنى وتنوعا في عطائها ؟ ولماذا يصبح هذا التعدد مشبوها ، ويوصم بالتنوع بأنه يصبح تعددا

(١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الحطة الشاملة للثقافة العربية - المجلد الأول - ص ٤٥ .

(٢) سامي خشبة - قراءة في الحطة الشاملة للثقافة العربية - جريدة الأهرام بتاريخ ١٥ - ١ - ١٩٨٨ .

إن ما ذكرته الخطة وما نقده سامي خشبة يرتبط بالصحة والمرض . إن الثقافة في حالة صحتها تصبح الإنسان السليم الذي يؤدي تنوع الطعام إلى زيادته قوة . والثقافة في ظل الدس الاستعماري تصبح الإنسان المريض الذي ينصح به الطبيب بالدين أو المسلوق . وهذا ما عبرت عنه الخطة بقولها إن المحاولات التي تهدف إلى خلق ثقافات محلية أو إيجاد كيانات ثقافية متناحرة يرتبط بشبهات تاريخية أو طائفية ذات أغراض .

ويظل مفهوم الوحدة الوطنية مفهوما ثقافيا على الساحة العربية قريبا وقوميا ، وتظل محاولة تفتيتها عملا من أعمال الغزو الثقافي . ولعل مثلا ما يكتبه الدكتور غالي شكري يبرز هذا المعنى بوضوح شديد في كتابه ذي العنوانين أقنعة الإرهاب - البحث عن علمانية جديدة . هذا المثل الذي يُعدّ غزوا ثقافيا ومحاولة لتفتيت الوحدة الوطنية وقف أمامه الكاتب المصري مأمون غريب^(١) قائلا :

« ولكن الذي لم أفهمه - علي حد فهمي البشري - هي هذه المقارنة العجيبة بين الشيخ الشعراوي ، والممثل عادل إمام .. وتهجم علي الشيخ الشعراوي بلا مبرر منطقي - وليس الشيخ الشعراوي فوق النقد - ولكن الطريقة التي عرض بها رأيه عجيبة وأترك الحكم للقارئ.. يقول غالي شكري :

عادل إمام والشيخ متولي الشعراوي هما ألح نجمين في هذا العقد علي الصعيدين المصري والعربي - الأول كما هو معروف ممثل كوميدى والآخر كما هو معروف أيضا أحد الدعاة المتفهمين في الإسلام يجمع بينهما هذه الجاذبية التي تسحر الملايين حول شخصية كل منهما عن طريق الأسلوب التمثيلي الذي يخاطبان به الجماهير . وإذا كان التمثيل في حياة عادل إمام هو الحرفة المباشرة ، فإن التمثيل في حياة الشعراوي هو أداة تعبير بديلة للخطابة التقليدية .. وإذا كان التمثيل في حياة عادل إمام لا يتطلب سوى الاتقان الحرفي . فإن التمثيل في عمل الشعراوي يتطلب الحركة العفوية لعريف الكتاب أو مدرس القرية والكلام الحاذق المبسط الذي يبهر السامع . ويتابع الدكتور غالي كلامه العجيب :

ولاشك أن مواهب الشعراوي الفطرية كمواهب عادل إمام هي التي نقلتهما إلى الصف الأول من « نجوم » العصر الجديد . ولكنهما النجمان النقيضان .. فالممثل الكوميدي المحترف يقتضيه الأمر أن يعارض وينتقد .. وهو في مجال الحياة العامة أقرب إلى اليسار الناصري إن جاز التوصيف . أما الشيخ الشعراوي فقد نقله « السادات » من عمله الإداري المتواضع في الأزهر إلى عضوية الحكومة التي وافقت علي (كامب ديفيد) وزيرا للأوقاف .. ومن يومها ظل الشيخ

(١) مأمون غريب - لا يا غالي - مجلة آخر ساعة ، وكتاب غالي شكري ، أقنعة الإرهاب ص ٣٠١ .

في صفوف المؤيدين ، حتي وهو خارج الوزارة ، ولكن الحلقة التليفزيونية الأسبوعية التي يقيمها وتباع في أقطار عربية عديدة ، دفعت بمواهبه إلى الصدارة فأصبح في فترة وجيزة من أغنياء عصر الانفتاح .. وكانت جاذبية هي التي فتحت له أبواب الداخل والخارج .. كان النظام المصري كغيره من الأنظمة العربية يعاني ولا يزال من الجماعات الدينية الراديكالية ..

وكان الشيخ لا يزال صاحب بضاعة يبرز فيها المعرفة المتواضعة لشباب هذه الجماعات . ولأنه أيد السادات والصلح مع إسرائيل . ولأنه يجادلهم بمنطق العامة من الشعب فقد راح يسحب البساط من تحت أقدامهم . وأصبحوا بدورهم يرون فيه خصما .. وبقيت المفارقة إلى الآن أن الشيخ قائد بلا جنود .. وإن جنود التنظيمات بلا قائد .. بالرغم من أن الفكر الذي يروجه الشيخ الشعراوي هو نفسه فكر هذه التنظيمات .. ولكن سلاحه هو موهبته التليفزيونية الطاغية. وأما سلاحهم فهو الإرهاب .. إنه رجل النظام ولكنه لا يقل راديكالية في تفسير القرآن والأحاديث . حتي أنه لا يشعر بأي حرج في التلميح والتعريض بالمسيحية والمسيحيين مما يساهم - وقد ساهم - في خلق مناخ طائفي يعبئ العواطف والانفعالات في قنابل موقوته .. ثم وقعت (المواجهة) المتوقعة بين النجم عادل إمام والنجم متولي الشعراوي !!

ويتابع غالي .. كلامه .. وهو لا يجد للشيخ أي فضيلة .. فهو مثل الجماعات المتطرفة .. بل تدخل حتي في تفسيره للقرآن الكريم !!

ما علينا .. يتابع حديثه :

فجأة ظهرت علي سطح الحياة المصرية قضية « الفن حلال أم حرام » وأقول علي السطح، لأن الحياة المصرية تغلي بمشكلات أبعد ما تكون عن هذه الافتعالات المقصودة ، ولأن المصريين في حياتهم اليومية يمارسون الفن في تجلياته المختلفة دون التوقف عند الحلال والحرام .. ولكن بعض الجماعات الإسلامية أعلنت أن الموسيقى صوت الشيطان ، وإن المسرح رجس والغناء عورة والفنون التشكيلية وثنية ، والأدب غواية الكافرين .. هكذا دفعة واحدة .

وينتقل بنا المؤلف خطوة أجراً .. فيقول :

- في مواجهة هؤلاء جميعا .. وفي موقف هذه الأفكار كلها ، قام الشيخ متولي الشعراوي بمشاهدة عرض مسرحي عنوانه (دماء علي أستار الكعبة) .. وفي الوقت نفسه أدلي بحديث إلي جريدة أخبار اليوم (٢٣ / ١ / ١٩٨٨) أجاب فيه علي سؤال حول الرقص : بأنه ليس فنا .. إنه اهتزازات في الجسم بشكل خاص .. الأمر الذي يشير الفرائز .. ويستعرض الحديث .. ولا أعرف وجه المقارنة بين آراء الشيخ وبعض الجماعات الإسلامية - كما يقول .. فالرجل الذي يدخل مسرحية لأنها تحمل عنوانا دينيا .. لا يعني أن الرجل جامد متحجر يضع قيودا علي الفن .. فهو لم يدخل « كاهنها » في شارع الهرم .. أما حكمه علي الرقص بأنه حرام .. فلم يكفر الرجل .. فمن قال إن الرقص الذي نراه .. في أي مذهب .. وأي دين حلال !

والأعجب من كل ذلك في مقارنته العجيبة بين عادل إمام والشيخ الشعراوي .. إن عادل

إمام يحارب من المخذلق العلماني بالكوميديا والشيوخ الشعراوي الذي يحارب من التلفزيون أي خطوة نحو التقدم ! .. وكلاهما في مصر .. وربما في الوطن العربي بأكمله نجم النجوم !! »

هذه الصورة المشوهة للشيوخ الشعراوي التي يصورها الدكتور غالي شكري تردنا إلى مقالات الفتنة الطائفية في العقد الثاني من القرن العشرين قبل ثورة ١٩١٩ في مصر .

يقول فهمي هويدي^(١) : التفكيك هو خلخلة مختلف الثوابت في وعي الأمة وواقعها، وإضعاف أو ضرب الأصول التي يقوم عليها انتمائها واستمرارها ، بحيث تتضعض أو تنهار الأعمدة التي ينهض عليها البنيان العربي . وبلوغ أهداف التفكيك يقتضي أموراً عدة في مقدمتها :

* إضعاف صلة الناس بالإسلام أو أملهم فيه .

* التشكيك في قيمة انتمائهم إلى العروبة .

* إذكاء النزعات العرقية والعصبيات الدينية .

الواقع العربي الراهن محمل بكل الجرائم التي توفر متطلبات التفكيك علي تلك الجبهات الثلاث . وإذا ما حاولنا أن نتتبع ما يجري في تلك الساحات فسوف نجد ما يلي :

**** أولاً :** في صدد الانتماء الإسلامي : والانتماء الذي أعنيه هنا يتجاوز الالتزام العقائدي إلى الهوية الحضارية . هذا الانتماء يتعرض منذ سنوات لصور عديدة من الطعن والتجريح في الداخل قبل الخارج ، خصوصاً بعدما تم الربط بين الإسلام والانغلاق والتحجر من ناحية ، وبينه وبين العنف والإرهاب من ناحية ثانية .

الكلام عن فصل الدين عن السياسة ليس جديداً . والهجوم علي الشريعة مستمر بقدر ملحوظ من الضراوة والحدة منذ بداية الثمانينات ، أي منذ ارتفعت أصوات كثيرة داعية إلى تطبيق الشريعة ، وتكفل الذين اشتغلوا بشئون المال ، ناسين أنفسهم إلى الإسلام ، بتحقيق كل ما يتمناه الداعون إلى فصل الدين عن الاقتصاد ومختلف المعاملات ، وأخيراً قرأنا عن دعوة لفصل الدين عن الثقافة .

هكذا لوحق الإسلام وطورد في العديد من ميادين الحياة بحجج وذرائع مختلفة ، الأمر الذي من شأنه إضعاف علاقة الدين بالمجتمع . وحصر تلك العلاقة في أضيق نطاق ممكن .

علي صعيد آخر فقد صار التدين « أصولية » ، وأصبحت الأصولية عنواناً لقائمة من الشبهات والاتهامات التي أشرنا إليها توا .

بعد تلطيخ صفحة الإسلاميين عن طريق تعميم الإدانة علي كل من له صلة بالخطاب الإسلامي ، صرنا نقرأ خطاب « التئيس » ، الذي يصدر علي أن كل الإسلاميين متطرفون

(١) فهمي هويدي - تفكيك الأمة - جريدة الأهرام - بتاريخ ١٥ - ١٠ - ١٩٩١ .

وأرهابيون ، وإن الذين يزعمون إنهم معتدلون ، ليسوا سوى جناح متأمر بدوره ، لكنه تخفي تحت أفتنة الاعتدال .

والأمر كذلك ، فلا يبقى شيء يعتز به المرء ، لا في الإسلام ولا في المسلمين . حيث يواجه الجميع إلى خلاصة مفادها أن الإسلام فاسد والمسلمين أشد فسادا !

****** ثانيا : عن الانتماء العربي : في أعقاب حرب الخليج بوجه أخص ، ظهرت جماعات «التكفير بالعروبة» ، التي أصبحت تصم العرب بكل نقبصة ، وتسعي للتبرؤ من تلك الوصمة بكل وسيلة .

قرأنا خطبا خليجيا لا يزال مستمرا يعلن أن مختلف اللشائج العربية قد سقطت إلى الأبد بعد الذي حدث إبان أزمة الخليج .

وسمعنا أصواتا فلسطينية تنسب إلى العرب العديد من الخصال غير الحميدة ، التي دفعتهم إلى التخلي عن حقوقهم المشروعة ، « وبيعهم » في أول صفقة أتاحت . ومن ثم التآمر على تبديد القضية وإجهاض الحلم الفلسطيني .

وقرأنا خطبا مغاربا صدر أخيرا عن شخصيات نافذة ، يبدي أسفا لتلك المصادفة الجغرافية غير السعيدة ، التي أوجدت شيئا اسمه « البحر المتوسط » ، كان من شأنه فصل منطقة الغرب عن أوروبا ! . ويعبر الخطاب عن رغبة حارة في إحياء وتجديد تلك اللشائج التي لم تتصل ، فربما أمكن إنشاء تاريخ جديد يصحح خطيئة الجغرافيا !

كأنها لوثة أصابت قطاعات ودوائر عديدة ، جعلت هؤلاء جميعا يندمون على انتمائهم إلى العروبة ، ويعتبرون أن خلاصهم يتحقق بالانسلاخ عن ذلك الانتماء والاتحاق بالعالم الغربي !

****** ثالثا : عن التعايش بين عناصر الأمة : أزعجنا نعيش الآن ثقافة التخاصم والتناوب والتقاطع !

لقد خرجنا من أزمة الخليج بشحنة معتبرة من التباغض والحساسية ، بين الشعبين الكويتي والعراقي من ناحية ، وبين أكثر شعوب منطقة الخليج ومختلف الشعوب العربية التي صنفت في الصف الداعم للرئيس صدام حسين من ناحية ثانية .

ذلك الخليط من التباغض والحساسية أفرز تداعيات معروفة ، سجلت تفاصيلها المحزنة تقارير منظمات حقوق الإنسان والعهود الدولية ، وترددت أصدائها في مختلف المحافل العالمية .

إلى جانب ذلك ، فثمة مشكلات عرقية متفاقمة بدرجات متفاوتة في عدة أقطار عربية : الأكراد في العراق - البربر في الجزائر - الزنوج في موريتانيا - الجنوبيون في السودان ..

علي صعيد ثالث ، فالتوترات الدينية والمذهبية أسهمت بنصيب معتبر في تكريس ثقافة التخاصم والتقاطع ..

لننح جانباً ومؤقتاً توترات الشيعة والسنة ، والوهابيين وكل من المتصوفة والزيد والاباضية، فتلك حساسيات كامنة ، ولا تظهر إلا في فترات متباعدة . لكن هناك ما هو أهم وأعمق : الموارنة في لبنان ، والعلويون في سوريا ، والأقباط في مصر .

أخيراً ، فهناك « الحرب الأهلية » المستعرة بين فريقَي العلمانيين والإسلاميين في العديد من الأقطار العربية ، والتي أشرنا إلي بعض مظاهرها ووقائعها توا .

هذه التشققات كلها تتحرك الآن علي الساحة العربية ، ليس علي أساس من التفاعل والتعايش والتكامل ، ولكن باتجاه الاشتباك والتصادم ، الذي بلغ حد التصفية الدموية في أقطار عدة ، والاحتفاء بالقوي الأجنبية في أقطار أخرى .

ويري فهمي هويدي أن المسئول عن ذلك ثلاثة أسباب ، الأول : غيبة الديمقراطية في العالم العربي . والثاني أزمة المشروع العربي لأننا نعيش حقبة « اللا مشروع العربي » التي تقلص في ظلها المشترك ، وأحيطت الأهداف الكبرى بضباب كثيف . والثالث هو الاختراق الأجنبي الذي لا يعد « التجنيد » هو صيغته الوحيدة وإنما قد يتم أيضاً من خلال « الانحياز التطوعي » الذي يلقي ترحيباً ودعماً معنوياً من القوي الخارجية ، ونحن نعرف نماذج من البشر تتعبد بالغرب - مثلاً - دون أن تكون مجتدة أو مأجورة من جانبه .

ويختتم فهمي هويدي حديثه قائلاً :

علي ذلك فوqائع تفكيك الأمة ليست فحسب شهادة الدخول في طور الالتحاق والانسحاق، لكنها أيضاً إرهابات ميلاد إسرائيل الكبرى - وربما كان الأمران وجهين لعملة واحدة - والله أعلم! » .

ويسمي أحمد عبد المعطي حجازي^(١) محاولة الوقية الثقافية بين أبناء الأمة العربية بالفتنة. ويقول : هذه الحملة المسعورة التي يشنها الآن بعض المشتغلين بالكتابة والسياسة في بعض الأقطار العربية علي الثقافة المصرية وعلي المثقفين المصريين ليست مفاجأة لي . فقد بدأت في أواخر الستينات ، واشتدت في السبعينات ، واستمرت في الثمانينات متصلة أحياناً ، ومتقطعة أحياناً أخرى ، فالذي نراه الآن منها ليس قرنهما الأسود ، بل هو ذنبها المبتور ونفسها المبهور ، ولهذا كان يمكننا تجاهلها ، إذ هي لا محالة منتهية من نفسها ، ميتة حتف أنفها .

لكننا إذ نتحدث عنها الآن لا نقصد الدخول في مهاراتها ، وإنما نريد أن نفهمها ، فإذا فهمناها كفينا شرها ، إذ هي كالوباء الأصفر أو الطاعون الأسود لا يناله السيف ولا يقيد معه العنف ، وإنما يسحقه سحقاً إن كشفه . تعرفون ذلك الوحش الغريب الذي حدثتنا عنه الأسطورة اليونانية ، وكان قد أقام علي أبواب طيبة يلقي علي كل من مر به لغزاً يطلب حله ، فيعجز الرجل عن الحل فيعدو عليه الوحش فيقتله . حتي مر به أوديب فحل اللغز فخر الوحش صريعاً !

(١) أحمد عبد المعطي حجازي - هذه الحملة المسعورة - جريدة الأهرام بتاريخ ١٣ - ١١ - ١٩٩١ .

وأنت تسمع الآن أن كاتباً سورياً أجرت معه بعض الصحف العربية حديثاً قال فيه - لا فض فوه - إن مصر لا ثقافة فيها ولا مثقفين ، وليس فيها إلا سعاد حسني !
وتسمع عن عبقرى من تونس أعلن أن السينما المصرية ماتت ، وإن بلاده وحدها المؤهلة لصناعة سينما عربية !

وتسمع أن مستولاً في بلد عربي قال في مؤتمر للفنانين أن ما يسمى بحركة التنوير في مصر ليست من النور في شيء ، وإنما هي ظلام في ظلام ، أو كما قال !

ويبلغك أن بعض الصحف العربية لم تكتف بالتناول علي فكر طه حسين وتشويهه كما فعلت كثيراً خلال السنوات العشرين الماضية ، وإنما تعدت ذلك إلى محاولة النيل من شخصه والظعن في نزاهته ، فمن قائل إنه كان يحكم زواجه من سيدة فرنسية يمالئ الفرنسيين ويعمل في خدمتهم ، ومن قائل بل إن زواجه من هذه السيدة تم في الكنيسة . فإذا قلت له : وكيف ينعقد زواج كاثوليكي بين رجل مسلم وامرأة مسيحية ؟ أجابك الأخ العليم ؟ لأن طه حسين تنصر وهناك وثيقة تثبت ذلك ؟!

وأنت تقرأ في صحف عربية أخرى عن الثقافة المصرية والمثقفين المصريين كلاماً شبيهاً بهذا الكلام وأكثر بذاة أحياناً ، فيخيل إليك أن الحرب الأهلية قد اشتعلت ، وأن الأخوة الذين عشت معهم تاريخك ، وربطت بمصيرهم مصيرك قد اجتمعوا عليك يطالبون برأسك ، فلا مفر من أن تدفع عن نفسك ، وأن ترد الصاع صاعين واللطمة ثلاثاً !

تلك هي الفتنة التي ينبغي أن ندرك أبعادها ، وهذا هو الوحش الذي يجب أن نكشف أمره لنتقي شره .

ولقد كانت آثار الغزو الثقافي للمجتمعات العربية موضع اهتمام عدد كبير من الندوات والمؤتمرات الثقافية العربية يلخص الدكتور « مقداد يالجن ^(١) » مؤثرات الغزو الثقافي فيما يلي :

* التشكيك في قدرات المسلمين علي بناء الحضارة العصرية ، والتشكيك أيضاً في صلاحية القيم الإسلامية الحضارية . ونشأ عن هذا وذاك الاهتمام بالحضارة الغربية وتعظيم شأنها ، ثم تقليدها .

* استعارة نظم التربية والتعليم ونشأ عنها تغير شخصيات الناشئين وسلوكياتهم علي نحو لا يتلأم مع العقيدة الإسلامية وقيمها المختلفة .

(١) وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي والتي عقدت في مسقط بسلطنة عمان في الفترة من ١ - ٣ شعبان ١٤٠٥ هـ الموافق ٢١ - ٢٣ إبريل ١٩٨٥ ميلادياً - الناشر مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض بالملكة العربية السعودية - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م ص٤٤ ، ص٧٥ ، ص٩٧ ، ص٩٨ .

* تقليد الغربيين في عاداتهم وأخلاقياتهم ومعاشراتهم الاجتماعية ونشأ عنها الابتعاد عن الآداب والقيم الأخلاقية الإسلامية .

* استعارة القوانين أو النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية من الغرب ونشأ عنها إبعاد النظم الإسلامي والشرعية الإسلامية عن معظم الدول الإسلامية .

* الافتتان بالثقافة الغربية ومفكرها ومناهج تفكيرهم . ونشأ عن ذلك الاهتمام بالثقافة الغربية وبالدراسات الغربية ومناهج تفكير الغربيين .

ثم يطرح الحل أو العلاج بأنه إبراز التربية الحضارية الإسلامية ووضعها في موضع التنفيذ. وهو يعرف التربية الحضارية في الإسلام بأنها تنشئة الأجيال وإعدادهم وتنمية قدراتهم واستعداداتهم وتشكيلهم حضارياً وفقاً لمفهوم الحضارة الإسلامية . أو بعبارة مختصرة هي إعداد المسلم إعداداً حضارياً في ضوء التفكير الحضاري في الإسلام . وأن دورها يتلخص في مواجهة الأيدولوجيات المعادية . وفي مواجهة التحديات الاجتماعية . وفي مواجهة التخلف الحضاري . وفي إنقاذ الحضارة من الصراع الحضاري .

« ويرى بعض الكتاب^(١) أن واقع الوطن العربي المعاصر (١٩٨٩) ، يسهل للقوي الامبريالية غزوه ثقافياً . وذلك لأسباب عديدة يجمُلها فيما يلي :

١- غياب القوة العسكرية القادرة على تحقيق الطموح القومي في دحر العدو الإسرائيلي، وتحرير الأراضي العربية المحتلة ، مما أوجد إحباطات متعددة لدى المواطن العربي نتيجة إحساسه بالعجز والفتل ، مما يسهل عملية الاختراق النفسي والعقلي .

٢- تراجع العمل القومي في مختلف الميادين ، وتحديدًا في ميدان العمل السياسي ، حيث لم تتمكن الأقطار العربية من تحقيق حد أدنى من التنسيق السياسي ، بعد مرور ما يزيد على أربعين عاماً على تجربة تأسيس الجامعة العربية ، مما أدى إلى تضخم الإحساس القطري على حساب العمل القومي ، في زمن أصبح فيه المستقبل للتجمعات الكبيرة الممثلة في الدولة القومية الواحدة ، وهذا ما يفسر ركض أوروبا الغربية نحو تحقيق الوحدة السياسية الكاملة ، بعد أن حققت وحدتها الاقتصادية من خلال السوق الأوروبية المشتركة ، التي مكنتها من الصمود في وجه الولايات المتحدة الأمريكية التي تطمح إلى بسط نفوذها واستمرار هيمنتها على أوروبا الغربية .

٣- غياب التصور القومي الموحد لطبيعة الثقافة الواجب سيادتها في الوطن العربي الواحد . وينعكس ذلك على برامج التربية والتعليم في كل قطر عربي ، مما يحول دون تشكيل وجدان عربي مشترك ، فتظل الاهتمامات والتطلعات مختلفة من قطر إلى آخر ، ويؤثر ذلك على تقييم الحاضر وطموحات المستقبل .

(١) أحمد أبو مطر - الشخصية القومية وهجوم الغزو الثقافي - الناقد - العدد ١٧ بتاريخ نوفمبر ١٩٨٩ .

٤- محاولات العدو الصهيوني الدؤوبة لاختراق الصف العربي في مجال الثقافة وغيرها ، ويواكب ذلك العمل الصهيوني - الامبريالي لإثارة مشكلة الطوائف والأقليات في الوطن العربي ، وقد أثار هذه المسألة علنا الكاتب اليهودي (أودوييتون) عام ١٩٨٢ في دراسته : «استراتيجية اسرائيل في الثمانينات » ، فاعتبر أن من مهمات اسرائيل الراهنة العمل على إثارة مسألة الطائفية ، في الوطن العربي ، مستغلة وجود بذور لهذه القضية قابلة للنمو إذا ما أحسن إرواؤها ، وتجديد تربتها .

٥- غياب الحد الأدنى من الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان ، في أغلب أقطار الوطن العربي ، حيث مصادرة الحريات هي الأساس ، مما جعل الغالبية العظمى من المواطنين ، وتحديدًا الطبقة المثقفة المتعلمة - صانعة الرأي العام ، تتطلع دوما نحو (الغرب) كمثال للحرية والهامش الديمقراطي ، ويتجلى ذلك في الهجرة المستمرة للكتاب والصحفيين والمثقفين ، والصحف والمجلات ودور النشر ، وآلاف المواطنين العاديين نحو الأقطار الغربية والاسكندنافية والولايات المتحدة الأمريكية . إن هذه المصادرة للحريات ، تجعل النموذج الغربي هو المرجعي ، وهو الأمل . رغم كل ما تحمله دول هذا النموذج . من خطط عدوانية نحو الوطن العربي ، وهذا من شأنه أن يجعل النفوس والعقول العربية بشكل جماعي غير قادرة على الصمود أمام وسائل وأدوات الغزو » .

هذه الأمثلة والنماذج لتأثير الغزو الثقافي من باب الإيضاح وليست من باب الحصر . لأن تأثير الغزو الثقافي على المجتمع العربي المعاصر هو الجانب السلبي من العمل الثقافي برمته . وكما يقول ابن الأثير إن الكتابة أهوالها غير متناهية - وكان يعبر عن عصره حيث الكتابة هي شكل التعبير السائد - نقول إن آثار وسائل الإعلام غير متناهية . وإذا كانت استخداماتها صلب العمل اليومي في الغزو الثقافي للمجتمع العربي المعاصر فإننا نستطيع تصور مدى التأثير . وخلاصة القول إن وراء كل طلل وكل تخريب في نفس الإنسان العربي وعقله وقلبه ، وفي عالم الأشياء المادية على الساحة العربية أثر من تأثير الغزو الثقافي .

ثالثا : استنتاجية المواجهة :

تتلخص استراتيجية المواجهة في تحقيق الأمن الثقافي ، ولتحقيق ذلك الأمن الثقافي فإن المواجهة تعني مواجهتين . الأولى كيفية مقاومة الغزو الثقافي . والثانية كيفية التفاعل والاتصال الثقافي . فالغزو الثقافي ، والاتصال الثقافي لا يمكن الفصل بينهما في عالمنا المعاصر فصلا قاطعا . ولم يعد في مقدور أمة في عالمنا المعاصر أن تقيم ستارا حديديا بينها وبين العالم ، فتستغني عن الاتصال الثقافي ، وتتفرغ لمواجهة الغزو الثقافي وحسب . إن طبيعة العصر جعلت لِهذه المفهومين المتناقضين : الغزو الثقافي ، والاتصال الحضاري تلازما وثيقا في المجال والتأثير.

ويدور مفهوم الأمن الثقافي الذي تبناه وزراء الثقافة العرب في اجتماعهم الرابع في الجزائر

عام ١٩٨٣ الذي خصصه لبحث هذا الموضوع حول ثلاثة محاور رئيسية : الأول يتعلق بالإطار القومي ، ذلك أن الثقافة العربية وأداتها التعبيرية اللغة العربية تحملت رسالة الوحدة عضوية ووظيفيا وثقافيا ، وأصبحت المنطلق الحقيقي لمواجهة القضايا القومية من التجزئة القطرية، والتخلف الاجتماعي ، والتسلط الأجنبي ، والعدوان الصهيوني ، وصولا إلى الوحدة والتحرر والتقدم ، تلك الغايات التي يصنعها الإنسان القادر الذي لا تنهيا له القدرة إلا عن طريق الثقافة، فهي التي تتعهد قابليات الإنسان بالإعداد الاجتماعي والسياسي والفكري والعلمي والفني .

ويدور المحور الثاني حول الثقافة العربية في الإطار العالمي أو ما يعرف الآن بالغزو الثقافي، وهو يستند إلى الحقيقة التاريخية التي يعيشها العالم المعاصر في عصر ثورة المعلومات والحاسبات الاليكترونية ، وتقنيات الاتصال الجماهيرية العملاقة وعصر الأقمار المصنوعة والتوايح الفضائية المسخرة للاتصالات المختلفة ، وفي مقدمتها البث الإذاعي والتليفزيوني ، وأن هذه التقنيات المتطورة بقدر ما هي عون نوعي لتقدم الثقافة الإنسانية ، وإثراء للمعرفة البشرية تشكل في الوقت نفسه خطرا متزايدا على المجتمعات المتلقية التي لا تملك حرية الاختيار ، أمام هذا الاقتحام الضاري ، وهو أمر يفرض إلى نتائج سلبية بالنسبة للثقافات القومية . وتعاظم هذه النتائج بمقدار عزلة تلك الثقافات وضعفها ، فهي تؤدي في المقام الأول إلى عملية إحلال لثقافات أخرى حتى على مستوى القواعد الجماهيرية ، ابتداء من العادات والممارسات والسلوك اليومي إلى سلم القيم ونمط الحياة ، مما يغير شخصية تلك المجتمعات بإعادة صياغتها على نمط كوني معين ، هدفه في عاقبة الأمر ، هدف اقتصادي وسياسي .

ويدور المحور الثالث حول الصناعات الضرورية للثقافة أو ما يمكن تسميته بالمقومات المادية للإنتاج الثقافي ، والمقصود منه أنه في إطار مفهوم الأمن الثقافي ، فإن تأمين الموارد الأولية الضرورية للإنتاج الثقافي كالورق والأفلام والأخبار ، وأدوات ذلك الإنتاج مثل الطباعة وصناعة المحابر ، وأجهزة الاتصال والتسجيل والعرض وغير ذلك من متطلبات البحوث العلمية والوسائل التعليمية وما شابه ذلك ، يتخذ أولوية عالية اقتصاديا واجتماعيا .

ويشير خبراء منظمة اليونسكو كما يؤكد خبراء الإعلام العرب ^(١) العلاقة الوثيقة بين الإعلام والثقافة التي تكاد تشكل منهما كيانا واحدا ، يتأثر كل جزء منه بالجزء الآخر . والثقافة في كل الأحوال تشكل مضمون المواد التي تنشرها وسائل الإعلام المختلفة . ومن ثم فإن مفهوم الأمن الثقافي لا يقف عند المؤسسات التربوية والثقافية بل يمتد إلى الأنشطة التي تتولاها وسائل الإعلام في عصرنا الحاضر .

وتناولت الخطة الشاملة للثقافة العربية ^(٢) الأمن الثقافي مصطلحا ومضمونا فقالت :

(١) سعد لبيب - الأمن الثقافي والعمل الإذاعي - الدراسات الإعلامية - العدد ٤٩ - أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٧ .

(٢) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الخطة الشاملة للثقافة العربية - المجلد الأول - الكويت - ١٩٨٦ .

«الأمن الثقافي ليس مجرد تعبير لغوي سلمي ، ولكنه مصطلح أو مفهوم مشتق من الأمان ، ومن ضرورة الحفاظ علي مقومات الثقافة العربية في أبعادها ومجالاتها ومظاهرها لتتابع دورها القومي ، ومضمونها الإنساني ، ومسئوليتها الحضارية في سياق المعاصرة ، وبالمشاركة الفاعلة علي المستوي القومي والعالمي . وبالرغم من النكبات التي حلت بهذه الأمة في العصر الحديث، فقد ظلت الثقافة العربية حصن وحدتها ، ودفعت بلغتها لتصبح إحدى لغات المعترك الدولي . علي أن هجمة وسائل الاتصال الحديثة ، بالشكل الكثيف ، والاقتحام الضاري الذي يتم الآن ، لا يهدد التمازج الثقافي الذي ترحب به الثقافة العربية ، ولكن يهدد بإحلال ثقافة أخرى محلها، حتي علي مستوي القواعد الجماهيرية ، بدءا من العادات والممارسات اليومية ، وإنهاء بسلم القيم . يضاف إلي ذلك الهجمة الصهيونية الاستيطانية التي تعمل علي تدمير الثقافة العربية . لأن ذلك هو وسيلتها لإلغاء المقاومة العربية . إن هذا كله إنما يدعو إلي التحرك لضمان ما نسميه بالأمن الثقافي . ويقوم هذا الأمن علي أمرين :

١- استكمال المقومات الأساسية للثقافة العربية وتحديد قدراتها الذاتية .

٢- أن تكون الثقافة العربية قادرة في إبداعها وعطائها ، علي تحويل علاقاتها مع الثقافات الأخرى من الاستيلاء إلي الحوار والمشاركة . ومن الاستسلام إلي إبراز الخصوصية والتفاعل المشترك » .

ويمكننا أن نوجز استراتيجية مواجهة الغزو الثقافي لعالمنا العربي المعاصر في مبحثين رئيسيين : أ- الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي، ب - الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي .

١- الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي :

يقول الله تعالى : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلي الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾ (سورة النساء آية ٨٣) .

علينا أن نرى طرق باب القرآن الكريم بترتيب المصحف لنرى صورتنا في مقاومة الغزو الثقافي ، أو بمعنى أدق لنرى كيف تكون صورتنا مقاومين لهذا الغزو من جوانبها المختلفة .

سورة البقرة :

غشاوة الغزو الثقافي :

* ﴿ ختم الله علي قلوبهم وعلي سمعهم وعلي أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ (آية ٧ سورة البقرة) .

الكذب والتلفيق في مضامين الغزو الثقافي :

* ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ (آية ٤٢ سورة البقرة) .

كشف سلوك المصدر في الغزو الثقافي :

* ﴿ أفطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ﴾ (آية ٧٥ ، آية ٧٦ سورة البقرة) .

الارتباط بين القتال والفتنة :

* ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ (آية ١٩١ سورة البقرة) .

* ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ (آية ٢١٧ سورة البقرة) .

صرعي الغزو الثقافي :

* ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (آية ٢٥٧ سورة البقرة) .

سورة آل عمران :

أهداف الغزو الثقافي :

* ﴿ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ (آية ٧ سورة آل عمران) .

* ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ (ثم بقية الآيات ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ من سورة آل عمران) .

* ﴿ وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب... ﴾ (آية ٧٨ سورة آل عمران) .

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ (آية ١٠٠ سورة آل عمران) .

التحذير من الإلزام في أحضان الفتنة :

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا * ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ (الآيات : ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ من سورة آل عمران) .

الثقة بالنفس في مواجهة الغزو الثقافي :

* ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آية ١٣٩ سورة آل عمران) .

التحذير من الانسياق في طاعة الفزاة :

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم علي أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ (آية ١٤٩ سورة آل عمران) .

قوة الإرادة والعزم في مواجهة الغزو الثقافي :

* ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ (آية ١٨٦ سورة آل عمران) .

سورة النساء :

أهداف الغزو الثقافي :

* ﴿ ألم تر إلي الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾ (آية ٤٤ ثم آية ٤٥ و آية ٤٦ من سورة النساء) .
* ﴿ ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء... ﴾ (آية ٨٩ من سورة النساء) .

التحذير من اتباع سلوك الفزاة :

* ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ (آية ١٤٠ من سورة النساء) .

التحذير من اتخاذ الفزاة قدوة ومثلا عليا :

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ﴾ (آية ١٤٤ من سورة النساء) .

سورة المائدة :

التحذير من سلوك الفزاة في عدم الوفاء بالعهود ، والتحريف ، والخيانة :

* ﴿ فيما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع علي خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ (آية ١٣ سورة المائدة) .

التحذير من الإحباط بسبب تغشي ظاهرة الغزو الثقافي :

* ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم... ﴾ (آية ٤١ من سورة المائدة ثم آية ٤٢) .

تكرار التحذير من فتنة الفزاة :

* ﴿ ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك .. ﴾ (آية ٤٩ من سورة المائدة) .

تصوير الصراع بين معسكر الإيمان وقوي الغزو الثقافي وتحليل موقف رواد التغريب :

* ﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾
أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون * يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴿ (آية ٤٩ إلى الآية ٥٢ من سورة المائدة) .

تحذير مباشر من اتخاذ قوي الغزو الثقافي أولياء ومثلا عليا وقذوة:

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (آية ٥٧ من سورة المائدة) .

كشف موقف الغرب من الإسلام والمسلمين :

* ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِ وَإِنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (آية ٥٩ من سورة المائدة) .

التحذير من التطرف :

* ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ ضَلُّوا مِنْ قَبْلِ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (آية ٧٧ من سورة المائدة) .

تحليل فصائل الغزو الثقافي وعدم التعميم :

* ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَمَ بَيْنَهُمْ قَسِيمِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (آية ٨٢ من سورة المائدة) .

سورة الأنعام :

الالتزام في مقاومة الغزو الثقافي وعدم الإسفاف :

* ﴿ وَلَا تَسِبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زِينَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَيَّ رِبُّهُمْ فَيَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (آية ١٠٨ سورة الأنعام) .

المراحل التي يمر بها صرعي الغزو الثقافي : الإصغاء الانتقائي ، الرضا به ، الاقترب :

* ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلي بعض زخرف

القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون ﴿ (آية ١١٢ ، وآية ١١٣ سورة الأنعام) .

التحذير من الانسياق وراء أكاذيب مصدر الغزو الثقافي :

* ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ (آية ١١٦ سورة الأنعام) .

مخافة مضامين الغزو الثقافي لقواعد العلم وإغراقها في الميول والأهواء :

* ﴿ ... وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ... ﴾ (آية ١١٩ سورة الأنعام) .

دفع رواد التغريب بصفة أعداء الإسلام :

* ﴿ ... وإن الشياطين ليوحون إلي أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ (آية ١٢١ سورة الأنعام) .

ضيق مصادر الغزو الثقافي بالحوار ونفوذهم من المناقشة :

* ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ (آية ١٢٥ سورة الأنعام) .

سورة الأعراف :

حُجْرُ الرَّاوِيَةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْغَزْوِ الثَّقَافِيِّ الْإِلْتِزَامُ الْكَامِلُ بِالْهَوِيَّةِ الْعُقَدِيَّةِ

والثقافية :

* ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ (آية ٣ سورة الأعراف) .

سورة هود :

سُلُوكُ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ فِي عَدَمِ التَّعَرُّضِ لِلْعُكْرِ الْإِسْلَامِيِّ وَحُجْبِهِ عَنِ الْقَوْلِ

والقلوب :

* ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ (آية ٥ سورة هود) .

نَحْصِينُ الْمَجْتَمَعَ الْمُسْلِمَ بِتَفْسِيرِ التَّقَدُّمِ عِنْدَ الْكَافِرِينَ، لِأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ بِأَلْسَابِ .
ولكن ذلك لا ينبغي أخفاقهم عقديا وروحيا :

* ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون*

أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا وباطل ما كانوا يعملون ﴿ (آية ١٥ ، ١٦ سورة هود) .

سورة النحل :

إدعاء الغزاة بتفوق « ايدلوجياتهم » وإدعائهم بتحقيق نظمهم خير البشرية :
* ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ... ﴾ (من الآية ٦٢ من سورة النحل) .
التحذير من تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله بالتألف الكاذب والحدقة الخاطئة :

* ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ (الآية ١١٦ سورة النحل) .

سورة الكهف :

صورة للأيدلوجيات الضالة مثل النازية :

* ﴿ قل هل ننبؤكم بالآخرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ (آية ١٠٣ وآية ١٠٤ من سورة الكهف) .

سورة الحج :

صورة لتخبط مقولات صرعي الغزو الثقافي وانتقائهم من الشيوعية إلى التطرف العلماني :

* ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ (آية ٣ سورة الحج) .

صورة للاستكبار والتشبث بالخطأ الذي يسلكه صرعي الغزو الثقافي :

* ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثانی عطفة ليضل عن سبيل الله ... ﴾ (الآية ٨ ومن الآية ٩ من سورة الحج) .

صفات وخصائص معسكر العملاء :

* ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ (آية ١١ سورة الحج) .

الذين يروجون للغزو الثقافي :

* ﴿ يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ (آية ١٣ من سورة الحج) .

خصائص وصفات وملاحح معسكر الغزو :

* ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطرون بالذين يتلون عليهم آياتنا .. ﴾ (آية ٧٢ سورة الحج) .

سورة الفرقان :

خصائص وسمات صرعى الغزو الثقافى :

* ﴿ أ رأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ (آية ٤٣ ، ٤٤ من سورة الفرقان) .

سورة لقمان :

إغراق صرعى الغزو الثقافى فى اللهو والسخرية والاستكبار والاستعلاء :

* ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبرا كأن لم يسمعا كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾ (آية ٦ ، والآية ٧ من سورة لقمان) .

سورة الأحزاب :

هل توجد صورة للجؤاسيس أو العلماء أو الطابؤور الخاصس أو الثؤورة المضادة أو القوى المتربصة فى الداخل مثل هذه الصورة ؟ :

* ﴿ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالنسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ (آية ١٩ من سورة الأحزاب) .

صورة الدهماء المنساقين وراء رواد التهريب والغزو الثقافى :

* ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ (آية ٦٧ ، ٦٨ من سورة الأحزاب) .

جسامة المسئولية فى مواجهة الغزو الثقافى :

* ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ . (آية ٧٢ من سورة الأحزاب) .

سورة الجاثية :

صورة للترجسة البشرية فى العقائد والأيدلوجيات ومدى ضلالتها وانغلاقها :

* ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقليه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ . (آية ٢٣ من سورة الجاثية) .

سورة محمد :

انغلاق قلوب المعسكر المعادي للإسلام وانغلاق عقولهم ونفوسهم وأرواحهم :

* ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ . (الآية ٢٤ من سورة محمد) .

**تظهر المضامين المستترة في الغزو الثقافي التناقض ، والكذب فيها ، وهي
انعكاس لإحقاد الغازي :**

* ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ ولو نشاء لأريناكم
فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ . (آية ٢٩ ، الآية ٣٠ من
سورة محمد) .

سورة المجادلة :

تكرار التحذير من اتخاذ مصدر الغزو حليفاً وصديقا مهما كانت الأواصر

والروابط :

* ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو
أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ... ﴾ . (من الآية ٢٢ من سورة المجادلة) .

سورة الممتحنة :

تكرار التحذير في القرآن الكريم من اتخاذ مصدر الغزو الثقافي ولياً ومثلاً

اعلي وقذوة :

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ... ﴾ .
(الآية ١ ، الآية ٢ من سورة الممتحنة) .

صورة الوحدة الوطنية في المجتمعات العربية والإسلامية :

* ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم
وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من
دياركم وظاهروا علي إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ . (آية ٨ ، الآية ٩
من سورة الممتحنة) .

تحذير متكرر من الانقياد والولاء تحت راية مصدر الغزو الثقافي :

* ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس
الكفار من أصحاب القبور ﴾ . (الآية ١٣ من سورة الممتحنة) .

سورة الكافرون :

العزم والتصميم والإرادة الصارمة في مواجهة الغزو الثقافي :

* ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون . ﴾ . (آية ١ ، آية ٢ من سورة الكافرون) .

سورة الناس :

تصوير لعملية الغزو الثقافي في العقول والقلوب والصدور والأرواح :

* ﴿ السورة كلها ﴾ .

هذه الآيات القرآنية وغيرها تضع لنا إطاراً عاماً نبني داخله الأساسي الفلسفي أو الفكري أو العقدي لاستراتيجية مواجهة الغزو الثقافي . إن تدبر هذه الآيات وتفسيرها يجعلنا نُطَلُّ على سوق الغزو الثقافي من شرفة مُطلَّةٍ على كافة زوايا ومواقع السوق .

أورد صاحب ^(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ستين آية من آيات القرآن الكريم تحدثت عن الفتنة بجوانبها المختلفة . اخترت منها ثمانية وثلاثين آية يمكن أن تشير إلي مفهوم الفتنة ^(٢) الذي يوضح لنا الغزو الثقافي . وهي علي النحو التالي :

* وكذلك فتنا بعضهم ببعض (آية ٥٣ الأنعام) .

* قال فلنا فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري (آية ٨٥ طه) .

* ولقد فتنا الذين من قبلهم (آية ٣ العنكبوت) .

(١) محمد فؤاد عبد الباقي - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - دار الحديث خلف الجامع الأزهر ، ودار الريان للتراث - القاهرة - ١٩٨٧ ص ٥١٦ ، ٥١٢ .

(٢) في لسان العرب لابن منظور يبدأ فصل الفاء بشرح معاني الفتنة . فهي الابتلاء والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة إذا أذبتها بالنار لتمييز الرديء من الجيد . والفَقْنُ : الإحراق . ويقول ابن الأعرابي : الفتنة الاختبار ، والمحنة ، والكفر ، واختلاف الناس بالآراء . ويقال فلان مفتون بطلب الدنيا قد غلا في طلبها .

والفتنة : إعجابك بالشيء ، والفتون : الجنون . والفاتن : الشيطان لأنه يضل العباد . وفي حديث قَيْلَة : « المسلم أخو المسلم يسمعهما الماء والشجر ويتعاونان علي الفتن » : الشيطان الذي يفتن الناس بخداعه وغروره وتزيينه المعاصي ، فإذا نهى الرجل عن ذلك فقد أعانه علي الشيطان . وفتن الرجل أي أزاله عما كان عليه ، ومنه قول الله عز وجل ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ﴾ أي يميلونك ويميلونك . والفتنة : الإضلال .

- * ولقد فتننا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم (آية ١٧ الدخان) .
- * ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى (آية ١٤ الحديد) .
- * إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق .
- (آية ١٠ البروج) .

- * يا بني آدم لا يفتننك الشيطان (آية ٢٧ الأعراف)
- * علي خوف من فرعون وملأههم أن يفتنهم (آية ٨٣ يونس) .
- * واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما نزل الله إليك (آية ٤٩ المائدة) .
- * وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك (آية ٧٣ الإسراء) .
- * ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به (آية ٩٠ طه) .
- * ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا (آية ١١٠ النحل) .
- * قال طائرهم عند الله بل أنتم قوم تفتنون (آية ٤٧ النمل) .
- * أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين (آية ١٢٦ التوبة) .
- * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (آية ٢ العنكبوت) .
- * فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين (آية ١٦٢ الصافات) .
- * فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون (آية ٥ وآية ٦ القلم) .
- * وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل (آية ١٩١ البقرة) .
- * وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين لله (آية ١٩٣ البقرة) .
- * والفتنة أكبر من القتل (آية ٢١٧ البقرة) .
- * فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة (آية ٧ آل عمران) .
- * كل ما ردوا إلي الفتنة أركسوا فيها (آية ٩١ النساء) .
- * وحسبوا ألا تكون فتنة فعصوا وصموا ثم تاب الله عليهم (آية ٧١ المائدة) .
- * واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (آية ٢٥ الأنفال) .
- * وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله (آية ٣٩ الأنفال) .
- * إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير (آية ٧٣ الأنفال) .
- * ولأضعوا خلالكم ببغونكم الفتنة (آية ٤٧ التوبة) .
- * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتي جاء الحق (آية ٤٨ التوبة) .

- * ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين (آية ٨٥ يونس) .
- * وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين (آية ١١١ الأنبياء) .
- * وإن أصابته فتنة انقلب علي وجهه خسر الدنيا والآخرة (آية ١١ الحج) .
- * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض (آية ٥٣ الحج) .
- * فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة (آية ٦٣ النور) .
- * وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون (آية ٢٠ الفرقان) .
- * فإذا أودى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله (آية ١٠ العنكبوت) .
- * ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها (آية ١٤ الأحزاب) .
- * بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون (آية ٤٩ الزمر) .
- * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا (آية ٦٠ المحتجة) .

وهذه الآيات القرآنية تساند الآيات التي سبق أن استخلصتها من المصحف وفق ترتيب السور ، ورأيت فيها صلة رابطة بموضوع الغزو الثقافي كما نعرفه في حياتنا المعاصرة . وإذا كانت الآيات الأولى تمثل في تصوري إطارا عاما تستطيع أن تبني داخله الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي لاستراتيجية مواجهة الغزو الثقافي فإن الآيات الثانية تعمق وتثري مفهوماً وجدت أنه أقرب ما يكون إلي مفهوم الغزو الثقافي . ومن ثم فإن الآيات المتعلقة بالفتنة في معناها القريب من الغزو الثقافي تدلنا على تفرعات الغزو وتضيف تراكما في أذهاننا يشري عقولنا في وضع الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي الذي نسعي إليه لصوغ استراتيجية المواجهة . ولم أشأ أن أُلجأ للتحليل الكمي بذكر تكرارات لفئات المعاني المتعلقة بمدلول جوانب الغزو الثقافي . ثم أضعتها في جداول تحصى لنا تكرار المعاني ، وما شابه ذلك . لأنني أرى أن مثل هذه الجداول والنسب تبعدها في مثل هذا المقام عن الواقع ، إلي جانب أنها تُفضي بنا إلي نظرة جزئية أو أحادية أو غير شاملة .

وإذا انتقلنا إلي أحاديث رسول الله ﷺ فإننا نتساءل : هل تناولت السنة النبوية موضوع الغزو الثقافي ؟ إن حديثاً نبوياً شريفاً عن رسول الله ﷺ يكاد يُجمل جوهر التحذير من الوقوع في حفرة الغزو الثقافي . يشرحه الدكتور يوسف القرضاوي ^(١) قائلاً : وصدق في ذلك ما أخبر به من لا ينطق عن الهوى حين قال « لتتبعن سنن من قبلكم ، شبرا بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتي لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ »

وفي بعض الروايات : التعبير بـ « فارس والروم » بدل « اليهود والنصارى » .

(١) د. يوسف القرضاوي - نحن والغزو الثقافي - جريدة الشعب - القاهرة - بتاريخ ١١ / ٢ / ١٩٨٦ .

والحديث ينكر علي الأمة أن تفقد هويتها وأصالتها . إلي حد تغدو فيه ذيلا تابعا للآخرين من أصحاب الديانات السابقة ، أو أصحاب الحضارات السائدة .

وفارس والروم لا يوجد اليوم بهذا الاسم والعنوان ، ولكن معناهما موجود في الدولتين العظيمين اللتين تمثلان : المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي ، كما كانت فارس والروم عند ظهور الإسلام .

ويعبر الحديث عن مدي هذه التبعية الذيلية بقوله « شبرا بشبر » ، « وذراعا بذراع » ويضرب « جحر الضب » مثلا لهذا النوع من الاتباع الأعمى فجحر الضب يعتبر أسوأ صورة للالتواء والضيق والظلمة وسوء الرائحة ، ومع هذا لو دخل أولئك « المُقلدون » هذا الجحر الكريه لدخله وراءهم المُقلدون . ويتعبير عصرنا : تظهر « مودة » جديدة جذابة تعلن عنها الصحافة والإذاعة والتلفاز ، تسمى « مودة جحر الضب » ؛ هذا مع حرص الإسلام البالغ في تشريعاته وتوجيهاته ، علي أن تظل الشخصية المسلمة مستقلة متميزة في مخبرها وفي مظهرها ، حتي لا يسهل ذوبانها في غيرها ، وبالتالي تفقد خصائصها ومشخصاتها . وهذا معني الدعاء اليومي المتكرر للمسلم في صلاته ، سبع عشرة مرة علي الأقل ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . وفي هذا ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه القيم « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم » .

وهكذا يتمثل في القرآن الكريم والسنة المطهرة الركن الأول من أركان الأساس الفلسفي والفكري والعقدي لاستراتيجية المواجهة .

أما الركن الثاني فهو هوية استراتيجية المواجهة ، والتي تتمثل في هوية الثقافة ذاتها ويلخص الدكتور يوسف القرضاوي ^(١) الحوار والجدل حول ماهية الثقافة العربية والحضارة العربية : « هي عربية أم إسلامية ؟ وما الصلة بين العروبة والإسلام ؟ أهي صلة تكامل أو صلة تناقض ؟ فيقول : « لا غني للعروبة عن الإسلام ، ولا معني للإسلام بدون العروبة » . ويلخص حيثيات حكمه علي ماهية هذه الثقافة بأنها عربية إسلامية معا بالأدلة التالية :

- * هي ثقافة عربية بحكم اللغة الأساسية . التي كتبت بها ، وعبرت عنها .
- * بحكم روح القرآن العربي السارية في جنباتها ، والمؤثرة في أعماقها .
- * بحكم تأثير البيان النبوي العربي والأسوة المحمدية في مسيرتها .
- * بحكم أن العنصر العربي كان هو العنصر الأول في تكوينها .
- * بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها ، ومنطلق دعوتها .

(١) د. يوسف القرضاوي - الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة - ندوة الثقافة العربية ، الواقع وأفاق المستقبل ، ١٢ - ١٥ أبريل ١٩٩٣ - كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر - الدوحة.

* وهي مع ذلك ، وقبل ذلك ، ثقافة إسلامية بلا ريب .

* بحكم الأهداف التي تتوخاها ، والحوافز التي تدفعها .

* بحكم الفلسفة والتصورات التي تحركها وتفجر طاقاتها .

* بحكم الأجناس والعناصر الإسلامية المختلفة التي شاركت فيها عربا وعجما .

* بحكم الرقعة الواسعة التي كانت مجالا لها من الصين شرقا إلى شواطئ الأطلس غربا .

وبذلك يقرر الدكتور القرضاوي بأنه من الأصوب أن نقول ثقافة عربية إسلامية وحضارة عربية إسلامية . ويزداد في رأيه هذا الأمر وضوحا عندما نبين مكونات هذه الثقافة ، وهي الإسلام ، والعربية ، والقيم والمفاهيم المتوارثة والمتراكمة على مدار التاريخ .

ويحلل تأثير الدين علي أبنائه وسلطانته المتغلغل في نفوسهم ، ويؤكد القول بأن نصاري العرب ثقافتهم عربية وعقيدتهم نصرانية ولا تعارض في ذلك . ويقول بأن صلة الدين بالثقافة ليست خاصة بالثقافة الإسلامية ، فكل الثقافات مدبنة للأديان في تكوينها وتوجيهها ، سواء كان هذا الدين سماويا أو وضعيا ، حقا أم باطلا ، كما هو واضح في ثقافات الشرق والغرب . والثقافة الغربية علي سبيل المثال - كما يري القرضاوي - هي نبت الديانة المسيحية ، بعقائدها وتصوراتها وموارثها وتقاليدها المختلفة . ويستشهد القرضاوي بقول « ت . س . إليوت » في تأثير العقيدة المسيحية في الثقافة والحضارة الأوروبية ، حيث يقول « إليوت » : في المسيحية نمت فنوننا ، وفي المسيحية تأصلت - إلي عهد قريب - قوانين أوروبا . وليس لتفكيرنا كله معني أو دلالة خارج الإطار المسيحي . وقد لا يؤمن فرد أوروبي بأن العقيدة المسيحية صحيحة ، ولكن كل ما يقوله ويفعله ويأتيه من تراثه في الثقافة المسيحية ، ويعتمد في معناه علي تلك الثقافة . وما كان يمكن أن تخرج « فولتير » أو « نيتشه » إلا ثقافة مسيحية . وما أظن أن ثقافة أوروبا يمكن أن تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحي إختفاء تاما ، ويؤكد « إليوت » بأن اقتناعه بذلك ليس إلي كونه مسيحيا بل إنه مقتنع به أيضا بوصفه دارسا لعلم الاجتماع . ويقول : إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا ، وعندئذ يكون عليك أن تبدأ البداية المؤلمة من جديد ، ولن تستطيع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة . يجب أن تنتظر حتي ينمو العشب ليغدو الضأن ليعطي الصوف الذي سيصنع منه رداؤك الجديد . ويعقب القرضاوي علي قول « إليوت » بأن مثل ذلك يقال في تأثير الهندوسية في ثقافة الهند ، والبوذية في ثقافة الصين وكوريا وغيرها . بل يذهب القرضاوي إلي القول بأنه لا ثقافة بغير دين ، أيا كان هذا الدين . حتي الذين جحدوا الدين وحاربوه نظريا وعمليا ، كالماركسيين ، لم يسعهم إلا أن يضعوا للناس ديننا جديدا ، يقوم مقام الدين القديم ، إلهه المادة ونبيه ماركس ، وجنته الشيوعية الموعودة ، وشيطانه الرأسمالية ، إلي آخر ما نعرف من مبادئ وطقوس لهذه الديانة التي أطلق عليها في أحيان كثيرة عبارة أديان بغير وحي .

أما عن المكون الثاني للثقافة العربية الإسلامية وهو اللغة العربية عند القرضاوي فإنه يري

أن اللغة العربية ممزوجة بالقرآن مزجا . ومن هنا نجد محاولات أعداء الإسلام تفرغ اللغة من هذه الظاهرة الأصلية فيها وعزلها عن القرآن والسنة . كما ترى ذلك واضحا في المعجم المعروف باسم « المنجد » الذي تعمد حذف كل استشهاد بالقرآن أو الحديث في أي مادة لغوية . وكذلك كانت الدعوة إلى العامية بذرة بذرها أعداء الأمة العربية من المستشرقين والمبشرين والأجانب ومن تبعهم ليعزلوها عن لغة القرآن والسنة والتراث الإسلامي كله . كانت محاربة العربية هدفا . فعل ذلك « دنلوب » في نظام التعليم في مصر . وكان أكبر همهم في البلدان الإسلامية التي تكتب لغتها بالحرف العربي إلغاء الحرف العربي من الكتابة ، وإحلال الحرف اللاتيني محله ، كما فعلوا ذلك في « تركيا » وفي « ماليزيا » وفي بعض البلاد الإفريقية . وكان همُّ الحلم العلماني في « تركيا » تفرغ اللغة التركية من الكلمات العربية التي تشغل منها حيزا كبيرا ، لتوضع موضعها كلمات لاتينية ، بدعوى أنها كلمات عالمية ؛ وما ذاك إلا لأن الكلمات العربية لها تأثيرها وإيحائها في نفس كل مسلم ، كما أنها تذكر أبدا بالقرآن والإسلام ، وتؤكد دائما روابط الإخوة الإسلامية .

ويستعرض الدكتور القرضاوي خصائص الثقافة العربية فيما يلي :

- ١- الربانية : بمعنى أن الوجدانية الخالصة والتوحيد الخالص يجدهما في شعرها ونثرها وعلمها وفلسفتها ومختلف أوجه فكرها وفنّها .
- ٢- الأخلاقية : كانت الأخلاق النبيلة مثل الكرم والشجاعة وما شابه ذلك من القيم القديمة عند العرب قبل الإسلام . ثم جاء الإسلام فعمق هذه القيم ووسع دائرتها وربطها بأهداف أرحب وأرقى . ووصلها بفكرة الإلزام والجزاء في الدنيا والآخرة . ولا تعترف الثقافة العربية الإسلامية بتجزأة الأخلاق . أخلاق لمعاملة المسلمين ، وأخرى لغير المسلمين . فالخير خير للجميع والشر شر علي الجميع . ولا تعترف بأن الغاية تبرر الوسيلة .
- ٣- الإنسانية : من خصائص هذه الثقافة احترام الإنسان ورعايته ورعاية كرامته وحقوق الإنسان ، فهي تقوم علي اعتبار أن الإنسان مخلوق مكرم من ربه لقوله تعالى في القرآن الكريم : { ولقد كرمنا بني آدم } (سورة الإسراء آية ٧٠) لذلك فالثقافة العربية الإسلامية تقوم علي تكريم الإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن جنسه أو لونه أو لغته أو موطنه أو طبقته .
- ٤- العالمية : وما دامت ثقافة لكل إنسان فهي ثقافة عالمية المنزوع والوجهة . وهذا ما حدث في بناء الحضارة الإسلامية لقد اشترك فيها عرب وعجم ومسلمون ونصارى ويهود .
- ٥- التسامح : من أهم وأقوي دلائل التسامح هو الاعتراف بالآخر ، بمعنى أن اختلاف البشر في الأديان وغيرها واقع بمشيئة الله تعالى وبحكمته .
- ٦- التنوع : من خصائص هذه الثقافة (التنوع) ، فهي ليست ثقافة دينية « لا هوتية » ، بل هي ثقافة واسعة متنوعة فيها الدين بفروعه وعلومه واللغة والأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية

٧- الوسطية : يكمل خصيصة التنوع خصيصة أخرى هي الوسطية أو التوازن . فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط للأمة ، بين إفراط الأمم المختلفة وتفریطها .

٨- التكامل : التكامل فيما بين جوانبها والتكامل مع الثقافات الأخرى . فهي لا تدعي أنها تنشئ كل شيء من الصفر ، بل إن النصوص القرآنية تبين أن المؤمن هو كل من آمن بالرسالات السابقة علي محمد وأن شرط إسلامه هو الإيمان بالرسالات السابقة . لذلك كان طبيعياً أن يقتبس المسلم الحكمة والعلم النافع من أي وعاء خرجت وحيشما كانت .

ومن صور تكامل جوانبها المختلفة أن الثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية . وهي تغذي الثقافة الإنسانية . وكل ذلك تستفيد منه الثقافة العلمية .

وعندما تناولت الخطة الشاملة للثقافة العربية تحديد الأهداف ، والمبادئ الأساسية لها ، استقت هذه الأهداف والمبادئ في طابعها المثالي من خمس منابع هي التي أملتھا :

* الإسلام بوصفه دين الله القويم ، ودين الحياة للناس تشريعاً وقيماً وفكراً .
* الهوية الحضارية في قيمتها الثابتة وتراثها عبر التاريخ : بوصفها عنصر التميز للثقافة العربية بين الثقافات العالمية .

* حاجات المجتمع العربي المعاصر والمقبل بوصفها أكثر الضرورات إلحاحاً في التنمية وأقوى الدواعي إلي التجديد الثقافي والتحديث .

* تحديات المستقبل المتمثل في التطورات العالمية معارف وعلماً وتقنية ومشاركة في العطاء الإنساني .

* دفع الجمود والعدوان سواء جاء من قوي محلية أم من الاستعمار والصهيونية .

وترتبط الأهداف مع المبادئ من جهة ، ومع هذه المنابع من جهة أخرى ارتباطاً عميقاً متيناً لتشكل مجموعة أيديولوجية واحدة متماسكة العري ، وليترتب عليها عدد من المنطلقات والسياسات الثقافية والقطاعية ^(١) .

وهكذا نري أن الركن الثاني من أركان الأساس الفلسفي والفكري والعقدي لاستراتيجية المواجهة هو التحديد الواضح لهوية الثقافة العربية .

أما الركن الثالث فهو الوحدة الوطنية . وما أكثر الشواهد التي تؤكد العلاقة العضوية بين الوحدة الوطنية والأساس الاستراتيجي لمواجهة الغزو الثقافي . ولو تأملنا ذلك التحليل التاريخي لتبين لنا عمق الرابطة .

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية (مرجع سابق) - المجلد الثاني - ص ٢١ .

يقول الدكتور يونان لبيب رزق :

إن المصريين استقبلوا انتشار النشاط التبشيري الذي واكب الاحتكاك الأوربي بمصر في أواخر القرن الثامن عشر بمتنهي الحساسية ، وبرغم ذلك كان اتهام الغرب للمصريين بالتعصب. ويضي الدكتور يونان^(١) قائلا :

« ومعلوم أن لبنان ومصر كانتا أولي البلاد العربية التي عرفت النشاط التبشيري ، غير أنه لما كان قد حدث في الأولي بالأساس داخل المجتمع الماروني . ذي العلاقة الضاربة مع أوروبا فإنه لم يثر من ردود ما أثاره في مصر .

ويلفت النظر هنا أن رد الفعل لم يقتصر علي المسلمين بل امتد أيضا إلي الأقباط ، ويروي لنا القس واطسون أحد رجال الإرسالية الأمريكية في مصر ، وأقعتين تدللان علي هذه الحقيقة في كتابه تحت عنوان « الإرسالية الأمريكية في مصر ١٨٥٤ - ١٨٩٦ » .

الواقعة الأولي اتهم فيها الأقباط بالتعصب والذي تطور ، كما قال ، إلي « صدام مكشوف عام ١٨٦٥ عندما أرسل جون هوج (مبشر أمريكي) لإنشاء مركز دائم في أسيوط، فذهب أحد المطارنة الأقباط إلي المدينة محذرا من الهراقة أصحاب البدع وتعاليمهم » .

الواقعة الثانية اتهم فيها المسلمين حين أشار إلي حادثة جرت عام ١٨٦١ قال عنها إن « المتعصبين المسلمين » قد قبضوا علي وكيل الإرسالية الأمريكية في أسيوط بتهمة محاولة إغراء سيدة مسلمة علي اعتناق المسيحية ، ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخل القنصل الأمريكي .

هذه الوقائع التاريخية الثابتة تبين لنا أن الغزو الثقافي الأمريكي والأوربي لمجتمعاتنا العربية كان شاملا للمسلمين والمسيحيين . وهذا ما يؤكد أساس استراتيجية المواجهة في كونها تحشد وحدتها الوطنية والقومية . فالمسلم العربي المصري يشترك مع المسيحي العربي المصري في الإيمان بالله ثم بوحدة العروبة ويرابطة العروبة ثم بالتساوي الكامل في المواطنة . وتبقى حوادث التاريخ شاهدا علي أن الغزو الغربي لا يصيب طائفة منهم خاصة سواء كان عسكريا أو ثقافيا .

ب) الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي:

في هذا الأساس تقوم الأعمدة الثلاثة التخطيط والتطبيق والتنفيذ متلاحمة ومترابطة ، ولكن يستقل كل عمود من الأعمدة الثلاثة بشيء من الاستقلال ، وهي تختلف في طبيعتها عن التوازي الذي يشكل طبيعة الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي، فهذه الثلاثية متوازية ومتوحدة وأي منها يعني الآخر أو يعني الآخرين .

ومفهوم الخطة يشير إلي التنظيمات والترتيبات التي سبق تحديدها والتي تسعى إلي تحقيق

(١) د. يونان لبيب رزق - ملف الإرهاب - قراءة عربية - المتعصبون - مجلة المصور بتاريخ ١٥ / ٥ / ١٩٩٢

أهداف معينة ومحددة . ومن هذا المفهوم لمصطلح الخطة نجد أنه يتضمن عنصرين أساسيين :
العنصر الأول هو وجود أهداف معينة محددة تسعى الخطة لتحقيقها ، والعنصر الثاني هو وجود
تنظيمات وترتيبات تم اختيارها وتقررت لتحقيق الهدف .

والتخطيط الثقافي لمواجهة الغزو الثقافي وتنمية الاتصال الثقافي يعني حصر الواقع
القومي ومعرفته ثم تحديد الأهداف ثم اختيار أنسب الوسائل لتحقيقها ثم متابعة ذلك وتقييمه بين
الحين والآخر ، حتى يمكن التأكد من سلامة تحقيق الخطة لأهدافها ، وحتى يمكن إجراء التعديل إذا
لزم الأمر واستجدت ظروف لم تكن في الحسبان ، وحتى يمكن وضع خطط جديدة متتابعة مستمرة

في المجال الثقافي العربي يحدث التخطيط علي مستويات متعددة . فردية ، ومحلية ،
ووطنية ، وقومية . وفي مجال الغزو الثقافي تعد الخطط القومية الأولى بالرعاية والاستبصار
والأخذ منها للخطط المحلية وخطط المؤسسات بل وخطط الأفراد .

وعندما تنتقل إلي الجهود القومية لتحديد الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي
لاستراتيجية مواجهة الغزو الثقافي بصفة خاصة لحماية الثقافة العربية بصفة عامة ، نجد جهود
جامعة الدول العربية تمثل جهودا متوالية متصلة الحلقات عبر ما يقرب من نصف قرن من الزمان
هو عمر الجامعة .

منذ تأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ ودور الثقافة حاضر في أروقته . وكانت
إدارة الثقافة من أبرز إداراتها منذ التأسيس . بل إن الاتفاق الثقافي العربي كان أول اتفاق وُقّع
في تاريخ جامعة الدول العربية . وعقدت عشرة مؤتمرات للثقافة العربية فيما بين عامي ١٩٤٧م و
١٩٧٠ م . وأنشأت الجامعة مؤسسات ثقافية علي المستوي القومي أهمها معهد المخطوطات
العربية عام ١٩٥١ م ، ومعهد الدراسات العربية العليا عام ١٩٥٤م .

وفي عام ١٩٦٤ م وُقّع ميثاق الوحدة الثقافية العربية . وفي عام ١٩٧٠م أنشأت الجامعة
العربية منظمة متخصصة للثقافة هي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وضمت إليها
المؤسسات المرتبطة بالعمل الثقافي في جامعة الدول العربية ، وهي الإدارة الثقافية ، ومعهد
المخطوطات العربية ، ومعهد الدراسات العربية العليا . وأوكلت إلي المنظمة العربية للتربية والثقافة
والعلوم مهمة العمل علي تنفيذ ميثاق الوحدة الثقافية العربية .

وكان مؤتمر الوزراء العرب المسؤولين عن الثقافة في الدول العربية عام ١٩٧٦ م والذي
تضمن بيانه مسلمات ومبادئ وتوصيات تتعلق بالثقافة العربية ، خطوة متقدمة للنشاط الثقافي
لجامعة الدول العربية . وكان هذا المؤتمر تمهيدا لظهور الخطة الشاملة للثقافة العربية عام ١٩٨٦م .

والخطة الشاملة للثقافة العربية التي صدرت في عدة مجلدات تحوي التقرير النهائي للجهود
الجماعية الذي قامت به لجنة مختارة للإعداد ، كما تحوي البحوث التي كتبها متخصصون في
جوانب الثقافة العربية المعاصرة ، وتحوي أيضا الندوات والحلقات البحثية حول الجوانب المعاصرة

اختص المجلد الأول من الخطة بدراسة شاملة حول مبررات الخطة ، ومنهجها ، وتبويبها ، وأسس عملها ووسائلها . والهوية الثقافية العربية ، باعتبار الثقافة مستودع الهوية والأصالة القومية . والقيم العربية الإسلامية التي تتميز بها الثقافة العربية . والهوية الثقافية العربية في العصر الحديث . وكان المجلد الثاني عن التوصيات وعن المبادئ الأساسية للخطة . أما المجلد الثالث فهو أضخم مجلدات الخطة ، وقد طبع في ثلاثة أقسام ، كل قسم منها يزيد عن المجلد الأول أو المجلد الثاني . وفي الأجزاء الثلاثة من المجلد الثالث طبعت البحوث والندوات .

والخطة الشاملة للثقافة العربية مصدر للمشتغلين بالثقافة العربية فياضاً وموحياً ومباشراً برغم التحفظات والنقد الذي لابد منه في مثل هذا العمل الجماعي الكبير . وحيداً لو نشرت المقالات التي تناولت الخطة بالنقد في طبعاتها القادمة . وأهم ما يمكن الإشارة إليه في هذا الأساس هو أهداف الخطة ، فقد حددت الخطة الشاملة للثقافة العربية ^(١) أهدافها في ستة أهداف رئيسية هي :

* إغناء شخصية المواطن العربي لتأكيد وعيه بعقيدته وبناته وبحريته وكرامته ، وقدرته على مواكبة التطور الإنساني المعاصر ، والمشاركة الفعالة فيه . إن الإنسان يأخذ من الثقافة ويفيد منها بقدر غناه الداخلي بعناصرها ، ويعطي منها بقدر قواه الإبداعية ، وهذان الأخذ والعطاء هما أساس الحيوية الثقافية للأمة .

* تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الوطن العربي بوصفها ركن البناء الحضاري ، فالثقافة ليست كياناً مغلقاً على ذاته بل هي تفاعل دائم مع ما يحيط بها . والعلاقة بين الثقافة والاقتصاد والاجتماع تجعل الثقافة مؤثرة في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع ، متأثرة بها ، في دورة متصلة من التأثير والتأثير .

* إبراز الهوية الحضارية العربية الإسلامية ، وتنميتها والمحافظة عليها بوصف الثقافة مستودع الأصالة . فالتراث الثقافي العربي الإسلامي كنز واسع من الخبرات والقيم والعطاء الحضاري والمادي والمعنوي المكتوب والشفوي ، كما أنه الأساس الذي تقوم عليه الهوية الثقافية للأمة ، والجذر الذي يغطي طاقاتها الإبداعية ، وثقتها بنفسها ، ويلهم تطورات المستقبل . إن الشخصية الأساسية للأمة إنما تكمن وترتسم كل خطوطها في التراث الذي يجب أن يكون واقعاً متفاعلاً لا ماضياً متحجراً ، وقوة دفع لا قوة جذب ، ومصدر ثقة لا نموذج تقليد .

* تأكيد الوحدة بين أقاليم الوطن العربي ، وزيادة أواصرها . فالثقافة العربية هي النسيج المكون لرابطة التآخي بين العرب ، وهي السند المرجعي فيها ، ولولاها ديننا ولغة وتاريخنا وآمالنا لكان الوطن العربي أجزاء متفرقة وكان له مصير آخر .

* التحرر القومي بوصف الثقافة عنصراً للتعبية والاستلاب والتشويه ، بقدر ما هي عنصر بناء وإبداع وتأكيد للهوية ، فالكواريث التي أخذت تنهال علي الأمة العربية وبخاصة في العقود الأخيرة مع الغزو الصهيوني جعلت من الثقافة الحصن الأخير للدفاع وجعلت الأمن الثقافي بين الأوليات الأساسية في الاهتمام .

* تنمية العطاء الحضاري قومياً وإنسانياً بوصف الثقافة مصدر إبداع وعطاء وسبيل تعاون مع مختلف الثقافات العالمية . وما من أمة تستطيع العيش في هذا العصر في عزلة حضارية . والأخذ والعطاء هما سمة هذا العصر الحديث وقانونه أكثر من أي عصر مضى ، لاتساع وسائلهما وقيام الحاجة إليهما .

هذه الأهداف الرئيسية للخطة لحقت بها المبادئ الأساسية التي توجه هذه الخطة . وهي علي النحو التالي :

١- تقوم الخطة الشاملة للثقافة العربية علي مجموعة من المبادئ تعتبر بمثابة الأسس والأركان لها ، وهي رغم تشعبها وشمولها مناحي شتى من الحياة مبادئ متلازمة بعضها مع بعض . تشكل في مجموعها إطاراً فكرياً للخطة المقترحة .

أولاً : إن الثقافة هي من إبداع الشعب الذي ترتبط به وتعود إليه . وحياة الشعب هي المنبع الأساسي لكل إبداع ثقافي ولكل استمتاع . وهي تستمد قوتها وإبداعها ، وتطورها المستمر ، من الحياة النابضة بالحياة للمبدعين فيها . كما تستمد من إدراك المستفيدين والمتمتعين بها . وكلما زاد التجاوب بين الطرفين عمقاً وسعة وتفاعلاً كان ذلك من دلائل الأصالة ، والارتباط بالثروة الثقافية الموروثة ، وبالهوية الثقافية وينموها وتجدها .

ثانياً : إن الثقافة هي ما يميز أمة من غيرها ، لذا فإن تنمية الثقافة العربية تنمية تميز أبنائها والعاملين عليها وتعطيها دورها الخاص في النشاط القومي والإنساني هو أحد المبادئ التي تقوم عليها الخطة .

ثالثاً : حق الإنسان في اكتساب الثقافة ، وفي حرية التعبير عنها ، والتمتع بها . وهذا يعني تفتيح الآفاق للمبدعين ، والالتزام بنشر إنتاجهم للجماهير الواسعة ، فلا منة في العملية الأولى ، ولا تكرم المتفضل في الثانية .

وأبصاراً : إن عملية التخطيط التنموي عملية متكاملة شاملة ، وهذا يعني أن الثقافة بعد أساسي من أبعاد التنمية ، وعلي علاقة تأثير متبادل وعضوي مع نواحي التنمية الأخرى . ولا يتم تطوير البني الاجتماعية والاقتصادية إلا بالاستناد إلي تخطيط ثقافي جذري يحدد طرق العمل ووسائله ، كما يحدد الأهداف المستقبلية للأمة .

خامساً : إن التراث الحضاري الإسلامي هو الركن الأساسي في تكوين الثقافة العربية والنبع الأصيل فيها عقيدة وقيماً وتشريعاً ، وهو الذي يميزها عن غيرها من الثقافات الإنسانية . وإذا

كان تراث الإسلام هو أهم ما تمخضت عنه العبقريّة العربيّة وأعظمها ، فالإسلام بدوره قد منح العربيّة وجهها الخاص بين الثقافات الأخرى ، ومكنها من العطاء ، ومن العالمية في السمات.

سادساً : إن الصلة بين اللغة العربيّة والفكر الإسلامي تفوق كل صلة بين أية لغة وأي تفكير تعبر عنه تلك اللغة . ذلك أن الجزء الأساسي في الدين الإسلامي لا يقع سليماً دينياً إلا إذا أدّى باللغة العربيّة . وفي مقدّمة ذلك العبادات ، والقرآن الذي أنزل بلسان عربي مبين ، والذي لا يمكن أن تكون ترجمته هي القرآن المتعبد بكلماته . وهكذا فإنّ الفكر الإسلامي هو قوام رئيس للثقافة العربيّة ، أثّر في كل اتجاهاتها الفكرية من الفلسفة إلى الطب والفلك ، وفي ألوانها الفنيّة من العمارة إلى الزخرفة وفي أنواعها الأدبيّة من الشعر إلى المقامة .

وقد كان للعلماء المسلمين ، من كل الجنسيات ، وما يزال عطاؤهم في أركان المعمورة في كل المجالات . وهذا العطاء يصب في النهاية في الثقافة العربيّة ، ويزيد في خصبها وعالميتها .

وتراث الإسلام ، وإن كان تراثاً مشتركاً لعدد من الشعوب الإسلاميّة ، إلا أنه في الدرجة الأولى تراث عربي مشترك لكل من آمن به ، أو أسهم فيه ، أو تبناه من أبناء العربيّة ، أيّا كان أصله ، أو انتماءه الديني ، أو تعبيره اللغوي المحلي .

٢- يبقى بعد هذا أن نضيف خمسة مبادئ أساسية أخرى :

أولها : ديمقراطية الثقافة . وتعني الحق الإنساني في المشاركة الفردية والجماعية الواسعة علي السواء ، في مجالي إنتاج الثقافة والإفادة منها ، باعتبار أنها إمكان في الإبداع مفتوح للجميع وغذاء مباح للجميع . وفي تراث المجتمع العربي وتقاليد ما يؤكد حرصه علي أن تكون الثقافة جهداً يقوم علي المشاركة الجماعية ، في مجالي إنتاجها ، والإفادة منها . ولا يكفي إيصال الإنتاج الثقافي إلي المواطنين ، بل من الخير تمكينهم من إبداء رأيهم فيما يقدم إليهم منه ، إغناء للثقافة ذاتها .

إن ديمقراطية الثقافة شرط أساسي من شروطها سواء في الإبداع الذي لا تضمنه إلا الحرية الكاملة في التعبير ، أم في الاستمتاع الذي تتساوي فيه فرص التمتع بالثقافة دون تميز في العرق أو الجنس أو اللغة أو المكانة الاجتماعية . غير أن ديمقراطية الثقافة وحريتها تحتفلان الكثير من التعقيد عند التطبيق ، لأن رسم الحدود بينها وبين القيود التي لا بد من وجودها حولها ، أي الجمع بين مبدأ الحرية وبين التقنين لها مشكلة تعترض كل الأنظمة العالمية ، وتشكل واحداً من همومها . وما زال تدخل الدولة في الثقافة يساء استغلاله بدرجات متفاوتة من بلد إلي آخر . وإذا كانت أنظمة الهيمنة الجماعية تسيطر علي المبدعين الثقافيين بحجة الحفاظ علي أهداف المجتمع وتيسر للجمهير ما تري أنه يخدم تلك الأهداف ، فالأمر في النظم الأخرى قد ينتهي إلي ترك الثقافة للتسلط التجاري والربح . والوصول إلي الصيغة التي تجمع بين مزايا الحرية والقيود ، أمر لا زال الاختلاف حوله قائماً ، ويصعب الحسم فيه . إلا أن تحديد ما هو أساسي وجوهري في ثقافتنا يسهم في حل هذه المعضلة وفي ضمان الحرية الثقافية .

٣- ومن ناحية أخرى فإن ديمقراطية الثقافة تعني ديمقراطية المجتمع كله . وتتطلب التفاعل الحر بين مختلف القوي الاجتماعية ، ويظل الأساس هو تشجيع العملية الإبداعية وتغذيتها على أوسع نطاق ممكن ، وتشجيع عملية الانتفاع بأفضل الأنشطة الثقافية لأكبر عدد ، والمشاركة الجماهيرية في اتخاذ القرارات بشأن الحياة الثقافية ، والتوسع المستمر دون انقطاع في هذه العمليات الثلاث ، وهذا يتطلب ارتياد سبل جديدة للديمقراطية عن طريق تكافؤ الفرص في مجال التربية والتعليم والثقافة ، واللامركزية في النشاطات الثقافية جغرافياً وإدارياً .

ثم إن من العقبات في مجال ديمقراطية الثقافية ما يمكن في النزعة البيروقراطية التي قد تسيطر على العمل الثقافي فتعزله عن اهتمام الجماهير ، كما تكمن في احتكاره .

٤- المبدأ الثاني الأساسي هو :

قومية الثقافة : فالثقافة تراث قومي قبل أن يكون إنسانياً ، وإبداعها عطاء قومي بالإضافة إلى أنه إنساني ، وقومية الثقافة تعني أولاً العطاء على المستوى القومي والنشر الثقافي على المستوى نفسه أيضاً ، كما تعني ثانياً التكامل بين الأقطار العربية فالتكامل يسمح بالتنوع، وتعدد الألوان الثقافية وتساندها ، كما أن التكامل يفتح آفاقاً لنقل الخبرات وإغنائها ، وللتعاون في البناء الثقافي الموحد . وأخيراً فإن قومية الثقافة تعني أن الثقافة العربية واحدة موحدة ، وأن لغتها هي العربية ، وإن تراثها هو ذلك التراث العريق الأصيل الموروث الذي يجده كل عربي في داخل ذاته ، بشكل عفوي .

٥- علي أن قومية المعرفة والثقافة لا تكون كاملة إلا بالتكامل القومي العربي ، أخذاً وعطاءً، لتنمية الثروة البشرية العربية ، وتكوين القدرة العربية العامة . ويبرز ذلك بخاصة في ثلاثة مجالات ذات شأن خاص بالنسبة للثقافة العربية :

أ) في مجال حقوق المواطنة القومية وواجباتها . وهو حق يتصل بحق الأطفال العرب وواجبهم في التعليم الأساسي ، وحق الأميين في أبجديتهم ، وتأهيلهم وتحويلهم من أرقام سكانية ، إلى قوي اجتماعية منتجة ومشاركة . وهذا يعني مشاركة رأس المال العربي المادي في إعداد رأس المال العربي البشري ، باستكمال القدرات القظرية العربية على مواجهة استيعاب المستحقين للتعليم .

ب) في مجال إعداد القدرات العلمية والفكرية : بتأمين الدراسات العليا وتكوين الباحثين العلميين في إطار قومي ، لإيجاد القدرات العربية الذاتية في مجال العلوم والتقنيات ، وتأسيس القيم وإبداعها . وذلك :

- بتكوين القياديين ضمن المناخ العربي في جامعة عربية للدراسات العليا والبحوث ، فإنشاؤها تجسيد لقومية المعرفة .

- بتدريس التعليم العالي بالعربية فإن ذلك يوصل العلم والتقنية في هذه اللغة تعليمياً وفهماً

وإنتاجاً وبحثاً ويسمح لها بالتطور .

- بتدبير الأسباب الدافعة لهجرة الكفايات وإدماجها ضمن تيار التنمية القومية الشاملة .

جـ) في مجال دعم اللغة العربية ونشر الثقافة الإسلامية : ومع أن هذا التوجيه القائم علي مستويات مختلفة في المشاريع القطرية وفي الممارسات العلمية إلا أنه يحتاج إلى إرادة جماعية تتمثل في خطة قومية شاملة . ويحمد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أنها أنشأت جهازاً متخصصاً لهذه المهمة القومية ، هو « جهاز التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الإسلامية » وأقامت له صندوقاً خاصاً ، وجعلت له مجلس أمناء ، ومجلس إدارة يسهران علي وضع مشروعات نشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية خارج الوطن العربي، يتم تمويلها بإسهام عربي طوعي من كل حكومة أو هيئة أو مؤسسة أو شخص قادر علي ذلك . كما يحمد للمنظمة العربية أنها أنشأت مؤسسة الموسوعة العربية التي ستصدر موسوعة تنبج للقارئ أن يطلع علي ما توصل إليه الفكر الإنساني في جميع حقول المعرفة ، قديمها وحديثها ، بلغة عربية مبينة .

٦- ولا تعني قومية الثقافة في كل هذا أي مفهوم عربي، أو تعصب أعمي ، أو تعال علي الشعوب الأخرى ، وإنما تعني العنصر الثقافي التعبيري المميز لهذه الثقافة والذي كان وما يزال- بجمع شتات الأمة ؛ ويحدد ذاتيتها ، ويشكل هويتها الحضارية التي تميزها عن غيرها من الأمم .

إن قومية الثقافة لا تنفي تعدد الأصول المكونة للأمة ، أو تنوع اللهجات اللغوية ، أو طرق التعبير للمشاركين فيها ، ولكن تعني أن الدائرة الثقافية العربية هي التي تجمع الجميع وتوحدهم ، كما تعني أنها تعتبر أصحاب هذه الأصول أو اللهجات بعضاً من مصادر الغنى والخصب فيها . وتعتبر نفسها المعبر عن إنتاجهم تجاه الثقافات الأخرى .

٧- المبدأ الثالث هو :

تحديث الثقافة : بمعنى الارتباط بتطورات اليوم والغد ، واستيعاب تيارات العصر ومواكبة تحولاته عربياً وعالمياً في التحديث والانفتاح مع الحفاظ علي الأصالة والهوية الحضارية العربية والقيم الروحية والفكرية للأمة . بمعنى أن التراث لا يجب أن يكون قيداً ، ولا يمكن أن يكون وثمة ثوابت في التراث الثقافي وثمة متغيرات . وتحديد الثابت والمتغير وإن كان مهمة صعبة إلا أنه مهمة دائمة عبر العصور لكل ثقافة ، كما أنه مهمة واجبتها جميع الثقافات المتجددة وانتصرت عليها . إن ذلك وحده يثبت حيوية الأمة وأصالة إبداعها الثقافي .

ومن جهة أخرى، فإن التراث نفسه في تغير دائم مستمر ولا سيما التراث الشفهي منه والتصويري والموسيقي والحرفي واللهجات اللغوية وأساليب الأدب والفكر وأذواق الجمال . وهكذا

٨- والتحديث ليس صفة تلصق بالثقافة ، ولا مجرد نقل للأشياء أو الطرائق أو التيارات الحديثة، ولكنه دخول بها في ضمير العصر ، وتحارب مع مده وجزره وأجوائه ، وإبداع يأخذ الزمن بعين الاعتبار ، كما يستفيد من تراكم المعرفة الهائل في توسيع الآفاق ، ومن تقدم التقنية في الوسائل الإبداعية .

٩- ومشكلة التحديث تثير أمام الثقافة العربية (والثقافات العربية الأخرى مثلها) مسألة إثراء ذاتها بالعلم والتقنية ، دون التضحية بشخصيتها الخاصة . فشمعة فجوة تزداد اتساعاً وعمقاً باطراد بين وتيرة التسارع التحديثي في هذه الثقافات ، وبين وتيرة التقدم العلمي التقني المتزايدة في السرعة . وردم هذه الفجوة هو اليوم من أكثر الحاجات إلحاحاً علي الثقافات العربية . كما أن التخطيط لردمها هو من أبرز مشاكل العصر الحديث . لأن هذا التخطيط يجب أن يتصدي للمهمة الصعبة في إقامة التوازن بين التأثر والأصالة ، بالعمل علي استيعاب التطورات التقنية جميعاً علي أسس إبداعية لا تقليدية ، وبأن يحقق التحولات الثقافية ، من خلال السمات القومية المميزة ، وأن يأخذ بعين الاعتبار الحدود الحرجة القائمة بين الاقتباس والتبعية ، وبين اكتساب الأسس المعينة والحفاظ علي الهوية الثقافية .

١٠- المبدأ الرابع هو :

عالمية الثقافة : بمعنى أن الثقافة العربية متفاعلة مع الثقافات الأخرى وتشارك المشاركة الإيجابية المفتوحة أخذاً وعطاء في تقدم الحضارة الإنسانية . فالشعوب كانت ولا تزال تستعير بعضها من بعض ، ويغني بعضها بعضاً بالتبادل . وقد كان ذلك علي الدوام من تقاليد الفكر العربي . وثقافة الغد لأي أمة لا يمكن أن تكون إلا ثقافة مولدة تستمد عناصر كثيرة فيها من الثقافات الأخرى في الوقت الذي تحتفظ بسماتها الخاصة وهذا هو المعني الجديد للعالمية الثقافية، فهي لا تعني الثقافة الواحدة النمطية ولكن عالمية الأفكار ، والأسس ، وتنوع السمات والتعبير والوسائل .

وقبول عالمية التأثر والتأثير لا يعني التبعية الفكرية ، كما يرفض الاستلاب ، والحتواء ، والتغريب ، ومظاهر الخنق الثقافي ، التي تقوم بها القوي الاستعمارية الحديثة أو الصهيونية في فلسطين .

١١- أما المبدأ الخامس هو :

إنسانية الثقافة : بمعنى أن للثقافة العربية خصائص ومثلاً وقيماً وأفاقاً إنسانية متفردة ، تجري فيها مجري العناصر المكونة ، فالأخوة ، والعدل ، والمساواة ، والسلام ، والحرية ، وحق العلم ، والتسامح ، والتكافل ، واحترام العقل ، وكرامة الإنسان والتفكير في الكون ، ورفض الظلم والعدوان ، بديهيات أساسية في ذاتيتها الثقافية ، وفي تراثها الروحي والفكري .

وهذه العناصر الإنسانية ، قادرة علي الإسهام في إقامة نظام ثقافي دولي جديد . ذلك أن التحديات التي تشكل أزمة العالم المعاصر ، وتثير الكثير من قلقه ليست اقتصادية أو سياسية

فحسب ولكنها إلي ذلك تحديات ثقافية ، لأن التوترات والحروب تنشأ أولاً في الأفكار والرؤوس ، وتزول أول ما تزول منها ، ولأن الأزمة في داخلنا ، فإن باستطاعتنا وضع حد لها ، وتحويل قيمنا الفكرية إلي مذهب إنساني شامل رشيد ، يقوم علي الإقرار بوحدة البشرية ، في إطار تعدد شعوبها وثقافاتهما ، وعلي مبادئ المساواة والحرية والتكافل ، وعلي إرادة التعايش المشترك ، والتضافر لصياغة المصير البشري الواحد .

من مجمل أهداف الخطة ومجمل المبادئ العامة التي توجهها يمكن علي المستوي القطري تحديد أهداف الخطط الوطنية للبلدان العربية . كما يمكن وضع إطار لمناقشة الخطط الثقافية المحلية، والسياسات الثقافية القطرية . ولقد نظر الباحث المصري السيد يسين^(١) نظرة إيجابية إلي الجهد الجماعي العربي في الخطة الشاملة للثقافة العربية ، واجتهد في أن يصوغ للواقع الثقافي المصري نظرة تخطيطية للسياسة الثقافية . قائل إن مهمة الدولة في مجال صياغة نظرية لتخطيط السياسة الثقافية ليست هينة ولا ميسورة . فنحن نحتاج - من خلال حوار فكري واسع المدي - إلي صياغة إجماع قومي حول طبيعة الدولة وأهداف المجتمع وهذا الحوار ينبغي في تقديرنا أن ينطلق من مجموعة مسلمات تكاد تكون هي المنطلقات التي بنيت عليها الخطة الشاملة للثقافة العربية :

- ١- حق الإنسان في اكتساب الثقافة وفي حرية التعبير عنها والتمتع بها .
- ٢- عملية التخطيط التنموي عملية شاملة والثقافة بعد أساسي من أبعاد التنمية الشاملة .
- ٣- التراث الحضاري الإسلامي هو الركن الأساسي في تكوين الثقافة العربية غير أن ذلك لا يعني إهمال جوانب التراث المصري الأخرى فالتراث الفرعوني والتراث القبطي من المكونات الأساسية للتراث المصري .
- ٤- ديمقراطية الثقافة أي المشاركة الجماهيرية الواسعة في مجالي إنتاج الثقافة والإفادة منها .
- ٥- قومية الثقافة وتعني بذلك أن الثقافة العربية واحدة وموحدة .
- ٦- عصريّة الثقافة بمعنى تحديد الثابت والمتغير في الثقافة العربية الحالية واستيعاب تيارات العصر .
- ٧- إنسانية الثقافة بمعنى إن للثقافة العربية خصائص ومثلاً وقيماً وآفاقاً قادرة علي الإسهام في إقامة نظام ثقافي دولي جديد .
- ٨- عالمية الثقافة وهذا يعني متابعة تقاليد الفكر العربي في التفاعل مع الثقافات الأخرى والمشاركة الإيجابية المنفتحة أخذاً وعطاءً في تقدم الحضارة الإنسانية .

(١) السيد يسين - نحو نظرية لتخطيط السياسة الثقافية - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٧ - ١١ - ١٩٨٧ .

٩- مسئولية الدولة والمؤسسات الشعبية في التخطيط الثقافي الشامل وفي توفير جميع الوسائل للتفتح الثقافي الحر » .

ولم تقتصر الجامعة العربية في مجال الثقافة الإسلامية ، ولا في مجال الإعلام الإسلامي بإسهامها المتواصل . لقد قدمت جامعة الدول العربية ورقة عمل للمؤتمر الأول للإعلام الإسلامي بجاكرتا (شوال ١٤٠٠ هـ سبتمبر ١٩٨٠ م) ذكرت فيها أن الإعلام الإسلامي ينبغي أن يتناول ثلاثة محاور أساسية وهي :

١- التعرف بالقيم والمبادئ الأساسية التي يقوم عليها الإسلام ، وتقديم النماذج الإسلامية في الحياة الإنسانية ووجوه عطائه الحضاري ، وما يميزه بشكل واضح يعين علي الفهم والرؤية ، والمساهمة الفعالة في مسيرة الحضارة الإنسانية علي ضوء الإسلام ويهذي من تعاليمه السمحة.

٢- دراسة واقعنا الإسلامي بصورة موضوعية ، وتحليل العوامل التي أدت بالمجتمعات الإسلامية إلي القعود والضعف والتخلف ، وتحديد منطلقات الدفع لتصحيح مسار الأمة الإسلامية إلي الأصالة والتجديد والقوة والعطاء .

٣- التعمق في دراسة التحديات الحضارية المعاصرة للإسلام وللأمة الإسلامية ، والتصدي في منهجية للحملات الإعلامية المعادية والمفرضة وبالحصوص في القضايا السياسية والدينية .

كما قدمت مقترحات للنهوض بالإعلام الإسلامي علي النحو التالي :

- شمول النظرة في العناية بالإعلام المقروء من صحف ونشرات ومجلات وكتب ، وبالإعلام المرئي والمسموع من إذاعة وتليفزيون وسينما ومسرح ورسوم ، ونشرها في العالم الإسلامي علي أوسع نطاق .

- شمول الإعلام الإسلامي للأقليات الإسلامية في مختلف الأقطار غير الإسلامية وبمختلف اللغات الحية ولغات العالم الإسلامي ، ومزيد العناية بهم ، وإعداد برامج إذاعية لهم ، وإمدادهم بما يحتاجون إليه من كتب دينية ملائمة .

- تكوين مراكز ومعاهد عليا للإعلام الإسلامي يتخرج فيها متخصصون إعلاميون في أعلي مستوى علمي وفني وتكنولوجي ، وتشجيع البحوث والدراسات في رسائل الدرجات العلمية بالجامعات في مجال الإعلام الإسلامي ، وذلك بالتعاون مع وزارات الإعلام والثقافة والتعليم.

- رصد الجوائز المشجعة للإنتاج الإعلامي المتفوق في مختلف فروع الثقافة الإسلامية ، توفيراً للمادة الإسلامية الإعلامية المفتحة في مختلف المجالات بما في ذلك مجال الترفيه .

- إنشاء منظمة علمية للإعلام الإسلامي تكون مصدر إشعاع وتشريع وتوجيه ، وتنشئ منها مؤسسات إعلامية مع دعم الوكالات الإسلامية للأتباء .

- نشر الإعلام الإسلامي في العالم علي أوسع نطاق ممكن ، حتي لا يبقى منعزلاً علي نفسه ،

وحتى لا يوسم بالتزمت والانعزالية وتطعيمه دوما بالثقافات المعاصرة التي لا تصادم مبادئ الإسلام ولا تخالف أصوله .

- وضع ميثاق الشرف للإعلام الإسلامي على أسس قومية ، وفي مرونة تساعد على التطبيق ، وتسمح باجتلاب أكبر عدد ممكن من الأقطار الإسلامية ، وإن اختلفت مذاهبها ، ونظمها السياسية والاجتماعية عملاً بمبدأ التقريب بين المسلمين ، وضماناً لنجاح الميثاق في أهدافه العليا وغاياته الأساسية .

ولقد وضعت منظمة إذاعات الدول الإسلامية تصوراً للقضايا والموضوعات التي يمكن للاستراتيجية الإعلامية الإسلامية أن تطرحها على النحو التالي :

- ١- تحديد الأهداف الكبرى الرئيسية لأجهزة الإعلام الإسلامية .
- ٢- تصحيح النظرة إلى الإسلام وتنقية الفكر الإسلامي مما علق به من شوائب .
- ٣- المساهمة مع الأجهزة والمؤسسات المعنية في العمل على إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، والتعريف به بعد تخليصه من التشويه والتحريف .
- ٤- تسليط الأضواء على المعطيات الحضارية والثقافية والإنسانية للإسلام ، وتوظيف قيمه في بناء الإنسان المسلم .
- ٥- إبراز عطاء الإسلام للحضارة الإنسانية واستمرارية قدرته على ذلك .
- ٦- كشف إفلاس الحضارة الغربية بشقيها الغربي والشرقي .
- ٧- إظهار إمكانيات الإسلام على قيادة حركة الإنسان المسلم وترشيد مسيرة الإنسان المعاصر في عصر المعاناة والقلق والتمزق والذي لا مخرج منه - رغم التقدم المادي المذهل - إلا في ظل قيم الإسلام ومثله الإنسانية الرفيعة والواقعية . وفي ظل التوازن أو التعادلية التي تمثل سمة الإسلام . ومبادئ وتشريعات الإسلام .
- ٨- تعريف الشعوب الإسلامية ببعضها وتقوية وسائل الاتصال فيما بينها ، من خلال منظمة إذاعات الدول الإسلامية ووكالة الأنباء وكافة وسائل الاتصال ، فليس من المعقول أن يجهل المسلمون أحوال بعضهم ، أو تعرف الخرطوم أخبار كمبالا مثلاً عن طريق لندن أو نيويورك أو موسكو ، وليس من المعقول أن تكون المسافة بين أي عاصمتين إسلاميتين أطول من نفس المسافة حين تمر بعاصمة أجنبية في أقصى المعمورة ، أو كما قيل بحق فإن المسافة من أي عاصمة أوروبية إلى أي عاصمة إسلامية أقصر دائماً - من الناحية الإعلامية - من نفس المسافة في الطريق العكسي .
- ٩- مواجهة سيطرة الدول المتقدمة على العملية الإعلامية وبصفة خاصة في النظام الحالي للاتصالات (صحافة - إذاعة - تليفزيون - وكالات) .

١٠- إنَّ حقَّ الإعلام أحد حقوق الإنسان ولا بد من مواجهة الاختلال الرهيب في التوازن بين أخبار ومعلومات العالم المتقدم وبين أخبار ومعلومات الدول النامية ومنها الإسلامية ، ولقد نشر أن ثلاثة أرباع البشرية تقريبا وأغلبه في العالم الإسلامي لا يحظى بربع التغطية الإعلامية.

ولا يخفي آثار ذلك في التعتيم الإعلامي على أنباء العالم الإسلامي وشعوبه وقضاياهم ومشاكله وآماله ، مع تلوينها حسب الأهواء والمصالح الاستعمارية ، ومع تجاهل وتشويه أوضاع الأقليات والجماليات الإسلامية .

١١- لقد نقلت المنظمة في بيان لها في المؤتمر العاشر في فاس عن دراسة منشورة أن الدول المتقدمة تسيطر على ٨٥ - ٩٠ ٪ من أصل الطيف للذبذبات الإذاعية ، ولا أمل في تحسن ذي قيمة في وقت قريب .

إن بعض الإذاعات المتقدمة فضلا عن ذلك تبيث برامجها من أراضي دول نامية - بينها دول إسلامية - وبعضها إذاعات دينية موجهة ، لا بقصد خدمة أتباع تلك الديانات ، وإنما بقصد الغارة الثقافية والإعلامية التبشيرية الموجهة ضد العالم الإسلامي . وإذا كان نصف الدول الإسلامية لا يملك « تليفزيون » ، فإن برامج النصف الآخر تزدهم بنسب متفاوتة من برامج الدول المتقدمة بكافة آثارها السلبية الضارة .

١٢- ضرورة وضع خطة لمواجهة الغزو الثقافي الإعلامي .

١٣- ضرورة خدمة الثقافة والتراث الإسلامي من خلال الأعمال الفنية ، مع تنسيق إنتاجها وتنشيط تداولها تجاريا وتبادليا .

١٤- طرح عطاء الإسلام العقائدي في مواجهة الفلسفات والمذاهب والنظم الاجتماعية من الشرق والغرب . وتأكيد دور الإعلام في بناء الشخصية المسلمة . والبناء الثقافي اللازم لاتباع المسلمين ونهضتهم . بحيث تقدم مبادئ الإسلام الرئيسية مع إبراز إجمالها لما لا يتغير وتفصيلها لما يتغير لتأكيد وتوضيح صلاحيتها لكل زمان ومكان . وهذه العقائدية هي التي يتوجه بها المسلمون إلى العالم ويتسلحون بها في ذات الوقت ، لمواجهة الغارة الإلحادية التبشيرية الصهيونية التي تستهدفه من كل الوجود .

إن مثل هذه الجهود من جامعة الدول العربية ، ومن منظمة اتحاد إذاعات الدول الإسلامية ، إلى جانب البحوث والدراسات التي تتعلق بهذا الموضوع يمكن أن تكون نواة لاستراتيجية إعلامية إسلامية خلال القرن الخامس عشر الهجري .

ولقد سكبت الأفكار العامة للتخطيط الثقافي العربي روحها في خطط الثقافة الإسلامية. لقد سبقت الخطة الشاملة للثقافة العربية شقيقتها الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي . وعند المقارنة بينهما نجد أنهما ينبعان من مشكاة واحدة ، حتي في علاقة غير المسلمين بالثقافة الإسلامية بحكم المواطنة في البلدان الإسلامية .

لقد أوصت اللجنة الدائمة للإعلام والشتون الثقافية المنعقدة في « دكار » عام ١٩٨٣ بأن تقوم المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بإعداد استراتيجية تربوية وثقافية للعالم الإسلامي. وقد أدرج المشروع ضمن خطة عمل المنظمة (١٩٨٥ - ١٩٨٨) وجدد إدراج المشروع في الخطة التالية (١٩٨٨ - ١٩٩١). وقد استعانت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بعدد من الخبراء والمفكرين وأساتذة الجامعات من مختلف أرجاء العالم الإسلامي لإعداد الاستراتيجية. وتم إعدادها في مقدمة وخمسة فصول. تناول الفصل الأول تحديد المفاهيم والخصائص والمصادر، بينما يختص الفصل الثاني بشرح الأهداف. وخصص الفصل الثالث لقضايا الثقافة الإسلامية. وتناول الفصل الرابع مجالات عمل الثقافة الإسلامية. ويختم الفصل الخامس الاستراتيجية بعرض وسائل التنفيذ.

« وعند تحليل أهداف الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، نجد أساس هذه الثقافة أنها إسلامية الروح والجهر والمصدر، حتى وإن كان العالم الإسلامي تسوده ثقافات متنوعة بعضها ليس إسلامياً. ذلك أن غير المسلمين في البلاد الإسلامية هم في حقيقة الأمر مسلمون ثقافة وحضارة. وكثير من حكماء غير المسلمين وعقلاهم يعبرون عن هذا الانتماء الإسلامي، ويعتزون به علي رؤوس الأشهاد »^(١).

هذه النماذج من الترابط بين الخطط الثقافية والإعلامية على المستويين العربي والإسلامي تجده أيضاً في الأساس التطبيقي والتنفيذي. والمثل الذي يجلي الأساس التنفيذي للتخطيط الثقافي والإعلامي يتمثل في محاولة مخاطبة الرأي العام الخارجي. ومحاولة أن يكون للإعلام العربي مقعد في الساحة الدولية.

لقد وضعت ورقة عمل بشأن خطة عربية في عام ١٩٨٤ وكان مجالها الجامعة العربية. وكانت ورقة عمل الخطة تحوي سلسلة أفكار قدمت من عدة دول عربية حول سبل مواجهة الإعلام المعادي على الساحتين الأمريكية والأوروبية. وقد قدمت دولة قطر واحدة من أوراق العمل حول إنشاء مؤسسة إعلامية عربية مستقلة لمواجهة التحرك الإعلامي في أمريكا وأوروبا وأن تكون مكاتب الجامعة العربية في الخارج والسفارات العربية وجمعيات الصداقة العربية الأجنبية والغرف التجارية، وأساتذة الجامعات والروابط الطلابية والمراكز الثقافية، ومؤسسات العلاقات العامة ركائز لهذا النشاط، بحيث تسهم جميعاً في تحسين الصورة العربية لدى المواطن الأجنبي، وإبراز الدور الحضاري للأمة العربية والتركيز على أن الأمة العربية داعية سلام وعدل وتعاون دولي، وتوضيح القضايا العربية ومواجهة الدعاية المضادة وإبراز الدور العربي الإيجابي سياسياً

(١) عبد القادر الإدريسي - أضواء علي الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي - ندوة الثقافة العربية، الواقع وآفاق المستقبل، - مرجع سابق.

واقتصاديًا علي صعيد تنمية العالم الثالث . واتخذت ورقة العمل عنوانًا هو : المؤسسة الإعلامية المستقلة .

أ) مقترحات أربعة لإنشاء مؤسسة إعلامية مستقلة :

تنفيذا لما أقره مؤتمر القمة العربية الحادية عشر في عمان ٢٥ - ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٠ - برنامج العمل العربي المشترك - البند الثالث - المجال السياسي - الفقرة الثانية والذي ينص علي « دراسة إمكانية إنشاء مؤسسة إعلامية مستقلة لمخاطبة العالم الخارجي بأسلوب متطور، وفق خطة محدودة وإبراز وجهة النظر العربية الموحدة ، حيال قضية فلسطين والقضايا العربية الأخرى .

قامت الأمانة العامة في إطار ما أنجز من دراسات بالاستعانة بخبرات عربية وصديقة لبحث إمكانيات إنشاء مؤسسة إعلامية مستقلة ، وعلي ضوء هذا البحث تعرض المقترحات الأربعة التالية:

- **الاقتراح الأول :** يقضي بتأسيس مؤسسة (علي غرار مؤسسة فورد) عربية دولية إعلامية مستقلة عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتمويل عربي (أربعمائة مليون دولار) يكون مقرها الرسمي بالولايات المتحدة ، وتتفرع عنه ثلاثة مكاتب في واشنطن ولندن وباريس، ويتولي الإشراف علي المؤسسة مجلس أمناء من أمريكيين من أصل عربي تختارهم الدول العربية .

- **الاقتراح الثاني :** يقضي بتأسيس مؤسسة أمريكية مستقلة ذات اهتمامات عامة يديرها أمريكيون وأمريكيون من أصل عربي ويجري تمويلها من خلال منحة من الدول العربية أو جامعة الدول العربية مقدارها (٣٠٠ - ٤٠٠) مليون دولار تدفع أقساطًا علي امتداد ١٥ سنة .

- **الاقتراح الثالث :** يقضي بتأسيس مؤسسة عربية أمريكية مستقلة (علي غرار مؤسسة مارشال الألمانية) يديرها أمريكيون ، ولا تقتصر أعمالها علي الإعلام والسياسة ، ويجري تمويلها عن طريق هبة من الدول العربية لا تقل عن ١٠٠ مليون دولار ويضاعف هذا المبلغ بواسطة هبات إضافية .

- **الاقتراح الرابع :** يقضي بإنشاء ثلاث مؤسسات في الساحة الأمريكية .

١- مؤسسة إعلامية تقول من داخل أمريكا وخارجها وتكون إدارتها أمريكية .

٢- مؤسسة سياسية (لوبي) تقول كلها من داخل أمريكا ويديرها أمريكيون .

٣- مؤسسة ثقافية تقول من داخل أمريكا وخارجها ويديرها بالأغلب أمريكيون .

علي أن يكون مجمل إنفاق المؤسسات الثلاث للثلاث السنوات الخمس المقبلة ١٠٠ مليون دولار، وتركز هذه المؤسسة - وفق الاقتراحات الأربعة - علي ما نسميه بالإعلام الحضاري الذي يقوم أساسًا علي « تحسين الصورة العربية » ، في مختلف المجالات في الساحة الدولية .

ب) الصعوبات التي تعترض الأخذ بالمقترحات الأربعة :

١- الأخذ بأساليب مؤسسات دولية أجنبية :

بالنسبة إلى الأخذ بأسلوب « مؤسسة فورد » الاقتراح الأول : يلاحظ بأن مصداقية مؤسسة فورد تنبع من جذورها الأمريكية الصرف ، ومن ابتعادها عن المواضيع السياسية التي تثير الخلافات الحادة ، بل وعن كل تشيع سياسي .
بالنسبة إلى الأخذ بأسلوب « مؤسسة مارشال » الاقتراح الثالث : يلاحظ أن المال في هذه المؤسسة أجنبي إلا أن مصدره عربي و إن مؤسسة مارشال مثلها مثل مؤسسة فورد تبتعد عن القضايا السياسية المثيرة للخلاف .

٢- حصر رأس المال في العطاء من الدول العربية :

إن حصر مصدر المال للمؤسستين المنصوص عليهما في الاقتراحين الثاني والثالث بالدول العربية سيجعل الصهيونية تعمل على تصنيف المؤسسة مسبقاً بأنها عدوة ينظر إليها الرأي العام الأمريكي نظرة ارتياب بل وأكثر من الارتياب .

٣- الاعتبارات القانونية :

هل يمكن من الناحية القانونية - ومن ثم من الناحية العملية - مؤسسة واحدة أن تجمع بين العمل الإعلامي والسياسي والعمل الإعلامي والحضاري التشقيفي والإنساني الحيري ؟ (بهم خاصة المقترح الثاني والمقترح الثالث) .

لذا يكون من الصعب أن تستطيع مؤسسة القيام في آن واحد بأعمال إعلامية حضارية وبأعمال اللوبي وأعمال سياسية مع المحافظة على القدر الكافي من المصداقية وعدم التعرض للتجسس بعميل أجنبي .

يتطرق الاقتراح الرابع إلى الاعتبارات القانونية بتفصيل أدق مما يجعله يوصي بقيام ثلاث مؤسسات تكون إحداها (السياسية) ممولة من مصادر أمريكية بحتة تجنباً للمحاذير القانونية ، لكن هذا الأمر لا يمنع من حدوث خلافات سياسية .

٤- تهديد الولايات المتحدة كمقر لمؤسسة عربية إعلامية دولية :

يجعل المقترح الأول العمل الإعلامي خارج الولايات المتحدة - وفي أوروبا تخصيصاً - من مسؤوليات المؤسسة التي يكون مقرها الأصلي في أمريكا ، ويلقي بالتالي العبء على الجمعيات الأمريكية أو الأفراد الأميركيين ولا مبرر للاعتقاد بأن لدى الأميركيين خبرة مميزة للقيام بالأعمال الإعلامية في أوروبا أو أفريقيا كما لا نري أن الولايات المتحدة هي بالضرورة الموقع الأصلى لمقر مؤسسة دولية إعلامية عربية .

إن الجمعيات الأمريكية من أصل عربي رغما عن الدور المتزايد أثراً الذي أخذت تلعبه

ما زالت تعاني من سلبية عدة ، ونرى أنه علي هذه الجمعيات بادئ ذي بدء أن تصحح أوضاعها ، حتي تنطلق بعد ذلك إلي المهمة الرئيسية التي تواجهها في الولايات المتحدة وهي تعبئة الجاليات الأمريكية من أصل عربي .

إن تعبئة هذه الجاليات إلي أبعد الحدود الممكنة هو الشرط الذي لابد من تحقيقه لخلق القاعدة السياسية الداخلية التي تعطي الإعلام العربي واللوبي العربي مستقبلاً القوة الضاربة والسلطان في اللعبة السياسية الأمريكية الانتخابية . إن الجمعيات الأمريكية من أصل عربي هي المرشحة الوحيدة القادرة علي هذه التعبئة بالاستعانة بشركات العلاقات العامة المتخصصة في هذا المجال ، إن أول الأولويات في أمريكا الشمالية - علي كل حال - يجب أن يتم بعد أن تقوم تلك الجمعيات بتصحيح أوضاعها واستنفادها لجميع إمكانيات تعبئة الجاليات الأمريكية من أصل عربي .

إذا تأسست المؤسسة الأم في بلد ما والمؤسسات الفروع في بلاد أخرى فلا بد من مواجهة مشكلات العلاقات بين الطرف العربي الممول وإدارة / إدارات هذه المؤسسة / المؤسسات ، وكذلك مشكلات التنسيق بينها وبين الأجهزة العربية (السلك الدبلوماسي والأمانة العامة) وجمعيات الصداقة ، والجمعيات المتعاطفة مع الجانب العربي في كافة البلدان .

٥- تعدي النطاق الإعلامي التشقيفي إلي الأعمال الخيرية والبحوث العلمية :

هذا هو توجه المقترحين الثاني والثالث وإذا كان ثمة حكمة في تنوع السبل التي تنتهجها في الوصول إلي تحسين الصورة العربية في الولايات المتحدة فإن ذلك يعتمد علي ترتيب الأولويات العربية .

وبالنظر إلي واقع الإعلام في الساحة الأمريكية ، وكون الجمعيات الأمريكية من أصل عربي تعاني ما تعانيه ، والتعبئة للجاليات العربية الأمريكية ما تزال بعيدة المنال ، وبحاجة إلي جهود ضخمة لتحقيقها ، فهل يجب فتح الباب علي مصراعيه للأعمال الإنسانية والأبحاث العلمية الطبيعية ، ولتطلبات الجاليات (من غير البيض) الأمريكية البانسة والتي لا تحصى ؟ إنه يمكن دائماً تخصيص نسبة معقولة تتراوح بين ٢ و ٣٪ من مجمل اعتمادات أية خطة إعلامية مقترحة لمبادرات ودية محددة نحو الشعب الأمريكي .

٦- تولي العمل السياسي مؤسسة أمريكية :

ينص المقترح الرابع علي أن تتولي التعامل مع أرباب السياسة مؤسسة سياسية أمريكية صرف بتمويل أمريكي صرف ، ويميل المقترح إلي التفاؤل في إمكان إيجاد التمويل اللازم لهذه المؤسسة من داخل أمريكا .

بيد أنه ليس من الصعب تصور إمكان حدوث خلاف في الاجتهاد حول السياسة الإعلامية في القضايا الحساسة بين مؤسسة بإدارة أمريكية صرف وبين الجهات العربية المعنية .

يؤكد المقترح الرابع علي الاستعانة بشركات علاقات عامة وأنه من الممكن تحسين الصورة العربية في ذهن المواطن الأجنبي في مختلف الساحات علي النحو التالي :

- ١- إبراز الدور الحضاري للأمة العربية .
 - ٢- التركيز علي أن الأمة العربية داعية للسلام والعدل والتعاون الدولي .
 - ٣- توضيح القضايا العربية وعلي رأسها القضية المركزية : قضية فلسطين .
 - ٤- مواجهة الدعاية المضادة ودحض افتراءاتها وتغيير مزاعمها .
 - ٥- إبراز الدور الإيجابي للأمة العربية في السياسة والاقتصاد العالمي ، وتنمية العالم الثالث .
 - ٦- فضح السياسة العدوانية التوسعية لإسرائيل ضد الدول العربية .
- أما عن قواعد التحرك الإعلامي وشروط نجاحه فتتمثل فيما يلي :**

- ١- وضوح الهدف .
- ٢- وضوح السياسة التي يستند إليها الإعلام - قرارات مؤتمر القمة العربية وفي طبيعتها مشروع السلام - قمة فاس سنة ١٩٨٢ .
- ٣- وضع استراتيجية متكاملة تأخذ بعين الاعتبار ضرورات كل من العمل السياسي الإعلامي المؤثر علي صانعي القرار والعمل الحضاري التثقيفي المؤثر علي صورة العربي السائدة في ذهن المواطن الأجنبي .
- ٤- الاستفادة من المؤسسات العربية والصديقة القائمة في كل ساحة استفادة كاملة .
- ٥- تجنيد العنصر البشري الملائم .
- ٦- تحديد أولويات الإنفاق ونسبه بين أدوات التنفيذ المعتمدة وكذلك بين المشروعات المقترحة.
- ٧- واقع التعاطف العميق الجذور لأسباب تاريخية وتراثية بين الضمير الغربي واليهودي .
- ٨- النظرة التبسيطية إلي الصراع العربي الصهيوني السائدة بين كبار المسؤولين في الهيئتين التنفيذية والتشريعية في عدد من الدول .

أما أدوات تنفيذ الخطة فيمكن أن تشمل ما يلي :

- ١- جهاز الأمانة العامة علي أن تدخل إصلاحات علي جهازها العامل في البعثات الخارجية للجامعة العامل في البعثات الخارجية للجامعة العربية - وهو ما تعمل الأمانة العامة من أجله - لا سيما علي الساحة الأمريكية وذلك :
- بفضل العمل في هيئة الأمم المتحدة عن العمل في الساحة الأمريكية .
- بتجنيد طاقات عربية وأمريكية من أصل عربي كفوء .

- بالاستعانة بمستشارين خبراء .
 - بالاستعانة في مجالات معينة بشركات للعلاقات العامة .
 - ٢- السلك الدبلوماسي العربي مع إحكام التنسيق بين المسؤولين عن جهاز الجامعة الإعلامي وأعضاء هذا السلك .
 - ٣- جمعيات الصداقة (العربية - الأجنبية) المتواجدة في الساحات الدولية كافة ، وزيادة عدد هذه الجمعيات ودعمها .
 - ٤- الغرف التجارية (العربية - الأجنبية) .
 - ٥- الجمعيات الوطنية والدينية (لا سيما في الولايات المتحدة) والكنائس .
 - ٦- أساتذة الجامعات والروابط الطلابية والمراكز الثقافية العربية والأجنبية .
 - ٧- شركات العلاقات العامة المتواجدة في كل ساحة والتعاون معها بشكل محدد .
- وإلي جانب هذه الخطة كانت الجامعة العربية تبحث الدراسات المتعلقة بالخطط الإعلامية علي الساحة الإفريقية ، والساحة الآسيوية والساحة الأمريكية اللاتينية ، أسوة بما تم إعداده بالنسبة إلي الساحة الغربية .
- علي أن يتم تكييف أوجه النشاط وفقاً لظروف كل ساحة في ضوء الدراسات المعتمدة ، وستحدد الخطة الإعلامية الكبرى علي الساحات الدولية في ضوء :
- ١- الأهداف العربية الرئيسية .
 - ٢- الأفق الزمني للخطة الإعلامية .
 - ٣- الغايات المرسومة للخطة .
 - ٤- الأدوات المعتمدة ودور كل منها .
 - ٥- العنصر البشري اللازم .
 - ٦- أولويات الاتفاق في الخطة .
- في مقابل التوجه إلي العالم الخارجي برسالتنا الإعلامية ينبغي أن يكون اهتمامنا الأكبر والأقرب بواقعنا الإعلامي والثقافي الداخلي .
- ما هو واقع الحال لإعلامنا العربي بأغلبه ؟ يجيب الدكتور ناصر الرشيد ^(١) بما يلي :

(١) د. ناصر بن سعد الرشيد - وسائل الثقافة ، نقد وتقويم الإعلام - بحث في ندوة الثقافة العربية (الواقع وآفاق المستقبل) ١٢ : ١٥ أبريل ١٩٩٣ - كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر .

- ١- المبالغة في المدح المذموم شرعا مما يرسخ النفاق والكذب في المجتمع وتقديس الأشخاص والدوات ، مخالفا بذلك ما ثبت شرعا من قصر التقديس ، والتعظيم على الله تعالى وحده .
- ٢- إعطاء تصور زائف غير صحيح في فهم حقيقة الدين وأحكامه الشاملة بحصر الخطاب الإعلامي - فيما يتعلق بالدين - في جوانب العبادات والسلوكيات الفردية دون الأحكام التي تعالج قضايا الأمة والمجتمع ، ودون ربط كل أعمال الحياة بالتصور الإسلامي والعقيدة الإسلامية وكتليات الدين .
- ٣- تحجيم وظيفة المنابر الشرعية كخطب الجمع والأعياد ، ووسائل الإعلام والمحاضرات والندوات العامة ، وذلك بالسعي لمنع الخطباء ذوي الوعي الشرعي والعلم بالواقع ، وأصحاب النصيحة والرأي الشجاع من تسنم هذه المنابر ، ومحاولة حصر هذه المنابر على من لا يحسن القيام بحق الكلمة وواجب البلاغ المبين .
- ٤- تعطيل القدرات الإبداعية بسلسلة من القيود والتعليمات الثقيلة على الوسائل الإعلامية التي تحجز على إبداء الرأي المشروع ، أو الصدى بكلمة الحق وتبليغ رسالة الإسلام في القضايا الكبرى للأمة إذا خالفت توجيهات أصحاب القرار في هذه المؤسسات .
- ٥- احتكار كافة وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزة لمؤسسات تملكها الحكومة أو شبه مالكة لها . ومنع الأفراد من حقهم الشرعي في إصدار وامتلاك وسائل الإعلام لنشر العلم الشرعي النافع والدعوة والإبلاغ .
- ٦- منع الأخبار في وسائل الإعلام المحلية مما أدى إلى انجلاء الناس لوسائل الإعلام المعادية في الدول الأجنبية للحصول على الأخبار والحقائق التي يرغبون في معرفتها والاطلاع عليها ومنحها ثقتهم .
- ٧- التركيز المستمر في البرامج الإعلامية على تقديم القيم والعادات والأخلاقيات الغربية الباطلة المخالفة للشرع ، باعتبارها القدوة والمثل العليا مما يؤدي إلى كسر الحاجز الاعتقادي والسلوكي بين أبناء الأمة وبين الكفر والنفاق والشرك .
- ٨- إبراز الشرائع الاجتماعية ذات الدور الترفيهي والهامشي في الحياة حيث يحتل الرياضيون والفنانون والمغنون وأشباههم مساحة واسعة في وسائل الإعلام المحلي ، ويتناول الحديث عنهم كافة أعمالهم ونشاطهم ، حتي تمكن هؤلاء من أذهان الشباب ، وصار حلم الشباب في المستقبل أن يكون رياضيا أو فنانا ، بينما تغيب عن هذه الوسائل شرائع أكثر أهمية وأعظم دورا كالعلماء والمفكرين والدعاة والمصلحين وذوي الكفاءات والانجازات .
- ٩- التضييق الشديد على المؤسسات الإعلامية والتسجيلات الإسلامية بمنع إصدار التصاريح والرقابة المشددة عليها في الوقت الذي يسمح فيه لكثير من مجالات التبرج والسفور بدخول البلاد ، ويسهل فتح وانتشار محلات أشرطة الفيديو الهابطة والمنافية للقيم الإسلامية.

١٠- الإكثار من برامج الأطفال التي تعتمد على المستحيل والأساطير والتمرد، الأمر الذي من شأنه أن يزرع قيما خطيرة في نفوس الأطفال في سن مبكرة مما يكون له أكبر الأثر في تنشئتهم. وفي برامج المرأة تقديم البرامج الغربية التي تؤدي إلى تغريب المرأة المسلمة لتصبح صورة مشوهة من المرأة الغربية .

١١- الاعتماد في المادة الإعلامية المقدمة للمجتمعات العربية والإسلامية على الإنتاج الغربي بنسبة كبيرة . وضعف الصوت الإعلامي العربي والإسلامي في الوصول إلى الساحة العالمية، وفي مواجهة هذا الواقع الإعلامي العربي يضع الدكتور ناصر الرشيد تصوره لسبيل الإصلاح في نقاط عديدة أهمها ما يلي :

١- تبني برنامج جاد وفعال يحقق نشر الخبر الصادق بدقة وشمول وموضوعية ، وتشجيع التحليل الإسلامي للأحداث من خلال تطوير المؤسسات الإعلامية ودعمها بالكوادر المؤهلة والمختصة .

٢- السماح بإقامة المؤسسات الإعلامية الخاصة من صحف وتلفزة وغيرها للدعوة والإرشاد والتثقيف النافع وإزالة القيود التي تحد من مصداقيتها وقدرتها على الابداع .

٣- تخصيص بث إعلامي يستهدف إبلاغ الإسلام وتعريف الناس كافة بمختلف لغاتهم ما أمكن .

وحقيقة الأمر أن التصور الذي وضعه الدكتور ناصر الرشيد لواقع الحال في إعلامنا العربي المعاصر يحمل في ذاته عوامل تصحيحه وسبل إصلاحه فما دمنا قد شخصنا الداء فإن الدواء يصبح أمرا سهلا وميسورا .

وإذا تجنبنا الأخطاء الإعلامية العربية نكون في الوقت نفسه قد حققنا عين الصواب في إعلامنا العربي المعاصر .

وفي حياتنا الثقافية العربية لابد من الوعي بطبيعة أحوالنا الثقافية المعاصرة . ولابد من التسلح بالنظرة الفاحصة الناقدة والهادئة في الوقت نفسه . إن التسلح بالوعي ضروري لحياتنا الثقافية بصفة عامة ، وهو أكثر وأشد ضرورة لنا في مواجهة الغزو الثقافي . ونستطيع أن نضرب بعض الأمثال والشواهد لأن حصر ما ينبغي أن نحيط به وعيا فوق الطاقة لأنه متغير ومتلون بتغير الزمان والأساليب والمكان .

أول ضرورات الوعي لنا في هذا المجال هو الوعي بمقولة الإمام مالك الفقيه الإسلامي المشهور « كل يؤخذ منه ويرد عليه » . فلا ينبغي أن نحكم على الكتابات الإسلامية للدكتور طه حسين بحكمنا على أفكاره الأدبية في العقد الثالث من القرن العشرين في الشعر الجاهلي ولا علي تصوره الثقافي في العقد الرابع من القرن العشرين في مستقبل الثقافة في مصر . وإنما يعني في كتاباته الإسلامية مناقشة العودة للذاتية الثقافية العربية الإسلامية . كذلك ينبغي ألا يكون تقييم الدور الذي قامت به كتب الدكتور هيكمل باشا الإسلامية استنادا إلى موقفه السياسي كرئيس لحزب الأحرار الدستوريين الذي لم يكن حزبا شعبيا ولا معبرا عن مصلحة الفقراء

المصريين، أو أهداف الحركة الوطنية المصرية .

لذلك ينبغي تطهير الخطاب الإعلامي والخطاب الثقافي من الاتهام العشوائي أو الاتهام الجزئي لأعلام الكتاب والمفكرين العرب . حتي لا ينتشت الشباب ويتشتت وعيهم بكثرة الاتهامات ، والدفع العمومي بالضلال .

كذلك لا ينبغي إهمال طبيعة الفترة التاريخية لكتابات المفكرين ، والمرحلة الحضارية لمجتمعهم عندما كتبوا وعبروا وأعلنوا ، ولعل النموذج الناضج للتحول من أفكار تعلق بها المفكر ثم هجرها وأعلن ذلك صراحة ذلك النموذج الباهر للفيلسوف العربي المعاصر زكي نجيب محمود . لقد كان شديد الانبهار بالغرب ثقافة وتفكيراً ثم رجع إلى التراث العربي الإسلامي فرأى فيه كنزاً من التفكير الصائب والرؤية المبصرة إنسانياً ومعرفياً . ولكن تأثير الثقافة الغربية يعكس ظلاله عليه لأنه متشرب بالثقافة الغربية العلمانية ، برغم أنه يرى بعينيه طوفان الثقافة الغربية العلمانية ويحاول النجاة منها ويحذر مجتمعه محاولاً نجاتهم . ولكنه - للأسف الشديد - يحملها معه مرضاً متوطناً في كيانه الفكري ، وفي طريقة تفكيره .

فمثلاً يقول د. زكي نجيب^(١) محمود إن الحضارة العربية القديمة محورها الأخلاق والمبادئ الخلقية لأن محورها الدين . وكل الأديان رسالات خلقية قبل أي شيء آخر . فحضارتي قائمة علي رسالات أخلاقية . أما الحضارة الغربية المعاصرة فقائمة علي العلم الطبيعي.

ويقول : أنا لو اكتفيت بحضارتي القديمة ، حضارة الكلمة والشعر والأدب والأخلاق والدين لعشت في عصري هذا غريباً عليه ، وسحقت من أول ضربة مدفع ، ولكن لو تجاهلت حضارتي القديمة ، واندمجت في حضارتهم علماً وصناعة لسحقت داخلياً ، لما أصبحت عربياً مسلماً أو مسيحياً . أنا لي هوية خاصة قوامها تذوق خاص ، تقاليد خاصة ، رؤيا خاصة للأشياء . رؤيا خاصة للمشكلات الاجتماعية كيف أحلها ، أو لا أحلها ، هذه الهوية هي هويتي لا أريد أن استغني عنها . »

ثم يطرح سؤالاً هو : كيف إذن احتفظ بهذه الهوية العربية الإسلامية مرتكزاً علي الركائز الأساسية غير مستغني عن أي منها ، ولكن علي أن أضيف إليها أيضاً الركائز الجديدة التي تجعلني أحس بالعصر الذي أعيش فيه . والسؤال هو : هل يمكن ذلك ؟

ويجيب بأنه ممكن ، ويرى أن لطفي السيد وطه حسين ومصطفى عبد الرازق وتوفيق الحكيم تنجسد فيهم الصفة الجديدة التي تفرج الهوية الأصلية بالحضارة الغربية ويقول إن طه حسين شيخ أزهري وخواجه فرنسي في وقت واحد بحيث لا تستطيع أن تجد الموضوع الذي يرسم فيه الحد الفاصل بين طه حسين الأزهري وطه حسين الخواجة .

ويصل إلي الهدف الرئيسي من فكرته بقوله : هكذا أمثلة كثيرة من رجالنا أنفسهم

(١) حديث صحفي لمجلة الحوادث بتاريخ ٢٣ - ٣ - ١٩٨٤ .

استطاعوا أن يجسدوا بأشخاصهم الصيغة الجديدة . ما علينا إذن إلا أن ننظر لهذه الصيغة مم تتكون ؟ وكيف ؟ لأنها لن تكون هي حياتنا الجديدة إلا إذا تسربت من قلة قليلة جدا جسدها إلى الكثرة الغالبة من الشعب ليعيشوها . ويقول : الكثرة الغالبة من الشعب العربي ما تزال تدبر ظهرها لثقافة العصر ونحن نحاول أن تتسلل ثقافة العصر في أصولها إلى أوعيته . لا نريد أن نهدم أوعيته ولكن نريد أن نغلاها بمضمون عصري فيصبح عصريا عربيا مسلما في آن واحد .

هكذا يفضي المفكر المصري برأيه الذي نستطيع مقابلته بالتساؤلات والحقائق التالية :

١- ما معنى حضارة قوامها الأخلاق . هل الساعة التي أهداها الرشيد إلى شارلمان كانت ساعة أخلاقية ؟

٢- التناقض العربي المعاصر هو غيبة الأيدلوجية وليس التمسك بها .

٣- الالكترونات والتكنولوجيا في الحضارة الغربية المعاصرة جاءت بعد المفهوم الأخلاقي للحرية والتجديد .. لقد جاء رسم المنظور في القرن الخامس عشر وجاء الراديو في القرن العشرين .

إن هذا النموذج لتأثير الغزو الثقافي علي بعض المفكرين في العالم الثالث لا يمكن فصله عن ظروفهم التاريخية والتعليمية من جانب ، وعن ظروف السيطرة للحضارة الأوربية من جانب آخره وعن غيبة الذاتية الثقافية الإسلامية من جانب ثالث .

* الوعي الثاني الذي ينبغي أن ننتبه إليه هو أن الغزو الثقافي المعاصر للعالم الإسلامي ليس غزوا غربيا أي (أمريكا وأوروبا الغربية) وحسب ، بل هو غزو مشترك من الحضارة المعاصرة بشقيها الرأسمالي والشيوعي وغير الديني أو الديانات الوثنية المعاصرة . فالغزو الثقافي عند بعض الكتاب العرب الذين يتجهون وجهة ماركسية هو الغزو الثقافي الأوربي الذي بدأ - علي حد تعبيرهم - منذ نحو خمسة قرون لما عرف ببلدان الشرق ، أي الشرق الأوسط بالتعبير الحديث ، وبلدان افريقيا وبلدان جنوب شرق آسيا والصين وأقطار أمريكا اللاتينية وسكان أمريكا الأصليين ، والذي كان مصاحبا للغزو العسكري ، لكنه اليوم يعني أساسا الغزو الثقافي الأمريكي لدول العالم الثالث ، بما يسمى بثقافة القيم الاستهلاكية وحضارة الرجل الأبيض المتفوق وقوة الشركات الدولية والأفلام والمسلسلات التلفزيونية ، وتوجهات وكالات الأنباء الغربية المتحيزة ضد أقطار العالم الثالث ^(١) .

ولكن ذلك لا يفسر لنا قهر المسلمين في الصين أو في ألبانيا والمحاولات الدائبة لردهم عن دينهم . كما أنه لا يفسر اضطهاد المسلمين في الفلبين وبورما .

* الوعي باختلاف الأيدلوجيات في مقاومة الغزو الثقافي .

يطلق الباحثون الأمريكيون علي أساليب مواجهة الغزو الثقافي أو الدعاية المضادة -

(١) د. عبد العظيم أنيس - غين فتحة غا - جريدة الأهالي بتاريخ ٢٦ / ١٢ / ١٩٨٤ .

بلغتهم - تعبير تحصين المتلقي ضد الدعاية المضادة^(١) . ومن الأساليب الفعالة في التحصين ضد المعلومات المضادة استخدام أسلوب الالتزام السلوكي الذي ندفع فيه الفرد الذي يؤمن برأي معين بالتعبير عما يؤمن به علنا . وأن ذلك يجعل الفرد مضطرا للالتزام بما قاله . ولهذا لن يحاول الرجوع عما قاله علانية حتي لا يفقد ماء وجهه بين مستمعيه . ويجعل الفرد أن يلتزم اجتماعيا بتأييد اعتقاد معين قد يكون طريقة فعالة للتأكد من مقاومته للاقتناع برأي مضاد .

الأسلوب الثاني الأساسي لجعل المتلقي يقاوم الإقناع يقوم علي ربط معتقدات الفرد بالاشياء الأخرى التي يعرفها . فالاعتقاد مثلا بأهمية توفير علاج طبي أفضل لكبار السن يمكن أن نربطه باعتقاد مقبول كأن نقول إن هذا عمل إنساني تعاون به إخواننا من البشر في محنتهم . وربط هذا الاعتقاد المقبول بالقيم المشتركة سيجعل الفرد أكثر مقاومة للأراء التي تحاول أن تجعله يغير اتجاهه . ولضمان مقاومة أي اقتناع مضاد علينا أن نربط الاعتقاد بجماعات مرجعية محل تقدير واحترام كبير .

الأسلوب الثالث لتحصين الفرد ضد الاقتناع هو إثارة خوفه وقلقه مما يجعله يقاوم المعلومات . فقد شعر كثير من الأمريكيين مثلا إنهم يجب أن يقاوموا بعض التشريعات لأنهم كانوا مقتنعين بأن صدور هذه التشريعات سيؤدي إلي اضطرابات وإضرار بهم . وقاوم أولئك الأفراد التشريعات لأن البعض أثار توترهم حيال نتائجها غير المرغوبة .

وقد تبين أن تحصين الفرد ضد حجج الإعلام المضاد يزيد مقاومته مثل تحصين الفرد ضد مرض معين .

كما تبين أن من الناس من يظن أن بعض معتقدات الفرد أو قيمة الثقافية بعيدة عن الهجوم، لذلك لا يعد نفسه أبدا لحمايتها . فافترض الفرد بأن معتقداته لن تهاجم هو السبب نفسه الذي يجعلها بلا حول ولا قوة . وقد أظهرت الدراسات التي قامت بمقارنة التحصين عن طريق الدفاع بتفنيد حجج الآخرين ، وبالتقوية والتدعيم لحجج الدفاع والتأييد أن الدفاع بالحجج المفندة يحدث مقاومة أكبر . أي أنه يجب توقع حجج المعارضة والإشارة إليها وتفنيدها حتي ينجح الفرد في مقاومتها .

وعندما تم الجمع بين تأثير الدفاع بالحجج المؤيدة - التي تقوي وتدعم ، وتأثير الدفاع بالحجج التي تفند وبالتالي تُحصِن كانت مقاومة الفرد أكبر وساعده ذلك في المحافظة علي معتقداته من الهجوم الذي يرمي إلي تدميرها . لقد بينت نتائج الاختبارات المختلفة أن الدفاع بهذين الأسلوبين أكثر فاعلية من استخدام أي من هذين الأسلوبين منفردا .

كما تبين أن تحذير الفرد مسبقا يعني تسليحه مسبقا . أي أن الفرد يصبح أكثر استعدادا

(١) د. جيهان رشتي - الأسس العلمية لنظريات الإعلام - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٧٨ - ص ٢٨٣ -

لمقاومة أي هجوم علي معتقداته إذا حذر مسبقا من هذا الهجوم . وبينت بعض الدراسات في الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الشأن أن وجود الإنذار المسبق أو التحذير ، يجعل كل أساليب الدفاع أكثر فاعلية . فمجرد معرفة أن هناك تهديدا بخطر محقق يدفع الفرد للتيقن من استخدام جميع أساليب الدفاع المتوافرة لديه أفضل استخدام . وسوف يدرب نفسه علي ابتكار بعض الحجج الإضافية » .

هذا التحصين الأمريكي نقرأ عناصره قراءة تحليلية فما يتوافق مع خطتنا اقتبسنا منه ، وما هو بعيد عن واقعنا وظروفنا أنصرفنا عنه . ولا ينبغي أن تلحق بنا التبعية حتي في مجال مواجهة الغزو الثقافي .

* الوعي بالنظر إلي كافة الزوايا والجهات الأصلية والفرعية ، لأنه لم يعد يمكننا حصر الباب الذي تهب علينا منه رياح الغزو الثقافي . فجسم الثقافة العربية والإسلامية معرض للتهش من قمة الشَّعْر إلي أخمص القدم .

إن الهجوم حتي علي التاريخ الفرعوني بالتزييف والتلفيق ، مثل الهجوم علي كل قيم العرب قبل الإسلام ، برغم أن بعضها استبقاه الإسلام وحسنه مثل الكرم ، والتكافل لنصرة المظلوم كما في حلف الفضول الذي كان قبل الإسلام ، وقال عنه الرسول ﷺ أنه لو دعي لثله لأجاب .

ولنتأمل هذا الأمر المتعلق بالتاريخ الفرعوني لثري فيه صورة تؤكد أن الغزو الثقافي يدخل علينا من كل باب وينبغي أن نرصد دخوله في كل الاتجاهات والزوايا .

أحمد عثمان راقص في فرقة رضا المصرية ، هجر الرقص واشتغل بالصحافة في مصر ، ثم هجر مصر واستقر به المقام في بريطانيا . ألف كتابا بعنوان : « غريب في وادي الملوك » . ذهب فيه إلي القول بأن المومياء المحفوظة في المتحف المصري تحت اسم « يوبا » هي جثة سيدنا يوسف نبي الله . وحاول في كتابه أن يرد علي علماء الآثار الذين ينكرون ذلك .

ولأن قصة الكتاب تبدو غريبة ومثيرة فقد كشف الكاتب المصري محسن محمد ^(١) غرابيتها وسبب إثارتها من مقدمة الكتاب نفسه . ويتساءل محسن محمد قائلا : ما الهدف من هذه العملية ، والترويج للكتاب علي نطاق واسع ؟ قد يكون المؤلف باحثا تاريخيا وصل إلي ما اقتنع أنه حقيقة .

ولكن من مقدمة الكتاب تتضح الأسباب الحقيقية لتأليفه وصدوره . يقول الكاتب إنه كان في الثالثة عشرة من عمره عندما بدأت المعارك بين العرب ودولة اسرائيل . وقد توجه إلي أحد المعسكرات متطوعا ليقاتل ولكن رفض طلبه . جند في الجيش واشتغل بالصحافة وكتب أربع مسرحيات ويدعي أن الرقيب رفض ثلاثة منها .

(١) محسن محمد - مؤامرة علي تاريخ مصر الفرعوني - أخبار اليوم بتاريخ ٢٣ - ١ - ١٩٨٨ .

ويقول - في المقدمة أيضا - أن الرقيب لا يوافق علي المسرحيات التي تناقش السياسة والدين والجنس وهذه القيود لا تدع للكاتب فرصة لتناول أي عمل خلاق . وقال إنه شغل بالعداء الجنوني الواضح بين مصر وإسرائيل ، وتساءل لم لا يعيشان معا في سلام ويسويان خلافاتهما بدلا من القتال ! وهنا تتوقف أمام أخطر ما جاء في الكتاب . إنه يقول :

إن اليهود لا يفعلون أكثر من العودة إلي أجدادهم ووطنهم ، فهم ليسوا غزاة مثل الفرنسيين والبريطانيين إنها أرضهم المقدسة كما هي أرضنا المقدسة . إن العداء بين الشعبين المصري والإسرائيلي مثل أي صراع أو عداء قديم طويل داخل أسرة واحدة .

ويقول أحمد عثمان أيضا نظرا لأنه أدي الخدمة العسكرية الإجبارية فإنه يمكن استدعاءه للجيش في أي وقت ولا يريد ، بأي حال من الأحوال، الاشتراك في القتال ولذلك طار إلي لندن ليستقر فيها إلي الأبد .

وقد تعلم اللغة العبرية وهي ليست صعبة - كما يقول - مثل اللغة العربية ! وقد جاءه الإلهام عن يوسا ويوسف في إحدى الليالي وهو يقرأ سفر التكوين في التوراة ، فتوقف عند عبارة قالها يوسف لأخ له - غير شقيق - عندما جاء إلي مصر يشتري القمح .

رفض يوسف أن يكشف لأخيه عن منصب الوزارة الذي يشغله ولكن قال له :

- أنتم لم ترسلوني إلي مصر بل الله أرسلني وجعلني أبا لفرعون .

والكلمتان الأخيرتان هما اللتان جعلتا أحمد عثمان يفكر ويربط بين يوسا ويوسف ويؤلف

كتابه .

وأخيرا يفصح الكتاب بوضوح عن غايته .. فما دام يوسا هو يوسف وهو جد اخناتون فمعني ذلك أن فكرة التوحيد والإله الواحد التي نادي بها اخناتون لم تنطلق من فرعون مصري بل تجري في هذا الفرعون أيضا دماء اليهود ولذلك فإن فكرة التوحيد تشترك فيها مع مصر ، إسرائيل .

وهذه هي المؤامرة الجديدة علي التاريخ المصري الفرعوني القديم .

ومما يذكر أن عالم النفس اليهودي فرويد اعترف في كتابه « موسي والتوحيد » إن الديانة اليهودية منقولة عن عبادة اخناتون ، وإن اليهود حملوا معهم عندما خرجوا من مصر تعاليم ديانة اخناتون التي كانت أول ديانة للتوحيد في العالم .. واليهود يريدون أن يشتركوا مع مصر في فكرة التوحيد مثلما يقولون في أمريكا إنهم هم الذين بنوا الأهرامات أيام الفراعنة ..

ويختتم محسن محمد مقاله بقوله :

ونسي أحمد عثمان ولم يذكر أنه قبل ذلك كان راقصا في فرقة رضا . ويبدو أنه لا يزال يرقص لا لحساب فرقة رضا . بل لحساب إسرائيل ! »

* الوعي بالأهداف الرئيسية والأهداف الثانوية للغزو الثقافي ، فلا نبذل جُلَّ جهدنا في مقاومة الأهداف الثانوية والفرعية حتي لا يبقى إلا القليل من جهدنا لمواجهة الأهداف الرئيسية . فعلي سبيل المثال ، لقد أخذت فتنة الملابس وفتنة العري حيزا واسعا من حياتنا الثقافية ، وأخذت قضية الملابس الإسلامية شكلا حادا في التناول سواء داخل البلدان الإسلامية أو خارجها . وتمثل الأخذ والرد داخل البلدان الإسلامية في عدة وجوه . أولها إنكار الحجاب للمرأة المسلمة من بعض صرعي الغزو الثقافي ، بل وهجومهم علي المرأة المحجبة ، وانعكاس ذلك علي بعض أوجه النشاط الحكومي مثل التلفزيون المصري الذي منذ إنشائه عام ١٩٦٠ حتي العقد الأخير من القرن العشرين لم يسمح لمذبة محجبة أن تذيع نشرة الأخبار أو تقدم مادة إعلامية غير البرنامج الديني الذي يأخذ حكم القليل النادر .

ومن الناحية التاريخية كان إلغاء الحجاب في بعض البلدان العربية مواكبا للتشبه بالأوربيات . وحظي بتشجيع من بعض الفئات غير الملتزمة بتعاليم الدين تحت غطاء المشاركة في التحرر الوطني ، والحركة الوطنية .

والوجه الثاني هو تشدد بعض الجماعات الإسلامية في أن تغضي المرأة وجهها وقد أثارت القلة القليلة جدا ضوضاء داخل الجامعات المصرية والعربية ، ولكنها كانت عابرة ، لولا محاولات التضخيم والخوف من القاتن علي إدارة هذه الجامعات وأمنها .

أما في خارج البلدان الإسلامية فقد كانت المشكلة في ذروتها في بلدكنا نظنه معقل الحريات ، في فرنسا ، لقد طردت بعض المدارس الفرنسية تلميذتين مسلمتين لارتدائهما غطاء للرأس . وتناولت الصحف المسألة . وأبدت دوائر فرنسية عديدة بغضها للإسلام من خلال الواقعة التي حدثت في أكتوبر ١٩٨٩م . ولكن دوائر فرنسية أخرى اعتبرت الملابس حرية شخصية .

هذه ظواهر الموضوع . ولكن هل اللباس مشكلة إسلامية ؟ أم مشكلة غزو ثقافي ؟

* حقيقة الأمر تنحصر في أمرين :

الأمر الأول هو أن الإسلام حدد للرجل وللمرأة قواعد لستر العورة .

الأمر الثاني أن هذه المسألة ليست نتاج اليوم أو نتاج القرن العشرين الميلادي . إنها قضية بدأت بآدم وحواء . وهي قضية ترتبط بفطرة الإنسان في أن يستر جسده . وأن يحافظ علي جسده بالملابس خشية البرد أو الحر ، وأن يتزين بها ويتفتن في نسجها وحياتها وصناعاتها وارتدائها . ويعقد الشهيد « سيد قطب » في تفسير سورة الأعراف مقارنة بارعة للعري الأول في تاريخ البشرية وللعري الذي تدعو إليه بيوت الأزياء الغربية في القرن العشرين . وذلك عندما يفسر الآيات القرآنية الكريمة : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباسا يوارى سواك وريشا ولباس التقوي ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (آية ٢٦ ، آية ٢٧ من سورة الأعراف). ثم قول الله تعالى :

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق .. ﴾ (آية ٣١ ، آية ٣٢ من سورة الأعراف) .

وكما يذكر ابن كثير في تفسيره إن العرب في الجاهلية كانوا - ما عدا قبيلة قريش - يطوفون بالبيت الحرام عرايا ، بحجة إنهم لا يطوفون بلباس ارتكبوا الخطايا وهم يلبسونها . وكان الذين يطوفون بلباسهم أهل قريش أو من جاء بشوب جديد يطوف به أو من اقترض ثوبا من أحد القرشيين . وكانت هذه البدعة الجاهلية تجعل النساء في غالبتهن يطفن بالليل .
يقول سيد قطب (١) :

« في مواجهة هذا الواقع الجاهلي جاءت التعقيبات علي قصة البشرية الأولى . وجاء ذكر اللباس . ونزع الشيطان له عن آدم وزوجه بالإغواء . وجاء ذكر حياتهما الفطري في كشف السوات . وخصفهما علي سواتهما من ورق الجنة » . ثم يقول سيد قطب : « في مواجهة مشهد العري الذي أعقب الخطيئة ، ومواجهة العري الذي يزاوله المشركون في الجاهلية ، يذكر السياق في هذا النداء نعمة الله علي البشر وقد علمهم ، ويسر لهم ، وشرع لهم كذلك ، اللباس الذي يستر العورات المكشوفة . ثم يكون زينة وجمالا . واللباس قد يطلق علي ما يوارى السواة . وهو اللباس الداخلي . والرياش قد يطلق علي ما يستر الجسم كله ويتجمل به ، وهو ظاهر الثوب . كما قد يطلق الرياش علي العيش الرغد والنعمة والمال . وهي كلها معان متداخلة ، متلازمة » . ويقول سيد قطب : « هناك تلازم بين شرع الله لستر العورات والزينة ، وبين التقوي . كلاهما لباس . هذا يستر عورات القلب . وذاك يستر عورات الجسم . وكلاهما متلازمان . فعن شعور التقوي لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه . ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهتم أن يتعري . وأن يدعو إلي العري . العري من الحياء ومن التقوي . والعري من اللباس وكشف السواة . إن ستر الجسد ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي - كما تزعم الأبواق المسلطة علي حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم ، وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكما صهيوني - إنما هي فطرة ، خلقها الله في الإنسان ؛ ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر؛ وأقدرهم علي تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق . والله سبحانه وتعالى يذكر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والستر ، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلي عرف البهائم ، وفي تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل . ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلي حياء الناس وأخلاقهم ؛ والدعوة السافرة لهم إلي العري الجسدي - باسم الزينة والحضارة والمودة - وبين الخطة لتدمير إنسانيتهم والتعجيل بانحلالهم » .

(١) سيد قطب - في ظلال القرآن - المجلد الثالث - الطبعة ١٤ - دار الشروق القاهرة - ١٩٨٧ - ص ١٢٧٧ ، ص ١٢٧٨ ، ص ١٢٧٩ .

* ضرورة الوعي بالحركات الحزونية السياسية والإعلامية التي يقدمها لنا الغرب متمثلا في أوروبا الغربية وروسيا بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وأمريكا . والتي تجعلنا ندور في دائرة مفرغة. لا نستطيع أن نفعل شيئا ، بل لا نستطيع أن نقرر شيئا ، بل لا نستطيع أن نفكر لنقدر أو نفعل . ولعل أوضح مثال معاصر علي ذلك حرب البوسنة والهرسك خلال عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣ م . وقفت القوي الغربية علي بكرة أبيها وفي ذيلها الأمم المتحدة تحرم المسلمين من السلاح للدفاع عن النفس ، وفي الوقت نفسه تتيح للصرب تصفية الوجود الإسلامي علي خطوات ومراحل وتسمح للكروات بالشيء نفسه . وفي الوقت نفسه تعلن أنها تجتمع لتقرر عقوبات علي الصرب ، ثم تعلن أنها تجتمع لتزيد العقوبات ثم تجتمع لتقرر حظر الطيران ، ثم تجتمع لتقرر إنها ستوجه ضربات جوية لفك الحصار عن العاصمة « سراييفو » . ثم تقول إنها تفوض حلف الأطلنطي ، ثم يتعقد الحلف علي مستوي السفراء . ثم علي مستوي الخبراء .. وهكذا تدور الدائرة المفرغة . وفي كل يوم يموت أطفال المسلمين ونساؤهم وشيوخهم مع المجاهدين منهم بالرصاص والقذائف والجوع والبرد .

واجتماعات الغرب الصليبي قائمة تبثها أجهزة الإعلام كل يوم في سلسلة لا متناهية من الأغايز وجذب الانتباه حتي يقف العربي والمسلم مشتتا عاجزا ينتظر حدا ، أو إسدال الستار علي المسرحية التي تمثل أمامه ، والستار لا يسدل والمسلسل يدور في نظام لولبي عقيم .

في حوادث الأطفال في مصر تحكي حكاية ينام عليها الأطفال تقول إن ولدا أراد بيضة ولكن البيضة عند الدجاجة والدجاجة تحتاج إلي حبة قمح ولكن حبة القمح عند الفلاح ولكن الفلاح يريد النجار ليفتح له مخزن القمح ولكن النجار يريد منشارا ليفتح المخزن والمنشار عند الحداد .. وهكذا تدور الحكاية في سلسلة لا متناهية من الحيل حتي ينام الطفل . وهكذا فعل الإعلام الغربي والسياسة الغربية في حريها الصليبية ضد المسلمين في أوروبا . ولا يعقل أن يكون مسلمو البوسنة والهرسك من المتطرفين وإنما هم أوروبيون تماما إلا أنهم يوحدون الله ويؤمنون برسالة محمد ﷺ وعندما تكشف وثيقة دامية نذكر مغزي الصليبية المعاصر . فقد نشرت مجلة صوت المسلم التي تصدر في البوسنة والهرسك خطابا بعث به رئيس الحكومة البريطانية جون ميجور إلي وزير الدولة دوجلاس هوج يوم ٢ مايو ١٩٩٣ .. يقول في بداية خطابه : « اشكرك علي تقريرك العميق عن الوضع الحاضر والماضي في البوسنة والهرسك إحدي مقاطعات يوجوسلافيا السابقة وكما تعلم من مناقشتنا السابقة سواء في مجلس الوزراء أو غيره فإن حكومة جلالة الملكة لم تغير موقفها من السياسات التالية : أولا : نحن لا نوافق الآن أو في المستقبل علي تسليح أو تدريب المسلمين في البوسنة والهرسك ثانيا : سنستمر في تأييد حظر السلاح عن طريق الأمم المتحدة في المنطقة رغم علمنا أن اليونان وروسيا وبلغاريا تساعد الصرب بالسلاح والتدريب علي حين تساعد ألمانيا والنمسا وسلوفينيا وحتى الفاتيكان القوات الكرواتية في المنطقة ومن الأهمية البالغة أن نتأكد أن مثل هذه المساعدات لا تصل إلي القوات المسلمة في البوسنة سواء من الدول الإسلامية أو الجماعات الإسلامية .. وسوف نستمر في هذه السياسة حتي لا تتحول البوسنة إلي دولة إسلامية

في أوروبا فهذا أمر لا يحتمله أوروبا .

إن الخطأ الذي ارتكب في تدريب وتسليح المقاتلين الأفغان ضد قوات الاتحاد السوفيتي السابقة قد خلق ما يسمى بالمجاهدين الأفغان . هذا الخطأ لن يتكرر مع الشعب المسلم في البوسنة والهرسك لأن هذا يقود إلى مشاكل حادة في المستقبل خاصة مع تزايد عدد السكان المسلمين في المنطقة « الرجا النظر في الورقة المرفقة من الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان « فجر أوروبا الإيرانية » ثالثاً : حتي تستقر مشكلة يوجوسلافيا السابقة يجب بأي ثمن أن نتأكد من عدم نشوء دولة إسلامية في هذه المنطقة ، ومن هنا يجب الاستمرار في خطة فانس - أوين ومباحثات السلام حتي نؤجل أي حركة في الأحداث لضمان غياب دولة البوسنة والهرسك كدولة وتفرق أهلها من الأرض .. ولقد يبدو لك هذا سياسة قاسية ولكن صناع القرار السياسي وخبراء القوات المسلحة يرون أن هذا هو الطريق لأوروبا مستقرة في المستقبل تقوم قيمها علي قيم الحضارة الغربية المسيحية .. وهذه الرؤيا هي « رؤية » الحكومات الأوروبية وحكومة أمريكا الشمالية .

هذا أهم ما جاء في الخطاب الذي نشرته الجريدة البوسنية ، وهو وثيقة دامغة تؤكد المؤامرة^(١) .

ولقد حاولت جهات إعلامية غربية القول بأن الوثيقة مزورة . ولكن الرد البليغ هو الواقع المؤلم حقا . إن كل ما فيها تم أمام عيون العالم أجمع . ولكن المخطط يمضي في سبيله .

وفي محاولة لتغطية هذه الفضيحة سلطت أجهزة الإعلام الصليبية علي موقف صغير الأضواء الباهرة لتبين إنسانية بريطانيا والغرب بصفة عامة . لقد نقلت طائرة بريطانية طفلة مسلمة مصابة في المخ بشظية قذيفة صربية إلى لندن للعلاج . وأصبحت هذه الطفلة التي يلقي الآلاف من أوتها المصير نفسه - والأسوأ منه - خيرا يتصدر نشرات الأخبار الغربية الصليبية في محاولة رد وتقوية علي النموذج المعاصر للحروب الصليبية .

بعد هذه النماذج نتعرض لقضيتين تبرزان الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي لمواجهة الغزو الثقافي في عالمنا العربي المعاصر . القضية الأولى هي قضية الترجمة ، والثانية هي قضية التراث .

قضية الترجمة :

تعتبر الترجمة الجسر الذي يصل بين الثقافات المختلفة ، والوسيلة التي نتمكن بها نحن العرب من الإطلاع علي ما توصل إليه الآخرون وأبدعوا فيه في ميادين العلوم والآداب والفنون^(٢) .

(١) أحمد بهجت - وثيقة دامغة - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣ - ٧ - ١٩٩٣ .

(٢) الخطة الشاملة للثقافة العربية - المجلد الثالث - القسم الثاني ص ٦٤٩ .

وتقتل الترجمة الجانب الأساسي في مجال الكتاب باعتباره وسيلة اتصال حضاري . ويحدثنا التاريخ عن اهتمام العرب بترجمة أهم الكتب اليونانية إلى اللغة العربية . وإن حركة الترجمة قد بدأت مع الدولة الأموية ثم بلغت شأنا كبيرا في الدولة العباسية ، وبخاصة في عصر المأمون الذي اهتم بالترجمة اهتماما خاصا ، وأنفق عليها بسخاء . ثم جاء الدور على أوروبا في نهضتها الحديثة لترجم كتب العرب إلى اللاتينية ، ولترجم الكتب اليونانية من النص العربي . ومن هذا الباب الواسع كان الكتاب سفير الحضارات . « لقد دخلت العلوم أوروبا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا . وذلك بأن مكتباً للمترجمين في طليطلة بدأ منذ سنة ١١٣٠ م ينقل أهم كتب العرب إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون ، وأن أعماله في الترجمة كللت بالنجاح ، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد ولم يقتصر الغرب على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم إلى اللغة اللاتينية ، بل نقلت إليها أيضا كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم : كتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرشميدس وبطليموس ، فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب . والقرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها العربية وبفضل هذه الترجمة أطلعت أوروبا على كتب اليونان التي ضاع أصلها اليوناني^(١) . »

- ويؤكد الدكتور يوسف زيدان^(٢) الدور التاريخي الحضاري عندما ترجم العرب علوم السابقين عليهم في الحضارة فيقول :

لما خرج العرب المسلمون من الجزيرة العربية فاتحين ما حولهم من بلدان ، أرادوا تأسيس حضارتهم واستكمال مسيرة الحضارة الإنسانية . فاتجهوا إلى ترجمة تراث الأمم السابقة عليهم كالليونان والفرس والهنود .. فكان أول ما ترجموه هو كتب العلم . فنقلوا إلى العربية مؤلفات إقليدس وبطليموس وأرشميدس وغيرهم من علماء اليونان في الهندسة والفلك . وفي مجال الطب . نقلوا عن اللغة الهندية كتاب (شاناق) في السموم ، وعن اليونانية نقلوا إلى العربية جميع مؤلفات أبقراط : الفصول الطبية - مقدمة المعرفة - حانوت الطبيب - الكسر والجبر - أوجاع الرأس - الصرع .. إلخ ، وجميع مؤلفات جالينوس (التي عرفت باسم : منتجات الاسكندرانيين) مثل : فرق الطب - النبض - التأني لشفاء الأمراض .. إلخ .

كانت هذه هي أضخم عملية ترجمة في تاريخ الإسلام ، وقد استهلكت جهود ثلاثة أجيال من المترجمين الذين نقلوا مئات الكتب والرسائل العلمية إلى اللغة العربية ، بل إن (حنين ابن إسحاق) قام وحده بترجمة ما يزيد على مائة كتاب طبي يوناني ، وكان ذلك بتكليف من

(١) جوستاف لوبون - حضارة العرب (ترجمة عادل زعير) الطبعة الرابعة - مطبعة عيسى البابي - القاهرة -

١٩٦٤ ص ٥٦٨ .

(٢) د. يوسف زيدان - درس تاريخي في الترجمة - جريدة الأهرام بتاريخ ٥ - ٣ - ١٩٩٢ .

الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ، الذي وضع (حنين) علي رأس (بيت الحكمة) ببغداد ، وكان يزن الكاتب المترجم إلي العربية بالذهب ، فيكافئ به القائم بالترجمة وكانت بعض الأسر العربية تتخذ لنفسها مترجمين خصوصيين ينقلون لهم التراث العلمي اليوناني إلي العربية ، مثل أبناء (موسى بن شاكر) الذين انفقوا الكثير لترجمة كتب الميكانيكا .. وتمت هذه العملية في القرن الثالث الهجري علي نطاق واسع ، لتبدأ في القرن التالي عملية الإبداع العلمي العربي ، ذلك الإبداع الذي تجلي - طبييا - في جهود الرازي وابن سينا والزهراوي وظل ممتدا حتي القرن السابع الهجري متمثلا في جهود ابن النفيس ومعاصريه .

ولاشك في أن هذه العملية تعطينا اليوم دروسا كثيرة ، درسا في كيفية إنفاق العرب الأجداد لأموالهم في العلم والترجمة - وذلك في مقابل إنفاق العرب الأحفاد لأموالهم في الملاهي الأوروبية وعلي شراء السلاح لقتل بعضهم البعض .. ودرسا في وعي الحكام الأوائل بأهمية العلم وبضرورة الأخذ العملي بأسباب تطوره - وذلك في مقابل اهتمام الحكام الأواخر بحياسة المؤامرات لبعضهم والدعاية الجوفاء لأشخاصهم .. ودرسا في إدراك الأسر الغنيمة لأهمية اقتناء أصول العلم وبذل المال في الترجمة والتعريب - وذلك في مقابل سعي الأسر الحالية لتكديس أموالها في بنوك الغرب .. إلي آخر تلك الدروس المستفادة من عملية الترجمة الكبرى التي تمت في بدء الحضارة العربية . لكن الدرس الأهم الذي ينبغي علينا إدراكه ، هو إن الأوائل كانوا علي وعي تام بما يجب أن يترجم وينقل إلي اللغة العربية ، كان لديهم معيار للانتقاء ، فأقبلوا علي كتب العلم .

.. ولما أرادت أوروبا الخروج من عصورها المظلمة إلي عصر نهضتها التي نري ثمارها اليوم، أقبلت علي القيام بعملية الترجمة الكبرى الثانية ، فقامت بنقل كتب العلم العربي إلي لغتها القومية . ففي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) نشطت مراكز الترجمة من العربية إلي اللاتينية ، وانفتحت شهية المترجمين ، فقام (أندريا الباجو) بترجمة مؤلفات ابن النفيس - ونسبها لنفسه - وقام غيره بترجمة : القانون في الطب لابن سينا والجامع في الصيدلة لابن البيطار ، التصريف في الجراحة للزهراوي .. وغير ذلك من أمهات كتب الطب العربي لتتواصل بعد ذلك البحوث الطبية في الغرب . حتي يأتي (كلود برنار) ليضع الصياغة المعاصرة للطب الغربي المؤسس علي قاعدة التجريب الدقيق .. التجريب الذي كان الأطباء العرب المسلمون قد بلغوا فيه مبلغا عظيما .

ونعود للدرس التاريخي المستفاد من هاتين العمليتين ، فنري أن العرب حين نقلوا عن تراث السابقين ، والأوروبيين حين نقلوا من اللغة العربية .. كانت عملية النقل والترجمة تنصب علي الجانب (العلمي) من تراث الآخرين ، وهو الجانب الذي يعد تراثا إنسانيا تراكما ، ولا يمكن اعتباره ثقافة محلية خاصة . العرب لم يترجموا عن الهندية (الرامايانا) ولم يترجموا عن اليونانية (الإلياذة - الأوديسة - الأعمال والأيام) وذلك لأنهم أدركوا أن هذه النصوص علي عظمتها . هي محض نصوص أدبية ودينية تكشف عن طبيعة الثقافة الخاصة بالهند واليونان ، وما كان يعنيههم في الحقيقة هو العلم المتمثل في كتابات شاناق وأبقراط وجالينوس

والاسكندرانيين . وعندما كتب البيروني (الآثار الباقية عن القرون الخالية) تحدث عن إسهامات السابقين في الفلك والطب والهندسة والتاريخ والتقاويم ، ولم يتوقف كثيرا عند الأدبيات .. وعلي هذا النحو ، استفاد العرب بما يعينهم على استكمال مسيرة الحضارة الإنسانية ، ولم يتوقفوا كثيرا عند ما يشغلهم عن مهمتهم ويعرضهم لخطر الذوبان في ثقافة الآخر .

وحين ترجم الأوروبيون عن العربية ، لم يترجموا (المعلقات السبع) ولم يهتموا كثيرا بأشعار المتنبي ونقائض جرير والفرزدق ، وإنما أقبلوا على ما هو عام للإنسانية من نصوص العلم العربي ، فصارت مراكز الترجمة في صقلية وباليرمو وأشبانيا تهتم بالأعمال العربية العلمية التي تعينهم على التواصل مع المسيرة التراكمية للعلم ، وخرجوا بذلك من مأزق الذوبان في ثقافة العرب وتراثهم الديني والأدبي .

وكان خطؤنا الأكبر حين بدأنا نترجم عن الغرب في هذا القرن ، فقد سعينا - دون هوادة - نحو ترجمة التراث الأدبي الغربي ، وما حوله من فلسفات وروى غربية .. فصرنا نترجم ما هو معاصر من ثقافة الغرب ، تاركين العلم الغربي الذي يهمننا في المقام الأول ، فكانت النتيجة هي الذوبان في ثقافة الآخر الغربي - وساعد الاستعمار القديم والمعاصر على هذا الذوبان - وابتعدنا عما هو إنساني عام من إنتاج الغرب .. ويمكننا اليوم أن نقارن كم ما ترجمناه - وأعتقناه واختلفنا حوله - من النصوص الأدبية والفلسفية الغربية ، بما ترجمناه من كتب العلوم المعاصرة .

ويختم الدكتور يوسف زيدان هذا السياق قائلا :

.. مما سبق يتضح لنا ضرورة الإقبال على ترجمة العلم الغربي المعاصر ، ومنه الطب بالطبع ، لتصحيح مسار السعي الخاطئ في علاقتنا بالإنتاج الحضاري الغربي . وتعريب الطب هو خطوة نحو تصحيح هذا المسار ، خاصة إن الطب - كعلم - هو في النهاية إنتاج إنساني متراكم عبر التاريخ ، وكونه اليوم متقدما في الغرب ، فذلك لأن الغرب هو الذي طور مرحلته الأخيرة التي لا بد أن تتلوها مراحل أخرى . ما دام البشر والميكروبات يعيشان معا على هذه الأرض .

وفي عالمنا المعاصر ثقل ترجمة الكتب في أغلبها اتجاهها ذا تدفق واحد ، من الحضارة الأوروبية المعاصرة إلى العالم الثالث . وقليل من كتب العالم الثالث التي تحظى بالترجمة إلى إحدى اللغات الأوروبية . لذلك كانت ضمن مقترحات مصر في مؤتمر السياسات الثقافية الذي عقد في المكسيك خلال يوليو ١٩٨٢ تحت مظلة منظمة اليونسكو اقتراح بإنشاء مركز عالمي للترجمة يتبع منظمة اليونسكو ، تكون مهمته تلقي ما ترشحه الهيئات الثقافية في دول العالم الثالث من أعمال فكرية وأدبية وفنية وترجمته في وقت واحد إلى اللغات الأوروبية وطبعه ونشره وتوزيعه في كل الشعوب التي تتكلم هذه اللغات مع الالتزام بكل الحقوق الخاصة بالمؤلف ودار النشر الأولي ، حتي يمكن تعريف المثقف العالمي بإنتاج مثقفي دول العالم الثالث .

ولقد شغلت قضية الترجمة عددا من المترجمين والمثقفين العرب كما شغلت هيئات ثقافية وأكاديمية ووزارات العمل الثقافي . وكان من المنطقي أن تكون المنظمة العربية للتربية والثقافة

علي المستوي المهني أدلي المترجمون العرب بشهادتهم في المشاكل المعاصرة للترجمة . يقول الدكتور محمد عناني :

لم يعد بيننا من ينكر أن ترجمة الأدب العربي المعاصر إلى الانجليزية تفتح الطريق إلى العالمية أمام كتابنا - شبابا وشيوخا - وإن الترجمة قد أصبحت اليوم طريقا ذا اتجاهين بعد أن أمسي لدينا كتاب كبار يشهد لهم العالم بالتفوق والامتياز المطلق . واعتقد أن الوقت قد حان لاسترداد ثقتنا بأنفسنا - أدباء وفنانين ونقادا - بعد أن أعلن العالم اعترافه بنا ، ولم يعد من المستساغ أن يرمي بعضنا بعضا بالقصور - وهو اتهام يستند في أحسن حالاته علي خطأ في التقدير ، ويرجع في أسوأ حالاته إلي دوافع لا تليق بشعب له مثل تراثنا الحضاري ومثل حاضرتنا المشرق .

ولكن ترجمة الأدب العربي إلى الانجليزية باعتبارها أكثر لغات الأرض انتشارا - وفقا لتقديرات الأمم المتحدة - تكتنفها عدة مشاكل أوجها فيما يلي : لدينا أولا المشكلة الفنية أي مشكلة الترجمة ذاتها وهي كما يعرف عمارسو الترجمة عملية شاقة لأن مترجم الأدب ينبغي أن يكون ملما باللغتين (المترجم منها والمترجم إليها) إلما يتجاوز حدود الإجابة العامة إلي التخصص الدقيق ، وهو التخصص الأدبي الذي يمكنه من التجاوب مع النص الذي يترجمه تجاوبا يصل إلي درجة الاستغراق والتمثل ، ثم هو مطالب بعد ذلك بإعادة صياغته باللغة التي يترجمه إليها صياغة أمينة تبرز مواطن الإبداع الأدبي الكامن في النص الأصلي دون أن تجور علي مصطلح اللغة المترجم إليها . أي أن المترجم الأدبي في صورته المثالية ينبغي أن يكون عالما وأديبا معا ولو تفاوتت حظه من هاتين الخاصيتين . وهذا - علي ندرته - ليس مستحيلا فأعظم المترجمين العالميين كانوا كذلك سواء كانوا من أبناء اللغة المترجم إليها أو منها .

أما المشكلة الثانية فتتصل بالقدرة الإعلامية إذ أن قدرة الأدب المترجم علي النفاذ إلي أسواق بلدان العالم بدلا من الانتظام في رفوف مكتبات الجامعات والمعاهد تتوقف علي قدرة الجهاز الإعلامي المصري علي النفاذ إلي الأسواق الأجنبية إما بالتعاون مع دور النشر الأجنبية - وهذا هو الطريق الميسر المقترح ولو كلفنا ذلك بعض المال - وإما بصورة مستقلة عن طريق المعارض والإلحاح علي أسواق المكتبات بالإنتاج المصري .

ولدينا ثالثا مشكلة العمل نفسه أي مشكلة اختيار النصوص وتكليف المترجمين والمراجعين والدارسين الذين يكتبون مقدماتها أو دراسات نقدية عنها . ولا يستهين أحد بهذه المشكلة التي واجهتها وأواجهها منذ أن بدأنا العمل في هيئة الكتاب في مشروع الأدب العربي المعاصر بالانجليزية فالظروف المادية عسيرة إلي أبعد الحدود والمقابل المادي الذي تحدده الدولة محدود إلي درجة مثبطة ، والقول بالدافع المعنوي أو الأدبي وحده مردود عليه بأن أمام المترجم الكفء أبوابا أخرى مفتوحة يستطيع فيها تحقيق المكسب الأدبي والمادي جميعا ، ولا أستثني من هذه الظروف

ندرة من يجيدون الطباعة بالانجليزية والمصححين ومن يصممون الأغلفة أي القائمين علي إخراج الكتب بصفة عامة .

هل معني ذلك إذن أن نترك ترجمة الأدب العربي للمستشرقين ودور النشر الأجنبية ؟ بالطبع لا ؛ فإن هذا إهمال في حق أدبائنا لا يعدله إهمال ، والاعتماد علي الأجانب معناه الاستهانة بقدراتنا النقدية واللغوية والإعلامية والتسليم بتعذر التغلب علي المشاكل التي ذكرتها . فالواقع أنها لا تستعصي علي الحل وإذا تحليلنا بقدر من الواقعية في تحديد أجر المترجم مثلا ، ونهض جهازنا الإعلامي الخارجي بما هو متوقع منه ، ونشطنا في التعاون مع الأجهزة الثقافية الحقيقية في الخارج مثل كبري دور النشر والصحف وأجهزة الإعلام ووكالات التسويق (من خلال أجهزة وزارة الثقافة ومصلحة الاستعلامات) استطعنا أن نخرج بمشروعنا الوليد إلي العالم بحيث تقل كتبنا المترجمة أدبنا المعاصر وبحيث تجد طريقها إلي أسواق العالم ^(١) »

وتروي الدكتورة ابتهاج يونس عضو هيئة التدريس بقسم اللغة الفرنسية بجامعة القاهرة تجربتها في ترجمة رواية نجيب محفوظ « زقاق المدق » أو بمعنى أدق إعادة ترجمتها فتقول :

* بدأت أولا بترجمة العنوان والدلالات المصاحبة لهذه الترجمة ثم أشرت إلي الأجزاء الهامة من النص الأصلي الذي أغفل المترجم ترجمتها وما أدي إليه هذا الإغفال . وتقوم دراسة السياق الثقافي في النص المترجم علي ثلاثة محاور :

* أولا : هو محور الترجمة الخاطئة الناتجة عن قراءة سريعة سطحية وعن عدم الإجابة العميقة للغة العربية والاكتفاء بالمعني المعجمي من خلال القواميس أي للمعني الاشتقاقي المباشر وتجاهل المعني المجازي .

* المحور الثاني : يختص بالترجمة الخاطئة الراجعة لعدم فهم أو جهل السياق الثقافي المصري بصفة عامة والسياق الخاص بالأحداث .

ولقد قمت بدراسة المحورين معا وذلك لتداخلهما وصعوبة الفصل بينهما أحيانا .

* أما المحور الثالث : فهو الخاص بنقل تعبيرات شديدة الارتباط بالسياق الثقافي للنص الأصلي إلي السياق الثقافي الغربي من خلال الترجمة الحرفية فأصبحت بلا معني ومن هنا يستحيل الانتقال من سياق إلي آخر .

ولا تقتصر الصعوبة في الترجمة علي الإنتاج الأدبي بل تتعداه إلي لغة الإعلام المفترض فيها شدة الوضوح . تقول الصحفية المصرية مها عبد الفتاح :

أغرب ما قرأت عن انفتاح جورباتشيف هو التشكيك في المعني اللغوي ذاته لكلمة « جلاسنوست » الروسية وهي الكلمة التي ترددت وذاعت وصارت أشهر كلمة روسية حفظها

(١) د. محمد عناني - عن ترجمة الأدب العربي - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٤ - ١١ - ١٩٨٨ .

العالم عن ظهر قلب ودخلت القاموس الشعبي لقراء الصحف من الناس العاديين !

ولكن سفيرا أمريكا يعتبر حجة في الشئون السوفيتية والكتلة الشرقية اسمه (ويليام ليورز) كتب في المجلة المتخصصة الشهيرة في السياسة الخارجية (فورن افيرز) يؤكد أن المعنى اللغوي لكلمة جلاسنوست ليس هو الانفتاح كما ردد العالم وصدق الكثيرون وإنما شيء مختلف !

قال ليورز - وكان سفيرا للولايات المتحدة في تشيكوسلوفاكيا حتى عام ١٩٨٦ أن الترجمة الصحيحة للكلمة هو : النشر في الهواء أو علي الملأ .. وإن الكلمة المقابلة لها في اللغة التشيكية هي : (هلازيتوست) Hlasitost بمعنى الصوت العالي أو بأعلي الصوت .. ويقول هذا السفير الأمريكي إن التشيك يستخدمون حاليا الكلمة الروسية جلاسنوست في وصف جهود جورباتشيف ولكنهم يعلمون جيدا مثلهم مثل غيرهم من شعوب الكتلة الشرقية إنه لا تعني «الانفتاح» كما هو شائع في العالم وإنما هي تؤدي معنى « الدعاية » .. وأكد أن هذا هو المعنى الموجود فعليا في القواميس الانجليزية - الروسية من ترجمة لكلمة جلاسنوست .

وتفسيره في ذلك هو أن « الإعلام » الأمريكي والبريطاني هو الذي قام بتشويه معنى الكلمة بترجمتها علي هذا النحو ! وهو يتحدي ويقول لكل من يشكك في قوله أن يفتح أي قاموس روسي - انجليزي ويبحث عن المرادف لكلمة جلاسنوست وهي .. نشر أو دعاية !

وبعد نشر هذا المقال بدأ البحث والتنقيب في أصل ترجمة الكلمة منذ البداية وتبين أن وكالة رويتر للأخبار قد استخدمت كلمة « دعاية » كمعني مرادف لكلمة جلاسنوست وذلك عندما أعلن جورباتشيف لأول مرة عن سياسته الجديدة .. أما وكالة أسوشيتد برس فقد ذكرت « انفتاح أو دعاية » وهكذا بدأ سريان تعبير انفتاح وتناقلته الألسن والأقلام و .. قد كان !

ثم يدخل إلي الموضوع خبراء التحليل السياسي والنفسي أيضا فقالوا إن كلمة « انفتاح » تستدعي إلي ذهن مشاعر ودودة وإحساسا منعشا وكأنها توجي بتحول ما نحو القيم الغربية.. بينما تعبير دعاية أو مذاع علي الملأ وهو المعنى الدقيق لكلمة جلاسنوست إنما يستدعي أشياء أخرى أقلها أن تستخدم المعلومة في خدمة القيادة .. أي الدعاية !

ويدخل في المسألة أعضاء حزب المتشككين في كل ما هو سوفيتي « أو جورباتشوفي » قالوا إذن لا بد أن نوجد تعبيراً آخر غير كلمة انفتاح لأنه علي هذا النحو إنما نقدم إليه هدية مجانية علي طبق من الفضة أي إلي جورباتشيف .. وغير هؤلاء هناك من انهال باللوم والتقريع علي هؤلاء الكتاب والصحفيين الذين بدلا من أن يكونوا حراسا علي اللغة السياسية تحولوا إلي إشاعة الأوهام والآمال الكاذبة من جراء إهمالهم وتواكلهم وتكاسلهم عن استنباط تعبيرات دقيقة وجديدة !^(١) »

ولعل من أفصح صور الغزو الثقافي تسمية الاستعمار . فهذه الكلمة في اللغة العربية

(١) مها عبد الفتاح - انفتاح جورباتشوف خطأ في الترجمة - جريدة الأخبار بتاريخ ١٨ - ١١ - ١٩٨٧ .

تعني السعي والطلب في العمران والتقدم . وبرغم أن الوجدان تجاه الكلمة يدرك المعني الأصوب وهو الاستخراب إلا أن اللفظ مشكك في حد ذاته . وبرغم أن الفهم العربي والعقل العربي يُكُنّ للكلمة حسدا من البغض والكراهية فإن ظلا من الحلل يعكسه هذا الاستخدام اللغوي الحاطي الناتج عن ترجمة خاطئة .

إن للترجمة دوراً تاريخياً في الاتصال الثقافي علي مدي الحضارات والعصور . وهذا الدور شأنه شأن الوسائل الأخرى من وسائل الاتصال . يمكن أن يكون صالحا إذا أحسن استخدامه ، ويمكن أن يكون مفسدا إذا اقتصر علي ترجمات دعائية مقصودة ، أو ترجمات فاسدة ومفسدة . وعلي البلد النامي أن يختار ، وأن يخطط لما يترجمه . ولكن المشكلة أن ظروف التخلف كثيرا ما تجعل هذا الدور مفتقدا . ويصبح التنبيه إليه والاهتمام به ضرورة ثقافية ملحة . ومثال علي الاهتمام بقضية الترجمة ودورها المفتقد كانت ندوة الترجمة والتنمية الثقافية التي عقدتها في مصر لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع هيئة الكتاب (عام ١٩٩١) . جاءت هذه الندوة تعبيراً عن هذا الاهتمام ، ويقظة الضمير الثقافي في مصر للسلبيات التي ترتبت علي غياب دور الترجمة . ولقد اشتركت في جلسات هذه الندوة مجموعة كبيرة من أساتذة الجامعات ورجال الفكر في مصر . وطرحت الندوة اجتهاداتها لإعادة الفعالية لحركة الترجمة . وأبانت عن أهمية الترجمة في حركة التنمية الثقافية القومية . وقد انتهت الندوة بعد مناقشاتها إلي إصدار التوصيات التالية :

- * إنشاء مركز توثيقي يتبع لجنة الترجمة - بالمجلس الأعلى للثقافة - به معلومات عن المترجمين والكتب المترجمة . ولابد أن يقوم هذا المركز بتحديد الكتب التي تجب ترجمتها حسب الأهمية - علي أن تشارك في هذا المركز الجامعات والمؤسسات المعنية بالترجمة .
- * تنظيم ندوات متتابعة تتناول الموضوعات الهامة والخاصة بالترجمة وإعداد المترجمين .
- * إصدار مجلة فصلية أو سنوية تختص بالترجمة وبحوثها تحت إشراف وزارة الثقافة .
- * ضرورة إصدار ملحق بالمصطلحات الجديدة الواردة في النص المترجم إلي العربية وأن تلتزم دور النشر بذلك عند إصدارها للكتب العلمية المترجمة من اللغات الأخرى .
- * إنشاء بنك للمصطلحات بواسطة الحاسب الاليكتروني لخدمة المترجمين .
- * رصد جائزة دولة تقديرية خاصة بنشاط الترجمة .
- * رفع أجر الترجمة إلي مستوي يتفق مع مقتضيات العدالة الاجتماعية والعمل علي سرعة إصدار القرار الجمهوري بتعديل مكافآت الترجمة المعروضة علي مجلس الوزراء .
- * ضرورة وضع برامج لتدريب المترجمين وتنظيم حلقات نظرية وعملية لهم في الجامعات .
- * ضرورة تنفيذ مشروع الموسوعة العربية . وإصدار معاجم مختلفة ثنائية اللغة عامة ومتخصصة . ومناشدة مجمع اللغة العربية نشر المعاجم التي تصدر عنه علي نطاق أوسع .

* ضرورة إصدار ثبت ببيلوغرافي للأعمال المترجمة إلى اللغة العربية في كل البلاد العربية.

* إنشاء رابطة للمترجمين والعمل على حماية حقوقهم الأدبية والمادية ^(١) .

وبرغم أهمية المؤتمرات على المستوى القطري التي عقدت في البلدان العربية إلا أن الخطة الشاملة للثقافة العربية عرضت خطة قومية للترجمة ، تتجاوز في أهميتها كافة التوصيات السابقة لها ، وتصبح مرجعا هاما للهيئات المشتغلة بالترجمة في الوطن العربي . وهذه تفاصيلها ^(٢) :

ملامح الخطة القومية :

لابد لنا عند صياغة مشروع خطة قومية للترجمة من التعرض إلى هذه الموضوعات :

أ - المنطلقات .

ب - الأهداف .

ج - الأسس .

د - الوسائل .

هـ - المراحل .

و - طرائق التنفيذ .

أ - المنطلقات :

١- إن العرب أمة واحدة ولو تعددت أقطارها ودولهم . تجمعها مقومات القومية التي عز أن تجتمع لأمة أخرى مثلها ومن أهم هذه المقومات وحدة اللغة ووحدة الثقافة .

٢- بني العرب حضارة اتسمت بالشمول والغني والأصالة والانفتاح على الحضارات الأخرى وانهقدت لهم الريادة في مجال الفكر والثقافة قرونًا عديدة .

٣- أسهم العرب في إغناء المعرفة الإنسانية عبر العصور وقدموا للبشرية منجزات جليلة الشأن في ميادين الفكر والأدب والفن .

٤- يسعى العرب في هذا العصر للتغلب على التحديات التي تواجههم : التخلف والجهل والتجزئة والتسلط الأجنبي وذلك لبناء مجتمع عربي نام متحرر وموحد .

٥- يعمل العرب للانفتاح على الفكر الإنساني السليم والعلم الحديث والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية المعاصرة على أساس العدل والسلام والتعاون بين الشعوب .

(١) عبد العال الحامصي - دور الترجمة - مجلة أكتوبر - بتاريخ ٢١ - ٤ - ١٩٩١ .

(٢) الخطة الشاملة للثقافة العربية - المجلد الثالث - الجزء الثاني - ص ٦٥٩ إلى ص ٦٦٩ .

ب- الأهداف :

تتوخى الخطة القومية للترجمة تحقيق الأهداف التالية :

- ١- إغناء الفكر العربي وإخصابه بروائع التراث العالمي .
- ٢- إرساء نهضة علمية بنقل العلوم المختلفة والتكنولوجيا الحديثة .
- ٣- نقل الدراسات العميقة في شتى فروع المعرفة لتعزيز البحث العلمي .
- ٤- المساعدة علي تعريب التعليم بشتي مراحله وأنواعه في جميع البلدان العربية .
- ٥- تعريف المواطن العربي بقضايا العصر ومشكلاته .
- ٦- تعريف العالم بنتاج الفكر العربي .
- ٧- تطوير اللغة العربية بحيث تصبح قادرة علي التعبير عن متطلبات الثقافة الحديثة .

ج- الأسس :

تقوم الخطة القومية للترجمة علي أسس صحيحة في اختيار الكتب والمترجمين والمراجعين، واللغات التي يترجم منها .

اختيار الكتب : تختار الكتب التالية :

- الكتب التي أحدثت انجهاً جديداً أو مدرسة فكرية في الثقافة الإنسانية في العلم والأدب والفن.
- أمهات الكتب ، أي الكتب التي تجمع شتات المعرفة في ميدان واحد أو فرع واحد وتعتبر مراجع في موضوعاتها .
- الكتب التي تلبي احتياجات حقيقية عند الطفل والشاب والكهل وعند القارئ العادي والمثقف والمتخصص ، وتنمي ثقافتهم وتساعد علي نشر الثقافة الجماهيرية .
- الكتب التي تسهم في تنمية الثقافة العلمية والمهارة التقنية .
- الكتب التي تعالج شؤون التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتنقل تجارب الشعوب والدول في هذا المضمار .
- الكتب التي ألفت عن البلدان العربية وبخاصة القضية الفلسطينية - قضية العرب الأولى .
- الكتب التي تتناول الفكر العربي الإسلامي في الماضي والحاضر بموضوعية ونزاهة .
- الكتب التي تمثل نتاج الفكر العربي الخلاق ، قديمة وحديثة ، لنقلها إلي اللغات الأجنبية الرئيسية .

اختيار المترجمين والمراجعين : يشترط في المترجم ما يلي :

- ١- أن يكون متمكناً في موضوع الكتاب وإذا كان الكتاب في العلوم والتكنولوجيا يجب أن يكون مختصاً في الموضوع . وأحياناً ينبغي توافر التخصص الدقيق في موضوع بعينه .
- ٢- أن يكون متقناً اللغة العربية وعارفاً قواعدها الصرفية والنحوية وملماً بأصول البلاغة إلى حد القدرة علي إنشاء الجملة القوية والعبارة السليمة .
- ٣- أن يكون مطلعاً علي المصطلحات العلمية وطرائق وضعها : الاشتقاق والتعريب والمجاز والنحت وما إلى ذلك .
- ٤- أن يكون متقناً اللغة الأجنبية التي ينقل عنها ، قواعد وأسلوب .
- ٥- ويشترط في المراجع أن يكون جامعاً شروط المترجم بل متقدماً عليه معرفة وخبرة في الموضوع المترجم واللغتين العربية والأجنبية المنقول منها كي يستطيع ضبط الترجمة واستدراك ما فيها من نقص وتقوم ما يشوبها من خطأ أو ركاسة .
- وإذا تعدد مترجمو الكتاب الواحد اقتضى الأمر تعيين منسق بينهم يعني بتوحيد المصطلح والأسلوب .
- ٦- ينبغي أن تتوافر مثل هذه الشروط فيمن ينقل كتاباً عربياً إلى لغة أجنبية .

اختيار اللغات:

لابد من تحديد اللغات التي يترجم منها وإليها وينبغي :

- ١- أن تكون الترجمة من اللغة التي كتبت بها المؤلفات - ولا يصح النقل عن لغة وسيطة إلا في حال الضرورة .
- ٢- أن تكون الترجمة من اللغات التي توضع بها المؤلفات المشتعلة علي البحوث والمعلومات العلمية المتطورة وهي : الإنكليزية والفرنسية والروسية وينظر مستقبلاً في الترجمة من لغات أخرى . أما الآداب فيجب نقلها عن اللغات التي كتبت بها في الأصل إلا في حالات خاصة يتعذر في مثلها العثور علي المترجم القدير .
- ٣- أن يتم نقل المؤلفات العربية إلى اللغات الأجنبية الأكثر شهرة واتساعاً .
- د- الوسائل : يتطلب تنفيذ الخطة القومية للترجمة تأمين الوسائل التالية :

١- المعاجم والمصطلحات :

من شروط الترجمة الناجحة أن ينقل النص من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية بألفاظ عربية فصيحة بعيدة عن العامية والخطأ وتتألف في جمل وتراكيب خالية من التعقيد والغموض كما يتم إيصال المعنى إلى القارئ إيصالاً حسناً فيتناول النص بلا عناء فيفهم معانيه ويتأثر بما يتضمن من مشاعر وصور ، وينبغي للمترجم أن يستعمل اللفظ الدقيق الملائم مقابل اللفظ الأجنبي ولا سيما إذا كان مصطلحاً علمياً . ولا بد له إذا ما أراد العثور علي المصطلح الصحيح .

ولا سيما في الموضوعات العلمية الدقيقة . من معجم أو معاجم يستعين بها ويضمن إلى ما تقدمه إليه من تحديد وشرح وإيضاح للمفردات التي يرغب في استخدامها . ولا يوجد حتى الآن ، على كثرة المعاجم الموجودة في السوق العربية . المعجم الذي يسد الحاجة ويفي بالغرض . ولذا نرى من الأهمية بمكان العمل على إيجاد : معجم إنجليزي - عربي ، وعربي - إنكليزي ومعجم عام ثنائي فرنسي - عربي ، وعربي - فرنسي ، يكونان واقري المادة ومتميزين بالدقة . وعلى إيجاد : معاجم متخصصة ثنائية اللغة أو ثلاثية اللغة في كل باب من أبواب المعرفة: معجم طبي، معجم هندسي ، معجم في الفيزياء ، معجم في علم النفس ... وينبغي أن تستوعب هذه المعاجم جميع الجهود التي بذلت في الوطن العربي في الحقل المعجمي والإفادة منها . وفي مرحلة متقدمة ينبغي إيجاد مثل هذه المعاجم بالنسبة للغات الروسية والألمانية والإسبانية .

إن النتائج التي توصل إليها مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط على الرغم من الجهود التي بذلها طوال عشرين سنة لغرض تنسيق المصطلحات العلمية وإصدار معاجم بها لا تفي بالغرض حتى الآن ، على أهميتها ، إذ أنه لم يتوصل بعد إلا لإقرار قسم من مصطلحات التعليم العام وشرح في رسم مصطلحات التعليم العالي ، ولابد من مضاعفة الجهد واختصار الزمن لإكمال العمل الجليل الذي ينهض به .

إن جهداً عربياً كبيراً يجب أن ينصرف إلى إنجاز توحيد المصطلح العلمي وإصدار معاجم عامة ومتخصصة . وهذا أمر يقع العبء الأول فيه على عاتق مجامع اللغة العربية التي يجب عليها كذلك أن تضع كتاباً دليلاً يضم القواعد (المنهجية) التي تعين على وضع المصطلح أو تعريبه، هذه القواعد التي تتضمنها أعمال المجامع وقراراتها في نصف القرن الأخير .

٢- إعداد المترجمين :

إن الرغبة في الترجمة تختلف عن القدرة عليها ، فإن الشروط الأولية للمترجم المجيد هي اختصاصه في موضوع الكتاب المترجم وإتقانه اللغة العربية واللغة الأجنبية المنقول منها . ولكن الترجمة هي أكثر من المعرفة العلمية والأدبية واللغوية هي فن يحاذي التأليف ويقارب الإبداع . إن الفهم الدقيق للمعنى المراد نقله واستشفاف العاطفة المستترة وراء العبارة واستجلاء الصورة المرتسمة في خيال الكاتب ثم اختيار اللفظ العربي الملائم والجملة البارة الصياغة . كل هذا يدني النص المترجم من النص الأصلي .

الترجمة معرفة وممارسة ، ولا يصح أن تترجم كتب علمية أو ثقافية على سبيل التعليم أو التمرن أو التكسب ، إن عدم ترجمة كتاب ما خير من ترجمته ترجمة رديئة تشوه معانيه وتسيء إلى المؤلف والقارئ في آن واحد .

ومن هذا نستنتج أن ثمة ضرورة لتأهيل المترجمين أو زيادة كفاءتهم عن طريق إقامة دورات تدريبية لهم . ومن الممكن تنظيم دورة تأهيلية لكل فئة منهم تعمل في مجال معين من مجالات العلم أو الثقافة ، في إحدى الجامعات أو مراكز البحوث والدراسات تتم فيها مناقشة أصول

الترجمة وأساليبها وترجم فيها غاذاج من النصوص مع مناقشات لغوية . وكذلك ينبغي الاستفادة إلى الحد الأقصى من خريجي معاهد الترجمة في الأقطار العربية وأقسام الترجمة في جامعات الوطن العربي .

٣- تشجيع المترجمين :

إن الأجر الذي تدفع للمترجمين باسم تعويضات أو جوائز أو مكافآت لقاء عملهم ما تزال حتى الآن ، وفي أغلب الأحيان ، غير مجزية ودون الحد المطلوب ولا سيما أنهم يقومون بعمل الترجمة في أوقات راحتهم لكونهم غير متفرغين لها . ولذا يحسن بالجهات المسؤولة عن العمل الثقافي أن تشجع المترجمين ولا سيما المجيدين منهم وذلك بتقديم جوائز تشجيعية لمن ترجم أفضل كتاب في موضوع : علمي أو أدبي أو فني ، وجوائز تقديرية لأفضل المترجمين في مجال ما ، عن مجمل إنتاجهم وتقديرًا لما قدموا من خدمة للثقافة العربية . ويظل هدفًا مهمًا أن يتفرغ المترجمون المجيدون لعمل الترجمة وتكفل مؤسسات الترجمة والنشر الحكومية والخاصة لهم دخلًا كافيًا يستغنون به عن كل عمل آخر .

هـ- المراحل :

إن تحديد منطلقات الخطة القومية للترجمة وأهدافها وأسس اختيار الكتب والمترجمين والمراجعين واللغات التي يترجم منها . ووسائل الترجمة ، يهدف لمعرفة الطريق الواجب اتباعها ويساعد على وضع برامج تنفيذية تعتمد على أولويات تعينها حاجات المجتمع العربي وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية المعتمدة في البلدان العربية وبرامج التدريس في التعليم العام والجامعي وحاجات القراء على اختلاف أعمارهم وميولهم الثقافية .

إن العمل في ميدان الترجمة عمل متكامل لأن المعرفة كل لا يتجزأ والثقافة وحدة لا تنقسم ، ولكن التدرج وفق سلم أولويات ، ضرورة عملية يقتضيها التخطيط السليم ، وفي مقدورنا أن ندرج ، وفقًا لذلك السلم ، التدرج التالي :

أولاً : كتب العلوم والتكنولوجيا :

١- كتب العلوم الأساسية (البحتة : الرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، والجيولوجيا ، والبيولوجيا ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان) .

٢- كتب العلوم التطبيقية :

أ - العلوم الطبية : الطب البشري ، طب الأسنان ، الصيدلة ، التمريض ، الطب البيطري .

ب- العلوم الهندسية : الهندسة المدنية ، والمعمارية والميكانيكية والكهربائية والنفطية والصحية والإنشائية ، الإلكترونيات والحاسبات .

ج- العلوم الزراعية : المحاصيل الزراعية والبساتين والغابات والآفات الزراعية والنباتات البيئية والصناعات الغذائية ، وتربية الحيوان .

٣- كتب العلوم الاجتماعية الإنسانية : علم النفس، علم التربية ، علم الاجتماع ، علم السكان، التاريخ ، الجغرافيا ، الاقتصاد ، المالية ، علم السياسة ، اللسانيات ، المذاهب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

مع مراعاة نوعين من هذه الكتب : ما يصح أن يكون كتاباً مقررًا أو منهجيًا وما يصح أن يكون مرجعاً موسعاً .

ثانيًا - الكتب العلمية المبسطة :

الغرض منها توجيه الجيل الناشئ إلى التعلق بالعلم ومنجزاته وتنمية ميله إلى الابتكار والاختراع : كتب مبسطة في الفيزياء والكيمياء والكهرباء والفلك وعلم الفضاء ...

ثالثًا - الروائع الفكرية :

يقصد بها الآثار الفكرية : الفلسفية والأدبية التي يشهد لها بالامتياز علي الرغم من مرور زمن علي وضعها : مؤلفات ديكارت وغوته وديكنز وتولستوي وهيغل ...

رابعًا - روائع الفكر العربي :

السعي لنقل تراثنا الفلسفي والأدبي والعلمي القديم والحديث إلي اللغات الأساسية في العالم .

ومن المهم أن نلاحظ أن هذا التسلسل قد يصعب التقيد به تقيداً صارماً ولكنه دليل مفيد ومؤشر صالح .

ومن المؤكد أن باب الترجمة لن يغلق في المستقبل من العربية إلي اللغات الأخرى وبالعكس . لأن التواصل بين الشعوب والثقافات صار سمة العصر وسيظل في غو مستمر . لأن الدراسات والبحوث في ميادين العلم تأتي كل يوم بجديد . وفي كل بقعة من العالم تظهر أعمال أدبية تستحق الترجمة من لغة إلي أخرى دون انقطاع .

و- طرائق التنفيذ :

إن تنفيذ الخطة القومية للترجمة يتم علي أساس التعاون الفعال بين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبين الأجهزة والمؤسسات المختصة في البلدان العربية .

إن نهوض المنظمة بعمل التخطيط والتنسيق علي المستوى القومي لا يقلل من دور أي بلد من البلدان العربية في التخطيط والتنسيق علي المستوى الوطني ، بل يؤكد ويكمله ، لأن الخطة القومية هي حصيلة الخطط الوطنية في كل بلد من جهة والدافع إلي تطور هذه الخطط من جهة ثانية . ونستطيع القول أن تفاعلاً دائماً يجب أن ينشأ بين هذه وتلك فيقومان بالعمل في خطين

متوازيين فلا يتوقف أحدهما علي الآخر ، بل يسيران جنباً إلى جنب بغية التكامل وتحقيق القصد .

وستعرض فيما يلي إل دور كل من الدول العربية في تنفيذ الخطة القومية للترجمة : يمكن تلخيص دور كل قطر من الأقطار العربية في هذا المجال بما يلي :

١- الإدارات والمؤسسات الحكومية ودور النشر الخاصة والقوانين الناظمة لأعمال الترجمة :

بدأ عمل الترجمة بمبادرات أفراد ثم تولته دور نشر خاصة يملكها أفراد أو شركات ثم أحدثت إدارات ومؤسسات حكومية لهذا الغرض ويلاحظ رجحان دور المؤسسات الحكومية علي دور النشر الخاصة في بعض الأقطار والعكس في أقطار أخرى مع الاتجاه إلي تخصص المؤسسة أو دور النشر بموضوع علمي أو أدبي أو فني معين .

وانطلاقاً من هذا الواقع يحسن بكل قطر عربي القيام بما يلي :

أ - تقديم الدعم المعنوي والمادي لمؤسسات الترجمة والنشر الحكومية لتمكين من أداء مهمتها علي الوجه المطلوب ومساندة دور النشر الخاصة مع إدخال نشاطها من مخطط الدولة العام للترجمة والنشر وتشجيع هذه المؤسسات والدور علي التخصص في موضوعات معينة .

ب- إحداث إدارات أو مؤسسات للترجمة والنشر أو التشجيع علي قيام دور للترجمة والنشر خاصة في الأقطار التي لا تتوافر فيها أو التي ليس فيها العدد الكافي .

ج- إصدار التشريعات اللازمة لتنظيم حركة الترجمة والرقي بها وحماية حقوق المترجمين وتحديد واجباتهم .

٢- التخطيط والتنسيق والتنظيم والتوثيق :

حرصاً علي إيجاد ترتيب ملائم للحركة ضمن القطر العربي الواحد ولا سيما إذا وجد فيه عدد من الإدارات والمؤسسات ودور النشر التي تعني بما تترجمه ، يحسن إنشاء جهاز (هيئة أو لجنة دائمة) تتمثل فيه تلك الإدارات والمؤسسات والدور ويتولي المهام التالية :

أ - وضع خطة للترجمة والنشر علي نطاق القطر ، وفق الاحتياجات القائمة والإمكانات المتوافرة.

ب- تبادل المعلومات والتعاون فيما بينها في النواحي الفنية والمالية والتسويقية والإعلامية .

ج- تنظيم الاتصال والتعاون مع الأجهزة المماثلة في الأقطار العربية الأخرى .

د - تنظيم الاتصال بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومدتها بالمعلومات والقوائم والكشوف التي تملكها ، والتعاون معها علي تنفيذ الخطة القومية للترجمة .

هـ- تنظيم الاتصال مع المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) والهيئات الدولية والأجنبية والعربية الأخرى مثل اتحاد المترجمين الدولي واتحاد الناشرين العرب واتحاد الموزعين العرب والجامعات والمجامع العلمية واللغوية والمجالس والاتحادات العلمية والمهنية . وإصدار

٣- حقوق المؤلفين :

إن موضوع حقوق المؤلفين مطروح منذ سنوات عديدة وتعمل منظمة اليونسكو وهيئات دولية خاصة على إقراره ، ويلاحظ أن عدداً من الأقطار العربية تأخذ بمبدأ الاستئذان من المصدر الأصلي للكتاب : المؤلف أو الناشر أو كليهما وفقاً للاتفاقيات بهذا الشأن ، وبعضها الآخر لا يأخذ بهذا المبدأ . ويبدو مهماً في هذه المرحلة مراعاة حقوق المؤلفين العرب والمصادقة على الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف التي أقرها مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي في دورته الثالثة المنعقدة ببغداد من ٢ - ٥ / ١١ / ١٩٨١ . ولذا يحسن أن توقع جميع الدول العربية هذه الاتفاقية وتراعي أحكامها .

٤- اختيار الكتب المترجمة :

إن نقطة البداية في نجاح الترجمة هي اختيار الكتاب المراد ترجمته لأن الإنتاج الفكري في العالم المتقدم قد بلغ من حيث الكيف والكم حداً معجزاً ، مما يستدعي انتقاء ما يراد ترجمته. ويحسن في عملية الاختيار اعتماد الأسس التالية :

أ - أن يلبي الكتاب حاجة أساسية لدى فئة من فئات القراء أو يلبي متطلبات التنمية والتقدم في هذه المرحلة التاريخية التي يجتازها المجتمع العربي في الوقت الحاضر .

ب- أن تراعي (الحداثة) في الاختيار إذ إن للكتب العلمية ، بخاصة ، أعماراً تنقضي بفعل التطور العلمي ونتيجة البحوث والكشوف الجارية . وهذه الأعمار تختلف من موضوع علمي لآخر ولكنها أخذت تقصر باستمرار بسبب التطور السريع الذي يطرأ على المعارف العلمية في الحقبة الأخيرة .

ج- إيجاد توازن بين الأنواع المختارة : علوم ، آداب ، فنون ، كيلا يغفل نوع يكون ثمة حاجة إليه ، مع وضع سلم أولويات لأنواع الكتب المطلوبة ، ومراعاة تعدد المصادر واللغات المترجم منها كيلا يكون التقيد بلغة واحدة ومصدر واحد ، إذ المفضل هو البحث عن الأفضل في كل مكان وبكل لسان .

د - الاهتمام بما ينمي التفكير العلمي لدى القارئ لأن التفكير العلمي هو المدخل إلى كسب العلم بشكل صحيح فهماً وتطبيقاً .

أما اختيار الكتب المراد نقلها من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية فينبغي انتقاؤها على أسس محددة أيضاً تستهدف إبراز العربية المعبرة عن الإبداع العربي في القديم والحديث .

٥- المستوي الفني للترجمة :

إن الترجمة إلى اللغة العربية ينبغي أن يتوافر لها مستوى فني معين من الإجابة والدقة في نقل المعنى وصوغ العبارة واستخدام المصطلح . ويمكن الاعتماد من حيث المبدأ على مراعاة

٨- تداول الكتاب المترجم وتوزيعه :

يلاحظ أن رواج الكتاب داخل القطر الذي ترجم فيه مقبول ، بل يسبق أحياناً توقعات المسؤولين عن ترجمته ونشره ولا سيما أن مؤسسات الترجمة والنشر الحكومية تعتمد إلى بيع الكتاب المترجم بسعر التكلفة وأحياناً بأقل منها باعتبار أنها تؤدي بذلك خدمة ثقافية للمواطنين. بيد أن تداول الكتاب بين الأقطار العربية ليس مرضياً ولا يسيراً بسبب الصعوبات الناشئة عن المراقبة وكلفة الشحن والرسوم المالية والجمركية والإجراءات الإدارية والمصرفية .

وفي هذا المجال يحسن أن تشاير المؤسسات الحكومية علي خطتها في تقديم الكتاب المترجم للقارئ بسعر مخفض وأن يعتمد إلى تخفيف القيود التي تعرقل انتقال الكتاب من قطر عربي إلى آخر كما يحسن أن تعقد اتفاقات ثنائية بين قطرين عربيين بشأن تسهيل انتقال الكتاب وتخفيف أجور الشحن والرسوم .

ومن وسائل ترويج الكتاب المترجم في الوطن العربي يمكن الأخذ بما يلي :

١- الإعلان عنه والتعريف به ونقده أو نشر ملخصات أو تعليقات أو أجزاء منه في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام الأخرى .

٢- إقامة معارض متجولة للكتب المترجمة ، تنتقل بين الأقطار العربية للتعريف بها وتيسير اقتنائها للقراء .

قضية التراث :

تظل كتب التراث موضوعاً حياً وساخنًا في الثقافة العربية والإسلامية وتظل منابع التراث زادا حضارياً يمكن الاستفادة به في صنع المستقبل . وعندما يذكر التراث يذكر الكتاب المخطوط والوثائق والكتاب المحقق الذي تم نشره .

ويرتبط الكتاب بالتراث ارتباطاً وثيقاً . لأنه أهم وأكبر وأخطر أوعية التراث . وفي عالمنا العربي والإسلامي الرباط أوثق . وتبدو كلمة التراث فخمة ومحاطة بشيء من القداسة في حين أن التراث عموماً يحوي أحياناً أشياء عديمة القيمة ، بل وأشياء ضارة كما أن الأغاني الشعبية والرقص وحكايات الجدات والأساطير وكافة أشكال « الفولكلور » تصنف ضمن التراث . ولكن التراث المرتبط بالكتاب العربي علي وجه الخصوص يطلق علي كنوز المعرفة التي خلفتها الحضارة العربية الإسلامية في عصور ازدهارها ، برغم ما بها من بعض الشوائب . هذا بطبيعة الحال غير التراث الفكري الإسلامي الذي يسير في حياة الأمة العربية سير الدم في العروق . وهذا التراث (الديناميكي) قد نحس به وقد لا نحس ولكنه يحكم حياتنا المعاصرة إحكاماً شديداً . وهذا الإحكام الشديد ما يجعل مشكلة التراث في حياتنا المعاصرة مشكلة حية مشتعلة متجددة .

ونحن نستخدم تعبيرات متعددة حول قضية واحدة هي إحياء التراث . فنقول بتحقيق

الهدفين التاليين :

١- الناحية اللغوية للتأكد من سلامة اللغة العربية من حيث بنية الجملة وتركيبها ومراعاة قواعد الصرف والنحو والإملاء تحاشياً لكل خطأ قد يقع فيه المترجم .

٢- الناحية النصية : لضبط المعاني والتأكد من توفر الأمانة في النقل وعدم إغفال جملة أو كلمة أو حاشية أو تعليق في النص . ولذا يحسن أن يراعي القائلون على الإدارات والمؤسسات الحكومية ودور النشر الخاصة المهتمون بالترجمة المستوي الفني للترجمة والاعتماد على المراجعة ، كلما وجدوا ضرورة لذلك.

٦- تكوين المترجمين وتدريبهم :

إن المترجم الجيد لا يتكون مصادفة بل بفعل التعليم والتدريب والممارسة . ويلحظ وجود عدد لا بأس به من المترجمين العرب في فروع المعرفة المختلفة إلا أن المجيدين منهم قلة .

وبغية تكوين مترجمين أكفاء يحسن العناية بالترجمة في مراحل التعليم المتوسطة والثانوية من خلال تعليم اللغات وإحداث معاهد للترجمة بعد المرحلة الثانوية أو بعد مرحلة الدراسة الجامعية الأولى أو فتح أقسام خاصة بالترجمة في كليات الآداب لإعداد مترجمين كتابيين ومترجمين فوريين .

إن بعضاً من خريجي هذه المعاهد والأقسام يستطيعون ، إذا ما توفر لهم الميل والموهبة أن يمارسوا الترجمة العلمية والثقافية ولو في بعض الميادين .

ومن الممكن من أجل دعم الترجمة التخصصية أن تنظم دورات تدريبية مكثفة لمترجمين في مجال محدد كالطب أو الهندسة أو النفط أو الإلكترونيات .. تساعد على الإرتقاء بمستوي الترجمة وإتقان أساليبها وطرائقها .

كذلك يمكن للدولة أن تمنح جائزة تشجيعية في عام محدد لمن ترجم أفضل كتاب في موضوع ما أو تمنح جائزة تقديرية لمن قدم إنتاجاً مترجماً متميزاً .

٧- جمعيات المترجمين واتحاداتهم :

إن الترجمة عمل قائم بذاته ومستقل عن كل عمل آخر وتبعاً لذلك ينبغي أن يلتقي المترجمون في تنظيم مهني ، رابطة أو جمعية أو اتحاد . يرقى بمستوي العمل ويحدد واجبات المترجمين ويوحد صفوفهم ويدافع عن حقوقهم المعنوية والمادية . وقد دلت المعلومات التي تم الحصول عليها على وجود اتحاد للمترجمين في الجمهورية العراقية والجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية في حين أن المترجمين يقبلون أعضاء في اتحاد الكتاب العرب في الجمهورية العربية السورية وأعضاء في رابطة الأدباء والكتاب والفنانين في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية . ومن المستحسن أن ينشأ تنظيم نقابي خاص للمترجمين في كل قطر عربي ، ولا سيما في الأقطار التي يتوافر عدد كاف من المترجمين فيها ، ويعدنذ تلتقي هذه الاتحادات في اتحاد

التراث، ونقول مشكلة التراث، ونقول الاهتمام بالتراث . وهذه القضية لا يكاد مفكر عربي إلا وأدلي فيها بدلوه .

يقول الدكتور حسين مؤنس التراث يشمل ثلاثة أشياء : تراث يختص بالكتب والمؤلفات، وتراث العلم الذي انتقل إلى الغرب وبلاد العالم ، وأصبح جزءاً من حضارة العالم ، وتراث التقاليد والعادات والمأثورات ، وهو غير مدون في كتب وإنما يتمثل في الناس والأشخاص . فأما تراث الكتب فهو تراث جليل لأن أي أمة من الأمم الماضية لم تكتب من الكتب قدر ما كتب العربي ، ويكفي أن أذكر أننا نقدر أعداد الكتب العربية وأعني (المخطوطات الموجودة في مكتبات العالم العربي والإسلامي وخارجه) بنحو مليونين من المخطوطات بينما في المقابل لو أحصينا ما كتبه اليونان والرومان فلن نجد أكثر من عشرة آلاف مخطوط . إن تراثنا الحضاري العربي الإسلامي قد تناول كل نواحي العلم والمعرفة ، التي عرفت في العصور الماضية، ولم يترك العلماء العرب أو المهندسون أو المعماريون أو الحرفيون أمراً إلا وطرقوه وخاضوا في تفاصيله فالأمة العربية أبدت فعالية ونشاطا كبيرين في أوج تألقها . والمشكلة أن جانباً كبيراً من تراثنا غير محقق ولا مجموع .

ويفرق بعض الباحثين بين تيارين من التراث تيار يمكن أن نسميه التراث المتحفي علي حد تعبير الدكتور فؤاد مرسي ، وتيار يمكن أن نسميه التراث الحياتي . وهذا التراث الحياتي موصول وموجود في عروقنا كالدّم . إنه التراث المتحرك . ويمكن تلخيص العلاقة الإيجابية بين الكتاب والتراث في واقعنا العربي المعاصر في أربعة نقاط رئيسية هي :

١- تحقيق المفيد من التراث ونشره والمفيد هنا بمعنى المفيد لحياتنا الحاضرة فالدكتور زي نجيب محمود ، عندما يتناول قضية إحياء التراث يري أنه ليس من الإحياء في شيء إعادة طبع كتاب أصفرت أوراقه في كتاب أبيضض فيه تلك الأوراق . أو نقل (المادة) من (مخطوط) إلى كتاب (مطبوع) دون النظر إلى قيمة المخطوط والفائدة التي يمكن أن تجني من وراء تحقيقه ونشره أولاً وقبل أي شيء . وإنما الهدف من الإحياء أن يخرج قارئه ودارسه ه بروح يستمدّها مما قرأ أو درس لبيتها في حناياه ، فإذا هو مصطنع لنظره جديدة من شأنها أن تعقد الأواصر بينه وبين السلف الذي أحيينا تراثه حتى لو وقف من مضمون إرثه موقف الناقد أو المتشكك. فالقارئ لديوان المتنبي مثلاً قراءة إحياء يجب أن يخرج منها وقد سرت في عروقه كبرياء هذا الشاعر القديم . وقارئ (فكر المعتزلة) القراءة نفسها يجب أن يخرج منه إنساناً يعتد بإرادته الحرة التي أسبغت عليه كرامة الإنسان لأنها ألقت علي كتفيه تبعات الإنسان. إن هذا النوع من القراءة الإحيائية لا يحول ، بأية حال في أن تقف من شعر المتنبي والفكر المعتزلي موقف الناقد البناء الموجه .

ويري الدكتور شكري فيصل أن إحياء التراث ليس عملاً تاريخياً يرتبط بالماضي بل هو عمل يرتبط بالمستقبل . إنه ليس زينة وليس إشادة عاطفية ووفاء للأجداد وإنما هو سلاح للغد .

إنه نوع من الإعداد ولون من كسب الثقة بالنفس .

٢- البحث في التراث . أي كتابة بحوث عنه وحوله ، ونشرها لأنه جزء من الفكر الإنساني ويرى الدكتور يوسف بكار أن إحياء التراث بظل ضرورة علمية قومية حضارية إنسانية لكل أمة تقدر ما يستحق التقدير من تراثها وتحاول أن تفيد منه في حاضرها ومستقبلها ، وتقدمه للإنسانية (هدايا) تنم عن (مقدار مهديها) .

٣- نقد التراث حتي لا يصبح مثل الآبار المسجمة ، بغير علامات تحذر من يشرب منها أو مثل السير في حقل ألغام ، بغير خريطة تبين مواقع الألغام ، وسيل تجنبها .

٤- التنسيق بين البلدان العربية حول إحياء التراث ونشره . فما دام التراث ملكا للأمة برمتها ينبغي إذن التنسيق بينها في نشره . ولو في أبسط أشكال التنسيق . ففي معظم البلدان العربية مجالس وجمعيات وهيئات وإدارات تعمل في مجال إحياء التراث ونشره هذا إلي جانب الجامعات العربية ووزارات الثقافة والإعلام والإرشاد ومراكز البحوث والناشرين فإذا تكتفت الجامعة العربية ممثلة في منظماتها المتخصصة في التربية والثقافة والعلوم في وضع أساس للتعاون والتنسيق بين هذه الجهات ، لتحقق فائدة كبيرة . إن مجرد إقامة جسور بين هذه الجزر المتفرقة يجعل محصلة الجهد النهائي هي حاصل جمع الجهود الجزئية ، في حين أن عدم الربط بينها يقلل من جهدا بالتكرار والعشوائية والتخبط .

ويحذرنا الدكتور جابر عصفور^(١) من الأوهام التي تحيط بقضية التراث قائلا : خمسة أوهام تحيط قضية التراث في ثقافتنا المعاصرة :

* أول هذه الأوهام إننا نستشعر الغزاء في حاضرنا باللجوء إلي ماضينا ، بل إننا في واقع الأمر نفر من معضلات الحاضر الذي نشعر نحوه بالعجز إلي كهوف الجبال القديمة نلتمس في بعدها البعيد أماناً وهمياً ، فلم تعد جبال الماضي بمنأى ولا بحصن أو قلعة ، لدينا أزمنة اقتصادية وسياسية طاحنة نعجز عن حلها ولا نجد سوي الفرار إلي زمن أدبر بخيره وشره لم يفكر أصحابه إلا في مواجهة مشاكلهم ، ولا تجدي حلولهم نفعاً لما يواجهنا من مشكلات . هكذا تصبح العودة إلي التراث نوعاً من « التعويض » عن تعاسة حاضرننا . هذا هو الوهم الأول في رؤية جابر عصفور .

* أما الوهم الثاني فهو الخلط المتعمد حينئذ والعشوائي أحياناً بين الدين والتراث ، فالبعض يلجأ إلي أسياغ الصفات الدينية علي التراث مما يضفي عليه قداسة ليست له لأنه ببساطة من عمل البشر . وليس من بشر معصوم . وليس من عمل بشري يستحق أية صفات مطلقة يستعصي بها علي نسبية التاريخ وإمكانية الخطأ .

* والوهم الثالث ينسب علي افتراض أنه « الأفضل » بين تراثات الأمم ما دمنا « خير أمة أخرجت

(١) د. جابر عصفور - ندوة مستقبل الثقافة العربية - مسقط - ١٢ إلي ١٤ أكتوبر ١٩٩١ .

للناس . وهو استدلال متعسف من تفسير متعسف للآية الكريمة التي يشير سياقها إلى معني « الأمة » الوارد فيها إلى غير ما يتوهمه الذين يرون في أنفسهم مهما أتوا من المعاصي والكبائر والشرور « خير أمة » . لا ، ليست هذه الأمة في كل التاريخ وفي كل البيئات هي الأفضل . وإنما كانت الأمة في وقت من الأوقات ويمكن لها أن تكون في مستقبل الأيام كما كان الأخيار من المسلمين الأوائل في مقدمة الأمم الفضلى . لذلك لا يجوز الوهم بأن تراث أمتنا بخيره وشره في كل العصور هو « الأفضل » بين تراث الأمم في العالمين .

* والوهم الرابع إننا ننظر إلى التراث علي أنه « مرآة » نري فيها ما نريد أن نراه من ذات أنفسنا ، نسقط حضوره التاريخي لنجتز همومنا الخاصة .

* والوهم الخامس هو تبرير الحاضر السياسي علي أساس التراث ورفض كل جديد إلا بوصفه يجد شرعيته في الماضي .

ولقد كان من حظ الثقافة العربية ، وخط الدارسين للتراث أن العالم العربي الراحل الدكتور شكري فيصل ^(١) هو الذي قدم البحث الرئيس في هذا الشأن في الحطة الشاملة للثقافة العربية .

لقد بدأ هذا العمل الرفيع بقوله : شغلت المخطوطات العربية اهتمام المثقفين العرب علي اختلاف نزعاتهم . فالذين اجتذبتهم إليها الأصالة والذين شدّهم إليه التجديد بعيدا عن القديم ، والذين اهتموا بالجانب الأدبي والذين اهتموا بالجانب العلمي كل أولئك كانوا سواء في اهتمامهم بالمخطوطات والتراث عامة ، إقبالا عليه أو تنفيرا منه . إيمانا به أو تحديا له وخروجا عنه .

ثم يضيف قائلا : لقد تعودنا خلال ثلاثين سنة أو تزيد ، أن نبدأ بالحديث في مثل هذه الموضوعات بالتدليل علي قيمة التراث والدفاع عنه . والغريب أن الذين حملوا عليه كانوا علي أقل المعرفة به ، وأن الذين دافعوا عنه كانوا يصرون عن حدس داخلي وإحساس عفوي صادق بأثره أكثر مما كانوا يصرون عن تمرس به . وكلا الفريقين لم يكن يستطيع أن يضع يده علي التراث نفسه وأن يملأها منه . لأن كثرة ما نشر منه لم يكن قد نشر بعد . وإنما كانت هناك خفقات فكرية وراء هذا الموضوع تريد أن تتحكم فيه .

ثم يصل بنا الدكتور شكري فيصل إلي خطته للعمل في حقل التراث تحت عنوان معالم للعمل في التراث فيقول :

المتتبع للأعمال العربية المتراكمة تتبّع ملاحظة أو تتبّع مشاركة ، يخرج من هذه الملاحظات أو الممارسات ببعض الملاحظات . أبرز هذه الملاحظات وأوضحها أننا - في كل مرحلة جديدة أو ظرف جديد - نستأنف الطريق من بدايته .. فإذا جئنا مثلاً نعمل في حقل المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، تجاهلنا كل ما قيل من قبل ، وأنسينا كل ما كتب ، وبدأنا نعمل وكأننا أول الذين يزرعون الخطي في الطريق .. وقد تتراءى لنا آثار بعض الرواد قبلنا فتجاهلها ، وكأن كلاً

(١) الحطة الشاملة للثقافة العربية - المجلد الثالث القسم الأول - ص١٧٣ إلى ص١٩٥ .

منا يريد أن يكون الرائد الأول . إننا لم نتعود المتابعة ، ولا الاستفادة من جهود الآخرين الذي تقدمونا .. ونؤثر مشقة البدايات علي دماثة الطرق الممهدة .

١- العمل السابق في المخطوطات :

ومن هنا أسمع لنفسي أن أقول إن أبرز ما يمكن أن نفعله وأصح ما يمكن أن نفعله أن نتبين ماذا فعل الذين قبلنا في موضوع المخطوطات .. إن جهود الجامعة خلال وجودها في القاهرة لم تكن عبثاً من العبث ، وإني لأذكر من تفاصيل جهود معهد المخطوطات في الميادين المختلفة لهذا العمل ما يدفعني دفعاً إلي تقديره ، وإلي الدعوة لاستثماره ومتابعة خطاه ، وإصلاح ما يكون قد طرأ علي هذه الخطي من انحراف .

إن وصفاً دقيقاً ودراسة مفصلة لما فعل المعهد في أمر المخطوطات تبدو لي هي البداية المنطقية لعملنا وتفكيرنا .. ما دام العمل مرتبطاً بالتفكير ونتيجة له .

ولن تكون القرارات السياسية حائلاً بيننا وبين ذلك .. فما أكثر المتغيرات التي تخضع لها هذه القرارات السياسية .. فلماذا نكون أسري قبضتها .

ولست أدري إذا كان بين يدي اللجنة هذه الدراسة المفصلة لما فعل المعهد ، تجنباً لتبديد الجهد أو معاودته . ولذلك سأحاول أن أعرض تصوّري لما يمكن أن نقوم به ، مستنداً إلي واقع المخطوطات العربية وكنت جديراً أن أعرض لهذا الواقع . ولكنه من الشيعو بحيث لا أجد الحاجة إلي وقفة عنده . ومن ذلك يمكن تلخيص هذا الواقع بما يلي : المخطوطات العربية منتشّطة في الثنائيات التالية :

١- في البلاد العربية والبلاد الإسلامية .

٢- في البلاد العربية الإسلامية وفي البلاد الأجنبية (الأوروبية والأمريكية) .

٣- بعض الدول الأجنبية والإسلامية تسمح بالتعرف إليها ونقلها وبعضها لا يسمح .

٤- بعض المخطوطات تحت سيطرة الدولة وبعضها في ملك الأفراد .

٥- ما هو في سيطرة الدولة يتبع وزارات مختلفة في البلاد المختلفة ، ووزارات متعددة في البلد الواحد مثل وزارة الثقافة ، وزارة التعليم العالي ، وزارة الأوقاف ، ورئاسة الوزارة .

٦- ما هو في ملك الأفراد ، أفراد من العلماء يقدرونها ، وأفراد من عامة الناس لا يقدرونها .

٧- ومن الأفراد من يرغب في تقديمها ومنهم من يرضى بها .

ثم هي تخضع لثنائيات أخرى :

٨- فبعضها قد صوّر وبعضها لم يصوّر بعد .

٩- وما لم يصوّر : بعضه مما يمكن تصويره لوجود الآلات أو إمكانية وجودها . وبعضها مما لا

يمكن تصويره في الحالة الحاضرة .

١٠- والمصور بعضه مما يحتاج إلى تجديد بسبب مضي الوقت وبعضه لا يزال صالحاً .

ولا تقتصر هذه الثنائيات علي المخطوطات وحدها وإنما تتناول العناصر البشرية التي تعمل لها :

١١- فالعمل موزع بين الأفراد وبين الجماعات .

١٢- والجماعات بين أن تكون جماعات رسمية كالجامعات والمعاهد ومراكز البحث العلمي والمجالس العلمية أو أن تكون جماعات خاصة . والجماعات الخاصة عربية إسلامية أو عربية «جمعية المستشرقين الألمان» .

وأسلوب العمل كذلك يمكن أن يمدنا بفيض من التشعبات والثنائيات أو الثلاثيات .

١٣- فهناك مثلاً الأسلوب الذي يحرص علي أن يضيف إلي النص كل ما يحتاج إلي فهمه ولهذا الأسلوب منطقته ومسوغاته .

١٤- وهناك الأسلوب الذي يريد أن يخرج النص أقرب ما يكون إلي الصورة التي أرادها صاحبه دون أي تدخل من المحقق في الشرح أو التوضيح أو التعليق .

هكذا تتفرع الشجرة وتتعدد الأغصان متكاثرة ، وتخيم الظلل ، ويضل النظر إلي الثمرة إلا بعد تتبع دقيق .

إن هذه الثنائيات المتشعبة تنتهي بنا إلي حقيقتين :

الأولي : وهي تأكيد لما قدمنا من القول : لا بد من الاستفادة من الجهود السابقة .

الثانية : أنه لا بد من دراسة هذا الشعب في كل مرحلة من مراحل العمل التي سنتحدث عنها ، ودراسة أثر ذلك علي طريقة العمل .

ففي المرحلة الأولى ، مرحلة جمع المخطوطات مثلاً ، لا بد من دراسة الأوضاع القانونية في كل بلد والتلاؤم معها ، ولا بد من دراسة الظروف العامة والخاصة لكل مكان تتواجد فيه المخطوطات ، بغية التكيف مع هذه الظروف .

وفي المرحلة الثالثة ، مرحلة توظيف التراث يحسن أن نتابع ما كنا بدأنا به من قبل من مؤلفات أو سلاسل أو نشرات .

هذا كله عن تصوّر واقع ما كان أيام معهد المخطوطات . ولا بد كذلك من متابعة تصور واقع ما كان بعد توقف المعهد ... ذلك أن العمل للمخطوطات لم يتوقف ، بل لعله نشط نشاطاً بارزاً بعد غياب المعهد ، وأحياناً خلال وجوده في بعض البلاد والمؤسسات العربية .. فالذي أعرفه أن بعض الدوائر الجامعية في العربية السعودية تعمل بجهد نادر في تصوير مخطوطات أوروبية ، ووصلت إلي نتائج طيبة بفضل جهود أفراد بأعيانهم تدعمهم الدولة .

تصوّر العمل في المخطوطات

تصوّر العمل يأتي نتيجة لتصور الواقع ، وأحسبه كان يكون نتيجة للترقية الذي قُنيّت أن يكون بين الأيدي عما فعل المعهد وعما كان بعد توقف المعهد . ولا أشك في أن اللجنة أخذت بذلك أو متجهة إليه . وغيب هذا التقرير لا يعني أن نتوقف عن متابعة التصورات .. ففي حدود ما يعرف المرء يمكن تصوّر العمل وعرضه في المراحل التالية :

مرحلة التعرف .

مرحلة التعريف .

مرحلة التوظيف .

وسأوضح ذلك فيما يلي :

وأحسبني في غني عن أن أنبه إلي أن هذه المراحل ليست متباعدة أو منفصلة ، وليست كذلك محكمة في تدرجها وتناوبها ، وليس بينها هذه الجذر الحديدية .. بمعنى أن المرحلة الأولى منها يجب أن تسبق أي عمل يتصل بالمراحل الأخرى ، أو أننا لا نبدأ المرحلة الثانية إلا عقب إنجاز المرحلة الأولى .. فليس شيء من ذلك مما يمكن أن يكون في عمل يخضع لهذه التشعبات التي أشرت إليها .. إن العمل يمكن أن ينهض من نقاط متفرقة ، وأن يرتفع فوق سلسلة من الأعمدة تبني في آن واحد .

وأحسبني كذلك في غني عن أن أنبه إلي أن هذه المراحل إنما تتشعب عندي علي هذا النحو، علي أساس من نوعيّة العمل ، وإنها ليست تصوراً ذهنيّاً مجرداً ، وإنما هي منطلقة من الواقع الذي أشرت إليه . وأخيراً فإن ضبط هذه المراحل وامتحانها إنما يكون بتكاملها وعودة مرحلة علي أختها أو ابنة عمها بالفائدة .. وقياس نجاحها أو أحكامها يتمثل بهذا التكامل وضمان المردود الكامل لإحدى هذه المراحل علي المراحل الأخرى . وهذا تصوّر لهذه المراحل .

المرحلة الأولى: مرحلة التعرف

تتأتى هذه المرحلة عن الوصف الذاتي الذي أطلقته علي هذه المخطوطات حين قلت أنها متشظية مبشرة . ولذلك فإن من الطبيعي أن تكون الخطوة الأولى في هذا العمل إنما هي معرفة هذه المخطوطات . وتشمل هذه المعرفة : معرفة أماكنها ، ومعرفة أسمائها ، ومعرفة فهارسها .

أ - عن الأماكن : إذا تجاوزنا المراكز الكبرى التي تجمعت فيها هذه المخطوطات ، فإن هناك مراكز صغرى موزعة هنا وهناك تضم كذلك جزءاً من هذه المخطوطات ، وهناك مراكز وعواصم علمية إسلامية نحن علي مثل اليقين بأنها تنطوي علي ثروة من هذه المخطوطات .. ونحن في حاجة إلي مخطط جغرافي دقيق يدلنا علي هذه المراكز التي نعرفها والتي نحس وجودها .. في تركيا مثلاً أو في الهند أو في الجمهوريات الإسلامية من الاتحاد السوفياتي .

ب- عن الأسماء والفهارس : بعد معرفة المراكز التي تجمعت فيها هذه المخطوطات ، تكون المعرفة

بأسماؤها .. ونجد هذه المعرفة علي نحوين :

أ - فهارس منظمة علمية وصفية .

ب- جداول أو قوائم سردية .

وهذا يقودنا إلي عملية تجميع لهذه الفهارس المطبوعة أو تصوير لهذه القوائم ، علي نحو مستوف شامل .

المرحلة الثانية: مرحلة التعريف

تتداخل هذه المرحلة مع المرحلة السابقة . وأما التعريف فيتناول تعريف العلماء والباحثين بهذه المخطوطات ووصلهم بها . وبعض الطرق إلي هذا التعريف تكون عن طريق : طباعة أو تجديد طباعة ما يمكن طباعته من هذه الفهارس أو تصويره أو إعادة نشره علي شكل مضغوط مما تتيحه وسائل التقنية الحديثة: (الورق الخفيف - الحرف الأدق - طريقة الميكروفيش .. أو ما يماثلها) . فإذا تعذر ذلك أمكن للمعهد أن يتولي عملية التعريف بحيث ينشأ فيه قسم خاص للرد علي الأسئلة وتوجيه الباحثين . وأذكر هنا أنني كنت اطلعت علي كتاب بلغة أجنبية هو فهرس لكل فهارس المخطوطات العربية وتتد عن ذاكرتي الآن جزئيات التعريف به : الاسم ، المؤلف .

ومصدر هذا الرأي موصول بما أقدره من أن العمل في المخطوطات يجب أن يكون مشتركاً بين الأفراد والمؤسسات ، وإننا يجب أن نحذر كل تدبير يقود إلي استثثار السلطات بذلك وأن نحذر منه .. إن الجهد الفردي العربي جهد متفجر الإنتاج ، وخاصة حين تيسر له الوسائل . ولذلك فإن نشر مثل هذا الكتاب يفتح الطريق أمام الباحثين ويدفعهم إلي الرحلة في سبيل استكمال أدايتهم ، ويوجههم نحو الإطلاع المباشر ، دون أن يكونوا عالة ، في كل خطوة، علي معهد المخطوطات . واستعراض بعض التجارب يضعنا أمام كثير من الحالات التي استطاع فيها الأفراد أن يحققوا الكثير مما وقف المعهد دون تحقيقه .

صناعة الفهارس:

ومرحلة التعريف مرحلة تأسيسية لأنها تتناول التعريف بكل ما لم يعرف عن هذه المخطوطات . ولذلك فهي لا تقتصر علي إشاعة الفهارس بطريقة أو بأخرى ، وإنما يجب أن تتناول صناعة هذه الفهارس . ذلك أن كثرة من المخطوطات العربية في البلاد العربية نفسها لا تزال مجهولة .. وأنقاض منها مكدسة لم تر الطريق إلي فهرستها أو حصر أسماؤها .. ولذلك فإن عملاً كبيراً يواجه معهد المخطوطات هو الاهتمام بهذه الفهرسة . والفهرسة تحتاج إلي منهج نظري، وقوة بشرية . وقد سبق أن شاركت في ندوة عقدت في بغداد للاتفاق علي صيغة بطاقة الفهرسة ، وأحسب أن من الضروري أن توضع أبحاث هذه الندوة كلها بين يدي اللجنة لتكون من وثائقها . والاستفادة من هذا المنهج الذي أقرته الندوة يؤكد الفكرة التي كنت وقفت عندها ودعوت إليها وهي فكرة المتابعة . أما القوة البشرية فمن المؤكد أن هذا العدد يجب أن تجند له أفواج من

العاملين يختارون من مستوي معين ، وتقام لهم دورات تدريبية تغني معارفهم وتزدهلهم فنيًا وعلميًا وثقافيًا لهذا العمل ، ثم يوزعون في الأقطار المختلفة بعد التمهيد لهم في هذه الأقطار عربية إسلامية أو أجنبية.

وهذا العمل (الفهرسة) يقتزن ، في صورته الكاملة ، بالوصف .. ولكن وصف المخطوط نوع من دراسته .. وأعرف أستاذًا في ألمانيا الغربية أمضى سنوات في إعداد فهرسة مخطوطات « توينجن » أو علي الأصح في استكمال فهرستها لأنه كان مسبقًا إلي ذلك .. لأن عمله كان نقله لكل كلمة أو جملة أو إشارة في صفحة الغلاف أو في الخاتمة أو علي الهوامش ، من مثل أسماء الممتلكين له أو قارئيه أو الإجازات التي تنشر هنا وهنا أو ملاحظات بعض قرائه . وأجد المجال هنا طيبًا لإثارة قضية هامة في إحياء المخطوطات في مراحلها كلها هي :

مستوي العمل ، والتمييز ، في كل ما سنقابله ، بين مستويين : المستوي المثالي ، والمستوي العملي . المستوي المثالي في عملية الفهرسة إنها عملية علمية تقف عند كل ظاهرة في المخطوط في كل ما يتصل به : خطأ ومدادًا ، وجلدًا ، وتلكات ، وتعليقات ، وهوامش وإجازات وسماعات .. إلي آخر ما يتطلبه العمل العلمي الدقيق . والمستوي العلمي الذي يكون أكبر هدفه أن يعرف بوجود الكتاب ومعاله البارزة من أقصر طريق .

وفي عملنا في المخطوطات بل وفي عملنا الثقافي في جملته ، نحتاج إلي هذين المستويين.. يفرض ذلك جملة من العوامل : تكديس التراث وتكراره من نحو وإثنا في سباق مع الزمن ومحاولة لحاق بالركب الحضاري من نحو آخر .

وإنما يحدد أحد هذين المستويين الظروف التي نمر بها ، وطبيعة العمل ، ومدى جدواه ، وإمكانية تجزئة الصورة المثلي دون جور علي فائدته .

المرحلة الثالثة: مرحلة التوظيف

ماذا نعني بتوظيف التراث ؟ وكيف توظف هذه الثروة في حركتنا الثقافية ؟ وهل من سبيل إلي تحديد بعض الضوابط والقواعد ؟ ومن الذي ينهض بهذا التوظيف ؟

توظيف التراث يعني استخدامه الأمثل في حركة النهضة العربية ، في كل آفاق هذه النهضة وجوانبها . ولا يمكن أن يتم هذا الاستخدام إلا إذا نشر هذا التراث ، فتولي علماء إحياءه ليقدموه إلي زملاء لهم ، علماء آخرين ، يعرفون به ، يفيدون منه دراسة واستنتاجًا . ومن العسير أن نتبين سلفًا وجوه توظيف التراث قبل أن ننشره ، أي قبل أن يتفحص هذا التراث ، وأن يكون فكرة واضحة عن مضامينه .

ولكن توظيف التراث ليس مرهونًا بمعرفته فحسب ولكنه مرهون كذلك بالجور الثقافي الذي يرافق نشره ، والقضايا الفكرية المطروحة آنذاك .. إن هناك تزامنًا بين عملية توظيف التراث وبين حركة الفكر العربية وقضاياها التي تطرحها ظروفه ، وبين حركة الفكر العالمي وقضاياها التي

يطرحها تقدمه . فإذا جئنا نتحدث الآن عن توظيف التراث فنحن محكومون بطروفتنا واهتماماتنا ومقادير معرفتنا بهذا التراث .. وذلك كله يتسم بالجزئية والجانبية . ومن هنا يتبدى ، بوضوح آخر ، وجه الصعوبة ، ومعنى المغامرة ، في الحديث عن توظيف التراث قبل معرفته ونشره . غير أن ذلك لا يعني طي الموضوع أو السكوت عنه .. وفي وسعنا أن نتقدم ببعض الأفكار مستفيدين من الواقع العربي الذي نعيشه : من واقع التراث وما ننشره منه ، ومن واقع المعاناة الفكرية وما نواجه منها . ويعني آخر ، إننا - قياساً علي ما نعرف وما نواجه ، قياساً علي ما بين أيدينا وما نعاني - نستطيع أن نتمثل ميادين مختلفة لتوظيف التراث :

ففي ميدان الدراسات الإنسانية بعامة ، نجد الحاجة ماسة إلي التراث .. إننا واثقون من أن في طياته ما يساعدنا علي ضبط تاريخ الفكر العربي ورصد حركيته ، ومعرفة اتجاهاته .. فلا تزال جوانب من هذا الفكر العربي مستغلقة ، ولا تزال آفاق من آفاقه غائمة ، ولا تزال تفاصيل من حركته تخضع للأفكار العامة والأحكام الكلية .

وفي ميدان الحياة الإسلامية تبدو كذلك الحاجة ملحة لهذا التراث ، لدراسة أدق للشرح الذي أصاب الحركة الإسلامية في عهودها الأولى ، وتتبع أسبابه وأصحابه ، وفي موضوعية وتجرد . وفي ميدان الدراسات الإسلامية تاريخاً وفكراً ، وعقيدة وتشريعاً ، ونظماً وحضارة ، نجد ونحس أن أطرافاً كثيرة من ذلك لم تكشف بعد ، أو أن الذين تولوا الكشف عنها إنما نظروا إليها من زاوية ضيقة ، أو من نصوص دون نصوص أخرى ، أو من مصادر غير موثقة .. وغياب سيرة واضحة ودقيقة ومفصلة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم من أدلّ الدلائل علي هذا النقص الذي لا يسده إلا استكمال نشر التراث .

وفي ميدان الدراسات اللغوية والأدبية ، نزع لأنفسنا أننا فعلنا الكثير ، ولكننا حين ننظر فيما بقي جيبس الصحف المخطوطة لا نلبث أن نقول أن الذي لم نعرض له بعد أكثر من الذي عرضنا له .. وحسبك أنه ليس لدينا نشرات موثقة محققة للأصول الأولى في اللغة والأدب والشعر والنحو والغريب .

وفي ميدان الدراسات التاريخية ما أشد حاجتنا إلي عديد من الأصول والمصادر التي لم تنشر أو نشر بعضها .. وأي تحرك في هذا المجال لرسم التاريخ السياسي أو الحضاري يقتضي الاستعانة بكل ما في التراث من جزئيات لم تكشف بعد ، وذلك لاستكمال الصورة والتوثق من الأسباب .

وفي ميادين الدراسات العلمية نلاحظ أن الإسهام الذي قدمه العرب والمسلمون في حركة العلم مجهول أو كالمجهول .. لا في مرحلة الأخذ ولا في مرحلة العطاء .. لا في مرحلة الحفاظ علي الفكر الإنساني ولا في مرحلة إغنائه وتنميته وإضافة عليه .. وما أقل ما نعرف من دقائق ذلك ، وما أكثر ما يداخله من أحكام عامة ليس بين أيدينا تفاصيلها وجزئياتها .

وأياً كان الرأي في حاجة هذه الميادين جميعها إلي التراث ونشره ، فإن هناك حقائق أخرى

كبيرة في الحياة الفكرية تطلّ علينا دائما ، وتشدنا إلى استثمار هذا التراث دائما .. هذه الحقائق تتجاوز ضرورة معرفة الحياة العربية معرفة دقيقة للتوصل بتقدير الوجود العربي وتقييم أثره .. فقد بات واضحا أن الحياة العربية والإسلامية مظلومة في أذهان الغربيين ، وأن جملة من الأفكار السوداء الخاطئة والأحكام المضللة تخالط عقول رجال الفكر في الغرب في كل ما يتصل بالعرب والإسلام ... ثم تتبدى آثارها في صلات ما بين العرب والمسلمين من نحو والغربيين من نحو آخر .. إننا في الذهن الغربي ضحايا تصورات خاطئة وتعصب مقيت ..

ويجاوز الأمر الذهن الغربي إلى أسلوب التعامل .. فقد نهل الغرب من ثقافتنا وبني عليها ، وقدمنا له ثقافة أجداده الأولين وزدنا عليها .. ولكنه جاء ينظر إلينا نظرتة إلى شعوب ليس لها حظ من حضارة أو فضل عليها .. ثم أقام تعامله معنا على أساس هذه النظرة .. فإذا لم يكن من تعلقنا بهذا التراث إلا تصحيح هذه النظرة وإلّا الدعوة إلى قيم جديدة في التعامل الإنساني وتخليص الجماعة البشرية والإنسانية من هذا التعصب الظالم ومن آثاره ، وإنقاذ الشعوب العربية والإسلامية من عقد النقص التي خلقها الاستعمار ، وإطلاق قواها في دعم الركب الإنساني .. لو لم يكن للتراث إلا العمل على ذلك من خلال نشره ودراسته وتسخير لهذه الغايات النبيلة لكفي .

وكذلك نرى أن أماننا في توظيف التراث آفاقا واسعة .. بعض ذلك في نطاق حياتنا الفكرية الخاصة بجلالتها والقاء الأضواء عليها .. وبعض ذلك في نطاق صلاتنا الحضارية بالغرب .. وفي كلا النطاقين معاً يكون للتراث وظيفته العلمية الحضارية ووظيفته الإنسانية .

هنالك إذن هذه الصلة الوظيفية العضوية بين توظيف التراث ونشره .. فما من سبيل إلى تحقيق وظيفته إلا بعد نشره وما يقود إليه النشر من دراسات ، ومثل هذه الصلة تحملنا على أن نرى في مرحلة التوظيف هذه وجهين : أحدهما الوجه الذي يقابلنا وهو استثمار هذا التراث وتوظيفه ، والآخر الوجه اللصيق الذي يختفي وراء التوظيف ويكون بمثابة التمهيد له ، وهو الإحياء أو التحقيق والنشر . وذلك يقودنا بطبيعة الحال إلى الحديث عن عملية الإحياء والتحقيق والنشر .

وسيكون حديثنا محاولة جواب عن سؤالين كبيرين : ماذا ننشر ؟ ومن ينشر ؟ وكيف نشق طريقنا إلى ذلك من واقع هذا التراث وطبيعته دون أن نحمل عليه نظريات مفروضة ، وتصورات قبلية .

الإحياء والنشر:

يتراءى لي في البداية أن نشر التراث يمكن أن نلاحظ فيه قضيتين أساسيتين :

القضية الأولى:

وتتمثل في أننا ما دمنا نؤمن جميعاً أن النهضة الثقافية يجب أن تولي العلم عناية خاصة

بعد أن استبد بنا ، فترة طويلة ، الاهتمام بالدراسات الإنسانية .. لذلك فإن المبدأ الأول الذي نعتمده في مرحلة التوظيف هو : التوجه نحو التراث العلمي ، والحرص على كل ما بين أيدينا منه ، ونشره مصاحباً بدراسات مقارنة مع المعطيات العلمية الحديثة ، أو ممهداً لهذه المعطيات ، أو موصولاً بها علي نحو ما من أنحاء الاتصال .

إن مثل هذا التوجه نحو التراث العلمي (هل قلت التوجه ؟ .. لعلي أردت الأولوية) لا يعني أننا نفاضل بين الدراسات العلمية والدراسات الأدبية ، وأنتا نريد أن ندير ظهورنا للدراسات الإنسانية كما لو كنا ننكر أثرها في صياغة العقل العربي وتوجيهه .. إن شيئاً من ذلك لا يخطر لنا في بال .. لأننا لا نريد أن نخوض جدلاً عقيماً في هذه المفاضلة ، والبدئية التي ننطلق منها أن قطار الفكر العربي يجب أن يتحرك علي هذين الخطين المزدوجين المتوازيين اللذين يشاركان معاً في تسديد الثقافة العربية وترشيدها وبلوغ أهدافها ، والمجتمعات لا يمكن أن تقوم علي ساق واحدة دون أن تفقد توازنها .

القضية الثانية:

إن هذا التراث غزير غزير .. ونحن نحتاج إلي كل ما فيه ، حاجة تعرف واستثمار ، أو حاجة تعرف واستبعاد : والمدي الزمني لا يتسع لكل ما نريد منه .. وصراعنا مع الزمن ، وحركتنا نحو اللحاق بالحضارة وقتل ما انتهت إليه ، ومتابعة الركب الإنساني - كل ذلك يقتضي هنا شيئاً من تنظيم تقدم فيه الأهم علي الهام ، والأصيل علي الهجين ، والجوهري علي الثانوي .. إنه لا بد لنا هنا من قائمة أولويات ندعو إليها دون أن نلزم الناس بها .. الأجهزة الرسمية تأخذ بهذه القائمة وتتقيد بها ، والعلماء الأفراد يأخذون بالذي يهون .. وتنسجم عملية الإحياء علي نحو عفوي منتج .

إن هذه الدعوة إلي هذه الأولوية ليست متابعة أو تقليداً لمناهج أخرى .. وإنما هي دعوة تنبع من طبيعة حركة التأليف العربي . ذلك أنه من المعروف أن هذا التأليف كانت له تقاليده وأعرافه .. كان في كثير من الأحيان أقرب إلي المفهوم اللغوي للفظ (تأليف) .. أي أقرب إلي الجمع .. ولذلك نجد في التراث كثيراً من ظواهر التكرار .. وقد يرافق هذا التكرار شيء ضئيل من إبداع . وإذا كان هذا حقاً - وهو حق فيما أقدر عند عديد من المؤلفين وفي عديد من المؤلفات- فإننا مضطرون إلي الأخذ بمبدأ الأولويات . ولكن هل يتحقق ذلك أم أن تحديد الأولويات يقتضي نشر التراث نفسه .. إن المسألة تشبه أن تكون الدائرة المغلقة : فلتحديد الأولويات لا بد من معرفة دقيقة بالكتاب المنشور ومعرفة أدق بالكتب التي تعاقبت علي موضوع واحد .. وهي معرفة يصعب أن تتأتى إلا بعد النشر .. هل يجب أن نجد حلاً منذ الآن لهذه القضية أم أن سير عملية الإحياء نفسها سيهتدي اهتداءً ذاتياً إلي تقدير الأولويات ؟! قلت إن التراث غزير ، والجهات التي تقوم بالإحياء جهات محدودة .. فكيف ننهض بهذه الأمانة ؟

هنا نواجه الحاجة إلي جيل من المحققين يجب أن نعدّه . فالتحقيق صناعة علمية تحتاج إلي

الدربة ، وتحتاج إلي الموهبة ، وتحتاج إلي أقدار من المعرفة العلمية التي تتصل بموضوع الكتاب المحقق ، وأقدار من الثقافة العامة .. ولا بد للمحقق من هذه الأقدار الخاصة والعامة حتي يستطيع أن يبدأ بعد ذلك درسته وأن يصقل موهبته . ومعني ذلك أن هناك زادا يجب أن يتزود به المحقق . وهذا يعني أنه لا بد له من إعداد .. بعد أن توقفت المراكز التي كانت تنشي ، بطريقة عفوية ، هؤلاء المحققين .. ولا بد من الأخذ بيده ، وتزويده بالمعرفة ، وصقله بالدربة ، والوصل بينه وبين التراث وبينه وبين ما يحتاج إليه تحقيق التراث ، عن غير طريق المادة والتعريض والمرتب .

لقد مضى جيل من المحققين كانت تعدّه الحياة العربية بصورة عفوية بما كان من أساليبها في التعليم وطرائقها في التشقيف .. ثم لم نجد من يخلف هذا الجيل . وإذا نحن نعاني أشد النقص ، وإذا الجيل الجديد منصرف عن هذه الصناعة الثقافية التي تقع في الصميم من مجري الحركة الثقافية والحركة الفكرية .. لا ينصرف عنها لأنها تأكل نور عينيه فحسب ، فقد تحمل الحياة صاحبها علي ما هو أشد . ولكنه ينصرف عنها لأنه لا يملك أدواتها ولا يجد من يمهّد له السبيل لامتلاك هذه الآداة . واقتصر الأمر علي بعض (المريدن) الذي ظلوا أوفياء لأساتذتهم أو الذين عني أساتذتهم بتشتيتهم ، وعلي بعض الهواة الذين أحيوا هذه الصناعة .. ولكن عدد أولئك هؤلاء لم يبق كذلك دون ما يحتاج إليه الثقافة العربية ودون ما يحتاج إليه التراث العربي وهو يتطلع إلي النور والحياة ونفض التراب الذي أنقض ظهره وأثقل كاهله طيلة قرون . فما الذي نستطيع أن نفعله لتدارك هذا النقص ؟ .. هل نترك ذلك للظروف والزمن والمصادفات ؟ هل نستسلم للمقولة الشعرية : إذا مات منا سيد قام سيد .. ومن الذي يضمن قيام السيد الجديد في الحياة العملية ؟

هنا نجد أنفسنا في صميم الحاجة إلي التخطيط الشامل الذي نعمل له .. وهنا نواجه الحاجة إلي العنصر البشري الذي لا يمكن أن يستعار أو يستورد ولا تعوضه الآلات والأدوات والخبرات المشتركة . فكيف نصنع لإعداد هذا الفوج البشري الذي نحتاج إليه في إحياء هذا التراث الغزير . في تجارب الترائين أو المؤمنين بالتراث ، كان هنالك تجربة دعا إليها أستاذنا المرحوم أمين الخولي .. منطلقها أن التراث أمانة في أعناق المتعلمين جميعاً ، وأنه لا بد أن ينهض كل مثقف بنصيبه من هذه الأمانة .. وتتمثل هذه التجربة عملياً في أن تقترن كل أطروحة جامعية علي : الماجستير أو الدكتوراة أو الدبلوم ، بنصّ محقق إلي جانب البحث أو الدراسة . وقد وفق الأستاذ الخولي إلي إقرار ذلك ، وبخاصة مع الذين كانوا يعملون معه .. وحقق نتائج أدناها أنه أقام هذه الصلة بين التراث وبين كثير من الخريجين .. وعقد هذه الصلة معه كان كفيلاً بعد ذلك أن يؤدي إلي نوع من الميل إليه ، والإقبال عليه ، والتعامل معه ، عند مجموعة طيبة من هؤلاء الخريجين .

وأشهد ، بل الواقع يشهد ، أنه كان لهذه التجربة أطيّب النتائج .. إذ كان من ثمراتها أن أعلاماً من أعلام المحققين تخرجوا بهذه التجربة ، بها بدؤوا ومنها انطلقوا وعن طريقها كانت هذه الجملة الضخمة من كتب التراث التي أخرجوها محققة .

وفي تقديري أن للتجربة أساسها النفسي الذي يضمن - في أغلب الأحوال - نجاحها .. وغياب هذا النجاح أحياناً لا يقلل من أهميتها . فهل نكتفي بهذا الأسلوب ؟ قد يكون لهذا الأسلوب فضائله الطيبة وتنتاجه الإيجابية في التراث الأدبي .. لأن الدراسة الأدبية تهبه بعض أدواته ، وتساعد علي بعض خطواته .. أما حين نتحدث عن التراث العلمي الذي نحس أن نعني به فإن الأمر يحتاج إلي إعداد آخر . وحتى في التراث الأدبي نحس أن هذه التجربة متروكة للطالب ينهض لها ويتمرس بها من غير سابق إعداد .. والعمل الذي يتطلع إلي مردود قيم لا بد فيه من إعداد سابق يساعد علي بلوغ هذا المردود العالي . وإذن فلابد لنا من أسلوب آخر أمام الآفاق التي نتطلع إليها ، والشعور بمسؤولية التخطيط الشامل يقتضينا البحث عن هذا الأسلوب . من هنا تبدو الحاجة إلي أن يكون هناك ، من بين ضروب الدراسات العليا ، دراسة خاصة لإحياء التراث ، لها ما للدراسات الأخرى مما يشجع عليها ، ويدفع الدارسين إليها .. بدلاً عن المشتقات التي يعانونها والعزلة التي تفرضها المخطوطات والعمل لها ، علي أصحابها . وشروط هذه الدراسات ، إذا أردنا لها أن تكون مثمرة ، التفرغ لها .. وتفرغ الطلاب ، حتي لا تبدو وكأنها عمل إضافي أو فرعي أو لحق من اللحق .

هل نوزع العمل في التراث ؟

قلت قبل : إن التراث غزير غزير .. فكيف نوزع العمل فيه بعد أن يتحقق لنا إعداد هذه العناصر البشرية ؟ إن انقسام الوطن العربي ثقل هنا في جملة من الاقتراحات .. منها أن تنفرد بعض العواصم أو بعض الجامعات ببعض ألوان المعرفة .. فهل نلجأ إلي مثل هذا التوزيع ؟

في تقديري أنه يحسن بنا أن نترك لهذه الأشياء حريتها وطلاقتها وظروفها التي تكون وراءها والمناسبات التي تحتاجها .. إن وجود علم كبير في بلد أو جامعة يخلق حوله هالة من العاملين معه في مثل اختصاصه .. والتعامل هنا بين العلماء ومريديهم أو تلامذتهم يتم علي نحو طبيعي .. وقد يكون التدخل فيه ضاراً ، فيحجب قوة ناشئة أو يكرهها علي مسار غير المسار الأفضل لها أو الأجدر بها . وكل الذي ينشده أصحاب فكرة التوزيع هو الحؤول دون تكرار المجهود في التحقيق ، فلا يتعاقب محققان علي أثر واحد ، ولا ينشر الكتاب الواحد مرتين .

الحاجة هنا إذن هي الحاجة إلي التنسيق وليست الحاجة إلي التوزيع .. وإن التنسيق يمكن أن يتم عن طرق مختلفات ليس هنا مكان تفصيلها .. ومع ذلك فأنا أخشي أن تكون قضية التكرار هذه قد داخلها أقدار من التضخيم ، ومنحت من العناية فوق ما تستحق ، فحركة التحقيق لم تسجل ، خلال هذه العقود ، إلا مظاهر قليلة لهذا التكرار ، وفي مرات كثيرة كان هذا التكرار لمصلحة الكتاب المحقق .

آية هذا كله أن العمل في التحقيق والعمل للتحقيق لا يمكن أن يترك عملاً لا خطة له .. إنه، كما قدمت ، صميم مشكلة التراث .. واجهتها وخلاصتها .. ولذلك يجب أن يكون عملاً مفروضاً أو كالمفروض .. أن يكون مفروضاً في بعض مراحل الدراسة .. وأن يكون كالمفروض في

إعداد جماعة له ، وقصرهم عليه وتفرغهم له . وليس في ذلك شيء من إسراف أو مبالغة . لأننا إذا كنا نؤمن بأن المرحلة القريبة - بعد استقرار بعض المفاهيم وإقرار بعض المبادئ - هي مرحلة الكشف عن الذات الفكرية والنفسية والعلمية من خلال التراث الذي أفرزته هذه الذات ، فإن أقل ما يستتبعه ذلك أن تقصر عليه جهود ، وتعدّل له برامج ، ويفرد له ناس ، وينفرد به علماء وأخصائيون .

وأبعاً : الاتصال الثقافي :

١- ضرورة الاتصال الثقافي ومواقفه :

الاتصال الثقافي :

لا خير في إنهاك القارئ وإجهاده في البحث عن الفروق الأكاديمية بين مصطلحات الاتصال الثقافي ، والتفاعل الثقافي ، والتشاقف ، وغير ذلك من المسميات . ولكن تحديد المفهوم العام ضرورة للقارئ وللباحث حتى يكونا علي بيته من القول . لذلك فإنني أحدد مفهوم الاتصال الثقافي بأنه أوسع دوائر الاتصال . فإذا قلنا إن الإنسان يتحدث إلي نفسه ويخاطب ذاته كما يري صورته في المرآة فإن تسمية هذا الاتصال هي الاتصال الذاتي . ثم تتسع هذه الدائرة فيخاطب الإنسان أسرته ويتحدث إلي زملائه وأصدقائه ويكتب خطاباً لصديق أو يبعث برقية تهنئة لقريب ، فتسمي هذه الدائرة الاتصال الشخصي . وعندما يستخدم الإنسان الراديو أو الصحيفة أو الكتاب فإن ذلك يسمي الاتصال الجماهيري . وهذه الدائرة وهي دائرة الاتصال الجماهيري تليها أوسع دوائر الاتصال وهي الاتصال الثقافي . هي إذن اتصال ثقافة بشقافة أو اتصال حضارة بحضارة بوسائل تشترك مع وسائل الاتصال الشخصي والجماهيري أو تختص بها ، وبوسائل تكنولوجية أو وسائل قديمة عرفها الاتصال منذ بدء الخليقة . ولكنها في مضمونها اتصال بين ثقافات أو حضارات .

وفي علم الاجتماع عدد من المصطلحات ^(١) تقترب من معنى الاتصال الثقافي وفي الوقت نفسه تقرنا إلي مفهومه المعاصر . يستخدم مصطلح الانتشار الثقافي Cultural - Diffusion للدلالة علي انتقال عنصر ثقافي ، أو مجموعة من عناصر البناء الثقافي ، من جماعة محلية إلي جماعة محلية أخرى ، سواء كان ذلك في إطار المجتمع الواحد أو فيما بين مجتمعات منفصلة ومتمايزة . أما مصطلح الانتشار Diffusion فقد استخدم في علم « الأنثروبولوجي » (تاريخ الإنسان الثقافي والتكنولوجي) للدلالة علي امتداد عناصر بعينها من ثقافة ما إلي ثقافة جماعة أخرى ، إما بشكل فردي بمعنى امتداد عنصر وحيد ، أو بشكل جماعي أي امتداد شبكة متداخلة من العناصر ، بحيث تتأثر جماعة أجنبية بعناصر ثقافة أخرى . وقليل ما يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلي انتقال عناصر الثقافة في إطار الجماعة الواحدة . وربما كان ويليام روبرتسون - عالم

(١) مصطلحات فكرية - جريدة الأهرام بتاريخ ٧ - ٣ - ١٩٨٦ وتاريخ ٤ - ٩ - ١٩٨٦ وتاريخ ٣٠ - ١٠ - ١٩٨٧ وتاريخ ٨ - ١٢ - ١٩٨٩ .

الاجتماع واللغات البريطاني في القرن الثامن عشر (١٧٢١-١٧٩٣) هو أول من استخدم فكرة « الانتشار » لتفسير التشابه الشديد إلى درجة التطابق بين عناصر ثقافية بعينها لدى قبائل وشعوب أمريكا الشمالية ، وجزر المحيط الهادي ، وشمال وجنوب شرق آسيا . ورغم ذلك فقد كان روبرتسون نفسه هو الذي اقترح فكرة : تشابه الظروف المناخية ، وتشابه الحالة الاجتماعية وبنية المجتمع والتطور التكنولوجي عند جماعتين متباعدتين مكانيا ، ولكن التشابه يفرض « حلولا » وأشكالا من التلبية للحاجات متشابهة أو متطابقة . وفي القرن التاسع عشر ، كتب الأب فيلهلم شميث (١٨٦٨ - ١٩٥٤) الذي عاش حتى منتصف القرن العشرين كتابه : منهج التاريخ الثقافي للسكان ، الذي أكد فيه نظرية الانتشار ، واقترح وجود عدة « أصول » جذرية متعاصرة للثقافة الإنسانية كلها ، ثم ظهور منابع فرعية تنتشر عناصرها الثقافية بعد ذلك (مصر، وادي الرافدين ، وادي السند ، جبال كانتون ، ساحل الأناضول ، سواحل اليونان ، والساحل اللبناني ، اليمن ، روما ... إلخ) بحيث تبدو الثقافة الإنسانية - تاريخيا - في صورة دوامة رئيسية ، تتكون إلى جوارها دوامات فرعية ، تصبح رئيسية بدورها في مرحلة بعينها بينما تصبح الدوامة الرئيسية الأولى فرعية أو تلاشي ، وهكذا بشكل متتابع ومتسلسل .

المصطلح الثالث هو التفاعل الثقافي Acculturation وكان علماء الاجتماع البريطانيون يستخدمون مصطلح « الاتصال الثقافي » Culture Contact للإشارة إلى عملية اكتساب الفرد أو الجماعة (أو حتى المجتمع بأسره) الخصائص الثقافية لجماعة أو لمجتمع آخر من خلال الاتصال والتداخل . ولكن علماء الاجتماع الأمريكيين رأوا أن تعبير « الاتصال » بالمعنى البريطاني يعني تأثير « الطرف الأضعف » بثقافة الطرف الأقوي إما لتفوقه السياسي والاقتصادي أو لتفوقه التكنولوجي . دون أن يتأثر الطرف الأقوي ؛ وعلى ذلك رفضوا المفهوم البريطاني واستبدلوا به مفهوم « التفاعل » الذي يعني تبادل التأثير بين مختلف الجماعات أو المجتمعات بصرف النظر عن قوة كل منهما السياسية أو الاقتصادية أو التكنولوجية . ومن وجهة نظر فردية، فإن عملية التفاعل الثقافي أشبه بعملية « التعلم الاجتماعي » حيث تتعلم جماعة أساليب وقيم جماعة أخرى ، أو أشبه بعملية تعلم الفرد لغة جديدة تدفعه إلى اكتشاف أساليب للتفكير وتنظيم أفكار لم يكن يعرفها . ولكنها من وجهة نظر اجتماعية تتضمن عملية التفاعل الثقافي انتشار القيم الأكثر صلاحية لمواجهة الحياة وتلبية احتياجاتها في مرحلة تطور أو في وضع تاريخي بعينه من وجهة نظر الجماعة الناقلة للقيم والأساليب الفنية للعمل والإدارة ، والمؤسسات بما تتطلبه عملية النقل والتفاعل من تعديلات في بنيتها وسلوكياتها وقوانينها طبقا لتغير الظروف . وقد تؤدي عملية التفاعل إلى « صراع ثقافي » بين قيم ومؤسسات وأساليب عتيقة وإن كانت أصيلة - وبين الأخرى المكتسبة الجديدة - التي لا بد من عملية فرز اجتماعية ومنهجية طويلة لمعرفة ضرورتها وفائدتها أو ثانويتها وضررها . كما تؤدي إلى تعميق الاقتباس والنقل بما يقوي الخصائص الثقافية الأصلية ويدعمها ويساعدها علي التطور والصمود ، أو قد ينفىها تماما إذا كانت قد أصبحت بائدة ومتخلفة وغير صالحة لمواجهة التطور الجديد - خصوصا تطور أساليب

العمل والحياة . ولم تتطور نظرية التفاعل الثقافي بسرعة إلا مع ظهور أعمال كل من مالبينوسكي وفورتنس في بريطانيا - منذ الأربعينات . وريدفيلد ولينتون في الولايات المتحدة منذ الخمسينات ، التي أدت إلى النظر للثقافة - نظرة وظيفية - باعتبارها نظاماً أو نسقاً محكوماً . وليس مجرد « تجمع » لخصائص وأنشطة منفصلة ، وبذلك أصبحت « الثقافة » والتفاعل الثقافي ، من العوامل المهمة في فهم وتفسير التغير الاجتماعي ككل .

والمصطلح الرابع هو الانتشار الثقافي Cultural - Diffusion ويقصد به انتقال عنصر ثقافي ، أو مجموعة من عناصر البناء الثقافي ، من جماعة محلية إلى جماعة محلية أخرى . سواء كان ذلك في إطار المجتمع الواحد أو فيما بين مجتمعات منفصلة أو متمايزة .

وهذه المصطلحات وغيرها محطات في طريق العلوم الإنسانية تقرب لنا المصطلح أو المفهوم الذي نتحدث عنه وهو الاتصال الثقافي لأنه أشمل وأوسع ولأن الاتصال يعني التبادل والتفاعل ، الأثر ورد الفعل .

فالدكتور سيد عويس ^(١) مثلاً « يؤكد علي أن حضارة مصر هي أول حضارة إنسانية أعطت العالم الكثير وإنني لا أذكر ذلك وأؤكدده عيشاً . فعبارة « اعرف نفسك » التي تنسب للفيلسوف اليوناني « سقراط » « ٤٦٩ - ٣٩٩ ق . م » كانت معروفة عند المصريين القدماء ويعلمها علماءهم ومكتوبة علي جدران معابدهم ، وإن « الفضائل الأساسية » المنسوبة للفيلسوف اليوناني « أفلاطون » « ٤٢٨ - ٣٤٨ ق . م » وهي الحصافة والعدل والاعتدال « ضبط النفس » والجلد قد نسخها هذا الفيلسوف وهو يدرس « العلم المقدس » عن أيدي الكهنة المصريين لمدة ثلاث عشرة سنة ، وإن علوم اللغة والبلاغة والمنطق والحساب والموسيقى والفلك كانت العلوم والآداب المصرية التي نقلها الإغريق . وإن الطلبة الإغريق قد عبروا البحر ليصلوا إلي مصر للدراسة والاطلاع في المكتبات المصرية ، وإن الفلاسفة اليونانيين لم يرحب بهم في بلادهم وبدأوا يحضرون إلي مصر للدراسة منذ عام ٥٢٥ ق . م وإن بعض أعمال الفيلسوف أفلاطون أخذت من « كتاب الموتى » المصري « منذ ٥٠٠ عام » وإن علم اللاهوت المنفي « نسبة إلي منف » مصدر الكثير من الفكر الإغريقي . »

هكذا يسيل التراث الإنساني الثقافي من مجري إلي مجري ليصب في نهر مشترك . لذلك فإن الاتصال الثقافي واقع تاريخي وفي الوقت نفسه ضرورة معاصرة .

والمشكلة هي كيف نفرق بين الاتصال الثقافي ومن الغزو الثقافي كما عرضنا ذلك في الفصل الأول . وكيف يمكننا أن نفرز ونفصل كلا منهما عن الآخر فتتجنب الغزو وتتفاعل مع الاتصال ونثريه بالتأثر به والتأثير فيه .

ولم تغفل الحطة الشاملة للثقافة العربية العلاقة الجدلية بين الغزو الثقافي وبين الاتصال الثقافي فقالت ^(١) : ليس البديل للغزو الثقافي هو الانغلاق ، لأنه غير ممكن من جهة ، ولأنه

(١) د . سيد عويس - من صور الغزو الثقافي - جريدة الأهرام بتاريخ ١٦ - ٢ - ١٩٨٥ .

انقطاع عن الإنسانية وإفقار للوجود الذاتي من جهة أخرى . وليس البديل هو الاستسلام المطلق والذوبان في الآخر ، وتبني الأنماط الوافدة ، لأنه ينتهي بدوره إلى النتيجة ذاتها من ضياع الوجود الذاتي ، بالإضافة إلى خسارته الإنسانية ، لأنه يلغي تعدد الرؤى الثقافية بمحاولة فرض لغة واحدة ، وأسلوب حياة واحد ، وإحلال فكر دخيل محل الفكر الأصيل . وهكذا فالتحدي الكبير أمام العالم الثالث ومنه البلاد العربية ، هو الحفاظ على التنوع الثقافي الإنساني ، بإبراز وتأكيد الهوية الحضارية للأمة ومتابعة العطاء المبدع من خلالها .

ونقضي الخطة الشاملة للثقافة العربية قائلة : برغم اعتقادنا الجازم بأن الثقافة إنما تأمن علي نفسها بالعطاء والإبداع والامتداد لا بالمداغة والتحصيل ، إلا أن النقلة من حالة الضعف الثقافي وهو ما نحن فيه اليوم - إلى حالة العطاء ، تفترض وجود نوع من الأمان يحمي الإبداع حتي يقوي ، والعطاء حتي يستحصد . إن بنين الثقافة الموجودة في مختلف أقاليم الوطن العربي ، بما دخل عليها من التخلخل ، ليست من المثانة والأصالة ، بحيث تصمد أمام التدفق العنيف للتيارات الثقافية الغربية بخاصة ، والوسائل التقنية القاهرة التي تستخدمها . وهكذا فاتخاذ وسائل الحماية ، في هذه المرحلة هو جهد مطلوب قوميا ، تمكيننا للثقافة العربية من أداء دورها الحضاري . وهذا هو اللباب في الأمن الثقافي .

وعن شروط الحوار الثقافي تقول الخطة ^(١) إن الثقافة حق من حقوق الإنسان الأساسية ، وتكافؤ الفرص بين الثقافات شرط من شروط التعاون الدولي والإنساني ، كما أنه الأساس في العطاء الثقافي المتنوع والإيجابي البناء ، ولا يقوم الحوار البشري المشتمل إلا باتصال الحوار ، وتداخل العلاقات المتكافئة ، بين الثقافات تعزيزا لتفاهم الشعوب ، وإثراء لعطائهما . ولهذا كله لا بد من توطيد الأمن الثقافي بين الشعوب عامة ، ومن دعم قيم الثقافة العربية خاصة وذلك :

١- بمقاومة محاولات الطمس والتشويه للثقافة العربية ، وبالقضاء علي جميع مظاهر السيطرة الثقافية الأجنبية .

٢- بتعزيز الهوية الثقافية العربية ، وذلك بدعم اللغة العربية ، وتنشيط التنمية القومية ، ورفض الهيمنة الثقافية الأجنبية .

وقد ذكرت الخطة عبارة جديرة بالاعتبار وهي أن الحوار تقليد ثقافي عربي عريق . وأن هذا التقليد الراسخ في الثقافة العربية قد أضحي اليوم ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة ، يحتمها الواقع ، وتفرضها العلاقات المتزايدة بين البشر . فإن التطور الفائق السرعة الذي حققته التقنية في مجال الاتصال بين الأمم والشعوب لم يجعل الحوار والتعاون ممكنين فحسب ، ولكنه جعلهما فرضين إلزاميين أيضا . يضاف إلي هذا أن الثقافة إنما تنمو ، وتزدهر ، وتزداد إشعاعا وقيمة في

(١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الخطة الشاملة للثقافة العربية (مرجع سابق) ص١٤٣ ، ص١٤٤ .

(٢) المرجع السابق ص١٤٥ ، ص١٤٦ و ص١٤٤ ، ص١٣٥ .

الحضارة الإنسانية بقدر تفاعلها مع الثقافات الأخرى ، وبما تقدمه لتفاهم الشعوب وتعاونها مع إسهام في إغناء الحضارة . وهذا المفهوم العربي للثقافة والمنفتح بشكل تلقائي علي ثقافات العالم قد يتناقض مع ثقافة الغرب التي تدعي أنها الثقافة الأولي والأخيرة وأن ما عداها من ثقافات في العالم لا قيمة كبيرة لها حقا ، إن هذا النمط الثقافي الغربي ليس بالكامل وليس بالنهاي . وبالرغم مما أعطي الإنسانية من الرفاهية والرخاء المادي ، فإنه قد أضاع عليها الكثير من الفرص . وإن في العالم ، ولدي العرب ، كما لدي الجماعات الإنسانية الأخرى ، في الصين ، أو في الهند ، وأمريكا اللاتينية أو إفريقية رؤي ثقافية وحضارية أخرى ، ومسالك من الفكر والفن والروح من شأنها إذا ما امتزجت بها الثقافة العربية الإسلامية ، وتعاونت معها ، أن تغني في ذاتها ، وأن تغني الثقافة الإنسانية من ورائها . وتمنح الإنسان أبعادا جديدة ومستقبلا أكثر إشراقا .

ويري بعض الباحثين العرب ^(١) أن التفاعل الحضاري جهد إيجابي شاق في الدراسة ، والبحث والتمحيص للحضارة الحديثة ، ثم في الاختيار والانتقاس ثم في الأقلمة والتكيف مع خصائص الحضارة الأصلية ومع ظروف البلاد .

وقيل التفاعل الحضاري يحدث عادة ما يمكن أن نسميه التحدي الحضاري . والتحدي كما يقع بين حضارتين مزدهرتين يقع أيضا بين حضارة متفوقة وحضارة متهاكلة . وأمام هذا التحدي يحدث أحد أمرين : الأول أن يواجه أبناء الحضارة المتهاكلة هذا التحدي مواجهة إيجابية بالتفاعل الواعي أي بالأخذ والعطاء ، والثاني المواجهة السلبية بطرفيها : الرفض المطلق أو الخضوع المطلق . وفرق كبير بين إدانة الغزو الفكري الاستعماري وفضحه وكشفه وبين الموقف السلبي العام من الحضارة الحديثة . والحل بين الاثنين يعني إقامة حاجز سميك بيننا وبين الفكر الإنساني .

والكاتب الإسلامي الدكتور مصطفى محمود ^(٢) يرحب بالاتصال الثقافي ويرى إنه ضرورة جغرافية لتوسطنا في العالم . وضرورة حضارية ولكن مع الوعي بالغزو الثقافي وأهدافه وأساليبه . لابد أن نضع علي عقولنا مصفاة ناقدة ترشح وتنقي وتجادل وتناقش كل ما يلقي إليها . لابد أن نعيش في رباط . ونضع علي ثغورنا الشرطة والعيون . شرطة عقلية لا شرطة قمعية وعيونا تأملية لا عيون بوليسية وحراسة جدلية لا حراسة عسكرية حراسة تناقش الفكر بالفكر وتقابل النظر بالنظر . التعددية الفكرية مطلوبة فالله أراد بالدنيا أن تكون مائدة غنية متعددة المأكول والمشارب ليبتلي اختيارنا ومواقفنا . ولو كانت هناك فكرة واحدة سائدة لما كان لحرياتنا معنى .

والإسلام كفكر لا يخشي الالتحام ولا يهاب المواجهة . بل إن نقاء جوهره لا يظهر إلا بالالتحام وطاقاته لا تنفذ إلا بالاحتكاك وقوته لا تتجلى إلا بالتحدي ورأيه لا يسود إلا بانكسار الآراء الأخرى في معارك حرة محايدة . فأنا مع الانفتاح الكامل لكل من الوعي التام في

(١) عبد الحليم محمد أحمد - خواطر حول أزمة العقل المسلم المعاصر - مجلة المسلم المعاصر - العدد الأول نوفمبر ١٩٧٤ .

(٢) د. مصطفى محمود - عن الغزو الثقافي وكلام الوزير - جريدة الأهرام - بتاريخ ٢٠ - ٧ - ١٩٩١ .

ذات الوقت بحقيقة وخطر الغزو الفكري .. ورفاعة الطهطاوي لم يفقد نفسه كما فقد سلامة موسي نفسه في باريس ولم يفقد جذوره في أول لقاء مع نيتشه ودارون وماركس وفرويد كما فقد سلامة موسي جذوره ولم يقل كما قال سلامة موسي :

كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وزاد شعوري بأني غريب عنه وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها أريد من أدينا أن يصبح أديبا أوروبا وأريد من نساتنا أن يصبحن نساء أوروبا . هذا رجل أصابه الطمس الكامل والمحو الكامل ففقد وجهه وأحشاه وهويته وذاتيته فلم يبق منه شيء . وهناك كثيرون يؤمنون بهذا المذهب السلاموني مثل إخواننا الذين جلبوا لنا بضاعة الاشتراكية البائرة وروجوا لها . ولكن الأسوياء ينظرون إلي كل جديد وافد بمصفاة العقل والنظر . ومن أمثال هؤلاء ، رفاعة الطهطاوي والشيخ محمد عبده والعقاد والحكيم وطه حسين ونجيب محفوظ ، هؤلاء رسل تنوير أخذوا النافع والمفيد من كل جديد وانتقوا الصالح من كل حضارة وتبذوا الضار والباطل ، فأثمرت أفكارهم في النهاية ثمارا مصرية وفاكهة عربية ، ولم تفقد جذورهم هويتها ولم تفقد صلتها بالتربة العربية ولا بالأرض المصرية العريقة ولم تنطمس بصائرهم ولم تذب شخصهم . ومن هؤلاء كان الشيخ سلامة حجازي وسيد درويش وعبد الوهاب . كانوا نجوم تنوير في الموسيقى وسفراء تجديد في النغم أخذوا من الغرب وتعلموا منه دون أن يفقدوا مذاقهم وشرقيتهم . وقد احتفظ كل منهم برأسه في طوفان الجديد الوافد لأنه كان يؤمن بأنه غني في ذاته وأنه يملك شيئا أصيلا وأن له حضارته وجذوره وعطاءه .

الإيمان بالهوية الذاتية والثراء الحضاري كان حصنهم وحمايتهم . واليوم .. الانفتاح أصبح حقيقة ، ولم نعد في حاجة للسفر إلي باريس ، لأن باريس تقتحم علينا غرف نومنا ، وتدخل علينا لندن من تحت الباب ، وتنقض علينا أمريكا من القمر الصناعي . العزلة غير ممكنة والتفوق مستحيل والرفض غير مجد . وأيضا الاستسلام للأفكار الغازية وأخذها بالأحضان وتشربها بلا تمييز النافع فيها والضار هو انتحار حضاري .

إنما الموقف السوي هو اليقظة والوعي والإيمان العميق بالذات والإيمان بالهوية التاريخية .. فمن تلك الهوية التاريخية خرجت أنوار النبوات وأشرقت المعرفة الإلهية علي العالم .. فكيف نتقازم . مفتونين أمام الدمي الالكترونية واللعب الفضائية الوافدة علينا من الغرب ، إن لهم علومهم ولكن لنا نحن أيضا علومنا .. ولهم تراثهم ولنا تراثنا . ونحن نستطيع أن نضيف أكثر مما أضافوا . ومن هذا المنطلق من الندبة نستطيع أن نأخذ ونعطي ومن هذا المنطلق يثمر تلاقح الثقافات نبثا جديدا « .

وفي ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي التي عقدت في مسقط

في إبريل ١٩٨٥ وقف الدكتور عبد العزيز كامل^(١) أمام التعابير الثلاثة : الحوار الحضاري . التحدي . التفاعل ، وقال إنه سيستخدم تعبير الحوار لأنه في نظره هو المفهوم الشامل ، حتى إن الحرب - كما يقول - في أحدث تعريفاتها حوار بين القوي . ويقول : إن الحوار الحضاري لا يقف عند الحدود السياسية في عصر أصبحت فيه أجهزة الاتصال وأقمار الفضاء في حوار دائم لا يعرف الحدود . وأصبح العالم كله عند أطراف أصابع الملايين ، وأمام أعينهم علي شاشات التليفزيون والكمبيوتر والتلكس . ولكن مع كل هذه الأمواج والشبكات علينا أن نجد طريقنا . تماما كما يتخير الريان الماهر طريقه بين الموج والصخر والشطوط والشعاب . نحن فعلا في حاجة إلي «خرائط حضارية» نستعين بها علي مسارنا ونضيف إليها الجديد . ونحذف منها ما جرفته تيارات الحياة .

وللدكتور عبد العزيز كامل^(٢) دعوة في مواجهة الغزو الثقافي يسميها وقف النزيف الثقافي العربي الناتج عن الصراعات السياسية .. وهو يبسط دعوته قائلا : لا يشترط في الغزو الثقافي أن يكون من الخارج ، فالتمزق الداخلي لا يقل عنه خطورة ، إن لم يزد . ونحن نقرأ قول الله تعالى ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ (الأنفال:٤٦) . أليس من الغريب أن نجد اثنين من المسلمين من مذاهب دينية مختلفة يتحدثان بكل الحذر ، ويخشى كل منهما الآخر .. بينما إذا جلس أحدهما إلي أوروبي أو أمريكي أو ياباني كان منطلقا في الحديث والتعبير والمؤانسة ؟! لاحظت ذلك في أكثر من مؤتمر دولي . وأحسست أن هناك حواجز نفسية أو أسوارا نفسية تعزل قطاعات المسلمين فإذا جمعهم نظر تعاملوا بهذا الحذر والتوجس .

وكأن النزف في الجهود الثقافية يقابله حصر في جهود أخرى ، يفقد بها الفكر العربي والإسلامي الكثير من توازنه وكفاءته في مقابلة الحياة وتحدياتها والحوار الناجح في قضاياها .

كيف تستطيع مناهج التعليم وأجهزة الإعلام وحملات التأليف أن تقابل هذين العدوين : النزف والحصر . وأن يلتقي العرب والمسلمون علي حوار سواء ؟ هذا هو الإطار الذي يحمي جهودنا في اللسان والتنمية والتقدم في آفاق العلم . ومن المحتوى والإطار تتكون خطوط الدفاع أمام الغزو الثقافي ونستطيع أن نحفظ بذاتيتنا الثقافية وأن نرعى تنميتها دون انغلاق عن الحياة ، ولا ذوبان في تيارها المتدفق ، ويزدهر في مجتمعنا حوار بلا أسوار يكون عوننا علي اجتياز عقبات الطريق .

يقول الدكتور^(٣) عرفان عبد الحميد رئيس قسم الفلسفة بجامعة بغداد (١٩٨٥) إن

(١) د. عبد العزيز كامل - وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي - مرجع سابق - ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق - ص ٦٣ ، ٦٤ ، ص ٦٥ .

(٣) وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي - مسقط - سلطنة عمان - في الفترة من

١ - ٣ شعبان ١٤٠٥ هـ الموافق ٢١ - ٢٣ إبريل ١٩٨٥ - الناشر - مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض ١٩٨٧ - ص ٣١٩ - ٣٣٣ .

الدخول في حوار فكري مع حلقات الفكر العالمي لتحقيق المعاصرة لم يكن في عالمنا العربي المعاصر وليد تطور ذاتي وتاريخي لمنطق الأحداث في بنية الفكر العربي نفسه ، بل قام تحت وطأة عوامل نفسية يمكن أن نصلح عليها بعقدة محاكاة الغرب Westernization وفي ظل ظروف اتسمت بالتقهقر العربي ، وهكذا جاءت دعوة المعاصرة مبتسرة ، ولا تعبر عن حاجة طبيعية لأمتنا العربية بقدر ما كانت تمثل جنوحا فكريا وخضوعا للفكر الغربي .

ويحاول الدكتور عرفان أن يؤصل دوافع الإخفاق في الحوار الحضاري بيننا وبين الغرب في نقاط جوهرية علي النحو التالي :

* إن التاريخ في تراثنا العربي الإسلامي قد ارتبط بوثائق متين بالعقيدة والرسالة . لأن انتصارات العرب الخلافة المبدعة في الحياة ممثلة ومشخصة في إقامة الدولة بمؤسساتها المعقدة ، وفي انتشار القوة والسيادة ، وفي ازدهار العلم والثقافة والحضارة ، كل ذلك قد ارتبط في الوعي العام المشترك للأمة بالعقيدة والرسالة . وهكذا ساد تصور عام بأن الالتزام بالعقيدة ينتج عنه لزوما التقدم في ميدان الحياة العملية . وأن عدم الارتباط الأمثل بالعقيدة يؤدي إلى الإخفاق في التعامل الموضوعي مع الواقع المادي وشروطه . وهكذا تقلصت المسافة الفارقة الفاصلة بين ما هو فكر وواقع أو عقيدة وتاريخ ، بل إن المفهومين توحدا إلى حد التطابق ، فالعقيدة والرسالة والحضارة والسلوك والثقافة والتاريخ ، كل ذلك حزمة واحدة ووحدة جامعة مشتركة في بنية الأمة العربية ، يصعب فصله ، ولهذا فقد تحول الواقع إلى ساحة اختبار وميدان تجربة لصدق الوفاء بالرسالة منهجا وسلوكا .

أما الغرب فالأمر علي ساحته خلاف ذلك تماما . فالغرب في تقاليده الفكرية وبنيتة الحضارية ثنائي النشأة والتكوين . فقد اعتمد علي مقومات حضارية جذورها يونانية - رومانية خالصة ، أما العقيدة الدينية ممثلة في المسيحية ، فشرقية الأصل والمنابت ، لذلك ظل خط الفصل والتمايز بين الواقع الغربي العلماني في مفرداته وتفصيله ، والرسالة الشرقية الروحية في تعاليمها وقيمتها واضحا ومؤكدا وثابتا ومتصلا .

وكان التاريخ الأوربي علي التقيض من التاريخ العربي الإسلامي - محاولة دؤوبة ومستمرة ، وقتالا مريرا متصلا لتأكيد هذا الفصل والانفصال حتي لا تتداخل شئون الدنيا بأمور العقيدة . وظل خط الفصل بين الأمرين واضحا ومحدداً .

* إن عملية التفاعل الثقافي أو التشايف في فهم الفكر العربي الإسلامي وفي عرفه وتقاليدته تختلف اختلافا جذريا عن فهم الغرب لها . ففي الفكر الأوروبي لا يفهم التشايف Acculturation علي أساس من الحرية في الأخذ والعطاء والمساواة في الأقدار ، والاعتراف المتبادل بالمنجزات بين حلقات الحضارة الإنسانية ، وبالحرية أيضا في الانتقاء والاختيار ، بل فهم الغرب عملية التشايف باستمرار في صورة الاستلاب الحضاري Inacculturation والتنكر التام لمنجزات الطرف المقابل الحضارية والثقافية ، وأرادها دائما أن تتحول إلى وسيلة للسيطرة والهيمنة

والغاء للهوية الذاتية المستقلة للأمم المستقلة والشعوب والحضارات ، إلى حدود اقترنت في مضامينها من الاغتيال الثقافي للآخرين . مع ما يسبق ذلك عادة من تسفيه عقول الآخرين وتجريحهم والاقتتال علي ثقافتهم .

والغرب في ذلك كله يصدر عن نظرية عرقية مؤداها تمايز العقل الأوربي وسموه ، فهو - كما يقولون - عقل علمي النشأة والتكوين ، فلسفي النزعة والتوجه خلافا للعقل السامي (العربي) الذي هو في زعمهم غيبي التوجه ، معاد للعلم والموضوعية ، يميل بطبعه إلى التجزئة والمباعدة ، والفصل بين الأشياء . وهكذا برزت إلى الوجود نظرية عبء الرجل الأبيض في حمل رسالة العلم والمعرفة إلى الآخرين . وساد حكم عام ومطلق مفاده أن الغرب هو مركز الاستقطاب الفكري للإنسانية . وأن الفكر الغربي ممثلا في قواعده وأصوله اليونانية والرومانية هو وليد ذاته ، جاء علي غير مثال سابق ، فهو من صنع وتقدير المعجزة اليونانية الخالدة . وعلي هذا فاليونان هم الذين أنشأوا المنهج الرياضي ، وابتدعوا العلم التطبيقي ، وابتكروا الفلسفة ، والمنهج العقلي وهم الذين طوروا مناهج المعرفة العلمية حتي خلقوا بها تفسيراً متناسقا - رائع التناسق للإنسان والكون والحياة .

أما الفكر العربي الإسلامي فإن التفاعل الحضاري في عرفة وفهمه وتقاليده هو التواصل الفكري والإخاء المذهبي بين حلقات الحضارة البشرية ودواثرها المتلاحقة والمتتابعة .

هذه النظرة الإنسانية يلخصها حديث الرسول محمد ﷺ : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة » . بهذا التواضع وبهذه الروح الإنسانية ورحابة الصدر كان الفهم العربي للتفاعل الحضاري والحوار الثقافي .

* إن الاستقلال في الإراد والاختيار لدي الأمة العربية من شأنه أن يفتح من جديد منافذ الاجتهاد والحوار . ويصبح التفاعل الحضاري أساسا لمعادلة متوازنة بيننا وبين الغرب . وأن يتم الجمع بين الأصول والجذور العربية وبين ما تفرزه الحضارة المادية المعاصرة لتتفاعل المحاور والمنطلقات الأصلية في بنية الفكر العربي الإسلامي مع حقائق الحياة المعاصرة في حزمة واحدة تأبي الانسلاخ وتؤكد في إصدار علي التجديد وإعادة البناء » .

ومن شروط الاتصال الثقافي القدرة علي التفاعل مع الآخرين . ومن الكتاب^(١) من يشبه القدرة علي التفاعل مع الآخرين بامتلاك الجسور التي تمتد بين أصحاب الثقافتين . و« يدل علي ذلك بأن الميزة الكبرى في الحضارة العربية الإسلامية وإبان ذروة ازدهارها هي طاقتها الخلاقة في الحوار مع الحضارات السابقة والمعاصرة لها . فالتواصل مع الآخرين يعني في خاتمة المطاف إننا

(١) د. غالي شكري - رؤية نقدية - جريدة الأهرام بتاريخ ٦ / ٩ / ١٩٨٩ .

ملاحظة : يقول الله تعالى : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ (آية ٨٥ سورة الأعراف) .

فلك ما نعطيه لهم ، والحوار يعني الاعتراف بالآخر ، ولكن الحوار شيء ، والاستراتيجيات السياسية ذات البعد الثقافي شيء آخر . فنحن مثلاً لنا استراتيجيتنا في الاستنارة العقلانية والانتماء الوطني والقومي والحرية وحقوق الإنسان والعدل الاجتماعي والمساواة بين البشر . وهناك استراتيجيات في العالم تلتقي معنا وأخرى تختلف . هناك استراتيجيات تقدر مركزية الغرب وأبدية التفاوت الاجتماعي وتجزئة الديمقراطية . هذه الاستراتيجيات لا يعينها إقناع شعوبها فقط ، وإنما يعينها في المقام الأول السيطرة على عقول العالم وذاكرته ومخيلته . لذلك فهي تحاول الهيمنة على الآخرين ، وتحاول أن تفرض عليهم رؤاها للماضي والحاضر والمستقبل ، وهي تفرض ذلك بأكثر الوسائل حداثة وتطوراً ، وأحياناً عبر قنوات محلية تكونت مصالحها في ظل التبعية .

هذه الاستراتيجيات شيء ، والتفاعل أو اللقاء أو الحوار الثقافي بين مختلف ثقافات العالم شيء آخر ، العالم ليس هو الغرب . إنه الغرب والشرق والشمال والجنوب . من شرق آسيا إلى أمريكا اللاتينية ، من إفريقيا إلى أمريكا الشمالية ، مروراً بأوروبا هنا وهناك . والعالم ليس هو المراكز الثقافية الرسمية ولا برامج التبادل الثقافي بين الحكومات التي تخضع أخيراً للمواصفات السياسية ، وإنما هي دور النشر والمعارض التشكيلية والفرق الغنائية والمسرحية والمجلات والصحف والإذاعات وقنوات التلفزيون التي لا تخضع لاستراتيجيات الهيمنة أو استراتيجيات التبعية ، وإنما تسلم قيادها لسوق المواطن العادي والحوار الثقافي المفتوح بين جميع الشعوب . هناك حواجز الرقابة والعنصرية والرواسب القديمة واختلاف النظم السياسية ، ولكن المشاركة في بناء الضمير الإنساني المعاصر تستحق أن ندق من أجلها أبواب السوق ، فذات يوم سوف تنفتح ، لأن لدينا ما نعطيه .. ولأن لديهم ما نحتاج إليه .. ولأن العالم يحتاج في طريق التقدم والحرية إلى الجميع . »

ومن الكتاب ^(١) من يحذرنا من الخلط بين التفاعل الحضاري بمعنى الأخذ والعطاء ، وبين التفاعل مع المصالح الأجنبية والرضوخ لمطالبها على حساب القيم المحلية والتطلعات القومية .

والدكتور عاصم الدسوقي ^(٢) يرى أن التفاعل الحضاري عملية مستمرة عبر التاريخ وأن انتقال المعارف من مكان إلى آخر ومن شعب إلى آخر عبر الأزمنة والعصور يؤكد تداخل الحضارات وثبت اشتراك الجميع في صنع الحضارة . وأن كل عصر يفرز علومه وفلسفاته وقوانينه وعلاقاته وأن هذه الأمور ليست من المتغيرات التي تتحول وتتطور حسب الظروف والأحوال . والدكتور عاصم يدعو إلى قيام جمعية عربية تتكامل بحوثها وأنشطتها لدراسة التداخل والتفاعل الحضاري بين العرب والعالم . ويرى أن دراسة التداخل الحضاري لابد وأن تقلل - علي المدي البعيد - من حجم التعصب وروح التعالي بين البشر إن لم تلغ ، وتغرس بدلاً منه فضيلة التسامح والاعتراف

(١) أحمد أبو مطر - الشخصية القومية وهجوم الغزو الثقافي - الناقد - العدد ١٧ بتاريخ نوفمبر ١٩٨٩ .

(٢) د. عاصم الدسوقي - التداخل الحضاري بين العرب والعالم - جريدة الأهرام بتاريخ ٩ - ٦ - ١٩٨٩ .

التبادل بالفضل . كما سوف تثبت أن لا حضارة تعلو على أخرى وتتفضل عليها أو تفضلها . فيقدر ما تكون حضارة ما منبعها وأساسا لبعض القيم والمعارف والانجازات بقدر ما تكون مصبا في الوقت نفسه لحضارات أخرى ، حيث تتداخل المتناقضات وتتمازج وتصنع مركبا جديدا ينتقل إلى آخرين ليمر بالدورة نفسها . وهكذا يؤدي الإيمان بفكرة التداخل الحضاري إلى فهم وإدراك القيم المشتركة بين البشر جميعا وهي قيم تقفز بطبيعتها فوق حواجز اللون والجنس والعقيدة وتؤكد علي أن ما يجمع الإنسانية أكثر مما يفرقها .

علي أن هذا لا يعني بالضرورة إسقاط الدور المميز من الاعتبار لأي حضارة من الحضارات أو تجاهله فمع اعتقادنا بفكرة التداخل الحضاري تبقى خصوصية النسق الحضاري من حيث النشأة والإسهام . وهنا يأتي أحد مجالات الجمعية المشار إليها ، فالجمعية بعد أن تؤكد علي التداخل الحضاري بمختلف جزئياته في العلوم والآداب والفنون .. لابد وأن تسعى لاكتشاف القانون الذاتي لنسق الحضارة العربية باستخدام المنهج العلمي ، وليس بتطبيق نظريات تمت صياغتها في إطار اجتماعي وزمني معين ، وضرورة البحث في الفروض المناسبة للوصول إلى القانون والإشكالات المصاحبة وأيضا اكتشاف الشروط الموضوعية للإسهام العربي في الحضارة الإنسانية .

ولقد نظر بعض الكتاب العرب ^(١) إلى اهتمام مالك بن نبي المفكر الجزائري بقضية البناء الحضاري الإسلامي الجديد نظرة جديرة بالاعتبار ، فحاول زكي أحمد استكشاف مكونات القوة وعناصر الإيجاب في فكر مالك بن نبي في النقاط التالية :

أولا : التركيز علي القضايا الأساسية في العالم الإسلامي .

ثانيا : تجاوز الحساسية الطائفية .

ثالثا : التخصص في العمل الفكري .

رابعا : الفاعلية والديناميكية .

خامسا : غلبة فكر البناء علي الهدم .

سادسا : إضافة مصطلحات جديدة .

سابعا : العمق والإبداع .

وحقيقة الأمر أن مالك بن نبي يعد رائدا في طرح أفكار المواجهة العربية والإسلامية للقوة الغربية الحضارية المعاصرة ومحاولتها المستمرة في الهيمنة والسيطرة . وما كشف عنه زكي أحمد في مقاله عن مكونات القوة في فكر مالك بن نبي يفتح الطريق للتأمل والتفكير في استراتيجية المواجهة وأساليبها . ففي النقطة الأولى وهي التركيز علي القضايا الأساسية في العالم الإسلامي

(١) زكي أحمد - مكونات القوة في فكر مالك بن نبي - مجلة العالم - العدد ٣٨٨ بتاريخ ٢٠ - ٧ - ١٩٩١م.

يسوق لنا الكاتب عبارة مالك بن بني المشهورة « إن مشكلة أي شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية ، ولا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته ما لم يرتفع تفكيره إلى مستوى الأحداث الإنسانية ، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارة أو تهدمها » . ومن ثم نلاحظ ما لاحظه الكاتب بالأثر السلبي للصائحين من الإسلاميين الذين يفتنون المشكلة الإسلامية المعاصرة ، والذين يقضون عمرهم في إبراز نقاط الخلاف داخل الأمة الإسلامية والذين يصرفون جهدهم وعصرهم في المسائل الفقهية الصغيرة مثل الطهارة والحيض والنفاس ، ولا تمتد أبصارهم إلى مصير الأمة وقضاياها المعاصرة . وفي النقطة الثانية وهي تجاوز الحساسية الطائفية يري الكاتب أن مالك بن بني لم تتلوث كتاباته بالمهاترات أو الحساسيات بين الفرق والمذاهب الإسلامية. ويوضح الكاتب مفهوم النقطة الثالثة وهي التخصص في العمل الفكري عند مالك بن بني فيسوق عبارته القائلة : « إن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة ، ولو أردنا محاكاة هذه الجملة بصورة أخرى مع اعتبار ما بين الحضارة والثقافة من ربط وثيق قلنا إن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكير في مشكلة الثقافة ، وبذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموع القيم الثقافية المحققة ، وإذن فمصير الإنسان رهن دائما « بشقاقتها » . وكانت فكرة مالك بن بني أن مجتمعا مُعِينًا قد يفقد السيطرة على عالم الأشياء في ظروف معينة مثل الهيمنة العسكرية ، ولكن احتفاظه بعالم الأفكار سليما هو القوة والقدرة على بناء عالم الأشياء من جديد ، لأن القوة الخلافة هي قوة الأفكار . ويعقب الكاتب بقوله : ولاشك أن مالك بن بني قد تقدم بدرجة كبيرة في حقل الاختصاص الفكري ، واكتسب العديد من ميزات هذا الحقل الهام . والساحة الإسلامية ينقصها بشكل حاد المفكرون الذين يهتمون بمشكلات الحضارة وقضايا النهوض الحضاري إلى درجة الاختصاص الذي يتيح القدرة على الإبداع والطرح النوعي الشامل بالإضافة إلى عامل الكم والكثافة . وفي النقطة الرابعة الفاعلية والديناميكية يري الكاتب أنه من القواعد الرئيسية لمعرفة صحة الفكر وسلامته جريان روح الفاعلية والحيوية في عروق وشرايين الفكر . والفكر الذي لا يتصف بالديناميكية فكر عقيم ومشلول الإرادة والقوي . والفكر الذي لا يحمل الإنسان المسئولية ويجعله يحس بالواجب ينبغي أن نشك في صحته . والفكر الذي يعطل طاقة الأمة ويجمد إبداعها ويكبل انطلاقها يتعارض مع الفكر الإسلامي . لأن الإسلام جاء لتحرير الإنسان من كافة القيود والإغلال التي تقف أمام نهضته وانطلاقته في البناء والإعمار والتنمية والإنتاج والإبداع والابتكار. ويسوق الكاتب قول مالك بن بني : « إن التاريخ لا يصنع بالاندفاع في دروب سبق السير فيها ، وإنما بفتح دروب جديدة ، ولا يتحقق ذلك إلا بأفكار صادقة تتجاوب مع جميع المشاكل ذات الطابع الأخلاقي ، وبأفكار فعالة لمواجهة مشكلات النماء في مجتمع يريد إعادة بناء نفسه » وفي النقطة الخامسة وهي غلبة فكر البناء على فكر الهدم ، يلاحظ الكاتب أن معظم أعلام الفكر الإسلامي الحديث غلب على كتابتهم من حيث الكم فكر الهدم أكثر من فكر البناء ، ويضرب أمثلة بفكر جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ هـ - ١٣١٥ هـ - ١٨٣٨م - ١٨٩٧م) الذي ارتكز على مواجهة الاستبداد السياسي في الداخل ومقاومة الاستعمار في الخارج . وفكر عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨م - ١٩٠٢م) . غلب عليه جانب الهدم الذي

يبرز من خلال كتابيه « طبائع الاستبداد » ومصارع الاستعباد » . وفي كتابات سيد قطب (١٩٠٦م - ١٩٦٦م) يغلب جانب الهدم وكذلك كتابات علي شريعتي (١٩٣٣م - ١٩٧٧م) يغلب عليها جانب الهدم . وفي مقابل هؤلاء المفكرين يري الكاتب أن من المفكرين المسلمين في العصر الحديث من كانت كتاباتهم متوازنة بين الهدم والبناء ، ويضرب مثلا بكتابات الشيخ أبو الأعلى المودودي (١٩٠٣م - ١٩٧٩م) ، ثم يقول الكاتب أن مالك من بني أشار لهذه الفكرة في أكثر من موضع أهمها في تحليله لتطور الثقافة الأوربية الحديثة حيث يقول : لوحظ في الثقافة الغربية في عهد النهضة ، حين كان « توماس الأكويني » ينقياها - ولو عن غير قصد منه - لتكوين الأساس الفكري للحضارة الغربية ، ولم تكن ثورته ضد ابن رشد وضد القديس « أوغسطين » إلا مظهرا للتجريد السلبي حتي يستطيع تصفية ثقافته مما كان يراه فكرة إسلامية أو ميراثا « ميتافيزيقيا » للكنيسة البيزنطية . وأتى بعده « ديكارت » بالتجريد الإيجابي الذي رسم للثقافة الغربية طريقها الموضوعي . الطريق الذي بني علي المنهج التجريبي .

وإذا كان جانب الهدم لدى معظم المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث قد غلب علي جانب البناء فذلك بسبب الظروف التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي في الاستبداد والاحتلال العسكري . ومالك بن بني عندما يبحث موضوع النهضة يقول : وهكذا حين نتحدث عن النهضة نحتاج إلي أن ننصوها من ناحيتين :

١- تلك التي تتصل بالماضي . أي بخلاصة التدهور ، وتشعبها في الأنفس وفي الأشياء . .

٢- تلك التي تتصل بخمائر المصير وجذور المستقبل .

وهذا التمييز الضروري لا يتصل بمظاهر الترف العقلي لطائفة من الناس ، وإنما يهتم بتكييف حالة شعب وتقرير مصيره . ومن أول واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلفي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها ، حتي يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلي الحياة .

وفي النقطة السادسة وهي إضافة مصطلحات جديدة يري الكاتب أن مالك بن نبي أثري الثقافة العربية بمصطلحات جديدة مثل القابلية للاستعمار ، ومثل الأفكار الميتة وهي الأفكار التي خذلت أصولها وانحرفت عن نموذجها المثالي ولم يعد لها جذور في محيط ثقافتها الأصلي، ومثل الأفكار القتالة وهي الأفكار التي نستعيرها من الغرب وتتناقض مع مكونات واقعنا الاجتماعي .

أما في النقطة السابعة وهي العمق والإبداع فإن النقاد جميعا يؤكدون الرؤية الجديدة لمالك بن نبي في الثقافة العربية والإسلامية بصورة تحفز الفكر العربي والإسلامي لاكتشاف الحقائق وتحفزه للتحليل والصواب .

عندما قدم « أحمد مختار أمبو » المدير العام لليونسكو تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال في أواخر العقد الثامن من القرن العشرين ذكر أن الاتصال قام ويقوم بإتاحة

فرص التقارب بين أفراد المجتمع وفرص اندماجهم فيه ، وقام الإعلام بالحد من التوتر وحل النزاعات . وفي بداية الأمر كان الاتصال قائما علي مجتمعات محدودة ، أو مجموعات من الشعوب المتجاورة . ولكن مثل هذا الاتصال اكتسب في أيامنا بعدا عالميا لا تنفصم عراه ، بفضل سرعة وسائل الإعلام وشبكة من العلاقات من شتي الأنواع امتدت عبر العالم كله .

ويقول « مختار أمبو » : لا يمكن اليوم لأي شعب كان - إلا إذا استثنيا جماعات سكانية متفرقة في مناطق يتعذر الوصول إليها - أن يعيش بمعزل عن العالم ، فقد أصبحت كل أمة تشكل جزءا من الواقع اليومي لسائر الأمم ، ولئن لم يكن يتوافر للعالم وعي حقيقي بتضامنه فإنه يشهد تكافلا يزداد باطراد ^(١) .

وعندما يتناول التقرير الدولي مشكلات الاتصال يتحدث عن التكنولوجيا الاتصالية حديث تفاؤل ، وحديث مستقبل مبشر فيقول :

« هذه التكنولوجيا الجديدة التي يتركز استخدامها حاليا في عدد قليل من البلاد الصناعية أساسا ، قد مهدت السبيل لعصر جديد في مجال الاتصال . فالمسافات لم تعد عقبة ، والإمكانية متوافرة لإقامة نظام اتصال عالمي يربط بين أي بقعة وأخرى علي كوكب الأرض إذا ما توافرت الإرادة الجماعية لذلك . وقد أصبحت المعدات أرخص ثمتا بعد أن كانت مكلفة. » ^(٢)

ولعل أهم ظاهرة في النصف الثاني من القرن العشرين - كما يبين تقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال - هي حصول أكثر من ثمانين شعب علي الاستقلال ، الأمر الذي أدي إلي تحرر أكثر من بليونيني شخص من السيطرة الاستعمارية .

ولقد أصبحت الشعوب في كافة أنحاء العالم تعتمد علي بعضها البعض بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ ، وذلك بفضل التقدم التكنولوجي . ويمكن أن تؤدي مجموعة الشبكات العالمية الالكترونية المترابطة وظيفه ماثلة لوظيفة الجهاز العصبي حيث تربط بين عقول ملايين الأفراد علي نحو يؤلف ذكاء جماعيا هائلا . وتهدف العوامل الاقتصادية والاجتماعية إلي تحقيق هذا التكافل . إن دور الاتصال في العلاقات الدولية دور هام وحاسم إذ أنه يتحكم في قدرة الرأي العام الدولي علي حصار المشكلات التي تهدد الجنس البشري مثل التلوث والامية والتحيز العنصري والمجاعات وغير ذلك ، ومن ثم يمكن إيجاد حلول لها بعد أن يقوم الإعلام بإبراز مدي خطورتها وتغلغلها وتأثيرها وكيف أنها تهدد كافة الشعوب والأمم . إن وسائل الإعلام تقوم بدور هام في إيقاظ الرأي العام العالمي تجاه مثل هذه المشكلات بجعلها مفهومة علي نحو أفضل.

(١) أحمد مختار أمبو (المدير العام لليونسكو فيما بين عامي ١٩٧٥ - ١٩٨٧) . تصدير تقرير اللجنة الدولية

لدراسة مشكلات الاتصال - الذي نشر مترجما باللغة العربية بعنوان : أصوات متعددة وعالم واحد -

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر - ١٩٨١ .

(٢) أصوات متعددة وعالم واحد - المرجع السابق - ص ٤٦ .

وفي حفز الإرادة لحل تلك المشكلات .

هذا التفاؤل التكنولوجي الصادر من قلب مثقف مسلم أفريقي ، هو المدير العام لليونسكو. وهذا التفاؤل الذي أكده الخبراء الدوليون في تقريرهم يقابله واقع شديد العفن من قلوب صليبية عليها أفعالها ، وعليها تراكمات من الضلال والكراهية تمتد مئات السنين ، وهذه القلوب العفنة هي التي تستأثر بالتقدم التكنولوجي والإعلامي وتجعل التفاؤل التكنولوجي تشاؤما شديد السواد ، وتحجب بممارساتها العنصرية أي بارقة أمل في اتصال ثقافي أو إعلامي عادل أو متكافئ .

إن مجرد المقارنة بين كتابات القرنين السابع عشر والثامن عشر بكتابات العقد الأخير من القرن العشرين تبين بجلء أن السد المانع للاتصال الثقافي بين العرب والمسلمين من جانب ، والأمريكيين والأوروبيين من جانب آخر ، هو الكراهية العمياء من الغرب للإسلام والعرب .

في تاريخ الاستشراق يعد سيمون أو كلي Simon Ockley ١٦٧٨ - ١٧٢٠ م من المستشرقين الذين كتبوا عن الشرق بإنصاف . هذا المستشرق عندما يصف النبي محمد ﷺ يصفه بأنه رجل خبيث جدا وماكر ، وأن ما كان يبيده من شمائل طيبة كانت مجرد أمر ظاهري يخفي وراءه حقيقة نفسه التي كان يحكمها الطموح والطمع . ثم يأتي المستشرق « هادريان ريلاند » المتوفي عام ١٧١٨ م فيكتب عن الديانة المحمدية ، كتابات توصف في الدراسات الاستشراقية بأنها منزهة عن المواقف اللاهوتية الشديدة العدا والافتراء علي الإسلام . فيقول : ينبغي علي المرء بدلا من ذلك أن يتعلم اللغة العربية ، وأن يسمع محمدا نفسه وهو يتحدث في لغته ، كما ينبغي علي المرء أن يقتني الكتب العربية وأن يري بعينه هو وليس بعيون الآخرين ، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانيين كما نظن . فقد أعطي الله العقل لكل الناس . وقد كان في رأي دائما أن ذلك الدين الذي انتشر انتشارا بعيدا في آسيا وأفريقيا ، وفي أوروبا أيضا ليس ديننا ماجنا أو ديننا سخيلا كما يتخيل كثير من المسيحيين « ثم يمضي » ريلاند « قائلا : صحيح أن الدين الإسلامي دين سيء جدا وضار بالمسيحية إلي حد بعيد ، ولكن ، أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحث ؟ ألا ينبغي للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيلة ؟ إن الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف علي الإسلام في حقيقته لكي يحاربه بطريقة أكثر أمانا وأشد قوة ^(١) » .

هذا المستشرق الأخير منعت الكنيسة ، تداول كتابه حتي بهذه الروح والمبررات ؟ ..

وفي ديسمبر ١٩٩٠ تنشر مجلة الأيكونوست ^(٢) حوارا متخيلا بين محمود المسلم وبين فرانسيس المسيحي تحت عنوان الإسلام والغرب . ووصفت محمود وفرانسيس بأنهما مسلم مستنير

(١) د. محمود حمدي زقزوق - الاستشراق والحلفية الفكرية للصراع الحضاري - الطبعة الثانية - كتاب الأمة - قطر ١٤٠٤ هـ - ص ٣٣ ، ص ٣٤ .

(٢) العدد الصادر من الأيكونوست بتاريخ ٢٢ / ١٢ / ١٩٩٠ .

الإسلام والغرب :

الأسقف والإمام يسألان : هل يجب أن نتقاتل حقيقة ؟

يقولون الآن إن التعددية هزمت الشيوعية ، وأن المعركة الكبرى القادمة ستكون بين الإسلام والنصرانية ، أو بين القوتين الكبيرتين في العالم اللتين غتا في ظل فكرة الله والإنسان . لهذا نظمنا مناقشة بين رجل دين مسيحي وآخر مسلم من ذوي العقول المفتحة . وأطلقنا علي أحدهما فرنسيس وعلي الآخر محمود . وقد بدأ المسلم المعتدل حديثه :

محمود : يؤلني أن كثيرا من الناس يعتقدون أن المرحلة القادمة من التاريخ ستكون معركة بيننا وبينكم .. نحن نعيش جنبا إلى جنب علي امتداد المساحة بين بحر قزوين وحتى الطرف النهائي للبحر المتوسط غربا . لقد حدثت احتكاكات مؤلمة حقيقة بيننا مرات عديدة في الماضي ، ولكن بعد مرور نحو ألفي عام علي مولد مسيحكم ، وما يزيد علي ١٤٠٠ عام علي ميلاد محمدنا ، دعوني أبدأ بالسؤال عما إذا كان يجب أن يحدث ذلك ثانية ؟ إننا قبل كل شيء « أهل الكتاب » . إننا نؤمن - مع اليهود - بفكرة إله واحد . إننا نشترك أيضا في فكرة المسئولية الفردية أمام الله ، فالقرآن يقول ﴿ لا تزر وازرة وزر أخري ﴾ .

هذه الأشياء قد تبدو بلا معنى بالنسبة لكثير من الناس الذين لا يؤمنون هذه الأيام بأي إله علي الإطلاق . ولكن هذه هي الأفكار الأولية التي تشكل كل الثقافات ، وتقهد الطريق الذي نعيشه . هناك هوة كبيرة بين الطريقة التي يعيش بها كل منا ، والحياة المعقدة للثقافة الهندية متعددة الآلهة ، أو الحياة الأحادية للثقافة « الكونفوشيوسية » التي ليس لها إله . دعني أذكرك بأنه عندما خرج محمد من مكة في زيارته للسماء فيما تطلقون عليه ٦٢١ بعد الميلاد ، توقف في القدس ليصلي جنبا إلي جنب مع إبراهيم وموسي وعيسي . إن هذا يشير مشاعري .

فرنسيس : إنه يثيرني أيضا . ولكن يجب أن نواجه حقائق التاريخ . الحقائق تقول إننا أهل الكتاب تشاجرنا مرارا وتكرارا بصورة مخيفة . ليس هناك مشاجرات مثل مشاجرات الأسرة . دعني أذكرك في المقابل بالوقت الذي شق فيه شبابنا الكادحين من حملة الدروع في أوروبا الغربية الوثائق من نفسها طريقهم إلي القدس لبدءوا سلسلة القتل والحداد الذي نسميه الحملات الصليبية، وما حدث في القرنين التاسع عشر والعشرين حينما ابتلعت أوروبا القوية كل العالم الإسلامي تقريبا في امبراطورياتها المختلفة .

محمود : وطالما أن كل منا يتذكر الأوقات التي مضى فيها فريقه بعيدا، دعني أتذكر لك أن الجيش العربي اندفع في شمالي افريقيا إلي أسبانيا وفرنسا ، متحمسا بدين جديد في قرنكم الثامن (وفي قرننا الأول) إلي أن أوقفه تشارلز مارتيل في بواتيه Poitiers ، وكذلك فتوح ما نسميه الآن روسيا الأوروبية إلي أن صدها دوق موسكو ، منذ نحو ٦١٠ سنوات مضت، والاندفاع التركي في أوروبا الشرقية الذي صده علي أبواب فيينا منذ ٣٠٧ سنوات مضت ملك بولندا .

فرنسيس : نعم كلاهما لديه ذكرياته . أوروبا والإسلام لم يمرا معا بأوقات هادئة . فمعاركهما معا من أشهر روايات التاريخ ، فهل هناك مبرر للاعتقاد بأن هذه الروايات انتهت ؟

محمود : هناك فارق كبير بين ما حدث في الماضي والآن . في معظم تلك الصدمات المبكرة كان الطرف الذي بدأ بالهجوم مترعا بالثقة في النفس بسبب ما قد نسميه الآن أسباب أيديولوجية وتكنولوجية ، وفي المقابل كان الطرف المدافع منقسما وضعيفا . إن الجيش العربي الرائع الذي حمل الهلال الوليد بعيدا إلى بوابتيه كان يهاجم أوروبا التي تعيش في عصورها المظلمة . كما أن الصليبيين الذين أعاد فرسانهم الصليب إلى المقدس بعد ٣٥٠ سنة ، تقدموا بمباركة من البابا ضد عالم إسلامي غير منظم في حينه . كذلك فإن الأتراك الذين شنوا الهجوم المضاد حتى فيينا كان لديهم أفضل الامبراطوريات تنظيما في ذلك الوقت ، كما أن بناء امبراطوريتكم الذين ربطوا في القرن العشرين بين الحماس الديني والكفاءة العملية ، كلاهما واجه معارضة ضعيفة .

إن ما حدث في الماضي لا يشبه الوضع الراهن . إنني أوافق علي أن إسلامي الآن يحظى بحماس ديني أكبر من نصرانيتكم أو نصرانيتكم السابقة : غالبيتنا مازال مؤمنا ، معظمكم ليسوا متأكدين إن كانوا مؤمنين أم لا . ولكن باقي المعادلة لا ينطبق . إنكم ما زلتكم الجانب الذي له التفوق التكنولوجي والاقتصادي ، والذي نختطف من علي مائدته فتات الحياة الحديثة . إن أوريانكم تتجمع معا في وحدة جديدة ، بينما المسلمون وخصوصا العرب مازالوا منقسمين .

فرنسيس : إنني أقبل هذا الفارق ولكنني لست مرتاحا تماما لسببين أحدهما أن العالم العربي أظهر في هذا القرن لأول مرة في التاريخ علامات جادة لمحاولة توحيد نفسه ، ولو فاز صدام حسين العراق في المواجهة في الخليج فإنه كان قد استطاع أن يوحد بالفعل جزءا كبيرا منه تحت قيادته .

محمود : إنني شخصا أعتقد أن ذلك كان سيكون كارثة ، فصدام حسين سوف يوحد تحت نوع خاطئ من النظام السياسي - إنه ديكتاتورية قمينة - ولأهداف خاطئة هي نشر أفكاره الخاصة عن القوة العربية في العالم الحديث . ولكن يجب أن أقول لك - وأن أذكرك - إن كثيرين من رفاقي المسلمين معجبون به كثيرا .

فرنسيس : حسن . وهذا يقودني إلى السبب الثاني لعدم اطمئناتي لمقارنتك التاريخية: إنك ربما أغفلت أهم شيء . فمعظم هذه الموجات التوسعية المبكرة للإسلام في أوروبا وبالعكس كان سببها الاقتصاد . إن العرب الذين اندفعوا من الصحراء العربية في القرن الذي أعقب وفاة محمد كان يحركهم الحماس الديني ، ولكن كان يحركهم في الحقيقة أيضا أنه لا توجد واحات كافية في الصحراء للحفاظ علي حياتهم . وقد هاجر الأتراك وقبائل أخرى من وسط آسيا لأسباب مشابهة . من ناحية أخرى فإن أبناء الطبقة الأوروبية الجديدة التي ظهرت مع استقرار الاقتصاد الريفي في مرحلة ما بعد العصور الوسطي لم يكن لديهم ما يفعلونه ، وكانوا يبحثون عن الإثارة .

إن بناء امبراطورية القرن التاسع عشر كانوا أمثال هؤلاء أيضا . إن ما يقلقني الآن هو أن العالم الإسلامي في جنوب وشرق أوروبا لديه شبان كثيرون ، وليس لديه في الوقت نفسه ما يطعمهم به ، أو ما يشغلهم به . أربعة دول فقط من بين ١٩ دولة بها كثافة سكانية عالية تقع بين المغرب وإيران . وهي المغرب وتونس واليمن وتركيا - لديها اقتصاديات تنمو أسرع من زيادة عدد الأفواه التي يجب أن تطعمها . أما في الخمسة عشر دولة الأخرى فإن الشعوب تزداد فقراً ، وفي أربعة من هؤلاء الخمسة عشرة دولة فإن ما يزيد على نصف السكان تحت سن ٢٥ سنة ، وفي تسعة ما يزيد على ٦٠٪ تحت هذه السن . إن هذه الأوضاع تؤدي بالفعل إلى فيضان من اللاجئين اقتصاديا ، وإذا أدى اليأس الاقتصادي إلى قمع سياسي أكثر فسينجم عند ذلك فيضان من اللاجئين السياسيين أيضا ، يكون من بينهم عدد كبير من الثوريين الغاضبين . إن هذا سوف يتسبب في مناقشات بين أوروبا - التي ستقول إنها لا تستطيع أن تأوي كل هؤلاء اللاجئين - وبين الحكومات التي تريد أن تتخلص منهم . إن هذه المناقشات يمكن أن تتداخل مع أشياء أخرى منها حرية الحركة بين جزئينا من العالم ، وإيجاد مدخل لأوروبا إلى البترول العربي ، وطموحات الجيل التالي لصدام حسين . إن هذا النوع الخاطيء من قيادة عربية جديدة سوف يخلق نوعا خاطئا جديدا من الثقة العربية بالنفس في عالم من الأسلحة الكيماوية والصواريخ النووية . إنني لا أستطيع الإدعاء بأنني أتنبأ بالنتيجة ، ولكن هناك ما يصنع الاضطراب .

محمود : هناك حقا بعض الاضطراب وحتى إذا كنا نختلف بشأن التفاصيل ، فلنقل إننا قلقان بشأن كيفية مرور واجتاز الإسلام وأوروبا الخمسين عاما القادمة بدون صدام . ماذا يستطيع الرجال ذوي النوايا الطيبة في كلا الجانبين أن يفعلوا للحد من الخطر ؟

فريسيس : أعتقد أن هذا يعتمد علي ما إذا كنا نستطيع الاتفاق علي الطبيعة الأساسية للعالم الذي سنعيش فيه في القرن الحادي والعشرين . وإذا استطعنا فيجب أن نكون قادرين إذن علي أن نسأل أنفسنا كيف ستستطيع تقاليدنا المختلفة المسيحية والإسلامية أن تتكيف مع هذا النوع من العالم .

إن العامين ١٩٧٩ و ١٩٩٠ - قد أوضحا كثيرا الطريقة التي ينظم بها الإنسان حياته اليومية هنا علي الأرض . بعد هزيمة الشيوعية أصبح ممكنا الاعتقاد بأنه يمكن ترك السياسة والاقتصاد تحت سيطرة حفنة من الناس الذين يدعون بأنهم « يعرفون » كيف يديرون هذه الأشياء . لقد عدنا إلي المسؤولية الفردية ، وإلي الاعتقاد بأن كل إنسان يحمل عبء حياة الخاصة؛ وهي فكرة يشترك فيها المسلمون والمسيحيون كما تقول . ويبدو واضحا لي أنه في المستقبل سوف يريد كل فرد في العالم الديمقراطية للجانب السياسي من الحياة ، وحرية اختيار السوق كأساس للحياة الاقتصادية .

محمود : إن تصوري للديمقراطية قد يختلف قليلا عن تصورك ، ولكن عموما فإنني أوافقك . وإذا كانت تعوزني اللباقة فإنني سأشير إلي أن إسلامي كان أفضل كثيرا من

مسيحيتمكم خلال السبعين عاما الماضية فيما يتعلق بالشيوعية . ففي الجزء المسيحي من العالم وصل كثير من الحكومات الشيوعية إلي السلطة ، أما في الجزء المسلم فإن ذلك لم يحدث أبدا إلا إذا كان قد تم فرضه من الخارج .

بعض الحمقى من المسيحيين اعتادوا القول بأن الشيوعية كانت « هرطقة مسيحية أخرى » في حين أن كل مسلم رأها - كما كانت - عدوة لكل منا . ومع ذلك دع هذا يمر . إننا نتفق أنه في المستقبل سوف يأمل الناس في كل مكان أن يكون لهم رأي أكثر في كيفية تنظيم حياتهم علي الأرض .

فرنسيس : إذن دعنا ننطلق من هنا . إنني أدعي أن الأفكار التي قدمتها المسيحية في جزئي من العالم هي أساس أفضل لمسيرة الديمقراطية من الأفكار التي قدمها الإسلام . فمن المسيحية تكلمنا عن الفكرة الجوهرية للفصل بين الكنيسة والدولة .

وفي إدارة حياتنا اليومية علي الأرض - إذا كنا نريد أن نجعلها بطريقة ديمقراطية فإننا يجب أن نقبل أن رأي الإنسان الآخر جيد مثل رأينا . هذا هو عالم النسبية والشك الأمين . لقد قيل ذلك للمسيحيين منذ البداية . « اعط قيصر ما لقيصر ، واعط الله ما لله » . القرآن - أرجو أن تسامحني - ليس به شيء من هذا يقوله للمسلمين . علي العكس من ذلك قيل لكم إن مثل هذا الفصل خطيئة .

محمود : لقد احتاج ذلك من المسيحيين وقتا طويلا كي يضعوا هذا المبدأ موضع التنفيذ . أباطرتكم الرومان المقدسين وباباواتكم في العصور الوسطي توصلوا إلي كثير من الترتيبات السياسية مع بعضهم البعض . بصفة عامة ، وبغض النظر عن التجربة المبكرة المثيرة للإعجاب التي قامت بها سويسرا ، فإن الأمر تطلب منكم ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ سنة - وهي فترة أطول من التي عاشها الإسلام حتي الآن - قبل أن تبدأوا في تطوير الديمقراطية التي تقول إن الفصل بين الكنيسة والدولة شرطها الأساسي .

إنك يجب أن تعطينا الوقت أيضا . حقيقة أنه علي الرغم من أنه ليس لدينا عبارة عظيمة للاستشهاد بها مثل الاقتباس الذي أوردته عن المسيح من الانجيل ، فإن معظم الدول الإسلامية تمارس بالفعل فصلا بين الدولة والدين . إننا نسير ببطء كبير لعمل ذلك بطريقة ديمقراطية ، وأنتم كنتم كذلك .

فرنسيس : ومع ذلك فإن الديمقراطية تقضي بعمق أكثر من الفصل بين الدولة والدين . إن ممارسة الديمقراطية تتطلب موقفا خاصا تجاه الآخرين . من الضروري أن نتقبل عقلا وقلبا أن الإنسان الآخر مهم أيضا مثلنا . إن مظهره قد لا يبدو جيدا أو ماهرا ، وقد لا يكون قارنا جيدا لأرسطو

وآدم سميت ، ولكنه مهم كذلك . هذا شيء لا يشعر به الرجال بشكل طبيعي ، ولا يمكن تعلمه في دروس الاجتماع في المدرسة . إن الوسيلة الوحيدة لتعلمه تدريجيا هو داخل مناخ الأفكار التي نتربى فيها . وثقافتنا هي هيكل الأفكار التي تشكل حياتنا . إنني سأضغط عليك بشدة . « أحب جارك كما تحب نفسك » قالها مؤسس المسيحية مضيفا إياها بعد حب الله ، مما جعل ذلك أهم القواعد علي الإطلاق . إنني لا أستطيع أن أجد شيئا مشابها في القرآن . فالقرآن قال الكثير عن حب الله ، وهذا رائع ولكنه غير كاف .

إن العهد الجديد مليء بالمواعظ التي تدعونا إلي أن ننظر إلي رفاقنا باحترام وبدون تأكيد للذات . إن فهرس النسخة التي معي من القرآن ليس به شيء عن « الشفقة » و « الرحمة » ، ولكن به مدخل واحد عن « السلام » ككلمة تقولها عندما تقابل أحدا . هناك بعض الآيات الصغيرة عن الصبر في سورة ١٦ وعن التواضع في سورة ٣١ ، ولكن ذلك ليس هو الشيء نفسه.

تعليق : (انظر كيف يحكمون علي القرآن من ترجمة فهرس بأرقام السور ؟ وهذه هي موضوعية ألا يكونوا مست التي هي موضوعية الغرب) .

ويدون الدخول في علم اللاهوت أقول باختصار أن ما أعتقد لكمية في جذور ذلك . بالنسبة لأي شخص يعيش في العالم المسيحي - حتى إذا لم يكن مؤمنا - يبدو واضحا أن النظرة المسيحية عن كيف يجب أن يفكر الإنسان في إنسان آخر مرتبطة بفكرة الثالوث المقدس - الأب والابن والروح القدس - فإذا قيل لك إن الله فصل جزء الابن عن نفسه كي يصبح بشرا - كما حدث - وصلب ، فإنك ستكون عرضة لأن تبدأ الإحساس باحترام أكثر تجاه جميع البشر : إن الإسلام بإنكاره الثالوث ينكر عن نفسه هذه الفرصة .

تعليق : (انظر كيف يجعلون من الشرك بالله أساسا للرحمة بين البشر .. هكذا زين لهم شيطان استكبارهم سوء الفكر والاستنتاج) .

محمود : إنني إذا لم أقبل بفكرة الثالوث فستفهم أن ذلك لصالح السلام ، هذا ليس نكتة . ولكنه الحقيقة .

دعني أكرر : يجب أن نعطينا وقتا . إن العهد الجديد به إشارات القوية بما فيها ما يقوله عن حب الجار ، وكذلك القرآن ، خصوصا بالنسبة لمعجزة الله .

ولكن منذ ٦٠٠ عاما مضت ، عندما كانت المسيحية في مثل عمر الإسلام الآن ، فإن سياسات النصرانية لم تكن تحظى بإعجاب أكثر مما تحظى به سياسات الإسلام الآن . في عام ١٣٩٠ كانت أوروبا المسيحية فاشستية وحشية لها بابا وبابا معادي ، وكانت تتسائل عما إذا كانت في القرن الحادي عشر أم في القرن الثالث عشر ؟ إن التغيير الكبير لأوروبا الصليبية للأفضل كان لا يزال بعيدا . لقد أثرت الاقتصاديات في المناقشة مبكرا لتسجل نقطة ضدي . دعني استخدم الاقتصاد الآن . إن هذا التغيير الأوربي الكبير للأفضل - بما فيه نمو الديمقراطية - تم جزئيا لأن أوروبا ازدادت ثراء . إن نمو الثروة ووقت الفراغ والتفكير ساعد علي تحرير قوي الروح

التي أحدثت النهضة والإصلاح ، والتي قادت بدورها إلى مجيء الديمقراطية . لقد كانت قوي الروح هذه هناك تنتظر ، ولم يكن النمو الاقتصادي أكثر من مفتاح ضمن مفاتيح أخرى تفتح لهم الباب ، ولكنها قامت بدورها . إنني واثق من أنه إذا استطاع العالم العربي الحصول على اقتصادياته ، فإن بابا مشابها يمكن أن يفتح أمامنا ، وإذا حدث ذلك فإن ديمقراطينا قد يكون لها ميزة خاصة أو ميزتين .

فرنسيس : إذا كنت علي حق فإننا يمكن أن نتنافس ثانية . فما كان يمثل خطرا رئيسيا بالنسبة لسلام القرن الحادي والعشرين قد خفت حدته .

إنني أقبل رأيك فيما يتعلق بأهمية الاقتصاد . حقا إنني اعترف بامتنان . أن أوروبا اليانعة في عصر النهضة والإصلاح الديني ساعدها كثيرا من الناحية الاقتصادية والعلمية ما استوردته من العرب منذ ٦٠٠ عاما أو يزيد . لقد تعلمنا منكم من جديد العلوم الطبيعية والأشياء الأخرى التي تعلمتموها من اليونان ، لقد كان هذا أحد أسباب يقظته أوروبا . فشكرا لكم . ولكن ماذا تقصدون بقولكم أن نسختكم من الديمقراطية سوف تكون أفضل من نسختنا إذا جاءت ؟

محمود : لقد قدمتم ما تعتقدون أنه مزايا دينكم كأساس للديمقراطية . إنني سأقدم الآن ميزتين أعتقد أنهما توجدان في ديني . إحداها أننا نحن المسلمين أفضل في مسألة الجنس التي ستؤثر كثيرا في القرن القادم . إن القرآن واضح في ذلك منذ البداية . إنه يقول بأن البشر أمة واحدة ، ثم يقول : ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ . ومنعنا أن يحقر بعضنا بعضا . وإذا نظرت حول العالم ستجد أننا طبقنا المبدأ جيدا .

فرنسيس : لقد كان لديكم في شرق أوروبا حتي وقت قريب تجارة العبيد البغيضة ، كما كان عندنا في غرب أوروبا .

محمود : حقا يجب أن نعتزف نحن وأنتم بفشلنا . ولكن علي وجه الإجمال فإن سجل الإسلام في هذا الشأن ليس سيئا .. إن أحد تعاليم محمد الأخيرة إلي العرب هي عدم معاملة غير العرب علي أنهم أدني منزلة . إن هذا سيكون مناسباً علي ما أعتقد في القرن القادم .

أما الميزة الأخرى فإنها قد تكون صعوبة الفهم بالنسبة للناس في الغرب الحديث ، ولكنها أكثر أهمية علي المدى البعيد ، وأعتقد أن الإسلام يمكن أن يشير إلي الخطر الكامن في انتصار الغرب ، والضعف الكامن في قوته .

وكما قلت فإن مولد الديمقراطية والرأسمالية أصبح ممكنا بإزالة جزء من عالم المطلق . في عملية التعددية ليس هناك خطأ دائم أو صحيح دائم ، وحكم الإنسان يعتمد علي حكم إنسان آخر . فعندما تقرر الأغلبية شيئا سوف يتم عمله ، وإذا غيرت رأيها فلن يتم عمله . وسواء احتل قطيع من الغنم أو مصنع للكمبيوتر حقلا من الحقول ، فإن ذلك يتوقف علي تفضيل ملايين الأفراد

لخروف مشوي أو مطبوعات . إنه نظام فعال مثير للإعجاب ، وفي عامي ١٩٨٩ و ١٩٩٠ زعمتم إن ذلك ما يريده العالم كله ، ولكن هذا ليس صحيحا تماما .

إن قرارات الأغلبية تؤدي أحيانا إلي نتائج يري كثير من الناس أنها ليست مناسبة مؤقتا فقط ، ولكنها خاطئة أيضا . وهذه يمكن تصحيحها إذا تغيرت الأغلبية ، ولكن ليس هناك ضمانا أنه سيتم تصحيحها .

من ناحية أخرى فإنه في أي نظام يقوم علي اختيارات فردية ، فإن بعض الأفراد سوف يظلمون عند القاع ربما بصفة دائمة . فهذا النظام ليس هناك من يراقب من خارجه ، وكلما أصبح النظام أكثر عالمية فإن قلقي يزداد بشأن نقص مجموعة من القواعد الإرشادية .

وإذا كانت الديمقراطية الرأسمالية هي النظام العالمي في المستقبل فإن كثيرا من الناس سوف يبدأون في الإحساس بأنهم يعيشون داخل آلة لا أخلاقية .

إن الإسلام الذي يصر علي أن الحياة اليومية هي جزء من كل أوسع ، وأن هناك دائما حقائق موضوعية يجب احترامها يكون تذكرا لكل هذه النقائص . إنني لا أعرف بالضبط كيف سيتم إصلاح هذه العيوب ، ولكن أحدا لم يكن يعرف منذ ٦٠٠ سنة كيف سيتم إنقاذ النهضة والإصلاح الديني . إنني لا أطلب منكم أن تكونوا مسلمين ، ولكنني أقترح فقط أن تقدموا أنفسكم بطريقةكم الخاصة إلي العمل الذي لم يتم بالنسبة للتعديدية .

فرنسيس : كمسيحي فإنني أوافقك بالطبع علي الرغم من أن الكثيرين في العالم الغربي قد يرون أننا نحري « دردشة » بمناسبة « الكريسماس » . كم سيكون رائعا لو أن الإسلام الذي ساعد في إيقاف المسيحية في نهاية العصور الوسطي أن يساعد الغرب الحديث في تشكيل قرونه القليلة القادمة .

هكذا عرضت الإيكونومست في أواخر أيام عام ١٩٩٠ تصورهما للجدل بين الغرب والإسلام . ويرغم محاولتها في الالتزام بالموضوعية فإن جذور الفهم الخاطئ للإسلام . وعقدة استعلاء كل ما هو غربي وعصمته من الخطأ بدت ظاهرة واضحة .

ويظل العداء الغربي للإسلام أشد السدود أمام الاتصال الثقافي :

* ففي عام ١٩٩٣ يطرح أستاذ أمريكي بجامعة « هارفارد » هو الدكتور صمويل هانتجتون Samuel-P- Huntington دراسة جديدة يؤكد فيها أن الصراع القادم بعد انتهاء الحرب الباردة هو صراع حضاري وصراع ديني The Clash of Civilizations ونشر خريطة جديدة للعالم قائمة علي أساس تصوره للصراع الذي بدأ بين الديانات : الديانة المسيحية التي تغطي أغلب دول القارة الأوروبية وكذلك أمريكا وكندا وأمريكا اللاتينية . والديانات الأخرى وأبرزها الإسلام ، وديانات آسيا الكبرى . وفي بحث طويل في مجلة « الشؤون الخارجية » الأمريكية يحدد « صمويل هانتجتون » نوع الصراع الذي سيسود العالم مع بداية القرن الحادي والعشرين بل حتي قبله

بسنوات بأنه صراع بين أديان وحضارات وعداوات قديمة كانت كامنة . ويقول إن الاتجاه الذي أصبح سائدا هو العودة إلى إحياء الأخلاق القديمة والصراعات العرقية التي كانت قد تجسدت في ظل التقسيمات « الأيدولوجية » والتحالفات السياسية والعقائد التي سادت أثناء الحرب الباردة .

هذا ما يبشر به أستاذ أمريكي في جامعة « هارفارد » ، وهو ما يعكس الروح الصليبية والكتابات الاستشراقية الضالة وتراكمات الحقد والكراهية العمياء بغير مبرر . وهذا الاتجاه المتولد بعد انتهاء الحرب الباردة يبين لنا أن النظام الغربي في بحثه الدائم عن عدو مثله مثل النار التي تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله .

وفي احتفالات عيد الثورة الفرنسية ، عام ١٩٩٣ وقعت مشاجرات ومصادمات بين العنصريين الفرنسيين والمهاجرين الأجانب ، خاصة العرب والزنوج . ويعلق أحمد عبد المعطي^(١) حجازي علي ذلك قائلا : « كيف يمكن للمرء في هذا الجو الموبوء بالكراهية أن يحتفل بانتصار الحرية ، وكيف يتمثل روح الإخاء والمساواة . هذا الشر الذي يعصف بالعالم كله . وقد تتغير سحنته وتتعدد ألوانه وشعاراته ، لكنه هو الكراهية .. كراهية الآخر لأنه يحمل لونا آخر ، أو لسانا آخر ، أو دينا آخر ، أو فكرا آخر .. كراهية الآخر هي كراهية كل ما صنعه الإنسان طوال تاريخه ليخرج من التوحش إلى التحضر ، ومن الكهف إلى المدينة . فليست الحضارة إلا أن نعيش مع الآخرين . والكلام وحدها هي التي تنبئ الغرباء .. »

كذلك من معوقات الاتصال الثقافي سطحية فهم الغرب . واستخفافه بالشرق بصفة عامة فكثيرا ما يرسل المحرر الصحفي إلى بلد غريب دون أي إعداد أو خبرة تؤهله لذلك ، بل يكمن المؤهل الوحيد في براعته في التقاط الأشياء بسرعة ، أو لمجرد وجوده في مكان ملائم قريب من المكان الذي تجري فيه الأحداث التي تحتل الصدارة في الأخبار . وهكذا نجد هذا المحرر بدل أن يحاول أن يعرف المزيد عن ذلك البلد ، يلتقط أقرب الأمور منالا ، وهي في العادة جمل « كليشيهية » معينة . أو حكمة صحفية لا يحتمل أن يتحداها القراء في وطن الصحفي . ومن هنا لا غرابة أن نجد أنه ، مع وجود ما يقرب من ثلاثمائة مراسل صحفي في طهران خلال الأيام الأولى لأزمة الرهائن (عام ١٩٧٩ م) دون أن يكون بين هؤلاء من يتكلم الفارسية!!^(٢)

وهكذا يمكننا أن نتبين معوقات الاتصال الثقافي علي الساحتين المحلية والعالمية ، ومنها علي سبيل المثال ما يلي :

* من معوقات الاتصال الحضاري غيبة الديمقراطية في الحياة الوطنية لجماعة من الجماعات. إذا كان الفرد في بيته لم يتعود الحوار ، وفي مجتمعه لم يشارك في الاختيار الوطني، فكيف

(١) أحمد عبد المعطي حجازي - الكتابة نزال دائم - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٨ - ٧ - ١٩٩٣ .

(٢) د. إدوارد سعيد - تغطية الإسلام ، كيف تتحكم وسائل الإعلام الغربي في تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم. (ترجمة : سميرة نعيم خوري) الطبعة الأولى - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٨٣. ص ١١.

نتصور أن عقله يتسع لحوار الحضارات وللارتباط الثقافي العالمي؟! وتقتل المجتمعات العشائرية وبعض بلدان العالم الثالث نموذجاً لذلك .

* من استمع إلي خطاب رئيس وزراء إسرائيل في أول نوفمبر ١٩٩١ في مؤتمر السلام في مدريد يستطيع أن يتصور أن الأيدلوجية المغلقة تقتل سداً أمام الاتصال الحضاري .

* من أسباب فشل الاتصال الحضاري غيبة الندية فإذا كان الطرف الغني اقتصادياً يتحاور من موقف الاستعلاء ، والطرف الفقير يتحاور من موقف الاستجداء والاستخذاء ، فشل الحوار ثقافياً وإعلامياً .

ولعل فشل الحوار بين الشمال والجنوب وفشل النظام الإعلامي الجديد في الربع الأخير من القرن العشرين نموذج علي ذلك .

* تراكم التشويه يمثل حاجزاً ، ولنضرب مثلاً بصورة العربي في الإنتاج الثقافي والإعلامي الغربي خلال القرن العشرين ، إنها صورة تهدم كافة محاولات الحوار والتفاعل الثقافي.

* إن نجاح القيم الثقافية في اختراق ثقافة أخرى ليس بالضرورة دليلاً علي صحتها ، وقد أصبح من المسلم به في علم التنمية أن انتقال القيم يجلب معه أخطار استهلاك لا تعبر بالضرورة عن التقدم الإنساني أو الحضاري بقدر ما تعكس عادات الدولة الأعظم . وربما مثل ذلك العقبة الأساسية أمام صوغ استراتيجية تنمية ناجحة كما يقول « فورتادو » ، وكان ابن خلدون قد عبر عن هذه الفكرة أحسن تعبير عندما ذكر أن المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب اعتقاداً منه أنه لولا صحة العوائد والقيم التي يملكها لما غلب وسيطر . بينما الصحيح أن أسباب القوة والغلبة ليست موجودة كلها في الثقافة أو مستمدة منها . « والواقع أن الفرق بين التبعية الثقافية والتبادل الثقافي ناجم هو نفسه من طبيعة العلاقة القائمة بين الثقافات . فالتبادل يقتضي الحد الأدنى من التكافؤ بين الثقافتين المتبادلتين ، سواء أكان ذلك علي مستوى الامكانيات أو علي مستوى التمكن الحضاري . أما الغزو أو الامبريالية الثقافية فهي الناتج الطبيعي لكل تبادل بين ثقافات غير متكافئة . وإذا كان من الصحيح أن إعاقلة التبادل الحر للأفكار من الأمور المفقرة للثقافة والتي لا يمكن أن تقود علي المدى الطويل إلا إلي التخلف الثقافي ، ومن ثم التخلي المتزايد عن الهوية ، فإن من الصحيح أيضاً أن هذا التبادل ليس متساوياً ولا متكافئاً ، ولا يمكن أن يكون في أي حال بين ثقافات ليست علي درجة واحدة من النضج الحضاري ولا تتمتع بالوسائل والإمكانات والقدرات التقنية والمادية والسياسية نفسها . والمشكلة التي تواجهها الثقافات النامية هي إذن مشكلة حقيقية ، فالانفتاح يهدد بالاستيلاء والاتغلق علي الذات يهدد بالافتقار والانحطاط والتقهقر الحضاري ، وأمام هذه المشكلة المعقدة لا يمكن للمسؤولين السياسيين استسهال الحلول بفرض الرقابة الثقافية أو بالعكس ، وفي اعتقادنا أنه إذا كان من الضروري التأكيد علي عدم جدوي الانغلاق ومخاطره فإن تبني نظام التبادل الفكري والثقافي الحر لا يمكن أن يعطي نتائجاً إيجابية في العالم النامي إذا أصر علي عدم إدراك مخاطر الانفتاح وسلبياته .

ومن هنا فإن الصراع بين أنصار مفهوم التبعية الثقافية. وأنصار مفهوم الحرية الثقافية لا يمكن أن يجد علاجه إلا في تطوير مفهوم جديد هو السياسة الثقافية . وتعني السياسة الثقافية مجمل الاستراتيجيات التي تصوغها جماعة ما من أجل تنظيم علاقاتها الثقافية مع الثقافات الأخرى بحيث تستطيع أن تنمي التبادل الثقافي بقدر ما تستطيع ، مع العناية في الوقت نفسه بتطوير كل الوسائل الممكنة لمقاومة الآثار السلبية التي يبعثها عدم التكافؤ الحضاري بين الثقافات بحيث تكون الثقافة الوطنية هي المستفيدة الرئيسية من التبادل وليس العكس . فلا بد إذن من مرافقة الانفتاح بسياسات إضافية يكون في مقدمتها دعم الإبداع الثقافي الوطني وتوسيع دائرة الإنتاج المحلي بالتعاون مع الثقافات القريبة في الوطن العربي ، من خلال صوغ استراتيجية تنشيط وتنمية ثقافية شاملة ومشتركة . فليس الحل إذن في غلق الباب أمام الأفكار ولكنه لا يمكن أيضا في تجاهل علاقات السيطرة التي تميز التبادل الثقافي ، ومن ثم الاستسلام إلى فكرة العالمية الثقافية التي كثيرا ما تخفي تخلي الدولة عن مسؤولياتها الأساسية في حماية الثقافة القومية ودعم الإنتاج المحلي .

وهذا يعني أن التبادل هو شرط البقاء الأول لكل الثقافات الإنسانية التي لا تريد أن تسقط في القدم والجمود والتحجر . ولكن مقاومة روح الاستسلام والتسليم التي تقود إلى قتل ملكة الإبداع والالتهام لدي الثقافات الأضعف . هي شرط تحقيق هذا التبادل المثمر ومكافحة نزعة الانحياز الثقافي والاعترا ب ونزع الشخصية وهذا لا يعني تحديد حرية الثقافة بقدر ما يعني خلق الحوافز ووضع الإمكانيات التي تنظم هذا التبادل وتسمح له أن يتحقق فعلا بما هو أخذ وعطاء وليس استسلاما واستهلاك . ويتعلق الأمر هنا إذن بصوغ خطط التنمية الثقافية عامة وتشجيع الإبداع المحلي وتحرير المجال الثقافي الداخلي وتوسيع التبادل بين الأقطار النامية نفسها .^(١) »

كان الأمل معقودا بالتقدم التكنولوجي لزيادة الاتصال الثقافي . ولكن هذا التقدم أصبح موضعاً للتشاور في ذلك الشأن . والكاتب المصري محمد سيد أحمد^(٢) يرى أن التقدم التكنولوجي له نتائج سلبية علي الديمقراطية ويقول :

« في الندوة التي عقدها مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام حول « انهيار الاتحاد السوفييتي وتأثيراته علي الوطن العربي » ، جادلني الدكتور سعد الدين ابراهيم حول صحة إدعائي بأن التكنولوجيا المعاصرة تتعارض مع الديمقراطية .. وهذه إشكالية اعتقد أنها جديرة بأن نؤمن النظر فيها .. فقد يقال - وهذا ما قاله الدكتور سعد الدين ابراهيم بالفعل - إن أحد أهم منجزات الثورة التكنولوجية العصرية هو ما يسمى بثورة المعلومات والاتصالات .. أي ثورة انتشار المعلومات علي نحو غير مسبوق .. بفضل الكمبيوتر ، والإذاعة ، والتلفزيون ،

(١) د. برهان غليون - الثقافة العربية بين التبعية والتبادل - جريدة الخليج - بتاريخ ٢٠ - ١٢ - ١٩٨٩ .

(٢) محمد سيد أحمد - هل تكنولوجيا العصر ضد الديمقراطية - جريدة الأهرام بتاريخ ٥ - ٣ - ١٩٩٢ .

وغير ذلك من تكنولوجيات الاتصال الفوري بالطرق المرئية السماعية .. ومعنى ذلك هو تنمية وعي الجماهير علي نحو غير مسبوق هو الآخر .. وأن انتشار الوعي هو أحد أهم مقومات الديمقراطية ..

غير أن الإشكالية التي أ طرحها هي أن التكنولوجيا العصرية تحمل في طياتها تعميق أوجه عدم التكافؤ في نمو المجتمعات ، وقابلية المجتمعات المتفوقة تكنولوجيا علي تعظيم شأن تفوقها باستمرار ، وزيادة البون اتساعا علي الدوام بينها وبين المجتمعات الأقل تقدما ، مما يعني خلق مجتمع دولي « هرمي » تتعزز فيه التباينات لا المساواة بين أطرافه .. وفي ذلك إهدار للديمقراطية لا ترسيخ لمقوماتها ، ووقوف التكنولوجيا عقبة في وجه « ديمقراطية » Demo-Cratization الحياة الدولية .. ولذلك أسأل : لأي من وجهي التكنولوجيا العصرية الأسبقية ، وجهها « الديمقراطي » الناجم عن خاصية أنها قد ابتدعت فرصا عظيمة « لنشر الوعي » ، أم وجهها « المناهض للديمقراطية » الناجم عن أن فرص المتفوق تكنولوجيا لتعظيم شأن تفوقه أمر لا يقاوم .. ومن هنا كان اللحاق به متعذرا المنال ؟ وأزعم أن وجه التكنولوجيا المناهض للديمقراطية هو الأكثر بروزا .. وأسوق في ذلك ثلاث حجج أعتقد أنها لا تحتمل الإغفال :

* حجتى الأولى هي أن انتشار الوعي بفضل ثورة الإعلام والمواصلات العصرية ينطوي علي خطر نشر « وعي مزيف » مهدر لاستقلالية الرأي وبالتالي للديمقراطية ، لا العكس ، ذلك أن ما تذيبه أدوات الإعلام المرئية السماعية هي معلومات يجري انتقاؤها ، وتصنيفها ، وتفسيرها ، وفق رؤية - وبالتالي مصالح - المجتمعات المتقدمة المتفوقة تكنولوجيا .. وليس هناك انتقاء للمعلومات ، ولا تصنيف وتفسير لها ، منزه عن كل غرض .. ويحمل ذلك خطر إضفاء صفة « العمومية » ، و « الموضوعية » ، و « الإطلاع » علي رؤى هي في حقيقتها « خاصة » و « ذاتية » و « نسبية » ، ومعبرة في النهاية عن المجتمعات صاحبة القدرة علي بث هذه المعلومات .. وهنا مصدر « تزييف الوعي » ..

* حجتى الثانية هي أن التكنولوجيا المتقدمة قد أصبحت تخوض مجالات تحمل بحكم طبيعتها إمكانية « تحريف » الوعي وتوجيهه وفق مشيئة رواد استكشاف هذه المجالات .. فإن هناك إنجازات خطيرة تجري الآن فيما يعرف بمجال « الذكاء الاصطناعي » ، ثم في مجال « الهندسة الوراثية » ، وهذه بعض علوم العصر التي تنطوي علي فرص خارقة للتلاعب بمقدرات المخلوقات ، علي نحو لا سابقة له عبر التاريخ كله .. فعندما تصطدم المصالح بين دول متفاوتة القدرة التكنولوجية ، ألا تتيح هذه العلوم الجديدة للدول مالكة هذه التكنولوجيات فرصة « التدخل » في شئون المجتمعات المتخلفة ، ولو بطرق « التحكم عن بعد » Remote Control ؟ .. وأين ذلك من « ديمقراطية » الحياة الدولية ؟ .

* وحجتى الثالثة هي أن إحساس المجتمعات المتخلفة بأنها عرضة لأن يتلاعب الغير بمقدراتها إنما يعزز لديها ردود أفعال تزيدها عجزا - لا العكس - عن مجاراة المجتمعات المتفوقة

تكنولوجيا ، ناهيك عن اللحاق بها .. فإن الإحباط يفرز الإحساس بالغربة نحو الغير ، وبالهوية الجريحة ، والافتكاء على الذات والهروب من المستقبل المجهول إلى ماضٍ معروف أو مفترض إنه معروف ، وبالتالي تعاطف شأن « السلفية » .. وتنطوي السلفية - بشكل أو آخر - على حرمان لا تمس ، ومحاذاير يتوجب عدم التصدي لها ، وهذه آلية من شأنها الحد من فرصها في ملاحقة المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا وخوض حلبة منافستها ومزاحمتها .. ذلك أن هناك تخليا - ابتداء - من مجالات عديدة أصبحت تخوضها هذه المجتمعات المتقدمة دون شعور بالحرج ، وفي أحوال كثيرة بعمل إبداعي خارق ، ونتائج باهرة ..

هل من سبيل لجعل تكنولوجيا العصر تخدم ولا تهدر الديمقراطية ؟ هل من سبل لاكتشاف قاسم مشترك بين « التكنولوجيا » و « الديمقراطية » يحقق تكاملهما لا تعارضهما ؟

هناك بالطبع العامل « البشري » .. « الإنسان » .. « أئمن رأسمال » ! .. فإن التكنولوجيا ، مهما تقدمت فإنها لم تنجح - على الأقل حتى الآن - في اختراع « إنسان آلي » Robot يملك مواهب وخواص تتخطى قدرات عقل الإنسان .. وما زالت الأسبقية « للبشر » لا « للآلة » ..

كذلك فإن الديمقراطية لا تقوم أصلا بدون مشاركة « بشرية » فعالة .. ومن هنا كانت « التنمية البشرية » عنصرا جوهريا في كل جهد « تنموي » عصري .. إن تنمية ملكات الإنسان وقدراته هي العنصر التنموي الوحيد الذي لا يتوقف على الموارد الطبيعية وتباينها مع اختلاف الموقع الجغرافي ، ولا على مدى التقدم الاجتماعي وتباينه من جراثيم المجتمعات نمو غير متكافئ ، بالذات في عصر التكنولوجيات المتقدمة ..

غير أن عملية « التنمية البشرية » تطرح بدورها معضلات عويصة ، منها إرساء أسس ونهج « التعليم العصري » القائم على الإبداع لا التلقين ، في مجتمعات ما زالت أسيرة التخلف ويستبد بالكثير منها إحساس عارم بالإحباط وانعدام الثقة في النفس .. إن التكنولوجيا ، كي يصح التحكم فيها ممكنا ، لا يكفي اقتناؤها بل لا مناص من الإسهام في صنعها ، ويفتضي ذلك بدوره توفير الفكر العلمي العصري المستنير ، حتي يصبح هذا الإسهام واردا أصلا .. فهل هذا متاح ؟

هذه المحييات للآثار السلبية للتقدم التكنولوجي يزيدها سيطرة الاحتكارات على سوق الإعلام سيطرة تتضاءل أمامها الاحتكارات الإعلامية في منتصف القرن العشرين . فهذه صحيفة الجارديان محدثنا عن امبراطورية ميردوخ الإعلامية (١٩٩٣) بما يجعل احتكارات منتصف القرن العشرين الإعلامية أقزاما أمام العملاق الجديد بفضل التقدم التكنولوجي . تقول الجارديان :

« روبرت ميردوخ ظهر في الأفق من جديد ليحتل اسمه المانشيتات الرئيسية للصحف بعد أن وقع اتفاقا تاريخيا مع شركة الأقمار الصناعية للأخبار والدعاية الآسيوية يحصل بمقتضاه على حق امتياز البث الفضائي المباشر إلى دول آسيا والشرق الأوسط وهو ما يحوله إلى صاحب أضخم

وأخطر امبراطورية إعلامية في العالم .

فقد أصبح صاحب سيطرة ونفوذ علي آسيا أو بالأحرى العالم الصناعي الآسيوي المذهل الذي حقق ويحقق إنجازات وطفرة تكنولوجية ضخمة بسببها أطلق علي القرن القادم قرن آسيا العملاقة . وبهذا الاتفاق تنضم آسيا إلي المستقبلين لبث امبراطورية ميردوخ الإعلامية التي تغطي بالفعل الولايات المتحدة وأوروبا وأستراليا ، ليصبح عدد المستقبلين لإعلام هذه الامبراطورية أكثر من ثلثي سكان العالم .

بوصول ميردوخ إلي آسيا بالبث المباشر يحقق معادلة التخاطب والاتصال بعقول الآسيويين الجبارة في محاولة وصفت بأنها تهدف إلي التأثير المباشر عليهم وعلي أنماط حياتهم ومفاهيمهم حول العالم ، وذلك في وقت فشلت فيه السياسات في الحد من الانطلاق الآسيوي الضخم ، فلم تنجح الإجراءات الحمائية والعراقيل والاتفاقات التي سرعان ما تنهار ولا تؤتي ثمارها في وقف هذا الزحف الآسيوي والطوفان الهائل المذهل لتقدم هذا العملاء الأصفر ، وعلي ما يبدو أن استقبال ثلاثة مليارات للبث المباشر المكثف والملح أصبح بديلا مطروحا وقابلا لتحقيق ما عجزت عنه السياسات والإجراءات الاقتصادية .

إن التغطية الفضائية قد أصبحت سوقا رائجة للتدخل وإحداث تغييرات أكبر وأخطر من التدخلات العسكرية والحصارات الاقتصادية أو سياسات المنع والمنع .. فعن طريق الضغط علي مجموعة مفاتيح ينتقل العالم إلي شاشات التلفزيونات ، لتستمتع الأرض إلي محطات الفضاء التي سوف تستقي وتتلاعب بكل فنون التكنولوجيا الحديثة في تقديم الأخبار والأحداث والوقائع والأفلام ، شبكة ضخمة من المعلومات هدفها العقول والاختراق . وفي رأي آرثر سيسكيند نائب رئيس الشركة الجديدة . إن العالم لن يحارب بالرصاص والذخيرة الحية ، وإنما الحرب ستكون بالإعلام والدعاية ، فالعالم أصبح في متناول اليد بفضل هذا البث المباشر والقوي ذي التأثير المذهل .

لقد تخصصت معاهد ودراسات في دراسة التأثير علي البشر وأنماطهم وبناء علي هذه الدراسات توجه البرامج والأفلام والأخبار لتحديث التأثير المطلوب والاستجابة المرجوة .

إن الإنسان - وفقا لتصور مثل هذه الشركات العملاقة - سوف يعاد برمجته ، وبالرغم من الإطار العريض لما يسمى بحرية تواصل المعلومات والأفكار والخبرات ، فإن الحرية بمفهومها الكلاسيكي ستكون موضع شك !! تظهر الصورة واضحة في كل من الصين والهند والهند الصينية التي ظلت لفترات طويلة تحت سيطرة الدولة علي مستوي الإذاعة والتلفزيون والصحف ، بمعنى آخر احتكار الدولة لمصادر الأخبار والمعلومات .. إن هذه المناطق حديثة العهد بالانفتاح الإعلامي ، ستكون متشوقة وغير قادرة علي التمييز بين التحيز أو الميل ، والموضوعية .. وبالتالي تتحول إلي ثلاث أسواق يمكن إثبات قدرة البث الفضائي المباشر علي التأثير فيها ووقوعها في متناول يد الزحف الإعلامي الخارجي الذي سوف يتجاوز مجرد نقل المعلومات أو الأفكار إلي إلحاح مكثف

مدروس من أجل إحداث انقلابات عقائدية وفكرية ويكون لها ما يسمى « بالفيديباك » أو مردود الرسالة الاتصالية .. إن لغة الاتصال وما صاحبها من تقدم تكنولوجي مذهل من فنون التصوير والتورية والمونتاج والتقديم والتأخير ، أصبحت لغة لا تقاوم خاصة مع وضع الشعوب التي كانت تحت سيطرة الدولة فترة طويلة لم يكن فيها التخاطب إلا من مستوى فوقي إلى مستوى تحتي .

ولذلك فإن نجاح هذه الشركات اقتصادياً ومالياً ، يصبح عاملاً من ضمن عوامل النجاح الحقيقي ، فإن هذه الشركات تصبح شركات نفوذ وسيطرة وتحكم تتحول إلى مؤسسات للهيمنة السياسية والاقتصادية علي مستوى عال . مما يجعلها تتحرك وسط أهداف مدروسة وموجهة .

ميرودوخ عاد من جديد ليصبح المسيطر علي أكبر امبراطورية إعلامية توجه أفكار العالم ..^(١)

أمام هذه السدود من معوقات الاتصال الثقافي هل نقف عرباً ومسلمين مكتوفي الأيدي ؟ الجواب : ينبغي أن نحاول . وإذا كنا نتحدث عن ترشيد الفكر الإسلامي فإن الترويج له لا يقل أهمية عن ترشيده « برغم أنه من غير المشكوك فيه أن السيطرة علي « الأخبار » و« الصور » في الغرب ليست في أيدي المسلمين ، إلا أنه من غير المشكوك فيه أيضاً أن ما يحول دون قيامهم بأي عمل في هذا الخصوص لا يعدو أن يكون التأخر الإجمالي للمسلمين في فهم أسباب اعتمادهم واتكالهم . فلا تستطيع الدول الغنية بالنفط ، مثلاً ، أن تشكو من نقص الموارد . إن ما ينقصهم هو قرار سياسي منسق لاقتحام العالم جدياً ، وهو نقص يثبت أن الدول المسلمة ليست معبأة أو متماسكة سياسياً بعد ، ناهيك عن أن تكون قوة موحدة ، فهناك الكثير من المواهب التي يجب تشجيعها أولاً ، وليس أقلها شأنها القدرة علي إنتاج صورة ذاتية واعية قوية وصياغتها ، ثم تقويم جدي للقيم الإيجابية التي يدافع عنها المسلمون بطرق مختلفة . ثم إيصال ذلك إلي بقية العالم .

ولا عذر لمن يندوبون عدا « الغرب » تجاه العرب والإسلام ، ثم يتقاعسون في تقوي غاضية . حين يتم التحليل الجري لأسباب هذا العدا ولتلك المظاهر في الغرب التي تثيره ، فإن خطوات واسعة في سبيل تغييره قد اتخذت^(٢) .

ب - وسائل الاتصال الثقافي :

أكثر ما يكون الخلط عند الحديث عن الاتصال الثقافي أو الاتصال الحضاري في الوسائل . فكثير من الباحثين يخلط وسائل الإعلام بوسائل الاتصال الثقافي . وإذا كان من الطبيعي أن تشترك بعض الوسائل في الحقلين إلا أن للاتصال الثقافي وسائل يختص بها ووسائله ملامحها

(١) العالم في قبضة ميرودوخ - ترجمة عن صحيفة الجارديان الانجليزية - جريدة الأهرام بتاريخ ١٤ - ٨ - ١٩٩٣ .

(٢) د . إدوارد سعيد - تغطية الإسلام - مرجع سابق - ص ٨٩ .

الخاصة وسماتها المحددة . ويمكن حصر أهم وسائل الاتصال الثقافي والحضاري فيما يلي :

١- السياحة :

مع تقدم وسائل النقل برا وبحرا وجوا . ومع ازدياد الرغبة الإنسانية في المعرفة والمشاهدة . ومع توفر الوقت لدى الناس بسبب الاعتماد الجزئي علي الآلات في الإنتاج والخدمات . مع كل ذلك أصبحت السياحة في عالمنا المعاصر وسيلة من وسائل الاتصال الثقافي والحضاري . ولقد بينت الإحصائيات أن حركة السياحة العالمية في ازدياد مستمر . وأن توقعات الخبراء تؤكد الزيادة الكبيرة في المستقبل . وبرغم ما تبرزه الإحصائيات الدولية من أن حركة السياحة عالميا تتجه إلي أماكن الاستجمام والراحة والتسلية ، بعد أن كانت من قبل تتجه إلي الآثار .. برغم ذلك فإن الاتصال الثقافي والحضاري يجد طريقه في أوجه النشاط الإنساني المختلفة بين السانحين والبلدان التي يزورونها . ومن الجدير بالملاحظة أن الدول المتقدمة تحظى بنصيب الأسد من حركة السياحة العالمية.

٢- الحج :

في كثير من الديانات يُعدّ الحج مناسكا من مناسكها . وفي واقعنا الإسلامي يعد الحج ركنا من أركان الإسلام . والحج في الإسلام حجان . بضعة أيام في الشهر الأخير من العام القمري، ويسمى الحج الأكبر ، وله مناسك محددة في أماكن معينة داخل مكة وعلي أطرافها . ثم حج طوال الأيام الأخرى من العام وعلي مدار الليل والنهار ويسمى العمرة أو الحج الأصغر . هذان الحجان في الإسلام يمثلان مؤتمرا سنويا عالميا في الحج الأكبر ولقاء مفتوحا مستمرا طوال العام في العمرة . وفي صور الحج المختلفة نجد وسيلة اتصال ثقافي متميزة ، لأن جموع الحجاج تكون عادة في حالة من الشعور بالانتماء لعقيدة واحدة مما ييسر التقارب ، ويزيد من فاعلية الاتصال إن وجد.

٣- الحروب :

ليست كل الحروب بطبيعة الحال وسائل اتصال ثقافي وحضاري . فحروب القبائل العربية في الجاهلية مثل حرب « داحس والغبراء » ليست وسيلة اتصال ثقافي . ولكن الفتوح الإسلامية؛ والحروب الصليبية برغم ما بين كل منهما من اختلاف شديد في الأهداف إلا أنهما كانتا من الحروب التي تعد من وسائل الاتصال الثقافي . والحملة الفرنسية علي مصر التي استمرت نحو ثلاث سنوات تعد أيضا من وسائل الاتصال الثقافي . في حين أن الاستعمار الفرنسي للشمال الأفريقي لم يكن كذلك . وإنما كان غزوا فكريا أو بمعنى أدق نموذجا للغزو الفكري في القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين . والفرق بين الحروب التي تعد من وسائل الاتصال الثقافي والحروب التي لا تعد من وسائل الاتصال الثقافي لا يكمن في أهدافها ، وإنما يكمن في الظروف الموضوعية وفي الفترة التاريخية وفي غو حضارة أو اضمحلالها . تلك الأحوال مجتمعة هي التي تجعل من حروب وسيلة اتصال ثقافي ومن حروب أخرى ليست وسيلة اتصال ثقافي .

فإذا نظرنا إلى الفتوح الإسلامية نجد أن الجزيرة العربية أصبحت في أواخر عهد الرسول ﷺ تدين بالإسلام . وجاء بعده الصديق ينفذ ما كان قد اعتزمه النبي في تسيير الجيش الإسلامي إلى الشام بقيادة أسامة بن زيد ، ليرفع عن أهلها طاغوت حكم الروم . وجاء عمر بن الخطاب ليكمل مسيرة الفتوح التي تتابعت كما السيل . ففي سنة ١٧هـ أصبحت فلسطين والأردن وسورية ولبنان والعراق تحت اللواء الإسلامي . وفي سنة ٢٠هـ أصبحت مصر في حوزة الإسلام . وفي سنة ٢١هـ دخلت فارس تحت مظلة الفتح الإسلامي وفي سنة ٣٥هـ بلغت الفتوح الإسلامية الشمال الإفريقي . وفي سنة ٥٦هـ أصبحت سمرقند تحت اللواء الإسلامي . وفي سنة ٩٦هـ وصل اللواء الإسلامي الأندلس حتى جبال البرانس ، ووصل اللواء حتى حدود الصين . وكان في طليعة الجيوش الإسلامية صحابة رسول الله وكانوا كلما دخلوا بلدا أقاموا مسجدا ، ومكث بعض الصحابة والتابعين ينشرون الإسلام . وكان الخلفاء يمدون البلدان المفتوحة بالعلماء ، وبسرعة أصبحت في تلك الأقاليم مراكز علمية ، مزدهرة . ففي الكوفة مثلا هبط ثلاثمائة ممن كانوا مع النبي في الحديبية ، وسبعون من أهل بدر . وفي البصرة كان الصحابي أنس بن مالك والصحابي عبد الله بن عباس وغيرهم كثير .

ويروي الحسن البصري أنه أدرك ٥٠٠ من الصحابة في الشام وقد كتب « يزيد بن أبي سفيان » الوالي إلى عمر بن الخطاب ليعينه بالعلماء ليقفوا أهل الشام ، فأرسل إليه معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء ، فأقام عبادة في حمص ، وأبو الدرداء في دمشق ، ومعاذ في فلسطين . وإلى جانب هؤلاء أعلام من الصحابة مثل بلال بن رباح وخالد بن الوليد والفضل ابن العباس بن عبد المطلب المدفون بالأردن . وفي مصر كان الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن أبي السرح . وهكذا كان الشأن في شمال أفريقيا ، والأندلس ، واليمن ، وخراسان ، وسمرقند .

وفي حديثنا عن الحروب باعتبارها وسيلة اتصال ثقافي وحضاري لاندروس المنتصر أو المهزوم ، وإنما ندرس الاتصال الثقافي من بيئة متحضرة إلى أخرى في مرحلة التقبل الحضاري أو الاستعداد الحضاري أو التهيؤ الحضاري ، ويحدثنا التاريخ عن سريان الاتصال الثقافي والحضاري من المهزوم إلى المنتصر في بعض الظروف ، لقد استولي المغول على بغداد سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨ م) وضربوها تماما ، وخنقوا آخر العباسيين المعتصم بالله بأمر رئيس الغالبين (هولاكو) . ونهبوا ما في بغداد من أموال وحرقوا كتبها التي جمعها قبل هذه الكارثة الهائلة محبو العلم ، وألقوها في نهر دجلة ، فتألف منها جسر كان يمكن للناس أن يمشوا عليه رجالا وركبانا . وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها ، كما روي قطب الدين الحنفي ، ولكن أولئك (الوحوش الضارية) الذين أضرموا النار في المباني ودمروا الكتب وخرّبوا كل شيء نالته أيديهم ، خضعوا لسلطان حضارة المغوليين بدورهم ، حتى أن هولاكو الذي خرب بغداد وأمر بجر جثة آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره ، فلم يلبث أن صار من حماة . وفي المدرسة العربية تمدن المغول ، واعتنقوا دين العرب وحضارتهم . وشملوا متفنيي العرب وعلماهم برعايتهم . وأقاموا

في بلاد الهند دولة قوية عربية وذلك لأنهم أحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة ^(١) .

وإذا كان سريان الاتصال الثقافي والحضاري في الحروب يتم أحيانا من المنتصر وأحيانا من المهزوم كذلك فإن حروبا تمتد إلى أكثر من قرنين وأخرى لا تتجاوز أعواما ثلاثة يحقق كل منهما الاتصال الثقافي والحضاري . ومثال الأولي الحروب الصليبية ومثال الثانية الحملة الفرنسية على مصر .

ولطالما ذكرت الحروب الصليبية كلما ذكر تاريخ الحضارات . ولطالما اختلف الباحثون حول دورها في نقل الحضارة العربية إلى أوروبا . وقد رأى البعض أن للحروب الصليبية الفضل الأول في نقل الحضارة العربية إلى أوروبا ولكن مؤرخا مشهورا مثل « جوستاف لوبون » لم ير للحروب الصليبية كبير فضل في تدوين أوروبا . وهو يذهب إلى القول بأن ما اقتبس الأوروبيون أثناء الحروب الصليبية هو وسائل ترف الشرقيين . وطراز العمارة والصناعة ، وهو يخالف كثيرا من المؤرخين في استفادة الصليبيين من علوم العرب الخالصة ، ويقول إنها كانت قليلة جدا بسبب عدم إدراك الجيوش الصليبية للمعارف وأصولها . وقد يكون هذا الرأي مناسبا لأول العهد في الحروب الصليبية ولكنه لا يناسب الحال بعد مرور قرنين على دخول الصليبيين بيت المقدس في ١٥ يوليو عام ١٠٩٩ م . غير أن « لوبون » يعترف بأن تضعف النظام الاقتصادي في فرنسا وإيطاليا كان نتيجة للحروب الصليبية . ويؤكد على تأثير الحروب الصليبية في الصناعة والفنون « فقد استوقفت نفائس الشرق الباهرة أنظار « السنيورات » الصليبيين مع جلفهم فوجدوا في التجارة وسيلة تقليدها ، فنرى اقتباس نفائس الشرق في أسلحة الغرب وثيابه ومسكنه في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر على الخصوص . وكلما نمت النفائس أدت إلى تقدم الصناعة بحكم الضرورة . وتبحث الصناعة عن المنتجات التي تطلبها التجارة منها بطبيعة الحال فتحفزها الضرورة إلى القيام بذلك من فورها . وإذا كانت صناعة الخشب والمعادن والزجاج تتطلب معارف كثيرة فقد اقتبسها الأوروبيون من آسيا مع جهلهم لها قبل دور الحروب الصليبية . وعم أمرها بذلك في أوروبا فعن « صور » أخذت « البندقية » نماذج صناعة الزجاج . وعن المسلمين أخذت أوروبا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة ، وعن « سورية » أخذ عمال الحملات الصليبية التي دام أمرها قرنين وصانعو أسلحتهم ومهندسيها وتجارها ومن إليهم ما كانوا يجهلون من المعارف الصناعية . وذلك في أثناء إقامتهم الطويلة بها ، وكان تأثير فنون الشرق في الغرب عظيما أيضا فقد نشأ عن إبلاص الصليبيين ضروب منتجات الشرق الممتد من القسطنطينية إلى مصر تهذيب أذواقهم الغليظة . ولم يلبث فن العمارة أن تحول في أوروبا تحولا تاما » .

ومثلما كثر الجدل والنقاش حول الحروب الصليبية ودورها في نقل الحضارة كذلك كثر الجدل حول دور الحملة الفرنسية في النهضة المصرية الحديثة . فيذهب بعض المؤرخين إلى اعتبار أن الحملة

(١) جوستاف لوبون - حضارة العرب - (ترجمة عادل زعبيتر) الطبعة الرابعة - مطبعة عيسى البابي - القاهرة - ١٩٦٤ ص ١٧٨ .

الفرنسية علي مصر هي التي فتحت عيون المصريين علي الحضارة الغربية المعاصرة . والبعض الآخر ينكر دورها ويذهب إلي أن فترة الحملة التي تقل عن ثلاثة أعوام لا يمكن أن يكون لها دور تاريخي في أعمار الشعوب . ولكن الدكتور حسين نصار^(١) . يوائم بين فترة الحملة ودورها الحضاري بالنظر إلي حالة التهيؤ للشعب المصري في ذلك الوقت . فهو ينظر إلي الأمر من موضع آخر ، فالنهضة - من وجهة نظره - علامة علي السخط علي الموجود والسعي إلي تغييره ، وعلي ذلك فإنه يجد هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في ولاية علي بك الكبير في عام ١٧٦٠ الذي يعد عهده بداية حقبة جديدة ، والدليل علي ذلك تلك الحركة الشعبية التي جاءت مواكبة لحركته ضد الدولة العثمانية ، ومتأثرة بها ، كالتتي قامت بها جماهير مصر في أثناء الحملة الفرنسية ، وبعدها ، إلي أن نصبوا محمد علي واليا عليهم .

ويؤكد الدكتور حسين نصار علي أهمية التأثير الفرنسي في إشعال النهضة ولكنه يرفض أن يكون هذا التأثير هو الباعث الأول لهذه النهضة ، ويرى أن مجيء الحملة الفرنسية المبكر بعد ثورة علي بك كان له أثره في توجيه النهضة الوجهة التي أخذتها . فقد جعل ذلك مصر أول دولة عربية أغلبية شعبها مسلمة تقع تحت التأثير المباشر للتفكير الغربي ، أو تتصل به اتصالات مباشرة ومتعددة . مما أدى إلي تغير الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها تغيرا هاما . وكانت بذلك أول دولة عربية مسلمة تستجيب لهذا التغير .

ويرد الدكتور حسين نصار علي إدعاء البعض بأن لبنان سبقت مصر في الاتصال والتأثر بالفكر الفرنسي وعمقه ، قائلا بأنه يعترف بأن ذلك حق ، ولكن في بعض المجالات ، كما أن هذا التأثير اقتصر علي لبنان في غالبه لوجود الأثرية المسيحية وخاصة المارونية . أما التأثير المصري فكان في خصوصية أرض مصر ، فنقل ثماره إلي بقية الأقطار العربية وعرفها بها ، وأتاح لها التأثير فيها ، ويرجع ذلك إلي عدم وجود فروق أو حساسيات بين شعوب هذه الأقطار والشعب المصري . بالإضافة إلي أن مصر لم تكن تأخذ الظاهرة الأوروبية علي علاتها ، بل تنتقي منها ما يلائمها ، أو تخضعها لتحويل ، يجعلها مناسبة للمجتمع المصري العربي ، في كثير من الأحيان مما يجعلها مقبولة عند الآخرين » .

والسؤال الجدير بالاهتمام هو : هل تظل بعض الحروب وسيلة اتصال حضاري ؟ إن حروب اليوم اختلفت عن حروب الأمس في عنصر الاتصال ففي أيامنا هذه تدور الحروب دون أن يري الجنود وجوه أعدائهم . ولكن الحروب ستظل . بل ربما تبقى القاعدة هي الحروب والاستثناء هو السلام . لقد أحصي « ويل ديورانت » مؤلف قصة الحضارة سنوات السلم خلال أربعين قرنا

(١) د. حسين نصار - دور مصر الثقافي - العصر الحديث - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣ / ٥ / ١٩٨٢ .

فوجدنا أقل من ثلاثة قرون . لذلك نستطيع أن نقرر بأن بعض الحروب أدت دورا في الاتصال الحضاري دون جدال وأن حروب الغد قد تقضي علي كل الحضارات دون تمييز . وذلك بسبب التقدم المذهل في أسلحة الدمار الشامل .

٤- الكتاب :

ليس كل كتاب بطبيعة الحال وسيلة اتصال ثقافي وحضاري . كذلك لا نذهب مع القائلين بأن الكتب السماوية وعلي وجه الخصوص (القرآن الكريم) وسائل اتصال حضاري أو ثقافي أو ما شابه ذلك . إن الكتب السماوية لها مواقعها الخاصة في هداية البشر ، وتنظيم حياتهم لكسب الدنيا والآخرة . وما نقصده بالكتاب باعتباره وسيلة اتصال حضاري وثقافي - الكتاب البشري الذي يؤلفه فرد أو جماعة سواء كان المؤلف معلوما أو مجهولا . الكتاب الذي ينتقل من حضارة إلي أخرى ، ومن بيئة إلي أخرى مؤثرا وحيا . ومثال ذلك كتاب (أقوال الأنبياء) الفرعوني الأصل والمجهول المؤلف والذي فقد أصله الهيروغليفي ، وترجم من اللغة اليونانية إلي اللاتينية في القرن الخامس الميلادي ، ثم إلي عدد من اللغات القديمة في ظل الكنيسة . وكتاب وصف مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وكتاب الأمير لمكيافلي ، وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكتاب الاليزا ، وكتاب رأس المال لكارل ماركس ، وكتاب كليلة ودمنة.

والكتاب بصفة عامة لا بد وأن يعكس الثقافة التي ينتمي إليها ، إن الإطلاع علي كتاب مدرسي في قواعد اللغة العربية والتعبير في الأزهر المعاصر . أو في مركز من مراكز تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها يختلف ثقافيا عن كتاب مدرسي في قواعد اللغة الفرنسية والتعبير في مدرسة فرنسية ، أو في مركز ثقافي فرنسي في قارات العالم .

وتمثل الترجمة - كما سبق القول - الجانب الأساسي في مجال الكتاب باعتباره وسيلة اتصال حضاري .

كذلك من الكتب التي تذكر في وسائل الاتصال الحضاري إنتاج المستشرقين والمعاجم المزدوجة اللغة .

٥- الفيلم السينمائي :

إذا كان من واجب الإعلام في أي مجتمع أن يقدم للمجتمع الدولي الشخصية الوطنية فإن (الفيلم) يقوم بهذا كله . وبصورة أكثر شمولاً وأوقع أثراً ، لأنه يستخدم عناصر الدراما ولا يقتصر علي عناصر الخبر . إن كل شعب من خلال أفلامه يريد أن يكون له صوت في الساحة العالمية سواء بقصد أو بغير قصد . وعندما اجتمعت اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الإعلام النابعة من منظمة اليونسكو عام ١٩٧٩ في باريس جاء في تقريرها عن مشكلات الإعلام في المجتمع الحديث ما يتعلق بالسينما علي وجه الخصوص في أربع نقاط رئيسية :

النقطة الأولى : يختلف التنظيم العالمي لصناعة الأفلام اختلافا كبيرا عن تنظيم وسائل

الإعلام الأخرى . وتأتي القارة الآسيوية في مقدمة البلاد المنتجة للأفلام ففي عام ١٩٧٥ أنتجت هذه القارة (١٩٦٠) فيلما طويلا من مجموع (٣٨٠٠) فيلم في العالم أجمع . وتعتبر الهند علي رأس المنتجين في العالم (٥١٠) تليها اليابان (٣٣٠) وتأتي أوروبا في المرتبة الثانية من ناحية الإنتاج (١١٢٠) حيث تتبوأ إيطاليا المرتبة الأولى (٢٣٠) تليها فرنسا (٢٢٠) أما الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي فقد أنتج كل منهما في عام ١٩٧٥ مائة وثمانين فيلما . ويتضح من ذلك أن أمريكا الشمالية وأوروبا لا تسيطران علي سوق الإنتاج كما هو الحال بالنسبة لبقية وسائل الإعلام .

النقطة الثانية : تلخص في أن كمية الأفلام المنتجة في كل بلد لا تشكل العامل الأساسي لتداولها أو للتأثير الذي تتركه علي الأنماط الثقافية علي الصعيد الدولي . إن تداول الأفلام تسوده المصالح التجارية وأحيانا المصالح الثقافية . وتأتي الولايات المتحدة في مقدمة الدول المصدرة للأفلام تليها إيطاليا وفرنسا فالمملكة المتحدة فالهند فالالاتحاد السوفييتي . ويعود الخلل هنا إلي أن البلاد الصناعية تتبوأ المرتبة الأولى في مجال التصدير بينما لا تحتل مثل هذه المكانة في مجال الإنتاج . كما أن توزيع الأفلام في العالم يخضع إلي حد كبير لعامل اللغة والثقافة . والأفلام الصينية خير مثل علي ذلك حيث توزع علي نطاق واسع في البلاد التي تضم بين سكانها عددا كبيرا من السكان الصينيين . بينما تبقى الأفلام المنتجة في لغات آسيوية أخرى ضمن حدود بلادها .

النقطة الثالثة : تتولي الشركات الخاصة إنتاج الأفلام الطويلة باستثناء ما كان سائدا في الدول الاشتراكية ، وعدد صغير من الدول الأخرى في مختلف أنحاء العالم . ولكن يزداد اهتمام الحكومات يوما بعد يوم بهذه الصناعة بحيث تعتبر اليوم أن المصلحة العامة تقتضي مساهمة الدولة في بعض حقول إنتاج الأفلام . وتحظي موضوعات معينة بالتشجيع علي شكل مساعدات . ولوحظ في السنين الأخيرة أن حوالي اثنتي عشرة حكومة أكثرها في أوروبا الغربية قد منحت المنتجين التجاريين إعانات لأسباب ثقافية أو اقتصادية . وفي أكثر البلاد يقتصر تدخل الدولة علي تطبيق الرقابة علي الأفلام أو تقييمها حسب فئات الجمهور الذي يتاح لفئاته مشاهدتها .

النقطة الرابعة : تهتم هذه الصناعة إلي جانب إنتاج الأفلام الطويلة بإنتاج أنواع أخرى من الأفلام . كالأفلام القصيرة عن أحداث الساعة ، والأفلام والصور المتحركة والأفلام الثقافية والأفلام التعليمية وما شابه ذلك . فإذا كانت الأنواع الثلاثة الأولى تصادف صعوبة للوصول إلي جمهور كبير فإن الأفلام الثقافية والتعليمية تسجل تقدما ملموسا بفضل التلفزيون والحفلات السينمائية التي تنظمها المدارس . ويقوم بإنتاج مثل هذه الأفلام إلي جانب الشركات التجارية أجهزة الدولة ومجالس السينما وشركات الإذاعة التي قد تقتصر مساهمتها علي العون المالي فقط .

٦- تبادل الوفود والبعثات :

بدأً من السفارات إلى فرق الفنون الوطنية تعد كل أشكال تبادل الوفود والبعثات وسائل اتصال ثقافي . وهي وسيلة موهلة في القدم من وسائل الاتصال الثقافي . ولكن ظهور ما سمي بالدبلوماسية الشعبية في القرن العشرين الميلادي جعل هذه الوسيلة أكثر فاعلية مما سبق من عصور . وتتمثل الدبلوماسية الشعبية في تبادل الزيارات وعقد الندوات والمؤتمرات بين المحادات العمال والشباب وما إلى ذلك من منظمات شعبية .

وتحظى البعثات التعليمية بأهمية خاصة في هذا المجال من مجالات الاتصال الثقافي والحضاري . إن المدرسين الذين يتوجهون إلى بلدان صديقة للتدريس في مدارسها ينقلون إلى طلابهم مع المعارف والدروس أنماطاً ثقافية وحضارية . وفي بعثات طلب العلم تتحقق ميزتان رئيسيتان الأولى حالة التهيؤ النفسي للمسافرين حيث أنهم يذهبون إلى موطن العلم قاصدين التعليم والثانية أن طلاب العلم المسافرين للتعليم يمثلون نخبة من أوطانهم . وتطالعنا دائماً أسماء المفكرين والأدباء المصريين الذين عادوا من البعثات في أوروبا (منذ عصر محمد علي إلى ثورة ١٩٥٢) فأسهموا إسهاماً كبيراً في الحياة الفكرية . وتتكرر الظاهرة نفسها في حلقات سلسلة الحضارة . يقول جوستاف لويون « عرب الأندلس وحدهم هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان حتي في القسطنطينية . ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعاً . وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصاري القليلون لطلب العلوم في الحقيقة . ونذكر منهم علي حسب بعض الروايات . جريرت الذي صار باباً عام ٩٩٩ م باسم سلفستر الثاني . والذي أراد أن ينشر في أوروبا ما تعلمه . فعد الناس ما عمله من الحوارج واتهموه بأنه باع نفسه للشيطان » .

٧- الإذاعات الموجهة :

وهي وسيلة فرضتها روح العصر . وأول المشاكل التي تنحرف بها عن هويتها كوسيلة اتصال ثقافي وحضاري هي أنها لا تقدم للمستمع صورة تلقائية أو صحيحة عن مجتمعها . وإنما تتوجه للمستمع بصفة مباشرة بغية جذبة دعائياً إلى ما تريد ويرغم ذلك فإن طبيعة العصر جعلت منها وسيلة اتصال ثقافي حضاري لا يمكن إغفالها وذلك بسبب خصائص الراديو في اجتياز الحدود الجغرافية . وبسبب هذه الخصائص ذاتها نشب ما أطلق عليه حرب الأثير أو ما يطلق عليه أحياناً حرب طواحين الهواء . ولقد كانت ظروف الحرب العالمية الثانية العامل الرئيسي في بروز هذه الحروب الإذاعية ثم ساعدت ظروف الحروب الباردة بعد ذلك وظروف حدة الصراع العقائدي بين الشرق والغرب علي استمرار حروب الإذاعات . وأصبح في هذا المجال ما يمكن أن نسميه بالهجوم الإذاعي ثم الهجوم المضاد أو الرد ، ففي أغسطس ١٩٨٢ توترت العلاقات بين كوبا والولايات المتحدة بسبب الإذاعات الموجهة أو ما يطلق عليه حرب طواحين الهواء نسبة إلى (الهوائيات) الخاصة بالإذاعة . لقد بدأت إدارة ريجان تبتكر وسائل جديدة في الكاريبي طبقتها في مناطق

أخري من العالم من قبل في حرب طواحين الهواء ، فقد بدأت تزرع بين الأشجار الاستوائية في جزيرة (كاي وست) المطلة علي شاطئ فلوريدا هوائي (ايربال) إذاعة طوله ٢٥٠ قدما ، وأطلقت عليه اسم (راديو هوزيه مارتني) وهو شاعر كوبي ثائر في القرن التاسع عشر وهذه الإذاعة تكمل الإذاعات الموجهة التي كانت تبثها أمريكا إلي الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية قبل تفكك الاتحاد السوفييتي . وإلي الشرق الأوسط (صوت أمريكا) . وعندما أحست كوبا بالخطر أعلنت أنها ستقوم وفي اللحظة التي تبدأ فيها الإذاعة الجديدة بثها بالتشويش علي مائتي محطة تجارية تبث من ٣٢ ولاية أمريكية . ورد البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) بأنه سيعتبر التشويش عملا عدوانيا .

ثم جاء التلفزيون في العقد الأخير من القرن العشرين بتكنولوجيا البث المباشر عبر الأقمار الصناعية لينقل للمجتمعات البشرية صوراً حية لحياة هذه المجتمعات وثقافتها ومعظم جوانب حياتها .

٨- التجارة :

ومن صورها المعاصرة المعارض الدولية . بل إن الحوانيت في عواصم العالم الصناعي بل عواصم العالم بصفة عامة ومدنه الرئيسية هي أظهر ما يلقاه المسافر .

وتاريخ الصحافة يحدثنا عن مدينة البندقية باعتبارها مركزاً تجارياً في عصر النهضة ومركزاً اخبارياً بسبب قدوم التجار من الشرق فيحدثون الصحفيين بما شاهدوا وسمعوا . فيكتب الصحفيون من أفواه التجار ومن مكان تجمعهم . ولقد كانت رحلة الشتاء ورحلة الصيف قبيل ظهور الإسلام رحلتنا التجارة إلي اليمن وإلي الشام من وسائل الاتصال الحضاري . ولقد دخل الإسلام بعض بقاع الهند مع التجار المسلمين الذين وجد أهل هذه البقاع فيهم قدوة إنسانية وحضارية .

وفي أيامنا هذه تحمل السلعة لمحات من الشخصية الحضارية للمنتجين . إن الدقة والنظام أو صغر الحجم مثلاً يكاد يتعرف عليها المستهلك العادي في البضائع اليابانية أو الألمانية أو ما شابه ذلك دون أن يقرأ عليها اسم البلد المنتج .

ومن هذه المساحة العريضة للتجارة باعتبارها سلعة . وللتجارة باعتبارها نشاطاً اقتصادياً وللتجارة باعتبارها نظاماً عالمياً للأسواق ولاعتبارات عديدة متشابكة أدت التجارة وما تزال تؤدي دوراً في الاتصال الحضاري والثقافي .

٩- اللغة :

يري بعض الباحثين أن اللغة وسيلة إعلام . وعندني أن اللغة ليست وسيلة إعلام . وإنما هي وسيلة للتعبير عن أفكار الأفراد وتسجيلها . وهي ليست وسيلة تخاطب وحسب وإنما هي تحمل ملامح وسمات من يتكلمون بها .. تحمل صورتهم الثقافية . وهذا ما يجعلها وسيلة اتصال

حضاري وثقافي . وعلي ضوء هذا المفهوم نفسر جانباً من قول الرسول ﷺ (من عرف لغة قوم أمن مكرهم) بأن تعلم الإنسان للغة قوم يمكنه من معرفة طريقة تفكيرهم .

وليست كل لغة بطبيعة الحال . تعد وسيلة اتصال حضاري وثقافي . فالشروط الضرورية لكي تصبح لغة ما وسيلة اتصال حضاري هي بصورة أو بأخرى الشروط الضرورية للنمو الحضاري أو الازدهار الثقافي . وجملة القول إن العلاقة بين اللغة وبين الحضارة هي علاقة اطراد ، وبعض الباحثين يري ^(١) أن اللغة هي العامل الرئيسي في العلاقات الحضارية . فالتوسع الثقافي - في نظرهم - هو توسع لغوي قبل كل شيء ، وأن معرفة لغة تسمح لمن يعرفها بالتأثر الثقافي . وأنه إذا تمت حضارة وازدهرت أقبلت الأمم الأخرى علي تعلم لغتها للانتفاع من معطيات تلك الحضارة ونقلها إلي لغتها .

ونحن نري أن الرأيين لا يتعارضان . وإنما يعبران عن حقيقة واحدة . وهي العلاقة العضوية بين ازدهار ثقافة وحضارة وانتشار لغتها .

واللغة كائن حي يعتريها ما يعتري الكائن الحي من ميلاد ومن شباب ومرض وموت . بل ما يعتري الكائن الحي نفسياً من قوة وإرادة أو ذبول وبأس . لقد استوقفني في تاريخ الشعر العربي أن الغساسنة والمناذرة دولتان عربيتان لما يقرب من خمسة قرون علي اتصال مباشر بالقوتين الأعظم في الجاهلية وعند ظهور الإسلام ، وهما الروم ، والفرس .. هاتان الدولتان العربيتان لم يظهر في أي منهما شاعر . وكان الشعراء ينغون في الجزيرة العربية بدوا وحضرا ويذهبون لملاح ملوك الغساسنة والمناذرة . ويروي ابن سلام الجمحي أنه كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح هو وأهل بيته به . وأن هذا الديوان آل إلي بني أمية . لقد استوقفني هذه الظاهرة وهي أنه لم يظهر شاعر واحد من الغساسنة أو المناذرة برغم أنهما كانا من حيث المظهر الحضاري واستخدام الوسائل الحضارية المعاصرة ووسائل الترف أكثر من بقية أهل الجزيرة بأشواط بعيدة . ولقد ألح علي السؤال : لماذا لم يظهر شاعر أو لم يظهر شعر في أي من الدولتين علي مدار خمسة قرون ؟

وكانت الإجابة - في رأبي - تتخلص في فقدان الذات . ماذا كان مثّلهم الأعلى ؟ التبعية .. وهل التبعية وفقدان الذات الثقافية تجعل قلباً ينبض ؟ إن التبعية لا تنتج فناً ولا فكراً . ولا بد لازدهار الفكر والفن من شيء ينبع من داخل النفس . واللغات والشعوب والحضارات ككل كائن حي لا بد من شيء نبيل يحركها .

وتتعرض اللغات لمحاولات القتل أو السجن في الصراعات البشرية . وذلك ضمن الغزو الفكري في التاريخ الحديث . ونضرب مثلاً بمحاولات سجن اللغة ، ومثلاً بمحاولات قتلها بما

(١) د . علي محمد القاسمي - اتجاهات حديثة في تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى - جامعة الرياض -

تعرضت له اللغة العربية في مصر والشام من جانب ، وما تعرضت له في الشمال الإفريقي من جانب آخر . وذلك خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي والنصف الأول من القرن العشرين . لقد تعرضت اللغة العربية في الشمال الإفريقي للقتل والوَأد ، بينما تعرضت في مصر والشام للسجن والتقييد . وبمقارنة الإنتاج الأدبي والثقافي للأدباء والكتاب الصحفيين في مصر والشام بإنتاج إخوانهم في الشمال الإفريقي تتضح لنا درجات التأثير . ويتبين لنا مدى الضرر .

وتقول الإحصائيات الدولية أن عدد اللغات المستخدمة شفوياً في الكرة الأرضية نحو ٣٥٠٠ لغة بينما يبلغ عدد اللغات المكتوبة ٥٠٠ لغة . ويقول علماء اللغة أن كل لغة تموت يولد مقابلها لغتان أو لغة ونصف . ومن هذه الإحصائيات يتبين لنا الموقع الممتاز الذي تتمتع به اللغة العربية في عالمنا المعاصر . فهي واحدة من ١٦ لغة يتحدث بكل منها ٥٠ مليون نسمة علي الأقل في العالم . ومزيد من الإحصائيات يدعم صورة الموقع الممتاز للغة العربية علي خريطة لغات العالم . تقول الإحصائيات أن عدد اللغات في إفريقيا يصل إلي ١٢٥٠ لغة . وفي أوربا ٢٨ لغة وطنية رسمية . وكانت مشكلة تعدد اللغات في أوربا عائقاً أمام تبادل البرامج الإذاعية (راديو وتلفزيون) ولكن الخبراء واستخدام التكنولوجيا والترجمة مكنتهم من إيجاد حلول حاسمة لهذه المشكلة . نضيف إلي تلك الإحصائيات الحقيقة التاريخية والحضارية وهي ما نسميه بالمجال الحيوي للغة من اللغات . ومن ثم نجد اللغة العربية علي أساس أنها لغة القرآن تتبوأ مركزاً ممتازاً في دائرة الاتصال الثقافي والحضاري لو ازدهرت لأصحابها حضارة وثقافة .

١- الهجرات :

تمثل الهجرات منذ فجر التاريخ وسيلة من وسائل الاتصال الثقافي والحضاري . ويذهب مؤرخو الحضارات إلي حدود تشير الدهشة في حديثهم عن الهجرات القديمة وهم يقتفون آثارها . ويرى عباس العقاد ^(١) أن من سلالة العرب نزحت أقوام إلي أواسط أوربا منذ خمسة آلاف سنة علي أقل تقدير . ويقول أن كل ما استفاده الأوروبيون من هذه البقاع في هذه العصور ، هو تراث عربي أو تراث انتشر في العالم بعد امتزاج العرب بأبناء تلك البلاد . ويؤكد بأن هذا التراث يشمل كل ما هو أصيل عريق عند الأوروبيين في شئون العقل والروح وأسباب العمارة والحضارة وهي :

١- العقائد السماوية .

٢- آداب الحياة والسلوك .

٣- فنون التدوين والتعليم .

٤- صناعات السلم والحرب وتبادل الخيرات والشمات .

(١) عباس محمود العقاد - أثر العرب في الحضارة الأوروبية - الطبعة الرابعة - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٥ - ص ١٤٤ إلي ص ١٦٥ .

ويتتبع العقاد كل ذلك بالدليل والبرهان . فهو يقرر بأن الأوربيين تلقوا علي الأقوام العربية الأولى في هجراتها عقائدهم عن الأسبوع وأرباب الأيام وسلطانها علي الأحياء . ولا تزال أسماء الأيام الافرنجية تحمل طابع العقائد السماوية كما كان يعتقدها أسلاف العرب المرفقون في القدم . والعقاد يسوق نصا عن الجزء الأول من إخوان الصفا عن أوائل ساعات الأيام جاء فيه (أعلم أن الليل والنهار وساعاتهما مقسومة بين الكواكب السبارة . فأول ساعة من يوم الأحد للشمس . وأول ساعة من الاثنين للقمر . وأول ساعة من يوم الثلاثاء للمريخ . وأول ساعة من يوم الأربعاء لعطارد . وأول ساعة من يوم الخميس للمشتري . وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة وأول ساعة من يوم السبت لرحل . ثم يسوق العقاد قرائن الاتصال الحضاري والثقافي في تأثير الأوربيين بالهجرات العربية الأولى فيذكر أن يوم الأحد يعرف في الانجليزية باسم (سندي) Sunday أو يوم الشمس . ويوم الاثنين يعرف فيها باسم (مندي) Monday أو يوم القمر . ويوم الثلاثاء يعرف فيها باسم (تيزدي) أي يوم تيزو إله الحرب عند أمم الشمال الأولى . وتوضحه التسمية الفرنسية لهذا اليوم لأن يوم الثلاثاء يعرف فيها باسم Mardi أو يوم «مارس» وهو المريخ . ويوم الأربعاء يعرف في الانجليزية باسم (وندي) Wednesday أو يوم «ودين» إله المعارف والفنون عند قدماء (التيتوتون) وتوضحه التسمية الفرنسية أيضا لأن يوم الأربعاء يعرف فيها باسم Mercredi أي يوم عطارد وهو بالفرنسية Mercure وبالانجليزية Mercay ويوم الخميس يعرف في الانجليزية باسم (ثورزدي) Thursday أو يوم (ثور) إله الرعد عند قدماء « التيتوتون » . وتوضحه التسمية الفرنسية لأن يوم الخميس يعرف فيها باسم Jeudi أي يوم المشتري أو الإله «جوبيتر» ، ويرجع هذا إلي اسم ياهو Jehova الذي يشير به أبناء الأمم السامية إلي الله . ويوم الجمعة يعرف في النجليزية باسم فرايدي Friday أو يوم الربة فريج Frig زوجة عطارد ، ومقابلة الزهرة في صفاتها ، وتوضحه التسمية الفرنسية لأن يوم الجمعة يعرف فيها باسم يوم الزهرة Ven-dredi أو يوم فينوس . ويوم السبت يعرف في الانجليزية باسم (ستاردي) Saturday أو يوم زحل Saturn في تلك اللغة إلي اليوم . ويمضي العقاد معقبا بأنه يتبين لنا من معاني أيام الأسبوع عندهم أن عقائد التنجيم التي أخذوها عن السلالات العربية قد تغلغلقت في شعوبهم الأوربية من أقصى الشرق إلي أقصى الغرب ومن أقصى الشمال إلي أقصى الجنوب ، وهي العقائد التي ترتبط بالمعيشة اليومية وطوال الأوقات وسلطان الأفلاك العليا علي الأحياء وحوادث الأيام . وهكذا يمضي العقاد في القرائن والبراهين التي تؤكد لنا أهمية الهجرات في الاتصال الحضاري .

ويحدثنا التاريخ أنه عندما قامت دولة البطالمة في مصر استقدموا إلي الاسكندرية العلماء من جميع أرجاء بلاد الإغريق مثل إقليدس وأرسطوفانيس وكاليماء خوس وزودوهم بكل وسائل الراحة من متحف شهير ومكتبة عظيمة ومدارس كثيرة ورواتب مجزية ليبذل كل في عمله وفنه . وجاءت الثمرة عظيمة لا تنسي . فقد صانوا هم ومن جاء بعدهم في العهد الروماني أعمال الإغريق والغنوسطين والمناوين التي ضاعت أصولها . وتركت معارفهم الرياضية بصماتها في

الرياضيات الهندية ، ثم انتقلت عن طريقها إلى الفارسية فالعربية .

هكذا كان المد الحضاري في مصر وكانت وسيلته الهجرات . ويروي لنا التاريخ صورة للجذر الحضاري ووسيلته أيضا الهجرات . كان ذلك عند فتح العثمانيين لمصر فقد جمع سليم الأول العمال والصناع المهرة من مصر وأرغمهم علي السفر إلى الاستانة لمزاولة فنون الصناعات والحرف هناك ونشرها في بلاده .

وفي عالمنا المعاصر تمثل هجرة العقول والأيدي العاملة وسيلة من وسائل الاتصال الثقافي والحضاري إذا كانت الهجرة مؤقتة ، وإذا ظل المهاجر مرتبطا بوطنه الأم ولو بقضاء العطلات فيه.

١١-الأوجه الاتصالية للنشاط الدولي :

ومن أمثلتها الإعلام الدولي والمنظمات الدولية والألعاب الأولمبية وكأس العالم وما شابه ذلك . وتعد اليونسكو (Unesco) أبرز وأهم المنظمات في هذا المجال ومنذ ١٩٤٦ تاريخ إنشاء هذه المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم باعتبارها إحدى المنظمات التابعة للأمم المتحدة قدمت أعمالا باهرة في مجال الاتصال الثقافي والحضاري بين معظم شعوب العالم . وتضم المؤتمرات العديدة التي تعقدها اليونسكو صفوة المفكرين والخبراء في الدول الأعضاء . وتعد مؤتمرات اليونسكو ساحة فسيحة لاختلاف الآراء وتعدددها حول المفاهيم الثقافية في عالمنا المعاصر وشمل النشاط اليومي (الروتيني) للمنظمة مجالات متسعة للاتصال الحضاري بين شعوب العالم . ومن هذه العناصر وغيرها تسهم اليونسكو إسهاما كبيرا وفعالا في الاتصال الثقافي والحضاري وتعد وسيلة ضمن الأوجه الاتصالية للنشاط الدولي . تلك الأوجه التي يمكن لها الإعلام المعاصر بأن جعل الكرة الأرضية قرية اتصالية .

المقارنة بين الوسائل :

ومما لا شك فيه أن لكل وسيلة من وسائل الاتصال الحضاري أبعادها المتعددة التي تكشف جوانبها الإيجابية والسلبية. ولكننا في هذا المجال نقتصر علي تحديد وسائل الاتصال الحضاري عسي أن يفتح هذا التحديد بابا للباحثين في علوم الإعلام وتاريخ الحضارات وغيرهم للدراسة والبحث. وعلي سبيل المثال ليس ما يراه السائح في معظم الأحيان هو الصورة الحقيقية لحضارة البلدان التي يزورها. إن ولع السائح «بالفولكلور» مثلا وبأماكن المجون واللهو يحجب عنه أشياء كثيرة من صلب الحضارة والثقافة التي يتصل بمواطنها وأهلها. فهل مصارعة الثيران مثلا تعبر عن الدور الحضاري لأسبانيا، وهل ملاهي شارع الهرم تعبر عن مصر وعاء الثقافة العربية الإسلامية ؟ .

ولا شك أيضا أن درجة التأثير في الاتصال الحضاري تختلف من وسيلة لأخرى . يقول

أجنتس جولد تسهر^(١) أن التأثيرات الروحية أقل تجاوبا إذا صدرت عن كتاب إلي كتاب مما إذا حصلت عن طريق اعتناق الآراء التي تملأ البيئة . وتنتقل بواسطة الاتصال الحي ولا سيما إذا كانت موضوع اختلاف قوي الحيوية في الأفكار وبرزت إلي الصف الأول من الاهتمام . ولا بد أن الجدال قد حصل بين أطراف النقاش » .

كذلك يمثل مضمون الاتصال عاملا حاسما في عملية الاتصال الحضاري من حيث الأثر ورد الفعل يقول جوستاف لوبون^(٢) :

« ويجب علي من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني ألا ينظر إلي قواعده الفلسفية بل إلي مدي تأثير عقائده . والإسلام إذا نظر إليه من هذه الناحية وجد من أكثر الأديان تأثيرا في الناس ، مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة ... إلخ . يعلم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع ، وهو يعرف فضلا عن ذلك ، أنه يصب في النفوس إيمانا ثاقبا لا تزعه الشبهات » .

إن المقارنة بين وسيلة وأخري من وسائل الاتصال الثقافي لا يفسد مبدأ التكامل بينها . أو كما نقول في مستويات الإعلام بأن الاتصال الشخصي ليس نقيضا للاتصال الجماهيري . وإنما يدعم كل منهما أهداف الآخر .

(١) د. عبد الحليم النجار - مذاهب التفسير الإسلامي للعالم المستشرق أجنتس جولد تسهر - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٩٥٥ - ١٧٣ .

(٢) جوستاف لوبون - حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر) الطبعة الرابعة - مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٦٤ - ١٢٥ .

خاتمة

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا مَعَذرةَ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نَهَاوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾^(١) .

والقردة الخاسئون - فيما أرى - هم الواقهون صرعي الغزو الثقافي سواء بغفلتهم أو بإرادتهم أو بعنادهم أو بعدم إعمال عقولهم أو بعدم الاستجابة لما يحییهم .. إنهم العاتون عنا نهوا عنه . وهذه هي القوانين العلمية في الحياة سواء في قوانين العلوم البحتة أو في قوانين العلوم الاجتماعية . إنها سنة الله التي لا تجد لها تبديلا . وتظل صورة القردة الخاسئين تتشكل وتتغير على امتداد التاريخ الإنساني ولكنها تعبر عن حقيقة واحدة .

لعل صفحات الفصول الأربعة لهذا الكتاب قد أقامت الحجة والبرهان على أن الغزو الثقافي ليس مجرد وهم ، أو ضيق أفق أو تعصب . وأنه ليس هاجسا عربيا أو إسلاميا ولكنه مشكلة العالم الثالث على وجه الخصوص ، بل ومشكلة عالمية . ولعل بعض صفحات الفصل الأول بيّنت أن بعض البلدان الأوروبية الغربية المتقدمة أعلنت أجهزة إنذارها الثقافية المبكرة عن الغزو الثقافي الأمريكي .

ولعله أصبح واضحا وجليا ومحددا أن القول بأن عالم اليوم بسبب ثورة الإعلام والاتصالات أصبح قرية واحدة ، تتفاعل وتتبادل التأثير والتأثر ، والبقاء للأفكار الأصلح والثقافة الأصلح .. يشبه قراءة نصف الآية القرآنية ﴿ لا تقربوا الصلاة ﴾ .. والسكوت عن النصف الثاني ﴿ وأنتم سكارى ﴾ . لأن الهيمنة على الإعلام عالميا في الأيدي الأمريكية وقلة من التوايح الأوروبية الغربية .

وإذا كانت مقولة الشيخ « الشعراوي » في الجامع الأزهر يوم ٢ - ١ - ١٩٨٩ في مؤتمر حاشد : « اعلّموا جيدا أننا لا نستطيع أن تكون كلمتنا من رأسنا إلا إذا كان قوتنا من فأسنا » مقولة صائبة وصادقة فإن تحقيق الاستقلال الواقعي اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا يمكننا من الاتصال الثقافي ويَجَنِّبنا أمراض الغزو الثقافي . وهذه سنة الله التي يُعَبِّرُ عنها البعض بقانون ترابط عناصر الحياة .

وترتيبنا على ذلك فإنه ينبغي ألا تشغلنا الرؤية الاستشراقية المنحرفة عن بناء أنفسنا . وينبغي ألا تكون فكرتنا عن الغرب المتآمر ضدنا عائقا في الاتصال الثقافي . بل علينا أن نلتفت

(١) الآيات ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ من سورة الأعراف .

إلي عيوننا أولاً لنصلحها ، لا أن نستريح لأن القائل بها عدو لنا ولثقافتنا . فنحن مطالبون بأن لا نجعل القرآن عضين . أي أن لا نفتته ونقطعه عضواً كما يفعل الجزار مثلاً بالذبيحة ، وذلك وفق النص القرآني الذي يحذرننا من سلوك المقتسمين الذين يقبلون ويرفضون وفق الهوى: ﴿ كما أنزلنا علي المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ (آية ٩٠ ، آية ٩١ من سورة الحجر) . لأن الإسلام يحرص علي نقاء الإنسان المسلم فيكون ظاهره كباطنه . ولأن الإسلام نظرة شاملة للحياة الإنسانية والحياة الكونية ، لذلك كله نجد أن ما يُصلح الأمور الداخلية في المجتمعات الإسلامية هو بعينه ما يصلح أمورها الخارجية . وأول هذا الإصلاح والصلاح هو النظر في شروط الصحة ووضع الضوابط لها . وتنقيتها من عناصر الغلو ، أي التطرف . وتنقيتها من عناصر الخروج بها إلي شكل مشوه « للأيدلوجية » الغربية المتأزمة بحجة المعاصرة أو الضرورة .

كذلك فإن القرآن يحدد لنا شروط تحقيق الهدف بفعل الإرادة وقوة الإرادة وتكريس العقل والقلب والطاقة حتي تتحقق الأهداف . والفارق بين الاعتناق وبين الإيمان فارق كبير . إنك تستطيع أن تقول بأن غالبية المثقفين العرب والمسلمين يعتنقون فكرة مواجهة الغزو الثقافي . ولكن الإيمان خطوة أشد وأخطر من مجرد الاعتناق . إنه الفارق الذي عبر عنه القرآن الكريم : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا وكلماً يدخل الإيمان في قلوبكم ... ﴾ (من الآية ١٤ سورة الحجرات) .

إن التاريخ المعاصر يبين لنا صورة أقرب إلي واقعنا وأذهاننا عندما تصبح الشعوب شيوعية أو رأسمالية ، ولكنها لا تؤيد حكوماتها ، وليست ضد حكوماتها إلي حد الثورة عليها ، وإنما الوضع برمتها مائع لا طعم له ، وحائل اللون ، تنبئنا فقط في أن السلطة محرومة من المساندة الشعبية الحقيقية . والشعب ساخط بغير إرادة التغيير .

إن وظائف الشريعة الإسلامية كما يقرها فقهاء المسلمين تتلخص في الحفاظ علي المصالح الخمسة : الدين - والنفس - والعقل - والعرض - والمال . وإذا كان ما يهدف إليه الغزو الثقافي بصورة مباشرة هو تخريب العقل والنفس أو الاستحواذ عليهما . فإن التصدي للغزو الثقافي يعني الدفاع عن خمسي المصالح بصفة مباشرة وعلي الثلاثة أخماس الأخرى بصفة غير مباشرة .

وعلي المستوي الإنساني والعالمي فإن مسئولية المثقف المسلم والعربي في قضية الغزو الثقافي ليست فقط في الدفاع عن مجتمعه من أثارها . وإنما في الشهادة عليها بالصدق والعدل . وفي الاعتراف بالاتصال الثقافي وتنميته علي المستوي الإنساني والعالمي ، وفي الوقت نفسه في الشهادة علي الغزو الثقافي وبيان باطله . وهذا هو التطبيق الإنساني لأن تكون الأمة الإسلامية شاهدة علي الناس .

ما هي مبررات أن تكون الأمة الإسلامية شاهدة علي الناس؟ وما هو مفهوم هذه الشهادة؟

المسبر الأول : هو الاعتراف ، فالمسلم مُعْتَرَفٌ (بحكم دينه وبحكم أن يكون مؤمناً بالإسلام) بالأديان والأنبياء والرسل السابقين لمحمد - الذين أرسلهم الله للبشرية عبر القرون

والأجيال والأمم . والمهر الثاني : أن الإسلام هو آخر الأديان السماوية . المهر الثالث : أن رسالة الإسلام شملت الجوانب التشريعية التي لم تكن بصورة شاملة في الديانات السابقة والشمولية والعمومية للبشر جميعا وللناس جميعا وضمان حقوق الإنسان غير المسلم في ظل الإسلام، كان ذلك كله مبررات أن تكون الأمة الإسلامية في موقع الشاهد .

ولكي نحدد مفهوم الشهادة ، ولكي نحدد دور الشاهد ينبغي أن ندرك المعنى القضائي والمعنى الثقافي في مجال الشهادة . إن المعنى يتلخص في أن تقوم هذه الأمة بشهادة الحق في الفصل بين القيم والأحكام والثقافات التي لدى الأمم الأخرى . فتُجَلِّي ما هو متفق مع الحق ، وتُبيِّن ما هو موافق للباطل .

وتلخص آية في القرآن الكريم ^(١) مفتاح الشهادة بقول الله عز وجل : ﴿ وأُنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾ بمعنى أن القرآن فيه تصديق للرسالات السابقة ، وهو في الوقت نفسه شامل وعام وجديد وناسخ لما قبله .

ومفهوم الشهادة هنا ليس مفهوم استعلاء ، وليس مفهوم سيطرة ولا تسلط ، ولكنه مفهوم العدل والاعتدال ، ومفهوم الاستنارة والوعي واليقين ، وهو من أجل الأمة ذاتها ، حتي تكون علي بصيرة ، وللناس جميعا لأن رؤيتها وحكمها علي الثقافات والقيم والأحداث معلن وواضح .

وقد يَسْخَرُ صرعي الغزو الثقافي ، كما قد يسخر الغازون من هذا التحليل ، في زمن أصبح المسلمون فيه تحت حصار الجوع والفقر وتحت حصار المدافع الصليبية وتحت حصار التبعية الاقتصادية والسياسية وتحت حصار العجز العقلي والتشتت وخيبة الأمل وغيبة الهدف . وهذا في جملته شبه صحيح . ولكن حال المسلمين ليس هو حال الإسلام باعتباره فكرا وأيدلوجية . وهذا سبب الضرب المستمر بالأيدي الصليبية المتوحشة لجسد هزيل . لأن الوحوش الصليبية تعرف أن هذا الجسد الهزيل تنقصه الإرادة . وأن الخطورة ليست في الجسد الهزيل ، ولكن في القلب والعقل المسلم إسلاما حقيقيا .

يقول شاتليه ^(٢) : إن الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانتقاص والاضمحلال الملازم له ، سوف يقضي بعد انتشاره في كل الجهات إلي انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلي نشأتها بشكل آخر . ثم يقول : إن نزاع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائما للمجهودات التي تبذل في سبيل التربية النصرانية ، والتقسيم السياسي الذي طرأ علي الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية وسوف لا يمضي غير زمن قصير حتي يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوربية »

(١) سورة المائدة من آية ٤٨ .

(٢) شاتليه - الغارة علي العالم الإسلامي (ترجمة مساعد البافي - ومحج الدين الخطيب) .

ماذا فعل الرسول ﷺ ؟ وكيف تصرف المؤمنون معه في الأوقات الحالكة السواد ؟

في غزوة الخندق التي تسمى بغزوة الأحزاب ، حيث تَجَمَّع كفار قريش ، مع معظم قبائل العرب لاستئصال شأفة المسلمين ، والقضاء علي محمد وعلي الإسلام . وحاصروا المدينة المنورة . وانضم إلي الأحزاب الكافرة يهود بني « قريظة » برغم حلفهم مع الرسول والمؤمنين وكان المسلمون في هذا الموقف الصعب كمال قال الله تعالى :

﴿ إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (آية ١٠ ، آية ١١ سورة الأحزاب) .

وأشار سلمان الفارسي علي الرسول ﷺ بحفر خندق حول الأجزاء المكشوفة من المدينة يحول دون اقتحام المهاجمين لها . وظلت المدينة تحت الحصار ، وخلال حفر الخندق ، والقوي الكافرة تحيط بالمسلمين الذين بلغت قلوبهم الحناجر كما صور القرآن الكريم صعوبة موقفهم . في ذلك الجو العام القاتم « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب بالمعول فصادف حجرا صلدا ، فأخذ رسول الله ﷺ منه المعول فضرب بها الحجر مرتين في كل مرة يتطأير منه الشرر وفي الثالثة تفتت الحجر مع بركة الشرر . فقال سلمان : يا رسول الله رأيت المعول كلما ضربت به أضاء ما تحته . فقال : أليس قد رأيت ذلك ؟ قال : نعم . قال النبي ﷺ : إني رأيت في الأولى قصور الشام ، ثم رأيت في الثانية ، قصور اليمن ، ورأيت في الثالثة قصر كسري الأبيض بالمداين . وجعل يصفه لسلمان فقال : صدقت والذي بعثك بالحق ، إن هذه لصفتي ، وأشهد أنك لرسول الله ! فقال رسول الله ﷺ : هذه فتوح يفتحها الله عليكم بعدي يا سلمان ، لتفتحن الشام ، ويهرب هرقل إلي أقصى مملكته ، وتظهرون علي الشام فلا ينازعكم أحد ، ولتفتحن اليمن ، وليفتحن هذا المشرق ، ويقتل كسري بعده . قال سلمان فكل هذا قد رأيت » (١) .

عندما تروي هذا الحدث في حياتنا الإعلامية والثقافية المعاصرة يقول صرعي الغزو الثقافي لنا : كفاكم حديثا في الغيبيات والخوارق . ولكن علي الجانب الآخر يقفون مبهورين بصورة التقدم الغربي والإسرائيلي فقد نفذت اسرائيل خلال إحدى وعشرين ساعة متصلة من يومي الجمعة والسبت ٣١ - ٥ ، ١ - ٦ - ١٩٩١ عملية سليمان التي رحلت فيها عبر جسر جوي حوالي ١٥ ألف يهودي أثيوبي (الفلاشا) من إثيوبيا إلي اسرائيل . كان وقع الخبر علي الضمير العربي والإسلامي قاسيا . لقد « فرضت الأحداث علينا خبر تهجير يهود الفلاشا ، وهو خبر خطير له دلالاته ، وهو تصديق لكلمة بن جوريون » إن انتصار إسرائيل النهائي سيتحقق عن طريق الهجرة المكثفة » .

« بالنسبة لي . كان أكثر ما استفزني في الخبر ليس هو كفاءة العملية ، ولا الرشاي التي

(١) كتاب المغازي للواقدي - تحقيق مادسون جونس - الجزء الثاني - عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٩٨٤ - ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

أنفقت عليها ، ولا الشخصيات الهامة التي تورطت فيها ، ولا السرعة التي تم بها نقل اليهود . استفزني هذا كله - لست أنكر - ولكن أكثر ما أقلقني كان تسمية العملية باسم نبي الله سليمان . وقبل ذلك تمت عمليتان للفلاشا باسم « عملية موسي » و « عملية سبأ » ، وقد كشف الستار عن هاتين العمليتين كتاب وثائقي ظهر حديثا للأستاذ محمد مكاوي . ولقد توقفت طويلا عند هذا الاستخدام للرموز الدينية من دولة اسرائيل ، إن المجتمع الإسرائيلي ليس مجتمعا متدينا . رغم أن فيه جماعات متدينة ومتعصبة ، ورغم ذلك تلجأ دولة اسرائيل لإحياء الرموز الدينية دائما . وتوقظ المشاعر الدينية دائما ، وتجعل تاريخ الأنبياء وأسماهم أحداثا حية ومتحركة ومؤثرة في المجتمع اليهودي المعاصر .

إن تسمية العملية باسم سليمان إشارة إلى قدرات سليمان الخارقة ، لقد سأل ربه أن يهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، واستجاب الله تعالى له ، وسخر له الجن من بين ما سخر ، وقهرهم علي العمل في خدمته ، وكان سليمان بهذا المعني نبيا لا يصمد له أحد ، لا يغلبه أحد ، وهذا هو المعني الذي تحاول دولة اسرائيل اسياغه علي صورتها .. إنها دولة لا يغلبها أحد .. إن لها أفعال الجن الخارقة .. ولست ضد سيدنا سليمان أو سيدنا موسي عليهما الصلاة والسلام ، بل لعلي أحبهما وأعرف عنهما أكثر من كثير من اليهود ، ولست ضد تسمية العملية باسم عملية سليمان ، لأن هذا ذكاء يحاول بعث أمجاد الماضي ، ويستخدم التاريخ كعامل منشط وموقف للحاضر ، وهذا كله من حق أي شعب .. كل ما يحزنني ويثيرني أنه في الوقت الذي تقوم فيه دولة اسرائيل باستخدام الرموز الدينية تقوم دول كثيرة في العالم العربي والإسلامي بالوقوف ضد الرموز الدينية الإسلامية ، وتعتبرها مسألة شخصية بين الإنسان وخالفه ، ولا علاقة لها بإحياء التاريخ أو إيقاظ الحاضر أو تشكيل المستقبل .. وهذا يعني أن هناك من يجر دننا من سلاحنا ويتركنا مهزومين أمام عدونا ^(١) .»

بقي أن نذكر ماذا قال المنافقون داخل المدينة أيام الحصار في غزوة الأحزاب في الحديث النبوي الذي رفع الروح المعنوية للمؤمنين من المهاجرين والأنصار . قال المنافقون : يعدنا محمد كنوز كسري وقبصر ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب لحاجته .

ولقد صدقت وقائع التاريخ المادية ما قاله رسول الله ﷺ . وبرغم ذلك ما تزال مقولات التشكيك والتبئيس تحيط بنا من صرعي الغزو الثقافي شعرا ونثرا وصورا ورسوما وبالكاريكاتير ، انظر إلي ما نشرته جريدة الأخبار بتاريخ ١٣ - ١ - ١٩٨٩ لتعرف رؤيتهم للتراث العربي والإسلامي .

(١) أحمد بهجت - عملية سليمان - جريدة الأهرام بتاريخ ٣١ - ٥ - ١٩٩١ .

<p>孔子民直服</p>	<p>خرب زيب عهروا.</p>
	<p>Daraba Zaydon → Amran</p>

- علي سور ، لسزبكية ، كتاب كبير مايشيلوش جمال
- عفا عليه الزمن ، والورق بهدله الالهمل !!!...
- حبيت اقرا الي في الكتاب ماقلتش جواه
- غير كتابة من شمال ليمين ، ومن يمين لشمال !!!...

بيكار

وعلى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط يلقي المهاجر العربي والمسلم المقيم في أوروبا - يخدمها - جرائم متكررة من العدوان عليه من جماعات ما تزال قلوبها وعقولها تعيش غفن وأوهام الحروب الصليبية . بل إن المسلم الأوربي أصلاً وجنساً وهو يمثل أقلية صغيرة يلقي التصفية والتدمير بما هو أشد وأقسى من القتل في البوسنة والهرسك مثلاً . بل إن المسلم الأوربي شحماً ولحماً ودماً إذا هداه الله للإسلام لقي العنت من قومه وبخاصة إذا كان من ذوي المكانة العقلية الرفيعة . عندما أسلم « هوفمان » السفير الألماني بوزارة الخارجية الألمانية هاجت الصحف ووسائل الإعلام تطالب بفصله من عمله . ومن قبله كان موقف الإعلام الغربي من إسلام « جارودي » موقفاً شائناً بكل المقاييس .

كان إسلام « جارودي » أشبه بإسلام الصحابي عبد الله بن سلام . كان جارودي قبل إسلامه مفكراً وفيلسوفاً وسياسياً ذائع الصيت في بلده فرنسا وفي العالم . وعند فصله من الحزب الشيوعي الفرنسي من لجنته المركزية عام ١٩٦٩ ، كانت قصة خلافه مع الحزب الحزب الرئيسي في وسائل الإعلام الغربية .

وكان الحُصَيْن بن سلام ، كما يروي الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات ، حُبّاً من كبار أُحْبَار اليهود في المدينة . كلاهما اقتنع بالإسلام اقتناع المفكر والعالم . وكلاهما واجه من قومه العنت واللوم عند إسلامه .

أما عبد الله بن سلام وهكذا سماه الرسول ﷺ عند إسلامه ، بدلاً من الحُصَيْن بن سلام ، فقد أسلم أول قدوم الرسول ﷺ المدينة . وذلك أنه عندما سمع بمقدم الرسول ذهب إليه في بني النجار مستعجلاً ، وألقى عليه أسئلة لا يجيب عنها إلا نبي . ولما سمع ردوده آمن به ساعته ومكانه . وقال له إن قومه قوم بُهت إن علموا بإسلامه قبل أن يسألهم عنه سيروه . فماذا فعل رسول الله ﷺ ؟ بعث إلي قومه ، وأدخل عبد الله البيت ، وسألهم عنه فقالوا أَعْلَمْنَا وابن أَعْلَمْنَا ، وأخبرنا وابن أخيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال رسول الله ﷺ : أفرأيتم إن أسلم . فقالوا : أعاده الله من ذلك ، قالوها مرتين أو ثلاثة ، فخرج إليهم عبد الله ، فقال أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقالوا شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه .

أما روجيه جارودي فقد أسلم في رمضان ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م . وسمي نفسه رجاء جارودي . فلم تنشر وسائل الإعلام الغربية خبراً واحداً عنه ، إلا صحيفة « لوموند » التي نشرت في خير صغير داخلي أنه متوجه إلى الحج بعد أن أعلن إسلامه . وكان من قبل موضوعاً رئيسياً علي أغلفة مجلاتها ومانشئات جرائدها ، ومتصدرة أخباره نشرات إذاعاتهم ومحطات تلفزيوناتهم !.. يريد الإعلام الغربي أن يطفئ نور الله بأفواهه ولكن النور يسطع في الغرب يوماً بعد يوم وكتابات المفكرين والفلاسفة الأوربيين الذين هداهم الله للإسلام تعد زادت حَضَارياً جديداً لمنظومة الكتابات الإسلامية التي تنطق بشهادة الحق .

في مايو ١٩٩٠ حظرت الحكومة الفرنسية توزيع كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » ..

وإذا قارنا هذا القرار بحظر تداول وتوزيع وبيع كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ، بالغضب الشرس دفاعا عن كتاب آيات شيطانية لسلمان رشدي تبين لنا كيف يكيل الغرب بمكيالين .. وكيف يكون له قلبن : قلب يكره الإسلام ، وقلب يحب من عاداه .

برغم هذه الصورة التي يبرزها الإعلام الغربي وتبرزها الثقافة الغربية ، فإننا ينبغي أن نَجِدَ في الاتصال الثقافي بهم ، لنحقق تصحيح الصورة قدر الطاقة ، ولنتفاعل مع إنتاجهم الثقافي الحسن ونستوعبه ونتمثله في عقولنا تمثيلا غذائيا . والمسلمون الأوروبيون الذين يزداد عددهم يوما بعد يوم ستكون إنجازاتهم الثقافية بعد سنوات جدولا رئيسيا وهاما في النهر الجديد للحضارة العربية الإسلامية .

لقد طالعنا صورة الاستشراق المتمثلة في الهيمنة والمعرفة الخاطئة ولكن علي المستوي الفني الجمالي نجد للاستشراق معني مختلفاً « في عام ١٨١٤ » - انفتحت أبواب مصر أمام الخبراء الفرنسيين بعد توقيع محمد علي والي مصر اتفاقية التعاون مع فرنسا . وفي عام ١٨٣٠ بدأت حملة الجيش الفرنسي علي الجزائر . وكان هذا التطور في تدعيم نفوذ فرنسا السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي في هذه المنطقة من الشرق سببا مباشرا في انفتاح أبواب الشرق الإسلامي أمام قوافل الفنانين والأدباء والديبلوماسيين والعلماء والرحالة والتجار والإرساليات الفرنسية . فقد زار الشرق في النصف الأول من القرن التاسع عشر حوالي ١٥٠ فنانا فرنسيا . وبرغم اختلاف إسهاماتهم في تطوير الاستشراق إلا أن الاستشراق شكل تيارا أساسيا داخل الحركة الفنية التشكيلية الفرنسية استقطب غالبية فنانيه ، كما أكسب الاستشراق الرومانسي الفرنسي سمته الشرقية الإسلامية ، خلافا للمدارس الرومانسية الأوروبية الباقية ، نظرا لغلبة الموضوع الشرقي الإسلامي في الفن الفرنسي آنذاك ^(١) .

وفي المقابل غلب الموضوع الشرقي الصيني والهندي في المدرسة الفنية الرومانسية الإنجليزية والألمانية .

إن إرادة الإنسان هي العنصر القوي في الاتصال الثقافي . والهامش المتاح دائما في مجال الاتصال الثقافي يسمح بالتحرك الإيجابي إن توفرت الإرادة . وهي مسئولية لا تجدي معها العلل، وإنما يصلح لها الاقتحام .

يقول مالك بن نبي ^(٢) إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكره إلي الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها .. وما الحضارات المعاصرة ، والحضارات الضاربة في

(١) د. زينات بيطار - الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي - سلسلة عالم المعرفة - الكويت - يناير ١٩٩٢ - ص ١٦٠ .

(٢) مالك بن نبي - شروط النهضة (ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي) - الطبعة الثانية - مكتبة دار العروبة - القاهرة - ١٩٦١ .

ظلام الماضي ، والحضارات المستقبلية إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن . هذا أول ما يجيب عن سبب اهتمامنا بالاتصال الحضاري . نضيف إلى ذلك الواقع المعاصر للوطن العربي والعالم الإسلامي بصفة عامة ، والظروف التي يمر بها حضاريا والتي يمكن أن نسميها مرحلة الإرهاص الحضاري أو مرحلة التهيؤ للدخول في طور الحضارة .

أما السبب الثالث فهو أهمية أن تواكب وسائل الاتصال حركة المد الإسلامي لدى الشباب في معظم البلدان الإسلامية فهي قوة دافعة في البناء الحضاري بل هي أقوى القوى والدوافع بشهادة الجميع حتي منكري الألوهية والرافضين لفكرة الدين بصفة عامة . ويقول (سيجموند فرويد) العالم النفسي الشهير والذي أفرد كتابا بعنوان (مستقبل وهم) ينعت فيه الدين بأنه مجرد وهم .. يقول سيجموند فرويد هذا في كتابه قلق في الحضارة ^(١) .

« لكننا لا نتخيل سمة أكثر تميزا للحضارة من القيمة المعلقة علي النشاطات العليا من إنتاجات فكرية وعلمية وفنية . ولا مؤثرا ثقافيا موثوقا كالدور القيادي المنسوب إليها . وبين هذه الأفكار تحتل الأنظمة الدينية أرفع مكانة في سلم القيم وقد حاولت في وضع آخر أن أسلط الضوء علي بنيتها المعقدة . وتصطف إلي جانبيها في المرتبة الثانية التأملات الفلسفية ، ثم أخيرا ما يمكن أن يسمى بالإنشاءات المثالية لبني الإنسان أي الأفكار المتعلقة بإمكان تحسين وضع الفرد أو الشعب أو البشرية قاطبة » .

وبعد .. ألسنا في حاجة إلي معرفة الطريق لتسلك الطريق ؟ إننا بالنظر إلي وسائل الاتصال الحضاري ويتعمق أبعادها نسلك سبيلا يؤدي بنا - كعرب - إلي دخول بوابة الحضارة الإنسانية من جديد .. تلك البوابة التي خرجنا منها في ليل طويل دون أن ندري أننا خرجنا .

وعن تمايز المنايع الثقافية يقول د. زكي نجيب محمود في حديث له في التلفزيون المصري عام ١٩٨٨ أجراه معه الشاعر الأديب فاروق شوشة : « كل يتميز في صفة حاسمة في ثقافته . فبينما الشرق الأقصى : الهند والصين واليابان كانت تعيش ثقافيا علي إدراك البصيرة ، وهو الإدراك الذي تراه في الفن وفي التصوف وفي الإيمان الديني بصفة خاصة ، علي هذا النوع من الإدراك المباشر بنوا ثقافتهم القديمة كلها . في الطرف الآخر كانت أوروبا كما رأيناها في اليونان ومن بعدهم ، هؤلاء بنوا ثقافتهم علي أساس إدراكي آخر وهو الإدراك العقلي الصرف الذي يستدل النتائج من المقدمات وهم الذين صاغوا منطق التفكير ، لم يخلقوه وإنما صاغوه بعد أن حللوا تفكير الإنسان كيف ينتقل من فكرة إلي فكرة .

والمعجزة العربية الإسلامية هي القدرة الفطرية عند العرب علي الجمع بين الطرفين . العربي لا يلفق أي يأتي بالرؤية الصوفية الفنية من الشرق الأقصى ، ويأتي بالأساس العقلي الاستدلالي

(١) سيجموند فرويد - قلق في الحضارة - (ترجمة جورج طرابيشي) - الطبعة الأولى - دار الطليعة - بيروت - ١٩٧٧ - ص ٤٨ .

المنطقي من الغرب ، ويلفق صورة لنفسه .. أبدا ، إنما هي فطرته ، عندما جاء عصر الترجمة في القرن الثالث الهجري ترجم العرب علي السواء عن اليونان والهند وهما طرفان متناقضان. والمعدة الثقافية للعربي خلقت لتعضم الاثنين معا ، وكأنما هما ضرورتان في التكوين الإنساني . بل إن هذين الطرفين نجدهما كأنما هما بعدان لكل موقف فكري عربي إسلامي . كل موقف فكري ستجد فيه البعد العقلي من ناحية والبعد الصوفي أو القيمي أو الفني أو الأخلاقي من ناحية . ونتمنى أن يحقق العربي اليوم ما هو في فطرته من حيث هو عربي . أن يجمع العقل إلى الوجدان ، العلم إلى الفن والتصوف ، وفن الشعر علامة قوية في هذا الموقف العربي . والفقه علامة قوية في هذا الموقف العربي - وهو منطق - ولا نجد مجالاً لتطبيق المنطق الصارم في الاستدلال أروع مما نجده في عمل الفقهاء ، فهذا وذاك معا في نفس المسلم الواحد العربي الواحد . لكن في عصرنا هذا حدث خلل لظروف حضارية وظروف تاريخية وغير ذلك . والحل هو عودة العربي إلى فطرته .

وفكرة الأصالة والمعاصرة . في حياتنا العربية في النصف الثاني من القرن العشرين تم طرحها باعتبارها عملة متداولة ، ولكن الفهم لها ينبغي أن يكون واضحا جليا .

والدكتور زكي نجيب محمود يؤكد علي أن فكرة الأصالة والمعاصرة وقفة ذات عنصرين مضمورين معا في كيان واحد . وأن تكون هذه رؤية الإنسان العادي في الشارع . وهذا ما نريده للإنسان العربي . إن الفكرة تجسدت في أفراد أعلام هم معاصرون وهم ملتزمون بترائهم منذ رفاعة الطهطاوي . وينبغي ألا تصبح مقتصرة علي الأفراد الأعلام . وقال فاروق شوشة لـ زكي نجيب محمود وهو يحاوره : أعتقد أن كلمة السر في فكرة الأصالة والمعاصرة هي كلمة «المضمورين» فكلمة مضمورين تنفي ما يتصوره بعض الناس من أن المسألة وكأنها الجراب الذي يتسع لبضاعة من الماضي وبضاعة من العصر ، ونضع البضاعتين جنباً إلى جنب ، ويتصورون أنه هنا تحقق المثال . إن التصور الصحيح هو أن الأصالة والمعاصرة ليستا أمرين وإنما هما أمر واحد في حقيقته ، وأن الالتفات إلي الماضي هو موقف عصري ، كما أن الموقف العصري يتضمن بعدا في الماضي ، فلا فصل بين الرؤيتين لا زمن ولا إدراكا ولا توجهاً . فرد عليه الدكتور زكي نجيب محمود بأن الفصل بين الأصالة والمعاصرة مرض . وإذا ضربنا مثلا في الاصالة والمعاصرة بأبائنا العرب ، عندما تُرجم اليونان ، كان اليونان هم الخارج ، هم أوروبا ، هم الغرب ، فلما هُضم ما جاء من اليونان مع الاصالة العربية أنتجت الماحظ نثرا وأبأ العلاء المعري شعرا . إذا وقفنا عند هذين الشخصين ونظرنا ونحن نقرأ للماحظ مثلا فإننا لا نقرأ شيئا مما كان في الجاهلية ، ثم لا نكاد نري أين الفارق بين ما استفاده من اليونان وما هو عربي أصيل ؟ وإنما نري نثره كتلة واحدة. وكذلك الشأن مع أبي العلاء المعري فإن إنتاجه كيان واحد ، شخص واحد ، عقل واحد، قلب واحد. هكذا يكون التصور الصحيح لمفهوم الأصالة والمعاصرة أن نتغذي بالغذائين معا وأن نكون هاضمين ولسنا مقلدين . ويدعو د. زكي نجيب محمود إلي دماغ عربي مشترك ويقول بأن المتأمل في ثقافتنا العربية القديمة يلاحظ اتصالا دائما « .

يقولون إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة . وإذا كان الأمل كبيرا وعظيما فإن مجرد

الاقتراب منه يمثل خطورة . والنموذج الذي قدمه لنا رسول الله ﷺ بأن إمطة الأذى عن الطريق صدقة . ونصحه لنا بأن نتق النار ولو بشق (نصف) قمر ، يبين لنا بوابة الطريق لمواجهة الغزو الثقافي . ولقد كثر الحديث عن مواجهة الغزو الثقافي ومواجهة سلبياته . ولكن كل ذلك من موقف الدفاع وفي الجانب الدفاعي من المواجهة . فماذا عن الجانب البنائي ؟

يتمثل الجانب البنائي للمواجهة في ثلاثة محاور رئيسية هي :

١- **المحور التربوي** : ويتمثل في دور المدرسة ، والجامعة . وفي التربية المستمرة أي في التعلم بصفة عامة .

« كيف يعرف علماء النفس ^(١) التعلم ؟ وكيف يقاس التعلم ؟

يعرف التعلم بأنه تغيير دائم نسبيا في السلوك يحدث نتيجة للخبرة . ويقاس علماء السلوك ما تفعله الكائنات الحية وذلك للتوصل إلي فهم عملية التعلم ، إلا أن التعلم هو نشاط يحدث داخل الكائن لا يمكن ملاحظته بصورة مباشرة . ويتغير المتعلمون بطرق غير مفهومة تماما حيث يكتسبون الجديد من : الارتباطات ، المعلومات ، الاستبصارات ، المهارات ، العادات ، وما شابه ذلك » .

بهذا المفهوم العريض للتعلم يصبح الإنسان العربي معاصرا في كل يوم . ويصبح قادرا علي فهم العصر . وقادرا علي التفاعل معه والتأثير فيه .

٢- **المحور التشعيري** : ويتمثل في دور وسائل الإعلام وأجهزة الثقافة .

هناك أفكار متنوعة عن العلاقة بين وسائل الاتصال والسلطة ، فرأي يقول بأن الإعلام أداة حيوية لمراقبة السلطة بصفة دائمة ، بل هو قوة موازنة لها ، ذلك أن مهمة وسائل الإعلام هي أن تعمل بمثابة مرآة تعطي صورة صادقة لما تفعله الحكومات .

والرأي المناقض هو أنه ينبغي للإعلام أن يكون في خدمة الدولة حتي يساهم في إيجاد نظم سياسية جديدة تتسم بالقوة والاستقرار . ويتبين من واقع الخبرة في بلاد عديدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أن حرية وسائل الإعلام لا تزال هي حجر الزاوية في التجديد الديمقراطي ، ولكن من الضروري أن نفهم المستجدات والتغيرات التي جعلت العلاقة بين وسائل الإعلام والسلطة قضية رئيسية أكثر من أي وقت مضى . هذه المستجدات والتغيرات تتمثل في ثورة المعلومات ، ذلك لأن صناعة المعلومات قد نمت نموا هائلا . وأصبحت اعتماد المؤسسات علي البيانات والمعلومات ضرورة عمل واستمرار . وأصبحت مؤسسات إعلامية عديدة تقوم بوضع البنية الأساسية للمعلومات مثل (الوكالات الصحفية - معاهد الرأي العام - مراكز التوثيق) ، وكذلك أصبحت هذه المؤسسات الإعلامية مجالا لعلوم هامة مثل الاقتصاد والاجتماع وعلم النفس وتحليل النظم . وبهذا أصبحت وسائل الاتصال - إلي حد كبير - ترسانة للإشارات والتعليمات تُعزّز سلطة

(١) لندا .ل. دافيدوف -مدخل علم النفس (ترجمة د. سيد الطواب وآخرون) -دار المريح -الرياض- ص١٩٤.

المنظمات الكبرى ، العامة والخاصة ، الوطنية وغير الوطنية . وتتمتع مثل هذه المنظمات بقدرات علي وضع التخطيط المتقدم واتخاذ القرارات ، ومن ثم فإن القدرة علي التحكم تفوق كثيرا قدرة المجموعات المفككة من المواطنين الذين لا يملكون سوي قدر ضئيل من المعلومات . وعلي ذلك فكل المعلومات التي يمكن استخدامها هي مصدر للسلطة ، ولهذا السبب فإن هناك حاجة إلي إحداث تغييرات في النظرة والسلوك من جانب أولئك الذين يتحكمون في مصادر المعلومات ووسائل النشر ^(١) »

هذا التحليل لدور الإعلام المعاصر والمعلومات يُشبه قوة الطرد وقوة الجذب التي تحفظ التماسك وينبغي للإعلام أن يؤدي المهمتين معا بتوازن دقيق .

٣- المحور الاجتماعي : ويمثل في دور المسجد والمنظمات السياسية والاجتماعية والثقافية. إن إحياء الذات الإسلامية بالمعني الشامل يكتمل بدور المسجد والمنظمات الاجتماعية . ويتكامل مع المحورين السابقين التربوي والتثقيفي . إن الإحياء الثقافي للأمة هو إحياء ذاتها الحضارية. وتكاد اللغة أن تسعفنا بملول الإحياء الثقافي ، فنحن نستخدم لفظ الإحياء عندما نستصلح الأرض البور ونزرعها . ونحن نستخدم لفظ الإحياء عندما تحرك الهواء علي كوم الرماد لنتيح لجمرة النار الخابية أن تشتعل وتتوقد .

الإحياء الثقافي إذن هو مفهوم نفسي وعقلي ووجداني يتجاوز حدود المعاني إلي حدود المحسوس والملموس .

وعلي المستوي الفردي يستطيع الإنسان العربي أن يمارس دوره في مقاومة الغزو الثقافي . يستطيع مثلا أن ينزع السلسلة الذهبية التي تحيط رقبته لأنها في حقيقة أمرها رمز لعبودية التقليد، وتأكيده لمعني الغزو الثقافي حتي رقية الرجل . إن الذهب محرم في الإسلام باعتباره زينة للرجال . وليس من عادة العربي أن يتشبه بالمرأة ، كما أنه ليس من عادة المرأة العربية أن تتشبه بالرجال . والسلسلة الذهبية حول جيد العربي مجرد مثال . وقد يظن البعض أن هذا أمر هين . ولكن القرآن الكريم يعلمنا أن بعض الأمور الصغيرة تؤدي إلي مخاطر كبيرة إن لم نتداركها . «وحسبونه هينا وهو عند الله عظيم» . إن الإصابة بالكوليرا في مجتمع من المجتمعات إذا بلغت واحد في المليون فهي خطر . فإذا بلغت واحد في المائة ألف فهي كارثة صحية تؤدي بالمجتمع إلي التهلكة .

وعلي المستوي القطري يستطيع الإعلام والمؤسسات الثقافية تنقية الخطاب الإعلامي والثقافي من شوائب الغزو ، ومن المصطلحات الغربية ، مثل مصطلح الإرهاب الإسلامي لجرائم يقوم بها أفراد أو جماعات منحرفة عن الدين ، في الوقت الذي لا يطلقون فيه اسم الإرهاب

(١) اليونسكو - أصوات متعددة وعالم واحد - تقرير شون ماكبرايد وآخرون - الترجمة العربية نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - ١٩٨١ - ص٦٩ ، ص٧٠ .

المسيحي علي الجيش الجمهوري الإيرلندي أو علي « المافيا » في أمريكا وأوروبا ، أو الإرهاب اليهودي لدولة إسرائيل .

ينبغي تنقية الخطاب الثقافي والإعلامي من هذه المصطلحات المقصودة حتي لا تصبح كلمة الإسلامية تهمة وشبهة وجريمة .

ومن زاوية أخرى ينبغي للخطاب الثقافي والإعلامي العربي أن يملأ عقل الإنسان العربي وقلبه ووجدانه ، لا يصبح ما تقدمه الثقافة وما يقدمه الإعلام تافها قليل الفائدة فيمتلئ العقل العربي والوجدان العربي بالتفاهة والفراغ . ونحن في اللغة العامية عندما نصف إنسانا بالتفاهة نقول : « إنسان فاضي » هذا المعني لوصف إنسان بقله القيمة والفراغة وعدم الفاعلية أو التأثير بجسده القرآن الكريم في وصف الكافرين والمنافقين بأن أفئدتهم هواء .

ولكن علي المستوي القومي أي علي مستوي الأمة العربية ينبغي أن يكون المثقف العربي المشتغل بالثقافة جنديا في ساحة مقاومة الغزو الثقافي ، وجنديا في ساحة البناء الحضاري والاتصال الثقافي . وأن يكون ذلك موقفه الثابت في الدفاع عن الثقافة العربية . وعن التقارب الثقافي العربي مهما اختلفت الظروف ومهما كان دور الحكومات .

وليس الحديث عن دور إيجابي للمثقفين العرب بغير وصاية حكوماتهم أو هيمنتها نوع من « العنترتيا » أو دعوة إلي تخاصمهم مع حكوماتهم . وإنا في نطاق المتاح وهو غير قليل . فما بال المثقفين العرب لا ينتبهون إلي خروج قطار الثقافة العربية ^(١) عن خطه وبعده عن قضايته ودورانه حول خلاقات سياسية عقيمة ؟

ولماذا لا يتفق المثقفون العرب علي تجنب قطار الثقافة العربية مزلق الخلاف السياسي العقيم والتشرذم والتعصب ومختلف سمات التخلف والحقاقة ؟ إن الطريق مفتوح أمام المثقفين العرب لتجاوز النزاعات والاحتكاكات السياسية بين حكوماتهم .

الطريق مفتوح بأمرين رئيسيين الأمر الأول : هو معالجة الواقع المعاصر معالجة عقلية والأمر الثاني : هو تحديد الدور الذي يستطيع المثقف العربي المعاصر تأديته في المرحلة الراهنة .

* أولا : ماذا تعني المعالجة العقلية للواقع العربي المعاصر في زاوية الثقافة أي في المجال الثقافي ؟

تعني أن ندرك واقع التدهور والمقاطعة في العلاقات العربية ونحلله تحليلا موضوعيا

(١) قطار الثقافة العربية إلي أين ؟

تحت هذا العنوان كَتَبْتُ في جريدة الأهرام (٢٤ - ٧ - ١٩٨٦) وبعد ما يقرب من عشر سنوات وأنا أراجع الفصل الرابع من كتابي الغزو الثقافي هذا وجدت أن كلمات صيف ١٩٨٦ هي كلمات صيف ١٩٩٣ في هذا الشأن. وأن القطار لم يغادر محطة ١٩٨٦ بعد سبع سنوات كاملة !! . وكان هذا مفزعا كما أن تكراره أكثر فزعا .

ونحاول التعامل مع هذا الواقع المرير في حده الأدنى .. كيف ذلك ؟

نضرب مثلاً واحداً فالمجال لا يتسع للإقاصه التي يمكن أن تستوعبها ندوات ومؤتمرات وبحوث . هذا المثل الذي نضربه هو إعادة قراءة ميثاق الوحدة الثقافية العربية والنظر فيما يمكن أن تتمسك به في حالتنا الراهنة التي تشبه حالة الواقعين في قاع الجب ويحاولون البحث عن سبيل للنجاة .

لقد صدر ميثاق الوحدة الثقافية العربية في بغداد في آخر الشهر الثاني من عام ١٩٦٤ وتبلغ مواد الميثاق ٣٢ مادة إلى جانب « الدبابة » وتتعلق المواد من الأولى إلى الرابعة عشرة في جملتها بالتربية والتعليم وكيفية تنشئة جيل عربي واع ومستنير .. كما تتعلق المواد الأربع الأخيرة من الميثاق بالطرق المنظمة للانضمام والانسحاب وإبداع وثائق التصديق .. تبقى أمام موضوع حديثنا هذا المواد من الخامسة عشرة إلى الثانية والعشرين .

إن هذه المواد علي الترتيب تتعلق - باختصار شديد - بالأنشطة التالية :

- * إحياء التراث العربي .
- * تشجيع الترجمة وتنشيط الإنتاج الفكري .
- * توحيد المصطلحات العلمية والحضارية .
- * إنشاء مجلس للمجامع العربية .
- * تبادل المؤلفات والفهارس بين دور الكتب والآثار .
- * تبادل الخبرات في الإعلام والموسيقى والفنون .
- * حماية الملكية الأدبية العلمية والفنية .
- * التنسيق في إبداع المطبوعات و « البليوجرافيا » .
- * تبادل الأساتذة والخبراء بين المعاهد العلمية .
- * تبادل الطلاب وتيسير قبولهم وتوحيد شهاداتهم .
- * تلبية الرحلات الثقافية .
- * تشجيع الرحلات الكشفية والرياضية .
- * التقريب في الاتجاهات التشريعية التربوية والثقافية .
- * التنسيق في المجال الدولي وبخاصة مع منظمة اليونسكو .

هذه الأنشطة يمكن ممارستها حتى في ظل المقاطعات وفي ظل الممارسات الحالية بين الحكومات بشرط أن يبذل المثقفون العرب جهداً معتدلاً في هذا السبيل .. وقد يري البعض أن تبنيه لوصول الحبال العربية قد يعرضه في وطنه إلى تأخير ترقبته الوظيفية أو إلى النظر إليه نظرة

الشك في إخلاصه لحكومته . أو ما هو أكثر من ذلك أو أقل علي أية حال فإن محاولة المثقف العربي - داخل الوظيفة الحكومية أو خارجها - في وصل الحبال العربية ممكنة . وعلي وجه الخصوص في تلك الأنشطة بالذات . وكل ما تحتاج إليه قوة الدفع لتحرك القطار الثقافي العربي في تلك المجالات التي تبدأ من التراث إلي التنسيق في إطار « اليونسكو » هو قليل من شجاعة المثقفين العرب ودعم من الرأي العام في كل قطر عربي لهذا القليل من الشجاعة . وإذا خلع المثقفون العرب عن عقولهم وقلوبهم ونفوسهم أقنعة الخوف وهواجس عدم رضا الحكومات لتبين لهم أن المصلحة العامة - بما فيها مصلحة الحكومات المتخاصمة - تقتضي تحرك قطار الثقافة العربية ولتبين لهم أن بعض تلك الأنشطة لم يتوقف حتي في ظل المقاطعة والخلافات والتصادم . والمطلوب هو بث الحياة في تلك الأنشطة والتخطيط لتنميتها وتطويرها .

* ثانيا : ماذا يعني تحديد الدور الذي يستطيع المثقف العربي المعاصر تأديته في المرحلة الراهنة ؟

لكي نحدد هذا الدور لا بد أن نعترف بأن المشتغل بالثقافة في الوطن العربي يقف بين واقعين متناقضين : واقع يدفع باليأس إلي القلوب والنفوس والعقول وهو الاحتكاكات السياسية- بل والعسكرية أحيانا - بين بعض الحكومات العربية والذي يجعل المثقف العربي متشائما شديد التشاؤم وواقع تؤكد الثقافة الواحدة لهذه الأمة وتؤكد انعكاسات هذه الثقافة في ظروف التضامن العربي أمام الأخطار التي تواجهها الأمة العربية وفي مقدمتها أخطار الحروب من المغول والتتار والصليبيين إلي الاستعمار العالمي والصهيونية العالمية .. لقد كانت ثقافة الأمة هي درعها لصد العدوان ومقاومته .. وبناء علي ذلك الواقع الثقافي للأمة يصبح المثقف العربي شديد التفاؤل لدور عربي قومي في أوجه الحياة كافة .

* من هذا الواقع التاريخي والحضاري تبدأ المهمة الأولى للمثقف العربي وهي أن يغرس الأمل في النفوس وأن يدخل اليقين في القلوب بأن الدور العربي القومي بل الوجود العربي بأسره قائم علي تدعيم القواعد الثقافية العربية وأنه إذا انهارت الأساسات الثقافية العربية تهدم البناء العربي بأكمله .. وأن يبشر الناس بأن القواعد الثقافية العربية قائمة وعلينا دعمها وحمايتها وتقويتها بصفة مستمرة .

* اتساقا مع هذه المهمة « الاستراتيجية » تبرز أهمية إدراك الواقع القطري ، ففي مصر - مثلا - تصبح مهمة المثقف المصري إقناع مذيع ومذيعه صوت العرب بأن الثقافة العربية والوجدان العربي والمصير العربي هي ثقافة مصر ووجدانها ومصيرها . وإن المقاطعة العربية لمصر اختلاف سياسي عابر وليست هي التاريخ المصري أو التاريخ العربي . وفي الوقت نفسه تصبح - مثلا - مهمة المثقف الخليجي إقناع الأديب الشاب في الخليج بأن علي محمود طه وطه حسين والزيات والعقاد ليسوا خاضعين لقرارات المقاطعة لأنهم جزء من التراث العربي الذي هو تراث الأديب الخليجي . ومهمة المثقف الليبي - « مثلا - أن يقنع الشاعر الليبي المعاصر بأنه يشترك مع أبي

القاسم الشابي في الوجدان والعاطفة والمنبع ، وأن شعر الشابي لا ينطبق عليه قرار الاستغناء عن العمل الأجنبي في ليبيا .

* وعلى المثقفين العرب أن يدركوا طبيعة العصر في ظل الكيانات الكبيرة العملاقة ثقافيا وأن يدركوا مخاطر الانغلاق القطري والتشردم والحساسية الإقليمية في مسألة بالغة الوضوح هي الثقافة الواحدة المشتركة .

* لقد فرضت طبيعة العصر أهمية كبرى لوسائل الإعلام في عالمنا المعاصر لذلك أصبح الدور الإعلامي يكاد يوازي الدور الثقافي أو يكاد الجدول الثقافي مع الجدول الإعلامي يلتقيان.. وإذا ضربنا أمثلة لما يمكن أن يؤديه رجل الإعلام العربي في المجال الثقافي نقول :

١- ينبغي أن يقاوم ظاهرة الخصام الإعلامي وبخاصة عندما تتعرض لقيم الشعوب وعندما تقلل من تضحياتها .

٢- ينبغي أن يقاوم ظاهرة النفخ في الدخان عند وقوع خلاف سياسي بين الحكومات .

٣- مقاومة ظاهرة التشويش والتشويه والإعلام الإعلامي ومحاولة تضيق ذلك إلى أقل حد ممكن. إن ظاهرة التعتيم الإعلامي للعمل العربي أصبحت من التكرار في حكم المرض المتوطن في الإعلام العربي . ولو ضربنا أمثلة بمؤتمرات الأدباء العرب على المستوى القومي فماذا نجد ؟

إذا أتيت لباحث أن يتتبع ما نشر عن هذه المؤتمرات في الصحف العربية وما أذيع عنها في الإذاعات العربية فسيجد عجباً فكثيراً ما يتجاهل إعلام دولة ما مؤقراً لأنه عقد في عاصمة ليست العلاقات السياسية معها علي ما يرام . !! علماً بأن النشر حول هذه المؤتمرات وظيفة إعلامية وضرورة لتنمية الثقافة العربية ..

إن المثقف العربي مطالب بالدفاع عما شاده الأجداد وما بذل فيه من الدم والجهد والعرق.. وهو حصن الثقافة العربية .. وهذا الموقف ليس ضرورياً ليومنا الراهن وحسب ولكنه أكثر ضرورة لغدنا .

وعلى المستوى العالمي لابد من إدراك دورنا الحضاري بعيداً عن التبعية . لابد من الوعي بالميلاد الثقافي العربي الجديد ، برغم سواد الواقع الاقتصادي والسياسي العربي المعاصر .

يقول أحمد بهجت ^(١) : لا نختلف مع التحليل الذي يقدمه الدكتور حازم الببلاوي حول فشل مشروع تقليد المجتمع الغربي .

وهو يرى ومعه - الحق - أن حركة التغيير نحو الغرب جاءت بعد صدمة الاتصال بالغرب . والهزيمة العسكرية والسياسية ، وبذلك لم تأت هذه الحركة نتيجة تطور طبيعي للمجتمع المصري والعربي ، وكان هذا المجتمع راكداً ، ومن ثم تم التغيير في مجتمع راكد نتيجة لعنصر خارجي

(١) أحمد بهجت - الخيال والديمقراطية - جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣ - ٤ - ١٩٨٦ .

مفروض ، ولم يصاحب هذا التغيير قدر كاف من الخيال .. لأن المجتمع الراكذ هو في نهاية الأمر مجتمع يفتقر إلى القدرة على الخلق ويتميز بنقص الخيال . ولقد أعجبنى إبرازه لعنصر الخيال والمعلومات وربطه لهذين العنصرين بعنصر الديمقراطية. إن الإنسان له تاريخ لأنه - من بين الكائنات - صاحب خيال ، والخيال يقوم على التغذية المرتدة .. أو يقوم على المعلومات . ويقدر ما يتوافر للعقل البشري من معلومات ، يستطيع أن يتجاوز واقعة ويخلق عالماً جديداً . وقد بدأ مشروع تقليد الغرب دون علم كاف .. وعندما توفر العلم وبدأ ينتشر ، استخدم في أغراض غير أخلاقية ولأسباب انتهازية .. ومن هنا فإن نقطة البدء الجديدة يجب أن تكمن في البحث عن زيادة قدراتنا على الخلق والخيال ، دون اعتقالها في هدف محدد سلفاً وغير طموح .. هو مجرد اللحاق بالغرب .. وإن كان هذا لا يعني أيضاً مجرد الرغبة في مقاومتها .

فكرة المعلومات تقتضي التفتح لكل خبرات العالم المتراكمة ، والغرض من توفير المعلومات هو خلق إمكانيات جديدة للتفنن والابتكار في الذهن البشري ، أي أن المقصود هو خلق قدرات وليس أدوات . ولسوف يؤدي نشر المعلومات إلى خلق قيم جديدة تجعل القيم الذهنية والفنية في مرتبة عليا .. والمعلومات هي وسيلة لتحرير الأذهان وإطلاق قدرتها ومن هنا كانت الديمقراطية هامة جداً كضمان لكي لا تتحول المعلومات إلى وسيلة قهر . وبغير الديمقراطية سوف يبقى الخيال والمعلومات معا سجينين في قمقم السلطة ، وسيوجه الإثنان معا لإقناع جماهير الناس بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان .

نحن نتفق معه في هذا كله . ونحمد الله علي هذا كله في نفس الوقت ، لأن التقدم لا يعني تقليد الغرب واللعاق به والاندماج فيه بحيث تذوب شخصيتنا وتنعدم في أسلوب حياته . ونحن نعرف إن البديل المطروح في الساحة الآن ، وهو بديل تحتضنه كثير من المستويات الثقافية رغم تفاوتها واختلافها .. هذا البديل هو التجربة الإسلامية أو النموذج الإسلامي .

والسقوط « الأيدلوجي » الشيوعي الذي حدث في العقد الأخير من القرن العشرين بتفكك الاتحاد السوفييتي ، ومعاناة الدول المتفسخة منه من ظروف اقتصادية متدهورة وصعبة لا يعني لنا عقدياً أن النصر والفلاح والصواب نصيب الأيدلوجية الرأسمالية . لا . إن سقوط « أيدلوجية » منافسة ، ليس حتمية لانتصار الأيدلوجية المعادية لها أو المقابلة لها . وإنما لابد أن يكون لدينا ميزاننا الذي نزن به . وليست المشاهدة التاريخية هي كل ما نملك من أدوات التقييم الأيدلوجي . ولاشك أن سقوط الرأسمالية الاحتكارية قادم بشهادة مفكرين غربيين شرح الله صدرهم للإسلام .

يقول جارودي :

إن عملية جرد إسهام الإسلام في الحضارة الإنسانية تضطرننا - من منطلق التصور الغربي - إلى مراعاة ثلاثة مناهج فكرية هي :

١- الوعي بالتفكير الغربي الراهن وتحليل أسبابه .

- ٢- فحص أسباب إشعاع الإسلام الحالي والمفارقة مع دوره الثانوي علي المسرح العالمي اليوم .
- ٣- النظر في شروط صحوة إسلامية مباركة تجعل هذا الدين روحا للكفاح ضد الحركات المشبوهة التي تقود العالم لحتفه » .
- وبعد .. هل طريق المستقبل للمجتمع العربي مظلم أم مضيء ؟ إن ذلك يتوقف علي إرادة الإنسان العربي .

٥	مقدمة
١٥	الفصل الأول : ما الغزو الثقافي
١٥	* مصطلح الغزو الثقافي لدى المفكرين والكتاب المعاصرين
٢٤	* الاتصال الثقافي والغزو الثقافي مفهومان متناقضان
٢٥	* الفروق الرئيسية بين الغزو والاتصال
٢٩	* التصور الأمريكي لتكوين وعي عالمي
٣٨	* الصورة الذهنية للغزو الثقافي لدى الفرنسيين
٤٣	* الغزو الثقافي و « الفيرس »
٤٤	* مفهوم الغزو الثقافي في قصة « صباح الورد »
٤٧	* خلاصة القول في الغزو الثقافي
٤٩	الفصل الثاني : وسائل الغزو الثقافي وأساليبه
٤٩	* ما الأساليب وما الوسائل ؟
٥٠	* نموذج وسائل الغزو الثقافي وأساليبه
٥٢	* الإعلام :
٥٣	* الكتاب .
٦٨	* الصحافة .
٨٣	* الراديو والتلفزيون .
١٠٢	* السينما .
١٠٩	* الإعلان .
١١٣	* وكالات الأنباء .
١١٨	* التعليم :
١٣٣	* منظمات وحركات التحريف والتشويه وقتل روح الإسلام :
١٣٤	* العلمانية أو الدنيوية .
١٤٦	* الماسونية وتوابعها .
١٥٣	* البهائية والبابية .
١٥٨	* الاستشراق .
١٦٧	* استمرار حركات التحريف والتشويه للإسلام .

١٧١	* الغزو الثقافي في العمارة والمساكن .
	الفصل الثالث : المنشور الغربي وغزو العرب (نموذج الارتباط العضوي
١٧٧	بين المنشور وطلقات الرصاص)
١٧٨	* منشور الحملة الفرنسية علي مصر (عام ١٧٩٨ م) .
١٨٩	* منشور احتلال الجزائر (عام ١٨٣٠ م) .
٢٠٣	* المنشور البريطاني الذي طبع ولم يوزع علي مصر (عام ١٩٥٢ م)
٢٠٨	* المنشورات الإسرائيلية علي لبنان (عام ١٩٨٢) .
	- الخلفية التاريخية .
	- الدراسة الوثائقية .
	- نص المنشور .
	- تحليل المضمون .
٢١٨	* التحليل المقارن .
	* ملاحق الفصل الثالث (خطابات الصليبيين والتتار والبرتغاليين في
٢٢٣	غزو العرب).
٢٣١	الفصل الرابع : المواجهة ، استراتيجيتها ووسائلها
٢٣١	* أولا : أهداف الغزو الثقافي .
٢٣٧	* ثانيا : التأثير .
٢٥٠	* ثالثا : استراتيجية المواجهة :
٢٥٢	أ) الأساس الفلسفي أو الفكري أو العقدي .
٢٦٧	ب) الأساس التخطيطي والتطبيقي والتنفيذي .
٣٢٦	* رابعا : الاتصال الثقافي :
٣٢٦	أ) ضرورة الاتصال الثقافي ومعرفته .
٣٥٤	ب) وسائل الاتصال الثقافي .
٣٦٨	خاتمة .
٣٨٨	مصادر البحث و مراجعة .

أهم مصادر الكتاب ومراجعته

أولاً : كتب عربية ومعربة

- ١- إبراهيم خليل أحمد ، الاستشراق والتبشير وصلتهما بالامبريالية العالمية ، مكتبة الوعي العربي، ١٩٧٣ .
- ٢- د. إبراهيم عبده، تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ - ١٩٨١ ، ط٤ ، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٨٢ .
- ٣- أبو الأعلى المودودي ، نحن والحضارة الغربية ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ١٩٨٤ .
- ٤- د. أحمد بدر ، الإعلام الدولي ، دراسات في الاتصال والدعاية الدولية ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٧٧ .
- ٥- أحمد بهاء الدين ، أفكار معاصرة ، سلسلة كتاب الهلال رقم ٢٣ ، القاهرة ١٩٧٠ .
- ٦- أحمد توفيق المدني ، هذه هي الجزائر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ٧- أحمد حافظ عوض ، فتح مصر الحديث أونابليون بوناپرت في مصر ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٢٥ .
- ٨- أحمد حسنين طاهر ، دور الشاميين المهاجرين إلي مصر في النهضة الأدبية الحديثة ، ط١ ، دار الوثيقة ، دمشق ١٩٨٣ .
- ٩- د. أحمد حسن الصاوي ، فجر الصحافة في مصر : دراسة في إعلام الحملة الفرنسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .
- ١٠- د. أحمد كمال أبو المجد ، حوار لا مواجهة ، دراسات حول الإسلام والعصر ، سلسلة كتاب العربي ، العدد ٧ ، الكويت ، أبريل ١٩٨٥ .
- ١١- د. إدوارد سعيد ، تغطية الإسلام : كيف تتحكم وسائل الإعلام الغربي في تشكيل إدراك الآخرين وفهمهم، ترجمة سمير نعيم خوري ، ط١ ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٨٣ .
- ١٢- د. إدوارد سعيد ، الاستشراق : المعرفة . السلطة . الإنشاء ، ترجمة كمال أبو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٨٣ .
- ١٣- اسماعيل القباني ، محاضرات في الثقافة العربية ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ١٤- أ. ك . شاتليه ، الغارة علي العالم الإسلامي ، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد البافي، ط٣ ، المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٨٥ هـ .
- ١٥- أكرم ضياء العمري ، التراث والمعاصرة ، سلسلة كتاب الأمة ، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية ، قطر ١٩٨٥ .
- ١٦- إكرام لمعي ، الاختراق الصهيوني للمسيحية ، ط١ ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٩١ .
- ١٧- أنور الجندي ، حتي لا تضع الهوية الإسلامية والانتماء القرآني ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٤ .
- ١٨- أنور الجندي ، كيف يحتفظ المسلمون بالذاتية الإسلامية في مواجهة أخطار الأمم ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٤ .
- ١٩- أنور الجندي ، الصحافة والأفلام المسمومة ، ط١ ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٠ .
- ٢٠- أنور الجندي ، هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٣ .
- ٢١- أنور الجندي ، البقطة الإسلامية في مواجهة الاستعمار منذ ظهورها إلي أوائل الحرب العالمية الأولى ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٤ .

- ٢٢- أنور عبد الملك ، تغيير العالم ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٩٥ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٥ .
- ٢٣- د. أنور عبد الملك ، ربح الشرق ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ١٩٨٣ .
- ٢٤- د. أنطونيوس كرم ، العرب أمام تحديات التكنولوجيا ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٥٩ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٢ .
- ٢٥- د. برهان غليون، اغتيال العقل : محنة الثقافة بين السلفية والتبعية، ط٣ ، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٠ .
- ٢٦- جرجس سلامة ، تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ٢٧- جمال البنا ، موقف الفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة ، دار المحاييد العربي ، القاهرة - (بدون تاريخ) .
- ٢٨- جوان جليسيبي ، ثورة الجزائر ، ترجمة عبد الرحمن صدقي أبو طالب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٩٦ .
- ٢٩- جي . إي . براون . أساليب الإقناع وغسيل الدماغ ، نقله بتصرف د. عبد اللطيف الحياط ، دار الهدى للنشر والتوزيع ، الرياض ١٩٨٨ .
- ٣٠- جيلان حمزة ، كواليس راديو مونت كارلو ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣ .
- ٣١- د. حامد ربيع ، الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإدارة التكامل القومي ، دار الموقف العربي، القاهرة ١٩٨٢ .
- ٣٢- د. حامد ربيع ، مستقبل الإسلام السياسي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ١٩٨٣ .
- ٣٣- د. حسن حنفي ، التراث والتجديد ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨١ .
- ٣٤- حسين عمر حمادة ، شهادات ماسونية ، ط٢ ، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ١٩٨٣ .
- ٣٥- د. حليم بركات ، المجتمع العربي المعاصر ، بحث استطلاعي اجتماعي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٤ .
- ٣٦- حمدي قنديل ، اتصالات الفضاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٥ .
- ٣٧- د. حورية توفيق مجاهد ، الاستعمار كظاهرة عالمية ، حول الاستعمار والامبريالية والتبعية ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٥ .
- ٣٨- رجاء النقاش ، الانعزاليون في مصر ، ط٢ ، دار المريخ ١٩٨٨ .
- ٣٩- روجية جارودي ، حوار الحضارات ، ترجمة د. عادل العوا ، ط٣ ، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٦ .
- ٤٠- د. زكي نجيب محمود ، تجديد الفكر العربي ، ط٧ ، دار الشروق ، بيروت والقاهرة ١٩٨٢ .
- ٤١- د. زكي نجيب محمود ، ثقافتنا في مواجهة العصر ، ط٤ ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٩ .
- ٤٢- د. زكي نجيب محمود ، في تحديث الثقافة العربية ، ط١ ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٧ .
- ٤٣- سعيد الجزائري ، الماسونية ، ط١ ، دار الجليل ، بيروت ١٩٩٠ .
- ٤٤- سليمان صالح، الانتفاضة الفلسطينية: ثورة الذات الحضارية، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ١٩٩٢ .
- ٤٥- د. سمير حسين ، تحليل المضمون ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٣ .

- ٤٦- سمير عبده ، تحديث الوطن العربي بين الميكانيكية العقلية والميكانيكية الخرافية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨١ .
- ٤٧- سمير عبده ، العرب والتكنولوجيا ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨١ .
- ٤٨- د. سهير عبد الغني بركات ، الإذاعة الدولية ، مؤسسة علي الصباح ، الكويت ١٩٧٨ .
- ٤٩- صابر طعيمة ، الماسونية ذلك العالم المجهول ، دار الجليل ، بيروت (بدون تاريخ) .
- ٥٠- صافي ناز كاظم ، الحقيقة وغسيل المخ ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ١٩٨٥ .
- ٥١- د. عائشة عبد الرحمن ، قراءة في وثائق البهائية ، ط١ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٨٦ .
- ٥٢- د. عبد الباسط عبد المعطي ، الإعلام وتزييف الوعي ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٨٩ .
- ٥٣- عبد الرحمن الجبرتي ، تاريخ الجبرتي ، دار الشعب، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٥٤- د. عبد العظيم رمضان ، الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .
- ٥٥- د. عبد اللطيف حمزة ، الإعلام والدعاية ، ط٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٨ .
- ٥٦- د. عدنان محمد وازن ، الاستشراق والمستشرقون : وجهة نظر ، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة يناير ١٩٨٤ .
- ٥٧- د. عزت حجازي ، الشباب العربي ومشكلاته ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٦ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٧٨ .
- ٥٨- عزيز الحاج ، الغزو الثقافي ومقاومته ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٣ .
- ٥٩- د. علي حسن الخروبلي ، المستشرقون والتاريخ الإسلامي ، سلسلة تاريخ المصريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٨ .
- ٦٠- علي لبن ، الغزو الفكري في المناهج الدراسية ، ط٢ ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة (مصر) ١٩٩١ .
- ٦١- د. علي محمد جريشة ود. محمد شريف ، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٨ .
- ٦٢- د. عماد الدين خليل ، حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، ط٢ ، كتاب الأمة ، قطر ١٩٨٣ .
- ٦٣- د. عواطف عبد الرحمن ، قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، سلسلة عالم المعرفة رقم ٧٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٤ .
- ٦٤- فرانسوا شاتليه ، أيديولوجيا الفوز، ترجمة جوزف عبد الله ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٤ .
- ٦٥- ف. كورتونوف ، صراع الأفكار في العالم الحديث ، ترجمة حنا عبود ، دار دمشق ، دمشق وبيروت ١٩٨١ .
- ٦٦- فؤاد بن حالة ، الحرب الإذاعية ، ترجمة انشراح الشال ، دار نهر النيل ، القاهرة ١٩٨٨ .
- ٦٧- د. فؤاد زكريا ، خطاب إلى العقل العربي ، كتاب العربي، الكويت ١٩٨٧ .
- ٦٨- د. فؤاد زكريا ، العرب والنموذج الأمريكي ، دار الفكر المعاصر ، القاهرة ١٩٨٢ .
- ٦٩- د. فؤاد زكريا ، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .

- ٧٠- د. كرم شلبي ، الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٩١.
- ٧١- مالك بن نبي ، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ١٩٦٠ .
- ٧٢- مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨١ .
- ٧٣- محسن عبد الحميد ، المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري ، ط ١ ، كتاب الأمة ، الدوحة ١٩٨٤ .
- ٧٤- محمد أبو القاسم حاج محمد ، العالمية الإسلامية الثانية ، دار المسيرة ، أبو ظبي ١٣٩٩هـ.
- ٧٥- محمد جلال كشك ، الغزو الفكري ، ط ٤ ، المختار الإسلامي ، القاهرة ١٩٧٥ .
- ٧٦- محمد جلال كشك ، القومية والغزو الفكري ، ط ٢ ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٠.
- ٧٧- محمد جلال كشك ، الماركسية والغزو الفكري ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٦٥ .
- ٧٨- محمد خير الوادي ، من خفايا وأسرار إذاعة لندن ، دار ابن هاني ، دمشق (بدون تاريخ) .
- ٧٩- محمد سليم قلالة : التغريب في الفكر والسياسة والاقتصاد ، ط ١ ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٨ .
- ٨٠- محمد السماك ، تبعية الإعلام الحر ، ط ١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩١ .
- ٨١- محمد فريد وجدي ، مهمة الإسلام في العالم ، ط ١ ، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف ، القاهرة ١٩٨٩ .
- ٨٢- د. محمد سيد محمد ، الإعلام والتنمية ، ط ٤ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨٨ .
- ٨٣- د. محمد سيد محمد ، المسئولية الإعلامية في الإسلام ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٨٣.
- ٨٤- محمد صالح البدياق ، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ، ط ٢ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٣ .
- ٨٥- محمد علي دهبز ، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ، ج ١ ، ط ١ ، المطبعة التعاونية (بدون مكان النشر) ١٩٦٥ .
- ٨٦- محمدعمارة ، ماذا يعني الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية والإسلامية ، دار ثابت ، القاهرة (بدون تاريخ).
- ٨٧- محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة الغربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٢ .
- ٨٨- محمد محمد حسين ، في فكر الهدامين ، الناشر الشيخ عبد المهيم أبو السمح (بدون تاريخ).
- ٨٩- محمد محمد الصواف ، المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٩٠- محمود حمدي زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط ٢ ، كتاب الأمة ، قطر ١٩٨٣ .
- ٩١- د. محمود السمرة ، مراجعات حول العروبة والإسلام وأوربا ، سلسلة كتاب العربي رقم ٤ ، الكويت ١٩٨٤.
- ٩٢- محمود محمد شاكر ، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، كتاب الهلال العدد ٤٤٢ ، أكتوبر ١٩٧٨ .
- ٩٣- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام ، الغزو الإسرائيلي للبنان : اتجاهات الصحافة الإسرائيلية . مختارات من المقالات ودراسة تحليلية ، إشراف د. علي الدين هلال ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ١٩٨٤ .
- ٩٤- منير شفيق ، الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر ، ط ٢ ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ١٩٨٧ .
- ٩٥- مها معتوق ، وقائع الحرب الاسرائيلية الفلسطينية في لبنان ، مؤسسة مطابع المعتوق ، بيروت ١٩٨٣ .
- ٩٦- نديم البيطار ، حدود الهوية القومية : نقد عام ، دار الوحدة ، بيروت ١٩٨٢ .
- ٩٧- هريث أشيللر ، المتلاعبون بالعقول ، ترجمة عبد السلام رضوان ، سلسلة عالم المعرفة، رقم ١٠٦ ، الكويت ١٩٨٦ .

٩٨- هنري لا بورت ، المجتمع الإعلامي ، ترجمة حسن قصاص ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية ، دمشق ١٩٨٠ .

٩٩- يوسف العظم، رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر، ط١، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة ١٩٨٠ .
١٠٠- اليونسكو ، الثقافة والاتصال ، مركز مطبوعات اليونسكو ، القاهرة ١٩٨٣ .

ثانيا : بحوث ومحاضرات ومحاضر اجتماعات ومقالات

(أ) بحوث ومحاضرات ومحاضر اجتماعات :

- ١- مجموعة بحوث اليونسكو حول مشكلات الإعلام عام ١٩٧٧ الصادرة بعنوان أصوات متعددة وعالم واحد : الاتصال والمجتمع اليوم وغدا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٨١ .
- ٢- ندوة آفاق العمل العربي المشترك في المجال الثقافي ، شتون عربية ١٩٨٣ .
- ٣- ندوة التبعية الثقافية ، التربية المعاصرة ١٩٨٤ .
- ٤- ندوة التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، المستقبل العربي ١٩٨٥ العدد ٦٩ .
- ٥- مجموعة بحوث ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر بالجزائر عن الغزو الثقافي ١٩٨٥ .
- ٦- مجموعة بحوث وندوات المحطة الشاملة للثقافة العربية الصادرة عن المنظمة العربية للثقافة والعلوم ١٩٨٦ .
- ٧- سلسلة بحوث مصر بين التبعية والاختيار الاشتراكي ، كتاب قضايا فكرية ، الكتاب الثاني، يناير ١٩٨٦ .
- ٨- مجموعة بحوث وقائع ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي في الفترة من ٢١ - ٢٣ أبريل ١٩٨٥ مسقط - سلطنة عمان ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ١٩٨٧ .
- ٩- مجموعة بحوث ندوة وسائل الإعلام والهوية الثقافية في العالم العربي، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ١٩٨٩ .
- ١٠- مجموعة بحوث ندوة مواقف الإسلام والحداثة ، ط١ ، دار الساقى ، لندن ١٩٩٠ .
- ١١- مجموعة بحوث ندوة الثقافة العربية بعنوان « الواقع وآفاق المستقبل » ١٢ - ١٥ أبريل ١٩٩٣ ، كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، جامعة قطر ، الدوحة .
- ١٢- ندوة العرب أمام الغزو الثقافي ، الوحدة ، العدد الثالث .
- ١٣- الوثيقة الفكرية الختامية لمؤتمر الغزو الثقافي بتونس ، الوحدة ، العدد الثالث .

(ب) المقالات :

- ١- د. أحمد صدقي الدجاني ، الفكر العربي والتغيير في المجتمع العربي ، مجلة المستقبل العربي، العدد ٦٩ .
- ٢- د. أحمد فؤاد أبو زيد ، أسطورة الغزو الثقافي ، مجلة الهلال ، مارس ١٩٨٨ .
- ٣- د. أحمد كمال أبو المجد ، المسألة السياسية : وصل التراث بالعصر والنظام السياسي للدولة، المستقبل العربي العدد ٧١ .
- ٤- د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم ، الغزو الثقافي : هل هو شبح أو حقيقة ؟ جريدة الأهرام في ١٣ - ١٢ -

- ٥- أحمد عبد المعطي حجازي ، هذه الحملة المسعورة ، جريدة الأهرام في ١٣ / ١١ / ١٩٩١ .
- ٦- اسماعيل سرور شلش ، السياسات العلمية في الوطن العربي ، قضايا عربية ، فبراير ١٩٨١ العدد الثاني .
- ٧- الياس مرقص ، ندوة « الوحدة » حول حوار الحضارات ، الوحدة العدد الخامس ص٦٦ .
- ٨- أنطوان فيرجوت ، الدين والذنب في أوروبا الغربية : اتجاهاتهما ومستقبلهما بالنسبة للحوار الثقافي مع العالم العربي ، شئون عربية ، يونيو ١٩٨٣ العدد ٢٨ .
- ٩- أنطوان المقدسي ، الصورة العربية للحضارة الغربية والاستجابة لها ، شئون عربية ، يونيو ١٩٨٣ ، العدد ٢٨ .
- ١٠- أنطوان المقدسي ، التحديث والتغريب في مواجهة الغزو الثقافي ، مجلة الوحدة ، العدد الثالث .
- ١١- د. باسل البستاني ، حوار الشمال والجنوب وانسياب التكنولوجيا من الدول الصناعية إلى الدول النامية ، المستقبل العربي ، العدد ٧٥ .
- ١٢- د. برهان غليون ، الثقافة العربية بين التبعية والتبادل ، جريدة الخليج في ٢٠ / ١٢ / ١٩٨٩ .
- ١٣- د. تركي صالح ، أضواء علي سياسة تعريب التعليم والإدارة والمحيط الاجتماعي في الجزائر : ١- الحركة من أجل التعريب ، المستقبل العربي العدد ٥٧ .
- ١٤- جمال الغيطاني ، الواقع الأدبي بين الحقيقة والزيف ، أدب ونقد فبراير ١٩٨٤ العدد (٢) .
- ١٥- جمعة الفخراي ، المشروع الحضاري العربي الجديد ، مجلة الوحدة العدد (٦) .
- ١٦- جميل طراد ، الغزو الثقافي الأمريكي لأوروبا والعالم الثالث ، الوحدة ، العدد (٣) .
- ١٧- د. جوتنر ديل ، مكانة وأهمية حضارة أوروبا الغربية في عالم اليوم ، شئون عربية ، العدد ٢٨ .
- ١٨- حافظ الجمالي ، موقف المثقف من إشكالية النهضة ، الوحدة ، العدد (١٠) .
- ١٩- حافظ الجمالي ، الوجود العربي بين مصيرين ، الوحدة ، العدد (٥) .
- ٢٠- حافظ الجمالي ، حوار الحضارات بين الواقع ، والأمل ، الوحدة ، العدد (٤) .
- ٢١- د. حسام الخطيب ، الجديد في الحوار الثقافي بين الشرق والغرب ، العربي ، أغسطس ١٩٨٥ .
- ٢٢- د. حسن فتح الباب والسيد خميس ، الواقع الثقافي في مصر : الغزو والمقاومة ، قضايا عربية العدد (٢) .
- ٢٣- خلدون حسن النقيب ، العقلية التآمرية عند العرب ، مجلة العلوم الاجتماعية شتاء ١٩٨٤ .
- ٢٤- رئيس حسين ، الهجرة من المغرب العربي إلى فرنسا : ماضيها وحاضرها ، المستقبل العربي ، العدد ٥١ .
- ٢٥- د. زكي نجيب محمود ، إحياء التراث وكيف أفهمه ، العربي ، ديسمبر ١٩٨٠ .
- ٢٦- د. زكي نجيب محمود ، نريدها صورة واعية ، الأهرام في ١٨ / ٣ / ١٩٨٥ .
- ٢٧- د. زكي نجيب محمود ، هذه الأجهزة وحرية الإنسان ، الأهرام في ٢٧ / ٢ / ١٩٨٤ .
- ٢٨- د. زكي نجيب محمود ، المسلم الجديد ، الأهرام في ١٢ / ١١ / ١٩٨٤ .
- ٢٩- د. زهير حطب ، أوضاع البحث العلمي في ميدان العلوم الإنسانية في الوطن العربي ، قضايا عربية ، فبراير ١٩٨١ ، العدد (٢) .
- ٣٠- سامح كريم ، الثقافة بين الغزو والاستفراء ، الأهرام في ١٤ / ٦ / ١٩٩١ .
- ٣١- سامي خشبة ، قراءة في الخطة الشاملة للثقافة العربية ، الأهرام في ١ ، ٨ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٩ / ١ / ١٩٨٨ وفي ٥ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢٦ / ٢ / ١٩٨٨ .

- ٣٢- سعد الدين ابراهيم ، المسألة الاجتماعية بين التراث وتحديات العصر ، المستقبل العربي ١٩٨٥ العدد ٧١ .
- ٣٣- سعد ليبب : الأمن الثقافي في مجال العمل الإذاعي ، الدراسات الإعلامية في أكتوبر - نوفمبر ١٩٨٧ العدد ٤٩ .
- ٣٤- سليم سحاب ، آثار الغزو الثقافي في الموسيقى العربية ، مجلة البحوث العراقية في ١٤ أبريل ١٩٨٥ ، العدد ١٤ .
- ٣٥- سمر روجي الفيصل ، اليت الـلففزونف والإنسان العربي ، العربي في فبراير ١٩٨٥ .
- ٣٦- السنـدرو بوزانف ، تصـور أوربا الغربفة للـحضارة العربفة ونـجـاوبها معها ، شـئون عربفة ، يونفـو ١٩٨٣ العدد ٢٨ .
- ٣٧- د. سهام محمود العراقي ، أزمة التعليم النظامف فف الدول النامفة وعلاقتها بالانـجـاهات السـفاسفة ، الترففة المعاصرة سبـتمبر ١٩٨٤ ، العدد الثاني .
- ٣٨- د. سـفـد عرب ، من صور الغزو الثقافي ، الأهرام فف ٢٦/٢/١٩٨٥ .
- ٣٩- د. شـفـل بـدران ، البـحـوث الأـجـنبفة وخرافة تطوفـفـر المـجـتمع المـصرف ، الترففة المعاصرة ، سبـتمبر ١٩٨٤ ، العدد الثاني .
- ٤٠- د. شـفـل بـدران ، الترففة والتعبفة فف مصر : دراسة فف التعليم الأـجـنبف ، الترففة المعاصرة مافـو ١٩٨٥ ، العدد الثالث .
- ٤١- شـعـادة الحورف ، الترففة والرقف الحضارف ، المـجـلة العربفة للثقافة .
- ٤٢- شـفـفـق الحـوت ، « الماففا » الثقافية ، الشرق الأوسط فف ١٧/١١/١٩٨٥ .
- ٤٣- صـلاح الـفـفـن حـافـظ ، التـحرر الإـعلامف والذاتفة الشـفاففة ، الـدراسات الإـعلامفة أـكـتـوفـر - نـوفـمـبر ١٩٨٧ العدد ٤٩ .
- ٤٤- صـلاح ذهنف ، حرب السـفـنما والففـفـفـو والمواقف العربفة ، العربي ففـرفـر ١٩٨٥ .
- ٤٥- طـارق البـشـرف ، المسألة القانونفة بفـن الشـرفعة الإسلامفة والقانون الوضـعف ، المـسـتـقبـل العربف ١٩٨٥ العدد ٧١ .
- ٤٦- عبـد البـاسـط عبـد المعطف ، التـعلفـم وتزفـفـف الوـعفـف الإـجـتماعف : دراسة فف اسـتـطـلاع مضمون بعض المقررات الـدراسفة ، مـجـلة العلوم الإـجـتماعفة شـتا ١٩٨٤ العدد الرابع .
- ٤٧- الطاهر أحمد مكف ، الاستعمار والتخرفب الثقافي ، أدب ونقد ، ففـرفـر ١٩٨٤ ، العدد الثاني .
- ٤٨- عبـد الحـكفـم أـجـهر ، المـثقف العربف وسلطة الثقافة الأورفة ، الوحدة العدد ١٤ .
- ٤٩- عبـد الرافـق البـصـفر ، تعرفب التـعلفـم فف الـجامعات ، العربف أـغـسـطـس ١٩٨٥ .
- ٥٠- عبـد العظفـم أنفـس ، غفـن فـتـحـة غا ، الأهالف فف ٢٦/١٢/١٩٨٤ .
- ٥١- عبـد الفـتـاح كلفـطـو ، اللغة والهوفة ، ترففة عبـد السلام بن عبـد العالف ، الوحدة العدد الخامس .
- ٥٢- د. عبـد الكرفـم الـفـافف ، الـفـفـن والإـحـفـاف الروفف فف الوطن العربف الـفـوم : دلالتهما فف الحـوار الثقافي مع أوربا الغربفة ، شـئون عربفة ، يونفـو ١٩٨٣ العدد ٢٨ .
- ٥٣- د. عبـد الله عبـد النافـم ، المسألة الثقافية بفـن الأصالة والمعاصرة ، المـسـتـقبـل العربف ، العدد ٧١ .
- ٥٤- د. عبـد المـفـفـد مـزفـان ، مـفـهوم الأمن الثقافي بفـن الواقع والتصور ، المـجـلة العربفة للثقافة .

- ٥٥- د. عبد المنعم سعيد ، الحوار العربي الأوربي : علاقة قوة أم اعتماد متبادل ، المستقبل العربي العدد ٥١ .
- ٥٦- د. علي الراعي ، الإنتاج الثقافي العربي المعاصر وعلاقته بالمجتمع ، المجلة العربية للثقافة .
- ٥٧- عون الشريف قاسم ، مقاومة الانهزام الثقافي أولا ، العربي أغسطس ١٩٨٥ .
- ٥٨- فاروق عبد العزيز ، التلفزيون : قوة توجهنا أو نوجهها ، العربي ، أغسطس ١٩٨٥ .
- ٥٩- د. فايز بكداش ، نظرة علي المسألة الثقافية في العالم الثالث : كيف نجعل من الثقافة قوة تحرر ، أدب ونقد ، أكتوبر ١٩٨٥ العدد ١٦ .
- ٦٠- د. فهمي جدعان ، إبداع التراث ، العربي ، أغسطس ١٩٨٥ .
- ٦١- فهمي هويدي ، تفكيك الأمة ، الأهرام في ١٥/١٠/١٩٩١ .
- ٦٢- د. فيصل دراج ، الثقافة الوطنية والثقافة التابعة ، المواجهة ، سبتمبر ١٩٨٥ العدد الخامس.
- ٦٣- قسطنطين زريق ، النهج العصري : محتواه وهويته .. إيجابياته وسلبياته ، المستقبل العربي، العدد ٦٩ .
- ٦٤- قيس خزعلي جواد ، حوار الثقافات ، الوحدة العدد الرابع .
- ٦٥- د. كمال نجيب ، التبعية والتربية في العالم الثالث ، التربية المعاصرة ، سبتمبر ١٩٨٤ العدد الثاني .
- ٦٦- د. كمال نجيب ، دور العلم في استراتيجيات الولايات المتحدة للتوسعية ، المواجهة ، سبتمبر ١٩٨٥ العدد الخامس .
- ٦٧- د. لويزلياء الفاروقي ، الغزو الثقافي في مجال الفنون ، ترجمة د. محمد رفقي عيسى، المسلم المعاصر سبتمبر ١٩٨٥ العدد ٤٥ .
- ٦٨- د. محمد الرميحي ، اليابان : مائة عام من النهضة ، العربي ، فبراير ١٩٨٥ .
- ٦٩- د. محمد السيد سعيد ، حول مقولة الغزو الفكري ، الأهرام في ٢١/٨/١٩٨٤ .
- ٧٠- د. محمد عابد الجابري، المثقف العربي وإشكالية النهضة ، الوحدة العدد العاشر .
- ٧١- د. محمد عابد الجابري، إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر ، المستقبل العربي العدد ٦٩ .
- ٧٢- د. محمد عابد الجابري ، المشروع الحضاري العربي بين فلسفة التاريخ وعلم المستقبلات، الوحدة ، العدد السادس .
- ٧٣- محمد عزيز الجبالي ، الحضارة الإنسانية وحضارة التصنيع ، الوحدة ، العدد ٤ .
- ٧٤- د. محمد عمارة ، العلمانية ومصر الإسلامية ، الأهرام في ١٨/٣/١٩٨٥ .
- ٧٥- د. محمد عمارة ، حول الموروث والوافتد ، المستقبل العربي ، العدد ٦٤ .
- ٧٦- محمد نور الدين آقاية ، في الهوية والاختلاف : معان وحدود ، الوحدة ، العدد السادس.
- ٧٧- محمد المهدي سعودي ، المؤسسة التربوية ومستقبل الثقافة في الوطن العربي ، الوحدة العدد ١٤ .
- ٧٨- د. محيي الدين الحضري ، الوطن العربي بين تحديات الحاضر وآفاق المستقبل ، الوحدة العدد السادس .
- ٧٩- د. محيي الدين صابر ، الأمن الثقافي : مفهومه ومقوماته ومتطلباته ووسائله ، المجلة العربية للثقافة .
- ٨٠- د. محيي الدين صابر ، الحضارة العربية بوصفها حضارة عالمية ، شئون عربية ، يونيو ١٩٨٣ ، العدد ٢٨ .
- ٨١- محيي الدين صبحي ، جدلية الذات والمصير في جذور وامتدادات ندوة تونس حول الغزو الثقافي ، الوحدة ، العدد الثالث .

- ٨٢- د. مديحة السفطي ، التعليم الأجنبي في البلاد العربية ، شئون عربية ، ديسمبر ١٩٨٢ العدد ٢٢ .
- ٨٣- مشهور مصطفى ، مشكلات الهوية والتشاقف في علاقة الطالب العربي بالمجتمع الغربي ، الوحدة ، العدد الخامس .
- ٨٤- مصطفى خضر ، مشروع الوعي العربي، الوحدة ، العدد العاشر .
- ٨٥- د. مصطفى محمود ، صحبة في واد ، الأهرام في ٣٠/١١/١٩٩١ .
- ٨٦- د. نادية حسن سالم ، التنشئة السياسية للطفل العربي، المستقبل العربي العدد ٥١ .
- ٨٧- د. نادية رمسيس ، النظرية الغربية والتنمية العربية ، المستقبل العربي ، العدد ٦٤ .
- ٨٨- د. نواف عدوان ، الإعلام العربي ودوره في التصدي للمخططات المعادية لقضايانا القومية ، شئون عربية ، سبتمبر ١٩٨٤ ، العدد ٣٩ .
- ٨٩- ياسوموزا كورودا ، التحديث والاعتراق في اليابان ، المستقبل العربي ، العدد ٧٦ .
- ٩٠- يحيى خلف ، الثقافة في مواجهة الاحتلال ، الوحدة ، العدد الثالث .

ثالثا : دوريات عربية

١- شئون عربية .

٢- العروة الوثقى .

٣- المسلم المعاصر .

رابعا : الوثائق

١- منشور الحملة الفرنسية الذي تم توزيعه علي المصريين عام ١٧٩٨ .

٢- المنشور الذي وزعته الحملة الفرنسية علي الجزائر عام ١٨٣٢ .

٣- المنشورات التي ألقتها الطائرات الإسرائيلية علي بيروت وجنوب لبنان عام ١٩٨٢ .

خامسا : كتب وبحوث إفرنجية

- 1- Alex S. Edelstein and others, Communication and Culture (A Comparative Approach) , Longman , New york, London ١٩٨٩
- 2- Denise Winn, The Manipulated Mind : Brainwashing, Conditioning and Indoctrination, The Octagon Press , London ١٩٨٣
- 3- Gabriel Esquer, Iconographie Historique D'Algerie, Libraire Plom (11) , Paris, MGMxxix, 1929 (Collection du Centenaire de L'Algerie)
- 4- Garth Jowett, Propaganda and Communication : The Re-emergence of a research Tradition, Journal of Communication vol. 37 No ١
- 5- Henri Gobard , La Guerre Culturelle : logique du désastre., Copernic , Paris ١٩٧٩
- 6- James B. Lemert, Does Mass Communication change Public Opinion After All ? ١٩٨١ Chicago . Nelson Hall
- 7- Klaus krippendorff , content Analysis : An Introduction to its Methodology ١٩٨١ , second edition, sage publication, London
- 8- Larsy E. Smith , English for cross culture communication , Macmilan ١٩٨٥
- 9- L. John Martin , Disinformation as a form of propaganda : An Instrument in the propaganda Arsenal , political communication and persuasion . Vol 2 . No. ١

- 10- L. John Martin, International political Disinformation in Africa. African
. ٢ communication Review, vol 1 &
, 11- Martin J. Medhurst and others, communication and the culture of technology
. ١٩٩٠ W S U press, washington
- 12- Murray Dyer, The weapon on the wall , Baltimore MD : Johns Hopkins press
. ١٩٥٩
١٩٨٠ , 13- Norman Daniel , Islam And the west , Edinburgh, Britain
, 14- Ole R. Holsti, Content Analysis for the social Sciences and Humanities
. ١٩٦٩ , Addison wesley Publishing company
- 15- Rogger Morris, Beirut - and The press - under Siege , Columbia Journalism
. ١٩٨٢ Review , Nov. Dec.
- 16- Shearon Lowery and Melvin Defleur, Milestones in Mass Communication
. ١٩٨٦ , Research , Longman , New york
- 17- United states , Department of the Army The Art and science of Psychological
operations : Case studies of Military Application . (Panphlet No . 525 - 7 - 1 &
. 525 - 7 - 2) . Washington , D. c : Headquarters, Department of the army
. ١٩٨٥ 18- Wilson P. Dizard , The Coming Information Age, Longman New york
- 19- Werner J. Severin and others, communication Theories : Origins, Methods,
. ١٩٧٩ Uses, Hasting House , Newyork
. ١٩٨٢ 20- Yves Eudes, La Conquête des Espris - Paris

كتب للمؤلف

في الدراسات الإعلامية :

- * الإعلام والتنمية - الطبعة الرابعة - دار الفكر العربي - ١٩٨٨ .
- * صناعة الكتاب ونشره - الطبعة الثالثة - دار المعارف - ١٩٨٣ .
- * الإعلام واللغة - عالم الكتب - القاهرة - ١٩٨٤ .
- * المؤسسة الصحفية - الطبعة الثانية - مكتبة الخانجي - ١٩٨٤ .
- * المسئولية الإعلامية في الإسلام - الطبعة الأولى - مكتبة الخانجي ودار الرفاعي بالرياض - ١٩٨٣ . الطبعة الثانية - الجزائر المؤسسة الوطنية للنشر ١٩٨٦ .

في الدراسات الأدبية :

- * الزيات والرسالة - دار الرفاعي بالرياض - ١٩٨٢ .
- * هيكل والسياسة الأسبوعية - دار الرفاعي بالرياض - ١٩٨٢ .
- * الصحافة بين التاريخ والأدب - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٨٥ .

في الشعر :

- * موعود في النجوم (ديوان شعر) - دار « تي » - ١٩٦٧ .
- * سجين الريدة (مسرحية شعرية) دار المأمون للطباعة والنشر ١٩٧٩ .
- * ما ينفع الناس (ديوان شعر) دار المأمون للطباعة والنشر ١٩٨٣ .

في التوجيه :

- * ليوناردو دافينشي . دار الثقافة العربية - الطبعة الثانية - ١٩٨٩ .
- * أغنية المسير (مسرحية) - دار الثقافة العربية - ١٩٨٩ .

رقم الإيداع : ٩٤ - ٥٩٨١

الترقيم الدولي 1 . S . B N

٩٧٧ - ١٠ - ٠٦٨٦ - X